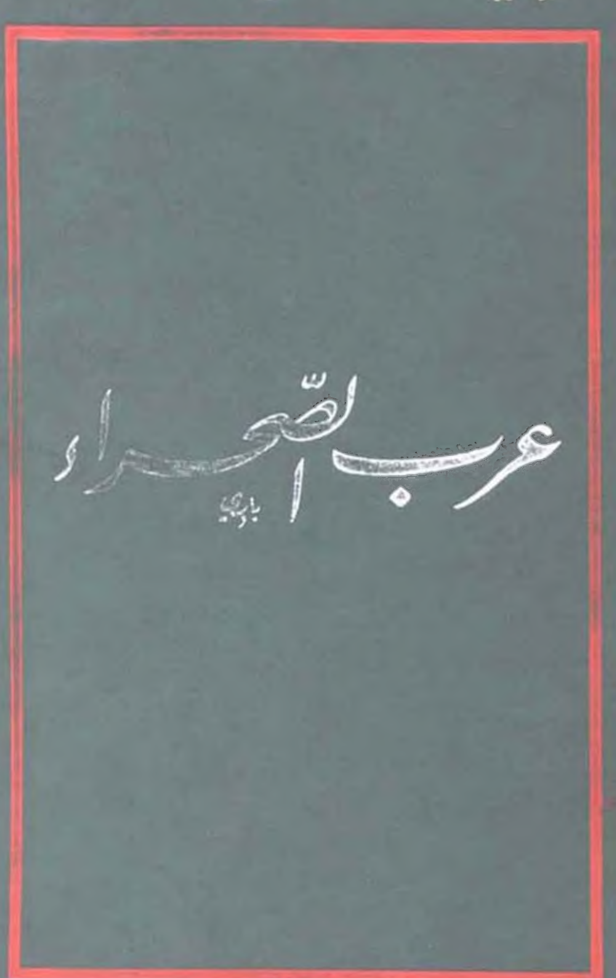
دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

ديكسون

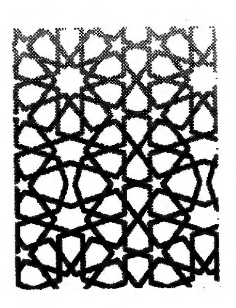


عرب الصحراء



ديكسون

عرب الصحراء



ديكسون

عرب الصحراء



الرقم الاصطلاحي :١٠٩٤,٠١١
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-284-8
الرقم الموضوعي : ٣٩٠، ٨٨٠، ٩٢٠
الموضوع : فنون شعبية ، مذكرات ، تراجم وسير وأنساب
العنوان : عرب الصحراء
التأليف : ديكسون
التنفيذ الطباعي : المطبعة العلمية -دمشق
التجليد الفني : تجليد القصيباتي -دمشق
عدد الصفحات : ٦٠٨ ص
قياس الصفحة : ١٧×٢٥سم
عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة

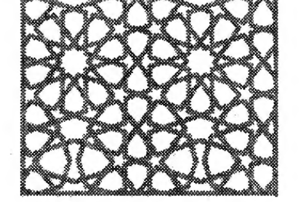
دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب : (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com

الطبعة الثانية (منقحة)

1419هـ = 1998 م

ط1=1996م

عرب الصحراء/ ديكسون . - دمشق : دار الفكر ،
١٩٩٦ . - ٦٠٨ص؛ ٢٥سم .
١- ٧٠٩٥٦/٣٠٧ دي ك ع ٢- ٠٠٩٥٦/٣٩٠ دي ك ع
٣- العنوان ٤- ديكسون
مكتبة الأسد
ع- ١٤٢٣/ ١٠/ ١٩٩٦



هذه الطبعة الجديدة

كانت الدار قد عهدت بمراجعة الكتاب لواحد من أبناء المنطقة التي يتبعها موضوعه، حرصاً منها على ضبط أسماء الأعلام التي قد تشوهها الترجمة المزدوجة من العربية وإليها، فوافاها متزيداً بتعليقات نشرتها في الطبعة الأولى، أثارت انتقادات؛ أهمها ماورد من السيد عبد الله بن دهيمش بن عبار العنزي من الرياض. فآثرنا حذف هذه التعليقات، في هذه الطبعة، بوصفها وجهة نظر خاصة غير متفق عليها، ولاترقى إلى مستوى التحقيق العلمي.

كما وافانا السيد عبد الله بن دهيمش بتصويبات لبعض أسماء القبائل، نفذناها شاكرين له غيرته واهتمامه.

وقد سبق لنا في الطبعة الأولى أن حذفنا الفصل التاسع عشر بأكمله لما فيه من الافتراء على أخلاقنا وعاداتنا.

وهانحن في هذه الطبعة نحذف ما فاتنا حذفه في فصل الأخلاق من دس مسيء لتاريخنا لايستند إلى أي تحقيق علمي.

ولايفوتنا التنويه بأنه بعد نشرنا لهذا الكتاب عام ١٩٩٦ ظهرت ترجمة جديدة له، عمد المترجم إلى إقحام أفكاره وتصوراته فيها، مبتعداً بها عن الأصل، في كثير من المواضع، دون إشارة تقتضيها الأمانة العلمية.

ونستطيع أن نؤكد أننا في طبعتنا الأولى والثانية قد تحرينا الدقة العلمية، والاقتراب من الأصل ماأمكن، وماحذفناه منه، مما رأينا فيه مجافاة للحقيقة والتاريخ، يندرج في إطار الاختصار، دون أي تدخل منا أو إسقاط على النص.

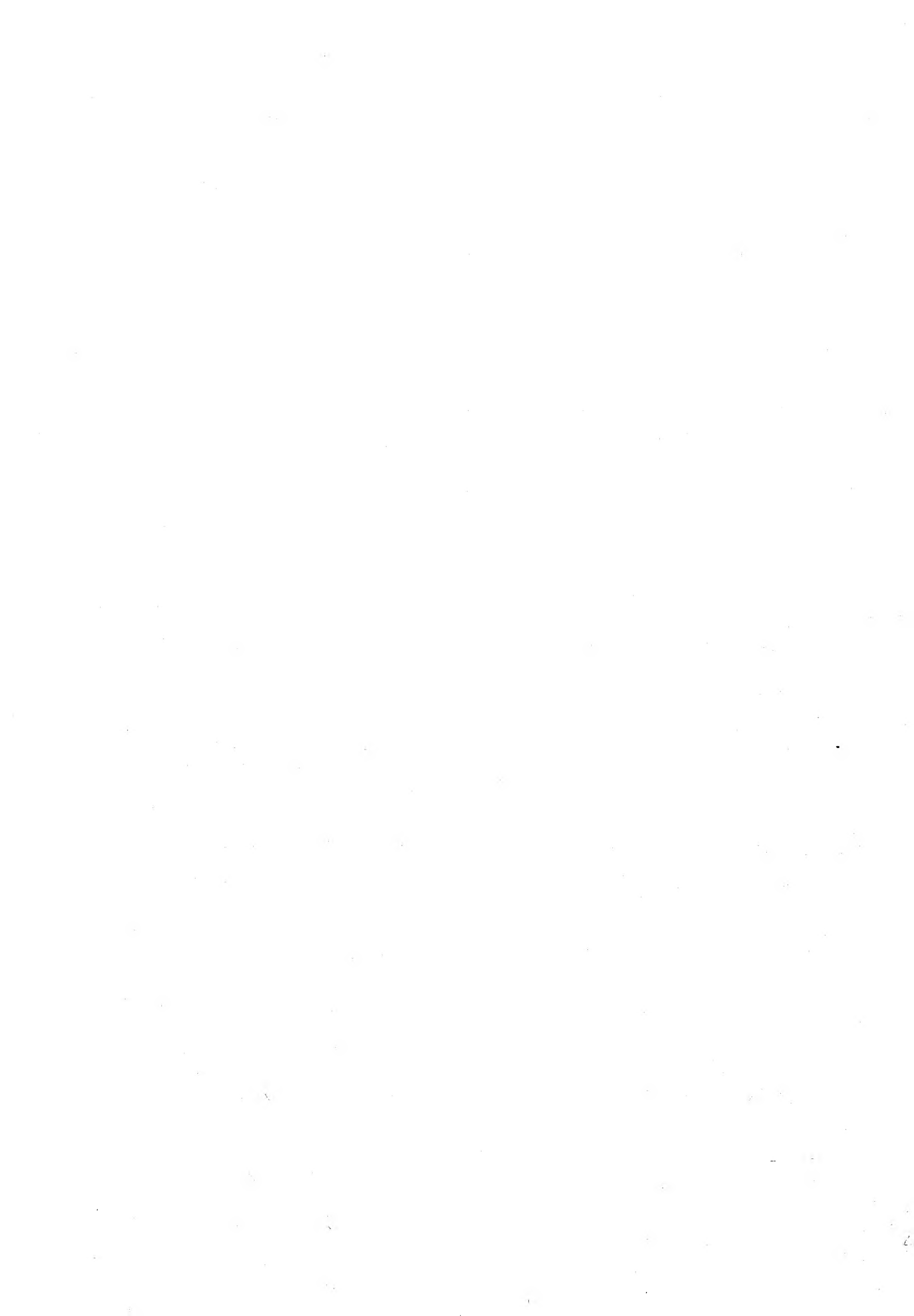
وما نزال ننتظر -ممتنين- ملاحظات قرائنا لمزيد من التصويب والإتقان، والله هو الموفق والمستعان.

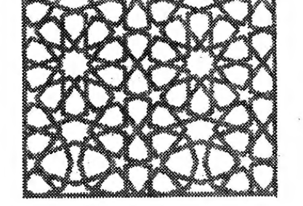
٧/ ١٢/ ١٤١٨هـ

٤/ ٤/ ١٩٩٨م

محمد عدنان سالم

مدير عام دار الفكر





كلمة الناشر

يسر مؤسسة دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر أن تقدم لقرائها الكرام كتاب (عرب الصحراء) من تأليف هـ. ر. ب ديكسون. وفي هذا الكتاب يقدم لنا المؤلف وصفاً حياً وكاملاً لحياة البدو في شمال وشرق شبه الجزيرة العربية، فقد أقام وعمل في المنطقة قرابة ربع قرن، وعاش مع البدو في خيامهم فقدم لنا هذا الوصف الذي ينم عن شدة تتبعه وتدقيقه، وذلك بأسلوب سهل وواضح ميسّر ومثير وشيق، حتى ليجد القارئ نفسه وقد اندمج في حياة البدو وعاش معهم في حلّهم وترحالهم، بخيامهم وبين مواشيهم، وفي رحلات صيدهم وغزواتهم، يتناول معهم الطعام ويشرب القهوة، ويتحمل في الصيف القائظ الحرارة الشديدة والعواصف الرملية والجوع والعطش، وينتشر معهم في الربيع بمراعيهم مع أغنامهم وإبلهم، وقد اخضرت الأرض وتناثرت برك المياه، لم يترك ناحية من حياتهم ومشاكلهم إلا وعالجها، فقد عرف عاداتهم وتقاليدهم وأفكارهم حق المعرفة، وتمثلها بجدية، فكان المؤلف والناقد والمتحري عن أدق وأصغر الأشياء في حياتهم، وهو يقدم الوصف لحياتهم اليومية في جميع فصول السنة بحركتهم الدائبة اليومية من أذان الفجر حتى المساء، سواء في أفراحهم أو أتراحهم، وينقل لنا عبارات ترحيبهم وأمثلتهم وحكمهم وقصص مغامراتهم وغزواتهم المثيرة، وما يتناقلونه من قصص وحكايا، قارناً وصفه دائماً بالمصورات والأشكال الموضحة لأدواتهم كافة.

على أن هذا لم يمنع ديكسون من الانزلاق في العديد من الأخطاء، فهو في بعض أنسابهم ينقل أقوال العامة منهم ويثبتها على أنها حقائق.

وكثيراً ما يكيل المديح ويتظاهر بالصداقة والمحبة والإعجاب بشخصيات بارزة من حكام وزعماء قبائل، ثم يغمز منهم تصريحاً أو تلميحاً بشكل أو بآخر، وكان لابد في ترجمتنا من حذف كل ما من شأنه الإساءة إلى هؤلاء الأشخاص، لا سيما وأن معظمهم قد وافته المنية.

ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل إن ديكسون ـ وهو ضابط الأمن السياسي، أي المسؤول عن المصالح البريطانية في المنطقة ـ لم يستطع التخلي عن أفكاره الاستعمارية التي يعبر عنها صراحة حيناً، ويدسها أحياناً في روايات بعض الأشخاص محرفاً أقوالهم.

وفي أبحاث أخرى يستغرق بالدس والافتراء على العادات والأخلاق والمعتقدات الدينية وحتى الأماكن المقدسة، ويقع في تناقض مريع في وصفه، مما اضطرنا إلى حذف الكثير من العبارات أو الفقرات والفصول. (تم حذف الفصل التاسع عشر بكامله وموضوعه البغاء).

لذلك فإننا ندعو القارئ إلى الحيطة والحذر، في قراءته لهذا الكتاب، وأن لا يأخذ كل ماورد فيه بالقبول، على أنه حقائق ومسلمات لا شية فيها، بل عليه أن يُخضعها للدرس والتحليل، وينظر إليها بعين الناقد البصير، فالمؤلف ضابط أمن بريطاني، ينطلق في آرائه من منظور المصالح الاستعمارية لبلاده في المنطقة، وما كتبه يمثل نموذجاً لرأيٍ آخر، يتسم بالموضوعية تارةً، وبالغمز واللمز والتعصب تارة أخرى.

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى أن هذا الكتاب يعتبر وثائقياً في معظم جوانبه، إذ يصف حياة البدو في الثلاثينات، وقد طرأت ـ كما هو معروف ـ في العقود الأخيرة تطورات مذهلة على حياتهم، إذ حلّت السيارة محل الإبل والخيول كوسيلة للنقل، وتسير حكومات المنطقة نحو توطينهم في واحات حديثة تستثمر فيها المياه الجوفية. وبدأ الكثيرون منهم يميل إلى حياة الاستقرار، أو يجمع بين الاستقرار والعمل الزراعي وبين التنقل والعمل الرعوي.

وبدهي أن الدار الناشرة لا تتبنى وجهات نظر المؤلف، بل تكلها إلى وعي القارئ، وترجو الله تعالى أن تكون قد وفقت في ترجمة وعرض وتهذيب النصوص.

والله ولي التوفيق.

مقدمة

إن لمحة موجزة عن سيرتي الذاتية ستوضح كيف توصلت لكتابة هذا الكتاب.
ولدت في بيروت سورية عام ١٨٨١ . أُخذت إلى دمشق عندما كنت طفلاً رضيعاً لأن حليب أمي جف في وقت مبكر. وقد شاءت الصدف أن يوجد آنذاك في دمشق الشيخ (مجْوَل) وهو شيخ (المِسْرِب) أحد بطون العشيرة المعروفة (السْبَعَة) المنحدرة من قبيلة (عْنِزَة) الكبيرة، إذ مد يد العون بشهامة، وتطوع لتأمين مرضعة (أمٌّ بالرضاع) لي من نساء قبيلته. وقد تم ذلك ورضعت حسب رغبة أمي لعدة أسابيع، وهذا ما منحني في نظر البدو ما يدعونه (صلة الدم) مع عشيرة العنِزَة ذلك أن من يشرب حليب امرأة في الصحراء تصبح أماً له بالرضاع. تلك الحقيقة كانت عوناً لي في التعامل مع البدو في الصحراء الشاسعة والمحيطة بالكويت.

كان الشيخ (مجول المِسْرِب) كما سيذكره قرائي دون شك، شيخ قبيلة صحراوية، وقد تزوج من السيدة ديغباي (Lady Digby) بالاضافة للسيدة إلينبورو (Lady Ellenborough) لمدة من الزمن في أواخر الستينات [أي بين ١٨٦٠ - ١٨٦٩] ووفر لها مسكناً في دمشق تقضي فيه أشهر الصيف دائماً. وبعد وفاتها عام ١٨٨١، استأجر والدي ذلك المسكن في دمشق حيث قضيت فيه طفولتي متجولاً في حدائقه الجميلة التي كانت يوماً مبعث فخر وسعادة السيدة ديغباي. ولا بد أن الشيخ (جعفان) أو (يعفان) كما كانوا يسمونه، وهو الابن الراشد للشيخ مجْوَل، يذكر أنه أركبني الجمل لأول مرة وأنا في سن مبكرة.

أما والدي فكان آنذاك القنصل البريطاني في دمشق.

الكويت ٢٦ أيلول ١٩٣٦



تمهيد

بدأت في جمع مواد هذا الكتاب في عام ١٩٢٩ عندما أتيت للمرة الأولى إلى الكويت. ثم تابعت العمل هذا حتى منتصف صيف عام ١٩٣٦ حين سجلت آخر ملاحظاتي. وإنني على يقين أن أسماء الأماكن والأشخاص في بعض الحالات لم يكتب لفظها طبقاً للواقع العملي، لذا فإني أخشى والحالة هذه أن أجعل نفسي عرضة للنقد، ولكن عذري أني كنت متشوقاً للفظ الأسماء ذات الرنة الغريبة كما تلفظ محلياً دون إخضاعها للقواعد القاسية. كما أني لن أقدم الأعذار عن أسلوبي في الكتابة، فقد لمست خلال مجرى حياتي مواطن ضعفي ككاتب. وأذكر أن رئيسي السابق في العراق السيد أرنولد ويلسون (Arnold Wilson) لفت انتباهي إلى ذلك مرة قائلاً: «أنت ضابط سياسي جيد، ولكنك لا تستطيع أن تكتب. . .».وهكذا فإن قرائي الآن يعرفون نقطة ضعفي.

لقد بذلت قصارى جهدي لأنقل ببساطة لأولئك المهتمين بالجزيرة العربية بعض المعرفة التي اكتسبتها خلال إقامتي الطويلة بين البدو، وبشكل خاص عرب المدينة في الكويت. وأعتقد أن بعض هذه المعارف ستكون جديدة، ومن الخسارة بمكان أن لا تدون، لاسيما ما يتعلق منها بالصفات البدوية الساحرة، وغير القابلة للتشويه، التي يتمتع بها بدو شرق الجزيرة العربية. وسأشعر بأني كوفئت بأكثر مما استحق، إذا وجد أولئك الذين قد يقودهم عملهم إلى الجزيرة العربية سواء في خدمة الدولة أو بسبب التجارة، إذا وجدوا في كتابي هذا بعض العزاء والمتعة. ولكني أكون قد كوفئت مرتين إذا نجحت في إثارة الاهتمام بواحد من أكثر الشعوب لطفاً ومبعث افتخار، إنه عرب الصحراء.

وفي الختام، هل لي أن أناشد أولئك الكتّاب البارزين الذين كتبوا حول الجزيرة العربية أمثال: ج. فيلبي، بيرترام توماس، بول هاريسون، وآخرين غيرهم ممن يقرؤون هذه السطور أن يتلطفوا بنقدهم.

الكويت ٢٦ أيلول ١٩٣٦

هـ. ر. ب. ديكسون

اعترافات

تم إعداد الخرائط في نهاية الكتاب بالرجوع إلى أعداد كبيرة من الخرائط منها (هـ ٣٨ بصرة، هـ ٣٨ بوشير، ج ٣٨ الرياض، ج ٣٨ الهفوف) وذلك بعد الحصول على إذن بذلك من المكتب الحربي. وعلي أن أشكر المشرف المسؤول في مكتبة صاحبة الجلالة لتفضله بالسماح لي بإعادة طبع الخرائط في شكلها الحالي.

كما أدين بالامتنان العميق لكل من زوجتي وابنتي زهرة، لتعاونهما معي منذ البداية، وتقديمهما النصح والمساعدات القيمة لي، إن في مجال الاتصال بالنساء العربيات والأطفال للتعرف على جانب الحياة العائلية في الخيمة البدوية، أو في الحصول على عينات من الأزهار البرية، وجمع الحشرات والسحالي والأفاعي وما إلى ذلك من حياة الصحراء. كما أني أرغب بتسجيل تقديري البالغ للعمل القيم الذي قامت به زوجتي حول الأزهار البرية في الكويت ومواطنها، وكذلك للمجموعة الممتازة التي جمعتها ابنتي من الجراد العربي، فقد أثار هذان العملان اهتمام كل من السيد (أ.ر. هوروود) المسؤول عن حدائق كيو بلندن، والبروفسور (أوفاروف) المسؤول عن متحف التاريخ الطبيعي في جنوب (كينسينغتون). هذا وقد قامت زوجتي برسم أكثر المخططات التوضيحية في الكتاب ونسخت ثلثيه على الرغم من الصعوبات التي واجهتنا كالعواصف الرملية والحرارة اللتين تميزان صيف الخليج (العربي)[1].

لن يفوتني التعبير عن الامتنان للمقدم (ج.ث. مور) الذي حللت محله في

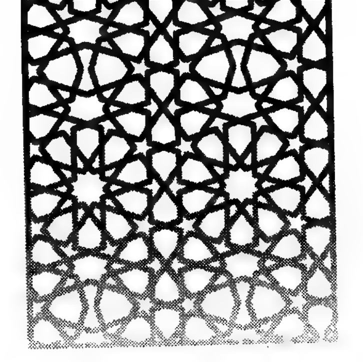
(١) في الأصل: الفارسي.

الكويت للمعلومات القيمة التي خلفها لي فقد كان عالماً بالشؤون العربية.

كما سأغتنم الفرصة لتقديم خالص شكري للسيدة (لوريمر) لقيامها بطبع الكتاب في أصعب الظروف، فمنذ عام ١٩٤١ وما بعد كان العمل المخلص الذي تقوم به السيدة (لوريمر) قد مكن الناشرين والطابعين من زيادة إنتاجهم بالرغم من ازعاجات الحرب القائمة آنذاك في بريطانيا، والتي كان من الممكن أن تؤخر طباعة الكتاب بضع سنين.

وأعبر عن تقديري للترجمة الممتازة لكتابي التي قام بها أصحاب المطابع السادة (أونوين اخوان، والتر بيرد) المسؤولون عن الإنتاج لدى ناشري الكتاب.

أول كانون الثاني ١٩٤٧



الجــزء الأول

الفصل الأول

حياتي في الصحراء

قام كبار العارفين بالشؤون العربية أمثال دوتي (Doughty)، موزيل (Musil)، فيلبي (Philby)، بيرترام توماس (Bertram Thomas) وغيرهم بوصف حياة البدو وصفاً جيداً، حتى أني أشعر بتواضع تجربتي أمامهم. ولكن بسبب اهتمامي بهذا الموضوع أجد في نفسي المقدرة على إضافة القليل مما تجمع لدي عن هذا الشعب الذي قد يكون أكثر الشعوب والأجناس أهلاً للمحبة على وجه الأرض. ولقد كان من حسن حظي أني قضيت سبع سنوات من عمري متنقلاً بين المنتفك (Muntafiq) والخَزَاعل (Khazail) من عرب الفرات، وكذلك سنتين من خدمتي في البحرين والحسا، تلتها سبع سنوات أخرى، وليست أخيرة، قضيتها في الكويت كضابط أمن لصاحبة الجلالة. تعلمت خلال هذه السنين - لا سيما في الكويت - أن أحب وأحترم البدو الذين اكتسبت منهم نفاذ بصيرتهم خلال إقامتي بين خيامهم الخاصة كواحد منهم وتنقلاتي معهم.

لقد أنعم الله علي بزملاء رائعين أحبوا المرأة العربية، بأسلوبها المشرق في الحياة، وشجاعتها المدهشة، وبساطتها وافتخارها بانتمائها، حتى أنها بزت رجال قومها بذلك. وهذا ما مكنني التعرف - عن طريقهم - على أساليب حياة ومعارف واهتمامات بنات الجزيرة العربية حفيدات (هاجر) اللواتي قل منهن من كان لها مثل حظها.

كما أني اكتسبت ثقة العرب بمساعدة عاملين اثنين ساهما في تعميق تقصياتي لجمع المعلومات؛ أولهما كوني رضعت حليب امرأة من عشيرة (عْنزَة فخذ المصرب من قبيلة الرْوَلَه)[1] وهذا ما مكنني من الادعاء بأخوة الرضاع لهم، وثانيهما أنني أتكلم

---

(١) الصحيح أنها من قبيلة السبعة (عبد الله بن دهيمش العبار).

العربية منذ طفولتي. إن البدو أنفسهم سرعان ما عرفوا اهتمامي بهم وحبي لهم فكما يقولون بلسانهم «القلب شهيد» والحقيقة أني كنت أفضل العيش تحت الخيمة السوداء كما يفعلون، وكنت أحتفظ دائماً بواحدة جاهزة في الصحراء، أقيم فيها سنة هنا وأخرى هناك في رعاية أسرة بدوية محترمة، تتنقل مع بقية البدو، مما هيأ لي جواً من الأمان بين بدو الكويت. عندما قدمت إلى الكويت للمرة الأولى في شهر أيار عام ١٩٢٩، اشتريت خيمة بدوية سوداء وسلمتها إلى رجل يدعى (سالم المزين) من قبيلة (مطير) الكويتية والذي كان مع زوجته الشمرية. فقد التقيته في مخيم الشامية بالكويت بعد ظهر أحد الأيام وأوصيته أن ينصبها لي حيث ينصب خيام عائلته ورعاة ماشيته. وهكذا تعلمت باكراً حياة الصحراء وأصبح لي هناك خيمة جاهزة دوماً.

خلال السنوات السبع وفي كل شتاء اعتدت أن أرافق زوجتي وولدي وابنتي لنعيش مع أصدقائنا البدو مدة من الزمن تحددها الظروف والعمل المسند إلي. وغالباً ما كنت أصطحبهم إلى المخيم الذي يبعد من ٤٠ إلى ٥٠ ميلاً وأتركهم هناك لعشرة أيام أو عشرين، أما إقامتي فكانت أقصر أمداً منهم، إلا أننا على وجه العموم كان باستطاعتنا أن نقضي ثلث أشهر الخريف والشتاء والربيع من كل عام تطوافاً مع أصدقائنا العرب. وكان الجزء المفضل لدينا في الكويت هو منطقة (عريفجان) التي تبعد ٤٠ ميلاً إلى الجنوب من مدينة الكويت، ولكن جولاتنا كانت تقودنا أحياناً إلى مناطق مختلفة من دولة الكويت بما فيها المنطقة المحايدة.

كان مخيمنا يتألف من ثلاث خيم لعائلتي يضاف إليها ثلاث أخرى لأصدقائنا البدو فتصبح مجموعتنا مؤلفة من ست خيم تنصب على استقامة واحدة. كنا نخيّم أحياناً مع مضارب الـ (عجمان، العوازم، المطير، أو عرب الدار) وأحياناً كنا نخيم منفردين حسب ما يحلو مزاج (سالم المزين) أو تبعاً لحدوث الهجرات من الجنوب. إلا أننا لم نطلب منه يوماً أن يتوجه بنا للتخييم بمكان معين أو أن ينضم إلى جماعة معينة من البدو. فكنا نتركه يقرر وحده حيث يجد أفضل مكان لرعي مواشيه ومواشينا وخيولنا التي تركناها كلياً في رعايته. كل ما كنا نطلبه منه هو أن ينصب خيامنا قريبة منه حيث يقرر نصب خيامه، كما لم يكن عليه أن يخبرنا متى سيرتحل أو إلى أين فقد كنا نعرف في الكويت أماكن تخييم البدو (عرب البدو أو البدو الغرباء عن الديرة) فقد كانت هذه المعرفة جزءًا من عملي كضابط أمن سياسي. وكان بإمكان أي من رجال القبائل في أي لحظة أن يخبرك بموقع مخيم (أبو سعود أو داكسان)[1].

---

(١) (داكسان) كان الترجمة البدوية لأسمي ولكني غالباً ما كنت ألقب بـ (أبو سعود).

حياتنا في الصحراء كانت جيدة، بل إننا نعتبر المدة الواقعة بين عام ١٩٢٩ وعام ١٩٣٦ من أسعد سني حياتنا التي قضيناها معاً. ففي هذه المخيمات كانت زوجتي وابنتي تلهوان بجمع الأزهار البرية لأجل (حدائق كيو Kew Gardens) في لندن والحشرات لمتحف التاريخ الطبيعي في (كينسينغتون الجنوبية South Kensington Natural Museum)، أما أنا فأقوم بأعمال تخدم مهنتي كالاتصال بالشيوخ في الجوار من العربية السعودية أو العراق لمتابعة الأخبار التي يتناقلها البدو عن العالم العربي. أما في أوقات فراغنا فكنت وزوجتي نخرج لصيد طيور الحبارى أو نركب الجمال للتنزه وغالباً ما كانت نزهاتنا تنتهي بدعوة من أحد جيراننا من شيوخ العجمان أو بعض أقارب شيخ الكويت. وفي بعض الأحيان، إذا كانت المسافة طويلة، كنا نأخذ السيارة ونزور شيوخ قبائل (مطير، شمر، العجمان، والعوازم) الذين كانوا غالباً ما يرتحلون مع ماشيتهم إلى مناطق الكويت المختلفة أو المنطقة المحايدة وإلى الجنوب منها. هذه الأيام السعيدة التي قضيناها تمكنا خلالها من إيجاد الألفة الحقيقية مع شيوخ تلك القبائل العظيمة ونسائهم. إن وصفي لحياة العائلة البدوية اليومية وسقاية المواشي كان يعتمد على التجربة الفعلية والمراقبة عن كثب وقد عززت ملاحظاتي أحياناً بطرح الأسئلة. وكانت أنسب الفرص لطرح مثل هذه الأسئلة هي عند تحلقنا حول نار الخيمة، فعندما تدور القهوة على الحاضرين من رجال ونساء وأطفال في خيمتنا، يتبادل هؤلاء سرد أخبار الغارات والغزوات، وتوقعاتهم عن المطر والمراعي وأمراض الماشية وما إلى ذلك بالإضافة إلى الاجابة على أسئلة حول مئات المواضيع، وكنا نستقبل غرباء أحياناً في سهرتنا فتنسحب النساء والأطفال بحذر، إلا أن الأمسيات السعيدة كانت تلك التي تحدثنا فيها بجو عائلي دون حضور الغرباء أو توقع حضورهم. وفيما يلي أسماء الأشخاص الذين كانت تتألف منهم عائلتي في مخيم (أبو سعود) كما كانوا يسمونه في الصحراء:

- سالم المزين: وهو زعيم عائلتنا (مطيري).
- مزيد الضفيري: بدوي، مساعد سالم، وهو مثال حسن لرجل الصحراء المحارب.
- ضُوَيحْي: (عازمي) رجل عجوز أعمى وإمام المصلين في العائلة.
- حَمُودْ: في الستين من عمره وابن أخ سالم.
- فَلَاح: شقيق ضويحي وراعي إبل (عازمي).
- ناصر: (عازمي) راعي غنم.
- سويلم: (عازمي) راعي إبل.
- عمشة: (شمرية) مضيفتنا زوجة سالم.

- منيرة: أخت سالم.
- حُصَّة: ابنة سالم في الخامسة عشرة من عمرها.
- وضحة: ابنة ضويحي في الرابعة عشرة من عمرها.
- دُغَيْمة: ابنة مزيد (أمها متوفاة).
- ضَحْية: ابنة ضويحي.
- مرزوق: صبي عبد زنجي (توفي عام ١٩٣٣)
- مبروك: صبي عبد زنجي عمره ثلاث سنوات عام (١٩٣٤).
- حويجة: زوجة ضويحي، نادراً ما كانت تُشاهد.
- أولاد ضويحي الثلاثة: فَلَاح، خرمة، وبيبي.

بعض هؤلاء الذين ذكرتهم من يستحق أن أتحدث عنه بتفصيل أكثر مثل:

- **سالم المزين**: نموذج جيد عن البدوي فهو إنسان رقيق قوي البنية من عائلة المزين، نصف حضري من عشيرة المطير. أما أخوه (ابراهيم) فهو زعيم العشيرة وكان[1] في وقت ما الرفيق والمثل الصالح لشيخ الكويت (مُبارك) المعظم، وبطل اثنتي عشرة معركة من المعارك القبلية ومئات الغزوات. وقد ترك خدمة الشيخ الحالي منذ سنوات ثلاث عندما ساءت الأحوال في الكويت وارتحل إلى الرياض حيث نَعِمَ براتب كاف من (ابن سعود).

و(سالم) الذي هو رب البيت الآن في الكويت يتمتع باحترام كل من يعرفه لشهامته وشرفه وخبرته بالأراضي والبقاع بدءاً من الكويت إلى الرياض والهفوف. وهو يقوم دورياً بزيارة (ابن سعود) مرتين كل عام لرؤية شقيقه الأكبر، ويتمتع لذلك بمحبة الملك السعودي كما هو الأمر بالنسبة لشيخ الكويت (ابن الصباح). كما أن له صلة قرابة (بإبراهيم بن جميعة) رئيس حاشية ابن سعود والمكلف برعاية الضيوف البدو في الرياض. ولكون سالم مطيرياً فهو مفيد جداً للعمل في الصحراء حيث تنتقل قبيلة المطير. إنه الإنسان المناسب في المكان المناسب.

- **مزيد الضفيري**: أصله من (الجواسم)، قاسٍ، إلا أنه شريف ومفيد. بقي أرملاً حتى عام ١٩٣٤ حين تزوج امرأة مطيرية على مهر قدره ناقتان ومئة ريال ومازال

---

(١) عائلة المزّين كويتيّون قدماء و(إبراهيم المزين) هو حامل لواء ابن صباح في معركة الصريط أبريل ١٩٠١ الخاسرة، وهو يمارس علاج بعض الأمراض بالكي بالنار. وعائلة المزين هم مؤسسو قرية ابرق خيطان، وهم أول من سكنها وبنى بها قصراً. وعميدهم اليوم ١٩٨٨ الشيخ محمد بن ابراهيم المزين ذو وجاهة ونفوذ وحشمة، وعرف بالكرم والسخاء. والمعروف من عائلة المزين اليوم عدا عميدهم المذكور اخوانه خليل المزين وحجي المزين وكيل وزارة الداخلية المساعد.

حتى الآن يسدد دَيْنَه، وتتبدى قيمته حين يخيم رجال من (ضفير) بجواره، فهو ينشر الأمن حوله ضد الغزوات وأعمال السلب التي قد يقوم بها أفراد قبيلته (الجواسم).

- ضُوَيْحي: المطوع الأعمى الذي كان له تأثير ظاهر في القبيلة، وكمزيد كان مبعث الأمان ضد غزوات (العوازم). وهو الذي يؤم المصلين ويزوج الراغبات في الزواج. إنه عجوز عزيز آخر.

- سُوَيْلِم: محارب عوازمي شاب، صلب كالمسمار، وهو يساعد مزيد فيما يتعلق بالجمال لخبرته الواسعة بها، وتميزه بامكانية تتبع آثارها والعثور على الضال منها، وكذلك معرفة أماكن توضع أعشاش الطيور ونبات الكمأة موضع اهتمام المخيم.

أما من بين النساء، فيَحْسُن أن نبدأ بمفخرتهن (**عمشة أو عطشة**) وقد أعطيناها اسمها (الشمري) زوجة سالم الشمرية ذات العيون الوديعة والطبيعة الحلوة والصوت الرخيم، متأنقة، نظيفة، وجذابة دائماً. بالإضافة لكونها معين لا ينضب من المعلومات عن علم الصحراء وأسماء الأعشاب والأزهار إلى جانب عادات وأسلوب حياة قومها وهم فخذ تومان من (شمر سنجارة). لقد نشأت في (حائل) أو ما حولها وأتت إلى الكويت وهي فتاة في الخامسة عشرة وذلك عام ١٩٢١ (سنة الجهرا). إنها طباخة رائعة ورفيقة حقيقية لزوجها. كان لها سبعة أطفال ماتوا جميعاً في سن الطفولة باستثناء (حصة).

- و (**حصة**): لها من العمر خمسة عشر عاماً أي في سن الزواج. فتاة بدوية جذابة، رقيقة البنية قويتها وهي تساعد أمها في معظم ما تتطلبه الخيمة من عمل، وتنسج الستائر التي تقسم الخيمة إلى أجزاء في أوقات فراغها. كما تذهب يومياً لاقتطاع الحطب برفقة صديقتها الملازمة لها دائماً، وهي (وضحة) ابنة العجوز ضويحي. إن كل السحر في عائلتي وفي المخيم سوف يتبدد لو لحق بعمشة أو حصة أو وضحة أي أذى، فليس بينهن واحدة يبدو عليها التعب، ولو كان يومها كله مشغولاً بعمل أو بآخر. وفي العيد، وبعيداً عن الأنظار في إحدى زوايا الخيمة تقوم الصغيرة (وضحة) ومعها (حصة) بارتداء أحلى ثيابهن ثم يخرجن أمامي وزوجتي وقد أطلقن شعورهن ويرقصن أمامنا بحركات رشيقة برؤوسهن وشعورهن وأجسامهن. فنقضي لحظات من السعادة نادرة. وعلى المرء أن يذكر (منيرة) صانعة اللبن، فمنذ الصباح الباكر (في الثالثة صباحاً) نسمع أصوات (المخض) المصنوع من جلد الماعز (راق-

راق ـ راق) ـ والمعلق إلى منصب ثلاثي الأرجل ـ وهي تهزه جيئة وذهاباً على إيقاع أغنيتها البدوية المخصصة لهذه المناسبة. وكانت إلى جانب ذلك منجمة المخيم. وسنأتي على وصف أسلوبها ومهاراتها في مكان آخر.

الفصل الثاني

نشاطات الخريف

في مطلع شهر تشرين الثاني وفي الثاني منه بالتحديد، طلبت من سالم المزين أن ينقل مخيمه إلى (البَر) استعداداً للحاق به، فقد قضينا أسبوعاً نواجه الرياح الجنوبية المستمرة، وتراكمت الغيوم في الغرب، وبدأ البرق والرعد في المناطق المحيطة. كانت معظم القبائل قد غادرت موارد الماء المنتشرة في المناطق المحيطة بحثاً عن الأراضي المناسبة للرعي فقد أزف موعد المطر. نصبت خيم العائلات بعد نقلها في مجموعات من خيمتين إلى ثلاث متباعدة عن بعضها مسافة تقارب الميل بحيث يمكن سماع طلقة البندقية إذا صدرت عن شخص تعرض لهجوم عليه ليهب الجميع لنجدته. كذلك ارتحل البدو الذين كانوا مخيمين في ضواحي الكويت عند آبار (الشامية والدسمة)، بعضهم اتجه نحو منطقة (كَبْدْ) وبعضهم نحو (عدان)، وبعضهم نحو (الحزيم)، وآخرون إلى منطقة (القرين). أما الفداوية، فقد توجه بهم أميرهم (هيف بن حجرف، من آل سليمان) أحد بطون (العجمان)، وبرفقته (نهار وعبيد المتلقم)[1] من المحاربين القدامى، إلى منطقة (الحماطية) مخلفين وراءهم (المناقيش) و (الشق) على بعد ستين ميلاً من الكويت. وكان اختيارهم للمنطقة ذكياً لأن طيور الحبارى كانت قد وصلت إلى منطقة (دبدبة).

إن فصل الخريف هو مبعث السعادة للبدو، فالمطر قاب قوسين أو أدنى، وهواء الصباح فيه لسعة البرد، وصارت النار مرغوبة ليلاً. وهكذا تعود الحياة للصحراء مرة أخرى بعد مدة طويلة من حرارة الصيف المضجرة، والعواصف الرملية الجافة

---

(١) كان (عبيد المتلقم) أحد الرجال الأربعين الذين ساعدوا (ابن سعود) بالإستيلاء على الرياض، ولكنه لم يكن بين الثلاثة والعشرين الذين اقتحموا (قصر عجلان) في قلب المدينة.

الخانقة، والحاجة للبقاء قرب الماء. بالإضافة إلى أن عدوك يعرف مكانك، وأنه بهجوم مفاجىء قد يأخذ كل إبلك وحتى كل ما تملكه.

صار البدو يحضرون الماء على ظهور الجمال من أقرب الآبار، والتي تبعد حوالي ستين ميلاً، وذلك مرة كل خمسة أو سبعة أيام. فلا الماشية ولا الإنسان يشعر بالعطش في مثل هذه الأيام إذ لم يعد الماء هو الضرورة الملحة في الحياة بعد أن ارتوت الأرض بأول الغيث، وبدأ العشب بالنمو فقلت حاجة الماشية للماء. وإلى أن يحل فصل الربيع ويكتمل نمو العشب الزاخر بالماء، عندئذ يصبح الإنسان وحده صاحب الحاجة للماء.

في هذا الفصل أيضاً يبدأ شيوخ الكويت شأنهم في ذلك شأن بقية حكام الجزيرة العربية بالتوغل عميقاً في الصحراء بحثاً عن الحبارى. فالصيد، ولا سيما بالصقور هو الرياضة المفضلة، والأمير وكل شاب شجاع يفخر بامتلاكه صقراً، (الحر) أو (الشاهين)، فيخرج الجميع يجربون حظهم في الصيد ليعودوا باللحم إلى زوجاتهم يطبخنه. ولكن البعض، ولا سيما (العوازم)، يفضلون صيد الأرانب البرية والغزلان بواسطة الكلاب السلوقية، ذلك أن دخول لحم الغزال إلى البيت يسبب فرحاً عظيماً. أما الصيادون الشباب فيذهبون بعيداً عن خيمهم، وإذا وجدوا أن لحم الغزال قد يفسد لحين عودتهم، فإنهم يلجؤون إلى نشر الطريدة في الهواء الطلق على الأرض كالحصيرة بعد نزع العظام الكبيرة وعظام القفص الصدري. ثم يملّحونها بعد ذلك لتصبح ما يسمونه (جلح)، وهو نوع من اللحم المقدد، شقت فيه شقوق طولانية لتسمح للملح بالنفاذ خلال اللحم وتسهل عملية فصله عن الطريدة في البيت لأكله.

لقد ولى زمن ممارسة الصيد على ظهور الجمال، وصارت السيارة هي الوسيلة الأفضل في هذا المجال. يخرج كبار الصيادين أمثال سمو (الشيخ أحمد)، و(الشيخ علي آل خليفة)، و(الشيخ سليم آل حمود)، يخرجون للصيد مرتين في الأسبوع، ويقضون ليلة على الأقل معسكرين في العراء (الخلاء) دون خيمة أو غطاء. فليس من الرجولة أن يستعمل أحدهم حتى ولا ملجأ صغيراً.

إن الصيادين وحملة الصقور (الخدام) جميعهم من عشيرة الرشايدة. عيونهم كعيون صقورهم، ولهم دراية لا تبارى في معرفة عادات الحبارى، ومن بينهم الرجل التقي اللطيف (نزال) والمشهور في شمال ووسط الجزيرة العربية بمعرفته الدقيقة للأراضي، وكذلك (سعود بن نمران) المرح الذي يملك قلباً كالأسد، و(عدس) ذو

العيون التي تشبه الصقر، و(غريِّب) الذي يشتم رائحة الحبارى من بعيد بالإضافة لكونه مقاتلاً عظيماً في الحروب، و (سعد) مقتفي الأثر، و (مرشد الشمري) من عشيرة (ابن طوالة) المشهورة، والعجوز (سيف بن طعمة) الذي رافق عظمة الشيخ مبارك في غزوات كثيرة قديماً.

وقد اشتهر من الصقور: (ذْياب)، (كَبْريت)، (سلطان)، ثم سيد القتلة الذي لا يكل، صقر الشيخ الخاص (بترول)، والذي عرف أنه وحده الذي استطاع أن يقتل أثني عشر طيراً في يوم واحد. (انظر الفصل ٢٨).

استغرق سالم ثلاثة أيام حتى وصوله إلى آبار (عريفجان) وبرفقته زوجته (عمشة) وابنته الحسناء (حصة)، وشقيقته (منيرة) وآخرون من أهل بيته. كما أرسل يطلب أغنامه من منطقة (السودة) في (الحسا) حيث قضت الصيف في رعاية (فراج وفلاح) من (العوازم). كانت فرحته عظيمة إذ ولد له ستة وثلاثون حملاً، وهو ينتظر المزيد في نهاية تشرين الثاني. لقد تضاعف عدد القطيع منذ الربيع السابق، ومن الأفضل تخصيص خمس عشرة نعجة لذبحها في المناسبات. أما عن الإبل، والتي كان يرعاها (مزيد الضفيري)، فقد أفاد أن أربع عشرة منها بحالة ممتازة، على الرغم من الصيف الطويل في منطقة (حزيم) و (السودة). وكان مزيد قد عاد مع سالم من الرياض حيث ذهبا لتفقد رب العائلة (ابراهيم المزين) والاطمئنان عليه.

كتب لي سالم يعلمني أن مخيمي جاهز. وفي الحادي عشر من تشرين الثاني حزمت ما بقي من أشيائي وأثاثي الذي يجب نقله (كالدوشق والمساند والشداد والقليم، وهي أشياء تتعلق بالضيوف، وسائد للاتكاء عليها، وسرج للجمل مكسو بجلود الخراف والبسط ذات الألوان الزاهية) وقد أمرت سائقي النجدي المخلص (صالح) أن ينقلني إلى مخيمي. وكانت ناقة زوجتي المسماة (فرحة)، وهي من أصل عُماني شهير قد سبقتني وكذلك جواديَّ (نجدي وفرحان) ومعهم فرسي ذات الطباع اللطيفة (جروة) والتي كانت هدية من عظمة الملك عبدالعزيز آل سعود. وقد سميت بهذا الاسم بعد أن ذبحت فرس المرحوم (فيصل الدويش) الرمادية بأمر زوجته (عمشة) إثر استسلام شيخ القبيلة للإنكليز عام ١٩٣٠ في (الجهرا). وقد كنت وزوجتي معها عندما وقع هذا الحادث الذي كان له أعمق الأثر.

في اليوم التالي، عندما كنت ذاهباً إلى منطقة (حزيم والوفرة) في المنطقة المحايدة، أخذت معي (سعود بن نمران) وصقره، وكذلك جواد خادمي الشخصي. وصلتني أنباء تفيد أن (البرزاني بن شجعان)، وهو أحد قواد حرس ابن سعود ومعه

عشرين من رجاله موجودون في (الوفرة)، فقررت الذهاب لمعرفة أسباب وجوده هناك. وابن شجعان هذا يتمتع بسمعة سيئة لوحشيته وإساءته معاملة البدو كأمثاله الذين يتبعون نفس الأسلوب. وعلى الرغم من كونه مطيري الأصل فقد ولد في (الهفوف) وتشرّب كثيراً من الصفات القاسية عن سيده (عبدالله بن جلوي)[1]، إلا أن هذه القسوة والتي رافقها الغرور وأسلوب المعاملة البغيض، أفسدته كما أفسدت الرجل البدوي الذي يعيش في المدينة لمدة من الزمن طالت أو قصرت.

غادرنا الكويت في الثانية عشرة والنصف ظهراً. وبعد مسير ساعتين ونصف بالسيارة بلغنا (عريفجان). كانت تهب آنذاك ريح شمالية باردة، وعلى الرغم من مسيرنا بنفس اتجاهها، فقد شعرت بحاجتي إلى كنزة وفروة، والفروة لباس بدوي وهي عبارة عن عباءة مبطنة بخطوط من جلد الخراف ولها أكمام، وتعتبر زياً حديثاً بين رجال (عْنِزَة) وبدو الشمال.

في الساعة الثالثة بعد الظهر بدا مخيمي على مرمى بصري. كان على الجانب الأيمن من طريق وعرة، وإلى الجنوب من مكان مخيمي في العام الماضي بنصف ميل. وقد نصبت الخيم بين شجيرات (العرفج) الكثيفة والتي كانت المظهر الذي يميز (عريفجان). باستثناء بعض شجيرات (الجهرف والحمض) والتي كانت في أوج ازهارها، لم يكن هناك شيء أخضر تمكن رؤيته على الإطلاق فكل شيء جاف. كلا، أنا مخطىء، لأن هناك في رقع من الأرض الملحة توجد بقع من نباتات (الهرم) الخضراء الزمردية وهي من نفس عائلة نبات (الحمض).

كانت خيم مخيمي من الشعر الأسود، وقد نصبت في خط طويل وتتجه كلها نحو الجنوب الشرقي وكانت على الشكل التالي:

أ ـ خيمتي.
ب ـ خيمة خادمي والصياد.
ج ـ خيمة سالم.

د ـ خيمة (ضويحي)، الرجل العوازمي الأعمى، وقد أقام فيها مع ولديه (فلاح وناصر) وهم رعاة الأغنام.

---

(١) كان ابن جلوي مثال العربي عظيماً دون شك، ورجلاً ذا شجاعة خارقة، كان واحداً من الفرسان الثلاثة والعشرين الذين ساهموا في الاستيلاء على الرياض مع ابن سعود عندما أسس الأخير مملكته. ولكنه لسوء حظه لم يكن يملك ذرة من الليونة والرحمة في تصرفاته. توفي في ٣١ تشرين الأول عام ١٩٣٠.

هـ ـ خيمة جارنا (صالح المطيري) الذي استأذن أن يخيم مع سالم لبضعة أيام.

و ـ خيمتي الشخصية.

ساد المخيم هدوء لم أكن أتوقعه، ولكن عندما شوهدنا دبت الحركة فجأة فيه، نقل الدوشق وسرج الجمل من قسم النساء في خيمة سالم إلى خيمتي وفرش السجاد و(القليم)[1] بسرعة. وتم تثبيت قواطع الخيمة في أماكنها. وبوصول السيارة أمام خيمتي كان كل شيء جاهزاً للترحيب بي. وقف سالم وحيداً أمام خيمتي ليرد على تحيتي (السلام عليكم). فلم يكن من الممكن لنسائه أن يظهرن بحضور سائقي والشيخين (فداوي وسعود). ولكن بالامكان رؤيتهن يختلسن النظر سراً من خيمتهن.

فتحت حقائبي وشرعت في ترتيب حاجياتي بينما قام (جواد) بتجميع سريري الخاص بالمخيم وفرشه بمستلزماته من شراشف وبطانيات. ثم قُدمت القهوة.

حالما انتهت مراسم استقبالي وخلت الساحة من الناس وأوى الرجال إلى خيمهم، انسلت (عمشة) ذات العيون الوديعة والصوت الجميل لتقدم لي تحية الترحيب في قسم الاستقبال في خيمتي المصنوعة من شعر الماعز الأسود. مشت برشاقة وحيتني بصوتها الرخيم قائلة: (القوة يا أبا سعود). وهي التحية النسائية المعتادة. فأجبتها: (الله يقويك يا أم حصة). ثم تلا ذلك جمع من جمل الترحيب مثل: (كيف حالك؟ كيف حال أم سعود؟ ما أخبار خاتونة (الزوجة)؟ وكيف حال سعود وزهرة (أولادي)؟ ماذا تفعل في الكويت؟ وما أخبار المطر؟ . . إلخ) فأجيبها: (حسناً، حسناً). تبع عمشة كل من منيرة ـ مساعدتها المطيرية في البيت ـ وحصة ـ ابنتها ذات الخمسة عشر ربيعاً (وقد تحجبت مؤخراً لتبدو أنها امرأة وأنها في سن الزواج) ـ وبنات ضويحي الراعي ومزيد الضفيري. وأخيراً أتى الصبي الأسود الفاحم (مبارك)، الزنجي العبد الذي ينادونه (بروك) تحبباً. أما الصبي ذو الشعر الأجعد الآخر (مرزوق) أو مريزيق شقيق مبارك فما زال مع الحملان على بعد ربع ميل مع (حمد بن منيرة الصغير.

تحلقت النسوة اللواتي تبعن عمشة حولي وجلسن وكلهن يسألن عني ويرغبن في معرفة شيء ما. أما حصة الصغيرة ـ والتي عرفتها مذ كانت في السابعة من عمرها ـ فقد شجعتها أمها على الجلوس بجانبي لترفع برقعها عن وجهها للحظة وأقبل فمها

---

(١) القليم (الفُرُش).

الصغير. كان ذلك بإذن من أمها رغم أنها امرأة شابة في الخامسة عشرة، أو لم أكن أعرفها مذ كانت طفلة صغيرة. ثم عادت حصة وجلست بجوار أمها محافظة على ذلك الصمت الذي يقتضيه التصرف الحسن لأطفال البدو في حضور الأكبر منهم سناً. ويقوم الصغير (بروك) الخجول متجهاً إلى عمشة ويرمي نفسه بين ذراعيها فتقبله وتربت عليه، وتسمح له أن يضع رأسه على كتفيها، فيحملق فيَّ بعينين واسعتين. إنها تحبه أكثر من ابنتها تقريباً. كما أنها تعطف بحب على كلا العبدين (بروك ومريزيق) ولهما من العمر خمس وثلاث سنوات على التوالي. إن حباً وعطفاً كهذا سوف يشوش عقول أولئك الفضوليين الذين يتحدثون باسهاب عن الوحشية والرعب في قضية الرقيق، ويجعلهم يتساءلون كيف يحدث هذا؟ الإجابة بسيطة، فهؤلاء الأطفال هم أبناء عبدها الشجاع[1] (عبدالله) (اشتريَ أصلاً من رنيه، وزُوِّج بامرأة من عجمان تحررت من الرق). وهم يحركون في عمشة كل الغرائز الأنثوية، إنهم من ذريتها، إنهم لها ليكافئوها ويرفعوا من شأنها. وها هي تفتح عباءتها[2] وتقدم ثديها لبرّوك الصغير إذا تململ فيهدأ بعد أن تقول له: (هل تريده يا حليلة، وتدعنا نسمع الأخبار من أبي سعود).

وهنا عاد سالم بإناء القهوة وفناجين خاصة أحضرها معه من الرياض، وهي صفراء مشوبة بالبني الشاحب والأبيض وغير معروفة في الكويت، وقدم لي القهوة بافتخار مرة أخرى ثم قال: (الفناجين؟ نعم، إنهم من الرياض. أحضرتهم معي لأم سعود فقد كانت هذه السنة سنة خير والحمدلله، فالجمال سمينة وقد تكورت أسنامها بحيث لم تعد تستطيع التعرف عليها). ثم تابع مقاطعاً عمشة: (نعم يا أبا سعود، لن تعرف (فرحة) إلا من حلقة أنفها، فقد أصبح لها سنام كبير بحيث يتعذر وضع الحداجة عليها، وعليك أن تهنئنا فقد ولد لنا ستة وثلاثون حملاً في الأيام العشرة الماضية، وكذلك نعجة ابنتك (زهرة) البنية اللون والتي كانت صغيرة في العامين الماضيين، وضعت أول حَمَل لها، جميل جداً وناعم، اذهبي وأحضريه يا حصة). أحضرته حصة وحاز إعجاباً شديداً. ثم تابع سالم: (إنني أزن إليته الصغيرة بيدي من حين لآخر لأرى إذا ما زاد وزنها أم لا، والآن عليك أن تأتي لرؤية قاعودنا وسآخذ النساء إلى خلف الخيمة حيث تقف اثنتا عشرة ناقة عدن للتو من السقاية، وهن بانتظار أن يحلبن ويهيأن للنوم ليلاً).

---

(١) توفي عام ١٩٣٥ بعد سنة من عودته من مكة مريضاً.

(٢) إذا أرضعت امرأة عربية طفلاً من عبيدها فلا يمكن بيعه ويصبح حراً كأي من أولادها.

كان القاعود أليفاً جداً. وقد اقترب بوجهه الحسن من فمي لأقبله، وهذا ما لم يحدث معي مسبقاً. وتلا ذلك كلب الحراسة الجديد، حيوان أشعث ضارٍ، أحضر أمامي لرؤيته فأطريته ببضع كلمات معبراً عن الأمل في أنه سيطرد الذئاب بعيداً.

بعد ذهاب النساء قمت واغتسلت ثم ارتديت جلابيتي وتهيأت لتناول طعام العشاء.

في الليل قدم العشاء، وكان صحناً من الرز الممزوج بالزبيب وشرائح البصل وفوقه لحم حَمَل ناضج لم يتناول العشب بعد. طعام شهي لم أذق مثيلاً له في حياتي، وليس هناك غير يدي (عمشة) الماهرة التي تستطيع إعداد طبق كهذا.

رفعت الستائر الفاصلة في خيمتي وربطت إلى الحبل الذي يتوسط الخيمة فاتسعت لتشكل غرفة عائلية. وكان القنديل مضاءً في الطرف البعيد من الخيمة عندما أتى سالم بالقهوة مرة أخرى بعد رفع طعام العشاء. فسألته (عما إذا كان رجالي الاثنان قد تناولا العشاء والقهوة)، فرد مجيباً: (أن عشاءهما كان مثلي، وقدمت القهوة لهما، وهما يستعدان للنوم). ثم سألني: (إذا كان بإمكان النساء زيارتي للتحدث معي قبل أن أنام). فوافقت، لأن الساعة كانت الثامنة مساءً، والوقت ما زال مبكراً للتفكير بالنوم. حضرت عمشة وصديقاتها وجلسن، كان سالم معهم بينما تغيبت حصة فقد بقيت مع الطفلين الصغيرين الأسودين ليناما في خيمتها.

سألتني النسوة عن أخبار الكويت، وقمن بدورهن بإخباري عن كل الأنباء التي عرفنها منذ وصولهن. وقد أتين على ذكر أسماء كل من خيَّم ضمن مسافة عشرة أميال من المخيم. وتحدث سالم عن الغزوات والغزوات المضادة في نجد البعيدة، كما تحدث عن أشياء أخرى كخطط الملك ابن سعود، وكم عليه أن يكون حذراً لاجتناب الأزمات بينه وبين اليمن[1]. ثم أردف قائلاً: (صدقني يا أبا سعود، إن الإمام يحيى قوي جداً فلديه جيوش مدهشة وآلات جهنمية تحت تصرفه، وحتى أنه يملك دجاجاً معدنياً سياراً يرسله بالآلاف إلى المخيمات ليلاً، وحالما يدخلون بين الجموع ينفجرون ويقتلون الكثير في كل انفجار. والله، إنها حقيقة، لقد رأيت أناساً مقتولين بهذه الطريقة، كما رأيت قبل عودتي من الرياض قطعاً من الدجاج المتفجر الذي جلب من جبهة عسير ليراه الملك، إنها حقيقة وأقول لك يا أبا سعود أنك تعرف أني لم أكذب عليك سابقاً فلماذا أفعل ذلك الآن). عندما روى سالم هذه الكذبة الكبيرة قهقهت

(١) حدث هذا المشهد قبل أن يقوم ابن سعود بمغامرته في اليمن عام ١٩٣٤ بقليل. (المؤلف)

النسوة بصوت عالٍ، إنهن طبعاً يصدقن القصة كما تصدقها نصف الجزيرة العربية.

(هل تعلم؟) تابع سالم مرة أخرى: (إن هناك حديثاً يدور مفاده أن فيصل الدويش مازال حياً مختبئاً؟) فأجبته ساخراً: (إن هذا لا يمكن أن يكون حقيقة لأني رأيته ميتاً في السجن بمرض تضيق الشرايين منذ سنتين). فعاد سالم ليقول: (هذا ما توقعته، فقد ذهبت لتتلقف أي قصة كاذبة يريدها الملك ابن سعود، الحقيقة التي عليك أن تعرفها هي أن الدويش قد فر واختفى عن الأنظار، لأني عندما كنت عائداً من الرياض منذ عشرين يوماً قابلت امرأة مطيرية ادعت أنها قابلته، رأته مساءً واقفاً خارج خيمته، فقد خرج من مخبئه في مكان ما من (الدحل) طلباً لبعض الخبز. إذا كنت تريد معرفة المزيد فالمرأة هي (وضحة) شقيقة فيصل، أليس هذا برهاناً؟) وتعالت صيحات السعادة من النسوة لأن الجميع يحبون فيصل الدويش، فهو في عيون مطير، أعظم شيخ وقائد بدوي ولدته امرأة.

توالت القصص المشابهة إلى أن شعرت بالتعب، فطلبت منهم الذهاب للنوم، لأن بانتظاري في الصباح يوم طويل. فسألتني عمشة ذات الذهن العملي عما إذا كنت أرغب باصطحاب طعام الغذاء معي فأجبتها بالايجاب، ووعدتني أن تستيقظ في الرابعة صباحاً لتطبخ لي ثلاث دجاجات مع الأرز. ثم قالت:(إن وعاء الرز له غطاء فبوضع رغيف عربي من الخبز فوق الأرز ثم الغطاء فوقه سوف يحفظ الطعام دافئاً حتى الظهر).كانت طيبة مثل كلماتها، وكذلك كان الغذاء لذيذاً. في النهاية تبادلنا السلام جميعاً، وانسحبت صديقاتي النسوة وكذلك المخلص سالم الذي آوى للنوم.

بعد برهة من استغراقي في النوم، أفقت على صوت نباح شديد. فثلاثة أو أربعة من كلاب الخيم قد أخافهم شيء ما، وشعرت بهم يتجولون حول الخيم، ثم هدأوا لخمس دقائق أو أكثر، ثم عادوا للنباح والهرير بشكل أعنف. غلبني النعاس مرة أخرى لأني كنت متعباً. ثم استيقظت مرة أخرى لأعاود النوم حتى أصبح صوت الكلاب نوعاً من الصدى الذي يعلو ويخفت في ذهني المتعب النائم ومرة أخرى أيقظني صوت الإبل التي كانت مُناخة خلف خيمة سالم وهي تنهض مذعورة وتجري حوالي خمسين ياردة، حتى أتاها صوت سالم الذي أعاد لها هدوءها. استلقيت لأعود للنوم فإذا بي أسمع صوت سالم يقول: يا ناصر، ما الذي أفزع الإبل؟ فجاءه رد ناصر أن لا شيء على الاطلاق. ثم استسلمت للنوم كل الليل وأنا أسمع أصواتاً كثيرة غريبة ولكني غير قادر على التحرك بسبب تعبي الشديد.

هذه حالي دائماً، ففي ليلتي الأولى مع أصدقائي البدو لا أستطيع النوم. إذ

سمعت عند الفجر صوت سالم يؤذن للصلاة. وبعدها بفترة قصيرة سمعت صوت تأرجح مخض الحليب (راق ـ راق ـ راق) فقد كانت إحدى النساء تصنع اللبن والزبدة. إنه الصوت القديم المألوف الذي يمنحني شعوراً بالارتياح والألفة. لقد استيقظ الجميع قبل طلوع النهار حتى ليبدو أن هؤلاء الناس البسطاء لا ينامون فبعد أن أدوا صلاتهم جلسوا يراقبون بزوغ الشمس. ثم سمعت أصوات رعاة الأغنام ينادون معاً على قطعـانهم وكذلك رعاة الإبل يتحدثون إلى جمالهم فقد كانت الأغنام والإبل نائمة في الخلاء أمام خيمة سالم وضويحي. وتناهى إلى سمعي صوت فَلاح وهو يقول «هر، هر» مخاطباً النعجة لترضع حملانها قبل أن تخرج للرعي طيلة اليوم. وبدأت الحملان ترضع في الحال فقد كانت تلك ساعة وجبتهم الصباحية وسوف لن يحصلوا على شيء حتى هبوط الظلام فعليهم أن يأخذوا كفايتهم.

عند أول ضوء الفجر، بدأ الإحصاء اليومي للأغنام وهنا سمعت صرخة: (آها! يا سالم إنها تنقص اثنتين، تعال بسرعة فهناك نعجة وحمل مفقودان). ثم سمعت هرولة أقدام تبعها حديث متلهف ثم صرخة أخرى (ذئب، إنه الذئب الذي فعل هذا ليلاً)، ومن حاسة الشم عرفوا أن ذئباً وذئبة حملا النعجة والحمل ليلاً. ومن نظرة سريعة حول المكان تم العثور على آثار أقدامهما. كان الذئب قد خدع كلاب الحراسة بذكاء، فقد أعطاها رائحته من الجهة التي كانت تهب منها الريح، وحالما اندفعت الكلاب خلفه في جوف الليل تطارده قامت الذئبة الذكية بالزحف قريباً من المخيم على الجانب الآخر، تماماً كما تربض القطة متربصة ثم تقفز باتجاه الفأرة، (مع فارقٍ هو أن الذئب يسحب بطنه على الأرض). ثم اختطفت النعجة والحمل من بين الأغنام، دون أن يصدر أي صوت عن الخراف لأنها تخاف كثيراً إذا هاجمها الذئب إلى حد أنها لا تستطيع الصراخ. أما الماعز فهو وحده الذي يصرخ في هذه الحالة ولهذا يتجنبه الذئب عادة.

في الصباح، بعد أن استيقظت، خرجت لأتفحص آثار الذئبين بنفسي وكان من الممكن رؤيتها بوضوح على جانبي المخيم. فقد بدت آثار انطباع كبيرة إلى الجنوب. إنها آثار الذكر، أما الأنثى بانطباعات أقدامها الصغيرة فكانت إلى الشمال. ولا بد أن الذئبة اختطفت الحمل من داخل الخيمة لأن الحبل الصوفي الذي كان حول رقبته وجد مقطوعاً، وآثارها كانت فعلاً داخل الخيمة. وهناك آثار أخرى تدل على أن الذئبة قامت بزيارتهم، الأولى لتختطف النعجة والثانية من أجل الحمل. قمنا حالاً بتتبع الآثار على أمل إنقاذ أحد الحيوانين، ولكن كنا متأخرين فقد وجدنا عظاماً طازجة للنعجة والحمل على بعد ميلين من المخيم. هذا كل ما تبقى من الحيوانين اللهم إلا

بقايا من الصوف. عدنا أدراجنا إلى المخيم يملؤنا الحزن. فقد جلبت الخسارة الكآبة إلى نفوس أصدقائي. خسروا اثنين من الأغنام الجيدة. لم يكن هناك شيء يمكن فعله وليس من المفيد أن نلوم الرعاة فقد وقعت الحادثة بدهاء ووحشية. أحد الرعاة كان مستيقظاً وجالساً قرب بعض النار يحرس الأغنام نفسها وأتت الذئبة خلسة وأتمت اختطاف فريستيها بهدوء فلم يسمع الراعي شيئاً سوى نباح الكلاب.

عندما حاولت مواساة عمشة للخسارة التي حدثت، قالت لي: (لا يا أبا سعود، إنه مكتوب عليهما أن يموتا هذه الليلة، فقد اخْتُطِفَ اثنان آخران في الليلة التي وصلنا فيها. إن الذئاب هنا شديدة الجوع. ولكننا سننتقم ياأبا سعود، لاتخف سوف ننتقم).

في أول النهار، جهزت نفسي استعداداً للسفر إلى (الوفرة) برفقة صيادي (سعود) ومرة أخرى صار المخيم نشيطاً ومشغولاً. فقد تم تجهيز سيارتي وأحضر طعام الرحلة جاهزاً من خيمة النساء في قدر معدني محكم الغطاء. أما بالنسبة للماء فقد اعتمدنا على قربة من جلد الماعز ملأناها وثبتناها قريبة منا إلى جانب السيارة.

غادرنا المخيم أنا وسعود وصالح. جلس الأخيران على المقعد الأمامي بينما جلست على المقعد الخلفي مع المعاطف والبنادق وحمالات وحقائب الخرطوش. وبعد مسيرة نصف ساعة سمعت صيحة من صالح، ثم شاهدت أحد طيور الحبارى يجري بمحاذاة الطريق على بعد مئة ياردة ثم ربض على الأرض. لم يرفع سعود الغمامة عن رأس صقره ظناً منه أننا لن نتوقف للصيد في هذا المكان. توقفنا ونزلنا من السيارة، واتجهنا نحو الطير سيراً على الأقدام. إلا أنه قفز محاولاً الفرار فعاجلته بطلقة من بندقيتي أصابته وهو على بعد ثلاثين ياردة بجرح غير قاتل. وهنا انطلق الصقر (كبريت) كومضة البرق خلف الضحية ليلتقطها دون أن يسمح لها بالجري ولو ياردة واحدة.

ذبحنا الطير وحصل (كبريت) على قطعة من لحمه مكافأة له. ثم وضع سعود الطير في حقيبة واسعة، وتابعنا سيرنا حيث تمكنا من اصطياد ثلاثة طيور حبارى أخرى حتى وصولنا إلى (الوفرة). نجحت في إصابتها جميعاً رغم الصعوبة في المرحلة الأخيرة.

كانت الطريق فظيعة، لا أثر فيها يدل على مرور أحد. وقد جعل جفاف الصيف من شجيرات (الثمام) و(العرفج)، بعد أن يبست وأصبحت قاسية، نتوءات بارزة في الأرض لا مرونة فيها، حيث قضينا ست ساعات قاسية في الطريق نصعد هضبة وننزل وادياً مروراً فوق هذه النتوءات، لتحدث السيارة صوت (بمب. بمب. بمب) وهي تمر

فوقها. قلما نجد فسحة من الأرض خالية من الشجيرات الجافة تسمح لنا بالمسير بضع مئات من الياردات بشكل مريح. ثم تحولنا بعد ذلك إلى الطريق البحرية وتوغلنا حوالي عشرين ميلاً إلى الجنوب من (رأس الزور). لم تكن هذه الأرض معروفة لي من قبل وسلكتها رغم نصيحة المخلص سعود الذي حذرني قائلاً: (لن تجد الطريق مريحة وستسبب لنفسك مزيداً من ألم العظام نتيجة الاهتزازات). ولكن عنادي الانكليزي تغلب علي.

وصلنا (الوفرة) في الثانية عشرة ظهراً حيث قابلنا هناك واحدة من دوريات ابن سعود بأمرة أحد أقسى رجاله وأكثرهم تعصباً، ذلك هو (ابن شجعان). وهو نموذج من الرجال المهزوزين، قليلي التهذيب، سيئي السمعة، الذين يوجدون على الحدود السعودية. خاطبني (ابن شجعان) قائلاً: (إنه أتى من الهفوف بأمر من (ابن جلوي) للإتصال بالنقيب (بابوورث) - من السلاح الجوي الملكي، قسم المساحة - المكلف بـإعادة النظر في خريطة الكويت وإجراء المسح للمنطقة المحايدة. كانت هذه حجة وجوده في هذا المكان ولكن السبب الواضح هو تصيد بعض رجال العوازم المساكين الذين تهربوا من دعوة الملك للسلاح استعداداً لحملته على اليمن.

قدم لي (ابن شجعان) فنجاناً من القهوة وقليلاً من الشاي المقرف. ثم قلت له: (إن ضابط المساحة ذاك ليس بحاجة لمساعدته فهو مزود بالحراس والأدلاء من قبل شيخ الكويت). عندها بدت علامات الانزعاج على وجه (ابن شجعان) ثم تركته لحزنه بعد أن أعطيت مادة الكينين لأحد رجاله الذي كان مستلقياً في إحدى الزوايا يئن من الحمى.

عدت إلى (عريفجان) بعد أربع ساعات من المسير فوق النتوءات وإجهاد الجسم والعقل. وصلت المخيم في السادسة والنصف مساءً وأنا في غاية الارهاق إلا أني سعيد، فقد استمتعت بركوب السيارة لعشر ساعات قطعت خلالها مئتين وخمسة وخمسين ميلاً فوق أعظم الأراضي مجداً، وفي يوم لطيف بارد لم يشوهه سوى الطريق التي كانت تجعل السيارة تقفز[1].

---

(١) هذا الوصف المقتضب للرحلة التي حدثت في عام ١٩٣٤، كان لي الحظ في العديد منها خلال إقامتي في شمال شرق الجزيرة العربية. (المؤلف)

الفصل الثالث

حياة البدو

حاولت في الفصلين السابقين أن أرسم صورة واقعية طبيعية للحياة العائلية في الصحراء. والآن سننتقل إلى الصورة الأعم والأشمل لحياة سكان الخيم في شبه الجزيرة العربية العظيمة، وذلك بغية التعرف على هجراتهم السنوية وطريقتهم في تسيير حياتهم اليومية، وأسلوب تربية مواشيهم وإبلهم الذي لم يتبدل كثيراً منذ أيام إبراهيم الخليل.

إذا استثنينا التنقل والترحال المستمر للبدوي وحقيقة كونه لا يعلم ما يخبئه الغد على صعيدي الجو أو الغزو، فإن البدوي ـ وعن غير قصد ـ يتبع برنامجاً منظماً روتينياً لا يتبدل، فترحاله السنوي في الخريف والشتاء والربيع، واستقراره أخيراً قرب الماء عند عودة الصيف، هذه التنقلات المستمرة ما هي إلا جزء من خياته المبرمجة.

إن الفارق العظيم (وأنا واثق أنه لمصلحة البدوي) بين رجل الصحراء في الجزيرة العربية وأخيه الغربي، هو أن الحياة بالنسبة للأول غير مؤكدة حتى الغد، فهي مهددة بالخطر الدائم، وعليه بحكم هذه الظروف أن يعيشها كما هي، وهذا ما جعله يتوجه بتفكيره نحو خالقه واضعاً ثقته بإلهٍ واحدٍ، يمكنه وحده أن يحميه من أعدائه، من الجوع، من المرض، ومن الموت. إله تتبدل الفصول بأمره ويمنح الماء والمطر. من هنا اكتسب البدوي شعوره الديني العميق، وقناعته الراسخة أن كل شيء إنما هو بأمر الله، سواء أكان خيراً أم شراً، وعليه تقبله دون تذمر.

أما بالنسبة لنا ـ نحن الغربيين ـ فإننا نعيش حياتنا اليومية بنظام وأمان لايتوافران في الصحراء، لذا فإنه يصعب علينا أن ندرك مفهوم البدوي للحياة والألوهية، إن جلّ

ما يشغلنا هو العمل ثم اللهو إلى حد أننا لا نفكر بالموت إلا على أنه النهاية البعيدة غير السارة. كثير منا يفكر في الله أيضاً، ولكن على أنه القوة الإلهية البعيدة التي تنظم كل شيء في السماء وترسم المستقبل، دون التدخل في الحياة اليومية.

والخلاصة؛ إن الظروف التي يعيش فيها بدو الجزيرة العربية توجههم نحو الدين الذي يزرع في قلب الإنسان أعظم الفضائل التي تجعل حياته أحسن.

الديرة القبلية

لكل قبيلة أراض خاصة بها تسمى (الديرة) يتنقلون بجمالهم خلالها في الخريف والشتاء والربيع. كما تقع فيها آبار الماء الدائمة الخاصة بهم، وهي الكنز الذي يحافظ عليه مختلف أفخاذ القبيلة، ويخيمون حولها في الصيف.

دعونا نأخذ كمثال قبيلة مطير العظيمة (عِلْوة وواصل) في شمال شرق الجزيرة العربية، فديرتها محصورة بالحدود التالية الشكل ـ ١ ـ:

من الشمال: المنطقة المحايدة العراقية (طوال الضفير) وامتداد الحدود الكويتية إلى الشرق حتى (الشق).

من الشرق: منخفض (الشق) ثم الخط الممتد جنوباً حتى قرية السفلى، (الطرايبة والخفيسات).

من الجنوب: خط يمر من بلدة (عنَيْزة، زلفي، مجمعه)، إلى (الخفيسات) مروراً ببلدة (الأرطاوية).

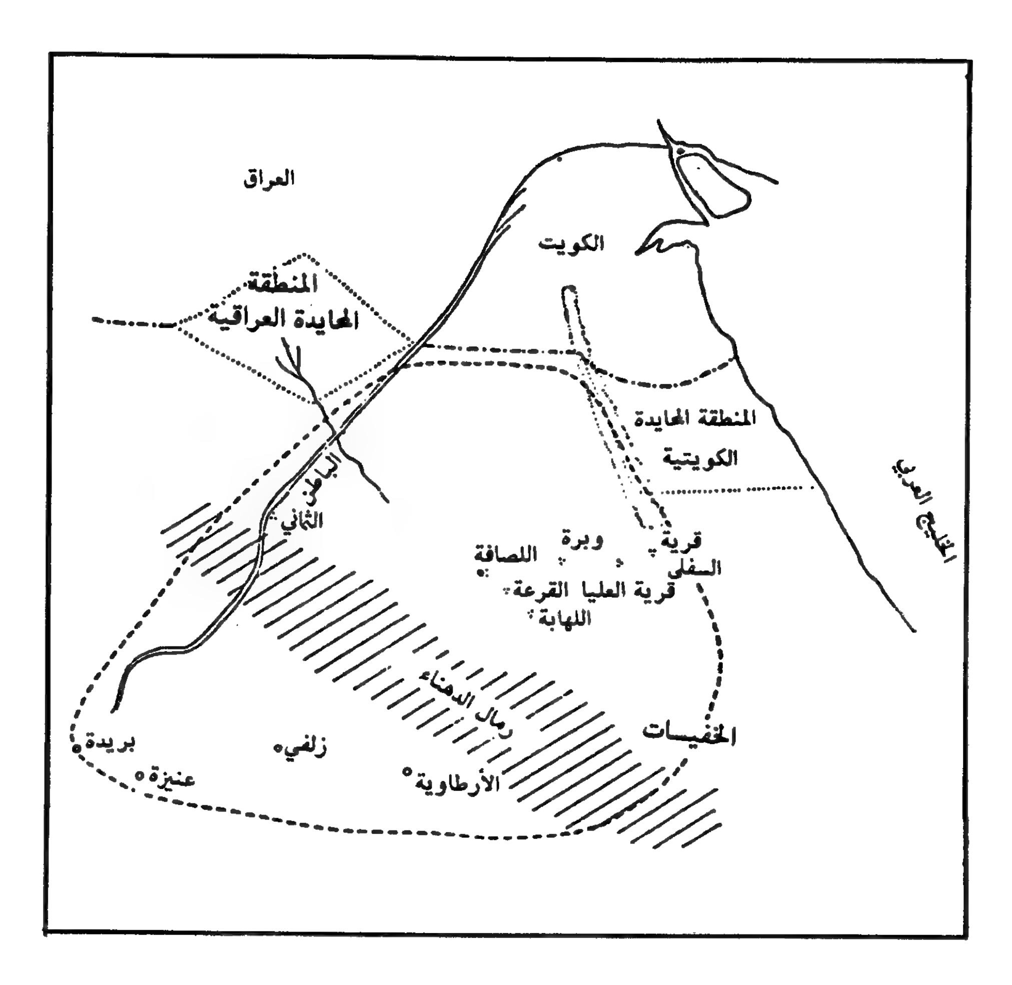
من الغرب: خط من (طوال الضفير) ـ المنطقة العراقية المحايدة ـ عبر الثماني ـ النهاية الجنوبية للباطن حتى (بريدة وعنيزة).

أما آبار هذه الديرة الرئيسة التي يلزم ذكرها فهي:

أ ـ **جفر الباطن**، من أملاك (ابن عشوان) ـ من عشيرة برنه، واصل مطير ـ.

ب ـ **اللصافة**: من أملاك ابن لامي (جبلان).

ج ـ **قرية العليا**: من أملاك الشقير (دوشان).



الشكل (١) ديرة قبيلة مطير

د ـ قرية السفلى، من أملاك الفغم (الصهبة).

هـ ـ اللهابة من أملاك الماجد (دوشان).

و ـ القرعة: من أملاك الشقير (دوشان).

ز ـ وبرة: من أملاك الدوشان.

ح ـ قيَّة: من أملاك الفيصل (دوشان).

ط ـ دجاني: من أملاك البراعصة (موهة).

ولكون (دوشان) هي العشيرة الحاكمة بزعامة شيخها الدويش، فهي تسيطر على

العاصمة القبلية (الأرطاوية). هذه البلدة هي مركز ما يسمى بالأخوان، والتي خرج منها حاكم السعودية الحالي، والذي ـ لأسباب سياسية ـ أحدث في كل ديرة مراكز إدارية صغيرة، للدلالة على أن كل القبيلة قد اعتنقت الوهابية وهجرت جهلها القديم والتنقل الدائم.

تضم ديرة مطير في جنوبها جزءاً من رمال (الدهناء) ومنطقة (الصمان) الصخرية، و (الوريعة) في منتصفها، ثم سهول (مجدير، القرعة)، الواسعة الجرداء ومنطقة (المسناة) في الشمال. والديرة تمتد مئة وعشرين ميلاً عرضاً تقريباً مقابل مئة وثمانين ميلاً طولاً.

إن الديرة بكليتها ممتازة إجمالاً، إذ تتوافر فيها نباتات العرفج، نصي الحمض، وهي نباتات المراعي الأفضل للإبل. وهي تتوافر بكثرة عندما يكون موسم المطر جيداً. ويمكن اعتبار هذه الديرة مثالاً نموذجياً لمواصفات مواطن القبائل.

وهناك من القبائل من كانت ديرتها أوسع وأكبر بسبب ندرة الماء وقلة المراعي، مما جعلها مجبرة منذ القديم على الاستيلاء على أراض إضافية. ولكن الحقيقة في الواقع هي أن القبيلة لا ترغب في أرض أكبر مما يكفي حاجتها، لأن كل ما تحتاجه ـ إذا توافر الماء وتنوعت المراعي ـ هو منطقة باتساع ديرة مطير.

حول ديرة مطير تقع ديار قبائل أخرى مشابهة لها وهي كالتالي:

- **من الجهة الشرقية والجنوب الشرقي** تقع ديرة (العوازم وعجمان).
- **من الجهة الجنوبية** تقع ديرة (سبيع وسهول).
- **من الجهة الغربية** تقع ديرة (حَرْبْ وشَمَر وضَفير).

- ثم الأراضي الكويتية في الشمال والتي كانت قديماً ـ وقبل أن تخرج فكرة الحدود الغربية إلى حيز الحدود ـ كلها تابعة لمطير ما عدا شريط ساحلي ضيق ـ كان من ضمن ديرة (العوازم)[1].

---

(١) يجب أن ندرك حقيقة وهي أن هناك مجموعتين من قبيلة مطير، من (القصيم) في قلب الجزيرة العربية وقرب المدينة المنورة في الحجاز، وهما تدعوان: (بني عبدالله المطير، وميمون). وهما تتفوقان في القوة والعدد على أبناء عمومهم (عِلْوَة بْرَيْه)، ولبني عبدالله شيخهم القوي الخاص بهم ولكنهم جميعاً ينضوون تحت لواء الدويش الذي يحصل على المشيخة بالوراثة ويقيم في الأرطاوية. وبالنسبة لأسماء شيوخ (مطير، =

والقبيلة بطبيعة الحال لا تبقى منعزلة في ديرتها دائماً، فإذا كان موسم المطر جيداً والمراعي وفيرة فمن الطبيعي أن تبقى في ديرتها. أما في حال كون الموسم سيئاً، فهذا يعني أنها ستهاجر إلى حيث تكمن المراعي، فتنتشر في أراضي الجوار. إلا أنها لا تستطيع أن تتجول في أراضي قبيلة معادية، لذا كان عليها أن تنشىء تحالفات مع القبائل المجاورة، والتي تكون مواسمها جيدة، حيث تسمح لها بالرعي في ديرتها عندما تجبرها الظروف على ذلك. وهذا مما استدعى نشوء اتحادات بين القبائل تتبادل بموجبها المنفعة فيما بينها ولكنها تعادي الآخرين. هذه الاتحادات أو التحالفات غالباً ما تدوم طويلاً ما دامت تخدم أهم أهداف المتحالفين الذين يواجهون معاً أيام الحرب والمشاكل والقحط. وهذه أمثلة عن التحالفات التي نشأت لتبادل الحماية:

أ - بين قبائل حرب ومطير (علْوَة) وعجمان.
ل - بين بني عبد الله (مطير) وعتيبة.
ج - بين ضفير من جهة وشمر والعوازم من جهة أخرى.
د - بين عجمان ومرَّة ونجران.

هـ - بين مختلف عشائر عنَزَة في الشمال، مثل (الدهامْشَة)، امارات (الفدعان) (الرْوَلة، السْبَعَة، وزانا المسلمة)(*). (أنظر مصور توزع القبائل العربية في شبه الجزيرة وبلاد الشام والعراق).

= العوازم، وشمر) أنظر الجدول الثاني على خريطة ديرة مطير التي ستجدها في نهاية الكتاب. (المؤلف)

(*) إن إدعاء عجمان بقدرتها على تجهيز عشرة آلاف من الرجال المقاتلين، ادعاء مبالغ فيه بوضوح، فكل قوتهم القتالية تبلغ ثمانية آلاف مقاتل تقريباً. وقد ادعت مرة أنها قادرة على حشد ألفي فارس إلا أن قوتها اليوم ليست كذلك.

ولعجمان عدة صرخات يتنادون فيها للحرب تدعى (النخوات) وأشهرها ثلاث أذكرها فيما يلي:
١ - مفراص الحديد وأنا ابن عجمان. ٢ - صفا الموت وأنا لأطيله - ٣ - صَفُّر الموت وأنا لاطيله.
وعندما يريدون الاشتباك في معركة فمن عادتهم أن يعقدوا خصلة من جانب شعر الرأس نحو الأعلى كالقرن ثم يلفونها بقطعة قماش حمراء ويسمون هذا التقليد (بالقنازع).

والعارفون من عجمان يقولون، وهذا حق كما أعتقد، أنهم يعودون بأصلهم إلى (قحطان)، وهذا يعني أنهم انحدروا من أشراف نجران، كما يدعون أنهم وقبيلة (مُرَّة) لهم جد واحد هو (يام). وهم بالتأكيد يعتبرونهم إخوة بالدم وعلى كل منهما أن تساعد الأخرى دائماً. فإذا رغبت أي من عجمان أو مرة بطلب المساعدة من الأخرى ضد عدو مشترك، فمن العادة أن يُرسَلَ رسول على جمل وقد لُفَّ حول رقبته وشاح أحمر أو حبل قرمزي اللون ويصيح الرسول بصوت عالٍ منادياً «عيال مرزوق» - وهو النداء السري للمنحدرين من «يام» - والكل يعرف ما تعنيه هذه الإشارة. أما في حال كون الحرب بين عجمان ومرة =

عندما تكون الحكومة المركزية قوية ـ كالنظام القائم حالياً في السعودية ـ فإن القبائل تجنح للسلم وتوطن نفسها عليه. ولكن عندما تضعف اليد القوية أو تنسحب، فإن باب جهنم ينفتح وتطبق كل قبيلة على خناق الأخرى. هذه الحالة كثيراً ما عاشتها كل قبيلة وفرد بدوي. إنها تعني الغزو واللهو لكل فرد، والثروة لمن كان شجاعاً قوياً. ومع ذلك لا تحدث خسائر كبيرة في الأرواح نتيجة لهذه الحالة، بل يقتصر الأمر على انتقال ملكية الجمال من يد لأخرى، وبعض النهب والاستيلاء على الممتلكات الدنيوية. وتبقى النساء بمأمن (انظر الفصل السابع) إذ يحاول البدوي ـ ما أمكنه ذلك ـ أن يحافظ على تقاليد الغزو وأعرافه. ويتحدث إلى الأبد عن الأوقات السعيدة التي كان فيها النهب سائداً. هذه هي فكرته عن السماء في الأرض، وهذا ما يتوق إليه دائماً. أفلم يولد وينشأ على أن يد كل إنسان تتربص به ويده تتربص بكل إنسان.

عندما يسود السلام بين القبائل والمتحالفين، يصبح بإمكان الأفراد والعائلات أن يتنقلوا حسب مشيئتهم في أراضي الآخرين في طريق ذهابهم أو إيابهم من مختلف البلدان التي يشترون منها حاجياتهم. وعملية التسوق من المدن هذه تدعى (المسابلة) وهي معروفة في كل الجزيرة العربية. ولكل قبيلة مدنها الخاصة المفضلة التي تقصدها للحصول منها على الضروريات، كما تقضي فيها وقتاً ممتعاً.

على سبيل المثال، كانت كل من مطير وحرب وشمر والعوازم والعجمانيين ـ الشماليين منذ قديم الأزل ـ يذهبون للتسوق من الكويت. فبينما تذهب ضفير إلى الزبير، الناصرية، والسماوة عند الفرات[1].

إن النظام يخول سلطات المدينة أن تمارس الإشراف والرقابة على البدو الذير يتقاطرون على المدينة للتسوق. وأي إساءة في السلوك تكون نتيجتها أن يحرم البدوي من دخول المدنية، وهي معاملة قاسية لبدو الصحراء المتسوقين، أما الحكام المستبدون، فمن الطبيعي أن يكرهوا نظام المسابلة لأن البدو على حدود بلادهم سينفقون نقودهم خارج دولتهم. وهم لذلك عرضة لاستمالتهم من قبل القوى المجاورة. إن أحد أهم الأسباب التي سببت حصار ابن سعود للكويت مدة عشر

= نفسيهما ـ وهذا ما قد يحدث ـ فسرعان ما تتصالحا لتتحدا ضد عدوهما المشترك، إن قوتهم القبلية وبراعتهم الحربية تجعل تحالفهم مفيداً ومناصبتهم خطراً حقيقياً، أما من جهة السياسة، فهم عملاء متقلبون ولا يتفقون. وثم يعترفون بذلك صراحة قائلين: (نحن مع من يعاملنا أحسن).

خلال مدة الاحتلال العثماني (للحسا والقطيف) كان العجمان متمردين حقيقيين، وعلى الرغم من محاولات استمالة شيوخهم فقد ألحقوا بجيش الاحتلال هزائم متعددة. (المؤلف)

(١) تقع بلدان : الزبير والناصرية والسماوة على الفرات في جنوب العراق.


توزع القبائل العربية
في شبه الجزيرة وبلاد الشام والعراق
البحر المتوسط
سوريا
دمشق
القدس
سيناء
فدعان
السبعة
ولد علي
رولا
عمارات
الموصل
شمر
العراق
بغداد
كربلاء
النجف
الدهامشة (عمارات)
المنتفك
بنو كعب
البصرة
الكويت
النفود الكبرى
الجوف
ولد سليمان
حائل
عبدة
الحويطات
بنو عطية
تيماء
بلي
ولد سليمان
(عنزة)
بنو وهب
(عنزة)
الوجه
جهينة
المدينة المنورة
حرب
مطير
علوة وواصل
الصمان
القصيم
عنيزة
بريدة
بنو خالد
عجمان
القطيف
البحرين
قطر
الرياض
سهول
العجمان
المرة
عتيبة
مكة المكرمة
جدة
ثقيف
البقوم
قحطان
شهران
ربيعة
بنو يام
همدان
صنعاء
الحديدة
عدن
المكلا
مهرة
سيار
عوامر
الكثير
الرشيد
القارة
ظفار
الربع الخالي
بحر العرب
الشارقة
دبي
أبو ظبي
مسقط
عمان
العوامر
الدروع

سنوات هو قراره. منع رعاياه من التسوق من الكويت. أما حاكم الكويت فمن الطبيعي أن يشجع المسابلة فمنعها سوف يدفع شعبة للجوء إلى تهريب البضائع خارجاً لإيصالها للبدو.

الترحال السنوي

خلال أشهر الصيف ـ حزيران وتموز وآب وأيلول والنصف الأول من تشرين الأول ـ يتجمع بدو شمال شرق الجزيرة العربية حول آبار المياه الخاصة بهم (قلبان)، مخيمين في مجموعات متقاربة تتألف من عدد من الخيام يتراوح بين الخمس والخمسين خيمة. وتبقى قطعان الإبل والأغنام ترعى بالقرب منهم، لأن هذه الحيوانات تحتاج للسقاية كل يوم في هذا الفصل.

فصل الصيف هذا، الذي يعاني خلال مدته كل البدو ـ سواء منهم الرجال والنساء والأطفال وكذلك الحيوانات ـ من شدة الحر المضجرة (درجة الحرارة في الخيمة غالباً ما تصل إلى ١٢٥ درجة فهرنهايت)[١]. بالإضافة إلى كون المسابلة أمراً في غاية المشقة على الرغم من الحاجة إليها لنضوب المؤونة. وأخيراً وليس آخراً فالبدوي وقطعان مواشيه معرضون لغزوات الغاية منها استرداد دين قديم أو الحصول على مزيد من الإبل. ففي الصيف كل البدو يعرفون مواقع مضارب كل شيخ وعشيرته.

يبقى القلق مسيطراً حتى ولو ساد السلام. فإذا ما نشب العداء بين قبيلتين أو عشيرتين، وكانت السلطات مشغولة في مكان ما، في هذه الحالة ينعدم الأمن في منطقة كبيرة سواء في ذلك الإنسان والحيوان. هذا بالإضافة لمشقة تحمل الحرارة الشديدة والصفات الخاصة التي تميز صيف الجزيرة العربية. فنتيجة لهذه الحالة من انعدام الأمن، ترى حراساً أشداء يقومون على حراسة قطعان الإبل في المراعي ويتابعونهم حتى عودتهم ليلاً للمبيت. ليس هذا كل ما في الأمر، فحتى لو لم يعكر صفو السلام عداء بين قبيلتين، ففصل الصيف هو موسم دفع (الزكاة) للحكومة المركزية أو لحاكم الدولة. لذا فإن أم المشاكل عند البدوي هي عندما يكون في أشد الحاجة للمال، ومع ذلك فهو يتوقع في أي يوم أن يواجهه جامعو الضرائب فجأة برفقة سريتهم المسلحة. والويل لمن يحاول التهرب من هذه الضريبة فليس هناك من مفر، لأن جامعي الضرائب كالأعداء، يعرفون أين تقع مضارب كل شيخ في الصيف. إن إحساس البدوي البائس بالأمن يتهدده خطران متناوبان، فإذا عمت الفوضى هاجمه

(١) تقارب درجة ١٢٥ فهرنهايت بمقياس سانتيغراد قرابة ٥٢°.

عدوه، وإن ساد السلام فإن موظفي الحكومة بانتظاره. فهو يكره كليهما لأنه يعتقد أنهما لا يبغيان سوى أذيته وهما أعداء حياته وجنسه.

في أواخر تشرين الأول، أو موسم الوسم، يحل موعد المطر وتبدأ الغيوم الصغيرة بالتجمع في أقصى الشرق والجنوب. ومرة أخرى يدب النشاط في حياة البدوي إذ أصبح نجم سهيل[1] ممكن الرؤية عند الأفق الجنوبي. وهذا يعني نهاية صيف رهيب بالنسبة للبدوي، فستقل حاجته وحاجة مواشيه للماء. وحتى دمه سيصبح أقل حرارة من المعتاد.

ويعود البدو سكان الخيم إلى الانتعاش، فقد اجتازوا صيفاً آخر بسلام. فالمطر ـ عصب الحياة ـ بات قريباً ومعه وفرة الخيرات. لذا فالبدوي يحزم أمتعته بسعادة ليكون في الخامس عشر من تشرين الأول مستعداً للرحيل، وستراه راحلاً في نهاية الشهر سواء أمطرت أم لم تمطر. لكنه لا يبتعد كثيراً عن موارد الماء لأن مواشيه بحاجة للسقاية من حين لآخر. ومع تباشير المطر يتابع ترحاله السنوي الكبير. ولنكون أكثر دقة نقول، رحلته السنوية الكبرى. كل عشائر القبيلة يرتحلون معاً، أو يتبع بعضهم الآخر، متنقلين من مرعى إلى آخر، مارين بكل حشائش (العرفج والنصي والحمض) التي جلبها المطر في تهطاله.

أما إذا تأخر المطر في منطقة ما، فإن البدو سرعان ما يرتحلون عنها إلى أخرى مخضرة. ولكن الدليل الأكيد الذي يبشر البدوي بالمطر، هو الليلة التي يكثر فيها البرق وتتكاثر أعداد كبيرة من الغيوم بعيداً في الأفق. وهناك بعض المناطق المعروفة بأنها ممطرة في الخريف دائماً. لذلك يقصدها الشيوخ عادة مصطحبين أحسن جمالهم.

إن حركة تنقل البدو عند اخضرار المراعي مستمرة على مدى الأشهر: تشرين الثاني، وكانون الأول والثاني، وشباط، وآذار، ونيسان، إلى أن يحل شهر أيار فيبدأ البدو بالتوجه مرة أخرى، وشيئاً فشيئاً نحو مناهل الماء. وفترة عودتهم هذه فترة حزينة. فهم يحسون، كما يقال، أن عليهم أن يعودوا إلى موطنهم مرة أخرى بعد هذه العطلة السنوية العظيمة. فخلال أشهر رحلتهم كانت الخيمة تغير مكانها كل عشرة أيام تقريباً

---

(١) إن نجم سهيل يشاهد عادة في نجد في المدة الواقعة ما بين الأول من أيلول والعاشر من تشرين الأول. أما في الكويت، فإذا كانت السماء صافية فيمكن رؤيته بعد العاشر من أيلول وحوالي الساعة ٣,٣٠ صباحاً قريباً من الأفق الجنوبي. (المؤلف)

لسببين: أولهما صحي، وثانيهما كون الحشائش المحيطة قد أتت عليها المواشي بأكملها. لذلك كانت الرحلة بطيئة وسارة حتى ولو كانت المسافة التي سيحطون فيها رحالهم بعيدة، فهي فترة من المرح للجميع، إذ تغير النسوة ملابس الشتاء ويرتدين أجمل ثيابهن ويمتعن أنفسهن باللهو بين الأزهار، بالإضافة إلى صناعة اللبن. أما الرجال، والأغنياء منهم، فصقورهم لا تصطاد إلا القليل من الحبارى. فيلجأون لصيد الظباء. وهم عادة يعيشون حياة مترفة، يسمّنون أنفسهم بتناول اللبن الطازج وحليب النوق والتمر. فإذا ما واجهت القبيلة حالة حرب فسرعان ما تتبدل هذه الحياة الخيالية وتتنقل القبيلة من أرض إلى أخرى ومضاربها متقاربة والجميع على استعداد لمواجهة كل الأحداث المتوقعة.

وللبدوي طريقة مدهشة في الحصول على الأخبار وتتبعها، من هذه الطرق هي طبيعته التي تنذره بالشر قبل وقوعه، فإذا كان هناك خطر ماثل أمامه فهو يعرفه قبل أيام أو حتى أسابيع، ويتخذ الاحتياطات الضرورية لذلك الخطر. فهو يبدو كمن يشتمه عن بعد، فيخرج بندقيته ويمسحها ويلمعها ويجمع الخرطوش اللازم لها. والشيخ في هذه الحالة بالطبع يقود القبيلة في مسيرتها خلال المراعي، ويختار لها مواقع المضارب، فكلمته هي القانون ما دام أمن الجميع يتهدده الخطر.

نفوذ الشيخ وكيفية المحافظة عليه

ليس هناك من شيخ قبلي حصل على المشيخة ببساطة لأن والده كان شيخاً قبله. وبكلمة أخرى، فإن المشيخة لا تنتقل من الأب إلى ابنه الأكبر بالضرورة، ولو كانت تبقى في العائلة. وسواء في ذلك أكانت مشيخة العشيرة أم المشيخة الأعظم، وهي قيادة القبيلة بأكملها. وعلى سبيل المثال، يجب أن يتم اختيار شيخ قبيلة مطير من عشيرة دوشان الملكية. والوريث الذي يريد الفوز بها من أبيه يجب أن يثبت أنه يمتلك الشجاعة الكافية والقدرة على القيادة بالإضافة إلى الحظ. والبدو لا يرغبون بمرشح المشيخة إذا توفرت فيه الشجاعة والقدرة على القيادة دون الحظ، فهم يحتاجون إلى قائد محظوظ في الحرب، وهذا الأهم بالنسبة لهم. كما يحتاجون إلى شيخ محظوظ في السلم، فكل مجرى حياتهم اليومية وخير القبيلة برمتها مرهون بكلمة الحظ هذه. فابن سعود، ملك السعودية الحالي، يدين بعظمته للحظ الكبير الذي باركه وحالفه، أو كما يقول البدو ويعتقدون بأن هناك عوامل هامة ساهمت في تكوين عظمته. إلا أن هذه العوامل لا يمكن أن تقارن بالحظ الذي حالفه.

لا يستطيع الشيخ أن يخبر قبيلته أنه سيشن الحرب على كذا بتاريخ كذا. لأن هذا غير متعارف عليه. فعليه أن يجعل الرأي العام في قبيلته إلى جانبه. لذا وقبل أن ينفذ أي خطوة، يدعو إلى اجتماعات سرية ويجري محادثات يومية مع أفراد قبيلته من المسنين وأصحاب الخبرة. وعند التوصل إلى قرار الحرب وتقع المعركة، عندها تعود القيادة للشيخ وأوامره يجب أن تطاع.

أما في حالات السلم، فيجب على الشيخ أن يبرهن أن بإمكانه أن يلعب بدقة دور الأب لكل أفراد قبيلته، عليه أن يلم بالمشاكل العائلية لكل فرد على حدة، كما عليه أن يعطي حلولاً مرضية جيدة للقضايا التي تعرض عليه ليبت فيها. وأهم من هذا كله عليه ألا يكون بخيلاً، ويبقى بيته مفتوحاً، فليس أبغض على البدوي من اسم البخيل أو لفظه. ومتى شاعت صفة البخل عن أحد الشيوخ فهذا يعني نهايته كشيخ. فالشيخ الكريم يجب أن تدور قهوته في الخيمة دائماً، ويسمع رنين مهباجه من الصباح حتى المساء. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل يتعداه إلى أن الجائعين من أفراد قبيلته، وهم الغالبية الذين لا يتذوقون طعم اللحم من سنة إلى سنة، يتوقعون من شيخهم أن يذبح لهم في المناسبات والأعياد جملاً يأكلون منه حتى الشبع. كما على الشيخ أن يقيم احتفالاً معقولاً في حال وصول ضيف هام إلى مضاربه، أو الأعراس، أو المناسبات الدينية وما شابهها.

والشيخ العظيم يذهب بكرمه أبعد من ذلك، إذ يرسل بعضهم الهدايا بانتظام لأفراد قبيلته من ماشية أو ملابس للنساء. وهذا ما يجعل النساء سعيدات وبالتالي أزواجهن. ولزوجة الشيخ دورها الهام في المحافظة على هيبة زوجها. فالزوجات الأدنى منها منزلة في القبيلة يزرنها دائماً ويشرحن لها مصاعبهن آملين أن تكون مساعدتها لهن مما يدخل خزانة الثياب أو المطبخ. ويعتبر الشيخ العظيم فيصل الدويش أفضل من استطاع أن يجعل نساء قبيلته سعيدات. كما ينطبق هذا أيضاً على جلالة الملك عبدالعزيز بن سعود.

البدوي وشظف العيش

يمكن وصف حياة البدوي بأنها قاسية وصعبة. كما يمكن القول انه دائم الجوع رث الثياب. وأم الصعاب التي تواجهه دائماً هي حاجته للمال وصعوبة الحصول عليه بالطريقة التي يدعوها العالم بالأسلوب الشريف. فإذا لم يستطع أن يعيش على كرم شخص ما، كان عليه أن يسرق أو يغزو (كما هي الحالة عند ابن سعود اليوم)، لأن

الصراع من أجل الحياة صراع طاحن، وهو غير مزود بمهنة يستطيع الكسب منها. وتمضي سنة وتأتي أخرى والبدوي الفقير لم يتناول وجبة مشبعة، بالقياس إلى معدلات وجباتنا نحن الغربيين (هناك عشرات الآلاف من البدو ممن ينطبق عليهم هذا الوصف). ومن المحتمل أن لا يتذوق اللحم إلا إذا حصل عليه إحساناً ممن هو أوفر حظاً منه، أو في وليمة عشاء عند الشيخ. طعامه معظم أيام السنة يتألف من حليب النوق وحفنة من التمر يومياً. أما رعاة الإبل فنصيبهم أقل من ذلك.

ثياب البدوي، كطعامه، غير مرضية. وهي تتألف من رداء خارجي قطني فضفاض يدعى (الدشداشة)، وتستبدل عندما تبلى من مؤخرتها بفعل الزمن، وعباءة، بالإضافة للكوفية والعقال اللذين يغطي بهما رأسه. هذا كل ما يستر به جسمه الناحل. ومع ذلك، ورغم هذه الظروف الخشنة القاسية، يبدو وكأنه خلق من الفولاذ. فهو في الشتاء ـ ولعدم توفر الملابس الدافئة ـ يتحمل أقسى ما في الحياة، ألا وهو البرد. لأن درجة الحرارة شتاءً غالباً ما تنخفض دون درجة التجمد وتصبح الرياح ثلجية تخترق الجسم من السطح إلى السطح. فأنا لم أشعر ببرد في حياتي كالذي شعرته في عمق مئات الأميال من صحراء الكويت عندما تهب الرياح الجبلية أو (ياحي) في شهري كانون الأول والثاني.

إن خطر الموت جوعاً، أو من العوز والفاقة، لا يهددان حياة البدوي رغم كل الظروف التي أسلفتها، فحالة ضيق ذات اليد هذه يسهم في معالجتها عاملان: أولهما أهل البدوي الذين لا يسمحون بتردي وضعه إلى هذا الحد، وثانيهما هو ذلك التقليد الصحراوي المتبع باستضافة أي عابر سبيل لمدة ثلاثة أيام. (إنه مظهر رائع من مظاهر الديمقراطية في الجزيرة العربية).

إن الإنسان الذي لا يملك فلساً واحداً، سيكون وضعه في (لندن) أسوأ كثيراً مما لو كان في الجزيرة العربية حيث يحدوه الأمل دائماً أن يجد خيمة سوداء تستضيفه.

إن حلم البدوي وهدفه في حياته هو أن يمتلك اثني عشر جملاً أولاً، ثم أن يتزوج ثانياً، وبعد ذلك يأتي دور الفرس وخمسين رأساً من الغنم مع كلب سلوقي. وأعتقد أن البدوي يبدأ بامتلاك بندقية أولاً مع ذلول. فإذا حصل رجل الصحراء على هذه الجوهريات سيصبح إنساناً مكتفياً. فالجمال والأغنام يتضاعف عددها خلال سنوات ثلاث، إذ تذبح الحملان المذكرة لأكلها بينما يحتفظ بالنعاج للتكاثر. وينطبق هذا على الإبل أيضاً، إذ تباع الجمال الصغيرة من أجل لحمها وتبقى النخبة المختارة

لتحمل متاع العائلة في الترحال. أما الفرس فلا تباع لأن مهرها ـ إذا لم يذبح عند ولادته ـ سيصبح مصدراً للدخل ويباع قرب المدن في الجزيرة العربية.

يتمتع البدوي بطبيعة ساحرة. فإذا صادقته أو أديت له خدمة فلن ينسى لك ذلك. فهو ابن الطبيعة قبل كل شيء بالإضافة لكونه محكوم لما يدعوه «الشرف». والذي يفتخر به ويعتبر أغلى من حياته نفسها. أما إذا وبخته أو قذفته بأسماء قبيحة فستجده مستعداً لطعنك، أو أنه في أبسط الأحوال سيعبس ويضغط بإبهامي قدميه لتغوصا في الأرض تعبيراً عن غيظه. هذا بالإضافة إلى أنه لن ينفذ لك ما ترغب به. ولكنك إذا عاملته بلطف ودعوته ليتناول فنجاناً من القهوة في خيمتك فقد قطعت نصف الطريق نحو اكتساب ثقته وصداقته، إذا عاملته كذلك، وليس كخادم، حتى ولو كان دليلاً أو حارساً، فسوف ترى رد فعله مدهشاً، ونادراً ما يطلب إعفاءه من العمل. هذا بالإضافة إلى كونه مرحاً يتفهم الطرفة والقصة الجيدة. ولكن عليك ألا تمازحه قبل أن يبدأ واحد من أصدقائه العرب بذلك.

يتصل بالشرف لدى البدوي، مسألة الشرف العائلي أو ما يدعونه (العرض). وتعني هذه الكلمة السمعة الحسنة للنساء ولا سيما الزوجة والأخت، أما إذا شوه عرضه فليس من حل سوى قتل الخاطئة لغسل العار. فإذا كنت تريد علاقة طيبة مع البدوي فما عليك إلا احترام شرفه وعرضه وأن تساعده على حفظهما.

على الرغم من فقر البدوي وتواضع مسكنه، إلا أنه يمتاز بالخبرة كمضيف وهو على استعداد لذبح آخر جمل أو خروف لديه على شرف ضيفه. وليست النساء أقل باعاً من الرجال في هذا المجال. فالمرأة ـ في غياب زوجها ـ إذا ما مر شخص هام تسرع بالخروج من خيمتها وفي يدها إناء من حليب النوق الطازج أو اللبن لتقدمه كدليل على الترحيب.

مثالب البدو

إن للبدوي مثالبه طبعاً، ولكنها بمقاييس الغربيين مثالب مهلكة. فهو وزوجته وسخَيْن دائماً. ولكنها وساخة الوسط المحيط ومختلفة عن تلك التي في المدينة. إذ أن البدوي لا يغسل ثيابه حتى تبلى ليرميها ويرتدي غيرها. والقمل يملأ جسمه وجسم زوجته الطيبة. كما تفوح منهما رائحة غائط الجمال وروائح أخرى. ولكن الأجزاء الهامة من الجسم تبقى نظيفة.

يتصف البدو رجالاً ونساءً بالحسد والطمع اللذين هما روح الحياة لديهم. ومع ذلك فهم لا يسأمون من نعت الآخرين بهاتين الصفتين بينما ينفونهما عن أنفسهم.

ويبدو الحسد بالاغتياب وتشويه سمعة وسيرة من هم أفضل في كل مناسبة. أما طمعهم فصار مضرب المثل، وتسبب في إطلاق بعض الغربيين عليهم لقب (الطفيلي الخبيث في المجتمع العالمي). والحقيقة هي أن بإمكانك أن تجعل البدوي يقوم بأي عمل بنجاح ما عدا (وأعني هنا الصحراويين فقط) أن يضحي بشرفه مقابل المال.

مع كل هذه المآخذ، فإني أجد البدوي وزوجته أكثر الناس ظرفاً وتحبباً. بدائيين كأسلافهم آدم وحواء.

البدوي الحقيقي ذو شعور ديني عميق. وقد أسهمت حياته الصحراوية القاسية بأخطارها الدائمة التي تهدد الإنسان والحيوان، أسهمت في ازدياد تقربه واعتماده على خالقه. فالمشاهد الكالحة المحيطة به من رمال الصحراء الشاسعة، ولون غروب الشمس الدموي، واللون الأصفر المسود للعواصف الرملية، كل هذه الأشياء، ليست إلا تجسيداً لرهبة الشر. يضاف إليها ذلك اللهيب الشيطاني الذي يتصاعد من الرمال كأنه لهيب موقد الساحرة مترافقاً بالسراب الخادع. مجمل هذه الأمور يسهم في إقناع البدوي بأن إلهاً واحداً لا شريك له هو القريب منه دائماً. وهو وحده الذي يحميه من الخطر إذا أحدق به في حال كونه مسلماً حقاً. إن فكرة الإله تلازمه دائماً، واسم الله لا يبارح شفتيه. وهو يصلي بانتظام خمس مرات في اليوم، ولا يقوم بعمل إلا ويسأل الله العون فيه. وتأتي بعد واجباته تجاه ربه، واجباته تجاه جيرانه الأقرب إليه، ويمكن تلخيص سلم الواجبات لديه كما يلي:

١ ـ واجب الإنسان الأول نحو ربه.
٢ ـ حماية الجار.
٣ ـ الاهتمام بأصول الضيافة.
٤ ـ واجبه تجاه المسافر برفقته (رفيق السفر).
٥ ـ مراعاة أصول الحماية الشخصية والاستجارة.
٦ ـ واجبه نحو نفسه وهو أن يقوم بالغزو عندما يستطيع ذلك وأن يحافظ على ما غنمه في هذا الغزو.

والجدير بالذكر هنا أن قيامه بالواجب الأخير يعتبر ـ بالنسبة له ـ تعويضاً عما خسره سابقاً. فالغزو ليس إثماً بل فضيلة، والفضيلة الأكبر هي أن تقتل عدوك. ومن

هنا فالاستيلاء على ماشيته ليست سرقة بل مدعاة للفخر، فعدوك سيفعل الشيء نفسه غداً إن سنحت له الفرصة. (أنظر الفصل السابع).

المرأة البدوية

إذا وازنا بين مناقب ومثالب المرأة البدوية، فالمحصلة أنها امرأة ساحرة بكل ما فيها تقريباً. وينبع سحرها الطبيعي من كونها لا تعرف شيئاً عن العالم. ومعرفتها بالمدينة وحياتها محدودة، يضاف إليها ما تسمعه من أقاويل. فهي لذلك كالطفلة بمرحها وبراءتها. ولكنها سريعة الغضب وتعبس بدون سبب واضح. تملؤها الغيرة وتحب وتكره بعاطفة شديدة. ومع هذا فهي باستطاعتها أن تكون ألطف المخلوقات وأكثرهم تضحية. تحب أطفالها حتى العبادة. وهي لا تملك فكرة تعليمهم النظام والتهذيب، فتراها تكاد تطير إلى زوجها إذا ما حاول معاقبة أحد أولاده. كما أنها تحس بالألم في أعماقها إذا لم يرقد زوجها بالقرب منها كل ليلة.

يحرم على الفتيات غير المتزوجات أن يختلطن بالرجال أو يبنين صداقات معهم إلا ضمن نطاق العائلة الصغيرة. أما المتزوجات فهن يتمتعن بحرية تفوق تلك التي تتمتع بها أخواتهن في المدينة. ويمكن للفتاة منهن أن تظهر أمام أي من رجال طائفتها دون حرج. والبدويات عموماً يملكن لياقة اجتماعية عالية، يرافقهنَّ حرص فائق على سمعتهن، لأن أسوأ ما يحدث للمرأة منهن هو أن تلوكها الألسن. ومع هذا فهن يتصفن بحب القيل والقال وبالخبرة في تشويه سمعة الآخرين مما قد يؤدي إلى مآسٍ بسبب طول اللسان هذا.

يتم بحث المسائل الجنسية العادية أمام الأطفال بصراحة وبساطة. وهذا ما يؤيده المثقفون. في حين قد يجده الانكليزي أمراً مربكاً. وغالباً ما ترافق الأم أطفالها لمراقبة عملية ولادة الناقة أو الفرس أو النعجة إلى جانب الرجال.

ويمكن القول إن البدوية عموماً امرأة فاضلة على الرغم من أنها قد تستسلم للإغراء إن هي تعرضت له. ولكن من حسن حظها أنها بعيدة عنه.

والبدويات يخضن في مسائل الحب بالطبع. كما قد تقع المتزوجة منهن في حب غير زوجها وتصبح أمنيتها الوحيدة ـ والحالة هذه ـ أن تخبر زوجها بالحقيقة كاملة وترجوه أن يطلقها. إلا إذا كان زوجها هو ابن عمها. هذا ما يحدث عادة بين عامة البدو، وليس بين زوجات الشيوخ ورؤساء العشائر. ويقول السيد (ريتشارد بورثون) في

مكان ما من كتابه إن النساء البدويات، في غياب أزواجهن لمدة طويلة، ينتشر بينهن الشذوذ والتصرفات غير الطبيعية. وهذا ما أظنه تشهيراً أو على الأقل مبالغة خطيرة.

مجرى الحياة اليومية للعائلة البدوية في الخريف

الوقت هو أوائل تشرين الثاني. والمكان هو الوفرة على بعد ثلاثين ميلاً من البحر في المنطقة الكويتية المحايدة. نصبت الخيمة على مرتفع بسيط من الأرض بوضع لا يسمح بتسرب ماء المطر إليها. الجميع مشغولون منذ خيوط الفجر الأولى وحتى هبوط الظلام، ولا سيما النساء والفتيات. تساقط بعض المطر للمرة الأولى منذ ثمانية أشهر. وبدأ العشب ينمو وينبت من جديد. الإبل والأغنام كانت متثاقلة في مشيتها، فقد قضت صيفاً قاسياً، والمطلوب لذلك مزيد من المطر قبل أن يذبل العشب الذي بدأ بالنمو. أما رب العائلة فقد امتطى صهوة فرسه في الليلة السابقة، وذهب بعيداً حوالي عشرة أميال بغية البحث عن مراع أفضل ولن يعود قبل غروب شمس هذا اليوم.

في الرابعة صباحاً يقوم أحد الخدم الذكور برفع الأذان الذي يبدأ اليوم به. ومع أن الظلام ما يزال مخيماً، إلا أن الأذان يجعل المخيم كله يستيقظ، وتؤدي النساء الصلاة أيضاً ولكن كل في خيمتها. بعد أداء الصلاة، تقوم المرأة التي عليها أن تصنع اللبن بهز المخض على الأرجوحة. وتغني على إيقاع اهتزازه أغنية خاصة حسب القبيلة التي تنتمي إليها وبعضهن لا يغنين.

أما ربة البيت فتأمر بتحضير القهوة المرة أو الشاي (وهذه بدعة جديدة) وتقديمها لرعاة الأغنام والإبل الذين يبدأ يومهم مع خيوط الفجر الأولى. وهي تقدم لهم مع القهوة حفنة من التمر يأكلون قسماً منها في الحال، ويضعون الباقي في حقيبة جلدية صغيرة كمؤونة لليوم بأكمله. وفي حال عدم وجود القهوة أو الشاي يقدمون لهم إناء من الحليب، في نفس الوقت، يقوم خادم آخر، مهمته أن يحضر الماء وما إلى ذلك، يقوم هذا الخادم بتحرير الحملان المربوطة إلى الحبل المركزي في الخيمة طيلة الليل، وذلك كي يرضعوا من أمهاتهم. ثم يعيد ربطهم إلى نفس الحبل بعد انتهاء الرضاع. يتم بعد ذلك عد الأغنام لمعرفة ما إذا كان الذئب قد اختطف أحدها ليلاً، ثم تخرج للرعي برفقة صبي راع . وبما أن الأغنام هزيلة، نظراً لحاجتها للغذاء ومرورها بالصيف الطويل، فالراعي لا يذهب بها أبعد من ميلين على الأكثر.

يقوم الصبي الراعي هناك بتسلية نفسه بطريقة أو بأخرى حتى تبزغ الشمس التي

تجعله ميالاً للاستراحة. عندها يغرس عصاه[1] في الأرض ويعلق عباءته عليها. ويكفي هذا ليخدع الأغنام ويوهمها بأنه واقف يراقبها ويمنعها من التجول بينما يستغرق هو في النوم. ليس هناك من خطر في النهار طالما أنه على مرمى النظر من المخيم.

بعد خروج الأغنام للرعي يأتي دور الابل. ويجد البعض منها صعوبة في النهوض بسبب الضعف الذي لحق بها نتيجة الصيف. فتعطىٰ تلك ملء فيها تمراً لتشجيعها. وقد يحتاج أحد الجمال من يساعده على النهوض مظهراً احتجاجه بالهرير والتمتمة عند إمساك ذيله ورفعه للأعلى وتحريكه.

إنها على استعداد الآن للمسير. وقد انطلقت على ألسن الرعاة أغنية مشجعة وهم يقودونهم في الطريق، بعد أن ركب كل منهم فوق القائمتين الخلفيتين لأحسن الجمال، وبدا كما لو أنه سينزلق بين لحظة وأخرى فوق ذيل الجمل. أما أغنية الرعاة فهي غير مألوفة وهي تعلو وتنخفض بنغمة مبتورة. ويبدأ الراعي أغنية عادة بوصف المراعي الجميلة التي سيقود الجمال إليها. ثم يخاطب الجمال بأن عليها أن تثق به، فهو مرشدها وراعيها. وأنه هو الذي يقودها إلى حيث الكلأ والعشب الأخضر الريان. تتبع الجمال راعيها في رتل أحادي وهي تصدر أصواتاً مختلفة كما لو أنها تفهم ما يغنيه الراعي لها. وآخر ما تسمعه أو تراه، بعد أن يبتلعهم ضباب الصباح، هو غناء الرعاة البعيد. والجمال كالأغنام لا تذهب بعيداً إذ تبقى حدودهم بين خمسة إلى ثمانية أميال. فقد جعل الصيف المراعي نادرة وعلى الجمال أن تذهب أبعد من الأغنام حتى تحصل على ما يكفيها. وراعي الإبل لا ينام طيلة النهار فهو ذو أهمية وقيمة بالغين. إذ عليه أن يراقب الجمال وبندقيته جاهزة حتى لو لم يكن ما يحيط به ينذر بالخطر. ولقتل الوقت، يمكن للراعي أن يقوم بالبحث عن الكمأة في قمم الهضاب، أو يحاول التقاط جرذان الصحراء (الجرابيع)، ولكن الأهم على كل حال أن يستمر في المراقبة حتى يحين موعد العودة إلى المخيم.

بعد خروج الأغنام والإبل إلى المراعي، وعندما ترتفع الشمس عند الأفق، تقوم العائلة البدوية بتناول إفطارها، وهو إفطار هزيل يتألف من قليل من الشاي دون

---

(١) وتدعى (المخيال) وهي العصا التي يحتفظ بها راعي الغنم ليعلق عليها عباءته ليوهم الأغنام أنه يراقبها فلا تتجول. وتحتفظ كل خيمة بواحدة منها. والغنم الأسود الذي يعيش في الحسا والكويت هو وحده الذي يهتم بهذا المنظر أما النجدي والعراقي فلا يأبه بذلك. (أنظر الإنجيل حيث يقول: عصاك وقضيبك هما اللذان يريحانني) والعصا هنا هي المقصود بها دون شك المخيال العربي. (المؤلف)

الحليب، وبعض التمر، أما إذا كانت ربة البيت متذخرة فهي تحضر بعض الخبز للجميع كمؤونة ولكن غالباً ما يخرجون لأعمالهم دونها.

بعد ذلك تخرج فتاة البيت بصحبة أختها الأصغر أو ابنة الجوار بقصد جمع حاجة اليوم من الحطب، ونبات العرفج ،هو ما يبحثن عنه، وبما أن لهذا النبات جذوراً قاسية فهن يتسلحن بفأس صغيرة وبعض الحبال المصنوعة من شعر الماعز، بغية حزم الحطب لحمله على رؤوسهن. يرافق الفتيات عادة بعض الأطفال بين سن الخامسة والعاشرة، وذلك للبحث عن زهرة مبكرة أو الكمأة. هذه طريقتهم الوحيدة للهو، إلى جانب أساليب قليلة للهوهم. والفتيات يتحركن برشاقة وقد ربطت أكمامهن خلف رقابهن ليحررن أذرعهن، كما يرفعن أطراف أثوابهن إلى خصورهن لتكون حركتهن سهلة. ويا لها من قامات ممشوقة رشيقة تلك التي يتمتعن بها، وهن يقمن يومياً بجمع الحطب ويمشين من أجل ذلك ميلين أو ثلاثة كل صباح، ليجعلن من أجسامهن قوية ممشوقة تؤهلهن لحمل الأطفال فيما بعد.

بعد مرور ساعتين تعود الفتيات، وكل منهن تحمل كمية كبيرة من شجيرات العرفج فوق رأسها. ويلي الفتيات الأطفال المتعبين الذين رافقوهم. أما سيدة البيت فليست كسولة إذ أنها، بمساعدة أختها أو أمها ـ إذا كانت على قيد الحياة ـ قد تقوم خلال هذه الفترة بعرض مفروشات النوم (اللحف) للشمس، أو تنظيف الأواني التي أعد فيها عشاء الليلة السابقة، أو إعادة ترتيب محتويات الخيمة، كما تكون قد أرسلت الراعي الاحتياطي لإحضار الماء من أحد الآبار التي مروا بها وربما تكون على بعد عشرة أميال.

بعد ذلك يتناول الجميع ما يشبعهم، أما إذا كانت العائلة فقيرة فلن تكون هناك وجبة عند الظهر، بل عليهم الانتظار حتى غروب الشمس، تقوم ربة البيت بعد هذه الوجبة بتنظيف أواني الطبخ لتلتفت بعدها إلى حياكة أقمشة تحتاجها الخيمة. أو قد تعمل على حياكة قاطع أو مسند ربما تبيعه عند زيارتها للمدينة ضمن عملية المسابلة. والقاطع ـ إذا كان جيداً وفيه لمسة فنية ـ فإنه يساوي بين خمسة وأربعين إلى خمسين ريالاً سعودياً وهو مبلغ ضخم بالنسبة للعائلة البدوية.

قبل غروب الشمس بساعة تقريباً، تخرج سيدة الخيمة مع أولادها في نزهة على الأقدام وذلك بعد أن تعطي التعليمات بإملاء الحوض ماءً (وهو عبارة عن وعاء كبير من الجلد كالطست مثبت على قوائم ثلاث خشبية معقوفة). وقد خصص هذا الحوض لتشرب منه الأغنام حين عودتها، وكذلك فرس سيد البيت. يتسع الحوض لكمية كبيرة

من الماء تفيض عن حاجة الأغنام الآن لأن مراعيها جيدة. أما الإبل فلا تشرب منه لأنها تستهلك كمية كبيرة من الماء. وهي في الخريف لا تحتاج إلى الماء إلا كل خمسة أيام، لذا فراعيها يأخذها إلى أحد موارد الماء ليسقيها (يوردها). . وفي رحلته هذه إلى الماء، يصطحب الراعي معه دلواً جلدياً وحبلاً ليسحب الماء بواسطتهما. كما يصطحب كل جَرابات الماء لملئها وإعادتها للمخيم.

عند غروب الشمس، يترقب الجميع عودة سيد البيت وعيونهم مُسمّرة على الأفق حتى يظهر على فرسه تسير خبباً، وعند اقترابه من الخيام تبدأ الكلاب بالنباح، ويندفع الأطفال للقاء أبيهم، بينما تأمر الزوجة بتحضير القهوة، عندما يترجل عن فرسه تقوم الزوجة والإبنة بأخذ الفرس وترمي على ظهرها الجِلال (دثار) قبل وصولها للماء لتشرب، بعد أن تشرب الفرس يوضع لها قيد حديدي، وتترك مع وجبة من الشعير، إذا كانت العائلة ميسورة، أما إذا لم تكن كذلك فلا تعطى شيئاً.

يتبادل الجميع التحية وتقدم القهوة، ثم توجه الأسئلة لسيد البيت عن نتيجة رحلته، فيفرد هذا ثنية دشداشته ليخرج منها نماذج عديدة من الأعشاب المختلفة التي نمت في الأماكن التي زارها، والتي أحضرها معه ليريها لزوجته وللرعاة، ثم يثني على ما وجده منها، ويخبرهم أن المراعي جيدة وعديدة ولم يمر بها بدوي غيره. لقد أتى بأخبار جيدة (بشارة) وهو يريد نساءه والآخرين أن يشعروا بالسرور للبشرىٰ التي أتى بها ويقول: (أقسم بالله إنها ممتازة، ممتازة جداً، ولم يصل إليها أحد. يا أطفالي، يا خدمي، سوف ننتقل إليها غداً صباحاً).

ماذا بعد كل ذلك؟ هل هي مراعٍ جديدة حقاً؟ إنها مجرد مواقع هطل المطر فيها فتشكلت بنتيجتها منحدرات أو بقعٍ من الأرض مخضرة تنتظر الإنسان أو الحيوان أن يجدها، ونظراً لندرة مواقع كهذه فإن العثور عليها يعتبر بشرىٰ.

مع غروب الشمس تعود الإبل إلى المضارب، ولكن الرعاة هذه المرة في مؤخرة القطيع، وهم لا يغنون بل يشجعون القطيع بقولهم (واهو، واهو، أسرعن يا بناتي فالليل قادم، إن الوقت متأخر، متأخر).

عند وصول الإبل للمخيم، تؤخذ بعناية إلى مقدمة الخيمة حيث تناخ هناك في نصف دائرة ورؤوسها تقابل الجهة المفتوحة من الخيمة من أجل حمايتها وتأمين الدفء. فالخيمة تحميها من برودة الليل، والإبل تفضل أي ملجأ من ريح الليل الباردة ما دامت تبيت في العراء.

بعد ساعة من غروب الشمس، وبعد أن يرسخ الليل أقدامه، تعود الأغنام وهي تنادي على حملانها بكثير من الثغاء، ليشبعوا بطونهم الجائعة بعد انتظار في المخيم طيلة اليوم، تدخل الأغنام في نطاق نصف الدائرة التي شكلتها الإبل حيث تتحرر الحملان هناك. ولكن الحملان يحتاجون إلى من يقودهم كل لأمه لأن النعجة لا تقبل غير حملها، لا سيما وأن الاستدلال أمر صعب، نظراً لضجيج أصوات النعاج والحملان، بالإضافة للظلام المخيم. تستغرق هذه العملية حتى وصول كل حمل إلى أمه عشرين دقيقة تعم خلالها الفوضى.

بعد أن تحصل الحملان على كفايتها، يقوم الرعاة بإعادتها إلى داخل الخيمة وربطها فيها. يتم كل ذلك تحت جنح الظلام لأن الأنوار تعتبر ترفاً لا تطيق العائلة البدوية تحمله. والأماكن الوحيدة التي توجد فيها النار هي المطبخ حيث تُحضر عليها وجبة المساء. وأمام الجزء المخصص للضيوف من الخيمة حيث يجلس سيد البيت وقربه قليل من النار تنبعث من روث الجمال المتجمر، ويرمي فوقها بين الفينة والأخرى عصباً من العرفج ليعيد تصاعد اللهب الذي ينير ما حوله ويمكنه من معرفة ما قد يجري.

يلي ذلك تناول العشاء، وهو وجبة خفيفة قوامها الرز المسلوق واللبن الذي يعب منه سيد البيت كميات كبيرة، وقد يترافق الطعام بقليل من الخبز أحياناً. أما النساء فلا يأكلن مع الرجل مساء لأنهن تناولن وجبة خفيفة. والزوجة فقط هي التي تبقى بجوار زوجها لتؤمن له كل ما يحتاجه. ثم تُقدم القهوة بعد ذلك ويأوي بعدها الجميع إلى النوم مبكرين.

في تلك الليلة تجلت قدرة الله ورحمته لعباده. فعندما ساد السكون ونام الجميع، كانت سحابة رعّادة تزحف فوق المخيم قادمة من أقصى الشمال الغربي حيث كانت فوقه تماماً في حوالي الثالثة صباحاً. كان السكون المخيم كأنه الموت. حتى الكلاب امتنعت عن النباح. والنائمون يتقلبون في مراقدهم متململين فالهواء كان حاراً ومضجراً. وفجأة، بدأت الرياح بالهبوب. وقام الراعي الذي كان يحرس الأغنام بإيقاظ سيده وهو يهمس له: إن الله كريم، وسوف تمطر إن شاء الله فرحمته آتية، يا الله امنحنا بركتك. تلا ذلك قصف الرعد ولمعان البرق بخطوط متشابكة، ذلك اللمعان الذي أنار المنطقة برمتها بلونه الأبيض المزرق الزاهي. ثم توالى قصف الرعد كأنه طلقات مدفعية ثقيلة تنطلق في وقت واحد ثم يتلاشى صوتها بعيداً. انطلقت في المخيم إثر ذلك الصيحات والصرخات واندفع الرجال نحو الإبل والأغنام، كما اندفعت النسوة

نحـو حبـال الخيمـة لتفقـدهـا . وانهمر المطر أخيراً بـدأ بقطرات كبيرة ثم خـلال ثـوان أصبح غزيراً. ويا لها من غزارة. ولحسن الحظ لم يترافق المطر بالرياح فلم تكن تسمع سوى صوت ارتطام قطرات الماء بصفحة الأرض.

وقف كل واحد، ولمدة عشر دقائق، ينتظر ما سيحدث، إذ أنه يتوقع الرياح التي تترافق عادة بمطر كهذا، ولكن الرياح لم تأت، عندها انطلقت صيحات المرح، بينما كانت الوهدات المحيطة بالمخيم قد قاربت على الامتلاء بالماء، أما الخيام التي تجثم على أرض مرتفعة عما حولها فقد بقيت آمنة من تدفق الماء إليها. وفي الثالثة والنصف صباحاً كانت الأراضي المحيطة بالمخيم عبارة عن بحيرة واسعة ضحلة. وفي الرابعة إلا ربعاً، بدأت الأمطار تخف تدريجياً. وبالرغم من كل شيء، اندفع الجميع، رجالاً ونساءً وأطفالاً، يجمعون ماء المطر الرقراق في أية آنية تقع يدهم عليها من قُرب الماء إلى أواني الطبخ. بعد امتلاء جميع الأواني جلست النساء والأطفال في برك الماء يتمرغون فيها من شدة فرحهم بها، بينما قام الرجال باستنهاض الجمال وقيادتها نحو البرك لتعب من مائها الموحل. الفرح يعم الجميع فهم يشربون ماءً عذباً الآن بعد أن شربوا ماء شبه مالح، وحتى مالح أحياناً طوال الأشهر التسعة الماضية. ها قد أتت الرحمة الإلهية، فالله عظيم ورحيم بالمسلمين.

بقي الظلام الدامس مخيماً ولا أحد يملك قنديلاً حتى انبلج الفجر أخيراً ورفع الأذان، وتعالت أدعية الشكر لله نابعة من القلب. عندها سقط ضوء النهار على المنطقة وكان منظراً رائعاً. فكل خيمة بدت كأنها سفينة نوح وهي تربض على مرتفع من الأرض صغير وبحر من المياه العذبة يحيط بها لمسافة ميلين. هذا المشهد يعيد إلينا قصة الطوفان في الإنجيل.

إلى الجهة اليمنى، وعلى مبعدة توجد بعض الهضاب المنخفضة. وعلى اليسار يمكن رؤية مسيلات الماء وسماع صوت هديره الخفيف من بعد. ها قد انتهى الصيف بعد أن طال كثيراً جداً. وبانتهائه تعود الحياة والسعادة مرة أخرى للبدو، ويصرخ الأطفال بمرح (الآن يمكننا مشاهدة الفقع «الكمأة»).

(الوصف السابق هو نتيجة خبرة شخصية في ٢ تشرين الثاني ١٩٣٣).

الفصل الرابع

الخيمة وأثاثها

تصنع الخيمة أو بيت الشعر من قطع مستطيلة من القماش الخشن الأسود أو البني اللون. وتعرف هذه القطعة باسم (فُلَيْج، جمعها فلجان). ينسج قماشها من شعر الماعز أو صوف الغنم، وليس من وبر الجمل، وعلى هذا فإن تسميتها بخيمة شعر الجمل تسمية خاطئة. ويتم تحديد طول القطعة وعدد هذه القطع لكل خيمة بالاعتماد على أهمية وأوضاع مالكها المادية. فالشيخ العادي - على سبيل المثال - تتألف خيمته من ست قطع عريضة، يبلغ طول الواحدة منها سبعين قدماً محمولة على أربعة أعمدة. بينما تتألف خيمة البدوي الفقير من قطعة ضيقة رخيصة يبلغ طولها خمسة وعشرين قدماً محمولة على عمودين وقد يكون واحداً.

لا يطمح الشيخ البدوي الحقيقي إلى امتلاك خيمة أكبر من التي سبق وصفها، لأنها ستعيقه في ترحاله، إلا أن الشيوخ القادة، كما في قبيلة عنزة، أو الشمريين الشماليين، أمثال (ابن شعلان، وابن هذال، وعجيل اليَرْوَرْ)، وكذلك الأمراء العرب أمثال آل سعود، وشيوخ البحرين والكويت وقطر، هؤلاء لديهم خيام من الحجم الهائل إلا أنهم عملياً لا يستخدمونها سوى عند خروجهم في أشهر الربيع إلى مخيمات ثابتة ينطلقون منها لصيد الغزلان واقتناص الحبارى بالصقور. أي بمعنى أنها لا تستخدم في الترحال.

نعود للحديث عن الخيمة، فقطعها تخاط معاً لتشكل مستطيلاً طويلاً، ثم ترفع فوق الأعمدة، وتشد جوانبها إلى الأرض بحبال تسمى (أطناب). تقسم الخيمة باثنتين أو ثلاث من الستائر المزخرفة الطويلة تعرف باسم (القاطع). يعلَق القاطع على أعمدة

الخيمة بارتفاع حوالي ستة أقدام عن الأرض. يربط أو يثبت أحد طرفيه إلى سقف الخيمة في مؤخرتها. أما طرفه الآخر فيمتد إلى الجهة المفتوحة من الخيمة حيث يثبت بسقف الخيمة وحبالها الممتدة. كل من هذه القواطع له في احدى نهايتيه طرف مزخرف بشكل جميل، هذا الطرف يجب أن يكون ممتداً نحو الخارج من الجهة المفتوحة للخيمة. وفي حال تبدل وجهة الرياح وفتح الخيمة من جهتها الأخرى، فإن هذا القاطع يطوى إلى الداخل ويعاد تثبيته. أما عدد الحبال التي تدعم الخيمة في المقدمة والمؤخرة، فهو يعتمد على عدد الأعمدة التي تقوم عليها الخيمة. ويلزم لكل عمود حبلان، أحدهما لشده للأمام والآخر للخلف.. ولهذا فإن الخيمة التي تقوم على ثلاثة أعمدة سيكون لها ستة حبال، ثلاثة من كل جانب. هذا عدا نهايتي الخيمة التي تحوي كل منهما ثلاثة حبال تشدها. الشكلان (٢ و ٣).

أما جوانب الخيمة فتتألف من قطعتي قماش طويلتين بشكل كاف لتسدا فتحتي الخيمة الأمامية والخلفية ليلاً، وتسمى الواحدة منها (بالرواق) وهي مصنوعة من أربع شرائح قماشية ضيقة. تثبت هاتان القطعتان بأطراف سقف الخيمة بواسطة عدد من الدبابيس تدعى (خِلال) ويتدلى الباقي منها نحو الأرض، ليدفن الفائض من القماش في الرمال، أو تُشَدّ بأوتار إذا كانت الأرض صلبة. هذا وتتعرض الشريحة القماشية السفلى من الرواق عادة للتلف بسبب المطر والنمل الأبيض.

إذا استعرضنا خيمة كاملة منصوبة نجد فيها الأقسام الرئيسة التالية:

أ ـ سطح بيت الشعر: يتألف من ست شرائح قماشية أو (فلجان) متصلة ببعضها طولاً.

ب ـ الأعمدة.

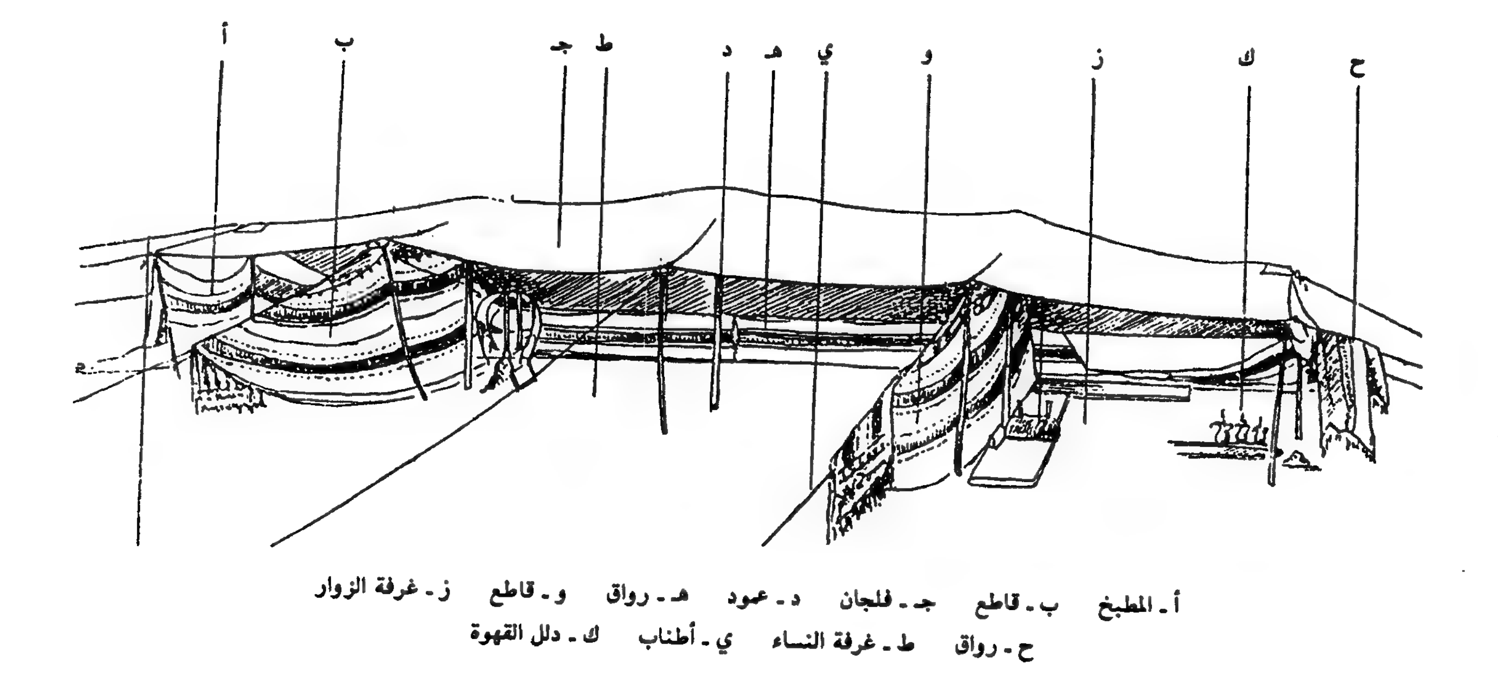
ج ـ الستائر المقسّمة أو القواطع.

د ـ الستائر الجانبية (الأروقة) المتصلة ببعضها عند منتصف الفتحة للخيمة والممتدة حول الخيمة حتى نهايتها المفتوحة.

هـ ـ حبال الخيمة أو الأطناب.

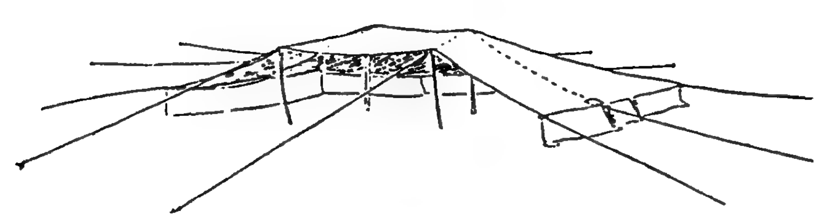
القاطع أو الستارة المقسّمة

أدرج فيما يلي النماذج المعروفة للقواطع أو الستائر المقسمة لدى مطير وعجمان مع الاسم الذي يعرف كل منهما به. ومع أن شريحة من القاطع يبقى اسمها واحداً،



أ ـ المطبخ ب ـ قاطع جـ ـ فلجان د ـ عمود هـ ـ رواق و ـ قاطع ز ـ غرفة الزوار
ح ـ رواق ط ـ غرفة النساء ي ـ أطناب ك ـ دلل القهوة

الشكل (٢) خيمة بدوية ذات أعمدة ثلاث



الشكل (٣) المنظر الجانبي للخيمة

إلا أن رسومها تختلف باختلاف القبيلة والوقت الذي تستغرقه لإنجازها. ينطبق هذا على الشرائح الأولى والثانية والثالثة. فالقاطع يصنع من أربع شرائح تخاط معاً ويبدأ الترقيم من الأعلى. الشكل (٤):

١ - **الشريحة الأولى وتسمى (السيف)**: وهي سوداء اللون يتوسطها أفقياً رسم النموذج (أ) وفوقه رسم النموذج (ب). يبلغ عرض الشريحة شبراً وأربعة أصابع أو ما يعادل اثني عشر إنشاً.

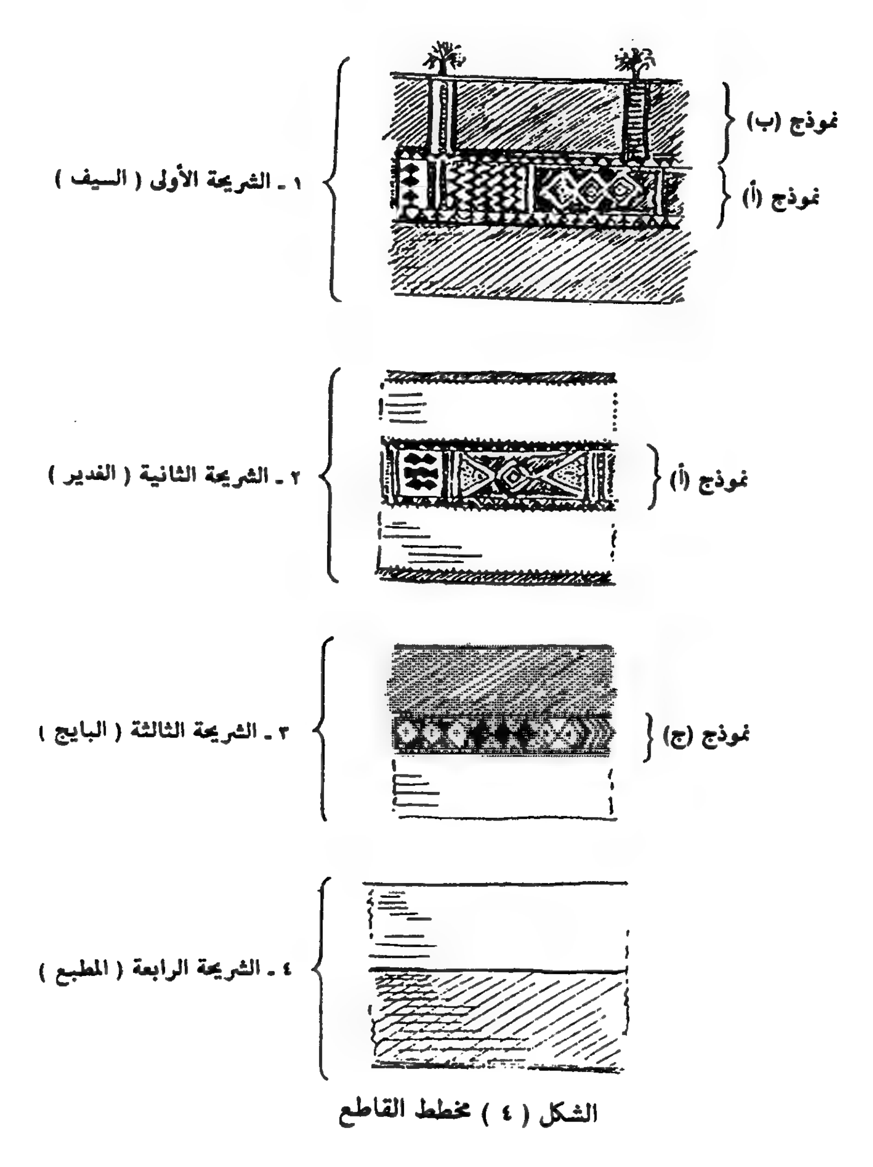
٢ - **الشريحة الثانية وتسمى (الغدير)**: وهي ذات لون أبيض يحيط بأطرافها إطار أسود بعرض انش واحد. يتوسط البياض أفقياً رسم النموذج (أ)، ويبلغ عرض الشريحة شبرين أو ثمانية عشر إنشاً.

٣ - **الشريحة الثالثة وتسمى (البايج)**: وهي تلي الغدير ينصفها أيضاً رسم النموذج (ج) أما جزؤها العلوي فهو بلون أسود بينما جـزؤها السفلي بلون أبيض. يبلغ عرضها شبرين أو ثمانية عشر إنشاً.

٤ - **الشريحة الرابعة والأخيرة وتسمى (المطبع)**: وهي القطعة السفلى في القاطع التي تمتد على الأرض، نصفها الأعلى أبيض ونصفها الأسفل ذو لون بني داكن أو فاتح وعرضها شبران أو ثمانية عشر إنشاً.

الرواق (أو الستارة الخلفية للخيمة)

يتألف الرواق من أربع شرائح قماشية مخيطة ببعضها أفقياً لتؤلفـ ستارة طويلة ضيقة. الجزء السفلي من الستارة عليه رسوم من نموذج معروف ومنتشر في صحراء الكويت والحسا. والرواق المخيط هذا يحيط بمؤخرة وجوانب الخيمة البعيدة ونماذجه بسيطة. وقد تحذف من بعضها الشريحة البيضاء الثانية. تحاك قطعة من القماش الخشن وتخاط على طول الحافة السفلى للرواق وهي مخصصة لتمتد على الأرض.



الشكل (٤) مخطط القاطع

وتدفن بالرمال عادة لتصبح ثقيلة. أما درجة اللون البني الذي يغلب عليها فتعتمد على الصوف المتوافر. هذا ويرغب الرجال الميسورو الحال بالأروقة الجميلة البيضاء والسوداء. أما الفقراء فليس لهم سوى أن يقبلوا بالرواق البسيط البني أو الأسود.

إن حياكة القماش الذي تتألف منه الخيمة تدخل في نطاق عمل سكان المدن والقرى الواقعة على حدود الصحراء. كما تنشط تجارة مثل هذه البضائع في الكويت والقرىٰ الصغيرة المجاورة (للجهرا والقُصُر). ولكن هذا لا يعني أن عمل الحياكة

مقتصر على المدن. فهو منتشر لدى القبائل نفسها إلا أن أحسن المواصفات وأقوى المواد الأولية اللازمة لصناعة خيام الشيوخ تأتي غالباً من المدن.

أما الواقع الفعلي، فهو أن جميع النساء القبليات المتواضعات يقمن بأنفسهن بحياكة وتجديد الأجزاء البالية من الخيمة، إلا إذا كن من اللائي تتوافر لديهن الأسباب الكافية للشراء من المدن. هذا ما صرحت لي به (رِفْعَة) زوجة الشيخ (ثويران أبو صفرة) من مطير عام ١٩٣٤ ونساء أخريات.

إن أجود الأقمشة المستعملة في الخيام وأكثرها رواجاً هي تلك المصنوعة من شعر الماعز الصافي[١]. فهي ذات سواد داكن وأكثر سماكة من تلك المصنوعة من صوف الغنم، كما أن مظهرها أحسن. أما المصنوعة من خليط من شعر الماعز وصوف الغنم فهي جيدة ومفضلة أيضاً وهي تبدو بلون أسود وبني مخطط جميل.

ويجدر بنا أن نتحدث هنا عن حبال الخيمة. فهي تصنع طويلة جداً، وتشد إلى الأرض بواسطة أوتاد خشبية في حال كون الأرض صلبة. أما إذا كانت رملية فالطريقة العملية هي حفر حفرة بعمق قدمين حيث تربط نهاية الحبل إلى حزمة من العرفج ويدفن الجميع في الحفرة، تماماً كمبدأ المرساة في المراكب، والحبل الذي يشد بهذه الطريقة نادراً ما يفلت.

عندما يشتري الرجل البدوي خيمة فإنه يشتري أعمدتها بشكل منفصل. ثم يشتري الشرائح القماشية التي تؤلف سقف الخيمة ملفوفة على شكل أسطوانات حسب الطول الذي يرغبه. يلي ذلك القواطع والستائر الخلفية أو الرواق. يعطي الشرائح القماشية لزوجته التي تقوم بخياطتها معاً. بواسطة خيوط من شعر الماعز، تحت رقابة امرأة أكثر منها خبرة وأكبر سناً. فعمل كهذا يحتاج إلى كثير من المهارة والحرص لتقف الخيمة مستقيمة دون أي إخلال برسومها المرسومة بعناية.

بعد أن يتم تجميع شرائح السقف تأتي دور (الطريجة، جمعها الطرايج)، وهي شريحة بالغة القوة بلون أبيض وأسود عرضها ستة إنشات، ومهمتها تثبيت رؤوس الأعمدة وتحمّل شد الحبال الواقع عليها. وتخاط الطريجة على الوجه السفلي للسقف ممتدة من المقدمة إلى المؤخرة. بعد هذا تخاط ضمن قماش السقف، من الجهة السفلى، وحيثما تتوضع رؤوس الأعمدة، قطعتان خشبيتان اسطوانيتان كقطعة النقانق بطول إنش ونصف الإنش وتدعى الواحدة منهما (قَتْبة). مهمة هاتين القطعتين

---

(١) قد تكون أحسن هذه المواد هي تلك التي تصنعها قبيلة (بني لام) قرب (العمارة) في العراق. (المؤلف)

منع رؤوس الأعمدة من تخريق قماش السقف وفتح فتحة فيه. وهما لا تبدوان ظاهرتين للعيان لأنهما مخيطتان مع القماش في نقطة اتصال شريحتي السقف المركزيتين. يتوضع كل عمود في الخيمة في منتصف هاتين القطعتين مما يحمي قماش السقف من الأذى.

أما في المناطق الشمالية فيحدثون خروقاً في سقف الخيمة لرؤوس الأعمدة إلا أن قبائل الحسا ونجد لا تفعل ذلك.

وأخيراً يأتي دور (الرِّتبة)، وجمعها أرتاب، وهي قطعة خشبية نصف دائرية تخاط على نهايتي الطريجة لتتصل الحبال بها عند شد الخيمة، والعملية هذه على قدر كبير من الأهمية إذ يجب أن لا تكون الأرتاب ضعيفة. والآن صارت الحبال (وهي حبال غليظة مصنوعة من خيوط القنب) مربوطة إلى الخيمة وكل شيء جاهز لنصبها.

إن عملية نصب الخيمة هي من اختصاص النساء دائماً يساعدهن الخدم والعبيد أحياناً أو صغار الأبناء، بينما يقوم رأس العائلة (راعي البيت) بتسيير العمل. ومن المدهش أنك سترى كل شخص يقوم بالمهمة التي أنيطت به على أكمل وجه وهو يعرفها ويهرع لتنفيذها كلما دعي للعمل في نصب خيمته. أما فتيات البيت فيقمن بدق الأوتاد في الأرض بأداة حجرية طويلة تعرف باسم (الفِهر). في حين يقوم الخدم الذكور بمهمة رفع الأعمدة وتثبيتها.

فيما يلي التعليمات التي يمليها مالك الخيمة على نسائه وخدمه لنصب الخيمة. وهي على شكل تمرين نظامي يخاطب فيه الشخصيات بأسمائها. وقد ترافقت التعليمات بطبيعة الحال بقليل من الكلام غير المتكلف والذي لا ضرورة لتفصيله هنا.

١ ـ أبسطوا الخيمة يا عيال. (أي بسطها من وضعية اللف الأسطواني كما كانت على ظهر الجمل).
٢ ـ افردوا الحبال يا أولادي (لوضعها في الزوايا الصحيحة للخيمة).
٣ ـ ثبتوا الحبال بالأرض يا فلان وفلان.
٤ ـ أو، لُف رؤوس الحبال حول الأوتاد يا ناصر.
٥ ـ أربطوا الحبال يا حصة ويا وضحة.
٦ ـ شدوا نهايات الحبال يا مرزوق ويا ناصر.
٧ ـ ثبتوا حبال المقدمة. وتكون المقدمة بعكس اتجاه الريح.
٨ ـ ارفعوا الأعمدة المركزية. هذه من مهمات الرجال.

٩ - ارفعوا أعمدة الجهة الخلفية والأعمدة الجانبية الباقية.

١٠ - والآن، انحنوا وقوموا بشد الحبال مرة أخرى.

١١ - والآن، روِّقوا البيت. (أي انصبوا الستائر الجانبية والخلفية «الرواق») وغطوا حافته السفلى بالرمال.

١٢ - ثبتوا الآن القواطع أو الستائر المقسمة.

١٣ - أخيراً، مدوا السجادة والدواشك وجهزوا قسم النساء وقسم الرجال في الخيمة. (ويقع قسم النساء في الوسط وإلى اليسار ويدعى «مرقد الحريم»). بينما يقع قسم الرجال على اليمين ويدعى مرقد الرجال.

تم الآن نصب الخيمة، وتقوم النسوة بوضع أشيائهن الثمينة وما إلى ذلك في القسم الأوسط من الخيمة بالإضافة إلى مفروشات النوم والحرامات والطعام. كما نقلن إلى عمق الخيمة أواني الطبخ وأدواته محولين ذلك الجزء إلى ما يشبه المطبخ.

قسم الرجال في الخيمة

مدت بعد ذلك في قسم الرجال سجادة أو اثنتان يبدو عليهما كثرة الاستعمال. كما فرشت أحسن الدواشك (وهي فرش محشية تستعمل للجلوس عليها)، بالاضافة إلى سرج جمل سيد البيت المكسو بجلود الخراف البيضاء والسوداء. كما صُفَّت الوسائد (المساند) على كلا جانبي السرج وخلفه، ليستريح عليها ظهر الضيف، وبشكل عام فقد تحول المكان إلى صالون استقبال أنيق لأي من العابرين. ثم قام سيد البيت بتعليق بندقيته (بخطاف) مع عمود الخيمة في صالة الضيوف. كما أنجز تحضير حفرة للنار لتحضير القهوة وذلك في أرضية الصالة. وتم هذا بحفر حفرة مستديرة غير عميقة تدعى (وُجار)، ثم أخرج أواني القهوة المؤلفة من ثلاث دِلال بالإضافة إلى رابعة مقيدة ومنتفخة. وصفَّهم في نسق على جانب الحفرة مع محمصة البن وذراع التحريك العائد لها. ثم قام أخيراً بترتيب فناجين القهوة في إناء نحاسي أصفر أسطواني الشكل إلى جانب الهاون النحاسي ومدقته والمبرِّد (قطعة خشبية مسطحة لتبريد حبات البن عليها)، والمُخباط (وهو عصا خشبية لتحريك القهوة الساخنة)، والليفة (وهي قطعة من الليف توضع في بزباز دلة القهوة)، والمبخر (إناء لحرق البخور). كل شيء جاهز الآن لاستقبال الضيوف باستثناء حب القهوة وما يلزمه من حب الهال، وشجيرات الغرفج لتحضير النار، والجلَّة (وهي روث الجمال الجاف بدلاً من الفحم)، وماء الشرب المحفوظ قرب قسم النساء في الخيمة. حالما يشاهد ضيف قادم، تكون هذه الأشياء الضرورية من ماء ونار قد أحضرت ريثما يجلس الضيف.

إن كون الخيمة تعود لرجل بدوي فقير، لا يعني أي تغيير في أسلوب ترتيب الأشياء في الخيمة، إلا أن ما يختلف هو النوعية فذلك يتبع حافظة النقود.

إذا اتكأ الرجل على السرج في قسم الضيوف يقال عنه (مرتكي). وإذا أسند ظهره على وسادة أو ما يسمونه المسند يقال عنه (مستند). إذا روى قصة فيجلس متربعاً. وإذا جلس ليأكل فإنه يثني ركبته اليسرى ويجلس على كاحل القدم نفسها، بينما تكون يده التي يأكل بها تتحرك فوق ركبته اليمنى التي تكون منتصبة. وعندما يغسل يديه فإنه يجلس القرفصاء وركبتاه متباعدتان.

قسم النساء في الخيمة

تقوم النساء والخدم ـ إن وجدوا ـ بالاهتمام بأواني الطبخ ووضعها في قسم النساء والمطبخ، بالإضافة إلى الأمتعة الثقيلة، والأكياس التي تحتوي على الرز والطحين والملح والتمر والسكر، والتي تخزن مستندة على القاطع الذي يفصل قسم النساء عن قسم الرجال. كما تعلو (خروج) الجمال على أعمدة الخيمة مع الأشياء النثرية الأخرى بما في ذلك البندقية الاحتياطية لسيد البيت مع ذخيرتها. أما اللحف الحمر، والتي تحل محل البطانيات كدثار فإنها تطوى وتوضع فوق المواد المخزنة ثم تغطى بالمكسر المطرز لتبقى ذات مظهر جميل يمكن للعابرين رؤيته.

ومن الأشياء التي لا تقل أهمية، بالنسبة للمرأة البدوية، عن حليها هي المغزل الذي تغزل به شعر الجمل أو صوف الغنم في وقت فراغها سواء كانت ماشية أو على ظهر الجمل. والواقع أن المغزل يكاد يكون جزءاً من البدوية تقريباً. أما طريقة الغزل فهي كالتالي:

تحتفظ الغزّالة تحت إبطها الأيمن، أو في حجرها، بكبة من الصوف الذي تريد غزله. بينما تقوم بيدها اليسرى بتحضير الخيط بطول حوالي قدمين وتعلقه بالنهاية السفلى لعمود المغزل، ثم تحشره في داخل الخطاف المثبت في رأس المغزل. ترفع ركبتها اليسرىٰ، وهي بوضعية الجلوس، وتضع النهاية السفلى لعمود المغزل فوقها، تدير المغزل بسرعة، متمحوراً على عموده فوق ركبتها، بواسطة راحة يدها نحو الخارج. ثم تمسك به بيدها اليمنى بواسطة خيط الصوف الذي يكون قد التف عليه بقدر كاف. فتلف خيط الصوف المغزول هذا حول المحور تحت رأس المغزل.

والأداة الأخرى الهامة جداً في قسم النساء هي النول اليدوي الذي تنسج عليه

جميع لوازم الخيمة من القماش. وتتولى الأم أو ابنتها النسج عليه بجد متواصل فهؤلاء النسوة الصحراويات لا يعرفن الكسل.

إن الأشياء الثمينة في الخيمة، كالنقود وحب القهوة والهال، والسكر والملح والملابس الحريرية والمزركشة المخصصة للمناسبات، هذه الأشياء تحفظها سيدة البيت في صندوق من القصدير أو الخشب مقفل. وتحتفظ بالمفتاح معها مربوطاً بخمارها (اللفع). هذا المفتاح هو أول ما يلفت نظر الأوروبي عندما يتحدث إلى امرأة بدوية.

بالقرب من قسم النساء، وبعيداً عن قسم الضيوف، تـوجد جَرابات الماء المملوءة والتي وضعت فوق فرشة من شجيرات العرفج للحفاظ على برودتها. كما يـوجد بالقرب منها:

أ ـ **الدلو الجلدي مع الحبل** اللازم له والمخصص لسحب الماء من الآبار، مع القطعة الخشبية المتصالبة التي تحفظ فوهة الدلو مفتوحة، أو بدونها.

ب ـ **الحوض الجلدي الكبير** المنتصب على قوائمه الخشبية المعقوفة الذي تشرب منه الإبل والأغنام.

ج ـ **الراوية**: وهو الجَراب المصنوع من جلد الجمل والمعد لنقل الماء من الآبار التي قد تكون بعيدة.

د ـ أخيراً، **الأرجوحة** (أو كما يدعونها المُرجاحة) وهي جَراب من جلد الماعز معلق على قوائم ثلاث لصنع اللبن. وقد تكون مزودة بخطاف لتعليق ذبيحة الغنم عند سلخها.

هذا ويقوم سيد البيت بشراء كل من الدلو والحوض عند ذهابه للكويت أو أية مدينة أخرى بقصد المسابلة. كما يشتري أيضاً جَرابات الماء التي تحتاج إلى استبدالها بغيرها بين الحين والآخر عندما تبلى.

ستجد وصفاً أشمل مترافقاً بأسماء الأدوات والأشياء التي توجد في كلا قسمي الرجال والنساء في الخيمة وذلك في الفصل الخامس.

وضعية الخيمة بالنسبة لاتجاه الريح

تنصب الخيام عادة على أن يكون أحد جانبيها الطويلين مقابلاً لاتجاه مهب الرياح، ففي شرق الجزيرة العربية وشمالها الشرقي، حيث يشتهر نوعان من الرياح،

رياح الشمال (رياح الشمال الغربي) ورياح القوس (رياح الجنوب الشرقي)، نجد القاعدة العامة في نصب الخيام هي أن يكون محورها الطويل متجهاً إلى الجنوب الغربي. هذا لا يعني أن فتحة الخيمة تكون مواجهة لمهب الرياح، بل العكس تماماً، أي ان الجانب الذي يواجه مهب الرياح يبقى مغلقاً دائماً بينما يفتح الجانب المقابل له.

يدعى الجانب المفتوح من الخيمة بوجه البيت. بينما يدعى الجانب المغلق بقفا البيت. فإذا ما غيرت الريح اتجاهها، كما قد يحصل في موسم المطر، كان من الضروري لسكان الخيمة أن يقوموا بتبديل وجه الخيمة في الحال. لأن الرياح إذا دخلت الخيمة ترفعها. وإذا لم تطر بها فإنها على الأقل ستسبب سقوط أعمدتها، وبالتالي انهيارها فوق ساكنيها. إن تغير اتجاه الرياح المفاجىء بالنسبة للبدو يعني الارتباك المترافق بتعالي الصيحات حيث يأمر سيد البيت حالاً بما يلي: (غيروا الجدار الخلفي يا أولادي، لقد أتت الرياح) أو كما يلفظها (جانبا الهوا، دبروا البيت يا أولادي). وتندفع النساء مع الخدم منفعلين وينزلون قضبان الخيزران التي تحمل المقدمة. ثم، وبسرعة ينزعون الدبابيس المثبتة للستارة الخلفية ويشدونها على الجانبين لسد الجهة التي تهب منها الرياح. يعاد تثبيت الستارة بعد ذلك، بالدبابيس إلى سقف الخيمة ويدفن زيلها بالرمال. كما يعاد نصب أعمدة الجوانب التي ترفع حواف المقدمة بالاتجاه المعاكس لمهب الريح وشدها بالحبال. ثم يتم أخيراً نزع الستائر المقسمة (القواطع) ويعكس اتجاهها ثم يعاد تثبيتها ليمتد جزؤها المزخرف خارج الخيمة لتلتقي نهايته بحبال الخيمة، كل هذا يتم بسرعة وبأقصر وقت ممكن.

في الطقس الحار جداً، من الطبيعي أن يرغب البدوي بالاستفادة من نسمات الهواء اللطيفة. من أجل ذلك يقوم بلف الستائر الخلفية نحو الأعلى بشكل اسطواني. أو ينزع الدبابيس التي تعلقها من الأعلى لمسافة ياردات، ويتركها سائبة على الأرض. عندها تتخلل النسمات كل جزء من أجزاء الخيمة. وعندما تشتد حرارة الشمس يقوم بتعليق سجادة منسوجة يدوياً بين الأعمدة تحت سقف الخيمة، وتثبت أطرافها بالدبابيس على الوجه الداخلي للسقف. يضاعف هذا من سماكة السقف مما يخفف درجة الحرارة داخل الخيمة.

أما إذا كان الطقس بارداً، فيمكن إغلاق فتحة الخيمة بسحب الجزء المزخرف من القاطع نحو الداخل (والذي يكون ممتداً عدة ياردات إلى الخارج) ثم تقريب نهايتي الرواقين إلى بعضهما ليتصلا في منتصف فتحة الخيمة. يتم بعدها تدبيس

الجهة العليا منهما بسقف الخيمة كما في الجهة الخلفية. بذلك تكون الخيمة قد أغلقت تماماً مما يشع الدفء بين ساكنيها، وبنفس الطريقة يمكن سحب الرواق حول قسم الضيوف أو مطبخ النساء لتتحول تلك الزوايا إلى أماكن دافئة.

ملاحظة: قسم الرجال في الخيمة، أو (الربعة) يكون دائماً في النهاية الشرقية للخيمة بغض النظر عن الاتجاه الذي نصبت فيه الخيمة. وهي القاعدة العامة في شرق وشمال شرق الجزيرة العربية. كما أن القاعدة المتبعة هي أن تنصب الخيمة ومحورها الطويل باتجاه الرياح الشمالية الغربية (رياح الشمال). في عمق نجد، ولا سيما لدى قبيلة (عُتيبة) يكون المحور الطويل للخيمة مواجهاً للرياح الشمالية الغربية وهي القاعدة لديهم. وتفتح الخيمة من إحدى نهايتيها فقط وهنا يكون قسم (الرَّبع) أو الرجال في الجهة الجنوبية.

كلاب الخيمة

لكل خيمة كلاب للحراسة خاصة بها. بالإضافة إلى كلب أو اثنين سلوقيين. (لا سيما لدى قبائل عجمان والعوازم ومطير). تتميز كلاب الحراسة بأنها حيوانات فظة شرسة. وتقطع آذانها قصيرة لجعلها تقاتل بضراوة. وهي ذات رؤوس مفلطحة وبنية قوية. هذه الكلاب تحرس الإبل والأغنام ليلاً من الذئاب والغرباء، وهي مدربة على التجول ليلاً بشكل دائم في دائرة كبيرة حول الخيمة. ويقضي الضيوف القادمون أو المغادرون وقتاً لا بأس به في التخلص من هذه الكلاب المتوحشة التي تلاحقهم، وهي تنبح باستمرار بطريقة تسبب الارتباك، ولا تتوقف عن هذا إلا عندما يحرك الضيف قضيبه الخيزراني خلفه بحركة مستمرة، أو تتعالى الصيحات من سكان الخيمة. ينام كلب الحراسة خارج مرقد الحريم، وطعامه هو لقيمات من الأرز والخبز والتمر من مخلفات الوجبات. كما لا يسمح له بدخول الخيمة إذ أنه يعتبر نجساً غير نظيف، بينما يعتبر السلوقي نظيفاً لا سيما عند متبعي المذهب المالكي الإسلامي من البدو وهم الغالبية العظمى في الحسا والكويت. ويسمح لهذه الكلاب بدخول الخيمة والنوم في قسم النساء كما تشاء، فقيمتها تكمن في أنها كلاب صيد تعلمت اقتناص الأرانب البرية والغزلان. يتم اتخاذ احتياطات وتدابير كثيرة لمنع التزاوج بين الكلاب السلوقية وكلاب الحراسة، فعندما تكون الأنثى السلوقية بحاجة للذكر تربط إحدى قائمتيها الخلفيتين بسير جلدي إلى سوار في رقبتها مما يجبرها على البقاء رابضة ويمنع اقتراب الذكر منها.

وصول الغريب إلى الخيمة

إذا أراد الغـريب أن يقترب من خيمة البدوي، فعليه أن يقترب من مقدمتها فقط، لأنها إساءة بالغة أن يقترب من مؤخرتها. كما عليه أن يقترب من جهة قسم الضيوف ثم يتوقف وينيخ جمله، فهذا يعني أنه يطلب استضافته لقضاء الليل أو أنه يطلب طعاماً. كما يجب أن لا يقترب من قسم النساء أو يتوقف قربه لأنه محرم. والهدف من هذا التدبير هو أن تعطى للنساء الفرصة كي يصلحن براقعهن بينما الضيف مازال بعيداً. أما إذا أتى الغريب من خلف الخيمة فقد يفاجىء امرأة وهي سافرة لكونها تغسل وجهها أو تغسل أواني الطبخ.

الأماكن المفضلة لنصب الخيام

أول ما يراعى في انتقاء مكان التخييم هو قربه من مصادر الماء، يلي ذلك نوعية المراعي، فإذا كان البدوي متنقـلاً مع القبيلة أو مع جزء منها فإن مالك الخيمة يترك اختيار موقع التخييم للشيخ، إلا أنه يحاول إرضاء نفسه وعائلته بأن يكون قريباً ما أمكنه ذلك من مسيلات الماء الرملية ذات الحواف العالية. ويعتبر هذا هاماً لأنه يتيح لأهل بيته الخروج لقضاء حاجة في الخلاء، أو أي واجبات صحية أخرى، بعيداً عن الأنظار وفي أرض رملية تعتبر مثالاً للشروط الصحية. والبدوي ـ رجلاً كان أم امرأة ـ في هذا المجال لا يلوث الأرض، بل يحفر حفرة صغيرة يردمها فيما بعد. وإذا كان الماء نادراً ـ كما هي الحال غالباً ـ فإن الرمل يستعمل للغسل الضروري. لذا فإن أسعد عائلة هي تلك التي تحظى بمسيل رملي بالقرب منها.

إن القرب من مصادر الماء لا يؤخذ بنظر الاعتبار إلا في الصيف حين تشتد الحاجة للماء والبقاء بقربه بمسافة لا تتعدى نصف الميل أو أقل إن أمكن. أما في الشتاء، فلا تسقى الجمال أبداً، ولا تشرب الأغنام والنعاج إلا مرة واحدة كل أربعة أيام. لذا فمن الممكن أن يكون المخيم بعيداً عشرين أو ثلاثين ميلاً عن أي بئر. ويجري إحضار الماء اللازم لسكان الخيمة في جَرابات كبيرة أو صغيرة على ظهور الإبل. بينما ترسل الأغنام إلى الآبار لتسقى هناك، أو يجلب لها الماء في الظروف الاستثنائية.

تبديل أرض المخيم

يقوم البدو بتبديل موقع الخيمة كل ثمانية أو عشرة أيام، لتأمين مراع جديدة

للإبل والأغنام ولأسباب صحية بشكل عام. والتبديل الاعتيادي يتطلب المسير عشرة إلى اثني عشر ميلاً مع الأخذ بنظر الاعتبار بقاء الماء قريباً. ولا يمكن اعتبار هذا التنقل ارتحالاً، فالارتحال أو الهجرة سنخصص لها وصفاً في فصل قادم.

عندما يحين موعد الانتقال، تُفك الخيام وتُحمل مع المتاع الثقيل على ظهور الجمال التي تعتبر أقوى، ومهيأة أكثر لمهمة كهذه. أما ما خف من المتاع واحتياطي الماء فتنتقى لحمله بعض النوق. تمتطي العائلة ظهور الجمال المعدة للركوب حيث تختفي النسوة في هوادجهن المغطاة قممها بقطع من القماش القطني أو الصوفي الزاهي الألوان، والذي يحميهن من أنظار الرجال وحرارة الشمس. ويسبق الرجال الركب عادة كل على ذلوله، إلا في حالات فردية، وهي عندما تبلغ الخيام المنتقلة ستاً، عندها يترأس الرجل الركب وتتبعه أغنامه ونوقه وهي ترعى جوانب الأرض. وعند الاقتراب من الأرض الجديدة، يتقدم سيد البيت ويختار مواقع الخيام. ثم ينيخ جمله ويعلن أن هذه الأرض هي موقع المضارب الجديد.

إذا تحركت القبيلة بأكملها لتغيير مواقعها، يتقدم الركب الرجال المقاتلون بأمرة قائدهم على ظهور الجمال، وقد ربط إلى كل جمل حبل طويل في نهايته فرس أو حصان. بينما يكون الكشافون قد سبقوا الركب لاستطلاع الأرض، مراعيها ومائها، مفترضين عدم وجود عدو أو خطر محدق. وهي: المقاتلون والجمال التي تحمل المتاع، ثم هوادج النساء في إثرهم. وأخيراً يصل الرعاة وبرفقتهم حارس قوي، تتبعهم إبلهم وأغنامهم في جبهة عريضة يسيرون ببطء بحثاً عن العشب في الأرض. يصلون ليجدوا الخيام منصوبة وكل شيء جاهز، بعد أن يكون سيد البيت أو الشيخ قد اختار الموقع المناسب. ويتحدد مكان نصب خيمته حيث ينيخ جمله ويترجل عنه.

عند انتقال القبيلة إلى مكان جديد، فإن الخيام لا تنصب متجمعة بل تنتشر في مجموعات موزعة على مساحة كبيرة. كل بضع عائلات تخيم في مجموعة تبعد عن جيرانها حوالي مئتي ياردة إذا كانت الأرض وعرة، وقد تصل المسافة إلى أربعماية ياردة في حال كون الأرض منبسطة مكشوفة. وبناء عليه، فإن مجموعة من البدو عليها «لنقل أربعمئة خيمة» أن تغطي مساحة من الأرض كبيرة عندما تخيم.

يتم هذا الإجراء في الشتاء والربيع وعندما لا يتهدد أمن القبيلة عدو ما. أما في الصيف، عندما تكون القبيلة مخيمة حول مصادر الماء، فإنها تحيط بالآبار إحاطة السوار بالمعصم بخيامها، باستثناء منطقة كافية للإبل والأغنام لترد الماء. تكون الخيام

في هذه الظروف متقاربة على هيئة سلسلة من الخطوط وحبالها تلامس بعضها البعض. إن نظام الخيام المبعثرة الذي يتبع في الشتاء يجعل من الصعب على الرجال المقاتلين أن يتجمعوا بسرعة ولكنه نظام مثالي للدفاع السلبي. فالغزوة المفاجئة لا يمكن لها أن تتغلغل إلى عمق معسكر كهذا، إذ أن كل خيمة ستتحول إلى قلعة صغيرة تنطلق منها النيران نحو الغازين، الذين يجدون أنفسهم محاصرين بالنار من كل جهة. (لقد أثبت أسلوب الجبهات الدفاعية الألمانية الصغيرة المتعددة خلال الحرب الكونية الأولى فعالية هذه الطريقة). سندرس طرق وأساليب قتال البدو في الفصل السادس والعشرين.

تعريف بعض الكلمات.

١ ـ **العسس**: هو الرجل الذي يرسل للبحث عن أحسن أراضي للرعي.

٢ ـ **السلاف**: قائد القبيلة أو رأس العائلة الذي يقودهم في تنقلهم وهو يركب وحيداً في المقدمة.

٣ ـ **المِظهر**: اسم يطلق على الجمال التي تحمل متاع العائلة ليقابل كلمة البعير وهي الجمال والنوق.

٤ ـ **الغنم**: وهي الأغنام في تنقلها.

٥ ـ **البهم**: وهي الحملان التي تسير منفصلة عن النعاج.

الفصل الخامس

أشياء الخيمة الثمينة
قسم الرجال في الخيمة

فيما يلي الأشياء التي توجد دائماً في قسم الضيوف أو الرجال (الربعة):

١ ـ **الشَّداد (أو سرج الجمل)**: ويكون قَربوسه الخلفي عادة مرصع بأشكال من الرصاص الملمع مما يعطيه مظهر الفضة ويشبه الأشكال الزخرفية المصنوعة على المباخر. وهو مصنوع من خشب الطرفاء.

ـ **المجاعد**: وهو جلد الخروف الأبيض أو الأسود الذي يغطي سرج الركوب.

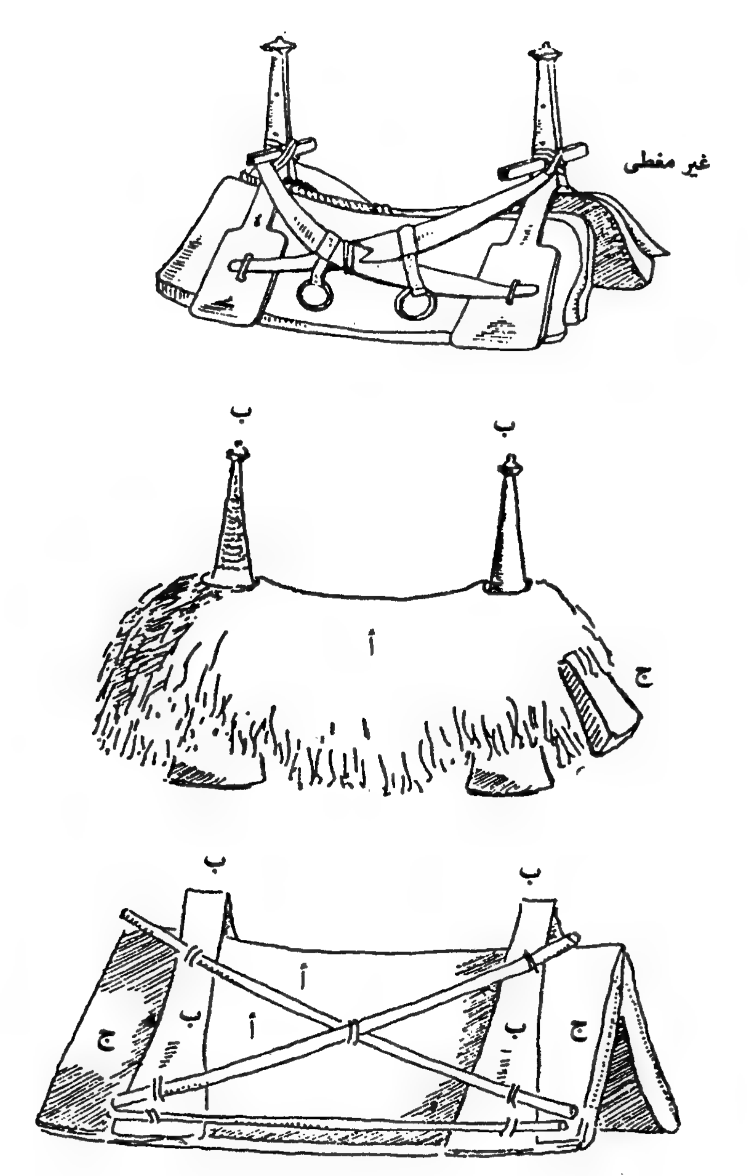
ـ **غزال الشداد**: وهما القَربوسان على طرفي السرج.

٢ ـ **المِسامة (أو سرج المتاع)**: ويصنع من خشب الطرفاء أيضاً. أما السيور التي تستعمل لربط وتثبيت القطع الخشبية المتصالبة فيه فتؤخذ من رقبة الجمل إذ يوجد في كل من جانبي رقبته وتر ممتد على طولها، يبلغ في سماكته حجم قلم الرصاص الخشبي. هناك عدة نماذج من سروج المتاع إلا أن أشهرها هو المنشورة صورته في الشكل (٥).

٣ ـ **الخرج**: وهو الحقيبة التي تعلق إلى السرج (الشَّداد) عند قمته تحت الجعد الشكل (٦).

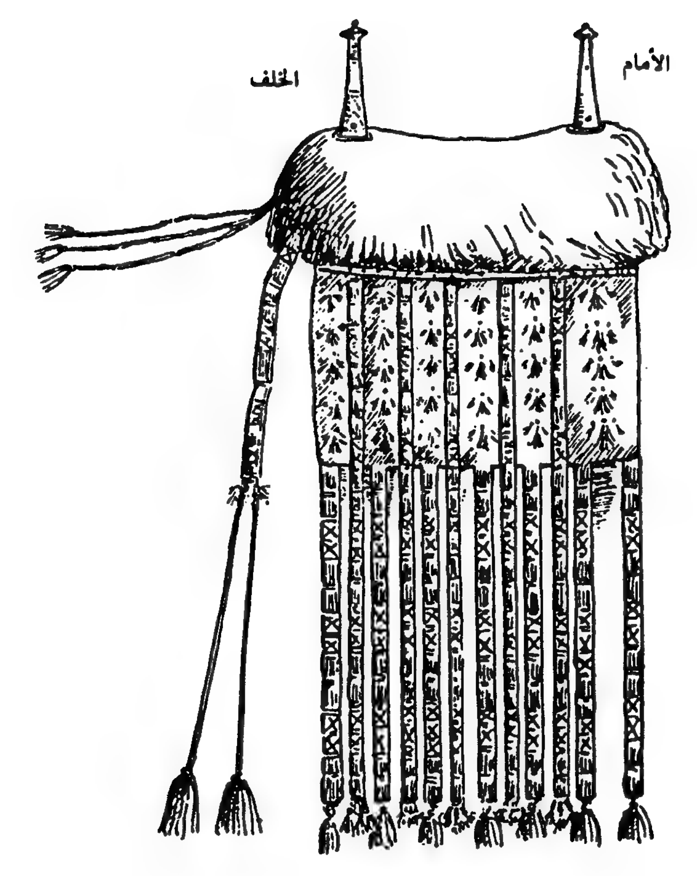
ملاحظة: إن خرج الرجال أو النساء يصنع بقياس واحد، وهو ثلاثة أشبار وكف واحد عرضاً. كما أن أفضلها وأجملها في كل الجزيرة العربية ما صنع في الكويت والحسا.

٤ ـ **الدَّلَّة**: (جمعها دِلال) وهو إناء للقهوة، والحد الأدنى للمجموعة هو ثلاثة



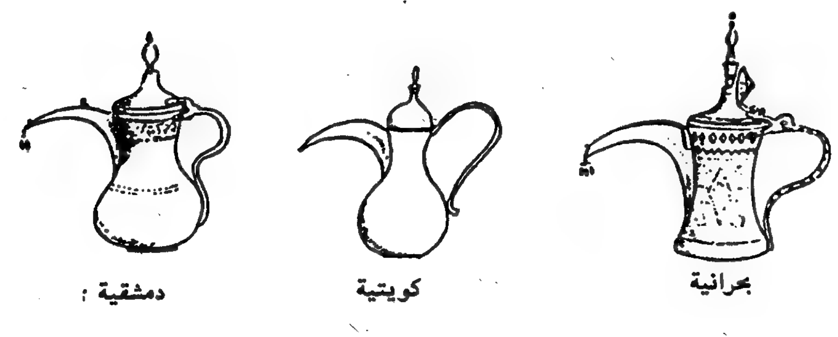
أ ـ الجعد   ب ـ غزال الشداد   جـ ـ مسند من الجلد لوضع القدمين عند امتطاء الجمل
أ ـ القطع المتصالبة تشد إلى أقواس السرج   ب ـ أقواس السرج   جـ ـ لبادات حمل الأثقال

الشكل (٥)سروج الجمل



الشكل (٦) الخرج

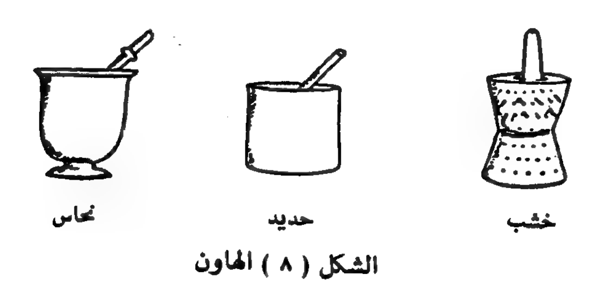
(الشكل (٧) يوضح نموذجاً للدلال المستعملة في الكويت).



الشكل (٧) الدلة

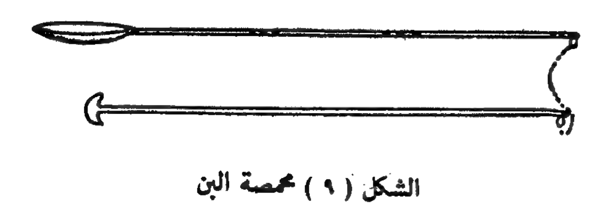
وتوجد الليفة مع دلال القهوة دائماً ، وهي قطعة من الليف أو قشر القنب ، توضع في ميزابة الدلة كمصفاة لمنع تسرب رواسب القهوة إلى الفناجين .

٥ ـ **الهاوَن**: يكون عادة من النحاس وهو يستعمل لسحق حبات القهوة، وقد يكون بسيطاً مصنوعاً من الحديد مع مدقته. كما هو الحال عند الفقراء. وهنالك نوع ثالث يصنع من الخشب بينما تكون مدقته من الحجر. ويصلح هذا النوع لحمله في الرحلات باعتباره ضعيف الوزن الشكل (٨).



الشكل (٨) الهاون

٦ ـ **محمصة البن**: تصنع من الحديد، وتوجد على مقبضها أطواق من النحاس تبدو وكأنها الذهب. يلحق بالمحمصة يدها التي ترتبط بها بواسطة سلسلة ووظيفتها تقليب حبات القهوة أثناء تحميصها الشكل (٩).



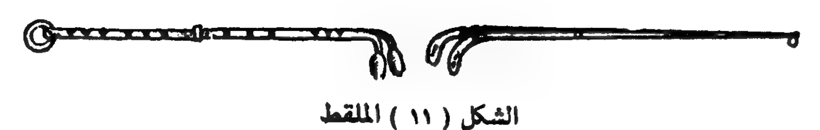
الشكل (٩) محمصة البن

٧ ـ **المركب**: منصب ثلاثي الأرجل لصنع القهوة عليه (يقتصر استعماله على الموسرين جداً) الشكل(١٠).



الشكل (١٠) المركب

٨ ـ الملقط الشكل (١١).



الشكل (١١) الملقط

٩ ـ المُخباط: عصا خشبية مسطحة لتحريك القهوة الساخنة الشكل (١٢).

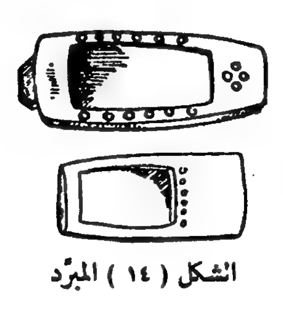
الشكل (١٢) المُخباط

١٠ ـ شيت الفناجيل: [التسمية هنا عامية] وهي علبة نحاسية اسطوانية توضع فيها فناجين القهوة. وتكون عادة مزخرفة بالرسوم أو الكتابات العربية الشكل (١٣).



الشكل (١٣) شيت الفناجين والفناجين

١١ ـ المُبرَّد: لوح خشبي لتبريد حبات القهوة المحمصة عليه وهو مرصع بالمسامير النحاسية الشكل (١٤).



الشكل (١٤) المبرَّد

١٢ ـ **المبخر**: وهو يحرق البخور أو اللبان، أو الخشب ذو الرائحة الطيبة (عود). واسم المحرق هذا مشتق من كلمة بخور. وهو يصنع من خشب الطرفاء المبطن بالنحاس يزخرف بالرصاص. وقد يصنع من الجص بأطراف منحنية نحو الخارج حسب نماذج عديدة الشكل (١٥).



الشكل (١٥) المبخر

١٣ ـ **الجداع**: طاس من خشب الطرفاء وبجميع القياسات، مرصع بالمسامير النحاسية ومبطن بالفضة أو الرصاص الشكل (١٦).



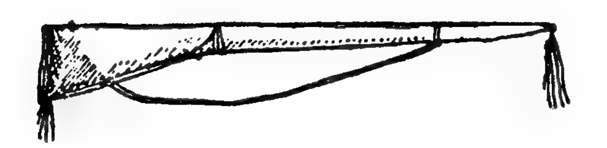
الشكل (١٦) الجداع

١٤ ـ **المِركة**: وزرة من الجلد الناعم تعلق تحت ذقن الجمل متدلية نحو ركبتيه. وهي مخصصة لجمال الشيوخ والقـادة الشكـل (١٧).



الشكل (١٧) المِرْكة

١٥ ـ جِفَر التُفاقِ: حقيبة جلدية لحمل البندقية ذات شُرابات تتدلى من فوهتها. الشكـل (١٨).



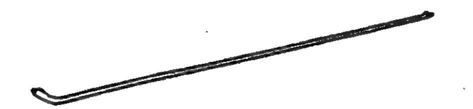
الشكل (١٨) جِفَر التُفاق

١٦ ـ المِشعاب : عصا الشكـل (١٩).



الشكل (١٩) المِشعاب

١٧ ـ العصا: وهي للجمل أيضاً ومن الخيـزران الشكل (٢٠).



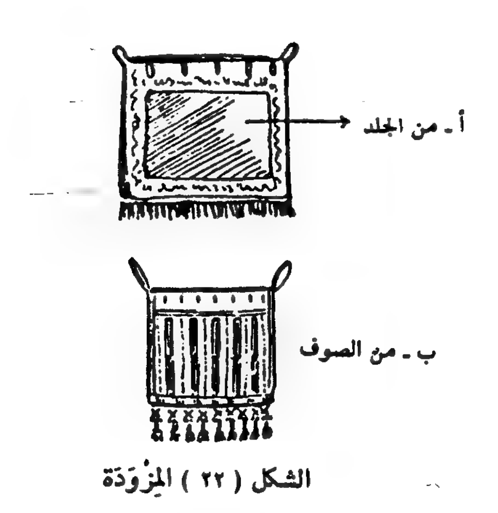
الشكل (٢٠) العصا

١٨ ـ باكورة: كسابقتها تمـاماً الشكـل (٢١).



الشكل (٢١) باكورة

١٩ ـ المِزْوَدَة: حقيبة صغيرة مصنوعة من الصوف أو الجلد لحفظ النقود أو حب الهال، أو كميات قليلة من التمر عندما يحملها المسافر وحيداً الشكـل (٢٢).



الشكل (٢٢) المِزْوَدَة

٢٠ ـ الرِسَن: المقصود به رسن الجمل.

عدة الصقر

(انظر الفصل ٢٨ حول القنص بالصقور)

٢١ ـ البرقع: وهو غطاء رأس الصقـر الشكـل (٢٣).

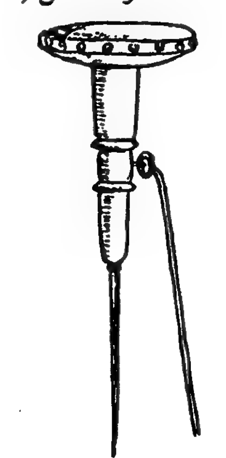
أ ـ الشكل الأمامي

ب ـ الشكل الجانبي

جـ ـ الشكل الخلفي

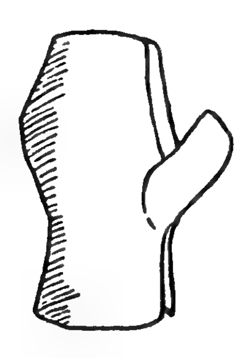
الشكل (٢٣) البرقع

٢٢ ـ وكر الطير: موقف الصقر الشكل (٢٤).



الشكل (٢٤) وكر الطير

٢٣ ـ دسمة الطير: الكف الذي يرتديه حامل الصقر الشكل (٢٥).



الشكل (٢٥) دسمة الطير

ملاحظة: هنالك المزيد من مفروشات الخيمة التي تخص الموسرين من مالكي الخيام مثل:

أ ـ **المَطرح**: جمعها مطارح وهي فرشة للضيوف يجلسون عليها.

ب ـ **المفرش**: وهو سجادة تفرش على الأرض.

كما لدينا النماذج العديدة للوقود في كل خيمة، يتساوى في ذلك الأغنياء والفقراء.

وهي:

أ ـ **الجلة**: روث الجمال الجاف.

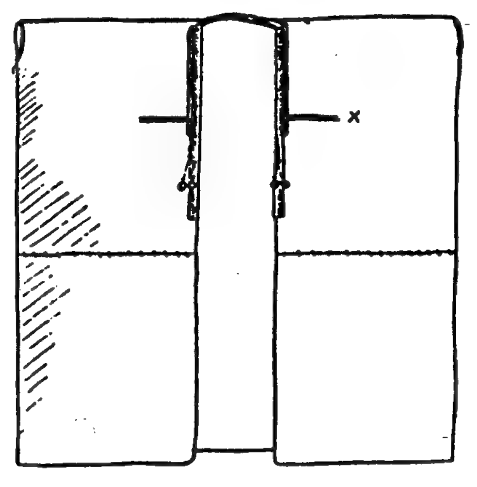
ب ـ **الحمض**: وهو شجيرة ذات رائحة نفاذة تخلف رماداً أبيض.

ح ـ **العرفج**: وهو شجيرة معروفة ومنتشرة في كل أنحاء الشمال الشرقي للجزيرة العربية.

ملابس الرجال

١ ـ **العباءة أو البِشت**: وهي مصنوعة من نسيج ناعم من صوف الغنم أو الجمل، ومؤلفة من قطعتين. وقد يكون نسيجها ناعماً رقيقاً، أو خشناً سميكاً تبعاً لما يريده النساج. ويحيط بالرقبة ممتداً إلى جانبي الصدر خط مظلل من التطريز المذهب، تُزيِّن نهايتاه بشرابتين، ولونه بني مائل للسواد. أما الشريطان المضفوران

والمثبتان أفقياً على جانبي الصدر فهما للدلالة على أن العباءة من النموذج الذي يرتديه شيوخ الكويت الشكل (٢٦).



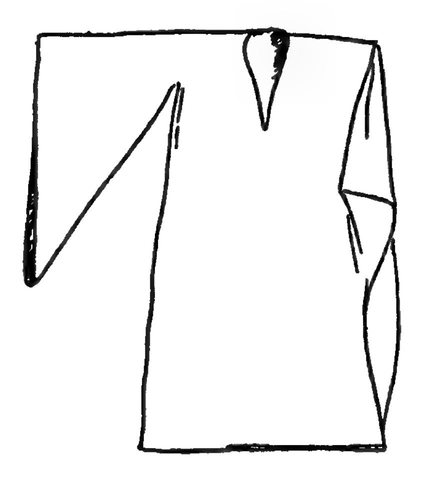
الشكل (٢٦) العباءة

٢ ـ الفروة: هي عباءة مزوقة وملونة ومطرزة ترتدي في الشتاء. تصنع من قماش ملون، كالقرمزي والأخضر والبنفسجي الزاهي والأحمر الداكن. ويكون التطريز باللون الأصفر الباهت والأسود. والفروة مبطنة بجلود الحملان البيضاء أو السوداء. واللون الأبيض هو المفضل. ويرتديها الشيوخ والموسرون من البدو. الشكل (٢٧).



الشكل (٢٧) الفروة

٣ ـ ثوب الشْلَحات: وهو بلون أبيض دخاني ذو أكمام طويلة وعريضة. الشكل (٢٨).

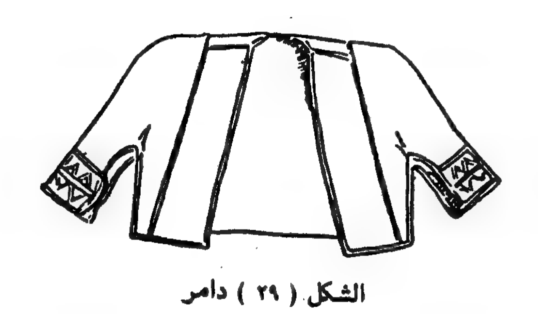


الشكل (٢٨) ثوب الشلحات

٤ ـ الدشداشة: ثوب مشابه للشلحات إلا أن أكمامه ضيقة.

٥ ـ زِبون: نوع فاخر من الدشداشة مفتوح الصدر من قمته حتى أسفله. وهو واسع بحيث يسمح أن يرتد أحد جانبي الصدر فوق الآخر (كزي العباءة). يغلق الزبون بواسطة زوجين من الخيوط القصيرة بدلاً من الأزرار، زوج من الداخل وآخر من الخارج.

٦ ـ دامر: سترة بلون أسود وذهبي يرتديها الرجال الشكل (٢٩).

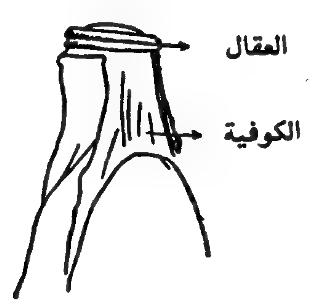


الشكل (٢٩) دامر

٧ ـ السروال: سروال فضفاض يرتديه كل من النساء والرجال.

٨ ـ **عقال**: حبل يوضع على الرأس لتثبيت الكوفية على الرأس. الشكل (٣٠).

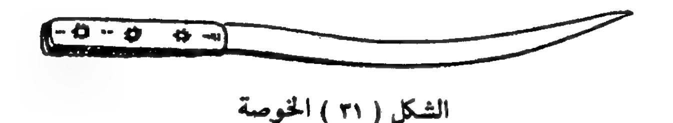
٩ ـ **الكوفية**: غطاء الرأس القماشي الذي يرتديه الرجال العرب. الشكل (٣٠).



الشكل (٣٠) العقال والكوفية

الخناجر

١ ـ **الخوصة**: خنجر بحد قاطع واحد يستعمل لأغراض الدفاع ونحر الغزلان والأغنام والإبل... الخ الشكل (٣١).



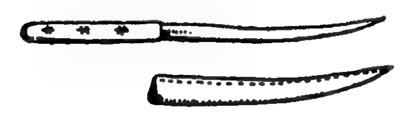
الشكل (٣١) الخوصة

٢ ـ **جِفَر الخوصة**: وهو غمد الخوصة الشكل (٣٢).



الشكل (٣٢) جِفَر الخوصة

٣ ـ **هَواردي**: خوصة مصغرة تستعمل لذبح الحبارى وطيور الصيد الأخرى. الشكل (٣٣).



الشكل (٣٣) الهواردي

تثبت الخوصة على الوجه الداخلي لحزام الخرطوش الملفوف على وسط الرجل بواسطة إبزيم أو مسمار ذي رأسين. وبنفس الطريقة، يثبت الهواردي على الوجه الداخلي لحزام الخرطوش المعلق على الكتف.

قسم النساء في الخيمة

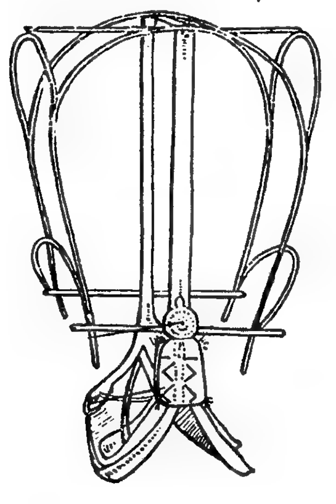
- **المكسر أو محفة السفر**: أطلق هذا الاسم من قبل مطير وقبائل أخرى على النموذج المخصص للنساء من السروج المغطاة. والذي يكثر استعماله في الشمال الشرقي للجزيرة العربية وما حول الكويت. وهو يتألف من هيكل متقن الصنع على هيئة سلة. يغطى عند استعماله بشال من الصوف ذي لون برتقالي زاهٍ أو أحمر. تجلس المرأة فيه بعد وضعه على ظهر الجمل، تحيط بها أشياؤها الخاصة وطفلها، وكأنها على سرير متنقل، ترافقها الشراشف الخاصة بها. كما تعلق على جوانب المكسر الأكياس الخاصة به (مِزاوَل). يصنع المكسر من خشب الرمان لأنه قابل للانحناء على شكل طوق. وتختلف أشكال المكسر من قبيلة لأخرى.

- **السحارة**: الصندوق الخاص بأشياء المرأة، ويحتوي على حبات القهوة والهال والزعفران والسكر والشاي والأصباغ والمجوهرات والحلي وما إلى ذلك.

- **العيبة**: (جمعها عياب) وهي كيس جلدي صغير لحفظ التمر ملحق بالسروج.

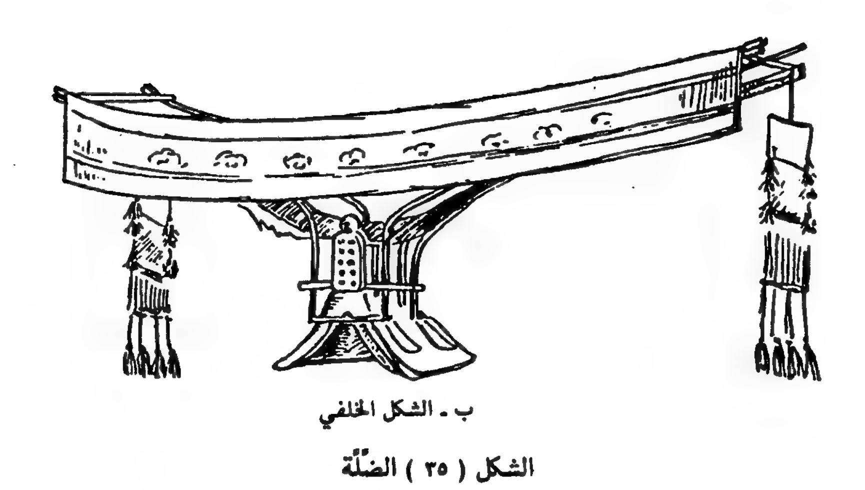
نماذج من محفات النساء

(انظر الرسوم الأشكال (٣٤ و ٣٥ و ٣٦).



الشكل (٣٤) المكسر

أ ـ الشكل الأمامي



ب ـ الشكل الخلفي

الشكل (٣٥) الضلّة



الشكل (٣٦) منظر للجمل وهو يحمل الضَّلّة .

أ ـ **المكسر**: هو النموذج المتداول استعماله بين قبائل مطير وعجمان وحرب وضفير.

ب ـ **العطف**: نموذج من المحفات خاص بقبيلة العوازم وهو كالمكسر تماماً إلا أنه لا يحوي قضيباً شاقولياً في مقدمته مما يجعل اعتلاءه من قبل النساء أكثر سهولة.

ج ـ **الغبيط**: محفة تخص نساء عجمان. وهي كالعطف بدون قضيب شاقولي في المقدمة، كما أن قضيب المؤخرة الشاقولي غير متصل بالقوس العلوي بل أقصر منه بتسعة إنشات. وهو أكثر ارتفاعاً وتزييناً بالصدف من المكسر. ويزين القضيب الخلفي بالصدف من قمته حتى الأسفل. قلما تستعمل نساء مطير الغبيط، وقد رأيت نموذجاً منه في حوزة (فيحا) زوجة عبدالعزيز الماجد في العاشر من شباط عام ١٩٣٨.

د ـ **الجِن**: نموذج مربع من المحفات معروف لدى شمر والعنزة وضفير. وهو ليس واسعاً ومريحاً كالذين سبق وصفهم.

هـ ـ **الضَّلّة**: نموذج آخر للمحفات إلا أنه أضخمهم وهو مجنح يشبه شكل هلال القمر. تسافر به نساء آل سعدون، وشيوخ عنزة وضفير. يغطى هيكل الضلة كله تقريباً بجلد الغزال الناعم الأبيض.

و ـ **الكتب**: [له شكل الكتاب المفتوح] هو نفس الضلة إلا أنه أصغر حجماً،

وهيكله غير مغطى بالكامل بجلود الغزلان، بل يقتصر ذلك على نقاط الاتصال فيه. ويزود كل من الكتاب والضلة بستائر مزخرفة ذات ألوان زاهية.

ز - فرخ الحني (أو فرخ الكتاب): وهو نموذج مصغر عن الضلة أو الكتاب.

ح - مغبط: جمعها مغابات) وهو نفس فرخ الكتاب إلا أنه التسمية المعروفة لدى قبيلة عجمان.

ط - مثومنة - مثومن: الاسم المتعارف عليه للضلة لدى عجمان.

ي - مُرَوَّرْ: الاسم المتعارف عليه للكتاب لدى عجمان.

بشكل عام، نستطيع القول أن النساء أنفسهن يقمن بصنع محفاتهن من أغصان شجر الرمان ومن خشب الطرفاء التي تشتري من المدن. ويقمن بتشكيلها وضمها إلى بعضها، ثم يغطينها بجلود الغزلان ذات اللون الأصفر الباهت، كما يزخرفن عمودي المقدمة والمؤخرة، أما الشداد أو سرج الركوب، والمسامة أو سرج المتاع، فيقوم الرجال بصنعهما.

ملاحظة: من الجدير بالملاحظة هو أنه عند التنقل واستعمال المحفات المذكورة سابقاً تغطى بأقمشة، غنية بالألوان، صوفية وحريرية. وأحسن المحفات تكون تلك التي تبدو أكثر زهواً بألوانها وذلك لأنها تلفت الانتباه إليها وتوحي بهيبة مالكها. (لا تبدو في الرسوم سوى الهياكل فقط).

المركب

هو محفة مماثلة للضلة والمكسر ولكنه يفوقهما حجماً وجمالاً. ويعرف باسم (سفينة اسماعيل) تقديراً لأول بدوي عربي. وتنفرد به قبيلة عنزة أكثر من الرولة، يتألف المركب من هيكل خشبي خفيف مغطى بريش النعام العربي.

عندما تشترك قبيلة عنزة في معركة فإن ابنة الشيخ تركب في (سفينة اسماعيل) وتسير في وسط المقاتلين لتستحثهم على القتال وإظهار ضروب البسالة. وأثناء الالتحام بالعدو فإنهم يلجأون لتقييد الجمل الذي يحمل المركب حتى لا يفر أو يتراجع. أما إذا كانت الحرب ضد الرولة فإن الانسحاب المسموح به هو حالة تراجع المركب، وعلى المحاربين أن يقاتلوا حتى النهاية دفاعاً عن المركب وعن السيدة الجالسة فيه.

إن للمركب، دون شك، أصلاً منذ تاريخ ما قبل الإسلام عند قبيلة الرولة. لقد أخبرني شيخ الكويت في العاشر من كانون الثاني عام ١٩٣٥ أن ابن سعود كان قد استعمل المركب مؤخراً في معركة الجَراب في ربيع عام ١٩١٥. كما استعمله الشيخ مبارك شيخ الكويت قبل بضع سنوات من وفاته، عندما هدده ابن رشيد بمهاجمة الجهرا. ووضعت فيه آنذاك أجمل(*) سيدات آل الصُباح وشعرها متدلياً ووجهها دون نقاب. ولو لم ينسحب ابن رشيد لكان آل الصباح احتشدوا حول المركب دفاعاً عنه حتى آخر رجل.

يخامرني هنا قليل من الشك في أن المحفة التي استعملها ابن سعود، وتلك التي استعملها الشيخ مبارك ليستا سوى مكسرين قبليين زينا بعناية فائقة. فقبيلة الرولة، حسب علمي، هي فقط التي تستعمل المركب الحقيقي، كراية أو أي شيء يجمع الصفوف حوله. وقد قدم «كارل راسوان» في كتابه «خيام الجزيرة العربية السود» بعض الصور الرائعة لمركب الرولة.

كما أخبرني الشيخ خالد الحثلان في الخامس من كانون الأول عام ١٩٣٤ أن عجمان ما زالت تستعمل المركب عند ذهابها للحرب. ولكنها تطلق عليه اسم محفة ركوب النساء (المكسر). والعجمانيون، كقبيلة الرولة، يضعون فيه أجمل بناتهم دون نقاب وشعرها متدلياً لتشجيع المحاربين، وبث الشجاعة لدى المترددين الذين يخجلون ويندفعون إلى الصفوف الأولى في المعركة(**).

- **المِزاوَل**: أكياس للمكسر ملونة توضع فيها الملابس والأصواف الملونة، وهي منفصلة عن بعضها وتعلق على مشاجب في جوانب المكسر. بينما أكياس سروج الرجال تكون مربوطة مع بعضها لتعلق معاً في قمة السرج. وللمزاول شُرّابات تزينه كما لأكياس الرجال إلا أنها أقصر بحوالي النصف.

- **العُدول**: أكياس صوفية تُحمل على السروج يوضع فيها الأرز والسكر والطحين... الخ.

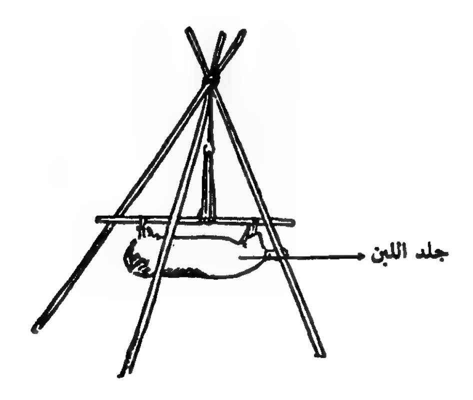
- **اللَحاف**: دثار محشو بالقطن وغالباً ما يكون بلون أحمر.

- **الفِهر**: قطعة حجر بركاني تشبه في شكلها لسان الثور. وهي سوداء صلبة تستعمل لدق أوتاد الخيمة في الأرض.

(*) هي منيرة بنت علي، زوجة وكبرى بنات عم الشيخ مبارك.

(**) لقد قمت وزوجتي بزيارة ابن شعلان شيخ الرولة في عام ١٩٤٥ وشاهدنا لديهم ذلك المركب الشهير. (المؤلف)

ـ الأرجوحة (المِرجاحة): منصب ثلاثي القوائم خشبي بارتفاع أربعة أقدام يتدلى من قمته جراب معلق عند صناعة اللبن. كما يمكن تعليق ذبيحة الغنم عليه لسلخ جلدها الشكل (٣٧).



الشكل (٣٧) الأرجوحة

ـ صميل: (جمعها صملان) وهو كيس الجلد الخاص بصنع اللبن ويكون دائماً من جلد الخروف.

ـ مكرش: كيس لحفظ الزبدة ويعرف باسم المصرب لدى العوازم.
ـ القِربة: تصنع من جلد الماعز لحمل الماء فيها.
ـ الراوية: (جمعها رُوي) يصنع من جلد الجمل لحمل الماء فيه ويعرف باسم المِزادة لدى العجمان.

المحقن: قمع خشبي لصب الحليب في السَميل الشكل (٣٨).



الشكل (٣٨) المحقن .

ـ الجِراب: كيس من جلد صغار الغزلان عليه رسوم بأصباغ ملونة، يستعمل لحمل القهوة في التنقل الشكل (٣٩).



الشكل (٣٩) الجراب

ـ **المطَرية:** النول اليدوي ويسمى ناتو أيضاً.
ـ **مشا:** المكوك.
ـ **نثا:** قطعة خشبية مسطحة لرص الخيوط.
ـ **المدرة:** قرن الغزال الذي يستعمل لسحب الخيوط.
ـ **المُبرة:** أو المغزل الشكل (٤٠).



الشكل (٤٠) المغزل أو المُبرة

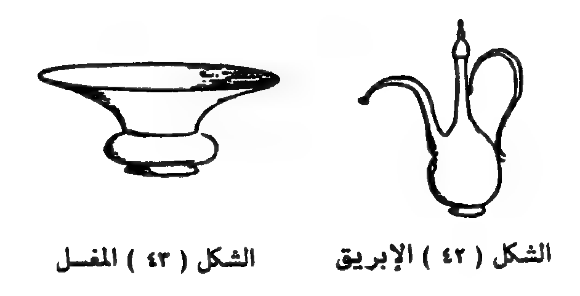
ـ **الصَّرار:** زوج من العصي بطول ثمانية إنشات، تستعمل لربط حلمات أثداء الناقة، تمتد كل عصا بين حلمتين لتربط كل واحدة منهما بإحدى طرفيها بخيط

صوفي. هذا وتربط أثداء الناقة الأربعة حتى لا يتمكن وليدها من رضع أثدائها إلا صباحاً ومساءً. الشكل (٤١).



الشكل (٤١) الصّرار

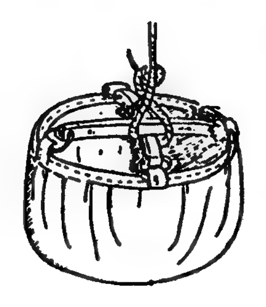
ـ **الإبريق والمغسل أو الحوض**: (وهما يستعملان فقط بين الحضر وسكان المدن).

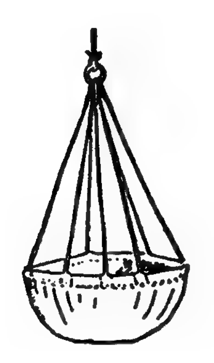


الشكل (٤٢) الإبريق الشكل (٤٣) المغسل

ـ **الحوض**: حوض من الجلد لسقاية الأغنام والإبل يوضع على ثلاثة أقواس خشبية تشكل قاعدته.

ـ **الدلو**: سطل جلدي صغير له نموذجان ويستعمل لسحب الماء من الآبار. الشكل (٤٤).

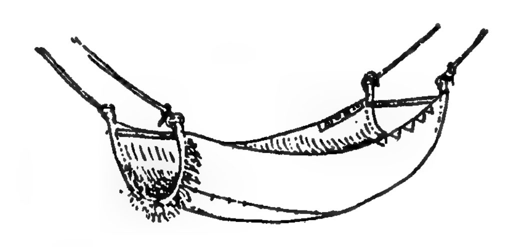




الشكل (٤٤) الدلو

ـ **المصباح**: وهو المهد المحمول المخصص للطفل، ويشتهر لدى قبائل الحسا. تحمله الأم على ظهرها وتثبته بحبال إلى جبهتها، أو تحت إبطها وحباله على كتفها، وذلك تبعاً للقبيلة التي تنتمي إليها. ويصنع من قطعة جلد واحدة. عند حمله من حباله، فإن الحبل المار من ثقبين كبيرين ومن جانب لآخر عند قدمي الطفل يشد جهتي المصباح نحو بعضهما ليغلفا ذلك الجانب. وهو لا يستعمل عند البدو في شمال الجزيرة العربية إذ أنهم يحملون أطفالهم على أكتافهم أو على أوراكهم إذا كانوا مسافرين.

ويجب هنا أن لا نخلط بين المصباح وبين الحَبابة التي هي سرير للطفل يستعمل في الخيمة ويعلق بين عمودين وهو المفضل لدى الشماليين. الشكل (٤٥).



الشكل (٤٥) الحبابة

ـ **الهيل**: حبات الهال التي توضع في القهوة.
ـ **مسمار**: كبوش القرنفل وتوضع في القهوة أيضاً.
ـ **الزعفران**: يوضع في الشاي والقهوة.
ـ **الشنكار**: وهما خطافان على جانبي المكسر لتعليق أكياس النساء عليها.

النول (المطاري أو نَتو أو سَدو)

يتألف النول من سبع قطع مجموعها يؤلف ما يعرف بالمطاري وهي:

١ ـ **القاع**: قطعة خشبية تنطلق منها الخيوط (خيوط السداة).
٢ ـ **المكوك**: ويعرف باسم مِشا.
٣ ـ **المِشيزة**: قطعة خشبية مسطحة لرص الخيوط المنسوجة وتسمى أيضاً (نثا).
٤ ـ **المِنْيَر**: وهي القطعة الخشبية التي ترفع الخيوط.
٥ ـ **المراكب**: قطع من الخشب اسطوانية يستند المنير عليها.

٦ ـ **الراس**: قطعة خشبية تمسك نهايات الخيوط (خيوط السداة).

٧ ـ **المدراة**: وهي قرن الغزال الذي تسحب به الخيوط.

الأوعية الجلدية

وتتألف هذه من:

أ ـ قرب الماء الجلدية.

ب ـ أكياس جلدية لحفظ الدهن، حبات القهوة، التمر، ... الخ...

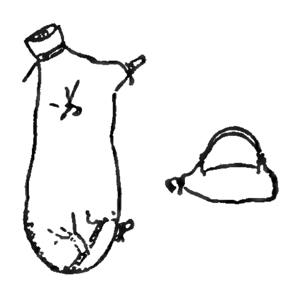
يندرج تحت الفقرة «أ» كل من الراوي، الثِليثي، مِنون، والقِربة.

١ ـ **الراوي**: وهو نموذج الوعاء المعروف لتعبئة الماء ويصنع من جلد الجمل.

٢ ـ **الثِليثي**: وهو الاسم الذي يطلق على الوعاء الجلدي الذي يصنع من نصف جلد الجمل ولكن من طبقتين مخيطتين ببعضهما.

٣ ـ **المِنون**: وهو وعاء الماء الجلدي الضخم، إذ أنه يصنع من جلدين كاملين من جلود الجمال التي تخاط مع بعضها. وهو كتيم لا يتسرب منه الماء.

٤ ـ **القِربة**: وهي وعاء الماء الجلدي العادي. تصنع القربة من جلد الخروف أو الماعز بعد سلخه. وأحسن القرب وأكثرها دواماً هي المصنوعة من جلد ذكر الماعز رغم أنها تساوي ثمني الريال السعودي. فالمصنوعة من جلد الخروف لا تعمر طويلاً. الشكل (٤٦).



الشكل (٤٦) القربة

أما تحت الفقرة «ب» فتندرج العكة، المَضهرة، والجِراب.

١ ـ **العكة**: وعاء مصنوع من جلد الخروف يستعمل لتخزين الدهن (الزبدة المصفاة).

٢ ـ المَضهرة: نفس الوعاء إلا أنه مصنوع من جلد الجمل.
٣ ـ الجَراب: يصنع من جلد غزال فتي ويستعمل لحفظ حبات القهوة.

أسلوب البدو في سلخ الحيوانات

أ ـ الغنم والماعز: تعلق الذبيحة ورأسها نحو الأسفل. يشق الجلد بتمرير السكين مرة واحدة تحت الذيل وخلف القائمتين الخلفيتين. ثم يسلخ عن الذبيحة باتجاه الرأس وتكون نقطة النهاية هي فتحة الرقبة التي تترك لتبقى مفتوحة بينما تتم خياطة الفتحة التي كانت تحت الذيل مع فتحات الأرجل.

ب ـ الجمل: يبدأ الشق في جلد الجمل من رأسه مروراً برقبته من الخلف ثم إلى قمة سنامة ونزولاً حتى الذيل. يتم بعد ذلك سلخ الجلد عن الجانبين بعيداً عن جسمه حتى أسفل البطن ويفصل الجانبان كل على حدة عند منتصف البطن وتحت الرقبة.

عند ذبح الجمل، يُسحب رأسه إلى أحد جانبيه ويثبت على هذا الوضع بواسطة رسنه. ثم يذبح بقطع الوريد التاجي في رقبته بحيث يكاد رأسه ينفصل عنها. وهذا عكس ما هو متبع في ذبح الخراف والماعز، فالجرح الذي يذبح الأخيرة موقعه تحت عظم الفك (في منتصف الحنجرة تماماً). كما أنه عند ذبح الحيوان، دابة كان أم طيراً، يجب ترديد التضرع التالي: (بسم الله الرحمن الرحيم). وذلك عدة مرات قبل قطع الحنجرة.

الفصل السادس

النظام الاجتماعي البدوي

يقسم العرب أنفسهم إلى مجموعتين رئيستيـن:

أ ـ الحضر: (مفردها حضري) وهم الذين يسكنون بيوت الطين أو الحجر بشكل دائم. وبتعبير آخر هم سكان المدن أو القرى.

ب ـ البادية: وهم الذين يعيشون حياة بدوية في خيام من الشعر الأسود والمسماة بيوت الشعر ويمتلكون الجمال. وقد اشتقت كلمة البدوي من البادية.

يتحدث سكان الخيام السود عن أنفسهم ويقولون أنهم بدو (حِنّا بدو). وهم بذلك يقصدون أنهم رجال الصحراء البسطاء الذين يعيشون حياة برية، وليست لديهم الخبرة بالأساليب الملتوية للحياة المستقرة. ويتابعون الحديث عن أنفسهن بفخر قائلين (عربنا سندوا، عربنا نزلوا للصبيحية) أي أن قومهم توغلوا في الأرض وأقاموا مضاربهم في الصبيحية.

إذا قابل البدوي في ديرته بدوياً غريباً فإنه يحييه ويسلم عليه ثم يسأله: (من أين أنت يا ولد؟) فيجيبه ذاك بقوله: (أنا من عرب فلان).

يجب علينا هنا أن نميز بين العرب وبين المنحدرين من أصل بدوي صافٍ الذين يطلق عليهم اسم عربدار أو عرب الدار. والاسم الأخير يطلق في الكويت ونجد ـ حسب اعتقادي ـ على أشباه البدو الذين يسكنون الخيام السود على حدود الصحراء الواسعة، ويخيمون قرب المدن في الصيف أو يتوغلون في الصحراء مسافة تتراوح بين ثمانين إلى مئة ميل من منازلهم. وفي الشتاء يمتلك الكثير منهم منازل

صغيرة. وإذا توخينا الدقة في التعبير يمكن القول إنهم بدو في مرحلة الانتقال إلى حياة أكثر استقراراً.

العربدار هؤلاء ـ لا سيما في الكويت ـ يمتلكون عادة قطعاناً من الغنم، وعدداً قليلاً من الجمال لتؤمن لهم الحليب، وتحمل خيامهم عند البحث عن المراعي، وكثير من هؤلاء ينحدرون من أصل شريف كعجمان ومطير وعتيبة وحرب، إذ يذهبون إلى المدينة ويعودون منها إلى قبائلهم الأصلية. كما يتزاوجون مع أبناء عمومهم الصحراويين.

شبه البدوي هذا ليس بالضرورة محتقراً من قبل البدوي الصافي، لا سيما إذا كان الأول ينحدر من أصل طيب. ولكن الأخير يعتبره ـ دون شك ـ نموذجاً عن الرجل نصف المدني الذي نشأ في ظل أنظمة المدينة، مفضلاً رغد العيش في الحياة الحضرية عن القسوة الحقيقية للحياة في الصحراء. كما يعتبره ـ باختصار ـ إنساناً يستفيد منه عند ذهابه إلى المدينة للحصول على حاجاته، كذلك كوسيط في المعاملات التجارية لا سيما ما يتعلق بالغنم والإبل. ويفخر الأول باستعداده دائماً لاستضافة أخيه البدوي الذي يرغب في قضاء ليلة في المدينة.

كثيراً ما نسمع من أشباه البدو المقيمين في الكويت صيحتهم المعتادة (أكلونا البدو)، مع أنهم يحظون بالشرف والهيبة بين جيرانهم، وأينما حلوا برفقة أبناء عمومهم الصحراويين ولا سيما شيوخهم. وهم مسالمون عموماً لأن الحرب لا تعود عليهم بالفائدة وثروتهم تكمن في أغنامهم أكثر من إبلهم، فلا دوافع لديهم للغزو وسلب إبل غيرهم، إذ أن الدافع الأساسي لدى البدوي الغازي هو كونه معرضاً للغزو أيضاً. ومع كل هذا، فشبه البدوي يعتبر محارباً ممتازاً إذا دعي لحماية شيخه أو الدفاع عن المدينة التي يقطنها.

هنالك نوع آخر من سكان الصحراء يجب أن لا نخلط بينهم من جهة وبين البدو وأبناء عمومهم العربدار من جهة أخرى. إنهم الرعاة القبليون الصحراويون الذين ينحصر عملهم في العناية بأغنام كل من سكان المدن أو الشيوخ القبليين الموسرين جداً. وقد نشأت الحاجة لهم بسبب كون الأغنام لا تستطيع السير بسرعة الإبل عند الترحال والهجرة، بالإضافة إلى أن مراعيها محدودة بالنظر لتراخي وانتشار مراعي الإبل. تطور بعض هؤلاء الرعاة الذين يتنقلون في بقاع من الأرض لهم بعد أن صاهروا أو تحالفوا مع قبائل بدوية تهتم بالإبل. وصار لهم قطعان يملكونها ويطوفون بها

أطراف الصحراء على شكل تجمعات قبلية. هذه التجمعات تعرف باسم الشواوي (مفردها: شاوي) لدى سكان المدن. أما الصحراويون فيسمونهم الهكرة. وفي شمال شرق الجزيرة العربية نجدهم كما يلي:

أ ـ **قبائل الرعاة (الشواوي أو الهكرة)**: المتحالفون مع المنتفك ويقيمون على ضفاف الفرات. وهم يرتحلون نحو الجنوب في الصحراء سبعة أشهر في السنة، ولا يعودون إلا عند حلول فصل الحر. يعود هؤلاء في أصولهم إلى الرعـاة الذين كانوا في خدمة أغنام وإبل آل سعدون الذين ورثوا مشيخة المنتفك. وهم يملكون اليوم قطعاناً خاصة بهم. (انظر الفصل ٤٥).

ب ـ **الهرشان** (أو قبائل الشواوي الملحقة بمطير): والتي تدين بالولاء بدرجات متفاوتة لتلك القبيلة العظيمة.

ج ـ **العوازم أهل الغنم**: الذين يخدمون قطعان الإبل لدى قبيلة العوازم وهم الأكثر تماساً معهم. قبائل الرعاة العوازمية تلك حصرت اهتمامها بدون سبب، برعاية الأغنام والإبل الخاصة بها. فهم رعاة ممتازون وموضع ثقة الجميع إلى حد أن بعضهم يأتي إلى الكويت ليؤجر نفسه لسكان المدن الذين يملكون أغناماً. ويأخذ تلك الأغنام بعيداً إلى الجنوب عدة أميال لترعى مع أغنامه في منطقة السودا جنوب مدينة الكويت بمئة ميل حيث يتوافر الماء في الصيف. وهم إلى ذلك يعتبرون العناية بكل حيوان وضع في عهدتهم مفخرة لهم ولقبيلتهم وذلك لكونهم يتمتعون بالأمانة والشرف.

إن البدوي الحقيقي يربي الجمال فقط، ويسكن في عمق الصحراء لمدة تسعة أشهر من السنة بعيداً عن مظاهر الحضارة والمدن بحثاً عن أحسن المراعي التي نمت بعد أمطار الشتاء. فهدفه المراعي بغض النظر عن الماء، أي انه يبحث عن الأرض التي اخضرت بهطول المطر عليها. لذلك تراهم عند أول تباشير الخريف، يُطوِفون أنظارهم في السماء البعيدة، وهم يرقبون رؤية أي إشارة لعاصفة ممطرة كالبرق ليلاً عند خط الأفق، لينتقلوا إلى مكانها كما لو كانت حياتهم تعتمد عليها. والجدير بالذكر هنا أن طيور الحبارى والغزلان والحيوانات البرية الأخرى تتبع نفس الطريقة معتمدة على غريزتها.

هؤلاء البدو الحقيقيون، لا يختلطون بمن يعتبرونهم أدنى منزلة منهم ويعتبرون أنفسهم ملح الأرض. لا يتزاوجون إلا مع قبائل تماثلهم مستخفين ببقية العالم. إنهم

عرب العاربة، يقابلهم أندادهم عرب المستعربة[1]. هؤلاء العرب أو البدو الصحراويون الأنقياء يقسمون أنفسهم إلى:

أ - القبائل الأعلى منزلة أو الشريفة.

ب - القبائل الأدنى منزلة والتي ليس لها شرف الأولى.

ولكن، ورغم أن كل واحد يعرف أصل جاره، فإنه يقبل بجيرته دون نقاش.

من هؤلاء أصحاب المرتبة الأولى الذين يعتبرون أنفسهم أنقياء الأصل والدم، من يدعون أنهم ينحدرون من قحطان وإسماعيل. أما أصحاب المرتبة الثانية فهم لا يتمتعون بالأصالة.

فيما يلي أسماء أشهر القبائل الشريفة في الجزيرة العربية:

سهول، زعب، عدوان، عنزة، شمر، حرب، مطير، عجمان، ضفير، بنو خالد، بنو هاجر، قحطان، عتيبة، دواسر، مناصير، بني ياس، سُبَيع، قواسم، الحويطات، وبنو تميم (وهم لا يوجدون اليوم كقبيلة كاملة).

يعتبر المنتمون لقبيلة عنزة أنفسهم أنهم ذوو المنزلة الأعلى في الصحراء (أرستقراطيو الصحراء) مع أن البقية لا يقرون لهم هذا الادعاء.

فيما يلي أسماء أشهر الحكام العرب اليوم مع الأصول التي يدعون الانحدار منها:

١ - جلالة الملك عبد العزيز آل سعود، من قبيلة عنزة (فخذ المصاليخ).

---

(١) يقول المؤرخون العرب أن يعرب بن قحطان الذي عاش قبل إبراهيم بعدة قرون كان الأب الأول للشعب العربي القديم، وأعطى اسمه للجزيرة العربية. لذلك فالمنحدرون من إسماعيل بن إبراهيم وهاجر يعرفون بالعرب المستعربة وهم الذين أصبحوا (العرب) فيما بعد. بينما يعرف الذين قدموا بعدهم للجزيرة العربية واستقروا فيها باسم العرب العاربة.

٢ - صاحب السمو ابن الصُباح حاكم الكويت، من قبيلة عنزة (فخذ العمارات).

٣ - صاحب السمو ابن خليفة حاكم البحرين، من قبيلة عنزة (فخذ العمارات).

٤ - صاحب السعادة ابن ثاني حاكم قطر، من بني تميم.

هناك أيضاً عائلة سعدون النبيلة وهم الحكام السابقون للمنتفك (يحكمها الآن صاحب السعادة عبد الله بن فالح باشا) الذين يدعون انحدارهم من قبيلة قريش مباشرة وبالتالي انتسابهم للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم)[1].

فيما يلي أسماء القبائل الأقل منزلة في الجزيرة العربية:

١ - في الحسا والكويت (شرق الجزيرة العربية):

أ - **قبيلة العوازم**، وربما المنحدرون من هتيم. يعودون في أصولهم إلى مجموعة العبيد التي كانت لدى عجمان.

ب - **قبيلة الرشايدة**، وتعود في أصولها بشكل مؤكد إلى هتيم الذين يشكلون مجتمع العبيد لدى مطير. كما كانوا أتباعاً لشيوخ الكويت منذ القديم.

٢ - في الشمال الغربي للجزيرة العربية:

أ - هتيم: مجموعة كبيرة من القبائل التي تتمتع بالقوة، والتي اعترفت بالحاكمية المطلقة لكل من الشيخ ابن برَاك وابن نَوْمَس. (على سبيل المثال، قبيلة الشرارات تمثل جزءاً من مجموع قبائل هتيم).

---

(١) يدعي آل سعدون أنهم حقاً أنقى المنحدرين من الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) لأنهم طوال حياتهم لم يعطوا بناتهم خارج قبيلتهم ولم يتزوجوا من غير بنات آل سعدون (!!؟). (المؤلف).

٣ - في كل شمال والوسط الشمالي للجزيرة العربية:

أ - الصلُبَة: أدنى القبائل منزلة وأكثرهم ازدراء في الصحراء. ويقال أنهم انحدروا من المشتركين في الحملة الصليبية. وهم أدلاء وصيادون ممتازون (انظر الفصل ٤١).

٤ - وسط وشمال الجزيرة العربية:

أ - العَقيل أو العَكيل[١] : المقيمون في القصيم وبغداد والذين كانوا في الماضي السحيق من المتعاملين بالجمال في الصحراء. (إن قصر البسام العظيم هو عَقيلي).

٥ - يجب أن نميـز بين العَقـيل وبين الصناع[٢] وهم مجتمع تجار الأدوات المعدنية ومصلحي الأسلحة والبياطرة.

هذا النوع من الناس تهتم كل قبيلة شريفة بحمايته واعتباره جزءاً منها. وكلمة الصناع هي للجمع بينما المفرد هو صنّاع، فيقال صنّاع المطير أو صنّاع الرشايدة.

لا يستطيع أي من أشراف العرب أن يتزوج من بنات القبائل الأدنى منزلة. ولا يستطيع كذلك أن يزوج ابنته لهم. فقبيلته لا يمكن أن تقبل بذلك، والمخالف سيقتله أقاربه بحجة أنه سيفسد نقاء دم القبيلة. كل منا يذكر مقتل عبد الله بن الصانع حاكم بغداد عام ١٩٣٢، على يد صاحب السعادة عبد الله بن الفالح باشا السعدون، بسبب محاولة الأول الحمقاء للزواج من الابنة المتأوربة لصاحب السعادة عبد المحسن السعدون رئيس وزراء العراق. إن عربي الصحراء الحق، بدءاً من ابن سعود وما دونه لم يستنكر الجريمة بل أيدها.

إنه من المستحيل عملياً على الرجل الإنكليزي، حتى لو اعتنق الإسلام، أن

---

(١) إن العَقيل أو العَكيل ليست قبيلة بدوية بأي معنى من معاني هذه الكلمة لأنهم يعيشون في المدن وهم على الأصح حضر. (المؤلف).

(٢) تمكنت عناصر من هذه الفئة من الوصول إلى مراتب عالية بعد كسب الثقة وذلك في خدمة حكام عديدين عرب وأتراك. (المؤلف).

يتزوج فتاة من قبيلة عربية شريفة. وفي حالة السماح له بذلك فليس له أن يأخذها بعيداً عن قبيلتها، وعليه أن يقبل الحياة البدوية ويستقر مع أبوي الفتاة.

لم أشر في الفقرة السابقة إلى قبائل العراق، القبائل البدوية الرئيسة فيه وأعني: عنزة، شمر، وضفير، وهم جميعاً قبائل شريفة. ولكن قبائلهم المستقرة والتي تعرف باسم (العشاير ـ مفردها عشيرة) هم قبائل نصف متنقلة (معدان) ويعودون بأصولهم إلى قبائل صحراوية نقية في الجزيرة العربية كقبيلة زُبَيّد وربيعة. . الخ. مع ذلك، ولأنهم أصبحوا مستقرين ومارسوا زراعة الأرض، فإن رجل الصحراء اليوم لا يقبل التزاوج حتى مع أحسنهم.

قد يكون من المفيد هنا إلقاء الضوء على مزيد من العلاقات العائلية مما يوضح النظام الاجتماعي البدوي.

آل أو أهل

أ ـ كثير من القبائل أو العشائر تسبق اسمها كلمة «آل» عند الإشارة إليها مثل: (آل مُرة، آل زْوَلَة). وهذا ما يجب أن لا نخطىء فيه باستعمال «الـ» التعريف بدلاً عنها إذ أن الأولى تعني «بني» مثل بني خالد أو آل خالد.

ب ـ أما كلمة «أهل» فهي المستعملة للإشارة إلى أقارب الرجل. فأنت تسأل البدوي: (أين أهلك؟) فيجيبك هو (نازلين في فلان وفلان مكان). وبتفصيل أكثر فالكلمة تعني زوجة الرجل وأخته وأطفاله وأبويه وكل أقاربه الذين قد يخيّمون معه.

يقول الرجل: (يا عيال) عندما يخاطب أولاده أو عائلته ككل. كما أنه يقول: (كيف حال العيال؟) عندما يسأل شخصاً آخر عن صحة أولاده وعائلته بشكل عام.

أما تعبير أهل البيت فهو يشير إلى زوجة ساكن الخيمة وهو نفس تعبير «راعية البيت» ولكنه قليل الاستعمال، إذ أن تعبير (أم العيال) أكثر استعمالاً وقد ينادونها (أم سعود) أو (أم حصة) أو (أم بدر). . . الخ. وقلما ينادونها باسمها الشخصي. وإذا كان يحق للضيف أن يسأل عن زوجة مضيفه وعن صحتها فهو يشير إليها بقوله (أم فلان). أما إذا كان لا يحق له ذلك لكونه لا يعرف مضيفه معرفة جيدة، فإنه يقول (كيف حال اللي وراكم)، وهذه طريقة مهذبة مسموح بها. هذا وللزوجة أن تنادي زوجها باسمه أو بقولها (راعي البيت).

إذا كان الرجل يعيش في خيمة أبيه فليس له أن يتحدث عن أهل البيت طبعاً،

حتى ولو كان متزوجاً وله أولاد، فهو وأهله يتبعون لأهل أبيه. أما عندما يموت الأب ويبقى الأولاد المتزوجون مع عائلاتهم في خيمة أبيهم فإن الخيمة آنذاك تسمى (خيمة أولاد فلان). ويصبح تعبير (أهل البيت) في هذه الظروف من حق زوجة العجوز المتوفى (أم الأولاد) أو زوجة المسؤول عن الخيمة.

هناك استعمال آخر لكلمة أهل، فإذا كنت تريد الإشارة إلى سكان منطقة قبلية معينة تقول: (أهل الصُمّان، أهل السودة) أي ساكني (الصمان أو السودة) الذين لهم الحق في هذه الأمكنة ويعيشون فيها.

في الحادي عشر من آب عام ١٩٣٥، وأثناء تدارس ما سبق شرحه في هذا الفصل مع الشيخ عبيد المُترجى الحَرّي، (من مطير، عشيرة الدياهين)، أوضح لي أهمية فكرة الأهل بقوله: إنها تكمن في السؤال الأساسي: من سيأخذ بثأر الرجل إذا قتل؟ (باستثناء حالة الحرب والغزو) وتابع قائلاً: شخص ما سيتعقب القاتل ويقتله. هذا الواجب يقع على عاتق واحد من أهل البيت أو كلهم. وتشمل كلمة (أهل) هنا كل أحفاده الأحياء وآبائه أيضاً لثلاثة أجيال. وبتعبير آخر، يقع عبء الثأر على أولاده وأحفاده وأولاد أحفاده. هذا من جهة، ومن جهة أخرى على أبيه وجده وأب جده وأحفادهم. وأضاف الشيخ عبيد المترجى بقوله: إن الأهل يحمون ابنهم من الظلم وهم مستعدون لتحمل نتائج آثامه أيضاً.

بنو عم

بنو عم، ولد عم، بنت عم، كل هذه تعابير تسمع بكثرة بين البدو يومياً. فقبيلتا عجمان وآل مُرة هما أولاد عم أو أعمام. وولد العم لا يتخذ زوجة إلا ابنة عمه ما لم يعلن أنه يحررها من واجب الزواج منه.

لدى دراسة هذا الموضوع مع الشيخ نهار المتلقم شيخ عجمان بتاريخ الحادي عشر من آب ١٩٣٥ أوضح لي ما يعنيه تعبير بني عم. إنهم أفراد أي قبيلة أو فخذ من قبيلة الذين لهم جد واحد. إن قبيلتي مطير وعجمان هما أكثر قرباً وإيضاحاً لموضوعنا الذي ندرسه، فهم حافظوا على قرابتهم لسبعة أجيال من أجدادهم. أما ما قبل ذلك فهو غير واضح.

حق بني العم أو ابن العم لا يتمتع به إلا من كانت له صلة الدم ومن جهة الأب فقط. أماصلة الدم من جهة الأم فتعرف باسم (الخَوال).

إذا وقع الرجل في أزمة فهو يستطيع دائماً أن يعتمد على أعمامه ليهرعوا لمساعدته. وعليهم هم أن يقوموا بذلك بغض النظر عن النتائج المترتبة على مساعدتهم له.

كانت في الماضي كل من عجمان ومرة في عداء مستمر، فما إن تغزو إحداهما الأخرى حتى تعاود الثانية رد الغزوة، وهكذا. ولكن إذا هوجمت إحداهما من قبل عدو خارجي، فإن الضغائن توضع جانباً، وتتحد القبيلتان في قتال المهاجمين. والسبب في ذلك هو أنهم أحفاد جد واحد هو « يام »، أي أنهم أبناء عم.

إن عائلات ابن سعود، وابن الصُباح، وابن خليفة، وأبا الخَيل، هم جميعاً أبناء عم، ويمكن أن يهرعوا لتقديم العون لأي عائلة منهم في حالة تعرضها لصعوبة جدية. فهم جميعاً من عنزة وينحدرون من جد أعلى واحد.

من جهة أخرى، فإن أخوال المرء أو أقاربه من جهة أمه مفيدون له، على الأخص من حيث الملجأ الذي يقدمونه له إذا احتاج الأمر. ولكنهم ليسوا ملزمين بواجب معين كإلزام بني العم.

(أعمام الرجل ألزم من أخواله) هذا قول معروف يفسر بعض الحوادث التي كانت كاللغز لدى الأوروبيين. فقد تزوج رجل امرأة من قبيلة أخرى، ثم تبين أنها غير مخلصة له. (هذه الحادثة التي أصفها، وقعت حسب علمي، بين العربدار وحضر من الكويت). لم يبد على الرجل أنه آبه بذلك كثيراً، ولكنه ألمح لأعمامها أنها ليست كما يجب أن تكون. قام أولاد عمها إثر ذلك بقتلها ولم يمسوا الزوج بسوء. لقد ذبحوها لتطهير اسم العائلة وليتمكنوا من رفع رؤوسهم عالياً في مجلس الرجال.

إذا كان للزوجين أطفال، ولد وبنت مثلاً، وتصادف أن قامت البنت بعمل يخل بشرف العائلة، عندها يقوم الأب أو ابنه (شقيقها) بقتلها لمسح العار. أما إذا كان أبوها ميتاً، وليس لها أخ فإن مسؤولية قتلها تقع على أبناء عمومها الذكور.

هنالك بين أولاد الأعمام بعض الأعمال التي تعتبر محرمة. وهي على سبيل المثال: يحرم على الرجل أن يعتقل أو يوثق أحد عمومه حتى ولو كان هذا الأخير لصاً. كما يحرم على الرجل أيضاً - في حالة الحرب - أن يقاتل عمومه عند الفجر أو بعد أن ينتصف الليل فهذا يعتبر عيباً.

كما يعرف بين أولاد العم الاتفاق على دية القتيل وهي محددة بخمسين جملاً ورجل وبندقية. إذ أن دفع هذه الدية يوقف عداء الدم بينهم. أما إذا كان القاتل غريباً فيصبح الأمر مختلفاً. لا سيما إذا كان القتيل شيخاً مهماً مثل آل الصباح أو آل سعود أو آل دوشان أو آل شعلان، فليس سوى الدم يكفر عن جريمة مثل هذه. (انظر الفصل ٤٢).

ولد عم

- ولد عم: هو ابن أخ الأب.

- بنت عم: هي ابنة أخ الأب. (انظر الفصل الثامن).

للرجل دائماً حق الزواج من ابنة عمه. وليس بإمكان أحد، بما في ذلك أبواه أو أبوا الفتاة، أن يمنعه من ممارسة حقه هذا. أما إذا امتنع هو عنها طوعاً فإنه يعطيها ورقة يقول فيها أنه لا يريدها. والغاية من هذا كله هي المحافظة على العائلة نقية. إن الفتاة تتعلم منذ نعومة أظفارها أن زوج المستقبل سيكون ابن عمها، وهي لا تستطيع تجنب هذا الزواج ما لم يتخل ابن عمها هو عن حقه فيها، أو يسمح لرجل آخر بالزواج منها وهذا ما يندر حدوثه.

بشكل عام، يعتبر التزام الفتاة بالزواج من ابن عمها عادة مفيدة، إذ أنها بذلك تضمن لنفسها زوجاً على الأقل حينما تبلغ سن الزواج. وقد أدت هذه العادة لدى

العرب الأكثر تحضراً إلى الظلم والتعسف، إذ أن الاخوة يمنعون شقيقتهم من الزواج بغير ابن عمها، خشية انتقال إرثها خارج حدود العائلة. لقد مورس هذا الاستبداد الأخوي (استبداد الأخ بأخته) لدى شيوخ السعدون في العراق.

الشيوخ

إن العنصر الحيوي في استقرار المجتمع البدوي هو القيادة القبلية التي يمارسها الشيخ. والمشيخة تنتقل بالوراثة، أي أن الشيخ يجب أن يكون أحد أفراد عائلة أو بيت معينين. ومن الطبيعي أن يرث المشيخة الولد الأكبر للشيخ المتوفى. فعندما يموت الشيخ يبرز السؤال: (من هو الرجل الأحسن والأكثر ملاءمة في ذاك البيت ليقود القبيلة؟). ويتم اختيار الزعيم ذاك الذي يمتلك خبرات معينة أو مميزات جسدية وعقلية متفوقة.

يعتبر الحظ أو حسن الطالع بالنسبة للقائد مفيداً لنجاحه كشيخ. أي أنه إذا قامت القبيلة تحت قيادته بغزوة أو عدة غزوات، وأظهر خلال ذلك كونه محظوظاً، إلى جانب ميزاته كقائد فإن المشيخة ستكون من حقه. إن التأكد من هذه النقطة يعتبر ذا أهمية كبيرة، ولا سيما في أمارات كقطر والبحرين والكويت التي ترزح تحت الحماية البريطانية، ذلك أنه من العبث والخطأ أن تدفع الحكومة الحاكم في حياته إلى تسمية ابنه كوريث له. هذا لا يحدث عادة، ومحاولة فرض حق البُكورة سيسبب استياء يقود إلى سوء التفاهم.

لقد سمى ابن سعود عام ١٩٣٠ وريثه علناً. ومنذ ذلك الوقت، وهو يحاول كل عام أن يجعل إخوته وقادة قبائله يبايعون ذلك الوريث. بعضهم بايعه على مضض، وآخرون ـ منهم محمد آل سعود شقيق الملك ـ رفضوا ذلك بثبات رغم علمهم بأنهم يرتكبون خطأً فادحاً تجاه الملك. حتى الملك نفسه كان يعلم أنه على خطأ. ولكن الخطوة كانت من أجل التأثير على القناصل والوزراء الأوروبيين المقيمين في جدة. كما أدخلت السرور على قلوب رؤساء الوزراء في أوروبا. لكن الواقع هو أن الملك كان يردد على أسماع أفراد عائلته دوماً وسراً قوله: (بعد موتي، دعوا الرجل الأفضل يحل مكاني). وهذا ما سيحدث، دون شك، في النهاية.

تعرف القبيلة أو القوة المقاتلة لدى الشيخ باسم (قوم)، مثل قوم آل الدويش، وقوم ابن سعود، وقوم الشعلان. وينادي أو يخاطب الشيخ أتباعه بقوله (يا جماعة) أو (يا ربع).

الفصل السابع

الشرف العربي

الضيوف وقوانين الضيافة

يعتبر الضيف لدى العرب بشكل عام، ولدى البدو بشكل خاص جداً شخصاً مقدساً حقاً. فتقضي قوانين الضيافة غير المكتوبة أن يعامل هذا الشخص، حتى لو كان غريباً تماماً أو من قبيلة غريبة، أحسن المعاملة وأن يطعم ويسهر على راحته وذلك بكل الإمكانيات المتاحة لدى المضيف.

هنالك مقطع شعري عربي جميل يقوله المضيف ترحيباً بضيفه. هذا المقطع يوضح بشكل أفضل من أي كلمة قد أقولها، مدى قدسية الضيف لدى سكان الخيام وشعورهم بالواجب تجاهه. وقد قيل لي هذا المقطع عدة مرات عندما نزلت في ضيافة جلالة الملك عبد العزيز آل سعود عام ١٩٢٠، وهو كالتالي:

(يا ضيفنا ها قد أتيت، ها قد زرتنا وشرفت منازلنا
أنت سيد هذا البيت ونحن ضيوفك).

وبطبيعة الحال، لا يتوقع من الضيف أن يكون متطفلاً على مضيفه ولا ساعياً لفائدة يجنيها بالاستفادة من قوانين الضيافة. ولكنه حقيقة بحاجة للطعام والاستراحة. فالمسافر مثلاً، في نهاية أحد أيام رحلته، يتوقف متطلعاً إلى خيمة يقضي الليل فيها، فيجد بعيداً خيمة يستطيع بشكل شرعي أن يدخلها ويحصل فيها على طعام ليلته ومضجع يستريح فيه. ولكنه إذا كان قد اقترب من مقصده وصار على مسافة ميل أو اثنين منه، فإنه يفضل أن يبذل مزيداً من الجهد ليتم رحلته على أن يتطفل على غريب قد يكون فقيراً.

في الصحراء، لا يذهب الرجل، أو مجموعة الرجال، إلى خيمة ويطلبون

بوقاحة أن يضيفوا فيها. هذا لا يحدث مطلقاً. لقد تطورت الغرائز النبيلة لدى البدو بشكل كبير، فعندما يقترب الرجل من خيمة مضيفه المتوقع، يقترب باحتشام وحياء ومن جهتها المفتوحة، وليس من مؤخرتها. كما عليه أن ينيخ جمله بعيداً عن الخيمة مسافة متي ياردة، ويشاغل نفسه بالسروج وعقل الركائب حتى يلفت نظر مضيفه. عندها، قد يخرج المضيف بنفسه من الخيمة ويدعو المسافر إلى خيمته للاستراحة، أو يرسل أحد الخدم يدعوه، وذلك تبعاً لما يتوقعه من أهمية ذلك الشخص.

يؤخذ الضيف إلى قسم الضيوف في الخيمة حيث تقدم له القهوة، تتبعها وجبة الطعام لينام بعدها، ثم يغادر في الصباح الباكر. ضيافة كهذه تجري كل يوم في الصحراء، ويمكن أن يقال عنها (منح المسافر استراحة ليلية). كما لا يتوقع الضيف أن يدفع شيئاً لقاء ما حظي به، وحتى لو أعطى فلن يقبل منه.

إن نوعية الطعام المقدم للضيف تعتمد طبعاً على حالة ومنزلة المضيف. ولكن على الأخير أن يقدم أحسن ما عنده. وإذا مر المسافر قرب إحدى الخيام، وأحس بالعطش فليس عليه سوى التوجه نحوه ليحصل على وعاء من اللبن أو حليب النوق يروي به ظمأه.

تعرف منزلة المسافر من هيئة وعدد أفراد حاشيته، فإذا مر شخص هام بإحدى الخيام، فإن راعيها يخرج من خيمته ويقف في وضعية تدل على أنه يرحب بالقادمين بوضوح. أما إذا كان راعي البيت غائباً، فتخرج زوجته ممسكة بإناء من حليب النوق وبأسلوب يبدي بوضوح رغبتها في أن يتوقف الموكب ويقبل ضيافتها ولو بشرب القليل من حليبها الدسم. وإذا كان لديها ما يدعوها لأن تظن أن شيخ قبيلتها أو أي شخص آخر يماثله بالأهمية، هو عابر السبيل، فإنها تلجأ إلى تعليق أحلى أثوابها على عمود الخيمة كالراية، وذلك للتدليل على أن ترحيبها بالقادمين مزدوج. ويدعى هذا التقليد (تعليق الرايات).

تحدد مدة مكوث الضيف في خيمة مضيفه بثلاثة أيام، فإذا لم يغادر الضيف بعدها لوقاحته، فإن للمضيف أن يسأله عن مقصده وعما إذا كان بإمكانه تقديم المساعدة له. ويعتبر هذا التلميح كافياً لإفهام الضيف الوقح أن عليه أن يرحل.

الهدايا

يعبر الملوك، كابن سعود، وكبار الأمراء والشيوخ ذوو الأهمية، عن تقديرهم لشرف ضيفهم بمكوثه في ضيافتهم عشرة أيام. ولكن على الضيف، عند نهاية

المدة، أن يستأذن بالرحيل (يترخص). فيتبادل عندها كلا الجانبين الهدايا؛ المضيف لضيفه وجميع أفراد مجموعته، والضيف للخدم ولحاشية مضيفه.

إذا قام أمير أو شيخ كبير بزيارة لمثيله وبدعوة منه، فإن الضيف الزائر يحضر معه هدايا خاصة لمضيفه ونسائه وخدمه. وتشتمل الهدايا عادة على البن وأكياس الرز والساعات الرجالية والأحزمة الحريرية المخصصة لرداء الرجال المسمى (زِبون). بالإضافة إلى الأقمشة الملونة المخصصة للأثواب النسائية.

إن تبادل الهدايا بين أبناء الطبقات يعتبر مظهراً هاماً وجوهرياً من مظاهر الضيافة. وهذا ما كان له تأثيره القاسي، فيما سبق، على بعض الضباط البريطانيين الذين أرسلوا بمهمة إلى بلاط ابن سعود. لقد تذكرت ذلك في المرتين اللتين زرت في إحداهما جلالة الملك عبدالعزيز بن سعود برفقة السيد برسي كوكس (أصبح فيما بعد المفوض الساميِ البريطاني في العراق)، حين دفع السيد كوكس، عند مغادرته، ستماية ريال سعودي إكراماً لخدم الملك وحاشيته بينما حصل هو وكل من أفراد مجموعته (جميعهم أوروبيون) على فرس منتخبة وطقم كامل من الملابس الخارجية. بينما كان نصيب الخدم عباءة وكوفية وعقال لكل منهم. المـرة الثانية، عندما رافقت السيد هيوج بيسكو (المستشار السياسي للتاج البريطاني في الخليج العربي) إلى الهفوف وخباري وضحة على التوالي. إذ تكلفت ما مجموعه خمسمئة ريال سعودي قدمتها لحاشية الملك.

لقد رويت ما سبق لأنه من المهم لحكومة سخية أن تغدق المال على ممثليها بعد تفهم وجهة نظرهم وإدراك حقيقة أن تبادل الهدايا في تلك البلاد يعتبر أمراً حيوياً. وإذا لم يتم التبادل بشكل مرض، فإن هؤلاء الممثلين سيخسرون ماء الوجه وبالتالي قوة تأثيرهم.

في كانون الثاني من عام ١٩٣٦ عندما قام جلالة الملك ابن سعود بزيارة الكويت، قام بإهداء ثلاثمئة من حاشية الشيخ، لكل منهم زِبون وعباءة. كما قدم خمسين ألف ريال سعودي لتوزيعها على المستحقين. هذا بالإضافة إلى عشرة آلاف ريال للفقراء سلم معظمها باليد. وأتبعها بتقديم إحدى عشرة سيارة إلى أقارب الشيخ. أما الشيخ من جانبه فقد قدم خمساً وتسعين ألف ريال سعودي منها خمس وعشرون ألفاً لأولاد الملك. وسبعماية وخمسون زبوناً وعباءة للحاشية.

يعتبر منح المضيف الهدايا لمضيفة امتيازاً للأول إذا كان ذا منزلة والآخر فقيراً، لأن أي شيخ يذهب لزيارة ملكه أو أميره أو شيخه المعظم ويقدم له واجب الضيافة،

يتوقع أن يحصل على نوع من الهدايا قبل رحيله وهو يقول في نفسه: (وأخيراً! ألم أتجشم عناء القدوم من مسافة عدة أميال؟ ألم أظهر ولائي؟ أفلم أنقل كثيراً من المعلومات القيمة؟).

لقد كان لي شرف الخدمة في الكويت لمدة سبع سنوات ونصف كضابط ارتباط سياسي. وبإمكاني أن أؤكد أن ضابطاً في وظيفتي يستطيع أن ينشىء علاقات طيبة مع قبائل الصحراء العظيمة في العراق والحسا ونجد وجبل شمر، وذلك بفتح بيته لاستقبال شيوخ هذه القبائل بالحفاوة اللازمة، وفي أي وقت يأتون فيه إلى المدينة للحصول على حاجاتهم منها. إن تقديم الهبات لكل رجل ينقل صورة كاملة لما يحدث في بلاده، ويزود ضابط الارتباط ـ عن غير قصد ـ بمعلومات على درجة عالية من الأهمية، هو أمر جدير بالاهتمام. فلو توقف هذا الضابط عن منح الهدايا لضيوفه، مهما كانت صغيرة، فإن هؤلاء سيمتنعون بالتالي عن الحضور إليه. وسيجد ممثل صاحب الجلالة نفسه وقتئذ أعمى وأطرش، وسيسعى للحصول على المعلومات من القوى المحلية معللاً ذلك ـ في دفاعه عن نفسه ـ أن ممثل صاحب الجلالة يجب أن يبقى دائماً في الظلام أو على الأقل أن يظهر حيناً ويتوارى آخر.

رابطة الملح أو الممالحة

إن مشاركتك ضيفك الطعام تعني أنك تمنحه الأمن والأمان، حتى ولو كانت المشاركة من قبل أفراد القبيلة، وذلك خلال مدة الضيافة التي تدوم أياماً ثلاث. ويمكن اعتبار القهوة التي قد تشربها لدى المضيف بمثابة الطعام.

كثيرة هي القصص المتعلقة بضيافة العرب والتي رواها لي (فالح بن عمير) وهو مطيري من عشيرة موهه التابعة لعِلوَة، والذي قضيت معه في الصحراء عدة أمسيات سارة. وقد شرح لي بالتفصيل واجبات الضيوف تجاه مضيفهم وسجلت ذلك في سجل ملاحظاتي بتاريخ السابع من كانون الثاني عام ١٩٣٥.

يقول فالح: (إن الواجب الذي يلزم المضيف بإقراء ضيفه، يلزم في الوقت نفسه الضيف، مادام ملح مضيفه في معدته، والذي يفترض أن يدوم لمدة أيام ثلاث، أن يضمن المضيف من أي أذى قد يتعرض له من قبل قبيلة الضيف. لنفترض على سبيل المثال أن «أ» كان مضيف «ب» الذي كان مسافراً وتوقف عند خيمة «أ» وقضى الليلة عنده (نَوّخ عنده). غادر «ب» الخيمة في اليوم الثاني متابعاً طريقه. في اليوم الثالث هوجمت خيمة «أ» من قبل غزاة من قبيلة «ب» وسلبت له خمسة جمال ونعجة.

لذا كان لـ «أ» الحق في المطالبة باسترداد ما سلب له عن طريق تدخل «ب» وكان له ذلك. وتجري المطالبة بأن يذهب «أ» إلى مضارب «ب» مهما كانت بعيدة ويعرض عليه شكواه. أما إذا كانت قبيلة «ب» ليست على ما يرام مع قبيلة «أ» فله أن يرسل رسولاً يحمله رسالة إلى «ب» يطلب فيها تعويضه. يُلزم الشرف «ب» بالتعويض الكامل على «أ» بل إنه، إذا احتاج الأمر، فإنه وقبيلته من ورائه، يجبرون الغزاة الذين سببوا الأذى لمضارب «ب» على أن يعيدوا كل ما سلبوه، وقبل كل شيء وفي رأس القائمة يجب دفع شرفية المال وشرفية الإبل، أي أنه على الغزاة أن يقدموا جملاً أو اثنين إضافة لما سرقوه وذلك لأنهم، كما يقال، (خانوا الملح الذي يربط بين الرجلين).

حرمة النساء

تمتاز النساء في الصحراء عن أخواتهن العربيات في المدينة بكونهن أكثر حرية وسعادة (إذا استثنينا قسوة الحياة والحرمان والفاقة التي يتعرضن لها). وهن في الحقيقة يتعرضن للطلاق ولكن طلاقهن لا يعتبر أمراً خطيراً، إذ قد يكون السبب هو عدم توافق الأمزجة أو فشل المرأة في إعداد عشاء جيد لزوجها. ويبقى الأمر مشكلة بسيطة لأنها إذا كانت جميلة وجذابة وذات أصل طيب، ستجد دزينة من الرجال مستعدين للزواج منها.

أما بالنسبة للأولاد فللمرأة المطلقة أن تحتفظ بالصغار منهم في رعايتها حتى يبلغوا سن الثامنة فتسلمهم لأبيهم. ولا تبقى بعيدة عنهم إذ أن الأولاد يزورونها في أي وقت يشاؤون، إلا إذا كانت هي ذكية إلى حد أنها احتفظت بعلاقة طيبة مع زوجها السابق، وأقامت أيضاً علاقة طيبة من طرف آخر مع زوجته الجديدة وصارت تتردد لزيارتها بين الحين والآخر، وهذا هو الأكثر شيوعاً.

إذا كانت لربة البيت البدوي حقوق مميزة فهي (هذه الحقوق) إدارتها لشؤون الخيمة، إذ أنها هي أم العيال وراعية البيت، كما أن بيدها شرف وسمعة زوجها. وتقع على عاتقها مسؤولية تأمين ما يحتاجه الضيف من إعداد الطعام واختيار الأطباق اللذيذة إلى تحضير اللبن. مجمل القول، عليها أن تجعل اسم زوجها مشهوراً بين أقرانه العرب.

ربة البيت لا ترى الضيوف الغرباء ولا تختلط بهم، ولكنها فقط تعرف كل ما يجري لأن ما يفصلها عن قسم الضيوف هو مجرد ستارة لا أكثر. واسمها الشخصي لا يذكره الضيف ولا حتى رجال المضيف وأصدقاؤه. بل يبقى اسمها أم العيال أو

راعية البيت. أما إذا رغب الضيف بسؤال مضيفه عن أحوال زوجته فيقول له (كيف حال اللي وراك؟ أو شلون أم العيال؟). أما الفتيات في سن الزواج فلا يُرين على الإطلاق إلا من المقربين جداً.

يكثر المزاح فيما يتعلق بالرجل ونيته الزواج، وغالباً ما يكون الشاب الذي يتهيأ للزواج موضع مزاح زملائه. ولكن اسم المرأة لا يذكر مطلقاً في هذا النوع من المزاح الخشن لأن ذلك معيب.

إن حرمة المرأة وسمعتها هما أمران لهما الأولوية في حالة الحرب بين قبيلتين أو أي أعمال عدائية. فالمرأة تشجع الرجال أن يتقدموا للقتال ببسالة من أجلها ويعودوا منتصرين. وعندما يكون على القبيلة أن تحتشد للقتال، تقوم هي بكشف النقاب عن وجهها وتطلق شعرها وتعتلي مركبها القبلي لبث الشجاعة في قلوب الشباب والمسنين لجلب النصر مرة أخرى. فالرجال في هذه الحال ـ لا سيما إذا كانت المرأة ابنة الشيخ ـ يضحون بأنفسهم في سبيلها.

إذا اجتاحت المخيم جماعة من الفرسان المعادين بصيحاتهم المعهودة، فليس هنالك ما يجعل المرأة البدوية تخشى على نفسها، لأن قوانين الغزو في الصحراء جعلتها حرمة لا يجوز انتهاكها. قد يقتل رجالها، ويتفرق أولادها طلباً للنجاة، إلا أنها هي نفسها تبقى في أمان. وما تفعله المرأة في مثل هذه الظروف لا يتعدى النوح والبكاء وهي تعلم، أن الغازين إن انتصروا، لن يمسوا شعرة من رأسها، لأن اختطاف النساء مستحيل في حالة الحرب. لكن المغيرين المنتصرين يسوقون الإبل والأغنام، كما يسمح لهم بموجب قوانين محددة أن يأخذوا من ممتلكات الخيام. تتضمن هذه الغنائم المشروعة السجاد وأواني القهوة والخيام الاحتياطية ـ إذا كانت العائلة تمتلك أكثر من خيمة واحدة ـ وقد يأخذون من المواد التموينية إذا كانت كثيرة، ولكن عليهم أن يتركوا واحدة من الخيام دون تقويض من أجل بنات كل عائلة، بالإضافة إلى كمية كافية من الطعام لمدة من الزمن.

لا يجوز أخذ أي قطعة من الملابس التي ترتديها النساء، كما لا يجوز أن تمسهن يد، فكل ما ترتديه المرأة بما فيه حليها هو في مأمن وكذلك هودجها (المكسر).

لقد وضعت هذه القواعد أو القوانين بدقة ومن يخرقها يتهم في شرفه وسمعته، وليس هناك في الصحراء من يغامر بهما.

أعلمني الشيخ حزام المَشاري السعدون (من المنتفك)، الذي كان في الماضي محارباً صحراوياً مشهوراً، أنه أيام الأتراك عام ١٩١٧، قام بقتل أحد رجاله المحاربين الذي نسي نفسه في غمرة فرحه بالنصر، وحاول انتزاع سوار من يد إحدى الفتيات من قبيلة بدر الذي انهزمت في هذه الغزوة.

لقد وقعت فعلاً بعض الحوادث المماثلة في حالات الحرب، ولكنها قمعت بقسوة وانتهت دائماً بمقتل مرتكبها الذي خرق قوانين الحرب.

نشأ نظام حرمة المرأة في الحرب خلال قرون وسنوات من الغزوات المتبادلة، وتعلم الرجال خلالها أنهم إذا كانوا اليوم منتصرين فإنهم غداً قد ينهزمون وبالتالي فعليهم - بل ومن الحكمة - أن يعترفوا بقدسية المرأة وحرمتها. سيما وأن البدو يعتبرون الزوجة والبنت من أغلى ما يملكون على الاطلاق. لذلك نشأت قاعدة تقول (دع نسائي بخير ولن أوذي نساءك). وقد انتشرت هذه القاعدة اليوم في كل الجزيرة العربية. ولكن - ولسوء الحظ - وخلال السنوات القليلة التي كان فيها تأثير الإخوان المتعصبين يتصاعد مهدداً كلاً من العدو والصديق في نجد على حد سواء، أقول إن هذا التأثير كان له الدور الرئيس في إفساد وخرق هذه القاعدة، ومعها عادات أخرى كانت عزيزة على كل عربي أصيل.

حماية العدو المستسلم

ستجد في الفصل السادس والعشرين كل القوانين المتعلقة بالاستسلام. ويبقى أن نقول هنا أن البدوي المستسلم في معركة أو غزوة أو أسر بعد مطاردته، يعتبر في أمان ويلقى معاملة طيبة.

عند الاستسلام على الرجل أن يقول بوضوح وتحديد لمن يستسلم له: (يا فلان، أنا في وجهك). وهذا يعني أنه يضع نفسه في حمايته. فإذا تلقى جواباً كالتالي: (أنت في وجهي سلم سلاحك). يعني هذا أنه قبل حمايته، وتنتهي المسألة إذ أن الرجل الذي قبل استسلام آخر له بهذه الشروط أعطاه ضمانة إبقائه حياً ولو كلفه ذلك حياته، أي أنه بعبارة أخرى يحميه من اعتداء أفراد قبيلته (المُستَسْلَم له) عليه بالأذى أو القتل حتى لا يسودوا وجهه.

إن قواعد الاستسلام هي شديدة الشبه بتلك المتعلقة بالدخالة. فالرجل المستسلم هو في موقف المتوسل، والعربي لا يستطيع تجاهل هذه الحقيقة. والفرق الوحيد بين الاستسلام والدخالة يكمن في أن العدو عندما يطلب النجاة في معركة لك

أن تجيبه أو ترفض، بينما عليك أن تقبل منه طلب الحماية (وجه). والأسير على كل حال يجب أن توفر له الحماية. كما يتعرض الرجل الذي يخرق هذا القانون لغرامة ضخمة تشمل الإبل أو المال، هذا بالإضافة إلى أن قبيلته لن تغفر له ذلك.

رفيق السَّفر أو الخَوِيْ

تعتبر قوانين الرفقة والرفيق عموماً صارمة بالمقارنة مع قوانين الضيافة، إذ أن الأولى تتعلق بشرف القبيلة ككل، بينما الثانية تتعلق بشرف البدوي الشخصي. يقصد بالرفيق في الصحراءذلكالرجل الذي يقودك بأمان في أراضي قومه وفي ديرته حتى لو تصادف أنهم (أهل الديرة) أعداء قومك. وهو يقوم بذلك مقابل أجر بسيط. فإذا رغب رجل بالسفر من الكويت إلى الحجاز مثلاً، كان عليه أن يصطحب رفاقاً من مطير، وحرب، وعتيبة، وقحطان، وربما من البقوم، أو أية قبيلة محلية أخرى.

أما إذا كان الرفيق لا يستطيع اصطحاب الزبون لأي سبب من الأسباب، فيكفي أن يعطيه عصاه وقد حفر عليها وسم (علامة) قبيلته. بعد إعطائه عصاه ينشر خبر ذلك مشافهة كي يصل العلم إلى الجميع قائلاً: (إنه أعطى فلاناً عصاه وعليها علامته دليلاً على رفقته له)، فإذا ما تم ذلك، فلن يعترض طريق المسافر أحد في طول ديرة الرفيق وعرضها.

في ظل سلطة ابن سعود القوية، بذلت جهود كثيرة لإحباط، بل إلغاء، نظام الرفقة هذا على أنه غير ضروري، وقد يسيء إلى سمعة وهيبة الحكومة السعودية. ومع ذلك فقد بقي هذا النظام قائماً، ولكن سراً، بسبب كون الرجال يشعرون في حماية الرفيق بأمان أكثر من وضع أنفسهم في حماية نفر من حراس الحدود التابعين للملك أو الحراس الداخليين.

ومن الجدير أن تعلم أنه بمجرد عبورك أراضي قبيلة ما بأمان، فإن الرفيق الذي انتهت مهمته بعبورك أراضي قبيلته، عليه أن يجد لك رفيقاً جديداً يعبر بك أراضي القبيلة التي ستمر بها، وهكذا حتى تنتهي الرحلة. أما إذا لم يكمل الرفيق واجبه وتخلى عنك فيعتبر هذا خرقاً لقانون الرفقة وتستطيع فيما بعد أن تحصل على تعويض كبير من الرجل وشيخه إذا استطعت إثبات ادعائك.

القصير

تتمثل قوانين القصارة بواجبات البدوي تجاه من يجاوره في الخيمة. وتعني كلمة قصير (جار الخيمة). تعتبر القوانين المتعلقة بمعاملة القصير أكثر احتراماً

وتعظيماً، من قبل البدو، من أي عادة أخرى لها علاقة بالشرف العربي بما في ذلك الدخالة والوِجه وإقراء الضيف.

إن القصير في حماية الله، وقد كتبت ونظمت كثير من القصائد والقصص منذ القديم تتناول الحقوق المقدسة للقصير، والأسلوب الذي يجب على العربي الشريف أن يتبعه مع جاره.

بدقة أكثر، إذا أقام رجل مضاربه قريباً منك وعلى مرمى عصاك أو مشعبك فهو قصيرك أو جارك. هذا ما أوضحه لي مربو الصقور الرشيديون في عريفجان عام ١٩٣٢ (سالم بن مَحيصَ، سعود بن نمران، وابن عمه عداس) وقالوا ان مرمى العصا هو المدى الذي يقذف إليه الرجل القوي عصاه.

المجاورة أمر يتكرر كل يوم، فالرجال من القبيلة الواحدة يقيمون مضاربهم في منطقة واحدة متقاربين لتبادل المنفعة والمعونة، وهم في ذلك كلٌ واحدٌ سواء في حالات الخطر الفردي أو الجماعي أو حالات الجوع والعطش. وفي حياة الصحراء اليومية غالباً ما يكون جيران الرجل هم أبناء عمه أو أقرباؤه من جهة أمه، وهم جميعاً في حماية رب العائلة الأكبر. هذه المجموعات لا تطبق عليها قوانين القصارة لأنهم بحكم قرابتهم ملتزمون بحماية بعضهم في كل الأحوال.

تطبق قوانين القصارة عندما يأتي فرد من قبيلة غريبة أو حتى معادية، ويسأل عما إذا كان بإمكانه أن يقيم خيمته بالقرب من خيمة فلان، ويصبح جاره ليشاركه وقبيلته بالترحال. فإذا أجيب طلبه، وهو لا يرفض عملياً، تبدأ قوانين القصارة بالسريان عليه. ثم يستشار فيما إذا كان بإمكانه أن يدعو شيخ قبيلة الرجل الذي يحميه إلى وليمة عامة يذبح من أجلها أحد جماله، ليتأكد للشيخ خلالها أن جميع أفراد القبيلة يعرفون أن هذا الغريب أصبح في حماية قبيلتهم. بعد ذلك يصبح هذا الغريب ضيفاً على الرجل الذي قبل مجاورته أو كما يسمونه عزيزاً. وكالرفيق أو الخوي، يتمتع بمميزات دون أن يخضع لأنظمة قبيلة حاميه. ويمكن إجمال قوانين القصارة بما يلي:

١ ـ تقع على عاتق سيد البيت مسؤولية حماية القصير (الجار) من كل الأخطار. بالمقابل، على الجار أن يحمي حاميه من كل الغزاة وإن كانوا من قبيلته.

٢ ـ كل ما يعترض القصير من مشاكل يتم حلها عن طريق حاميه الذي يضع نفسه مكانه قائلاً: (إذا كان لأحد حق لدى قصيري فحاسبوني أنا لا هو).

٣ ـ إذا سرق للقصير شيء ما من خيمته وجاء لحاميه يشتكي، فإن على الأخير إما أن يجد له ما فقده أو أن يعوضه.

٤ ـ إذا قام غريب أو أحد أفراد قبيلة الحامي أو أقاربه بإهانة إحدى نساء القصير، وصاحت تطلب النجدة، فإن على الحامي أن يهب لنجدتها سواء أكان زوجها إلى جانبها أو لم يكن. وقد يتصادف أن يقتل الحامي ذلك الرجل الذي أهان المرأة أو سبب لها الأذى، فلا يتوجب عليه ـ والحال هذه ـ دفع دية الدم، كما أنه لن يتعرض لأي أذى من أقارب القتيل، بل إن أقارب القتيل أنفسهم سيدفعون دية كما لو أن واحداً منهم هو الذي قام بالاعتداء على خيمة القصير، يلزمهم في ذلك الرأي العام في الصحراء.

٥ ـ إذا هاجم غزاة خيمة الجار أو القصير وسلبوه جمالاً وخيولاً فإن على الحامي أن يعوضه عنها من الغنائم التي يحققها في غزوة تالية.

٦ ـ إذا سرقت الجمال من قبل لصوص جمال وكانت الظنينة هي قبيلة مجاورة فإن على الحامي نفسه أن يشترك في البحث والتقصي وأن يستأجر رجالاً على حسابه لجلب المعلومات.

٧ ـ إذا قام القصير بقتل أحد أفراد قبيلة حاميه، ثم لجأ إلى الأخير وطلب مساعدته فهو ملزم بمساعدته ليؤمن له الفرار إلى مكان آمن، وإذا اقتضى الأمر فإنه يستعين بأفراد عائلته لتحقيق هذا الهدف. أما إذا عرض القصير دفع دية نقدية فعلى حاميه أن يحميه حتى يتم التفاوض.

٨ ـ إذا أعلنت قبيلة القصير الحرب على قبيلة حاميه وتعرضت جمال القصير للسلب من قبل غزاة من قبيلة الحامي، فإن الأخير معفى من رد الجمال إلى قصيره والعكس صحيح، ما لم يعلنا صراحة وأمام شيخيهما أنهما متجاوران (قصارى)، وأن كلاً منهما مستعد لتعويض الآخر عن الأذى الذي قد يلحق به. في هذه الحال، وعند تعرض أحدهما لسلب إبله وخيوله صدفة أو عمداً من قبيلة الطرف الآخر، كان على الطرف الأخير أن يعيد ما سُلب إذا طلب إليه ذلك. يقوم الحامي بإعلان حمايته لقصيره مشافهة لشيخه. أما القصير فإنه يستطيع أن يرسل رسولاً محايداً إلى شيخه وقومه يبلغهم عن طريقه نبأ كونه قصيراً لفلان.

٩ ـ إذا كان بين مخدومي الحامي بدوياً غريباً يقوم برعاية الإبل والأغنام. وقام غزاة من قبيلة هذا الراعي بمفاجأة القطيع وسلب جزء منه. عندها، ولأن المسؤول عن

القطيع من قومهم فإن على الغزاة أن يعيدوا للراعي ثلاثاً من النوق واحدة لركوبه واثنتين للحليب.

تفخر بعض القبائل الصحراوية، مثل الضفير، بشكل خاص، بالسمعة التي حققتها بفضل حمايتها للقصير فقد اشتهر رجالها في هذا المجال كما ستوضح القصص التالية: (مع أن الشيخ حمود السويط قد توفي منذ سنوات إلا أني أعرف الشخصيات الرئيسة في القصتين التاليتين معرفة جيدة).

في أحد المجالس العامة، استل عم الشيخ حمود السويط (شيخ قبيلة الضفير) سيفه وهدد أنه سيخوزق نفسه على ذلك السيف إن لم يحضروا له ابنه ليُقتل أمامه. لأن ابنه ذاك كان قد أقدم على قتل جار خيمته في حمأة شجار أحمق وقع بينهما. لم تفلح محاولات أفراد عائلته لإخفاء الشاب في ثني الشيخ عن عزمه، بل كان يؤكد جديته بشكل مريع. عند ذلك قام الشيخ حمود السويط (الذي تسلم المشيخة بعد وفاة عمه بعامين) بإمساك الشاب وقتله أمام عيني أبيه، وهكذا تم إرضاء الشرف القبلي. لقد وقعت هذه الحادثة في عام ١٩١٢ ورويت لي من قبل الشيخ حمود نفسه. كما شهد بصحتها مؤخراً شيخ الكويت في التاسع من أيلول عام ١٩٣٢.

كان الشيخ جدعان السويط ، الذي حصل على المشيخة في ضفير بعد وفاة الشيخ حمود كان قد أقام مضاربه قرب العتبة والرُحَيْل على الحدود العراقية الكويتية عام ١٩٣١. وصل إلى علمه أن أحد أفراد قبيلته قد أقدم على إطلاق النار وجرح واحداً من قبيلة مطير، الذي كان يجاوره في الخيمة (قصيره) آنذاك. وعلى الرغم من أن القبيلتين، مطير وضفير، كانتا في عداء مفتوح، إلا أن الشيخ جدعان أحضر الرجل المذنب أمامه وهوى بسيفه على رأسه فقتله.

كان لهذا العمل أثره الذي انتشر بين البدو كوميض البرق لساعته. وصار اسم الشيخ جدعان، كحام للشرف البدوي، مشهوراً كاسم سلفه تقريباً. ولكن لسوء الحظ، قامت السلطات العراقية ـ بما عرف عنها من الحمق الذي يميز إجراءاتها غالباً في التعامل مع رجال الصحراء ذوي الروح المعنوية العالية ـ باعتقال الشيخ جدعان وسجنه عدة أسابيع حتى اكتشفت أنها تضحي ببطل صحراوي. وقد سبب هذا الإجراء فقدان السلطات العراقية لولاء الشيخ لها، فقد تحول بعدها إلى ابن سعود مصطحباً معه نصف قبيلته.

هذه القصة السابقة رواها لي الشيخ جدعان نفسه قائلاً: (إنه لم يفعل ما فعله إلا كي يحافظ القانون البدوي على حيويته).

(بهذه القوة حافظت ضفير على اسمها في أعلى مراتب الشرف والاحترام) قيل هذا عن الشيخ مانع، أحد أشهر شيوخ ضفير، الذي توفي فجأة إثر علمه، عند عودته من إحدى الغزوات، أن أحد ضيوف القبيلة قد هوجم في غيابه وقتل. في عام ١٩٣٥ قابلت ابنة الشيخ المتوفى وأخبرتني أن أباها توفي بسبب حزنه الشديد. وأيد كلماتها زوجها الشيخ قطيش السويط ابن عم جدعان.

يسعدني أن أقول أني دعيت مرة لنجدة شخص كان جاري (قصيري) وقمت بواجبي آنذاك بشكل مقنع، وقد وقعت الحادثة كما يلي:

كنت في الكويت في شهر الحر، تموز من عام ١٩٣٢، وقد اعتاد الجميع النوم على أسطحة البيوت ليلاً. أما أنا فكنت ليلتها نائماً في مقر عملي خارج غرفة الطعام فوق المطبخ. بجانب مقر عملي تسكن امرأة قبلية هي مطلقة تاجر لؤلؤ مشهور، تنحدر من أصل بدوي نقي، وهي من عشيرة واصل لقبيلة مطير. وكان زوجها قد طلقها بسبب رغبته بالزواج مرة أخرى. تعيش مع المرأة ابنتها البالغة من العمر خمسة عشر عاماً، هي كل ما تملكه في هذا العالم ومبعث فخرها وقرة عينها.

يقع السطح الذي كنت نائماً عليه بمحاذاة سطح بيت تلك المرأة، إلا أن الأخير يرتفع عن مكاني عدة أقدام. ولم تقم المرأة باستخدام سطحها للنوم كونه ملاصقاً لسطح مقر عملي.

كان ابن عم الفتاة قد تقدم يطلب يدها للزواج، بأحقيته في ذلك حسب القانون والعادات. ولكن الأم رفضت بإصرار وثبات بحجة أن ليس لها غير ابنتها تخدمها، وبدونها ستجوع. وبعد ضغوط عديدة، وافقت الأم بشرط أن تحصل على تعويض مالي كاف عن السنين والنفقات التي تكبدتها حتى ربت ابنتها. أما الواقع فهو أنها كانت تريد المال لتكفل لنفسها حياة كريمة.

رفض ابن عم الفتاة وقومه طلبات الأم واشتكوها للشيخ الذي قرر أن الشاب على حق وأمر الفتاة أن تنتقل إلى بيت أحد أقاربها لتتم مراسيم الزواج هناك. وحضر فداوية الشيخ أو حراسه إلى بيت المرأة أربع مرات. وكانت في كل مرة ترفض السماح لهم بالدخول علماً أن القانون لا يسمح لهم بالدخول عنوة. فهددوها بأنهم في المرة القادمة، سواء سمح لهم القانون أم لا، وبغض النظر عن كونها امرأة، سوف يقتحمون الباب بكسره لأخذ الفتاة إلى بيت أقاربها.

ووقع الحادث فعلاً، ففي ليلة حارة غير مقمرة، كنت نائماً خلالها على السطح، وكانت الساعة حوالي الحادية عشرة قرب منتصف الليل، عندما استيقظت على صوت قادم من الظلام يناديني: (يا أبا سعود، يا أبا سعود، استيقظ واسمع)، استيقظت وتأكدت أن أحداً ما يناديني همساً من السطح المجاور على بعد عدة ياردات فقلت: (ماذا هناك؟ من ذا الذي أقلق نومي في عز الليل؟) فأجابني صوت حزين: (أنا جارتك (قصيرك)، أنا ابنة فلان وفلان وأناشدك أن تصغي إلي). بعد أن تأكدت منها وسمعت قصتها أردفت قائلة: (يا أبا سعود، أنا في أعمق الحزن، وأتوسل إليك أن تساعدني فأنا جارتك، جارة خيمتك)، فأجبتها: (وما الذي ينبغي علي عمله يا أختاه؟) فقالت: (إذهب غداً للشيخ أحمد وأخبر عن العهد بيني وبينك، ودافع عني وعن ابنتي لأنها إن أخذت مني فسأموت). ولكني كنت أعلم أن لا حق لي في ذلك وليس لي عليها سلطان. إلا أنها أجابتني بقولها أنها لا تعرف سوى أني جارها والقانون يلزمني بمساعدتها. وانتهى الأمر بوعدي لها بأن أفعل ما طلبته.

في اليوم التالي ذهبت إلى الحاكم وقابلته، واعتذرت له عن تدخلي فيما لا يعنيني، ثم أشرت له أن جارتي توسلت بكل الوسائل أن أساعدها، ولأني أفهم توسلاً كهذا، فإني أرجو سموه أن ينظر إليها بعين العطف. كان لروايتي أشد الأثر لدى الشيخ، ومما زاد في سعادته أني أتوسل له من أجل واحدة من رعاياه المسلمين ضد أحد قراراته. فتراجع عن قراره ذاك الذي رجوته من أجله قائلاً (يا كولونيل ديكسون، إن قانون القصارة هذا مقدس لدينا نحن العرب، وكونك تعرفه وتفهمه بعمق اعتبره امتيازاً لي. الفتاة لك، أعدها لأمها وقل إني أنا الشيخ أحمد تراجعت عن قراري الذي اتخذته سابقاً. فكما أصغيت أنت لتوسل المرأة لأنها جارتك، علي أن أصغي لك وأجيبك إلى طلبك لأعبر لك عن عمق شعوري لأنك شرفت امرأة من مواطني بمساعدتك، كما شرفت قانون القصارة). تأثرت جداً بكلمات الشيخ ومضى وقت طويل قبل أن أنسى كلماته. فقلت ما أمر به الشيخ إلى جارتي ولم أرها منذ ذلك اليوم، إلا أنها كانت تعبر عن امتنانها بلطف دائماً عن طريق خدمي.

الشيمة

مفهوم الشيمة عند العرب هو أقرب ما يكون إلى فكرة الشرف لدينا نحن الأوروبيين. وسأوضح هذا المفهوم عن طريق القصة التالية:

روى لي عثمان الراشد من البُرَيْدة (تاجر معدات خيول في الكويت) هذه القصة

في الثاني عشر من آب عام ١٩٣٣ وهي تتعلق بالشيم العربية وأكد لي أنها حقيقية:

منذ سنوات عديدة مَضت، وفي زمن محمد الرشيد عاش رجل مشهور في البُرَيْدة من عائلة الرُبادي. كان هذا الرجل ذو حظ وافر ولكنه تعرض لخسارة تجارية كبيرة ولم يبق له من كل قطعان إبله سوى ناقة واحدة. قرر الرجل في أحد الأيام بيع هذه الناقة لأنها تقدمت في السن ولم تعد مفيدة له. لذلك طلب من بدوي شمري عابر، آت من الجبل، أن يأخذ الناقة معه ويبيعها عندما يزور حائل، ويعطيه ثمنها عندما يسمح له وقته بالعودة إلى القصيم. وافق الشمري على ذلك واصطحب الناقة معه. وشاء القدر أن تموت الناقة لعدم احتمالها الطريق إلى حائل. ولما كان الشيء الوحيد المفيد في الناقة الميتة هو جلدها، فقد قام البدوي بسلخها وتمليح جلدها واصطحابه في طريقه إلى ديرته. ثم جاءت الحرب الكبرى بين الرشيد وسلالات سعود. ومرت سنون لم يسمع خلالها التاجر البُريدي شيئاً عن ناقته حتى نسي كل شيء عنها وأصبح عجوزاً إذ انقضت ثلاثون من السنين على تلك الحادثة.

في أحد الأيام، كان رجل عجوز يصحبه شابان يسوقون اثنين وأربعين جملاً قوياً جميلاً، وهم يسألون عن موقع بيت ذلك التاجر. وتبين فيما بعد أنه ذلك الشمري الذي أخذ الناقة من ثلاثين عاماً مضت. وها هو قد عاد ليعطي التاجر البُريدي حقه وهو يقول له: (ناقتك ماتت لكن جلدها بيع ببضعة ريالات استخدمتها في التجارة حتى أصبحت كافية لشراء ناقة جديدة. هذه الناقة الجديدة ولدت، وهذه الجمال التي تراها أمامك هي نسلها، إنهم جميعاً لك. لم تسنح لي الفرصة قبل اليوم لأرد لك ما أنا مدين لك به).

قوانين الدخالة والوجه

اشتقت كلمة دخالة من كلمة (ادخل). والدخالة تعني قوانين الدخول في حماية شخص ما بعد أن تطلب منه ذلك. تنتشر هذه العادة التي تعتبر أكثر عادات العرب قدسية وشرفاً، في كل الجزيرة العربية والعراق. وتلقى، ربما، أكبر الدعم بين البدو. يطلب العربي الدخالة بقوله (أنا دخيلك، أو أنا داخل على الله وعليك). أما الشخص الذي يتلقى مثل هذا التوسل، فهو ملزم بحماية المتوسل وافتدائهن بحياته إذا اقتضى الأمر، أو أن يخفيه في مكان آمن إذا كان مهدداً بخطر محقق.

كيف تطلب الدخالة؟

لنقل إن رجلاً يتبعه أعداؤه فيقابل فتاة بدوية تقطع الحطب في الصحراء، أو

أمها التي تغزل خارج خيمتها وحيدة ويتوسل طالباً الدخالة. على المرأة أو ابنتها، في هذه الحالة، أن تقدما الحماية له وإذا كان الخطر قريباً، قامتا بالصراخ طلباً للمساعدة. عندها سيجتمع عندهما الجميع لتقديم المساعدة المطلوبة (فَزْعَة). يتم نقل الرجل إلى مكان أمين ولن يسلم لطالبيه.

وقد يدخل رجل إلى بيت رجل آخر كان الأول لتوه قد قتل أخاه، فإذا طلب الدخالة فهو آمن لمدة أيام ثلاثة. في نهاية المدة عليه أن يحدد المكان الذي يريد الذهاب إليه وسيوصل إلى مقصده آمناً. بعد ذلك يصبح أخ القتيل حراً في طلب ثأر أخيه.

رجل مطارد لارتكابه جريمة. يدخل إحدى الخيام أو البيوت ويطلب الدخالة. هنا تقع على مالك الخيمة أو البيت مسؤولية تأمين الحماية لهذا الرجل، بالإضافة لإطعامه وإكسائه وإعادته سالماً إلى بيته أو قبيلته أو حيث يجد نفسه آمناً. وهنا فقط تنتهي مسؤولية المالك.

يتصل بقانون الدخالة حالة أخرى، وهي أن رجلاً يحمل عصا عليها وسم الشيخ الذي منحه الأمان، له أن يسافر في طول ديرة ذلك الشيخ وعرضها بأمان حتى ولو كان في القبيلة من يطلب منه ثأراً.

في بعض البلدان كالعربية السعودية الحديثة والعراق الجديد، التي تقتدي سلطاتها بخطى الفارسيين، تحاول ـ لسوء الحظ ومرتكبة خطأ فادحاً حسب اعتقادي ـ أن تلغي العادات القبلية. فممارسة الدخالة أمر غير شائع لدى من يحكمون. إذ يجد أفراد الشرطة أنفسهم (كلهم من سكان المدن) معاقين أمام هذه العادة. وهذا مؤسف لأنه ليس في نظام الدخالة ـ إن فهم فهماً جيداً ـ ما يعيب أو يسيء للمجتمع. لا بل من الحكمة أن يتعرف القانون على هذه العادة وعلى غيرها من العادات العربية الشريفة.

في عام ١٩٣٣ أجبر صديقي الشيخ (لافي بن معلث) من مطير، قبيلة البْرَيْه ـ وهو محارب مخلص وواحد من أتباع ابن سعود ـ على الفرار إلى العراق لأن رجلاً كانت شرطة ابن سعود تلاحقه التجأ إلى خيمته وطلب الدخالة. ولكن الشرطة استمرت في ملاحقته والبحث عنه. أشار الشيخ الثابت الجنان على أتباعه وجيرانه أن يسدوا المداخل إلى المضارب وأعلن أنه سيقاوم اعتقال الرجل ولو اقتضى الأمر استعمال السلاح. حاول رجال الشرطة الوصول إلى بغيتهم ففشلوا، وعادوا غاضبين لينقلوا أنباء الحادثة إلى سيدهم ابن جلوي. عندها وجد الشيخ لافي نفسه في فرصة

لاسترداد أنفاسه، لا سيما وأنه يعلم أنه لن يسامح على ما فعله. لذلك عبر الشيخ الحدود مع أبناء عمه وأقاربه رجالاً ونساء وأطفالاً وقد بلغوا ما يقارب سكان ثلاثين خيمة. غادروا ولم يعودوا. ألم تضع الشرطة وقتها في الملاحقة والتتبع دون طائل. بل وخسرت الحكومة مواطناً مخلصاً مثالياً دفعته للفرار إلى المنفى.

الحالات المماثلة كثيرة وأقل نتائجها خلق الشعور بالاستنكار بين العناصر القبلية في الجزيرة العربية من جهة والحكومات المحلية من جهة أخرى.

إن جذور المشكلة تكمن في الرغبة بالتمسك بكرسي الملكية أو الإمارة، والتلهف على تقليد الغرب، والقضاء على كل الأنظمة القبلية لأنهم يظنونها دليلاً على رجعية المجتمع.

هناك نظام آخر يشبه الدخالة يدعى (وِجه) أو (تِسيار) كما يسميه العراقيون. ومعنى أن تكون في وجه فلان هو أن تكون تحت حمايته آمناً. وهو تعبير كثيراً ما يسمع في الصحراء. أما عقوبة من يخرق نظام الوجه فهي بالغة الشدة في الواقع، وهي عبارة عن غرامة كبيرة تفرض على أي شخص يتحدى هذا النظام. وتسمى الغرامة (حَشم) وتعني شرفية مالية في العراق. فالرجل الذي يسلم الشرطة رجلاً طلب منه الدخالة، سوف يتعرض لمطاردة لا ترحم من قبل أقارب طالب الدخالة حتى يقتلوه ما لم يحل القضية بدفع الحشم لقبيلة طالب الدخالة.

هذه حكاية تروي كيف تم إنقاذ ضابط بريطاني طلب الأمان من حسن آغا ونسائه قرب السماوة على الفرات، وهي تعطي صورة واضحة عن الدخالة:

في عام ١٩١٩، كان حسن آغا مزارعاً صغيراً متزوجاً يعيش مع عائلته في السماوة فوق جسر سكة الحديد. يتعامل مع قبائل (الرُمَيْثَة)، فهو يبيعهم القمح، ويعرف كل واحد في تلك المنطقة. كما كان فرداً مشهوراً يقدره الإنكليز، لكونه مزارعاً ناجحاً مهتماً بأرضه. حتى جاءت ثورة العرب عام ١٩٢٠ ـ ١٩٢١. وقد انفجرت الثورة كوميض البرق في الرمَيْثَة، أولاً بهجوم تلك القبائل على مقر المندوب السامي وإطلاق سراح المساجين. وتصادف أن أحد الضباط البريطانيين بلباسه المدني كان خارج الرميثة عند وقوع الأحداث، كان قد ركب باتجاه الجنوب الغربي، وهو لا يعلم شيئاً عما حدث. ولكنه لدى عودته للرميثة سمع صوت عيارات نارية، ورأى بعض الفرسان منطلقين من المدينة بسرعة نحوه. ظنهم في البداية أصدقاء، ولكنه أيقن عندما اقتربوا منه خبباً وهم يصيحون ويطلقون النار، أن شيئاً ما قد حدث، فاستدار نحو الجنوب مرة أخرى ليصل إلى السماوة. ولما رآه الفرسان يحاول الفرار

طاردوه، فأطلق العنان لجواده وسبق مطارديه. ولكن فيضان الجداول المائية قرب سكة الحديد في السماوة اضطره إلى سلوك الاتجاه الجنوبي الغربي، فوصل مزرعة اعتقد أنها مزرعة حسن آغا، وبينه وبين مطارديه مسافة ميلين فقط. وبوصوله إلى البناء نصف الدائري المبني من الحصر والقصب تأكد أنه بيت حسن آغا. ناداه باسمه عدة مرات لكنه لم يتلق رداً لبرهة من الزمن. ثم خرجت امرأة وأخبرته أن زوجها حسن ليس في البيت وسألته عما يريد. فأشار لها الشاب الإنكليزي المنهك القوى إلى مطارديه وسألها أن تحميه. نادت المرأة على ابنتيها وطلبت منهما أن تتبعاها كل مع عباءتها إلى غرفة النساء. ثم أخذت الشاب إلى غرفتهن الداخلية، وغطينه بعباءة صاحب البيت وجلسن ثلاثتهن يخطن وهو وراءهن. وصل الفرسان راكبين وصاحوا بصوت عال يسألون عن حسن آغا. ولما لم يسمعوا رداً، ترجل قائدهم وأدخل رأسه مطلاً على غرفة النساء وأمرهن بتسليم الرجل الإنكليزي الذي قال إنه رآه يدخل بيتهن، وأنه أمسك بحصانه الذي كان يعدو هارباً، فمن الواضح أنه مختبىء عندهن. تظاهرت المرأة بالسخط واعتبرت أنها تعرضت للغزو وهي وحيدة منعزلة. ثم بدأت تصرخ وتستغيث طالبة من الله الرحمة، لأن فلاناً وفلاناً قد هاجموها وحيدة في غرفتها الخاصة لأغراض شريرة. وقالت ان زوجها حسن آغا لديه ما يقوله عند عودته. ثم انضمت الفتاتان لأمهما يشاركنها في الصراخ، وتحولت كلمات النساء إلى نوع لاذع مرير، وسلوكهن أصبح ينذر بالشر. مما جعل الفرسان يتخلون عن مطلبهم وتراجعوا مرتبكين. ولكنهم تركوا واحداً منهم للحراسة عن بعد. عند ابتعاد الخطر مؤقتاً، قدمت النساء للشاب قليلاً من الشاي والحليب الساخن، بينما وقفت واحدة منهن على مدخل الكوخ تحرسه. ثم ألبسنه لباساً من ملابسهن.

عند غياب الشمس، عاد رب البيت فقد كان في النجف وقد جلب معه أنباء عظيمة حقاً: (كل حوض الفرات ثائر، والقبائل تحارب الحكومة). تابع قائلاً: (إن الرميثة سقطت، والسماوة محاصرة، وسيتبع ذلك سقوط الحلة والكوفة والديوانية). ثم دهش عندما علم بأمر الشاب الإنكليزي، وأثنى على تصرف نسائه الشجعان، كما وعد الشاب بالأمان وأنه سيرتب أمر هروبه لكن تحت ستار الظلام. قام حسن آغا وخبأ الشاب في مكان أمين، وخرج إلى الفرسان يعنفهم على إساءة معاملة نسائه وتخويفهم. حاول الفرسان توضيح موقفهم ومناقشته، إلا أن محاولاتهم تلك ذهبت أدراج الرياح، لأن حسن آغا كان قد أخذ موقف الزوج والأب الذي يطلب الانتقام ولن يهدئه شيء.

في تلك الليلة، ملأ حسن آغا قاربه بحشائش الفصة، وأجلس الشاب في

مقدمة القارب، بينما جلس هو في المؤخرة وانسل عبر الجدول. بعد ثلاث ساعات، وتحت جسر السماوة الكبير اعترضهم الإنكليز وكادوا يطلقون النار عليهم. فاقتربوا من الضفة وقدم حسن نفسه ورفيقه للمفرزة الإنكليزية ثم سلمهم الشاب وعاد بهدوء.

إثر هذا العمل الشهم، حصلت أنا على امتياز وظيفة المندوب السامي في أواسط حوض الفرات لأضمن وصول المكافأة السخية لحسن آغا ونسائه، والتي اشتملت أثواباً لنسائه ومضخة مائية له. تلك المضخة التي لم يستعملها طويلاً إذ عندما منح الاستقلال التام للعراق قامت الحكومة العربية الجديدة بسحب المضخة منه. (هذه القصة، كما وردت، رواها لي حسن آغا نفسه. وهي تختلف بشكل كبير عن تلك التي نشرت في مجلة (بلاك وود» في آب عام ١٩٢١ عن لسان بطلها).

قبل أن أنهي هذا الفصل، أود أن أورد مثالاً آخر عن الشهامة العربية. قصة رواها لي الشيخ علي آل خليفة الصباح في العاشر من آذار عام ١٩٣٧. كما أكدها لي بطل القصة نفسه (ابن خزر)، الذي أصبح من أصدقائي، في اليوم التالي:

منذ ثلاثين عاماً، وعندما كان الشيخ عبدالمحسن بـن خزر (شيخ بني خالد) شاباً. اشتهر كأحسن الغزاة لكثرة وعظمة أفعاله وثباته وشجاعته. خرج في أحد الأيام في غزوة بعيدة، إلى عتيبة. وأثناء ملاحقته أحد الشيوخ المعروفين أطلق النار من قربينته، وبيد واحدة، عليه فقتله. بعد عودته من الغزوة جلس وأصدقاؤه متحلقين حول النار في المضارب يسامرهم ويروي لهم قصة الغزوة، فدخل عليهم ابن شيخ قبيلة زعب (أبناء عم عَدوان) فتوجب أن تروى القصة له مرة أخرى. وعندما وصل عبدالمحسن في قصته حيث أطلق النار على قائد عتيبة، صوب سلاحه نحو رجل زعب وضغط على الزناد، ولكنه لم يكن يحلم بأن يكون السلاح محشواً. فقتل ابن الشيخ.

مضى وقت قصير وابن خزر في رعب وارتباك لا يعرف ما يفعله. حاول بنو خالد أن يقنعوه بأن يدعي بأن الشاب قتل في غزوة قرب المضارب. ولكن ابن خزر وجد أن هذا السلوك مناف للشرف العربي. فما كان منه إلا أن ركب إلى أب الشاب وروى له بدقة كل ما حصل. في نهاية روايته، عمر سلاحه وسلمه لشيخ الزعب وتوسل إليه أن يأخذ منه ثأر ابنه. لكن الشيخ رفض بشهامة. وإزاء رفض الشيخ أعلن ابن خزر أنه يعتبر نفسه الابن الثاني للشيخ حتى موته. وحافظ على عهده بإعطاء أبيه المعلن نصف أغنامه وإبله، نصف ما يغنمه أو يكسبه في غزواته، ونصف أي هدية يتلقاها من ابن سعود أو شيوخ البحرين. استمر هذا حتى توفي الرجل العجوز.

خلال تدارس قانون الدخالة مع الشيخ ثويران أبو سِفرة (زعيم عشيرة رُخمان التابعة لمطير)، وفي ١٩٣٩/٢/٦ أعلمني أنه فيما يتعلق بالدخالة فإن مطير وقحطان وعتيبة، هذه القبائل تقبل منح الدخالة لأي فرد من أفرادها إذا طلبها لمدة من الزمن هي اثني عشر شهراً. والدخيل في هذه الحالة له أن يتجول بأمان تام في أراضي قبيلته دون أن يتعرض لخطر، وذلك طيلة مدة دخالته على أن لا يخرج عن حدود ديرة القبيلة.

أما عجمان ـ تابع الشيخ قوله ـ فلديها نفس القاعدة إلا أن الدخيل لديها يجب أن لا يغادر حدود خيمة أو خيام من هو في دخالته ويجب أن يقيم خيمته بجواره (كجاره أو قصيره) وهذا ما يشكل حماية مزدوجة.

قبائل شمر، ضفير، حرب، والعوازم من جهة أخرى لا تمنح الدخالة إلا لمدة ثلاثة أيام وليال، وهم ملزمون بعدها بمساعدة الدخيل على الفرار إلى مكان آمن، أو شخص يثق به. هذه القاعدة تتبعها أيضاً معظم القبائل في العراق.

تابع الشيخ قائلاً: (إن المرأة ليس لها الحق أن تمنح الدخالة لأي شخص إلا في حالة كون زوجها غائباً عن الخيمة. ففي ظرف كهذا عليها أن تؤمن ملجأ للرجل الذي يطلب الدخالة منها).

وقال لي أخيراً إنه إذا قام مطيري بخرق دخالة مطيري آخر (تسبب بالأذى لدخيله بأية طريقة كانت) فإن للأخير الحق والأهلية في غزو خيمة المعتدي سبع مرات، وأن يقتل من رجال عائلته ما يستطيع، وكذلك من إبله، دون أن يكون عرضة لأي عقوبة، لأنه كما يقولون بلهجتهم (له الحق أن يصبحه سبع مرات). وتجدر الإشارة هنا إلى أن الغازي لا يحق له أن يسوق الجمال بل يقتلها، وإلا اتهم بالجشع في حين أنه يبغي الانتقام.

الفصل الثامن

الزواج والطلاق

الزواج

نساء لا يسمح للبدوي بالزواج منهن:

أ - مطلقة ابنه.
ب - أرملة ابنه.
ج - أم زوجته.
د - ابنة أخيه.
هـ - ابنة أخته.
و - أخته من الرضاع.
ز - فتاة من قبيلة تعتبر أدنى منزلة من قبيلته كالعوازم والصناع والصلبة..(انظر الفصل السادس والملحق الثالث عشر).

تتميز قوانين الزواج السائدة بين قبائل البدو في الجزيرة العربية بالبساطة وفعاليتها في حسم المشكلة التي تفاقمت مشكلة خطراً لا يستهان به في الغرب، وهي، ماذا نفعل تجاه تضخم عدد الإناث؟ لقد ساهمت الحروب اللامتناهية في الجزيرة العربية والأحقاد البدوية القائمة، في حل المشكلة جزئياً. إلا أنه رغم ذلك بقي عدد الإناث أكبر من الذكور.

الزواج والطلاق أمران بسيطان جداً. كل شاب يبلغ سن الرجولة يتوقع أن يجد أبواه له زوجة. وبالمقابل، عندما تصل الفتاة سن البلوغ يجب البحث عن زوج لها.

أولوية ابن العم في الزواج قاعدة لا تتبدل. فالفتاة هي ملك ابن عمها ما لم يعلن عدم رغبته بها. وحتى في هذه الحال، عليها أن تحصل على موافقته إذا أرادت الزواج من غيره. أما إذا خالفت الفتاة هذه القاعدة أو حاول أبواها أن يفرضا عليها

الزواج من شخص ما، فإن لابن عمها الحق في قتلها إذا استطاع. وهذا هو السبب في حوادث قتل النساء لدى القبائل، لاسيا في العراق.

إذا رفضت الفتاة أن تزف إلى ابن عمها فله أن يقتلها دون أن يطالب بدفع دية كتعويض. وإذا كان ابن العم يعلم أن ابنة عمه لا ترغب به وهي تحب شخصاً آخر فبإمكانه أن يحرمها من الزواج (يحجر عليها) وقد تموت عانساً.

أما إذا كانت الفتاة تحب شخصاً آخر غير ابن عمها، وتوفي والدها، فقد واتتها الفرصة للتحرر من حَجْر ابن عمها عليها، فإن ذهبت إليه ورجته أن يمنحها حريتها، بعد وفاة والدها تواً، فغالباً ما تدفعه شهامته أن يوافق ولكنه ليس ملزماً بذلك. وفي حال رفضه فلا حل أمامها سوى أن تفر مع حبيبها إلى قبيلة أو مكان بعيدين، ليتزوجا ويضعا نفسيهما في حماية أحد الشيوخ. ومع هذا تبقى مهددة بخطر ابن عمها. أما زوجها فيعتبر مذنباً كالقاتل ولن يأمن على حياته إلا بدفع فدية الدم.

في حال إقدام البدوي على الفرار للزواج من امرأة بيضاء من العبيد أجنبية، أو امرأة من قبيلة أدنى منه منزلة، (يحظر على البدوي الزواج من العبيد حتى لا يفسد نقاء دم قبيلته) فإنه لا يستطيع العودة إلى أقاربه لأنهم سيقتلونه.

إنه لمن الواجب على البدوي أن يتزوج وينجب. فكلما كثر عدد أولاده كلما ازدادت قوته. وهو يسيء إلى قبيلته إذا رفض القيام بواجب كهذا، ويجد نفسه ذليلاً كالمنبوذ دون ذرية. وقد أوضح (موسيل Musil) هذا الجانب بجلاء في كتابه (سلوك وعادات بدو الرْوَلَة).

هنالك حالات بالطبع، يرى فيها الشاب الفتاة فيقع في حبها وهي ليست ابنة عمه، فإذا كانت هي في حل من ابن عمها فاجراءات الزواج تلي ذلك. وفرصة الرجل في رؤية الفتاة هي عندما تتفقد الإبل والأغنام، تماماً كما يفعل شبابنا وشاباتنا. وقد وصلت إلى علمي قصة حب عنيفة من هذا النوع، وقد يفقد البدوي فيها رأسه من أجل حبيبته، كما يحدث مع شبابنا إن لم يكن أكثر.

عندما يريد الرجل أن يتزوج فهو يدفع للفتاة كثيراً من المال. ويتأرجح مهرها بين سبعين وخمسماية ريال سعودي حسب وضع الرجل الاجتماعي. (أنا لا أشير هنا بالطبع إلى المصاهرة والقواعد الناظمة لها في بيوت وبين أمراء الجزيرة العربية كآل سعود وآل خليفة وآل الصباح)[1].

---

(١) إن نقد الزواج لدى آل الصباح هو بين ١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ ريال سعودي.

على الرجل أن يجهز عروسه بثوب أو ثوبين (كسوة)، وفراش يتألف عادة من لحاف أحمر لفرشه على الأرض. تجهيز فراش الزواج هذا يعتبر أساسياً بالنسبة للرجل المقدم على الزواج. وهدية العروس المشتملة على المال والأثواب وفراش الزواج تسمى (جهاز). وهي عادة منتشرة في كل أنحاء العالم. بعد أن تقدم هدية (الجهاز)[1] تقام مراسم الزواج عن طريق (المُطوِّع) المحلي، أو الرجل الخبير بأمور الدين، وقد يكون إمام المصلين أو أي ذي علم. هذا لدى عامة البدو، أما بالنسبة للشيوخ وغيرهم فمراسم الزواج يقيمها عالم أو شيخ.

في كل تجمع سكاني مهما صغر، يوجد رجل مؤهل لإجراء عقود الزواج حتى ولو كان رجلاً أعمى. ومراسم الزواج بسيطة في الواقع. يسأل الشيخ الرجل الراغب في الزواج (فيما إذا كان يقبل بالفتاة زوجة له)، فيجيب العريس (بنعم) بحضور الشهود، ثم يسأل وكيل الفتاة ـ أبوها أو شقيقها ـ (فيما إذا كانت الفتاة تقبل الرجل زوجاً لها)، وإذا كانت الإجابة (نعم) فتنتهي بذلك مراسم الزواج. تجلس العروس أحياناً خلف الخيمة تسمع كل ما يدور ولكن هذا نادر.

من الطبيعي أن تكون الفتاة قد استرقت النظر إلى الزوج المتوقع، أو تعرفت على الأقل إلى ملامح وجهه. إلا إذا كان ابن عمها ونشأت معه. وليس للعريس الحق ـ كقاعدة ـ أن يرى زوجته المتوقعة ولكنه إذا كان ذكياً سيجد طريقة أو سبباً لاختلاس النظر إليها قبل الزواج. والفتاة في هذه الحالة تساعده راغبة لإشباع فضوله.

حسب العادة المتبعة، ليس للرجل أن يطلب الزواج من الفتاة العازبة، حتى ولو كان يقابلها ويغازلها عند مرابض الإبل. بل يجب عليه أن يخطبها من أبيها. أما إذا كانت امرأة مطلقة أو أرملة فيستطيع أن يسألها إن كانت تقبل الزواج منه.

بعد إتمام الزواج، يأخذ العريس عروسه إلى الخيمة التي أقامها لها مسبقاً بجوار خيمة أبيها حيث تجري بقية الإجراءات، كثيرة هي العيون والآذان الفضولية التي تتركز على خيمة العروسين. وكما يحدث عندنا نحن الغربيين، فإن هؤلاء الذين يهتمون باجراءات الزواج ومراسمه هم نساء المخيم.

يجري زواج العبيد بنفس الطريقة السابقة إذ يقوم سيد العبدة مقام الأب والسيدة مقام الأم. وهم يهتمون بزواج عبيدهم كما لو أنه أحد أفراد عائلتهم.

---

(١) في نهاية هذا الفصل قسم عن جهاز العروس.

إن حب البدو للحياة الزوجية أمر مشهور، وكما قلت سابقاً، فالجنس بالنسبة للبدوي هو متعة الحياة الأولى. لذلك يلاحظ أن العريس والعروس يقضيان مدة شهر العسل يستمتعان بها باستغراق. وتتميز ممارسة الحب لديهم بالوحشية العاطفية، فقد عرفت رجلا كسر ضلعي زوجته في أول ليلة من زواجهما. وحالما تعلم الزوجة أنها حامل، تسارع إلى إعلام بقية النساء عن خبرها. وسيصبح الأمر فرصة للفرح. بينما تستمر في معاشرة زوجها بشكل طبيعي حتى ما قبل الولادة.

الطلاق

إجراء الطلاق بحد ذاته بسيط جداً، فلا يحتاج الرجل سوى أن يقول لزوجته على مسمع من الشهود أنه لا يريدها ثلاث مرات ليصبح الطلاق ساري المفعول. وليس من عار على المرأة المطلقة التي تأخذ الأمر على أنه فلسفة حياة بل وتسارع للبحث عن زوج غيره.

إذا طلق الرجل زوجته فإنه يحتفظ بجهازها الذي أهداه إليها سابقاً، وذلك كتدبير احتياطي أو حتى تجد زوجاً آخر. والجدير بالذكر هو أنها في أغلب الأحيان تنفق ثمن جهازها بشراء جمل أو عدد من الأغنام، وتصبح مالكة لقطيع. والنقطة التي أحب أن أؤكد عليها هي أن الطلاق ليس عملاً يورث الخجل. بل إذا كانت المرأة جميلة، أو كانت زوجة لأحد كبار الشيوخ فستشهد منافسة حامية بين الشباب للظفر بها زوجة. يحدث هذا إذا كانت الفتاة ذات ميزة ولها شهرتها بين الرجال.

وكدليل على قولي أسوق هذا المثال:

جازي، شقيقة خالد الحثلان، شِيخ عجمان المعظم، كانت شابة جميلة مغرية. وفوق ذلك كانت لديها إرادتها المستقلة، وشيخة بحق. ولا تبخل بمنح جمل لفقراء قبيلتها المحتاجين. كما أنها كانت تبقي المضافة مفتوحة في غياب شقيقها. وقد تزوجت عدداً من الشخصيات حسب ترتيب ذكرها:

١ - عبدالعزيز آل سعود (ملك)
٢ - سعود آل عرفة آل سعود (شقيق زوجة الملك)
٣ - عبدالعزيز آل سعود (ملك)
٤ - راكان الحثلان بن دهيدان الحثلان (عجمان)
٥ - عبدالعزيز آل سعود (ملك)
٦ - بندر الدويش (شيخ مطير المعظم عام ١٩٣٠).

٧ ـ مُطلق الجبعة، من شيوخ مطير.

من الملاحظ أنها تزوجت جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود ثلاث مرات، وكان في كل مرة يستردها من زوجها بعد منحه جميلاً مليحاً كهدية، متعذراً بأنه مايزال يحبها (خاطري ما طاب منها). وقد أنجبت من كل زوج ولداً ما عدا الحثلان.

هذا المثال يعني أن كل امرأة جميلة بلغت قرابة الثلاثين من عمرها، تكون قد تزوجت مرتين أو ثلاثاً، وقد تبلغ السبع أو الثماني مرات. أي أنه لا توجد بين البدو امرأة عانس، فكل امرأة تتاح لها فرصة ممارسة متعة الحياة الزوجية لمرة أو أكثر. ومنه فليست هناك مشكلة امرأة غير متزوجة ولا بغاء ولا زنى. كذلك يندر فرار متحابين، لأنه ينتهي عادة بمقتل المرأة على يد أقاربها.

إذا غضبت المرأة من زوجها (تصير زعلانة) فإنها تذهب إلى أبويها وترفض العودة إلى زوجها. على الزوج في هذه الحالة أن يطلقها[1] وعلى الزوجة أن تعيد جهازها. هذه الطريقة هي التي تسلكها المرأة للتخلص من زوج غير مرغوب فيه. إن طريقة البدو في الزواج والطلاق، يجدر بالغربيين أن يتعلموا درساً مفيداً منها.

إذا أحبت امرأة متزوجة رجلاً آخر ولم تعد راغبة بزوجها، فإنها تخبره بذلك، وتطلب منه الطلاق. ومن اللياقة أن يجيبها إلى طلبها. وعلى الرجل الآخر أن يدفع له ثمن الجهاز والمال الذي أنفقه عليها. إلا أن هذه القاعدة لا تسري على ابن العم وأولويته.

في مدينة الكويت يتبعون عادة لطيفة، وهي أنه عندما يتزوج العريس يقضي مع عروسه سبعة أيام في بيت أبويها. وهذا ما يتبع أيضاً لدى قبائل الكويت. والغاية من هذه العادة هي تسهيل وتبسيط الأمور بالنسبة للفتاة التي تكون عادة مغمورة بالخجل والاضطراب. يتم ترتيب الزواج وإتمامه لدى العربدار في الكويت والقبائل المحلية كما يلي:

لنفرض أن رجلاً يريد الزواج. يعبر عن رغبته هذه للنساء من أهله الذين يستعرضون الفتيات ويقترحون عروساً جميلة في الخيمة الفلانية. فيرسلهم لرؤية أم تلك الفتاة وعرض الموضوع عليها. إذا كانت الأم راغبة فسترسل النساء إلى والد الفتاة ليعرضن الموضوع عليه. ثم يحدد الأب ما يريده جهازاً لابنته. يُدفع المال دون

---

(١) ما لم يستطع إقناعها بالعودة بإعطائها كسوة وهدية لطيفة كقطعة قماش أو جمل أو خروف وما شابه.

مساومة ـ فهو أمر لا يحدث مطلقاً ـ لأن أهل العريس إذا كانوا لا يوافقون على شروط الجهاز فليس لهم سوى أن يقولوا «لم يحدث شيء» ويعودون أدراجهم.

أما إذا تم الاتفاق، ودفع المال، ووصل العلم إلى العريس المتوقع. فإن الأخير يرسل في طلب «المُطَوِّع»أو الشيخ، ويدعو والد العروس، ويتم عقد الزواج باعتبار الأب وكيلاً عن ابنته العروس ويأخذ الشيخ ريالين أجراً له.

حتى هذا الحين والفتاة غالباً ـ بل دائماً ـ لا تعلم شيئاً عما يجري ويتم ترتيبه لها. أول نبأ تتلقاه هو من أمها التي تطلب منها أن تستعد لفراش الزوجية هذه الليلة. وغالباً ما تصاب الفتاة بانفعال شديد ونفور. عندما تصبح الفتاة جاهزة وكل شيء قد تم تحضيره، وهذا ما يحدث عادة في نفس الليلة، يؤخذ العريس إلى خيمة العروس وقد تفرد لهما خيمة صغيرة مجاورة لأبوي العروس وهذا الأرجح. يجلس العريس في الخيمة ويستقبل ضيوفه الرجال لمدة ساعة من الزمن تقريباً بشكل محكم حتى لا تهرب، إذ أنها تتظاهر برغبتها بتنفيذ ما يريدون. يضعونها في الخيمة المعلقة من كل جوانبها وينادون على العريس ليتسلم الفتاة التي اختارها ثم يعودون بحذر. تحاول الفتاة العروس أن تنسل هاربة مع النسوة، أو الخروج متسللة بالزحف تحت حاشية الخيمة، وعلى الرجل أنْ يحبط محاولاتها ويتودد إليها رويداً رويداً حتى يجعلها تخلع عباءتها وتكشف وجهها وشعرها، إلا إذا كان لا يرغب بها.

في صباح اليوم التالي، يستيقظ العريس ويستعد لمغادرة الخيمة. وعليه قبل المغادرة أن يترك لها هدية نقدية تساوي عُشر قيمة جهازها تحت فراشها. فإذا كانت قيمة جهازها ثلاثماية ريال مثلاً، كان عليه أن يترك لها ثلاثين ريالاً. وهي عادة يتبعها الجميع دون استثناء وتسمى (الصُباحة) أي هدية الصباح. هذا ويسمى دخول الزوج على الزوجة لاستكمال الزواج (مِدخل).

عندما يرغب شيخ أو رجل ذو مركز أن يتزوج فتاة من عامة البدو، فليس من المعتاد أن يحدد والدها مهرها. هذا أمر متروك لشهامة الشيخ الذي يفترض أنه يعرف ما يتوجب دفعه وسيزيد عليه. إنه لا يعطي المال فقط، بل ويرسل كسوة تشتمل على فراش الزواج، وأغطية، وفرشة، وأثواب جديدة وملابس داخلية، وذلك حسب وضعه الاجتماعي والمادي.

لدى القبائل غير الكويتية تؤخذ العروس دائماً إلى خيمة العريس. هذا ما هو

متبع أيضاً في مدن عمق نجد. بعض القبائل - وأعني منها ضفير - يقوم أفرادها بمداعبة العريس بمزاح خشن يوم زواجه ويحاولون بكثير من الدعابات والحيل الخشنة إرباك العريس والعروس. كأن يتحلقون حول خيمة العروسين ويحاولون اختلاس النظر إلى الداخل بطريقة مربكة. وغالباً ما يلقون عليهما الماء من خلال الستارة الخلفية. أما لدى العوازم فالعروس لا تجلب للعريس لديهم، ولا الأخير يؤخذ إلى خيمة أبويها. كل ما يحدث هو أن يطلبوا منه أن يذهب ويمسك بعروسه المختبئة بين النساء. ثم يبدأ البحث، والويل والثبور للعريس الذي لا يستطيع أن يمسك بعروسه.

هنالك بين عامة الناس في مدينة الكويت عادة، وهي أن الطفلة المولودة إذا ظهر عليها بعض الدم بعد ولادتها، فإن أمها تستبقي هذه الحادثة في ذاكرتها حتى تكبر الطفلة. في يوم زواجها تعلم الأقارب بذلك. وتقام المراسيم التي من ضمنها ما يسمى (نَطّارة) أو المراقبة والانتظار. فالنساء من أهل العريس يحيطون بالعريس وعروسه في خيمة العرس منذ غروب الشمس حتى الفجر، وبواسطة الموسيقى والغناء والضحك يمنعن اقتراب العريس من عروسه حتى ينتصف الليل، فيضعن قدمي العريس مقابل قدمي العروس، وهم حفاة، ثم يصبون الماء على الأقدام الأربعة. عند الفجر، تنسحب هؤلاء النسوة (المازحات المفسدات) إلى غرفة أخرى بعد أن يغلقن على العروسين في غرفة واحدة خانقة. فيما بعد، وعندما يلتمس العريس الخروج، يفتحن الباب ويدخلن عليها ويغسلن جسمها كله ويغيرن ملابسها ويهيئنها لزيارة العريس التالية لها. هذه الزيارة التي تأتي بعد مدة ساعتين/ انظر زواج أخوات حمدة في الكويت في الرابع من تموز ١٩٣٥/.

لقد أخبرتني عمشة (ابنة ابراهيم المزين الجميلة المتزوجة) في الثاني عشر من تموز عام ١٩٣٥ أن لدى العرب قولاً هو (المرأة كقربة التمر - كيس جلدي - عندما تكون مملوءة فهي مفيدة بطريقة أو بأخرى، ولكنها عندما تفرغ تصبح عديمة النفع ويجب أن ترمى). وهي تشير بذلك إلى انعدام دور المرأة التي لم تعد قادرة على الإنجاب. وعندما يرميها الزوج يقول (حَفَظْتِ ونَفَثْتِ) أي تستطيعين الذهاب وأنا أحفظ أي ولد أنجبته[١].

---

(١) المرأة المطلقة لا تتزوج مرة أخرى إلا بعد ثلاثة أشهر قمرية من طلاقها، أو كما يقول البدو: (من بعد ثلاث جمرات)، وهو إجراء يتخذ للتأكد من أنها ليست حاملاً من الرجل الذي طلقها.

عادات الزواج عند قبائل العراق

جهاز العروس هنا يتألف بكليته من الأشياء المتعلقة بسيدة البيت، كأواني الطبخ والوسائد والبطانيات وإزارات ولحف وفراش العرس. يضاف إلى ذلك طبعاً كسوة جديدة للعروس. العروس لا تجلب لعريسها شيئاً كحصان أو فرس، مع أني سمعت بعض الأوروبيين يقولون العكس. ترسل النقود - مهر العروس - إلى أبيها من قبل العريس قبل الزواج بأسبوعين أو شهر. وغالباً ما يسلم الأب النقود لابنته بعد أن يضيف عليها مبلغاً آخر من المال يدفعه هو بمساعدة أمها والنساء من أقاربها. ثم تقوم الفتاة بتحويل هذه النقود إلى جواهر تشتريها. تكلف الفتاة لدى قبائل العراق ما قيمته مئتي ريال. أما ابنة الشيخ فمهرها غير ثابت إلا أنه لا يزيد عن ألف ريال. وكما في الصحراء، إذا كان الرجل يرغب بالزواج من ابنة عمه فإنها له منذ يوم مولدها.

يقوم شيوخ السعدون في المنتفك بالإبقاء على بنات العم عازبات حتى يوم موتهن وذلك بغية المحافظة على الثروة ضمن العائلة. وهي عادة سيئة ومستنكرة من بقية العرب.

أعود للحديث عن الصحراء فأقول إن سوء الأخلاق لدى الفتيات غير المتزوجات أمر غير وارد. وعلى النقيض، فإن المتزوجات غالباً ما ينغمسن في ممارسة الحب سراً. وعقوبة سوء الأخلاق هنا هي الموت للمرأة التي ينكشف أمرها. شقيق المرأة أو ابن عمهما هما المعنيان بشرفها أكثر من أبيها. وإذا كان ثمة سبب للانتقام منها فأحدهما هو الذي يتتبع أثرها ليقتلها، بدعوى أن قومها لا يستطيعون رفع رؤوسهم بفخر في مجالسهم القبلية، ما دامت إحدى نسائهم قد لوثت شرفهم وما زالت على قيد الحياة. أما ما يبقي على حياتها فهو زواجها من الرجل الذي أغواها وقادها إلى الخطيئة. ومع ذلك فإن على هذا الرجل أن يدفع (الحشم) أو الشرفية لإقناع أهل المرأة. وقد يأخذ رجل غريب مكان الخاطىء ويتزوج الفتاة لينقذها من القتل، إلا أن هذا قلما يحدث.

تلجأ قبائل مَعْدان في العراق إلى تزويج إحدى الفتيات من أقارب القاتل لشقيق أو ابن الشخص المقتول. والغاية من هذا هي أن الطفل الذي سيكون نتيجة اتحاد عائلتين متعاديتين سيخفف من حدة العداء والكره اللذين قد يستمرا بين تلك العائلتين.

أما لدى القبائل العربية في العراق، فيقيم الرجل خيمة خاصة أو كوخاً من

الحصير يدعى (حوفة)، وذلك كي تنتقل إليها عروسه بعد الزواج، ويقيمها بجوار بيته أو خيمته لتكون بمثابة خيمة شهر العسل. تقوم النسوة من أقارب العروس باصطحابها إلى الحوفة، بينما يقوم أصدقاء العريس باصطحابه إلى الحوفة أيضاً، وهو مرتدٍ أجمل ثيابه وذلك لإتمام عملية الزواج. تبقى النسوة في الحوفة سجينات لمدة سبعة أيام، بينما يخرج الرجل بين الحين والآخر لاستقبال ضيوفه في المضافة أو في خيمة مجاورة. في اليوم الثامن تخرج العروس من حوفتها، وتنتقل إلى بيتها الجديد لتمارس مسؤوليتها كربة منزل. ولا يتم تقليد إنشاء الحوفة إلا إذا كانت العروس تتزوج للمرة الأولى. أما إذا كانت أرملة أو مطلقة فتذهب إلى بيت زوجها مباشرة.

الحُب

كثيراً ما سئلت عما إذا كان البدو يعرفون الحب كما نعرفه نحن الأوروبيين، وقد أجبت ـ دون تردد ـ بنعم. وحقيقة أن الرجل يمكن له أن يتزوج أكثر من امرأة ليس لها أي تأثير، إذ أنك في الواقع نادراً ما تجد بدوياً لديه أكثر من زوجة واحدة على عصمته. فهو لا يستطيع تحمل نفقات مترفة كهذه. إلا أن الغالبية بالطبع يتزوجون مرتين أو ثلاثاً في حياتهم، ولأسباب منها مزاج الزوجة أو كسلها، أو عدم انجابها الأولاد، أو لكونها غير عاقلة، أو موتها إثر مرض. إلا أنني عرفت عدداً كبيراً من البدو الذين أخلصوا لزوجة واحدة طيلة حياتهم، وعاملوها على أنها المرأة التي اختاروها، والتي تستحق العطف، وأولوها كل ثقتهم حتى عندما أصبحت عجوزاً عاجزة. هذا ـ على كل حال ـ ما يثبت أنه إخلاص له ارتباط بالحب بشكل أو بآخر.

على الرغم من أن دينهم سمح للرجال منهم بالاقتران بأكثر من زوجة واحدة، وعلى الرغم من كون قوانين الطلاق سهلة ومعقولة، فإن مستوى الأخلاق بين ساكني بيوت الشعر هو من أعلى المستويات في العالم. هذا ما يؤدي بطبيعة الحال إلى مستوى عالٍ من الحياة العائلية، كما ينتج عنه تبادل الإعجاب والصداقة والثقة بين الرجل وزوجته.

يلجأ الرجل للزواج بسبب حاجته إلى رفيق مساعد يعد له طعامه، ويهتم بحاجاته، ويصلح ويجدد الخيمة. كما عليه أن يتزوج ليكون لديه من يعد اللبن ويجمع الحطب ويأتي بالماء له ولإبله. وعلى رأس ما سبق، إنه بحاجة لمن تنجب له الأولاد، فهو بدونهم نصف رجل. مع ذلك، ومع أنه ينتظر من المرأة أن تكون ـ قبل كل شيء ـ ذات فائدة له بأية طريقة، فإن لديه دائماً من الحب والحنان ما يمنحه إياها. لقد عرفت حالات كثيرة من الحب المتبادل بين الشباب والشابات وصلت إلى حد

الوله. سوف أروي هنا اثنتين منهما واللتين لقي أبطالهما الظلم مع أنهم انتهوا إلى نتيجة صحيحة وعاشوا سعداء فيما بعد. هذان المثالان سيعطيان قرائي صورة يقررون على أساسها فيما إذا كان رجل الصحراء يختلف اختلافاً كبيراً عن أخيه الغربي، والجدير بالذكر هنا أني على معرفة وثيقة بأبطال القصتين من الشباب.

أ- قصة حب مُطلق بن ماجد الأصقه من فخذ الشقير لقبيلة مطير:

كان مطلق شاباً في الثامنة عشرة من عمره، ابن شيخ كريم المنبت، جميلاً، لطيفاً، نحيلاً قوي البنية، تتدلى على وجنتيه جديلتان من شعره الطويل كالقرون تحسده النساء عليهما. كما كان رجلاً يتميز بالمرح واللباقة يبز بهما أقرانه. في المرة الأخيرة التي أتى فيها إلى الكويت، طلب مني أن يتفرج على بيتي كله، وعندما شاهد غرفة نومي ونوم زوجتي قال: (والله إن صالة النوم هذه لأفضل من تلك التي لدى عبدالعزيز نفسه - قاصداً الملك نفسه -). وأيدت قوله هذا شقيقته نورا.

قضى مطلق في الكويت أسبوعاً حينما كان والده يتلقى العلاج في مستشفى البعثة التبشيرية الأمريكية. ثم ودعناه بدعواتنا وقدمت له زوجتي بعض الهدايا القيمة دون أن نعرف ما يخبئه القدر له. بعد ستة أشهر، زارني في الكويت والده وعمه (تركي بن شقير) وبادرت الأب بالسؤال، (أين مطلق ولماذا لم تحضره معك؟) فأجابني: (واحسرتاه، لقد هام على وجهه وهو مخبول) أجبته مستغرباً: (إن رجلاً قوياً معافى مثله لا يمكن أن يهيم على وجهه، من المؤكد أن هذا غير صحيح). فتابع الأب مؤكداً: (نعم لقد هام على وجهه مخبولاً. وكل ذلك من أجل فتاة مطيرية قابلها بين الإبل). قلت له: (لماذا لم تزوجوه إياها مادام في حالة كهذه؟) أجابني الأب والعم في وقت واحد: (واحسرتاه، هذا غير ممكن، إنها الزوجة الصغرى لعبدالله بن جِلَوي أمير الحسا الرهيب. لقد تزوجها منذ عام مضى وسمح لها الآن أن تعيش مع أبويها لدى قبيلتها. ومن المحتمل أن يكون الآن هناك وقد علم بأن ابننا مطلق وقع في حب زوجته، إن انتقامه لن يعرف حدوداً).

وخلال تساؤلي عن درجة الخبل والحالة التي وصل إليها الشاب، علمت أنه يرفض أن يأكل، وأن يتحدث ولا يستطيع التعرف على أحد. كما قال لي بعض أفراد قبيلته، (إن ما حدث له ليس بسبب حبه للفتاة ولكن بسبب سيره فوق أحد القبور ليلاً بطريق المصادفة وإن جنياً خرج من القبر وتملكه وسيطر عليه. لذلك جربوا فيه الكي بالنار، على رأسه ورقبته وظهره، ولكن دون جدوى. عندها سلموه إلى امرأة عجوز حَكيمة وعدتهم أن تخلصه من السحر الذي دخل فيه مقابل مبلغ من المال. وذلك بأن

تقرأ عليه بعض صفحات من القرآن ليلاً ونهاراً). إزاء هذا الموقف، أعربت عن رأيي وقلت لهم: (إن ما أصاب الشاب هو ببساطة مجرد حالة حب شديدة غير عادية، وحل المشكلة لا يكون إلا بزواجه وإلا صار مخبولاً فعلاً). كان جوابهم لي (ربما، يمكن) ورفضوا متابعة مناقشة الموضوع. بالنتيجة نفذوا فكرتي مؤخراً ولكن بطريقة غريبة إلى حد ما، فقد زوجوا الشاب لشقيقة محبوبته. وقد أخبرني تركي فيما بعد أن العروس تشبه أختها الأصغر إلى حد بعيد في مزاجيتها وتماثلها في الشكل. لذلك فإن على الشاب أن يقتنع بالتأكيد ولن يدرك الفارق لأنه مخبول. أطاع الشاب رغبة والديه بخنوع وأبدى تجاوباً إلا أنه لم يكن مقتنعاً تماماً، إذ أني على ثقة أن مطلق مازال تواقاً بشكل محزن إلى محبوبته.

نقلت إلي، فيما بعد، بعض النسوة أن الشاب مطلق توصل إلى قرار غريب من نوعه، إذ أنه في لحظة عقلانية صرح بنيته الذهاب إلى الهفوف ليخبر ابن جلوي بأمر حبه. وعبثاً كانت كل المحاولات التي بذلت لتثنيه عن عزمه حتى تدخل القدر لإنقاذه، ففي خريف عام ١٩٣٥، عندما كان مطلق يستعد للرحيل إليه، توفي أمير الحسا فجأة، ولم أر مطلق بعدها أبداً. ولكني علمت أنه تلقى النبأ بسعادة غامرة وأسرع بالذهاب إلى الرياض، وتوسل إلى الملك أن يزوجه أرملة عبدالله بن جلوي المطيرية التي أحبها ورغب بها لمدة سنوات ثلاث وإلا فإنه سيموت إن لم يجبه إلى طلبه. أدرك الملك بفطنته المعتادة أن الأمر جدي، فقال للشاب (إنه يستطيع الزواج من الأرملة الشابة بعد أن تقضي أيام الحزن المقررة). وتم زواجهما بعد ذلك حسب المعتاد. وعاد مطلق رجلاً سعيداً مرة أخرى وقد يحتفظ بزوجته هذه لسنوات طويلة[١].

ب ـ قصة حب الشيخ مطلق الصور:

كان مطلق الصور فقيراً ولكنه شهيراً، لكونه زعيم الإخوان المطيريين. فهو شاب نشيط منصرف كلياً إلى دينه، ولم يفكر أن يشغله وجه حسن أو عينان نجلاوان، فهذا بنظره غاية في الحمق، إذ أن هذا ما كان يطمح للحصول عليه في العالم الآخر، ذلك أن الحياة الدنيا مخصصة لهداية الوثنيين والكفار إلى الطريق السوي. وقد جلب حماسه هذا انتباه فيصل الدويش وحتى الملك نفسه. كما تسلم القيادة، عن ثقة به، في مهمات عديدة كالهجوم على مركز بُصَيَّة، وقام بعمله على أكمل وجه حتى أصبح اليد اليمنى للدويش وصديقه الخاص ومستشاره عندما بدأت أحداث القصة.

---

(١) حضر مطلق إلى الكويت في عام ١٩٣٦، وقد انضم الآن إلى حاشية سمو الشيخ. كتبت هذه الملاحظة في ١٩٣٧/٥/٨ (المؤلف).

في أحد الأيام من عام ١٩٢٠ قابل الرجل قدره. وهي فتاة من عشيرته التابعة لمطير، ذات عينين مرحتين. التقاها أثناء رعايتها للإبل وأحبها من أول نظرة. لم يكن والدها على قيد الحياة وأمها امرأة تحمل روحاً تجارية طموحة. كثيراً ما سمع عن جمال الفتاة إلا أنه لم يعرها التفاتاً فهو محارب المحاربين وحماقة الحب ليست من صفاته.

لقد طرق الحب بابه على كل حال. ولم ينتظر شيئاً، بل سارع إلى طلب يد الفتاة من أمها، ولكن الأخيرة رفضت. جرب كل الحيل لإقناعها دون أن يحقق نجاحاً إذا أنها كانت جشعة إلى حد بعيد بإصرارها على خمس من النوق وخمسمئة ريال مهراً لابنتها، وهذا فوق طاقته. كرر محاولته بإرسال نساء إلى الفتاة نفسها آملاً أن يستميلها بالهدايا كالخزامى والخلاخيل والعقود والأقمشة الجميلة والعبي وأشياء أخرى من زينة فتيات البدو، إلا أن جميع محاولاته ذهبت أدراج الرياح. فقد تمكنت الأم من إقناع الفتاة بفكرتها؛ إما المال والنوق الخمس أو لا شيء.

لقد أسرته عينا الفتاة المرحتين، وجفاه النوم وبدأت مهاراته الحربية الغريزية تتلاشى. حتى خرج إلى معركة ضد الرشيد قرب حائل فقال: (لتذهب إلى الجحيم كل النسوة وأساليبهن التي تشبه الساحرات. دعوني أموت كمحارب على الأقل، فهذا أفضل لي من أن أغدو عبداً لفتاة سخيفة). لكن الحرب والقتال لم ينسيانه عيني الفتاة رغم غيابه الذي دام عامين. عاد بعد ذلك لزيارة أهله. إلا أن سوء الطالع لازمه إذ قابلها ذات صباح باكر في الصحراء مع الإبل فاقترب منها مرحباً بها فأسبلت عينيها. سألها: (إذا كان لديها ما تقوله له)، فأجابته بما يشبه الهمس (هل أتيت بالمال والنوق؟ إذا حققت ذلك فأنا لك عند الطلب). أجابها مطلق (كلا أيتها المعذِبة القاسية. وسوف لن تحصلي أبداً على جِمالك الملعونة تلك). وارتحل بعيداً بعد أن قرر نسيانها وغاب سنوات أربع طوال. إلا أنه لم يفلح في نسيانها، فذهب أخيراً ـ بعد ما عاناه إلى الملك عبد العزيز وأخبره بما يعانيه قلبه ورجاه أن يساعده على الزواج منها، لأن حبها سبب له الألم وجعله يشيخ قبل أوانه. أدرك الملك ابن سعود ـ الذي يعرف النساء جيداً ـ موقف مطلق. فمنحه ذلولاً عُمانية من أجود ما لديه مزودة بحلقة فضية في منخرها دلالة على أصالتها. ثم زوده بمبلغ مئتي ريال كهدية بالإضافة إلى عدة أثواب نسائية مزوقة وقال له: (اذهب الآن يا بني واحصل على فتاتك وقل لها إن الملك عبدالعزيز نفسه يطلب منك هذا المعروف، وقد أرسل لك أحسن ما لديه).

توجه مطلق إلى خيمة محبوبته في الصَّمان. ولاحظ عند اقترابه من خيمتها أنها

شاهدته قادماً من بعيد. قفز قلب الفتاة من مكانه. ألا يستحق أن ينالها بعد كل هذه السنين. ولكن أين النوق الخمس؟ ولما اقترب منها أكثر فأكثر تعرفت على الذلول المزينة التي يركبها فقد كانت عليها علامة الملك مع الحلقة الفضية في منخرها. فاندفعت تصرخ (لقد عاد مطلق لي، لقد عاد مطلق) وارتمت بين ذراعيه متناسية كل شيء. لم يشاهدهما أحد فقد كانا مختفيين وراء قاطع الخيمة. ولم يعد لرأي أمها أهمية بعد. وقد أخبرني مطلق فيما بعد أن عناقهما عند اللقاء استمر طيلة نصف ساعة لم يبعد خلالها شفتيه عن شفتيها. لقد كانت هذه المرة الأخيرة التي يتغيب فيها عن ديرته، وها قد حصل على أجمل زهرة في الجزيرة العربية. تزوج مطلق الفتاة بعد لقائهما بوقت قصير وأنجبت له ولداً. ولكنها توفيت بعد ذلك بعام واحد مسببة له حزناً لا يوصف فقال بأسى: (إنه لن يحب مرة أخرى أبداً).

الفصل التاسع

خصوصيات النساء

ملابس النساء البدويات

تحب الفتاة البدوية ـ ككل الفتيات في العالم ـ قبل كل شيء أن تزين نفسها بالملابس، على الرغم من أنها لا تمتلك فرصة عرض ملابسها وحليها كتلك التي تمتلكها نظيرتها في المدينة، ولكنها تتصرف حسب الظروف المتاحة أمامها. دعني الآن أعدد لك ملابسها المتنوعة مع وصف مقتضب لكل منها:

١ ـ **الثوب**: رداء قطني أسود.

٢ ـ **الدشداشة**: رداء من القطن أو الفلانيلة أو الحرير ذو أكمام طويلة يُلبس تحت الثوب.

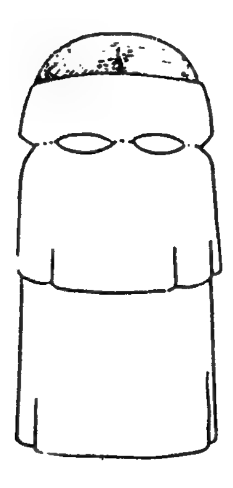
٣ ـ **السروال**: بنطال طويل ملون من القطن يثبت عند الوسط بشريط، وقدماه مزمومتان فوق الكاحلين.

٤ ـ **العباءة**: وهي من الصوف الأسود. يغلب أن تكون حوافها محلاة بشريط من الحرير الأسود. ترتديها كل النساء عند الخروج من الخيمة. أما العباءة المذهبة فتلبس أيام الأعياد ولدى زيارة امرأة ذات أهمية.

٥ ـ **أم رُقِلَة**: قطعة من القماش القطني الأسود تُلبس على الشعر متدلية فوق قبة الثوب وهي تتألف من أربع قطع متصلة ببعضها البعض.

٦ ـ **الملفع**: قطعة مستقيمة من القماش القطني الأسود الشفاف. تستعمل لتغطية الوجه لدى نساء المدن. كما تلبسه النساء البدويات في الشمال لتغطية الجزء الأسفل من وجوههن.

٧ ـ البرقع[١]: وهو عبارة عن قناع أسود من الحرير، مزود بفتحتين للعينين ترتديه كل نساء البدو جنوب الكويت ومنطقة نجد. وهو يتدلى فوق الفم والرقبة ويثبت بثلاثة أشرطة، اثنين منهما حول الرأس والثالث حول الرقبة. يعتبر البرقع المتقن الصنع جذاباً جداً ويؤمن للابسته رؤية ممتازة الشكل (٤٧).



الشكل (٤٧) البرقع

هنالك نموذج آخر من البرقع، ولكنه أطول قليلاً، ترتديه النسوة في قبائل مطير، حرب، عُتيبة، سبيع، الرشايدة، بني خالد، بني هاجر، والعوازم، بينما ترتدي نساء عجمان نفس البرقع، إلا أنه أقصر، وينتهي تحت الذقن، كما أن بعض العشائر تخيط فيه عوداً صغيراً بشكل عمودي عند منتصف الجبهة. تصنع نساء عجمان براقعها من قماش قطني لامع أو من الحرير البراق. وقد اتبعت نفس الأسلوب قبيلة مُرة والمناصير، وكذلك النساء البدويات في ساحل عُمان ولكن بشكل محدود.

أما بدو الشمال فلا يغطون وجوه نسائهم بالبرقع كما يحدث في الجنوب، بل يستعملون الملفع، وهو خمار أسود رقيق ينسدل فوق الجزء السفلي من الوجه ويغطي الفم. بشكل عام، النساء البدويات اللواتي يقطن جنوب الخط الممتد من العقبة إلى الكويت يرتدين البرقع. أما الشماليات[٢] فيغطين جزءاً من وجوههن فقط.

---

(١) في جزيرة فيليكا ترتدي النساء قناعاً قماشياً صلباً يعرف باسم (بطولة) نفس هذا القناع يشاهد أيضاً على سواحل عُمان. (المؤلف).

(٢) هذه العبارة ليست شاملة لأن شمر وبعض قبائل الحجاز وعتيبة هم جنوب الخط، ومع ذلك فهم لا يرتدون =

٨ ـ **الزِبون**: معطف طويل مفتوح من الأمام (ترتديه نساء المدينة الموسرات).

٩ ـ **بُخْنق**: وهو رداء للرأس أسود اللون من القطن ترتديه الإناث من الأطفال حتى الثانية أو الثالثة عشرة من العمر، في المناسبات والأعياد. وهو يثبت تحت الذقن وحوافه مطرزة بالخيوط الذهبية.

تقوم المرأة في الصحراء بتصنيع جميع ما يلزمها من الملابس. ولكنها لا تملك مقصاً ولا خيوطاً فهي تلجأ إلى تمزيق القماش مستعينة بأسنانها وتخيطه بخيوط تأخذها من نفس القماش. وأداتها في القياس هي المسافة بين إبهام يدها وسبابتها وهما متباعدتان، أو المسافة بين الزاوية الخارجية لإحدى العينين ونظيرتها في العين الأخرى.

شهد عام ١٩٣٥ انتشار موضة (سوجَر) بين سيدات مدينة الكويت فقط، وهو عبارة عن سروال قصير حتى الركبة بدلاً من السروال الطويل، وقد اشتق اسمه من الكلمة الإنكليزية (Soldier) التي تلفظ بالعربية (سولدجَر) أي جندي، وهو تقليد للسروال الخاكي القصير الذي يرتديه رجالنا في البلاد الاستوائية.

حُلي النساء

سأدرج فيما يلي مفردات الحلي التي ترتديها كل من المرأة البدوية والحضرية. وقد وضعت إشارة «*» بجوار الحلي التي لا ترتديها النساء البدويات. وقد كان لتحريم استعمال الذهب بين البدو من قبل الوهابيين أثره، إذ أن جميع حليهم هي من الفضة فقط.

١ ـ **خاتم إصبع الخنصر**: وهو من الفضة أو الذهب مرصع بحجر مربع أو بيضوي من الفيروز.

٢ ـ **خاتم الإصبع الأوسط**: وهو من الفضة أو الذهب مرصع بحجر مربع أو بيضوي من الفيروز.

= البرقع. وهنالك قبائل في الشمال الغربي، وأعني منها بنو صخر، الحويطات، بنو عطية، هذه القبائل لا ترتدي نساؤهن حتى الملفع. أما قبيلة الصلبة، فنساؤها لا يرتدين البرقع ولكنهن على الغالب يستعملن الملفع عندما لا يرغبن بأن تكون وجوههن مكشوفة. (المؤلف).

٣ ـ **خاتم إصبع البنصر**: وهو من الفضة أو الذهب مرصع بحجر مربع أو بيضوي من الفيروز.

٤ ـ **خاتم فضي مرصع بحجر مربع كبير من الفيروز مخصص لإصبع الشاهد** وتستعمله الموسرات من النساء فقط.

٥ ـ **سوار من حبات الكهرمان الكبيرة** وهو منتشر بين الجميع. وهناك سوار ذو حبات ملونة يعرف باسم (الدلق).

٦ ـ **سوار من قطع المرجان الكبيرة الحمراء** وهو منتشر بشكل خاص بين نساء ضفير.

٧ ـ **عقد من الحبات الملونة الصغيرة** تتدلى منها خمس سلاسل من الحلي، وهو منتشر بين نساء عجمان ومطير وضفير.

٨ ـ **خاتم الأنف أو الخزامى**: وهو من الذهب أو الفضة ومزود بلؤلؤتين وحجري فيروز.

٩ ـ **خاتم الأنف أو الفْريدَة**: مماثل للخزامى تماماً إلا أنه أكبر حجماً. ينتشر استعماله بشكل كبير بين البدو.

* ١٠ ـ **زَرار**: رصيعة ذهبية مزينة بحجر من الفيروز تعلق في منتصف الرقبة (وهي منتشرة بين نساء المنتفك).

* ١١ ـ **خَشِل**: عقد مصنوع من النقود الذهبية مختلفة الحجوم ويسمونه في الكويت (سَنْخْ).

* ١٢ ـ **حِجِل**: مجموعها حِجال وهو خلخال كبير من الذهب أو الفضة يرتدى فوق الكاحل.

* ١٣ ـ **هامَة**: غطاء للرأس من الذهب يتدلى من طرفيه على جانبي الوجه سلسلتان تعرفان باسم (طلال) تستعمله العرائس.

* **كِتْبات**: حلية تعلق بخيوط تجدل مع ضفائر الشعر خلف الرأس وتلبسها النساء من الأغنياء فقط.

* ١٥ ـ **مَتايِد**: خلخال من الذهب على شكل شريط منبسط باستقامة واحدة. أما إذا كان متموجاً فيسمى (متايِد الحياة).

* ١٦ ـ حَزام: نطاق من الذهب يلبس على الخصر فوق الملابس.

* ١٧ ـ الخويصات: أساور من الذهب سميكة وجميلة ومرصعة بالفيروز.

* ١٨ ـ قُبقُب: غطاء ذهبي للرأس تلبسه العرائس والفتيات الصغيرات في الكويت أيام الأعياد. وهو مصنوع من مربعات صغيرة من الذهب الصلب. كل مربع يزينه حجر صغير من الفيروز. يثبت الغطاء على الرأس بواسطة الشعر من خلال عرى في الغطاء.

١٩ ـ الدلق: سوار بدوي من الحبات الملونة.

شعر النساء

لدى قبائل مطير، عجمان، ضفير، الرشايدة، العوازم، وقبائل أواسط وشرق الجزيرة العربية، تقوم النسوة بتصفيف شعورهن على أساس تسع جدائل. تقسم هذه الجدائل حسب التالي: واحدة على كل من جانبي الوجه تظهر من أسفل البرقع، ست من الجدائل الرفيعة في الخلف تبدأ من قمة الرأس، وواحدة تحتهن عند النقرة.

يُغسل الشعر مرة كل شهر، ويعاد تصفيفه مرة كل أسبوع عند وضع الزيت عليه. ويتألف هذا الزيت من مزيج من الأعشاب كالرَشوش والحناء وتستعمل نساء شمر ومطير أوراق النِفْل المجففة بدلاً من الرَشوش، بينما تستعمل نساء المدن مسحوق أوراق شجر السِدْر المجففة لغسل شعورهن بعد وضع الحناء عليه.

هنالك مادة أخرى تستعمل لقتل القمل تسمى سم السمك وهو حمض الأرسينيك أما أداة تمشيط الشعر فهي من الخشب وتسمى المشط.

تستعمل النسوة في تنظيف أسنانهن قطعة من قضبان شجر يسمى دَرُم وهو ينظف الأسنان جيداً ويضفي على الفم جمالاً بإعطائه الشفاه لوناً أحمر كالزعفران، ويكثر استعماله في المدن أكثر من الصحراء.

ملابس الحج

عندما ينوي الرجل أداء الحج فإنه يرتدي لباس الإحرام، وهو عبارة عن غطاء

أبيض على الوركين وآخر على أحد الكتفين. أما النسوة فيرتدين لباساً خاصاً[1] عند دخول أراضي مكة للحج وهي تتألف من:

١ ـ سروال أخضر.

٢ ـ ثوب أخضر. (من الموسلين يُرتدى فوق الثياب).

٣ ـ دشداشة خضراء.

٤ ـ عباءة سوداء.

٥ ـ ملفع.

الحِنّاء واستعمالاتها

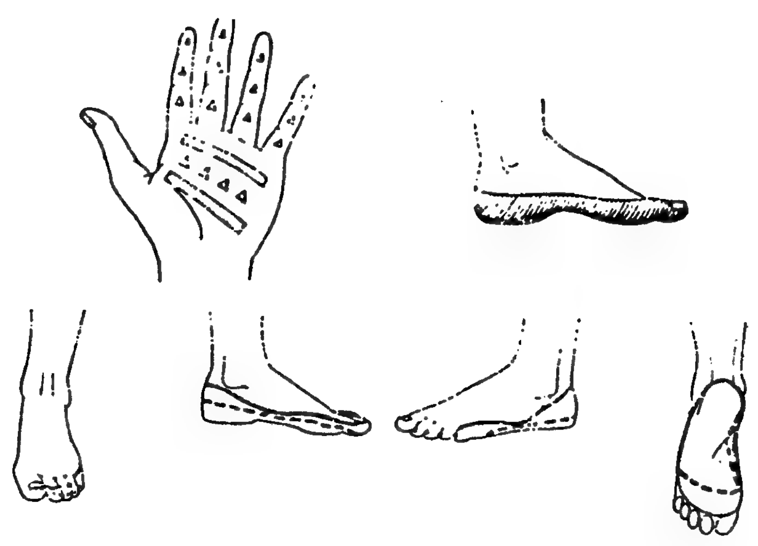
تستعمل نساء المدن (الحضر) الحناء السوداء (سومر) لأخمصي القدمين واليدين، بينما تستعمل الحناء الحمراء لرؤوس الأصابع والإبهام. أما الفتيات البدويات فلا يستعملن سوى الحناء الحمراء، وذلك لتزيين اليدين وأظافرهما وأظافر القدمين، وهن لا يزينّ راحة القدم. توضع الحناء على ثلاث مراحل حتى تعطي اللون المطلوب. وهي عبارة عن مسحوق يمزج بالماء حتى يصبح عجينة سائلة توضع بواسطة قضيب خشبي على المواضع المطلوبة بكثافة وعناية على القدمين واليدين حسب التزيين المطلوب، تترك العجينة لتجف قرب النار حتى تتشقق العجينة وتتساقط أو تنزع باليد. تكرر هذه العملية ثلاث مرات أو أربعاً إذا كان المطلوب لوناً داكناً.

تفضل بعض النسوة أن تترك الحناء أثراً بلون أسود ولا سيما على القدمين. ويتم هذا بتحضير عجينة من دقيق الكلس (نورة) ومسحوق بلورات النشادر (شَنَدَة). بوضع هذه العجينة على المواضع التي اصطبغت بلون الحناء الحمراء، فيتحول لونها إلى السواد في الحال، ويدوم هذا اللون عشرين يوماً أو شهراً. تزال بعد ذلك العجينة بواسطة الماء دون استعمال الصابون. الشكل (٤٨).

---

(١) إذا كانت المرأة، عند دخولها أراضي مكة المقدسة لأداء فريضة الحج، في الطمث، فإن حجها باطل ولاغ لأنها لا تعتبر طاهرة. لذلك كثيراً ما تطلب النساء العربيات في الكويت من الطبيبة، عند ذهابهن للحج، أن تزودهن، إن كان بإمكانها، بدواء يؤخر الدورة الشهرية عندما يحل موعدها (المؤلف).

تعليق: ليس ما ذكر اعلاه صحيحاً بل حجها صحيح، وتؤدي جميع المناسك ما عدا الطواف، كما حدث لسيدتنا عائشة وابنة عمير، وما أجابها الرسول (ص) به حول هذه القضية، ويراجع في ذلك كتب الفقه لمعتبرة.



الشكل (٤٨) نماذج للحنة على اليدين والأقدام

يعتبر استعمال الحناء مظهراً من مظاهر الجمال أولاً، ووسيلة لتقوية جلد القدمين وأخمصي القدمين، وجعله ذو مناعة ضد الجروح والخدوش ثانياً. لذلك يلجأ الرجال صيادو اللؤلؤ إلى استعمال الحناء بوضعها على راحات أيديهم لتقوية جلودها ومنع تقرحها بفعل التجذيف وسحب الغطاسين من الماء.

ظهر مؤخراً في الكويت عام ١٩٣٥ صباغ شعر ألماني أسود وانتشر استعماله كطريقة سريعة لصبغ اليدين والقدمين، إلا أنه ليس بمثابة فعالية المنتجات النباتية، ولا يدوم أكثر من أربعة أو خمسة أيام. أما أفضل أنواع الحناء فهي التي تأتي من مكة تليها تلك التي من البصرة.

أدوية البدو وعلاجاتهم

ـ **الكحل**: وهو عجينة الأنتموان التي تستعمل لتسويد العيون وتجميلها. كما يستعمل تحت الجفون كعلاج لالتهاب الملتحمة، ويعتقد أنه يحمي من وهج الشمس.

ـ **الجرمز**: وهو صباغ بلون قرنفلي ويستعمل بكثرة في المدن لمعالجة آلام العيون لدى الأطفال والناشئين.

ـ **الوسم**: علاج يستعمل بشكل عام لآلام البطن والمسلولين. ويجري الوسم

بواسطة دبابيس الخيمة (خِلال) المحماة على النار حتى التوهج.

- **الرَمرام**: نبتة برية مزهرة تستعمل لمعالجة قروح الفم واللثة الضعيفة وبثور الفم لدى الأطفال. وتقرح الفم الناتج عن داء الإسقربوط (الذي انتشر في الخليج العربي بين غاطسي صيد اللؤلؤ).

- **الجَعْدة**: وهي شجيرة برية ينتج عن غليها في الماء سائل مطهر جيد يعتبره البدو علاجاً لحمى البصرة (من المحتمل أن المقصود هو داء الملاريا).

- **حساء السمك**: تشربه النساء اللواتي يعشن قرب البحر بكثرة لإكثار حليبهن. كما تطعم الأبقار في الخليج العربي سمك الإسبرط المجفف لنفس الغاية.

- **لب الشرق**: يقول الحضر انه يعالج العنة الجنسية لدى الرجال.

- **علاج للعين الشريرة**: تتم معالجة الإنسان الذي يفترَض أن عيناً ما شريرة قد أصابته على الشكل التالي:

يؤتى بوعاء من الماء البارد، يوضع في الوعاء مقص يُحضر من المدينة، ومشط امرأة، ورأس بطة، وإبرة صغيرة، ومِسلّة، وخرزة صغيرة.

يوضع الوعاء على رأس المصاب ثم يصب فيه مقدار نصف أوقية من الرصاص المصهور فوق الماء البارد. يترك الوعاء فوق رأس المصاب لعدة ثوان ثم يرفع عنه ويقال إن العين الشريرة تخرج من المصاب عبر الوعاء ومختلف الأدوات الموجودة فيه.

كما تنتشر عادة بين البدو، وهي أنهم يعتقدون أن كل مولود جديد يجب أن توضع بجواره قطعة من الفولاذ عندما ينام في مهده. هذه القطعة تكون دائماً عبارة عن خنجر دون غمد يوضع على الأرض قريباً من رأسه أو إلى جانب جسمه طولياً في المهد.

عادات وتعابير نسائية جميلة

أ - تعابير الدهشة والاستغراب (عند سماع أو رؤية شيء مجفل أو مروع).

يا كَبدي كَبده.
يا قلبي قلبه
يُمَّه (يا أماه)
يُبَه (يا أبتي)

لدى الرجال أيضاً تعبير يطلقونه عند سماع أو رؤية شيء مفاجىء أو عجيب إذ يقولون (الله) مع مد الحرف الصوتي الأخير (الألف).

ب ـ تعابير الحنان:

بَعْد عيني عينه (يا عيوني، يا عيوني)
بَعْد قلبي قلبه (يا قلبي، يا قلبي)
بَعْد روحي روحه (يا روحي، يا روحي)

ج ـ تعابير نسائية تنم عن نفاد الصبر:

يا ويلي ويلاه، مثال: (تعالي يا نورا، تريد السيدة الإنجليزية أن تتحدث إليك، لماذا لا تسرعين أيتها الحمقاء، يا ويلي ويلاه ماذا حل بك؟).

د ـ عادة تسمى (الرايات):

عندما يعود سيد البيت، أو أحد أبنائه، من رحلة طويلة أو من صيد اللؤلؤ، فمن عادة سيدة البيت أن تعلق على قطعة متصالبة مع قمة عمود مقدم الخيمة، واحداً من أحلى وأبهج ثيابها. أما في المدن فيعلق الثوب على سطح المنزل ليراه الناس. تتبع نفس العادة عندما يمر شيخ أو أي شخصية هامة في المضارب وترغب سيدة البيت في إظهار ترحيبها به. هذه هي العادة التي تعرف بالرايات.

هـ ـ هنالك أيضاً عادة أخرى جميلة وهي:

أن البدو عندما يزورهم ضيف، أو يمر في مضاربهم رجل ذو شأن، ويتوقف لشرب القهوة، فإنهم يُرونه طفلهم المولود حديثاً. فهم يعتقدون أنه من حسن الطالع أن يضع الضيف في كف الوليد الصغيرة روبية أو ريالاً.

العلاقات الجنسية

يقال ان العروس البدوية لا تري وجهها لزوجها، وهذا ليس صحيحاً تماماً فقلما يجبر الزوج عروسه على رفع البرقع أو القناع عن وجهها في الليلة الأولى. إلا أنها تحاول الاحتفاظ به على وجهها لعشرة أيام على الأقل.

لقد أعلمني جلالة الملك ابن سعود أنه تزوج ما يقارب أربعماية امرأة خلال أيام حياته. ولكنه لم ير وجه أي منهن. وقد يكون قاصداً بهذا زوجاته من البدو اللائي تزوجهن لليلة واحدة أو اثنتين ثم طلقهن بعدها. وهي عادة متبعة لدى كبار الشيوخ ولا يشعرون بأي حرج، كما أنها لا تؤثر على سمعة الفتاة. أما إذا نتج عن هذا الزواج

طفل فتحصل أمه من أبيه على راتب محدد حتى يبلغ الطفل أربع أو خمس سنوات من العمر حين يؤخذ من أمه ليعيش في كنف أبيه. هذا ولا يجوز للأم، خلال مدة تربية الطفل أن تتزوج وإلا أخذ منها الطفل وأعطي لمرضعة. أما أمراء آل سعود وآل الصباح، وآل خليفة فيتزاوجون مع رعاياهم من البدو لمدد قصيرة، إلا أنهم يأخذون الوليد، إذا نتج عن الزواج في عمر مبكر.

في شهر رمضان، مدة الثلاثين يوماً من الصوم، يحرم الاتصال الجنسي نهاراً، بينما يسمح به ليلاً. يتوجب على كل من الرجل والمرأة أن يغتسل اغتسالاً كاملاً بعد كل اتصال جنسي، إذ أنه واجب ديني، وعلى جميع البدو دون استثناء تنفيذه حتى لو لم يكن لديه من الماء سوى وعاء صغير. فلا بد من غسل كامل الجسم[١]. كما يحرم على المرأة، خلال دورتها الشهرية أن تمارس الاتصال الجنسي مع زوجها لمدة سبعة أيام كاملة، عند انتهاء دورتها تبقى غير طاهرة حتى تغتسل غسلاً كاملاً وهذا ما يسمى (غسل الشعر)[٢].

لن نكون مبالغين إذا قلنا ان الاتصال الجنسي محبب جداً لدى العرب أكثر من أي متعة أخرى في العالم. إنها المتعة المشتركة بين الفقراء والأغنياء على حد سواء. وهي لحظة الرضا في يوم مليء بالمصاعب سواء لدى البدوي أو الحضري ـ رجلاً كان أم امرأة ـ إذ يقال انه يحفظ للرجال شبابهم (تماماً كركوب الفرس).

والظاهر أنهم العرب ـ يملكون قوة غير عادية من النواحي الجنسية، إذ أنك ترى كثيراً من الرجال الذين بلغوا الثمانين من العمر، ما زالوا يقبلون على الزواج وينجبون أطفالاً، فالحاج هلال بن فجعان المطيري، تاجر اللؤلؤ الكويتي المشهور، تزوج الزوجة الثانية والثلاثين وهو في الخامسة والثمانين من عمره، وأنجب منها صبيين وثلاث بنات.

تبدي العروس البدوية احتشاماً كبيراً في ليلة زواجها الأولى، محاولة ألا تكشف عن وجهها أو رأسها أو جسمها. ويجب على الرجل أن لا يطلب من عروسه أن تكشف لأن هذا يعتبر قلة احتشام ويترك العروس عرضة للشك في نزعات وميول زوجها. إن دور الرجل هنا ينحصر في أن يطلب منها برفق أولاً أن تنكشف له، فإذا رفضت بإيماءة من رأسها، عندها عليه أن يجبرها على ذلك بأن يقوم هو برفع البرقع عن وجهها وخلع

---

(١) عندما تغتسل المرأة بعد الاتصال الجنسي تقول الدعاء التالي: أصلي على محمد وآل محمد، نويت أن أغسل الجنابة في هذا الماء الجاري قربى لله تعالى.
(٢) عندما تصل الفتاة سن البلوغ يقال عنها (الآن تغسل رأسها).

أجزاء من ثيابها. أما الفتاة نفسها فلا تستاء من عمل زوجها، ولكن عليها من باب الاحتشام أن تتظاهر بالمقاومة بكل قوتها.

عندما ترضع المرأة طفلين من جنسين مختلفين أحدهما ولدها، يصبح هذان الطفلان أخوين بالرضاع فلا يحق لهما أن يتزوج أحدهما الآخر، ويمكن للصبي طوال حياته أن يرى وجه أخته في الرضاع ويهتم بها. أسوق مثالاً على ذلك عبد الله المبارك الصُباح الذي كان أخاً بالرضاع لامرأة من الرشايدة، وهي زوجة أحد شيوخ الفداوية اسمه (أبو حديدة) وقد عرفت الشخصين معرفة شخصية. ولكون عبدالله ابن آخر حكام الكويت، فقد عامل المرأة الرشايدية معاملة أخ بالرضاع حقيقية تستحق أن يراقبها الإنسان. كما كان يذهب كل ربيع ليخيم مع أبيها وأمها في تودد شديد لاخته في الرضاع.

يُعرف صدر المرأة باسم (دَيْد) جمعها (ديود) ومثناها (دَيْدان) أما الفتاة فيسمى صدرها (نُهَيْد)، مثناها (نُهَيْدان).

وشمُ النسَاء

ينتشر الوشم بشكل واسع بين نساء القبائل العراقية بشكل خاص. إلا أنه أقل انتشاراً بين القبائل البدوية، ويندر لدى القبائل التي تقع تحت تأثير الوهابيين. والقبيلة الوحيدة التي لا تشم نساءها في الجزيرة العربية هي عجمان، إذ تعتبر الوشم عادة مخزية وغير شريفة. بينما تمارسها مطير.

إن موضوع الوشم واسع بحيث يحتاج لإفراد كتاب خاص به، لأنه بغض النظر عن المظهر الجمالي للوشم فكل قبيلة في العراق لها علامات وشم خاصة تتميز بها نساؤها وتعرف تبعيتهن منها.

سأعهد بتقديم دراسة عن علامات الوشم لدى قبائل العراق لأي امرأة تهتم

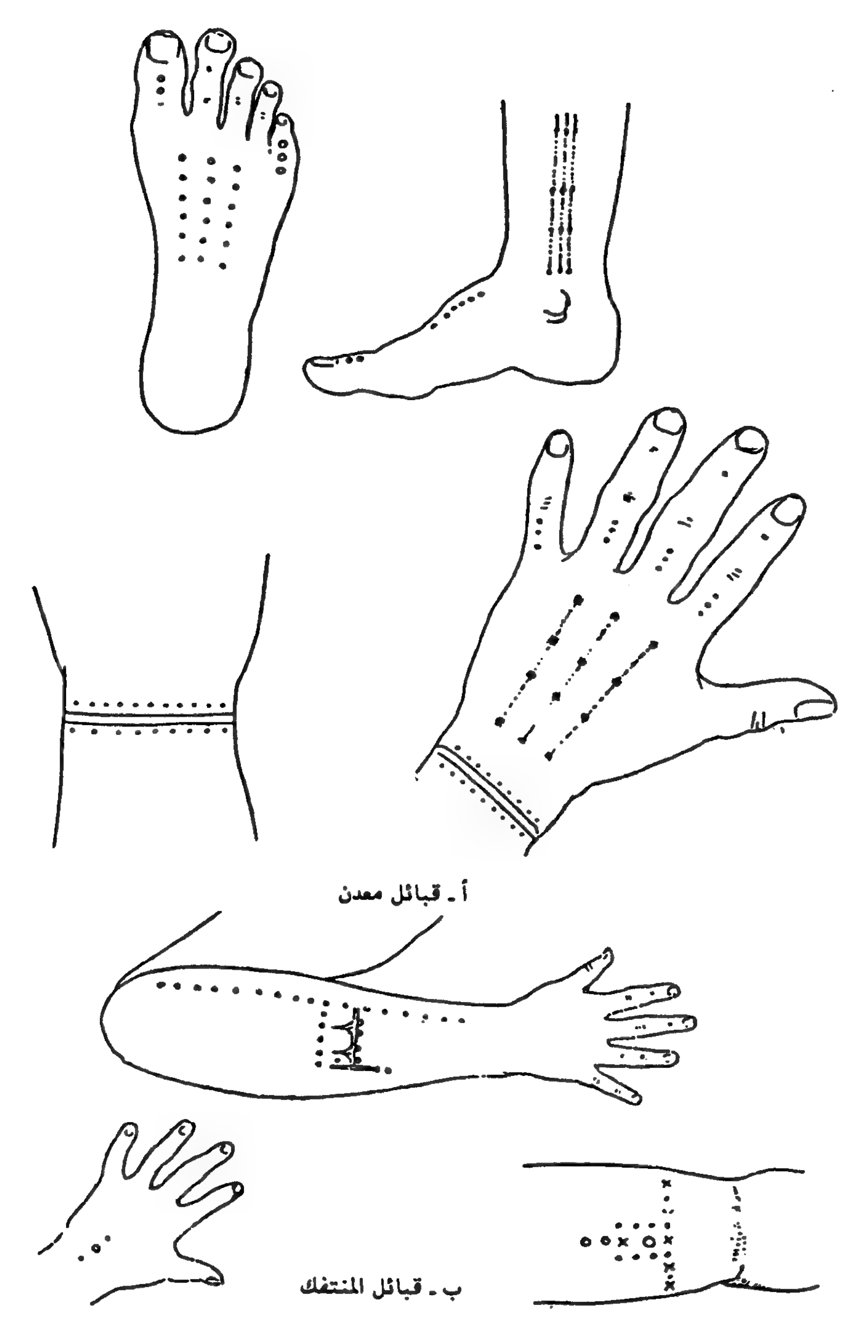
بمعرفة هذا الموضوع. سيكون عليها طبعاً أن تفحص بالتفصيل أجساداً متنوعة للفتيات اللائي يعرضن عليها. ولن تكون مهمة سهلة التنفيذ إذا أخذنا الذوق بنظر الاعتبار. على سبيل المثال: قبيلة عَبُدة من السُطرة (المنتفك) تصر على كل نسائها أن يوشمن بنقطة مستديرة واحدة على الوجنة اليمنى تحت العين بمسافة إنش ونصف الإنش. هذا ولا يشم الرجل نفسه لأن ذلك يعتبر عيباً.

فيما يلي بعض علامات الوشم القبلية جمعتها زوجتي في العراق وهي تخص قبائل مَعْدان على الفرات وقبائل الرعاة في المنتفك: الشكل (٤٩)

بدو الشمال كالعنزة وما يتفرع عنها (الرولة، فدعان، العمارات، السْبَعة الدهامشة وغيرهم) وقبيلة ضفير الكبيرة، هؤلاء جميعاً يشمون نساءهم أكثر من البدو القريبين من أراضي الوهابيين .

يبدو أن قبائل عرب المعدان يذهبون بعيداً أكثر من أي من قبائل البدو الأخرى - في الوشم - بالإضافة إلى كونهم يكشفون وجوه نسائهم. ونجدهم في الثلاثية المشكلة من مدن كربلاء (على الفرات) والعمارة (على دجلة) والبصرة. وهم أحسن مثال لنا لأنهم يحيطون بهور الحمّار موطنهم. في سالف الأيام انطلق سكان الأهوار منتشرين من الكوفة على الفرات نحو نقطة التقاء الفرات بدجلة. أما اليوم ورغم أن عرب معدان الشماليين قد فقدوا أهوارهم إلا أنهم ما زالوا يحتفظون بعاداتهم القديمة واسمهم القديم مَعْدَان، مثل الفَتْلة، وبني حسن حول الكوفة.

إنني شخصياً أميل إلى الفكرة القائلة أن عرب معدان هم أحفاد السومريين القدامى وقد ورثوا عنهم علامات الوشم المدهشة. ودراسة هذا الموضوع ستكون دراسة أثرية بالنسبة لمن يريد التوسع فيها.



الشكل (٤٩) نماذج للوشم على الأيدي والأقدام لدى قبائل معدن والمنتفك

الفصل العاشر

الأطفال

الولادة

أعظم أمنيات المرأة العربية الصحراوية في الحياة هي أن يكون لها ولد. فقد نشأت هذه الفكرة معها منذ طفولتها. هذه الرغبة الطبيعية في أن تكون أماً تتعزز لارتباطها باللوم والتعبير الذي يلحق تلك التي لا تنجب أطفالاً، ولإدراك المرأة أنها ستطلق إذا لم تنجب ولداً ووريثاً لزوجها.

إذا لم تحمل المرأة حال زواجها فهي غالباً ما تلجأ إلى مختلف أنواع مستحلبات الأعشاب التي تحصل عليها من الوسط المحيط وتشربه ولكن دون نتائج مرضية. أما (الحكيمة)، وهي السيدة العجوز لدى كل قبيلة، فهي الخبيرة في تحضير الجرعات التي تعيد الخصب للمرأة، وكذلك شراب الحب السحري لمن يريدونه. كما تدعي الحكيمة قدرتها على تفسير الأحلام. معظم النساء المسنات يقمن بهذا من باب تقديم المساعدة لأخواتهن الصغيرات، هذا بالإضافة إلى ممارستهن التنجيم سراً لأنه يعتبر إثماً لدى الوهابيين.

يعتبر معدل قوة الفتاة عند ولادتها طفلها الأول وما يليه استثنائياً. فقد عرفت فتاة مطيرية حضرت إلى المستشفى في الكويت في إحدى الأمسيات لتلد فيها. تمت ولادتها في الثانية صباحاً. بعد ولادتها بساعتين حزمت طفلها وألقت به على كتفها، واغتنمت فرصة غياب الطبيبة لتغادر المستشفى سيراً على قدميها نحو مضارب أهلها على بعد عشرين ميلاً.

لدى قبائل الرعاة في العراق، تضع المرأة مولودها أثناء الترحال، طبعاً الترحال لا يتوقف، لذا فالمرأة الحامل تتخلف حين تضع حملها وتبقى معها امرأة واحدة

لمساعدتها. تقوم المرأة بعد ولادتها بغسل وليدها بنفسها بالرمال النظيفة، ثم تحمله وتلحق بقبيلتها لأنها تعلم أنها ستترك ـ ربما لتموت ـ إذا لم تدرك قبيلتها. والمتعارف عليه أن تجري التهنئة بعد ذلك بأن يقال (مبارك) في حال المولود السعيد.

يتعايش الرجل مع زوجته حتى يحين موعد وضعها للمولود. وحالما تلد المرأة تصبح غير نظيفة (نَجِسة) ولا يستطيع الرجل معاشرتها لمدة أربعين يوماً. والملاحظ أن هذه القاعدة متبعة بين كل الطبقات.

بعد ولادة المولود، من العادة أن يلجأ ذووه إلى صره بعد تمليح جسمه بالملح العادي. وهي عادة تحدث ألماً شديداً وتسبب كثيراً من المعاناة فيما بعد، بسبب ازدياد سماكة بعض الأنسجة وما يترتب عليها من نتائج خطيرة. هذا وقد قامت سلطات مستشفى البعثة التبشيرية في الكويت والبحرين بجهود لا تهدأ لتحذير الناس من شر هذه العادة ولكن النتائج كانت غير مرضية.

بعد الولادة، تلجأ المرأة البدوية، والمرأة في المدن العربية أيضاً بشكل خاص، إلى استعمال عقاقير متنوعة لإعادة حجم البطن إلى وضعه الطبيعي أو أقل من ذلك وهي تعلل السبب بقولها (هذا ما يسر الزوج). تستعمل المرأة لهذه الغاية ملح الشَبَّة كمادة أساسية في العلاج المستعمل. وقد حصلت على هذه المعلومات من (زهوة) الشمرية زوجة عبدالله بن معوض من قبيلة عبدة، وقد أدلت لي بهذه المعلومات في نيسان عام ١٩٣١ خلال زياراتي المتعددة لها برفقة زوجتي.

كثير من النساء اللواتي لديهن طفلين أو ثلاثة، يخشين من ازدياد عدد أطفالهن. وقد سئلت زوجتي في كل من المدينة والصحراء في الكويت عن كيفية حماية نفسها من الحمل. فالمعتقد عموماً أن النساء في أوروبا يعرفن العديد من طرائق منع الحمل إلا أنهن لا يبحن بأسرارهن.

أما إذا كانت المرأة لدى البدو تجد صعوبة في الحمل، فإنهم يلجأون إلى إحضار فرس إلى خيمتها أو بيتها، يوضع بعض الشعير في حجر المرأة وتدعى الفرس لتأكل منه، فإذا أذعنت وأكلت فكل شيء على ما يرام. وتنطلق عند ذاك طلقتان أو ثلاث من بندقية وتعود للمرأة القوة على الحمل.

قد يحدث أن تصاب المرأة بعد ولادتها مباشرة بحالة يدعوها البدو (الخبل)، فقد.تفقد القدرة على النطق[1]. وتعتبر هذه الحالة عندهم على قدر كبير من الخطورة

(١) حبسة الكلام هذه من المحتمل أن تكون نوعاً من الهستريا. (المؤلف).

وقد تؤدي للموت ـ حسب رأيهم ـ إذ لم تجر محاولات لحث المصابة على النطق لمعالجتهـا يأتون أيضاً بفرس ويقدمون لها الشعير في حجر المريضة، فإذا أكلت منه الفرس تحرر لسان المرأة وعاد إليها عقلها، أما إذا رفضت الفرس فإن المرأة ستموت لا محالة حسب الاعتقاد السائد.

في العشرين من شباط عام ١٩٣٣ استعيرت فرسي في الكويت لنفس الغاية السابقة. عاشت الأم، ثم أتاني والدها شخصياً ليشكرني على إعارته فرسي لإنقاذ حياة ابنته. ثم طُلبت مني الفرس مرة أخرى لحالة مشابهة ولكنها كانت غائبة. ولسوء الحظ ماتت المرأة وكان ذلك في الخامس والعشرين من آب عام ١٩٣٧.

يتمتع الأب لدى البدو بسلطة مطلقة على أولاده، في حين لا تملك الأم عملياً أي سلطة على الإطلاق. فإذا طلق الرجل زوجته فالمتعارف عليه أن يبقى الأولاد الذكور مع أبيهم والفتيات مع أمهن. أما إذا كان الأولاد صغاراً فيرافقون أمهم حتى يبلغوا سناً يستطيعون فيها خدمة أنفسهم، عندها يأتي الأب ويأخذهم ليقيموا معه. إن انتقال الولد إلى أبيه في هذه الحالة كثيراً ما يسبب ألماً وحزناً عميقاً لدى الأم إلا أنه يمارس بشكل عام.

يعيش الأولاد مع أبيهم وترعاهم زوجة أبيهم، ولهم الحق في زيارة خيمة أمهم في أوقات محددة وهي عادة مرة كل أسبوع. هذا في حال كون قبيلة أمهم مقيمة بالقرب من مضاربهم. أما إذا كانت الأم المطلقة من قبيلة مضاربها بعيدة، فهي ستعود إلى أهلها حتماً، وبالتالي سيصعب عليها رؤية أولادها ثانية وربما كان ذلك نادراً.

هنالك عادة منتشرة بين آل سعود وآل الصباح وهي اتخاذ معشوقتين أو ثلاث من البدويات كزوجات ـ في نفس الوقت ـ ويبقين مقيمات مع أهلهن. إذا نتج عن هذه العلاقة طفل فإنه عادة يؤخذ لينشأ في كنف أبيه في الكويت أو الرياض. ولا يعتبر من نسل العائلة الحاكمة حتى ولو كانت أمه من أصل قبلي نبيل، وفي هذه الحالة يترك الطفل ليعيش في محيط قبلي. يشتد هذا الإحساس في حال كون الطفل ذكراً. والحقيقة أنه في مصاهرات كهذه سرعان ما تطلق الزوجة بعد أن تمنح هدية مناسبة. هذا الزواج من الفتيات القبليات بالإضافة للملكة، التي هي دائماً سيدة من العائلة المالكة، هو أمر عادي ومقبول يمارس بين الطبقات الحاكمة في الجزيرة العربية. وقد يكون اللجوء إليه بغرض منح الشرف لقبيلة ما، من جهة ثانية، يقنع الشيوخ القبليون أنفسهم بزوجة واحدة. ففي الكويت على سبيل المثال، زوجة الحاكم (الملكة) سيدة من آل الصباح، لم تطلق ـ وهو ما يعتبر مخجلاً للعائلة ككل ـ بل بقيت الشيخة دائماً،

وقد سمحت بشهامة للشيخ ابن الصباح أن يتخذ لنفسه زوجات قبليات غيرها ليمتع نفسه بهن ويبدلهن متى شاء، طالما أنه لا يأتي بهن إلى مدينة الكويت نفسها. هكذا استطاعت أن ترضي كبرياءها وبقيت ملكة. وهذا هو الدرس الموضوعي للغربيين.

عندما تلد المرأة البدوية طفلاً فإنها تلجأ إلى وضع خنجر أو قطعة من فولاذ أو حتى إبرة أو دبوس في مهد الطفل أو تثبتها في ثيابه. وهي لا تنقله من مكان لآخر دون هذه القطعة ولا ينفع الذهب في هذا المجال، والغاية من ذلك هي إبعاد العين الشريرة عنه. تنتشر هذه العادة بين قبائل مطير وضفير وشمر وعجمان والعوازم. ومن المحتمل أن تكون منتشرة بين قبائل الصحراء.

الختان

يتم الختان لدى البدو عندما يبلغ الصبي سن الثالثة والنصف وحتى السابعة من العمر، وتتم العملية بواسطة شخص ذي خبرة سابقة بذلك، ينظر إلى يوم الختان في العائلة على أنه احتفال، وقد توجه الدعوة إلى وليمة للضيوف والجوار وذلك حسب إمكانيات الأب. كما تجهز أحسن الملابس لهذه المناسبة وتقوم النسوة بالرقص في مخادعهن حتى وقت متأخر، إلا أن الأم تتوارى عن الأنظار، فالصبي أصبح اليوم مسلماً خالصاً. يستمر الاحتفال لدى بعض البدو مدة تتناسب مع عمر الصبي فإذا كان عمره ست سنوات دام الاحتفال ستة أيام.. وهكذا.

يتم الختان في شهر حزيران عادة (السِفاري) عندما تهب الرياح الشمالية الغربية الجافة. فالمعتقد أن الجرح يلتئم بسرعة في أحوال كهذه. إذا كان البحر قريباً فإن الصبي يشجع على الاستحمام فيه لأن المفترض أن ملوحة مياهه تعمل عمل المطهر للجرح.

عند سكان المدن في نجد والكويت تأخذ احتفالات الختان شكلاً أكثر توسعاً، إذ تستمر سبعة أيام كاملة قبل الختان. تساهم النسوة والفتيات في الاحتفال وكأنه يخصهن. يُدعى أطفال الجوار كل يوم إلى بيت الصبي في حوالي الرابعة بعد الظهر من قبل أم الصبي وأقاربه. وتوزع الشرابات المثلجة والقهوة والحلوى، بينما يستمر الغناء والرقص والصخب. ليس للرجال دور في هذا المجال، وكل النسوة يرقصن وكأن روحاً بداخلهن تدفعهن لذلك. في الكويت، تقوم مجموعة تتألف من حوالي خمس وعشرين مغنية من الزنوج صغاراً وكباراً بتقديم خدماتهن دون مقابل معتبرين هذا العرض واجباً دينياً يجلب الحظ.

ليس من المستبعد أن تجتمع ست من الMومسات على الأقل ليشكلن فريقاً يغنين ويرقصن لإمتاع الضيوف دون مقابل ودون أن يطلب منهن ذلك، بهدف كسب بعض الحسنات لوجه الله تعالى. ويضفي حضور الزنجيات والمومسات بملابسهن الزاهية على الاحتفال لوناً بهيجاً. هذا ولا تشعر أي من الحاضرات بالحرج أو القلق لوجودها مع الخاطئات في مكان واحد.

يستمر اللهو والمرح لمدة سبعة أيام، كل يوم منذ الرابعة بعد الظهر وحتى الثامنة مساءً. في اليوم الثامن وبحضور أفراد العائلة فقط يأتي الخاتن (في الكويت يدعونه بالهندي)، ويقوم، بواسطة موسى بقطع مقدم جلد عضو الصبي، يساعده في ذلك الأب وولدان من الذكور في العائلة. هؤلاء المساعدون يشجعون الصبي ليكون صلباً ورجلاً كما ينبغي ويحاولون الإبقاء على مرحه حتى النهاية.

أما الأم فتغادر بيتها إلى الجوار لأنها لا تستطيع تحمل معاناة ولدها، بينما تبقى الأخوات والعمات والإناث من الخدم إن رغبن في ذلك. عموماً، تبقى امرأة دائماً لتقوم بدور المهدئة للصبي حالما ينتهي الخاتن من عمله.

في عام ١٩٣٣، عندما كنت أعيش في الكويت، سُمح لي مرتين أن أزور أحد البيوت التي كانت احتفالات ما قبل الختان جارية فيها على قدم وساق. كان ذلك ممتعاً جداً. ثم زرت البيت مرة ثانية عند حضور الهندي الذي لم يرق له تدخلي، إذ أشرت أن من الأفضل تعقيم الموسى في الماء المغلي مع محلول البرمنغنات قبل إجراء عملية الختان. تم الختان حسب طريقة الهندي، ثم زودت الأم باستمرار وحتى شفاء الجرح تماماً بالضمادات والأربطة ومرهم البوريك، وأبديت استعدادي لتبديل الضمادات يومياً. وقد تماثل الصبي للشفاء خلال ثمانية أيام. هذا وقد اعتاد العرب أن تترافق مدة النقاهة للصبي بآلام شديدة، قد تكون نتائجها سيئة، كأن يتلوث الجرح ويصاب بالالتهاب مسبباً عدم التئام الجرح مع نوبات ألم للصبي.

في عام ١٩٣١ أخبرني طبيب البعثة الأمريكية الدكتور (مايْلري) أنه يأتيه كل سنة عشرات من الصبية الذين يعانون من التهاب العضو التناسلي نتيجة الختان والإهمال. في عام ١٩٣٥ عاد وأخبرني أن العرب من أبناء الطبقات العليا بدأوا يتعلمون أن يحضروا أبناءهم إليه لإجراء الختان وأن هذا يعتبر مشجعاً. وأضاف أنه استطاع أن يجعل الصبي يتعافى بعد الجراحة بخمسة أو ستة أيام على الأكثر.

عند بدو شمال شرق الجزيرة العربية ونجد، وعند سكان الكويت، لا تتعرض الفتاة لأي شكل من أشكال الختان. ولكني علمت من مصدر موثوق أنه في جنوب

الحزيرة العربية، وفي البصرة أيضاً، تخضع الفتيات الصغيرات إلى ما يشبه الختان. وقد علمت ذلك من زوجة فالح بن عامر المطيرية. وكذلك من امرأة من قبيلة عنزة في الثاني والعشرين من آب عام ١٩٣٣. من ناحية أخرى، أعلمتني امرأة شمرية في الثامن والعشرين من آب عام ١٩٣٣ أنه بين بعض العائلات الشمرية يجري الختان للفتيات دون أية ضجة، ولا يعلم به سوى الإناث من أفراد العائلة. ويجري الختان على يد امرأة متمكنة من عملها وتتقاضى عليه أجراً. كما أكدت النسوة الثلاث أن القبائل المستقرة وقبائل الرعاة في المنتفك، وكذلك الغجر في العراق، هؤلاء جميعاً يختنون بناتهم، وأن المرأة التي تقوم بإجراء الختان في أي مكان يفترض أنها من تلك القبائل. وطريقة ختان الفتيات تتم على الشكل التالي: تمرر إبرة في نهايتها خيط خلال الشفرين يشد الخيط ليشد معه الشفرين نحو الخارج على طول امتدادهما ثم يجري قطعهما قرب الجسم.

استناداً إلى قول الحاج عبدالله الفادل[1] (السيد ويليامسون) في الثامن والعشرين من آذار عام ١٩٣٣، إن الختان للإناث نصح به الدين الإسلامي كضرورة مفروضة لسبب ما. وأضاف أيضاً أن السبب الذي جعل السنّيين في البصرة بشكل عام، وعائلاتهم الرئيسة بشكل خاص، يمارسون ختان فتياتهم، هو أسلافهم بنو تميم الذين مارسوا قديماً هذه العادة. وقد ذهب صديقي الحاج أبعد من ذلك مفاجئاً إياي بقوله أن ختان صبية المسلمين لم يقرر كضرورة في الإسلام، إذ من الممكن للصبي المسلم، إذا اعترض أو خاف من الختان أن يتجنبه. مع أن العادة أن يجري الختان في كل الحالات.

سأترك لقرائي مناقشة هذا الموضوع مفضلاً عدم الخوض فيه.

أسماء نسائيّة

الأسماء النسائية المتداولة لدى قبائل مطير، ضفير، شمر، عجمان، العوازم، عنزة وقبائل أخرى شهيرة:

عَدَّة[2] عفرة العاطي الجازي

---

(١) هو عبدالله مسلماني انجليزي اسلم وحسن اسلامه وعاش بين البصرة والكويت وله أخبار. أما ختان البنت فمكروه شرعاً وغير واجب وأما ختان الولد فواجب شرعاً

(٢) لجأ المؤلف إلى ترتيب الأسماء حسب الأحرف الهجائية الإنكليزية إلا أن هذا لا يتطابق مع ترتيب الحروف العربية، لأن بعضها ليس له وجود في تلك اللغة كالغين مثلاً فلفظت ألفاً. (المعرب).

الجِدعاء (تسمى به الفتاة التي قطعت من أذنها قطعة أكلتها أمها. وهي عادة تلجأ إليها الأم التي تفقد كثيراً من أولادها وتبغي المحافظة على ولدها. تنتشر هذه العادة لدى عجمان وقبائل أخرى).

عَمشة عَشبة عَطيّة عطشة عَيْشة عَزيزة دُغَيْمة دَحملية ديبة

ديرة: (تسمى به الفتاة التي أرعبت أمها أنباء سيئة قبل أن تلدها).

فيحاء فاطمة فِلوة غَنيمة غَزَيِّل. (تصغير غزال) عجمان

غْوَيَّة حَجاجة هيّا حثله حُصة هويّا عيدة جَهيرة حسناء لطيفة لؤلؤة مهرة منيرة مستورة مزيونة مضحي مزنة نصرة نوفة نجلاء نجمة نورا نورية رديفة سعدى صبيحة صَنوة شاها (عجمان) (جدة زنيفر) رسيدة صيتة (عجمان) سكورت طُفَلَة عبديدة وضحة وسمية زهوة (شمر).

تربية الأطفال

تترافق ولادة الطفل لدى البدو بقليل من الهرج والمرج كما يحدث عندما تضع الناقة مولوداً لديهم. عند ولادته، يحمم الطفل ببول النوق، ثم تفرك عيناه بالأنتيموان لتقويتهما. يوضع الطفل حراً على قطعة قماشية سوداء مربعة عليها طبقة من مسحوق روث الجمال الجاف، يلف جسمه بها ثم يقمط بقماط قماشي لتكون ذراعاه متصالبتان تحت ذقنه ومربوطتان، وساقاه ممدودتان لتتلامس الركبتان والكاحلان. كما يلف حول رأسه قطعة قماشية سوداء أخرى تستبدل عندما يبلغ شهراً من العمر بقبعة يتدلى طرفاها فوق أذنيه. عند الرغبة بالكشف على الطفل لمعرفة ما إذا كان قد تغوط أو تبول، فإنه يوضع على قطعة مستديرة من الجلد تسمى (النطّاح).

حين تنتقل الأم من مكان لآخر لقضاء واجباتها المنزلية، أو تذهب لاقتطاع الحطب فإنها تحمل وليدها معلقاً على ظهرها بواسطة أرجوحة شبكية تدعى لمصباح[1]، لها سيور ترتكز على جبهة الأم، وقد ترتكز على أحد الكتفين ليكون الطفل تحت ذراع الأم طلباً للدفء. أما عند الترحال فإن الطفل وأرجوحته يوضعان في

---

(١) ينطبق هذا القول على قبائل عجمان، بني هاجر، بني خالد، العوازم، زَعَب، مُرّة، منتفك (أجواد) فقط، بينما بقية القبائل لا تحمل الأم وليدها في أرجوحة شبكية. (المؤلف).

محفة الأم. عندما يبلغ الوليد بضعة أشهر من العمر فإنه يوضع في كيس من أكياس المحفة ورأسه خارجاً. بعد هذا العمر لا يغسل الطفل عملياً ويخرج من قماطه القماشي ليلاً لأوقات قصيرة.

يُطعم الطفل في أي وقت من الليل أو النهار، أو عندما يبكي. ومن غير اللائق للمرأة البدوية أن تطعم وليدها بحضور أحد الرجال الغرباء، أو حتى من أهلها، مع أني غالباً ما رأيت نساءً كنت أتحدث معهن إذ بهن يفتحن أثوابهن ويخرجن أثداءهن لإرضاع أولادهن.

أسماء بدويَّة

غالباً ما يسمي البدو الرجال والمواقع بأسماء أعضاء من الجسم الإنساني. وهذه أمثلة عن أسماء أشهر المواقع:

السرة: هضبة قرب الكويت.

الديود: نهد المرأة، هضبة في المنطقة المحايدة جنوب الكويت.

النهيدان: نهدا الفتاة، وهما هضبتان توأمان في الكويت.

خشم العفري: أنف الغزال، وهو هضبة تقع على بعد أربعين ميلاً شمال شرق الكويت.

ضليعات الضبعة: روابي الضبعة، مجموعة من التلال المنخفضة تقع على بعد خمسة وعشرين ميلاً جنوب شرق الكويت.

من أسماء الرجال:

زِب سحمان: العضو التناسلي للكلب، وهم الرجال أتباع خالد الحثلان شيخ عجمان الحالي.

أبا الكلاب: أتباع نايف الحثلان شيخ عجمان السابق.

الفصل الحادي عشر

الايمان والصلاة

جميع البدو هم من المسلمين السنة الـذين يتبعون أحد المذهبين الحنبلي أو المالكي يقابلهم شيعة العراق، والزيدية في اليمن، والإباضية في عُمان والمناطق المتاخمة لها.

مع أن البدوي شديد البأس في القتال، ومستعد دائماً للغزو والقتل، إلا أنه يملك أكثر قوانين الشرف صرامة في العالم. فإيمانه بوحدانية الله التي لا تتجزأ، وقدرة الله على رؤية كل شيء وحضوره في كل مكان، كل هذا إيمان له تأثيره عليه. إلى جانب كون اسم الله لا يبارح شفتيه طوال حياته، ويسمع في كل جملة ينطقها. هذه أمثلة عن بعض التعابير الدارجة:

أ ـ والله، بالله، أي بالله والله، كلها تعني القسم بالله، ليؤكد صحة ما يقول.

ب ـ في أمان الله، ويعني في حفظ الله.

حفظكم الله.

في رعاية الله.

تستعمل التعابير السابقة عند توديع الصديق أو الضيف بشكل عام:

ج ـ ١ ـ توكل على الله.

٢ ـ توكلنا على الله.

تعبيران يستعملان عند البدء بعمل أو برحلة.

د ـ الله كريم. يستعمل للتعبير عن عجز الإنسان وأمله في الأفضل عندما تسوء الأحوال.

هـ ـ ساعدكم الله.

قواك الله. ومختصرها (القوة)، يستعمل هذا التعبير لتحية شخص وتشجيعه أثناء قيامه بعمل ما.

و ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. يستعمل للتعبير عن الدهشة أمام مشهد غريب.

ز ـ أستغفر الله.

لا إله إلا الله.

تعبيران يستعملان لدفع الشر.

البدوي، ككل عربي أو مسلم صحيح، يؤمن بأن كلاً من الخير والشر يأتيان من عند الله. هذا الإيمان يتخلل مجريات حياته. من هنا جاء اتزانه وهدوؤه واستسلامه للقدر عندما يواجه فجأة بالموت أو الخسارة أو الخراب، حيث لا تبارح شفتيه عبارة (الله المعطي وقد شاء أن يأخذ).

هذا الولاء والتسليم لمشيئة الله هما من سمات حياة رجل الصحراء. وأعترف هنا أني تأثرت بهاتين السمتين في أكثر من مجال كما ستوضح هذه القصة:

في عام ١٩٣٠ تعرفت وزوجتي على عائلة عجمانية، ونشأت بيننا صداقة حميمة. كانت الأراضي الداخلية للكويت وشمال الحسا هي مناطق ارتحال وتطواف هذه العائلة. وغالباً ما كانت تخيم كل صيف تقريباً عند آبار أبو حليفة، التي تبعد ثلاثين ميلاً جنوب الكويت، أو بالتبادل عند آبار شعيبة التي تبعد عشرة أميال أخرى. كان راعي البيت من فخذ المحفوض لقبيلة عجمان، وهو عجوز لطيف ذو ملامح صارمة في حوالي الستين من عمره، له من الأولاد أربعة ذكور بالغين[1] وفتاة واحدة تدعى (سارة) هي من أكثر الفتيات جاذبية وفتنة في الصحراء الكويتية. كانت سارة متزوجة من الشيخ فهاد الفوران من عشيرة الحثلان الحاكمة لعجمان.

كان زوجها متمرداً على ابن سعود وقد فر ملتجئاً إلى العراق في عام ١٩٢٩، وبقيت سارة عند والدها. وقد اعتدت وزوجتي على زيارة سارة في خيمتها، وقد جرت العادة أن تفرش لنا لحافها القرمزي اللون، عند خلو الخيمة من الغرباء، في قسم النساء لنجلس عليه ونتدارس نحن وهي وأبوها شؤون الصحراء، في حين تقدم لنا هي

(١) اثنان منهم توفيا على التوالي في عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٥. (المؤلف).

بنفسها فنجاناً من القهوة. لم نشاهد إخوتها إلا لماماً لأنهم يقضون معظم أوقاتهم مع الإبل.

لم يكن لسارة أولاد سوى صبي صغير يدعى عبدالله في الثانية من العمر. ذات يوم، وأثناء غياب زوجتي في انكلترا، أصيب الطفل بمرض خطير واعتدت أن أزوره كل يوم تقريباً لأفعل ما أستطيعه من أجله، ولكن الطفل كان يزداد سوءاً يوماً بعد يوم. بينما كان من المدهش أن ترى الحب والحرص والقلق الذين كان كل من الجد والأم يغدقانه على الطفل الذي كان يناضل من أجل الحياة، فقد كان يمثل كل العالم بالنسبة لكليهما معاً. أما سارة فكانت تلجأ للبكاء بصمت عندما كنت أقف بجوار الطفل أحاول إقناعه بتناول شراب طبي مهدىء يسكن الحمى. لكن قوى الطفل انهارت، وصار مرأى الحزن الصامت على وجه أمه شيئاً مؤلماً، فحاولت جاهداً لإقناع أمه بأخذه إلى الطبيب في الكويت ولكن عبثاً.

ذات صباح، وحسب عادتي أتيت لزيارة الطفل المريض. عند وصولي خيمة سارة خرجت لتحييني مرتدية أحلى ثيابها، مبتسمة وقد خلت عيناها من الدموع. لم يكن والدها موجوداً، ودعتني كالعادة للدخول. دخلت وجلست وأنا أتوقع شيئاً ما، إلا أني لم أقل شيئاً. أعدت سارة القهوة وقدمتها بروح مرحة ثم سألتها عن الصغير عبدالله وكيف هو. فكتمت المسكينة بجهد كبير عبرة كادت تنطلق منها، وأشارت نحو كومة من التراب لا تبعد أكثر من عشرين ياردة عن الخيمة وقالت: (إنه يرقد هناك. منذ نصف ساعة أرقدته هناك ليستريح. لقد وهبه الله لي وهو الذي أخذه فالحمدلله).

عند عودة والد سارة، أبديت له أسفي لما حدث وعبرت عن تعاطفي معهم، ففوجئت به يضحك بصوت عالٍ أجش وهو يقول: (الحمدلله، لا بد أنه سيمنحنا واحداً غيره وربما أكثر. نحن العجمانيون رجال مقاتلون والله برحمته يفعل ما يشاء. يجب علينا دائماً أن نضحك من الموت سواء أتى بسبب المرض أو رصاصة).

هذا الموقف بكليته ترك في عقلي انطباعاً لا يمكن إزالته وسيمضي طويل وقت قبل أن أنسى عيني سارة الحزينتين الجافتين من الدموع.

بعد سنة فقدت سارة المسكينة زوجها، فقد طلقها لأنه لم يستطع العودة من العراق، فذهبت إلى نجد والرياض وتزوجت هناك واحداً من زعماء الفداوية. ثم كتبت تخبرني بعد سنة من زواجها أنها رزقت بغلام. وقد سجلت في يومياتي أنه في تشرين الأول من عام ١٩٣٣ رزقت أيضاً بفتاة. في عام ١٩٣٦ سمعت من أبيها أن

الجدري اختطف منها أحد أولادها. مسكينة سارة[1].

الصلاة

يحرص البدوي على الشكليات في صلاته سواء في حله أو ترحاله. فهو يصلي بخشوع خمس مرات في اليوم حسب القواعد الإسلامية. وإذا تمكن صلى في جماعة لأن ذلك يعتبر أفضل من الصلاة وحيداً. وأوقات الصلاة هي:

١ ـ **صلاة الفجر**: عندما يتمكن المصلي أن يرى شعرة منفردة وضعت أمام عينيه.

٢ ـ **صلاة الظهر**.

٣ ـ **بعد الظهر (صلاة العصر)**: وتحسب بعد ثلاث ساعات ونصف من صلاة الظهر.

٤ ـ **غروب الشمس (صلاة المغرب)**: وهي دائماً الثانية عشرة في توقيت العرب.

٥ ـ **بعد طعام العشاء (صلاة العشاء)**: وهي تحسب بعد ساعة ونصف من مغيب الشمس.

يقوم أحدهم بانتظام وحسب مواعيد الصلاة بالنداء للصلاة. ثم يسرع الجميع للوضوء استعداداً للصلاة إذا كان الماء قريباً. أو بتأدية حركات الوضوء خلال الرمال إذا لم يكن الماء في متناول اليد. إنه منظر بسيط وملهم. وقد كنت في كل مرة أرفع غطاء رأسي الأوروبي عندما أكون في حضرة بدوي يصلي. كل شيء يتوقف في ساعة الصلاة. حتى أثناء صيد ومطاردة الغزلان فهناك توقف من أجل الصلاة وينسى كل إنسان كل شيء عدا واجبه تجاه الله.

في كل مخيم بدوي أو خيمة تجد العلامة التالية في الجوار منحوتة على سطح الأرض تشير إلى مكان المسجد أو أرض المصلى العام. يقف إمام المصلين في نهاية انتفاخ العروة المتجه نحو مكة. بينما يقف المصلون خلفه في خط موازٍ للخطين الجانبيين:



(١) حضرت سارة من الرياض إلى الكويت في شباط عام ١٩٣٨ مع أبيها وقابلناها مرة أخرى، وشاهدنا طفلها الجديد وقالت إن لديها فتاة أيضاً في الرابعة من عمرها تركتها في الخيمة في الصحراء.

وقد يجد المرء أحياناً في الصحراء علامة العروة التالية وهي تستعمل من قبل رجل يصلي منفرداً:



مكة المكرمة

أما النساء البدويات فيصلين بانتظام أيضاً ولكن بمعزل عن الرجال وفي أماكن خاصة من الخيمة.

تعلمت الصغيرة حصة بنت سالم المزين الصلاة وهي في الحادية عشرة من عمرها. وعندما بلغت الثالثة عشرة والنصف صارت تصلي بانتظام خمس مرات في اليوم. كما كانت أمها عمشة حريصة أيضاً على صلاتها، حتى أنها زارتني (عندما كنت وحيداً في المخيم) زيارة خاصة وحاولت دعوتي للإسلام. ثم كررت دعوتها مرة أخرى عندما كانت زوجتي في انكلترا ووعدتني ـ ببساطتها ـ أن تجد لي واحدة أو اثنتين، أو حتى ثلاثاً، من الفتيات البدويات الصغيرات كزوجات لي، إذا اتبعت دين الإسلام. قالت: (أنت واحد منا الآن. أسلم وستكون سعيداً. ففتياتنا طيبات ومن المبهج أن تعيش في الصحراء وأولادك من حولك إلى الأبد). عندما سألتها عما ستقوله مسز ديكسون جاءني الجواب برقة: (سوف لن تأبه لذلك، إذ ستكون هي الشيخة والفتيات العرائس سيكنّ تحت أمرها. كلنا نفعل ذلك ونفهم مكانتنا. إن أعظم سعادة في العالم لدى الرجل هي أن يمتلك امرأةً).

أصل (الأذان)

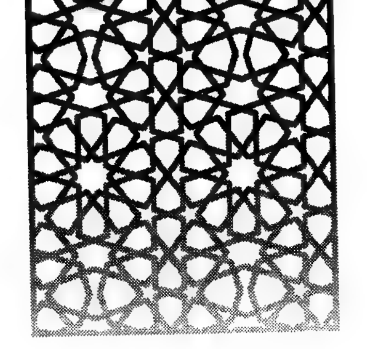
أخبرني صديقي الحاج عبدالله الفادل، القصة التالية في الكويت في التاسع من كانون الثاني عام ١٩٣٤. وقال إنه سمعها من خلال حديث عن مسلم والبخاري وأنه يجب علي لذلك أن أقبلها على أنها حقيقة.

في أيام النبي الأولى، وعندما كان الإسلام في بداياته، لم يكن أحد قد فكر بعد كيف يجمع الناس للصلاة. كما لم تكن هناك طريقة منزلة لدعوة الناس للاجتماع. وتفاقمت المشكلة وأصبحت حديث الناس. في اجتماع عام عقد من أجل الموضوع ذاته، اقترح البعض استعمال جرس كما يفعل النصارى. واقترح آخرون استعمال بوق ينفخ فيه عند الحاجة كما هي الحال عند اليهود. كما اقترح آخرون استعمال صفيحة مستديرة من المعدن يضرب عليها بعصا كما هي العادة عند الهندوس وآخرين. ثم دخل عمر وأخبرهم أنه رأى حلماً، وأنه أُخبر في الحلم أن أحسن طريقة لإيقاظ النائم

هي الوقوف في مكان مرتفع والنداء على المؤمنين بالكلمات (الله أكبر.. الخ..). أصغى الجميع لاقتراحه باستحسان وتدارسوه من جميع وجوهه. ثم دخل (علي) صهر النبي، وقال إنه رأى حلماً مشابهاً لحلم عمر. هذه المصادفة كانت الدافع الذي جعل كبار الحاضرين يقررون أن اقتراح عمر هو أحسن ما سمعوه. ونقلوا المسألة إلى النبي الذي أقر رأيهم مؤيداً عمر وعلي.

نادى النبي على بلال، عبده المحرر، وعلمه كيف ينادي على المؤمنين للصلاة. ثم صعد بلال على سطح أحد البيوت ونادى بأول نداء للصلاة في الإسلام. ولم يتبدل الأذان منذ ذلك اليوم.





الجــزء الثاني



الفصل الثاني عشر

الطعام والضيافة

البدوي الميسور الحال، كشيخ القبيلة، أو صاحبنا سالم المزين، يتناول وجبة واحدة مشبعة في اليوم وهي عادة عند المساء. تتألف هذه الوجبة من الرز وحده مطبوخاً بالسمن، إلى جانب بضع تمرات مغمسة بالزبدة، وبعض اللبن. وتنتهي الوجبة بتناول القهوة. أما في الصباح الباكر فهو يبدأ يومه ببعض التمر واللبن ثم القهوة أيضاً. وهو لا يأكل لحماً إلا لماماً، لأنه لا يستطيع تحمل تكاليف كهذه. إلا أنه في حالة وجود ضيف. فإن المضيف دائماً يقوم بذبح خروف أو حمل من أجله، عندها يتمكن أفراد العائلة من تناول بعض اللحم بعد أن يفرغ الضيف من طعامه.

أما البدوي الفقير ـ والسواد الأعظم من البدو فقراء ـ فإنه يتناول وجبة واحدة في اليوم تتكون من التمر وحليب النوق. وقلما يصيبه صحن من الأرز أو قطعة من الخبز.

وهناك البدوي شديد الفقر كالراعي (الشاوي) الذي يعنى بالغنم أو الإبل للموسرين. إنه لا يتناول سوى حليب النوق، ونادراً ما يحصل على بعض التمرات، أو قليل من الأرز واللحم عندما يكون لدى شيخه أو رب عمله ضيفٌ. وحصته هي أحشاء الخروف الذي ذبح.

بشكل عام، يؤكل الأرز في منطقة الحسا مفضلاً على الخبز. والعكس صحيح في عـمق نجد والقصيم وغيرها. والسبب في ذلك واضح إذ أن القمح ينمو في نجد بينما يستورد الأرز.

البدوي ـ ككل مسلم ـ يأكل بيده اليمنى فقط. ويغسلها غسلاً سريعاً قبل تناول وجبته، وهو جائع دائماً، لذلك تراه يأكل، وبشهية، كل ما قد يحصل عليه من جراد أو

أي شيء صالح للأكل من أي نوع حتى ولو كان ثعلباً، لا سيما عندما يكون بعيداً عن الأنظار. ومع ذلك تراه يلجأ إلى ذبح أي حيوان أو طير يوقعه في شراكه أو يطلق النار عليه، قائلاً وهو يفعل ذلك (بسم الله الرحمن الرحيم).

عندما يفرغ من تناول طعامه فإن عليه أن يغسل يديه، إلا أنه نادراً ما يفعل ذلك فهو يفضل أن يمسح يديه بالخيمة أولاً ثم بلحيته. هذا وتفخر قبيلة عجمان بانطباعات الأيدي الناتجة عن المسح بالخيمة معتبرة إياها دليل كرم الضيافة.

نادراً ما يؤكل الخبز، إلا لدى الموسرين من البدو. إلا أنه إذا توافر فإن الجميع يأكلونه بفرح. ويقوم البدو بالبحث عن الفطر والكمأة بتلهف، وتؤكل في الفصل الماطر. وهي تعتبر ترفاً.

يتناول البدو لحم الجمل في مناسبات خاصة كإكرام شيخهم. ويعتبر السنام أشهى جزء عندما يكون الطقس بارداً. لم أتناول أنا شخصياً كثيراً من لحم الجمل لأني وجدته قاسياً كالجلد، لكن البدو يحبونه. كما أن سكان مدينة الكويت ونجد يأكلون لحم الجمل والبقر بانتظام خلال الشتاء، باعتبار أن هذين النوعين من اللحم يهبان الدفء للشخص، بالإضافة إلى أن لحم الجمل يمنح القوة.

ينبغي على كل بدوي ـ فقيراً كان أم غنياً ـ أن يكرم ويقري الغريب الذي يلجأ إليه طالباً مأوى يقضي فيه ليلته. عندما يكون الضيف ذو أهمية، والمضيف ميسور الحال. فإن الأخير عادة يذبح خروفاً ويهيئه للطعام مع الرز بعد أن ينثر عليه اللوز الفاخر مع بعض البصل المبشور. أما إذا كان الضيف بدوياً عادياً فقيراً فسيقدم له عشاء من الرز المطبوخ فقط مع بعض التمر واللبن. وإذا كان المضيف فقيراً جداً فسيفعل كل ما بوسعه لأجل ضيفه، ولو كان لا يملك سوى بضع تمرات يقدمها له، إذ عليه أن يكرمه بإطعامه وتقديم المبيت له.

عندما يقوم شيخ أو شخص ميسور الحال بزيارة بدوي فقير طالباً استضافته، فالمتوقع أن يكافىء هذا مضيفه عندما يحل أو عندما يغادر، إما بهدية نقدية أو بكسوة، وهذه عادة ثابتة.

إذا مر مسافر بخيمة كان الرجل فيها متغيباً ـ ولنقل إنه يرعى أغنامه أو إبله ـ فإن المرأة المسؤولة في الخيمة ستخرج وتقف أمام خيمتها وفي يدها إناء من اللبن، كإشارة لعابر السبيل تدعوه فيها ليأتي وينعش نفسه باللبن. أما إذا كان عابر السبيل في موكب عام وكانت سيدة الخيمة ترغب في لفت أنظار العابرين ليأتوا إليها ويشاطرونها ما

عندها من الخيرات فإنها تلجأ إلى أخذ عمود خفيف، وهو غالباً ما يكون من الأعمدة الجانبية للخيمة، وقد علقت عليه أحسن ثيابها، بلون أحمر أو برتقالي أو أسود، ثم تثبته في الأرض أمام الخيمة كعلامة. هذه هي طريقتها الصامتة لدعوة الغرباء لمشاطرتها ما عندها. وقد دعيت بهذه الطريقة عدة مرات لا سيما من قبل أفراد من عجمان والمنتفك.

وفي حال وجود الرجل وزوجته في الخيمة، وقدم ضيف مهما تكن صفته، فإن الرجل وحده هو الذي يرحب به ويجلسه في الديوانية في الخيمة، وهو أبعد مكان عن قسم النساء، حيث يقدم له هناك القهوة والطعام ومكان النوم. لا تقترب النسوة من الضيف ولا يحاولن التحدث إليه إلا إذا استمرت إقامته يومين أو ثلاثاً، ربما بسبب المطر الشديد، عندها يتخلين عن تحفظهن إلى حد ما، إنه كالأخ.

عندما يخيم البدوي منفرداً، فإنه يحاول إخفاء خيمته في وهدة أو حفرة، وذلك لإبعادها عن النظر. هذا الأسلوب سببه أمران: أولهما رغبته في إخفاء الخيمة عن أعين العدو إذا كان قريباً. وثانيهما إخفاؤها عن أعين المسافرين لأن البدوي إذا سئل طعاماً وملجأً فلن يتأخر. وتقديمه إياهما للضيوف الغرباء، يحمله ما لا طاقة له به. هذا ينطبق على البدو سكان الخيام المتنقلين ولا ينطبق على القبائل المستقرة في العراق التي تعتبر غنية تكرم الضيف بسخاء عظيم.

بعض القبائل ـ لا سيما المنتفك على الفرات ـ تولي ممارسة الضيافة أهمية بالغة إلى حد أنها تفضل أن تدفن على أن يقال إنها بخلت على ضيوفها. فلو كان الرجل لا يملك في العالم سوى خروف واحد فإنه سيذبحه ليطعم ضيفه الغريب. وهناك أفراد من فخذ البْرَيْه (واصل) من قبيلة مطير الصحراوية الذين لهم نفس الشهرة في الإقراء إلى حد أنهم يبحثون عن الضيف. ويقال إن عشيرة البِرزان من نفس القبيلة باركهم النبي نفسه للطفهم وكرمهم وأخبرهم أن دمهم مبارك مكافأة لهم. من هنا يعتقد أن شرب الدم البرزاني يشفي الرجل من الضعف الجنسي ويمكّن المرأة من الحمل ويقاوم سم الكلب المسعور.

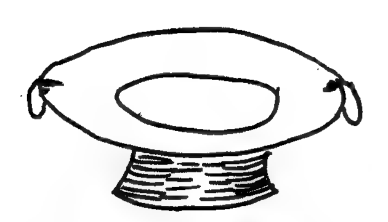
قبائل أخرى ـ لا سيما ضفير ـ لديها عادة غير سارة وهي أنهم يزعجون الجالسين إلى الطعام. فمثلاً لنقل إن عشرة أشخاص جالسين إلى الطعام معاً، وقام أحدهم بعد أن شبع، فإن على البقية أن ينهضوا ويغسلوا أيديهم دلالة انتهائهم من الطعام مع أنهم تركوا الطعام جائعين. لذلك كان على الضيوف أن يزدردوا طعامهم بأسرع ما يمكن.

يعتبر اللبن هو الشراب المفضل لدى البدو مالكي الأغنام، وكذلك الروبة (وهي الحليب المكثف المتخثر). وتقوم قبائل الرعاة (الشواوي) بتحضير اللبن من حليب الغنم. أما قبائل الإبل (البادية) فمن حليب النوق الذي يجب غَلْيُهُ أولاً قبل أن يوضع في المخض. والعادة أن يقدم البدو مالكي الإبل لضيوفهم حليب النوق بشكله الصرف دون اللبن. وحليب النوق لا يشكل قشطة على وجهه ولا يمكن صنع الزبدة منه. هذا بالإضافة إلى أنه يسبب الإسهال ويجب على الأوروبيين أو المسافرين الذين لم يعتادوا عليه أن يتناولوه باعتدال.

الوجَبات

الغداء أو العشاء البدوي:

يتم تقديم وجبة الطعام، في وليمة الشيخ، عند عامة البدو في صينية كبيرة مستديرة من النحاس المبيض. يوضع الأرز المسلوق فيها على هيئة كثيب بارتفاع قدم واحد تقريباً. يغطى الأرز بقطع من دهن الذبيحة، ثم توضع الذبيحة في القمة، وهي عبارة عن خروف صغير أو حمل (وهو ذكر دائماً). أما إذا كان الشيخ يفضل أسلوب نجد وعاداتهم، فإن ذلك يقتضي أن توضع الصينية على قاعدة من قطعة واحدة تدعى (صينية أبو كرسي) ولها هذا الشكل:



ثم يجلس الجميع على قطعة من القماش مستديرة (سِفرة) مماثلة لخوان المائدة لدينا نحن الأوروبيين.

حول صينية الأرز واللحم يوضع إناءان أو ثلاثاً من اللبن تعوم فيها قطع من الزبدة الوسخة، بالإضافة إلى صحن أو اثنين من التمر. وعندما ينتهي الضيف من طعامه يشرب اللبن، ثم يلتفت إلى التمر ليتناوله مع قطع الزبدة الطافية على سطح اللبن. تعتبر أكلة التمر في الزبدة هذه شهية جداً لا سيما إذا كان التمر طازجاً ويدعى (رُطَب).

يطلق البدو على الأرز المطبوخ اسم (عيش)، والخروف بكامله (ذبيحة) أو (طلي) للحمل. ويطبخان دون إتقان مع كثير من الدهن بالنسبة لمذاقنا نحن الأوروبيين. واللحم بحد ذاته يكون عادة قاسياً، إلا إذا تصادف أن الخروف المذبوح كان صغيراً. ومع ذلك، فإذا كنت جائعاً فإن وليمة كهذه تعتبر جيدة جداً. أما أطيب قطع اللحم مذاقاً فهي الشرائح الممتدة على كلا جانبي عظام الظهر، عضلات الكتفين، عضلات الفخذين قرب المفصل، اللسان، الكليتان، ولحم الوجنتين والعينين. تعتبر الإلية من حق الضيف. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الخروف العربي يتميز بذيل دهني كبير لا نعرفه في انكلترا.

تقدم القهوة قبل وبعد الطعام. وقهوة البدو فقيرة، إذ يغلب عليها الماء. وقد تكون القهوة النجدية أفضل نظراً لوجود قليل من الهال فيها. هذا ومن المستحسن أن تشكر مضيفك بقولك: (الله يكثر خيرك، أو أنعم الله عليك). كما أنه من اللياقة أن تثني على عمل ربة البيت. وإذا لمحتها من خلال الستار الذي يفصل قسم النساء عن الضيوف عليك أن تقول: (الله يكثر خيرك يا معزبة) فتجيبك بقولها: (هنا وعافية، أو عليكم العافية).

بعد الاستمتاع بالوليمة وتناول القهوة، تتنحى أنت بينما يتقدم الأقارب والشباب وكبار الأطفال ويقومون بالتهام ما تبقى من الطعام. ومن المسلي أن ترى هؤلاء يتظاهرون بالخجل، كما لو أنهم يريدون القول إنهم لم يحضروا من أجل الطعام. غير أن المضيف يدعوهم لمشاركته طعامه بقوله: «يا الله يا فلان، قم» أو «يالله يا ربع قوموا» أو «تفضلوا يا أولاد» وهو يكرر دعوته هذه عدة مرات بصوت يكاد يُبَحّ.

من الطبيعي أن لا يأكل المضيف مع ضيوفه بل مؤخراً مع أفراد عائلته. ومن المتعارف عليه أن الضيف، إذا كان شخصاً ذا شأن كشيخ أو ضابط ارتباط سياسي، يحضر معه هدية للمضيف مثل الأرز، القهوة، أو السكر. تقدم هذه الهدية قبل أن يغادر الضيف. أما إذا رغب الأخير بأن يكون موضع إعجاب أكثر، فإنه سيحضر أيضاً بعض الأقمشة، كنصف دستة من الملابس للنساء. هذا ما يجعله صديقهم طيلة حياته. وقد حرصت أنا على تنفيذ ذلك في الكويت.

حفل العشاء الذي يقيمه ابن المدينة (الحضري) أو نصف البدوي (العربدار):

وهو موضوع أكبر أهمية من سابقه إذ أن الأرز في هذه الوليمة يكون من نوع خاص يأتي من العراق أو شمال إيران. أما الخروف فإنه يحمَّر بغمسه بالدهن المحمى أو

السمن بعد سلقه. وقد يشوى في فرن الخباز ليصبح اسمه لحماً مشوياً. تنثر فوق الأرز طبقة رقيقة من الزبيب الخالي من البذور مع البصل المفري والتوابل. وغالباً ما يضاف حب الرمان المجفف وهي عادة غير مستحسنة لأن حباته في الطعام أشبه بحبات الرمل. يحاط الصحن الرئيس بالصحون الصغيرة أو الأواني التي يحتوي بعضها على اللحم وبعضها على الخضار، وأخرى تحتوي على المربيات والفواكه (وهي عادة البطيخ المقطع). يزداد عدد هذه الصحون حسب أهمية وثراء المضيف. وفيما يلي أسماء أهم الأطباق التي تقدم:

١ ـ **المرق**: خليط لذيذ يحتوي على قطع اللحم والبندورة والباذنجان والبامياء.

٢ ـ **شيخ المحشي**: وهو ثمار القرع البيضاء الصغيرة، وتفضل ثمار الخيار الكبيرة، يتم حشو هذ الثمار بالأرز والجوز واللحم المهروس.

٣ ـ **بَرَغ أو دولْمَة**: خليط من الأرز واللحم المهروس يلف بأوراق العنب ويسلق. وهي أكلة غاية في اللذة وأصلها من تركيا.

٤ ـ مرق البندورة: هي كالطبق الأول إلا أنها مصنوعة من البندورة وعصير البصل فقط.

٥ ـ **دولمات**: بصل محشي على نفس طريقة ورق العنب.

٦ ـ **كباب**: خليط من الأرز واللحم والزبيب تحضر على شكل كرات صغيرة.

٧ ـ **المهلبية**: حليب مطبوخ مع دقيق الأرز أو النشاء ومنكه بالهال، وأحياناً بحبات الفستق المبشور.

٨ ـ **المهلبية مع الزعفران**: نفس الطبق السابق ممزوج بالزعفران لتلوينه باللون الأصفر.

٩ ـ **الهريس**: هو ثريد يتألف من مسحوق الذرة واللحم مغذٍ جداً.

يتخلل هذه الأطباق أطباق من التمر والعنب وأوانٍ من اللبن، بالإضافة إلى قطع من البِطيخ (إذا كان في فصل نضوجه). هذا إلى جانب بعض أرغفة الخبز المرقوق غير المخمر الكبيرة، أو الخبز المستدير المسطح المخبوز في الفرن، والذي ينتشر في الشرق كله. أما المضيف العصري الآن فإنه يضيف إلى ما سبق الحلوى الهلامية الرجراجة الملونة.

تعابير عامة تستخدم عند تناول الوجبات

- تفضلوا، أو سمّوا: يستعملها المضيف لدعوة ضيوفه لمباشرة الطعام، غريباً أو قريباً.

في مصر وشمال الجزيرة العربية، ولا سيما في مدن سورية وحول الموصل، تركت الحضارة الغربية والتأثير التركي بصماتها، إذ تقدم القهوة في البقاع السابقة في فناجين صغيرة من صناعة غربية تملأ حتى حافتها، وهي موضوعة في صحون صغيرة. هذه القهوة المحلاة، يتخللها بعض التفل، وعلى سطحها يطفو بعض الزبد، معدة على الطريقة التركية وكثيراً ما نراها في مطاعم لندن وباريس. وتحضير قهوة كهذه لا يحتاج إلا لوصف موجز.

يُملأ وعاء صغير نحاسي مخصص للقهوة بالماء البارد، ويضاف إليه ملعقتا طعام مملوءتان بالبن المطحون، مع ملء ملعقة ونصف الملعقة من ملاعق الطعام سكراً. يوضع الوعاء بما فيه على النار، وعندما يغلي يكاد يفيض من الإناء، إلا أن صانع القهوة يبعده عن النار ثم يطرفه بطرف الموقد ثلاث مرات أو أربع، مما يسبب ترسب التفل في الإناء. تعاد العملية مرات ثلاث، وفي نهاية المرة الثالثة تصبح القهوة جاهزة للتقديم.

في هذا الأسلوب يستخدم إناء واحد فقط، ويقوم بإعدادها خادم خاص في مطبخ صغير بعيداً عن أنظار الضيوف.

أما إعداد القهوة العربية الأصيلة فيختلف تمام الاختلاف عن القهوة التركية. إذ تزداد طقوس إعدادها تفصيلاً وتتنوع كلما توغل المرء نحو الجنوب. وتستمر هذه الطقوس ازدياداً بازدياد أهمية المناسبة. وفي قلب الجزيرة العربية، بما في ذلك قبائل العراق، ولا سيما لدى بدو الخيام، يصبح إعداد القهوة واجباً جليلاً وهاماً من واجبات المضيف نفسه.

ومن الطبيعي أنه لدى الأمير العربي، سواء أكان حضرياً بارزاً أو شيخاً بدوياً، كهؤلاء الذين يصادفهم المرء في نجد أو الكويت والصحراء المحيطة بهما، تسند مهمة إعداد القهوة إلى خادم موثوق يتمتع بتقدير سيده ويستطيع أن يبيض وجهه. وقد يقوم ابن المضيف نفسه بإعداد القهوة. هذه المهمة ليست مستثناة من المكافأة، فإذا توافر السخاء فإن معد القهوة أول من يتسلم حقه.

على كل حال، يقوم سيد البيت المتواضع في المدينة أو الصحراء بإعداد القهوة بنفسه بحضور ضيفه أو ضيوفه مع حشد كبير من الأقارب والجوار الذين أغراهم صوت الدعوة والترحيب المعهود، ألا وهو رنين عصا المهباج عندما يقوم المضيف بسحق حبات القهوة المحمصة تمهيداً لإعداد الشراب الشهي.

والواقع، أن رجلاً اشتهر بين أقرانه بالكرم، لا يسمح أبداً لصوت مهباجه أن يخمد. والبدوي الذي يسمع هذا الصوت يسرع نحوه مهما كان بعيداً، وهو على ثقة أنه سيلقى الترحيب. إن قول البدوي أن فلاناً يدق القهوة من الفجر حتى الليل هو كناية عن كرم ذلك الشخص. وليس هناك وصف أفضل من هذا في الجزيرة العربية للدلالة على كرم شخص ما.

القهوة العربية الأصيلة لا تقدم في فناجين القهوة التركية، بل في أوان خاصة صغيرة أو فناجين دون مقابض. تقدم هذه القهوة مُرّة دون سكر على الإطلاق. كما أنها تُخَمّر في العراق وشمال الجزيرة العربية أكثر من نجد وبدو الجنوب.

يمسك المضيف إناء القهوة بيسراه (وهي قاعدة لا يجوز مخالفتها) وبيمناه ثلاثة أو أربعة فناجين يتجول بها على ضيوفه الجالسين. يسكب لكل منهم على حدة، كمية ضئيلة تكفي لتغطية قاع الفنجان، يرشفها الضيف برشفتين أو ثلاث. يتيح المضيف الفرصة للضيف أن يشرب ما يشاء من القهوة. إلا أن حسن السلوك يفرض على الضيف عدم تناول أكثر من ثلاثة فناجين في الجولة الواحدة. وقد يتناول رابعاً، أو حتى خامساً، نتيجة الضغط عليه إذا كان ضيفاً هاماً.

يمسك العربي دائماً فنجانه الصغير بين إصبعي السبابة والإبهام لليد اليمنى أثناء شرب القهوة. وعندما يريد الإشارة إلى أنه اكتفى، فإنه يهز الفنجان بحركة دوران من معصم يده هزات سريعة قصيرة يبلغ عددها ستاً. عندها يأخذ المضيف الفنجان منه ليسكب فيه للضيف التالي الذي ينتظر دوره. بعد اكتفاء الجميع، يعاد إناء القهوة إلى حافة النقرة بين الرماد ليبقى دافئاً.

في الكويت، إذا قام أحدهم بزيارة عارضة لمجلس الصباح، أو غرفة الاستقبال لشيخ أو تاجر هام، فإن هذا الزائر يتلقى فنجاناً من القهوة حال وصوله. ثم يعاد تقديم القهوة بعد انقضاء فترة عشر دقائق يتبع ذلك مرور البخور أو خشب اللبان الذي يوضع على كومة صغيرةمن الفحم المشتعل، وتـدوّر على الجميع وهي في المبخر. تكون هذه إيذاناً بانتهاء الزيارة وعلى الضيف أن يرحل بعدها. فالمثل العربي لديهم يقول

(بَخِّر وروح)أي بخر نفسك ثم اذهب.أو (ما عقب العود قعود) ومعناه بعد عود البخور يحين موعد الرحيل. إلا أن الضيف قد يرغب أن يطيل بقاءه أكثر من عشر دقائق متوقعاً وجبة من الطعام، أو أن يبيت لدى المضيف. عندئذ تقدم القهوة مرة بعد أخرى في كل ربع ساعة. والبخور عملياً لا يقدم إلا من قبل المتذخرين من سكان الخيم وبعد انتهاء وجبة الطعام وتقديم القهوة.

دعونا الآن نتحول إلى التحضير الفعلي للقهوة العربية الأصيلة في خيمة الصحراء، تلك القهوة التي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من حياة العربي. سنفترض أننا وصلنا إلى خيمة بدوي ميسور الحال، يقوم المضيف بإعداد القهوة بنفسه. ننيخ جمالنا على مسافة من قسم النساء، ثم يرحب بنا المضيف ونأخذ أماكننا في قسم الرجال (مقعد الزلم). على الأرض حيث جلسنا مُدّت شرائح من السجاد صغيرة على الجانبين. واتكأنا نحن الضيوف على شَداد أو اثنين وضعا إلى جوار الستار القاطع ليفصلا قسم النساء عن الرجال، أو قد نجلس متربعين ننتظر بدء طقوس إعداد القهوة.

ينهال علينا بعد ذلك سيل من التحيات والترحيب مثل: (أهلاً وسهلاً. يا مرحبا. الله حَيْهُم. الله يساعدكم. يا هلا يا مرحباً). ينادي المضيف بصوت عال على رجاله بأسمائهم ويأمرهم بإحضار الجلة (وهي روث الجمال المجفف الذي يستعمل بدلاً من الفحم في الصحراء) وشجيرات العرفج لإيقاد النار، ثم الماء من القرب. يجمع المضيف كل ما يلزم لإعداد القهوة في مكان قرب نهاية الخيمة من جهة قسم النساء، ويتابع إصدار أوامره بوتيرة أسرع، بينما يجلس قبالة ضيوفه وهو يمطرهم بالمزيد من الترحيب والسؤال: (كيف حالكم؟ كيف أنت؟) (مخاطباً أبرز الضيوف) (يا مرحباً كيف أنت؟....) ثم ينهض مرة أخرى ويشرع في تنظيف الموقد المستطيل (وهو عبارة عن حفرة ضحلة في الأرض) من الرماد القديم ويبدأ بوضع شجيرات العرفج والجلة فيه.

من الملاحظ أن مضيفنا لم يسأل حتى الآن عما نريده منذ حضورنا أو أي مكان نقصد. فليس من التهذيب والأدب أن يفعل ذلك، ولن يفعله ما لم يقم الضيوف بأنفسهم بإخباره.

قرب الموقد الفارغ تتوضع أربع من دلال القهوة المختلفة الأحجام، ثلاث منها سودتها نار الموقد بينما الرابعة بقيت براقة لامعة وهي التي تقدم فيها القهوة للضيوف. يقوم المضيف بترتيب هذه الدلال في صف واحد بعد أن يشعل النار. ثم يتناول حبات القهوة من جراب صغير مصنوع من جلد الغزال. ويحضر المحمصة ويدها، وعلبة

الفناجين (شيت الفناجيل)، والهاون النحاسي ويده، والمبرّد، والمخباط، والليفة، ثم المبخر أخيراً لتبخير الضيوف بعد انتهاء تقديم القهوة.

عندما تخبو ألسنة الاهب في الموقد، يضع المضيف في صحن المحماص حفنة من حبات القهوة، ثم يمسك بيد المحماص ويضع صحنه فوق النار (يوضع المحماص أحياناً على منصب ثلاثي فوق النار) كيلا يلامس الجلة المتوهجة. عندما تبدأ حبات القهوة بالتحول إلى اللون البني، يبدأ المضيف بتقليبها بشكل مستمر منعاً لاحتراقها وإلا فسدت. وبتحول لونها كلياً إلى اللون البني الثابت، تؤخذ من المحماص لتوضع على لوح التبريد (المبرّد).

يلتفت مضيفنا بعد ذلك إلى دلال القهوة. ويتناول الوسطى منـها ليصب منها ما يدعى «الشّربات» (وهو ما تبقى من قهوة اليوم السابق التي أضيف إليها بعض الماء وحفظت) في الكبرى، ثم يُستكمل املاؤها بالماء البارد وتوضع على النار حتى يغلي ما فيها. عندما تسخن الشربات، توضع حبات القهوة المحمصة في المهباج، وتسمع صوت الموسيقى المحببة لدى البدو عند اصطدام يد المهباج في عنقه أثناء سحق القهوة. والخبير في سحق القهوة ـ كل العرب خبراء تقريباً ـ يقوم بعمله هذا محدثاً إيقاعاً منتظماً يُنوع فيه، كما ينوع ضارب الطبل الزنجي في الأصوات الصادرة عن طبله بتحريك رؤوس أصابعه على وجه الطبل أو بوضع عقب يده على الحافة.

بعد كل بضع ضربات وتنويع في الإيقاع يقوم المضيف بهز يد المهباج بحركة صادرة عن معصم يده هزات سريعة، تسبب ارتطامها بأطراف عنق المهباج قعقعة حادة. والغاية من هذه الحركة هي إسقاط ما علق في رأس يد المهباج من القهوة. يحدث هذا والضيوف صامتون وقد أسكرتهم الأصوات الحلوة الرنانة وهم ينظرون بإعجاب إلى هذا العازف الماهر.

عملية سحق تستمر بين خمس إلى سبع دقائق. وحالما تغلي الشربات يصب المضيف مسحوق القهوة بحرص شديد في دلة القهوة، ويضعها على النار بعد أن يحركها بالمخباط بحركات سريعة، ثم يرفعها بين الحين والآخر كلما اقتربت محتوياتها من الفيضان بسبب الرغوة، وذلك حتى تغلي بشكل كاف، بعد ذلك يضعها فوق الرماد الساخن وينهض ليهمس إلى نسائه عبر الستار الفاصل ليعطوه بعض حبات الهال. فتمتد يد صغيرة مكورة من فوق الستار وتعطيه بعضاً من الحبات النفيسة التي يأخذها ويضعها في المهباج ليهرسها بلطف حتى تصبح قابلة للبلع.

ترفع القهوة الآن عن النار ويأتي دور الدلة اللامعة، فيفتح غطاؤها وتصب القهوة فيها. ثم تصب مرة أخرى في الدلة العتيقة السوداء. تكرر هذه العملية حتى تستقر القهوة في الدلة اللامعة لتوضع بعدئذ في ميزابتها قطعة من الليف تعمل عمل المصفاة، كل شيء جاهز الآن، بعد تحضير أربعة من الفناجين وغسلها بالماء البارد، يمسك المضيف الفناجين بيده اليمنى، بينما يمسك باليسرى دلة القهوة ويصب لنفسه أول فنجان ويشربه دلالة على أن القهوة غير مسمومة. يصب بعدها كميات ضئيلة للضيف ذي الشأن، ثم بقية الضيوف، يليهم الحاضرون في الخيمة. ثم يعيد الكرة حتى يبدي الجميع إشارات تدل على اكتفائهم من القهوة. تسود بعد ذلك فترة من الهدوء تتخللها الأحاديث وتعابير الترحيب. ثم تدور جولة أخرى من القهوة وهي الأخيرة. فإذا كان الضيوف لا يرغبون في انتظار وجبة من الطعام أو قضاء الليلة فإنهم يستعدون للرحيل. عند ذلك يرسل شخص ما بسرعة لإحضار عود من البخور مع المبخر من قسم النساء، يُملأ المبخر بالجلة المتجمرة، ويوضع عود البخور فوق النار فيرتفع للتو دخان أبيض عطر. يمسك المضيف بالمبخر ويدور به على الضيوف ممرراً إياه تحت أنوفهم، بين نهايات كوفياتهم أو بين ثنايا عباءاتهم. ثم يغادر الضيوف صامتين.

هذه هي الطقوس التي تشاهد في خيمة البدوي ميسور الحال، إلا أن الطقوس نفسها تتبدل حسب إمكانيات العربي في المدينة أو الصحراء. ولكنه إن كان متواضعاً فقيراً فلن يكون لديه سوى دلتين للقهوة. ولن يتوافر الهال، كما أن قهوته يغلب عليها الماء. وإذا كان أشد فقراً فلن يكون لديه بخور يودع به الضيوف.

تعتبر حبات القهوة المنتجة في اليمن هي أغلى الأنواع مع أن هناك أنواعاً ممتازة تستورد من كينيا ومن سيلان وتتمتع بمبيعات كبيرة بين البدو.

الفصل الثالث عشر

الأخلاق

سوء الأخلاق لا وجود له ـ بالمعنى الذي نعرفه نحن الغربيون ـ بين قبائل الصحراء. وهناك طبعاً الكثير من حالات الزواج والالتزام به إلى جانب كون الطلاق ـ كما سبق وأسلفت ـ سهلاً إلى حد أن المرأة تتزوج ستة أو سبعة أزواج خلال حياتها. والرجل يتزوج ما أمكنه من الزوجات، إلا أنه لا يحتفظ سوى بأربع منهن في وقت واحد. أما الدعارة فهي غير معروفة لدى البدو بينما الزنا عقوبته الموت.

من جهة أخرى، نرى أن الصداقة من الممكن أن تقوم بين الرجل والمرأة، لا سيما إذا كان الطرفان من قبيلة واحدة أو كانا قريبين. وعلى سبيل المثال، كان صديقي الشيخ ثويران أبو صفرة من مطير، فخذ الموهة، كان هذا صديقاً لمتحي، زوجة فلاح بن عامر وهي من الموهة أيضاً.

من الطبيعي أن كل بدوي يعلم أن سوء الأخلاق موجود في المدن الكبيرة وهو السبب الرئيس الذي يجعله يستخف برجل المدينة. إلا أننا ـ لسوء الحظ ـ نلاحظ أن البدوي عندما يزور بعض المدن فإنه يعرج أحياناً على بيوت الدعارة. وهذا ما تسبب في انتشار مرض السفلس وأمراض تناسلية أخرى بين القبائل.

لا يسمح بالدعارة في أراضي نفوذ الوهابيين (العربية السعودية بما فيها الحجاز) حتى في المدن الكبيرة، ولكني علمت أنه مع ذلك فسوء الأخلاق منتشر على مستوى بعض العشائر.

من الغريب ـ ولكنه حقيقة ـ أنك إذا تدارست مسألة الأخلاق مع العارفين من بدو نجد، فسيخبرون أن عائلات المشيخة الكبيرة في الصحراء، ولا سيما في

الشمال، يتصفون بضعف مستوى الأخلاق لديهم، بينما حافظ الآخرون عليها بقوة. على سبيل المثال، بين مشيخة الشعلان (الرولة)، والحويطات، وبني صخر (كلاهما ينتشران في الأردن) وشمر الجرباء (العراق)، هؤلاء جميعاً يقال إنهم يرتخون فعلاً وإلى حد ما عند الحديث عن النساء. وعلى العكس منهم الهذال (العمارات)، ودوشان (مطير)، وحميد (عتيبة) فهم محافظون ويقيمون في أقصى الشرق والجنوب.

• كل من في الصحراء يتفقون على أن شيوخ قبائل منطقة نجد يتمتعون بسلوكية غاية في الأخلاق بالنسبة لإخوانهم في العراق وسوريا والشمال بشكل عام، وهم لا يفتؤون يرثون لحال هؤلاء ويتباهون بأخلاقيتهم في الوقت نفسه. هذا كله طبعاً دعاية حسنة لحاكم العربية السعودية ولمذهب الوهابية، ويعزز سياسة جلالة الملك عبد العزيز في إبعاد الغرباء ما أمكن عن بلاده وعلى الأخص عن مركز الجزيرة العربية.

لا شك أن قرب دمشق وبغداد من عنزة وشمر في الشمال قد أفسد فعلاً - ولكن ببطء - أخلاق شيوخ هذه القبائل، كما أن إحضار السيارات قد زاد من سرعة التقدم نحو الفساد. إلا أن السمعة والشرف العظيمين للهذال (العمارات) ولا سيما زعيمهم الشيخ محروس كان لهما الأثر في المحافظة على أنفسهم بعيدين عن سم المدن. ولكن كم من الزمن يستطيعون المحافظة على أنفسهم وشعبهم من فساد المدن؟ هذا هو السؤال.

الأخلاق في المدن

في الكويت، إذا اتضح أن امرأة زلت، فهذا يعني الموت لها على أيدي أشقائها أو أبناء عمومها، إذ يعتبر الزوج أكثر تسامحاً. أما إذا زلت الفتاة غير المتزوجة فإن زلتها عقوبتها الرجم أو السجن في غرفة صغيرة، لا يصيبها في اليوم سوى فنجانٍ من الماء وبضع تمراتٍ تقدم لها من خلال فتحة في السقف. فإذا تحملت عملية التجويع هذه لمدة أربعين يوماً وبقيت حية فمعنى ذلك أن الله عفا عنها، ويطلق سراحها.

لا تزيل الفتاة غير المتزوجة الشعر عن أجزاء جسمها أبداً خلال حياتها. إلا أنها في يوم زواجها تنظف جسدها من الشعر. والفتاة الموسرة تفعل ذلك في حمام عام مستعملة مزيجاً من الزنك وحامض الأرسينيك. أما الفقيرة وأختها البدوية إنهن يقتلعنه باليد.

عندما يدخل الرجل على زوجته ليلة الزفاف، فإنه من المستحسن لدى البدو أن تقاوم الفتاة للمحافظة على عذريتها، فتصرخ وتشتبك معه لمدة ساعات أحياناً. وليس من قلة التهذيب في شيء، إذا ما أنصت أقارب الفتاة قرب الخيمة أو خارج باب البيت لصراخها وعراكها مع زوجها. لقد انقرضت هذه العادة في البصرة ومثيلاتها من المدن الكبيرة إلا أنها ما زالت تعم بقية الأماكن.

لدى الطبقات الفقيرة والمتوسطة الحال في الكويت، يعتبر فخراً للفتاة أن حافظت على عذريتها حتى يوم زفافها، حين يقوم الزوج بعد ليلة الدخلة بأخذ ملاءة السرير إلى أقارب الفتاة ويعرضها عليهم وهو يقول (بَيَّض الله وجهكم، حافظتم على ابنتكم تماماً).

أما إذا كانت الفتاة قد فقدت عذريتها لأسباب بريئة أو طبيعية، أو لأسباب أخرى، فإنها ستتعرض لمشاكل جمة يوم زفافها. فهذا يعني عدم وجود دم على ملاءة سريرها وسيشعر زوجها بالخيبة العميقة والغيرة. وقد يعيدها لأبويها قائلاً: (أنا لا أريد

ابنتكم، إنها ليست عذراء، بدليل هذه الملاءة البيضاء). هذا الاختبار الرهيب لطهارة الفتاة يؤدي أحياناً إلى استعمال الحيلة والخداع من قبلها كأن تجرح نفسها أو تلطخ الملاءة بدم دجاجة لتقنع زوجها بعذريتها، والخطر من حيل كهذه واضح ما دام الزوج حذراً. والفتاة التعيسة التي تفشل في اجتياز هذا الاختبار غالباً ما تقتل على يد أقاربها من الرجال لغسل شرف العائلة. وقد يكون الزوج الشاب متمتعاً بقلب طيب وأحاسيس مرهفة فلا يطلع أحداً على سرها رغم إحساسه بأنه خدع. هذه هي الحالة التي تلجأ فيها الفتاة إلى قانون الدخالة (دخلك احفظني يا فلان). وقد عرفت شخصياً حالة كهذه، قام الزوج الشهم بتهريب قطعة من اللحم مضمخة بالدم إلى غرفة العروس لوث بها ملاءة السرير.

بعد أن يدخل الزوج إلى مخدع عروسه وقبل الشروع في العملية الجنسية، يأخذ عباءة زوجته ويمدها على الأرض ليؤدي الصلاة عليها مستعملاً إياها كسجادة للصلاة وهي عادة معروفة في الكويت بين القبائل.

الفصل الرابع عشر

الموت والدفن والحياة الآخرة

إذا توافر الماء والوقت، فإن الميت يُغسَّل عادة ويلف بقماش أبيض ثم يدفن. أما إذا لم تتوافر هذه الأوليات ـ كما يحدث عادة لدى البدو ـ فتحفر حفرة قرب الخيمة يوارى الجثمان فيها بأسرع ما يمكن. تقوم النسوة بتغسيل المرأة المتوفاة والرجال بتغسيل الرجل المتوفى ولا يجوز غير ذلك.

بعد المعركة الصحراوية، يقوم الفريق المنتصر بدفن قتلاهم، بينما يتركون قتلى الطرف الآخر في العراء طعاماً للطيور والضباع كما حدث في معركة انقير عام ١٩٢٩. هذا إذا لم يتمكن المنهزمون من العودة فيما بعد ودفن قتلاهم، وهو قلما يحدث.

تقام صلاة الميت، لدى المسلمين في المدن، باستثناء الكويت ونجد، بقيادة عالم أو شيخ قبل الدفن مباشرة. ثم يقوم أفراد العائلة بعد ذلك بزيارة القبر كل يوم جمعة ليقرؤوا بعض الأدعية أو آيات من القرآن الكريم. أما هؤلاء الذين يتبعون المذهب الوهابي، وعلى الأخص (الإخوان) فإنهم يدفنون بسرعة وبساطة، وذلك نظراً لاعتقادهم أنه عندما يموت الإنسان فإن جسده لم يعد ذا قيمة، وبالتالي فالقبر لعنة على الوهابي، لذا فهم لا يجيزون إقامة أي نصب على القبر من أي نوع.

تلي الوفاة ـ عند شيعة العراق والكويت ـ مدة ثلاثة أيام من الحزن تلتزم بها عائلة المتوفى بشكل طبيعي، وتسمى هذه المدة (الفاتحة)، يتردد عليهم خلالها جموع المعزين. وفي الليلة الثالثة يقرأ شيخ بعض الأدعية. كما يقيم الشخص الموسر وليمة غذاء عامة للجوار في كل يوم. أما في الليلة الثالثة فيُعد عشاءً خاصاً للأقارب والأصدقاء. أما لدى البدو، فيقدم في الأمسية الأولى بعد الوفاة عشاء للضيوف المعزين وذلك حسب مستوى العائلة.

عندما يموت الرجل تحتجب أرملته عن الناس مدة ثلاثة أشهر وعشرة أيام. وتحدد الأسر الموسرة إقامة الزوجة الأرمل في البيت طيلة هذه المدة. بينما تحتجب النساء البدويات ما أمكن ذلك في خيامهن. أما النسوة في مدينة الكويت، فإن الأرملة منهن تغلق على نفسها باب غرفتها وهي خالية من وسائل الراحة، كالسجاد وما إلى ذلك، ولا يزورها سوى امرأة تأتيها بالماء والطعام. فعليها أن لا ترى رجلاً غريباً أو قريباً وأن لا تسمع صوت رجل.

يسود الاعتقاد لدى الطبقات الدنيا أن عادة احتجاب الأرملة لهذه المدة، سببه أن الرجل حالما يموت فإنه يُقيَّد بسلسلة حديدية حول رقبته في العالم الآخر، لا يزيلها سوى التزام أرملته بمدة الحداد البالغة ثلاثة أشهر وعشرة أيام. أما الطبقة الفقيرة في الكويت فإنهم لا يعيرون هذه العادة مزيداً من الاهتمام فهم يكتفون بأربعين يوماً فقط.

ينظر إلى المقابر دائماً على أنها أماكن مشؤومة ويجب تجنبها لا سيما في الليل، لأن الجن والأرواح يتجولون فيها ليلاً. هذا وتشتهر المقبرة الغربية الكبيرة في الكويت ـ حيث يدفن الشيوخ موتاهم ـ بوجود الجن فيها. وقد رُويت عنها كثير من القصص المخيفة الغريبة حول الذين تجرؤوا أن يقتربوا منها فطاردتهم وقاتلتهم تلك الأرواح الشريرة.

إن من الخطأ أن تضع قدمك على أحد القبور. وإذا فعلت ذلك بعد حلول الظلام فغالباً ما يصيبك ما يسمونه (الخبل). ويروى أنه عندما أصيب الشاب مطلق بن ماجد الأسقى، من مطير، بالخبل إثر حبه لإحدى السيدات، كثيرون هم الذين قالوا، وحتى هو نفسه اعتقد أنه بالمصادفة وطىء بقدمه قبراً بدوياً عند خروجه من خيمته ليلتجىء للطبيعة.

عندما يتوفى الشخص لدى البدو، فإنه يدفن عادة في قبره بهدوء وإجلال. وهذا ما يحدث لا سيما للعجائز. فقد كنت حاضراً وفاة أحد أقارب الشيخ هلال بن فجعان المطيري من البدو. كان المتوفى رجلاً فقيراً تجاوز الثمانين من العمر. وقد كنت مخيماً آنذاك في عريفجان مع عائلة صديقي سالم المزين. وكانت خيمة العجوز المتوفى قريبة مني، كان سالم بعيداً في نجد عندما انهار العجوز وبدا أنه قد حان أجله. لم يكن حوله غير الأطفال والنساء ورعاة الإبل من ضفير، فدعانا جميعاً حوله، وقامت النسوة برفعه وأجلسنه. ثم بدأ يحيي كل شخص مودعاً بطريقة بسيطة وهادئة. ثم عرفني عن نفسه وطلب مني أن أنقل سلامه إلى سالم وهلال المطيري والشيخ أحمد والشيخ عبدالله السالم وآخرين لا أعرفهم. كما حملني رسالة لزوجتي وولدي

سعود. ثم طلب فنجان قهوة شربه واضطجع وأغلق عينيه ولفظ أنفاسه الأخيرة. كانت تحياته كما قالها (بلغ سلامي على هلال وعلى أحمد الجابر... الخ) كانت تحيات بسيطة إلا أنها رائعة. بعدها أرسل الشيخ عبدالله السالم - الذي كانت مضاربه على بعد ميل واحد - بعض خدمه لتغسيل الرجل ودفنه. كان هذا عملاً شهماً لأن النسوة لا يستطعن ذلك. لقد كان لمشهد الموت في الصحراء أشد الأثر علي، فقد ذكرني بالإنجيل. ولا شك أن إبراهيم الخليل قد مات بهذه الطريقة وهو يرسل تحياته للجميع.

في الكويت وبعض المدن الإسلامية الأخرى، عند حمل الجثمان إلى المقبرة لدفنه فإن كل الأشخاص يتقدمون لمد يد العون في حمل النعش على أكتافهم طلباً للمثوبة. لذلك ففي الجنازة ليس من الغريب أن ترى الرجال يتدافعون للتبادل بسرعة وهم تواقون لحمل النعش على أكتافهم ولو لمدة قصيرة.

تذهب النساء في المدن في حزنهن إلى أبعد مدى عند موت أحد أقاربهن. فيشدون الشعر ويُقَطِّعنه ويضربن رؤوسهن وصدورهن، وينزعن حليهن بعنف، كل ذلك يتم بطريقة تبدو لنا نحن الغربيِّين مستعصية على الإدراك. وقد يعزى هذا جزئياً إلى الطبيعة العاطفية الزائدة للنساء العربيات، وبسبب اعتباره السلوك الذي يجب أن يسلكنه. فقد رأيت بعض النسوة يسقطن على الأرض، وقد بدا واضحاً أنهن فقدن العقل والوعي من جراء الصدمة. أما خادمتنا حمدة فإنها عندما علمت أن شقيق زوجها قد مات في بئر انهارت جدرانه عليه وسحقته (أيلول ١٩٣٣) قامت بتمزيق حلقات أذنيها الذهبية وحطمت عقدها ورمت بها بعيداً دون أن تدري ما تفعله. حتى الجوار وكل من شاهدها أبدى تعجبه لعاطفة الحزن الشديدة التي أبدتها تلك المرأة المفجوعة.

أما نساء الصحراء ولا سيما اللواتي يعشن على أو قرب الأراضي الوهابية (العربية السعودية) فإنهن يتصرفن على عكس نساء المدن تماماً. فقد سبق لي أن وصفت موقف سارة بنت زنيفر التي فقدت ابنها الصغير، عندما حيتنا بابتسامة وهي تشير إلى قبر ولدها المدفون حديثاً على بعد ثلاثين قدماً. لم يكن ذلك بسبب عدم إحساسها بالحزن، بل كانت في أشد حالات الحزن، ولكن إظهار الحزن على فقيدها كان منافياً للعقيدة الوهابية.

في الصحراء، يحفر القبر بعمق أربعة أقدام لا أكثر. وفي القاع يجوف أحد الجوانب من طرف الركن السفلي ليوضع فيه الجثمان. وسبب هذا التجويف هو

الخوف على الجثمان من التهشيم، بسبب التراب عندما يهال فوقه لردم القبر. وعند وضع الجثمان في التجويف يحاط الجزء الظاهر منه بأغصان الشجيرات ثم يهال الرمل فوق القبر، وفي حال كون الأسرة البدوية قادرة مالياً فإنهم كما أسلفت يغسلون الجثمان ويلفونه بقماش قطني أبيض. أما إذا كان مصدر الماء بعيداً والأسرة لا تستطيع تحمل نفقات الكفن، فإنهم يدفنونه دون غسل أو حتى كفن. وإذا كان المطوّع موجوداً طُلب إليه أن يؤم الصلاة على الميت ويؤدي الأدعية اللازمة. وقد يستغنى عن ذلك في حال عدم وجوده.

هذا ولا يقام على القبر في الصحراء أي شاهد، بل يُكتفى بكوم من تراب يرتفع عن مستوى الأرض بمقدار ثمانية إنشات. ولكن في مدن الكويت ونجد والمدن المحيطة بهما، فإنهم عموماً يضعون قطعتين من حجر خشن عند الرأس والقدمين، وهي عادة من حجر غير مقطوع من المرجان. أو كومة من الحمم المطفأة. والغاية من هذه العلامة ليست تعليم القبر بقدر ما هي منع الآخرين من دفن موتاهم في نفس الحفرة. فالريح والأمطار سرعان ما تجرفان سطح التربة مع علامات القبر. غير أنهم في الصحراء لا يزورون المتوفى بعد أن يدفن في قبره أبداً.

نظراً لتأثير الوهابية الشديد في الكويت، فإن الشخص لا يذهب لزيارة قريبه المتوفى أبداً. حتى قبور الشيوخ تعاني من هذا الإهمال، ففي المقبرة الكبيرة الواقعة بين بوابتي نايف والجهرا، قليلون هم الذين يستطيعون تمييز قبور الشيوخ مبارك، وجابر، وسالم، آخر حكام الأمارة، من السور الجانبي. فليس هنالك على الإطلاق ما يميز قبورهم عن أي من قبور الرجال والنساء الذين دفنوا في نفس المكان. ومن المفيد أن نعلم أن الشيخين محمد وجراح ذبحا على يد الشيخ مبارك ودفنا في الصفاة، أو ساحة السوق في الكويت دون أي إشارة لمكان دفنهما سوى بضعة حجارة ملوثة بالتراب.

غسل الميت في الكويت مهمة يقوم بها شخص معين يُرسل في طلبه حين حدوث الوفاة، وحسب جنس المتوفى ذكراً كان أم أنثى. هذا الشخص يدعى (الغسّال) وهو كرجل الأعمال يباشر عمله حال وصوله. أما شيعة إيران، فيُغسَّل الرجال لديهم في غرفة ملحقة بالمسجد، بينما تُغسَّل النساء في بناء خاص مجهز لهذه الغاية.

يسجي الغسّالُ الجثمانَ العاري على طاولة خشبية ويصب الماء عليه بكميات كبيرة، ثم يرتدي في يديه قفازين من الصوف الخشن ويفرك الجثمان بهما بالماء والصابون، وهو يصب عليه بين الحين والآخر كميات كبيرة من الماء. هذا ولا يمشط

الشعر ولا يضفر، ولكن القائم على غسل الجثمان يقوم بعملية التلقين أثناء الغسل، إذ يمتدح أعمال المتوفى الصالحة خلال حياته من صوم وصلاة. ثم يدعو الله أن يمنحه السلام والطمأنينة في جنته الأبدية. بعد إتمام هذه العمليات يقوم بتنشيفه جيداً. ومن ثم يلفه بكفنه القماشي الأبيض. قد يساعده في ذلك بعض أفراد العائلة. ومن المفضل أن تتم عملية الغسل بعد الظلام ولكن هذا ليس إلزاماً.

تلتزم المرأة البدوية التي توفي عنها زوجها في خيمتها لا تخرج أبداً، إلا إذا تأكد لها أن المكان خالٍ من الرجال الغرباء وهي تلبس اللون الأخضر. كما عليها أن تغطي يديها بقفازين، وقدميها بالجوارب إذا تنقلت مع عائلتها، وهذا ما يعرف بالحِداد. وثمة نقاط أخرى هامة تتعلق بوفاة البدوي يجدر ذكرها هي:

١ ـ في الصحراء، يقطرون الماء عادة في فم الشخص المشرف على الموت.

٢ ـ لا تغلق عينا المتوفى كما جرت العادة عند الغربيين.

٣ ـ يكره البدوي كثيراً أن يدفن ميته بيده. فإذا أمكنه استحضار شخص من غير البدو، كعرب المدن مثلاً، ليقوم عنه بهذا العمل لما تردد، لأنه باختصار، أي البدوي، يشمئز من لمس جثمان المتوفى.

٤ ـ يجب أن يكون قبر المرأة بعمق كافٍ ليخفي صدرها إذا وضعت في وضعية الوقوف.

٥ ـ أما قبر الرجل فيحتاج إلى أربعة أقدام عمقاً فقط، أي بارتفاع وسطه أو ركبتيه، إذا لم يتوافر الوقت لدفنه كما ينبغي.

٦ ـ لا ترافق المرأة الجنازة ولا تسير فيها. وقلة هم الأشخاص الذين يقفون على الدفن الفعلي على عكس عادة الحضر في المدن، حيث يذهب جميع أصدقاء المتوفى لحضور دفنه ويتنافسون على حمل النعش ولو لثوان قليلة.

٧ ـ يستمر أصدقاء الرجل المتوفى بزيارة ابنه حتى اليوم الثالث بعد الوفاة، وهم يعزونه بمختلف الجمل المعتادة[١] مثل (كان رجلاً طيباً وهذه مشيئة الله)، (هذا ما يحدث لكل من ولدته امرأة)، (ندعو الله أن يعوضكم عنه خيراً). أما إذا كان الرجل قد

---

(١) بعض جمل العزاء هي: (الله يعظم أجركم) عندما يكون المتوفى بالغاً. أما إذا كان طفلاً فيقال (الله يحسن أجركم). ويقال للمرأة (الله يعظم أجركِ).

فقد ابنه فيقال: ندعو الله أن يعوضكم بولد بدلاً عنه، وتستعمل جملة محددة لهذه الغاية هي (الله يخلف عليكم) فيجيب الرجل (الحمدلله، الله قادر على كل شيء).

فكرة البدوي عن السماء والجنة فكرة بسيطة ذات معالم مبهجة. ولطالما تدارست هذه الفكرة معه. فالجنة تعني لديه أرض الربيع الدائم، حيث الخضرة الأبدية الوافرة والماء الغزير المتدفق من الينابيع والجداول الصغيرة. مكان لا تجد فيه ما يزعجك، كما في هذا العالم، من ندرة الماء وقحط المراعي وموت الإبل. في الجنة، يعيش جميع أفراد قبيلة الرجل معاً في مراع خضراء، ويقابل أقاربه وأصدقاءه. في الجنة، حيث الحياة الأبدية، لا توجد شيخوخة، بل يتزوج المرء ويصبح لديه خيمة كبيرة وقطعان من الإبل والغنم وعدد كبير من الأولاد. وإذا فقد شخص ولداً في هذا العالم، فسيقابله هناك في الجنة، وفي نفس العمر الذي كان يجب أن يبلغه لو بقي حياً. كما سيقوم الأطفال بالترحيب بآبائهم وتحيتهم كما لو أنهم عائدون من رحلة.

وقد سألت مرة عمشة - زوجة سالم المزين - هل ستكون زوجة سالم في الجنة كما هي الآن في هذا العالم، فأجابتني أنها ستعرفه وتعرف أولادها. وستعيش بجواره وتزور أولادها برفقته وهي بغاية السعادة. إلا أنها لا تستطيع أن تعيش معه كما في هذا العالم، لأنه سيعيش مع زوجته الأولى التي توفيت منذ زمن قبل أن يتزوجها هي. وقد بدا لها هذا الأمر بسيطاً وتقبلته على أنه بدهي.

أما فكرة الرجل البدوي عن جهنم فهي مقنعة. فالذاهب إلى جهنم سيواجه هناك كل شيء يكرهه في هذا العالم، يلازمه كرفيق له، مع كل مصاعب الطبيعة التي جعلت حياته على الأرض لعنة عليه. سوف يعيش في حر أبدي وصيف قائظ فتفتقد إبله وأغنامه المراعي دوماً. ولن يرى العشب الأخضر أو ينابيع الماء. كما سيقصم ظهره سحب الماء لعائلته وقطعانه العطشى من آبار هي أعمق من أي شيء في هذا العالم. هذا بالإضافة إلى أنه سيكون عبداً رقيقاً طيلة حياته، وخادماً لقبيلته دون شرف أو اسم أو عشيرة، ولن يكون له قطيع لائق.

في الجنة، تبقى الشمس والقمر والنجوم في سطوع دائم، بينما تغيب عن جهنم. والله الواحد القادر يرعى سكان الجنة وجهنم معاً، ويسمح لهم أحياناً أن يزوروا في الأحلام أحباءهم الذين ما زالوا يعيشون على الأرض.

الموت والدفن في مدينة الكويت

في مدينة الكويت، وبعد إتمام عملية الغسل، يقوم الغسال بوضع قطعتين من الصوف القطني مع الكافور تحت الإبطين. كما يقوم أيضاً بتنظيف أظافر الأصابع. وهو أمر غاية في الأهمية، ثم تصالب الذراعان تحت الذقن. يُدخل الجثمان بعد ذلك في ثوب كبير من قماش أبيض ناعم جديد، خيطت جوانبه وترك في أعلاه فتحة يمر منها الرأس. يلي ذلك كوفية توضع على الرأس لتربط جوانبها تحت الذقن.

أما إذا كان المتوفى امرأة، فيستعاض عن الكوفية بعصابة قماشية بيضاء تربط حول جبهتها كتلك التي تضعها النساء المرضى. يليها غطاء الرأس الذي يتدلى تحت الرقبة ليخاط مع مقدمة الثوب. أخيراً، يلف الجثمان بكفن أبيض ويصبح جاهزاً للدفن.

يحمل الرجال النعش في جنازة إلى المقبرة حيث يكون القبر جاهزاً فينزلونه فيه ليستقر في القاع. وفي حال كون المتوفى امرأة، تنشر ملاءة حول القبر حتى لا ترى جسدها عيون الرجال. ثم تنزل امرأة، أو أحد جيران المتوفاة من الرجال، إن لم يكن لها ولد أو أخ، إلى القبر ليريح الجثمان في رقدته الأخيرة. هذا الشخص يزيل الغطاء عن أذني الجثمان وصدره ويقلبه على أحد جوانبه ليقابل (مكة) ويضع اليد اليمنى تحت الخد الأيمن. وهكذا أصبح الجثمان الآن في التجويف ووجهه يقابل الجهة المفتوحة من القبر. يتم بعد ذلك الشروع في ردم القبر، فتوضع قطع من الآجر الطيني والأحجار لتشد تجويف القبر (لا توضع أغصان العرفج كما هي العادة لدى البدو) وتمنع التراب من الوصول للجثمان بعد إهالته فوق القبر لردمه بالكامل. هذه آخر عمليات الدفن، إذ يغادر الجميع بعدها.

يسود الاعتقاد أن الإنسان الذي قضى حياته صالحاً، ولم يذكر جاره بسوء، وكان كريماً بما أنعم الله عليه، سوف يبقى جسده طرياً كما لو كان حياً حتى ساعة الدفن، أما إذا كان غير ذلك فسيتصلب جسده حال موته. وبناءً عليه فإن من يكون من السهل ثني ذراعه الأيمن لوضعها تحت خده الأيمن بعد وفاته، يكون قد عاش حياة فاضلة والعكس صحيح. والله يعلم كيف سيكافأ كلٌ منهما في الدنيا الآخرة.

نقطة هامة جداً يجدر التوقف عندها، وهي أنه لا يجوز للزوج ـ مهما كانت الظروف ـ أن يرى وجه زوجته بعد وفاتها، وإلا اعتبر ذلك خطيئة فاحشة كما لو أنها طلقت منه. لذلك توجب ـ كما ذكرت آنفاً ـ أن يكون القائم على كشف وجهها عند الدفن امرأة أو شقيقها أو أحد أولادها.

قد يكون المتوفى، بغض النظر عن جنسه، وحيداً دون أقارب أو أولاد. في حالة كهذه توجب على جاره أن يقوم بما يلزم لتحضيره للدفن. وهو واجب، كما علمت، نص عليه القرآن.

لا تعتبر رؤية وجه الميت شيئاً مخيفاً لدى الأطفال العرب، كما قد تكون الحال لدى إخوتهم وأخواتهم الغربيين. وهم بحكم رؤيتهم المتكررة للأموات تقسو قلوبهم في هذا المجال قبل أن يبلغوا من العمر عتياً. هذا أفضل باعتقادي لأنه يجعل من الموت نهاية متوقعة، ومن النادر أن يبدي أحدهم خوفاً من الأجل المرتقب.

الفصل الخامس عشر

التدخين

بشكل عام، في وسط الجزيرة العربية وشمالها الشرقي، لا يدخن البدو، وذلك لسببين:

أولهما: وهو الرئيس، هو التأثير الوهابي القادم من نجد.

وثانيهما: وهو ثانوي، ومفاده أن طبقات كهذه لا تتحمل ترف التدخين في بلاد ذات حياة قاسية جداً. بالإضافة إلى أن تسعين في المئة منهم جائعون.

في المدة الواقعة بين عام ١٩١٩ وحتى عام ١٩٢٩، وهي المدة التي نشطت فيها الوهابية تحت اسم الإخوان، وكانت قبائل نجد برمتها تنضوي تحت لوائها. خلال هذه المدة، تجنبت تلك القبائل التدخين باعتباره إغراءً مباشراً من الشيطان (أنا لا أشير هنا إلى قبائل الصحراء العراقية أو مختلف عشائر عنزة أو الشمريين الشماليين). وكانت رؤية الرجل يدخن لفافة أو غليوناً تعني أن يقتل على يد أحد الإخوان المتعصبين. أما في إقليم الحسا، ولا سيما في القطيف والهفوف، فقد سمح ابن سعود بالتدخين منذ ما قبل عام ١٩٢٠ مشترطاً أن يتم ذلك ضمن حدود المنزل. ذلك لأن ابن سعود نفسه كان ذا عقل منفتح فيما يخص هذا الموضوع، حتى أنه، عندما زرته في الهفوف عام ١٩١٩، أرسل لي علبة من اللفائف المصرية بيد الدكتور عبدالله دملوجي مع الرجاء أن أدخن سراً فقط. وأنابدوري لعبت الدور حسب العادة المتبعة.

بعد إخماد ثورة الإخوان (١٩٢٩ ـ ١٩٣٠) التي قامت ضد ابن سعود، ظهرت ردة فعل لدى البدو، فقد بدأ الرجال يتحدثون باستخفاف عن ابن سعود وأساليبه. وعاد

عدد كبير منهم للتدخين علانية، ليس رغبة بالتدخين بقدر ما هي رغبة بإظهار التحدي.

بحلول عام ١٩٣٥ عادت رذيلة التدخين للانتشار بين البدو الذين يتحملون نفقات ممارستها. وحتى في نجد، تجد المئات من خدم ابن سعود (الفداوية) وكذلك بعض أفراد عائلته، يدخنون اليوم علناً.

العودة مجدداً إلى التدخين، لا يمكن اعتبارها نوعاً من ردة الفعل إزاء الدين. ولكنها تعني أن العربي تأكد أن عادة التدخين ليست إثماً وإلا لماذا لم يمنعوه عن تناول القهوة رغم أنها مؤذية كما التبغ.

كل الشيوخ في الكويت لا يدخنون، وهذا يعود إلى شدة التأثير الوهابي عليهم قديماً، مع أنهم يقدمون اللفائف لضيوفهم. هذاولم أقم أنا أو أي من الأوروبيين في الكويت بالتدخين في الشارع خلال موسم الصيام السنوي في رمضان.

الفصل السادس عشر

الأعياد

لدى المسلمين عيدان عظيمان:

١) عيد الأضحى أو الضحية.

٢) عيد الفطر (الذي يلي رمضان)

١) **عيد الأضحى** الذي يدعوه الأتراك (قربان بيرم) يبدأ يوم الحج[١] ويدوم أياماً ثلاثة. تبدأ عطلة العيد في اليوم العاشر من ذي الحجة عندما يدخل حجاج مكة المسجد الحرام ويطوفون حول الكعبة، ثم يذبحون كبشاً أو معزى أو بقرة أو جملاً في وادي منى إحياء لذكرى فداء إسماعيل[٢] بكبش. هذه الأضحيات ليست مقتصرة بالطبع على الحجاج الموجودين في مكة فعلاً، فكل قادر من المسلمين يذبح ذبيحة شرعية في هذه المناسبة يستهلكها مع أهله أو يوزعها على الفقراء. ومع أن مدة العيد هي ثلاثة أيام فقط، إلا أن بهجة العيد تستمر طيلة سبعة أيام كاملة كما في الكويت وبعض المدن العربية الأخرى.

٢) أما عيد الفطر فهو يأتي في نهاية صيام شهر رمضان مباشرة[٣]. ويدوم الصوم طوال شهر قمري كامل يبدأ برؤية القمر الجديد كما ينتهي برؤية القمر التالي

---

(١) الصح أن عيد الأضحى يبدأ في اليوم الذي يلي يوم الحج إذا اعتبرنا الحج هو الوقوف على عرفات. (المعرِّب).

(٢) يعتقد المسلمون أن إبراهيم أمر أن يذبح ابنه إسماعيل وليس إسحق (المؤلف).

(٣) يجب على المرأة أن لا تصوم في رمضان أثناء دورتها الشهرية. وعليها أن تصوم بدلاً عن هذه الأيام بعد انقضاء الشهر وقبل حلول رمضان التالي. (المؤلف).

الجديد. وكعيد الأضحى يستمر ثلاثة أيام رسمياً، إلا أن البهجة تستمر سبعة أيام. والجدير بالذكر أنه يجب أن يرى القمر ثلاثة شهود موثوقين في بداية الشهر ونهايته، وأن يعلن القاضي المحلي قدوم العيد. ثم يأمر حاكم الدولة (الشيخ) أن تطلق المدافع ثلاث طلقات بعد غروب الشمس في الأمسية التي تسبق العيد. كما يرسل الشيخ رسلاً ليقوموا بإبلاغ أولئك البعيدين عن المدينة، أو القبيلة المجاورة. وفي حال كون الطقس غائماً في الكويت واستحالت رؤية القمر، فبرقية من قاضي البصرة أو بغداد يمكن اعتمادها في الكويت لتحديد العيد.

يقوم الشيعة، كمبدأ لديهم، بالصيام قبل يوم من صوم السُنَّة لإظهار حماسهم. ويستمرون في الصيام يوماً بعدهم. وهم في الكويت يعتمدون في التوقيت على كربلاء أو النجف أو عالِم الشيعة في البصرة إذا كان الطقس غائماً. ومع ظهور الراديو وانتشاره، صار السُنَّة في الكويت يأخذون البلاغ الرسمي حول العيد من القاهرة. إلا أنهم لم يقبلوا بذلك إلا منذ عام ١٩٣٦.

إن طريقة الاحتفال في كلا العيدين السنويين في الكويت واحدة. مع وجود بعض الاختلاف الطفيف في الاجراءات بين سكان المدن والقبائل. وقد وصفت فيما يلي كيف يحتفل كل منهما بهذه المناسبة السعيدة. إلا أني أجد أن وصفاً واحداً كان كافياً.

العيد في مدينة الكويت

في الأمسية التي تسبق العيد، وبعد أن يعلنه المختصون، يعلن الشيخ عن الاحتفال بقدوم العيد في اليوم التالي. وتعم البهجة، لا سيما عندما يكون العيد في نهاية شهر الصوم المرهق المؤلم الطويل. شهر الكفارة الصعبة الشاقة. لقد قضى النسوة الليالي الأربع المنصرمة وهن يشتغلن بالخياطة لتحضير ملابسهن الملونة لهذه المناسبة العظيمة. بينما الأزواج وأولياء النعمة يوزعون الكساء على زوجاتهم الأعزاء وعبيدهم وخدمهم. السعادة غامرة والكل في فرح وابتهاج كاليوم الذي يسبق عيد الميلاد لدينا.

إن من أحد الواجبات على الأطفال والنساء في هذه المناسبة هو غسل الشعر والبدن، ثم وضع الحناء على اليدين والقدمين. وهم في الكويت يضعون الحناء الحمراء على أظافر اليدين وإبهام القدم. بينما توضع الحناء السوداء على راحة اليدين وحسب نماذج مختلفة كما سبقَ وصفها في الفصل التاسع.

يأخذ الشيخ، مع الشباب من أفراد عائلته، موقعه في نهاية فناء القصر. ليأتي كل رجل في المدينة، غنياً كان أم فقيراً، صحيحاً أم مشوهاً، مهما كانت صفته مادام يرغب في ذلك، يأتي ليقف في دوره ويقبِّل الشيخ على يده أو كتفه. ألفان من الرجال تماماً يصطفون عادة دون جلبة أو تدافع وهم يقدمون ولاءهم ويتمنون للشيخ عيداً مباركاً فيبتسم مجيباً (أيامكم سعيدة). إن منظراً في غاية الروعة يبرهن أكثر ما يبرهن على عظمة الحب والإخلاص اللذين يكنهما سكان الكويت لحاكمهم ولعائلة الصُباح الحاكمة.

بعد انتهاء احتفال الشيخ، يقوم سكان أطراف المدينة الغربية، حسب العادة، بزيارة سكان الجهة الشرقية في اليوم الأول من العيد، فيرد الفريق الثاني الزيارة للغربيين في اليوم الثاني للعيد. أما الخط الفاصل بين الجهتين ـ ولكونه سوقاً كبيرة ـ فإنه يشهد حركة بين السكان كبيرة جيئة وذهاباً، الأغنياء منهم في سياراتهم والأقل ثروة على أقدامهم.

مجريات هذا اليوم سريعة متلاحقة. ولا عجب إن كان على كل شخص أن يزور ما بين الستين والسبعين بيتاً قبل أن ينتصف النهار. يدخل الزوار ديوان الرجل (غرفة الاستقبال) ويتمنون له عيداً مباركاً. ثم يتناولون فنجاناً من القهوة ويحصلون على بعض رذاذ ماء الورد ونشقة من عود البخور، ثم يُوَّدعون بجملة (معيدين إن شاء الله) لينسحبوا متجهين إلى البيت التالي. إنه لمن المضحك والمربك في آن واحد، بالنسبة للغربي الذي اعتاد على زيارات أطول مدة، أن يجد نفسه مضطراً للإسراع بمغادرة بيت مضيفه الذي دخله لتوه وتناول فنجان القهوة بينما صاحب البيت ينادي على الخادم أن يحضر له عود البخور، وهي إشارة معناها: (مرحباً بك ولكن آن لك أن ترحل، وداعاً). أما أنا فلا أذكر أبداً أني مكثت في بيت أكثر من ثلاث دقائق، بينما معظم العرب يختصرون زيارتهم إلى حوالي دقيقة واحدة.

وكذا العيد لدى نساء المدن. فمنذ انبلاج الصبح تستيقظ النسوة والأطفال فيغتسلون ويرتدون الثياب الجميلة. ثم يتنقلون بسرعة كالفراشات الجميلة السعيدة بين مداخل الحريم من بيت لآخر متمنين للجميع عيداً سعيداً.

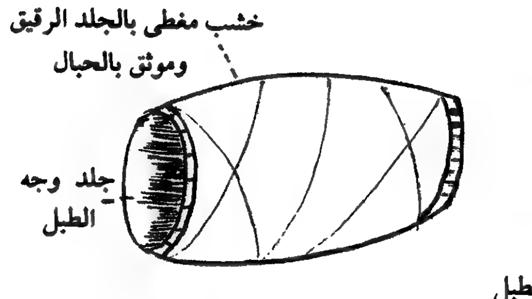
أول من تجب زيارتها هي زوجة الحاكم ـ بيبي ـ التي هي كالرجال تستقبل الزوار منذ الفجر. تليها في الأفضلية سيدات آل الصباح. وأخيراً النساء البارزات في المدينة. بشكل عام نقول إن الفقيرات يزرن الغنيات والأكثر حظاً. فترى الحركة الدؤوبة بين الطبقات الأدنى والخدم من الشعب.

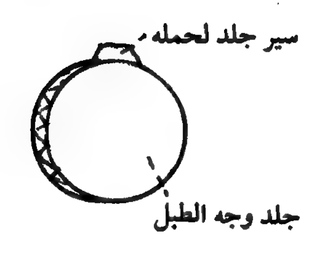
أما الأطفال فيبدون، كأطفالنا يوم عيد الميلاد، في أحلى أوقاتهم. فالآباء يزينون الفتيات بكل ما لديهم من جواهر وحلي بعد أن يرتدين أحلى الأثواب الملونة جاعلين منهن أنظف وأسعد الأطفال في العالم. كما يلبس الصبيان الملابس الجديدة من زِبون وكوفية وعقال. ثم يهرج الأطفال من كلا الجنسين متلهفين إلى حيث تنتشر الأراجيح في أقسام من المدينة. هذا إلى جانب الأراجيح الدوارة والعربات المتواضعة التي تسير على عجلات أكثر تواضعاً. وقد يخرج الأطفال للتجول مع أحد الشباب أو الرجال الذين يطوفون بهم، ليمتعوهم ويجعلون يومهم سعيداً. نحن نعرف الأراجيح الإنكليزية المنفردة. أما هنا فترى بدلاً منها صندوقاً خشبياً قليل العمق كبيراً ليتسع سبعة أو ثمانية أطفال في وقت واحد، يقوم مقام الأرجوحة المفردة وهو الأكثر انتشاراً. يدفعها الرجل القائم عليها إلى الأمام والخلف على إيقاع غنائه الأجش الذي يردده معه الأطفال بفرح. سعادة الأطفال هذه التي تعم أنحاء الكويت في العيد، كانت مصدر سعادتي وزوجتي وأولادي دائماً. فبعد أن أنهي زياراتي الصباحية، أضع عائلتي في السيارة وأتجول بهم متنقلاً بين مجموعة وأخرى لنتمتع جميعاً برؤيتهم يسعدون.

بعد قضاء الزيارات الصباحية، وبعد أن يفرغ الجميع من تناول طعام الغذاء، يعود الأطفال مرة أخرى إلى أراجيحهم، بينما يذهب اليافعون ولا سيما الإناث منهم (اللواتي يسمح لهن نظراً لتمتعهن بحرية زائدة خلال مدة العيد البالغة سبعة أيام) إلى الصفاة، وهي ساحة السوق المركزي المفتوح في المدينة وذلك بغية مشاهدة الرجال الذين يقدمون رقصات السيوف المعروفة في كل أنحاء الجزيرة العربية باسم (العرضة) وهي العادة السائدة في نجد الداخلية ومدن ساحل البحر.

في الكويت، وخلال العيد، تقدم ثلاثة أو أربعة عروض في نفس الوقت. الفرقة الأولى هي (النجادة) نسبة إلى نجد، والثانية من قبائل الرشايدة وهي مخصصة لخدمة العائلة الحاكمة، والثالثة تتألف من البحارة. ورغم تعدد الفرق إلا أن الرقصات واحدة مع بعض التنويع البسيط حسب ذوق الراقصين.

إن إشارة بداية العرض هي علم كويتي كبير يجري غرسه في الأرض ليجتمع الناس حوله. إلى جانب هذه الراية يقف بضعة رجال يحملون طبولاً صغيرة ودفوفاً يضربون عليها ضربات متناغمة بوساطة قطعة مسطحة من الخشب الصلب أو العظم بينما يضرب على الدف باليد. (أنظر الطبل في الشكل التالي).





الطبل

أما في الوقت الحاضر، فعندما يحتشد الناس ويرغبون المشاركة في الرقص، يحمل نصفهم السيوف والآخرون البنادق، فإنهم يدخلون بين الراقصين ويشكلون معهم حلقة كبيرة حول الراية. في داخل الحلقة يقف المغنون أو الجوقة مؤلفين صفين، تعداد كل منهما ثلاثين رجلاً كحد أعلى، يواجه كل منها الآخر. أخيراً يأتي رجال البارود الذين عليهم أن يحشوا فوّهات البنادق القديمة بالبارود الأسود ليطلقوها نحو الأرض.

توقد النار في مركز الحلقة التي شكلها الراقصون بغية تدفئة جلد وجه الطبل عندما يرتخي. ثم تأخذ الجوقتان أماكنهما متقابلتين تفصل بينهما مسافة تقارب السبعين قدماً. بينما تتشابك أيدي الرجال في كل جوقة على حدة. يبدأ الغناء بترنيمة يرددها الجميع وهم يتمايلون على كلا الجانبين دون أن يبدلوا أماكنهم. ثم هناك قائد الجوقة وملقنها الذي يلقنهم ما يشبه الشعر من تأليفه. فيلقن إحدى الجوقتين ثم يقفز نحو الأخرى ليلقنها الإجابة. وهو يبدل الأغنية كل خمس دقائق تقريباً.

عندما ينسجم صوت الكورس العميق وينتظم، يبدأ أربعون أو خمسون رجلاً من حملة السيوف والبنادق بالسير حول الدائرة بخطى بطيئة تتوافق مع إيقاع الغناء وقرع الطبول. أما الطبالون فيقرعون طبولهم وهم يقفون إلى جانب الراية في مركز الحلقة، إلا أنهم تدريجياً يتركون أماكنهم ليدوروا مع حملة السيوف والبنادق عندما يزداد الانفعال. والجدير بالذكر أن حملة السيوف والبنادق هؤلاء لا يغنون أبداً وتنحصر مهمتهم بالتلويح بالبنادق والسيوف بحركات رتيبة حول رؤوسهم ببطء. أما الخبير منهم فينوع هذه الحركات بقذف سلاحه في الهواء ليتلقاه مرة أخرى عند سقوطه.

مع استمرار الرقص، يتدخل حاملو البارود بين اللازمة والأخرى ويحشون البنادق ليقوم حملتها بعد ذلك برفع أخماص البنادق نحو الأعلى لتكون فوهاتها متجهة نحو الأرض، ثم يطلقونها مثيرين الغبار والدخان الأبيض، كل في وقت واحد ما

أمكنهم ذلك إلا أنه غالباً ما تكون النتيجة وابلاً من الطلقات المتلاحقة. يستمر رجال البارود بالدوران دون توقف، فيعيدون الكرة كل خمس دقائق ولمدة ساعتين تقريباً. بينما الراقصون محاطون بحشد كبير من الرجال وعلى بعد كاف منهم يصل إلى ٢٠ - ٣٠ يـاردة يقف حشـد آخر من النسـاء كلهن في حلـل العيـد، إلا أنهن قـد غطين بـاللبـاس المعتاد وهو العباءة السوداء التي تلتمع من تحتها الأثواب الملونة كالأخضر والأحمر الباهت والغامق واللامع والمزرق. وهناك من الفتيات الأكثر ثراء وتحضراً اللواتي يرتدين جوارب الحرير الصناعي وأحذية ذات جوانب مرتفعة تمكن رؤيتها تحت الأثواب الطويلة. إلا أن السواد الأعظم ما زلن يرتدين - حسب العادة القديمة - خفاً أسود أو حتى يبقين حفاة. كل النسوة محجبات، وإذا كن من القبائل فيضعن البرقع أو الخمار الأسود وفيه فتحتان للعيون.

منذ بداية العرض وحتى نهايته يسود جو من السلوك الحسن واللياقة، فحركات الرجال بطيئة متموجة ولا وجود للفظاظة من أي نوع كانت بينما المتفرجات من النسوة يسودهن الهدوء. أما الرقص فرقص حرب، والأغاني إنسانية وهي إما إطراء للحاكم أو قصص عن الأعمال الشجاعة والرجال النبلاء. وكقاعدة عامة، يكون ضاربو الطبول من الزنوج بينما الراقصون من طبقة المحاربين العرب.

خلال الأيام السبعة المخصصة لاحتفالات العيد، تشارك النسوة بنصيب كبير من الرقص، ولكن في بيوتهن ودون حضور أي من الرجال طبعاً. هذا الرقص الخاص ليس له علاقة بالرقص الذي تقوم به النسوة اللائي لا يأبهن بالفضيلة ويرحبن بالمتفرجين من الرجال في بيوتهن الخاصة، والتي تقع في جزء خاص من المدينة خصص لهن.

لقد قامت زوجتي بزيارة عديد من البيوت لمشاهدة رقص النساء، سواء في بيوت الطبقة العالية أو الرشايدة أو نساء مطير في المدن. وقد أكدت لي أنه أمر جدير بالاهتمام، فالراقصات ترافقهن النساء دائماً بالغناء وهؤلاء ينقسمـن إلى فريقين من أجل إعطاء الإيقاع. أما النساء اللائي ولدن في المدينة فيؤدين قسماً كبيراً من الرقص وهن في وضعية الجلوس بينما أخواتهن القبليات يعتمدن أكثـر على الرقص على القدمين والخطوات المنتظمة. إلا أن النساء جميعاً في رقصهن يطلقن الشعر منسدلاً ويتمايلن بأجسادهن ورؤوسهن من جانب لآخر ليجعلن الشعر يتأرجح من طرف لآخر بحركة دائرية. والمرأة ذات الشعر الأطول والغدائر الأكثر غـزارة هي التي تنال أكثر الاستحسان أو المكافأة.

قد يصادف قدوم العيد في الربيع، والطقس البارد والعشب الأخضر في كل مكان. في هذه الحال تعتبر النزهة بالنسبة للنساء شغل اليوم الشاغل، ولكن ليس قبل انقضاء اليوم الثالث من العيد. تخرج أفواج النساء والأطفال خارج أسوار المدينة نحو الآبار المجاورة والواحات الخضراء على بعد ميل أو ميلين مصطحبين طعام الغذاء والشاي. ليس للرجال نصيب هنا لأن النساء يأخذن معهن عبيدهن من الفتيات وصبياً صغيراً أو اثنين ليقوما بحراسة إخوتهما وأمهما ويطلبا النجدة إن لزم ذلك. تعتبر هذه النزهات واحداً من أكثر المناظر بهجة في الكويت، لأنها ببساطة تعني أن المرأة تركت سجن بيتها، وهي تمتع نفسها بمناظر الريف المحببة وتتنشق الهواء النقي خارج المدينة. إن النزهات سلوك لا غبار عليه وهي بحد ذاتها تتسم بالبساطة وتجلب السعادة الغامرة للنسوة المشاركات فيها.

وإذا كان موقع التنزه بعيداً عن طريق المارة فإن النسوة يغتنمن هذه الفرصة ويبدأن الرقص الهادىء فيشكلن حلقة، وحالما تبدأ إحداهن بحل شعرها وإسداله والرقص والتمايل وهي جالسة، تبدأ صديقاتها بالغناء على إيقاع يسهّل عليها الرقص. وقد تكون إحدى الفتيات العبيد قد أحضرت معها طبلاً صغيراً، عندئذ تقوم بالضرب عليه بضربات رتيبة. وفي حال ظهور رجل أو فارس في الجوار فيتوقف الرقص والغناء ويهدأ الجميع كما الفأر حتى مرور ذلك الرجل.

أحياناً وليس غالباً يسمح لبعض النسوة ذوات السمعة الرديئة أن يخرجن في العيد للنزهة في مجموعة إلا أنهن يبقين بعيداً عن أخواتهن المحترمات كما لا يسمح لهن باصطحاب الرجال معهن. والقصد من هذا الإجراء هو الاعتراف بأنهن يتمتعن بحق الاحتفال بالعيد كغيرهن وبالتالي لهن الحق بالتمتع فيه[1].

العيد لدى القبائل

العيد في الصحراء كما هو في المدينة ـ فرصة للمتعة والفرح والاحتفال وتبادل الزيارات. ولكنهم في الصحراء ولكونهم فقراء وأكثر بساطة فإن الاحتفال لديهم يأخذ شكلاً أكثر بساطة في مظاهره وتكاليفه. ومع ذلك فهم يجرون سباقات الخيل ومباريات الرماية إن كان لديهم فائض ذخيرة.

تسنح الفرصة للفتيات القبليات أن يرقصن في العيد، وربما أكثر من أخواتهن في المدينة. ففي الصباح والمساء تتجمع مجموعات منهن ويدخلن إحدى الخيام

(١) في عام ١٩٣٨ لم يكن يسمح للمومسات بالخروج من المدينة وحتى النزهات كانت ممنوعة عليهن. (المؤلف).

ويسدلن ستائرها، ثم يطلقن شعورهن ويبدأن رقصهن الرائع. بينما تحجم النسوة الأكبر سناً والمتزوجات عن المشاركة في الرقص، لأنهن يعتبرن ذلك غير مناسب، بينما الصغيرات يجدن متعة فيه. وغالباً ما يسمح للصبية الصغار الذين تربطهم بالراقصات صلة قرابة أن يشاهدوا الرقص من مسافة كافية. هذا ما يمنحهم الفرصة التي يتوقون إليها من اختلاس النظر إلى عروس المستقبل. يستمر رقص الفتيات هكذا لمدة سبعة أيام يتوقف بعدها، وإلا اعتبر وقاحة ودون مبرر، بالإضافة إلى اعتباره انهماكاً بالأمور الدنيوية.

كثيراً ما كنت وزوجتي نخيم خلال احتفالات العيد مع بعض أصدقائنا البدو. وكان لي شرف رؤية رقص فتيات مطير والعوازم والرشايدة، عدة مرات. ولكن فرصة كهذه لم أكن أحظى بها في غير أيام العيد، كما أنه ليس من المعتاد أن يحضر آباء الفتيات الرقص، بل يحضره الصبيان الذين تربطهم صلة قرابة بالفتيات فقط وعن بعد.

تقوم بالرقص عادة ثلاث من الفتيات على إيقاع أغنية تغنيها النسوة الأكبر سناً، وهن يقفن حولهن ويصفقن بأيديهن. تخلع الراقصات عباءاتهن وينزعن البراقع ليظهرن بأحلى أثوابهن الزاهية الألوان. ثم يبدأن الرقص بقفزات قصيرة وقاماتهن ممدودة بينما تتأرجح رؤوسهن من جانب لآخر، أو بحركة دائرية ليجعلن شعورهن تطير في الهواء. وغالباً ما تحمل كل فتاة عصا من الخيزران تمسك بها برؤوس أصابع كلتا اليدين. أما إذا لم تتوافر هذه العصا فيلجأن إلى تغطية الجزء الأسفل من الوجه بإحدى اليدين، أو يمسكن بجزء من كم الثوب ويضعنه أمام الوجه. ترقص كل فتاة حتى تشعر بالإعياء فتتوقف ثم تلبس عباءتها فوق رأسها وتجلس. إنه مشهد جذاب يستحق المشاهدة.

أما الرجال القبليون فلا يرقصون في بيوتهم أبداً لأن ذلك يعتبر منافياً للدين والرجولة وتشبه بالطبقات الدنيا. هذا التحريم لا ينطبق على العرض الذي وصفته فيما سبق والذي يعتبر بمثابة رقص حرب وقد يشارك فيه رجال من أعلى المستويات في المنطقة. ففي كثير من الأحيان كان ابن سعود نفسه ينضم للرقص فيكسب بذلك استحساناً أكثر من النقد بين رعيته.

سأدرج فيما يلي خمس أغان كمثال على أغاني الرقص القبلية التي ترددها النساء لترقص عليها الفتيات. أخذت هذه الأغاني بشكل عشوائي من أغان كثيرة سمعتها وزوجتي ودونتها عندما كنت في المخيم، وقد وجدت صعوبة بالغة في ترجمتها

نظراً لاحتوائها على كلمات من اللهجات المحلية بكثرة.

١ - أغنية النساء المطيريات

(بعد استسلام فيصل الدويش لابن سعود بمساعدة الإنكليز)

(تغني الجوقة كل مقطع أربع مرات)

يا قلبي اللي غدا خَريش

حدر السما حس طيارة

* * *

طيارتين شالت الدويش

ما عاد يرجع على داره

وحريمه في أطراف العشيش

وأخته اللي حطم صبرها

المعنى: أيا قلبي (تعبير عن الخوف) لقد أصبحت فزعاً، ففي السماء يسمع صوت الطائرة. طائرتان حملتا الدويش ولن يعود أبداً إلى دياره. أما نساؤه فيجلسن الآن حزانى بين أكواخهن المصنوعة من القصب بينما أخته كسيرة القلب.

٢ - أغنية نساء العوازم

(يعاد كل مقطع أربع مرات)

أبغي واتمنى لكِ تركبي الطيار

الموتور اللي صاح بوريها

* * *

أبغي أنهب عليه اللي نهده ما عيبه كبار

وأبغي انحاش بيها يم الديرة الشمالية

* * *

مسير الشهر يطوي في طرفة نهار

لا جد عليه اليثم والحذ بريّه

* * *

نطحتني ولاقاني عليها أشقر النطار

غدا القلب حمايتها على الرعد ايش فيها

* * *

أنا إن ملكتها صرت من حزب التجار

باست وسقت وصار لطف الهشيلية.

المعنى:

١ - أتوق وأتمنى أن أركبها في سيارة السيد التي تطلق منبهها.

٢ - أرغب أن أسرقها بعيداً، تلك التي ليست كبيرة جداً، كما أرغب أن أطير معها إلى الديرة الشمالية.

٣ - إن ما يستغرقه الجمل في شهر تستطيع السيارة أن تقطعه في نهار قصير، سأجعله يسرِع عِلى طول طريقه الصحراوي.

٤ - أوقفتني وقابلتني بشعرها الأشقر المنسدل. قلبي كان متحرقاً لها ولعلامات الوشم على وجهها.

٥ - فإذا ملكتها الآن سأصبح من طبقة التجار ولو ضربتني وأقعدتني فالسعادة من نصيبي إلى الأبد.

٣ - أغنية نساء العوازم

(يعاد كل مقطع أربع مرات)

أروزَ العصا والبشت وأومي راعي الريل
تعدي الرزاقي وزاحت تداوي مع حيله

* * *

عصاها تقول لها ما وقف يوم ماسوات حيل
حنا واقفين في التراب وعصاي واميله

* * *

أنا أبغي وصلني إلى البيت قبل الليل
أبغي أشوفها من أمي وقلبي ريلا

* * *

متى ينزلون العد يا صبري الطويل
صبرت يا صبرِ الخطى تأتي الحِلن

* * *

عشيري لأتوب الينى مثل نجم السهيل
ثلاثاً وخمساً وست صفات مجادلة

* * *

المعنى: رفعت عصاي ولوحت بمعطفي لمالك السيارة إلى أن تجاوز المرتفع ككيس ملؤه الحيل.

ـ فليصبه الارتباك، لأنه لم يتوقف عندما أومأت له، لأني وقفت في الطريق وناديت ولوحت بثوبي.

ـ كنت أرغب أن يقلني إلى بيتي قبل أن يحل الليل علي. كما رغبت أن أراها بعيني تلك التي يرغب قلبي بامتلاكها.

ـ متى يعود ذلك المسافر الطويل لأني انتظرته انتظاراً مخيفاً حتى فقدت كل أمل؟

ـ يا عزيزتي أنت كنجم سهيل، وسأفرد ثلاثاً وخمساً أو ستاً من ضفائرك المحببة.

٤ ـ قصيدة الشرف[١]

الشرف وَيْلك على ما فات
ويلك على دورك العماه
يا طوال ما فيصل راعيك
اليوم راعيك غيلما
هاتي جنية[٢] على يمناك
تاحهاري أد ابن لامي

المعنى: ويل لك يا شرف على ما فعلت. ويل لك لأنك فشلت عند الحاجة. ففيصل الذي كان لمدة طويلة زوجاً لـك لم يعد اليوم كذلك. فلتكن هضبة الجنية على يمناك وغادري إلى ابن لامي.

أغنية عجمانية في الاحتفال بعودة راكان الحثلان من المعتقل في استانبول:

(الشيخ سالم الحمود ١٠ ـ ٨ ـ ١٩٤٠)

يـا فاطـري ذبـي طـوارف طميـه   اليازِ ما تلك مثل خشم الحصاني
خبي خبيب الـديب مـع جرهـديه   تنحـري بـرزان زيـن المبـاني
محمداً كرم علينا مجيّه
قبـل الصـديق وقبـل حي وداني   إلا قضيـت الـلازم اللي علـيَّـه

---

(١) راعي الجمال الأسود الشهير في مطير.
(٢) هضبة في الصمان (نجد).

اللازم اللي ما قضاه الهداني عقب تنحري ديرة العسوجية
إلا أمانا الراس بالزعفراني ليّت الصبر أمن ولا دهيَّة
أما غدا راكان ديب السريَّة ولا لِفي يصهل صهيل الحصاني

ملاحظة: هذه الأغنية ألفت للاحتفال بعودة راكان الحثلان، شيخ عجمان، من سجنه في استانبول حيث قضى فيه ثماني سنوات. وقد سرت إشاعة مفادها أنه توفي في سجنه. عندها أخذت زوجته إلى سلطان الدويش (والد فيصل) زعيم قبيلة مطير فتزوجها. وعند عودة راكان المنفي وبخ زوجته (شقحا)، لعدم انتظارها له حتى عودته. ثم عرض بألم أن يطلق شقحا. ولكن راكان رفض وأصر على إبعادها. كانت شقحا قد ولدت لسلطان ولداً أصبح فيما بعد فيصل العظيم.

قبل ولادة شقحا لفيصل رأت حلمها الشهير وهو أنها ولدت شعباً نارياً أو عصا الجمل.

الفصل السابع عشر

تحية العرب

إذا حييت بدوياً بقولك (السلام عليكم) وأجابك قائلاً (عليك السلام) فهذا يعني ضماناً منه لاتفاق سلام بينك وبينه. كما لو أنك مالحته أو شربت في خيمته فنجاناً من القهوة. وبذلك تستطيع أن تطلب حمايتك كما لو أنك جار خيمته وشاركته في الأخذ بثأر ما. كان هذا من وقت قريب إلا أن الإخوان ـ لسوء الحظ ـ أفسدوا بحماقتهم العادات القديمة الرائعة. فقد شهدت السنوات العشر من ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠ أسوأ تحرك للإخوان الوهابيين، أو لنقل شهدت قمة تأثيرهم. فخلال هذه المدة انقرضت أفضل عادات العرب، وعلى الأخص ما يتعلق بالدخالة والوجه والقصير والشهامة تجاه المرأة.

إلا أن الأمور عادت إلى نصابها مرة أخرى بعد انحسار التعصب الوهابي. وقد عاد كل ما هو شهم وحسن إلى الجزيرة العربية. والفضل في ذلك يعود إلى جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود ولو أنه المسؤول عن السماح لهم بالفرار.

هنالك الكثير من تعابير التحية إلى جانب أشهر التعابير المستعملة وهو (السلام عليكم). فمثلاً تحية البدو المعتادة هي قولهم «القوة» وهي اختصار للتعبير «ليمنحك الله القوة» وتكون الإجابة بالقول «الله يقويك». أما في المدن فتحية الصباح المعتادة هي «صبحكم الله بالخير». وهناك سلسلة من الأسئلة تتلوها مثل «شلونكم؟ شلون العيال؟ أي كيف حالكم وحال الأولاد؟ كيف حالك، كيفك أنت؟ أي كيف تسير الأمور معك؟» كل هذه الأسئلة لها إجاباتها المحددة وتطرح متوالية سراعاً.

عندما يعود أحد الأقرباء أو الأصدقاء المقربين من رحلة فإن تحية التهنئة بوصوله هي (قرت عينك) وجوابها هو (وجه نبيِّك).

إذا دخلت برفقة زوجتي خيمة أو بيتاً وحييتهم التحية المعتادة فالرد هو (حياك الله يا أبا سعود) فأتابع (الله يحييكم). وقد يكون ردهم (هلا يا أبو سعود كيف حال الأولاد؟).

أما الغريب فيحيي بقوله (السلام عليكم) إذا كان ماراً بمخيم للبدو فيرد المضيف التحية قائلاً: (عليكم السلام) مضيفاً قوله (تفضل). يرد الغريب (دام فضلكم) وهي قلما تستعمل.

والنسوة يتبادلن نفس التحية التي يتبادلها الرجال، ويزيدون عليها ثلاثة أسئلة يحق لهن تداولها، وهي السؤال عن صحة الزوج، وصحة أهله، وصحة بقية زوجاته إذا كان لديه أكثر من واحدة. بينما لا ذكر لهذه الأسئلة بين الرجال ما لم تكن هناك معرفة جيدة بين الرجلين عندها يمكن طرح السؤال (كيف حال اللي وراك؟).

في أيام العيد يقولون بدل التحية (عيدك مبارك) أو (العيد عليك مبارك) والثانية أكثر تداولاً، ويرد عليها بالقول (أيامكم، أو يومكم سعيد) أو (عساك من العائدين).

بين الأقارب، أو عند تحية شيخ أو رجل ذي شأن يحيي البدوي التحية المعتادة وهي (السلام عليكم) ويزيد عليها بقبلة على الأنف أو على الوجنتين والأولى أكثر انتشاراً. ولطالما أحرجت بهذا النوع من التحية من قبل ستة رجال في وقت واحد. والشيخ مطلق الصور بشكل خاص محرج في هذا المجال.

إذا قابل البدوي أخته في الصحراء، أو زوجة صديق حميم فيحييها بقبلة على رأسها أو يقبلها على وجنتها فوق البرقع. إلا أنه لا يفعل ذلك بحضور الغرباء لئلا يقال عيب أو غير لائق.

عندما يتقابل صديقان في الصحراء أو في المدينة يمسك كل منهما بيد الآخر ويبدأان سلسلة من التحيات تبقى خلالها الأيدي متماسكة. إن الأوروبي عندما يراقب هذه التحية يسخر من نفسه ويدرك أن التحية (كيف تسير الأمور معك؟) التي يستعملها هي تحية مغرقة في الرسمية وجوفاء.

والنسوة يحيين بعضهن طبعاً بقبلة بعد رفع البرقع وهذا مسموح به حتى بوجود الرجال.

إن كلمة التحية (مرحباً) لا تسمع في شرق الجزيرة العربية ولا يستعملها سوى الرجال ذوي الشأن. والشيخ يرحب بنظيره القادم إلى خيمته قائـلاً: (أهلاً وسهلاً، يا مرحباً، يا هلا، الله يحييهم) كل هذا يعني مرحباً مرحباً صيغت بصيغ متنوعة. ويبدو أن كلمة مرحباً منتشرة في سوريا وفلسطين ومصر ومع ذلك فليس من النادر أن تسمعها حول الكويت.

لا يحيي الشاب أباه بنفس الطريقة التي يحيي فيها أي رجل آخر، فعليه أن يبدي احتراماً أشد، لاسيما بين الغرباء، إذ عليه أن يتخذ مجلساً متأخراً عن أبيه بحيث يلغي وجوده في حضرة أبيه. كما عليه إذا شاء الإشارة إلى أبيه في حديثه أن يقول (الوالد) بدلاً من (أبي) المستعملة في المدن والتي يزدريها البدو. أما الرجل البالغ فيخاطب أباه بقوله: (يا طويل العمر) إذا اضطر لذلك أو بقوله (يا حضرة الوالد).

أما إذا رغب الأب بمخاطبة أحد رجاله، فهو كالشيخ يناديه بقوله (يا ولدي) أما إذا رغب أن ينادي أولاده للسلام على غريب فيناديهم بقوله (يا عيال تعالوا سلموا على فلان).

يخاطب العبد سيده بقوله (يا عمي) وعليه أن يحييه بتقبيل يده. أما السيد فلا يحيي عبده بل يسأله عن حاله إذا كان قد غاب عنه مدة من الزمن.

من ناحية أخرى، يحيي الرجل صغار أولاده بمزيد من الحنان والعاطفة، بينما يجري الأكبر منهم نحوه فيقبلهم ويداعبهم، كما لو أن الزوجة أرسلتهم للترحيب بالأب العائد من رحلة إلى البيت. أما الفتيات فلا يداعبهن الأب كما الصبيان فهن يأخذن مكاناً متأخراً.

في الكويت وفي مدن أخرى من مناطق الجزيرة العربية لا ينهض الرجل لتحية شخص أكبر منه فهذا يعتبر سلوكاً سيئاً، ويظهره كما لو أنه يود أن يلفت النظر إلى نفسه. فالقاعدة هي أن على الرجل الأكبر أن يبدأ بالسلام على الرجل الأصغر، والماشي على الجالس، والراكب على الماشي أو الجالس. ومن الأدب أن ترد بقولك (عليكم السلام) وهذا ما أعتقد أن فيه إجازة قرآنية.

لقد أساء الإنكليز القادمون من الهند فهم عادات أهل الجزيرة العربية في السلام، وظنوا أن عدم نهوض الناس للسلام هو من سوء سلوكهم أو رغبتهم في إبداء العداء، لأن العادات السائدة في الهند على العكس تماماً، إذ ينهض الرجل الأدنى

لتحية الرجل الأكبر أولاً. وقد عانيت كثيراً من محاولاتي إفهام الإنكليز القادمين مجدداً إلى الكويت أنهم ببدئهم بالسلام يرفعون من شأن أنفسهم كغرباء ويجعلون من أنفسهم أشخاصاً ذوي أهمية.

الفصل الثامن عشر

الحج إلى مكة

من الطبيعي أن الحج من الأمور ذات الأهمية البالغة. ففي الكويت، وقبل شهر أو أكثر من موسم الحج، يسود الفرح والانفعال، ويقضي الناس هذه المدة بشراء الجمال وخيام السفر البيضاء الخفيفة المجهزة للنصب بسرعة كل ليلة أو في استراحات النهار كملجأ للنساء. كما يهيئون المحفات للنساء ويستأجرون الأولاد والرفيق.

عند اقتراب موعد مسير قافلة الحج يتم تعيين أمير الحج. وفي الموعد المحدد يغادر الحجاج باتجاه الجهراء عند رأس باي الكويت، رقعي وحَفر الباطن، بعض العائلات الموسرة تذهب إلى حفر الباطن، على بعد ١٥٠ ميلاً، بالسيارات لينضموا هناك للقافلة. وعند عودتهم ينتظرهم أقاربهم في نفس المكان ليقلوهم بالسيارات إلى منازلهم.

عندما يبدأ السفر إلى الحج تعم الفرحة في الكويت وكذلك الأمر عند عودة الحجاج فتحس بانتشار مشاعر الحماس الديني الفعلية في كل مكان. كما تجد لدى الحجاج المسنين أملاً أن يبلغهم الأجل وهم في الديار المقدسة أو في الطريق إليها طلباً للمزيد من الحسنات. انطلاقاً من هذا المفهوم صار من المعتاد لكل رجل أو امرأة يبغي الذهاب للحج أن يصطحب معه كفناً أو ثوب دفن جديد.

إن رحلة الذهاب أو العودة تقتضي قطع مسافة ٨٠٠ ميل إذا سرت في خط مستقيم، أما إذا أخذنا في نظر الاعتبار التعرجات في الطريق فإن المسافة تصبح أقل قليلاً من ١٠٠٠ ميل. وهذا أمر ليس بذي أهمية بالنسبة لراكبي الجمال ولكنه يستحق

الإطراء بالنسبة لساكني المدن ونسائهم اللائي يقمن في مدينة الكويت نفسها، ومن المدهش في الواقع أن يبقى بعض هؤلاء على قيد الحياة بعد هذه الرحلة الصحراوية الطويلة، والطعام غير المعتاد، وقلة الماء وحتى كونه موحلاً على الطريق. أما البدو فتعتبر الرحلة بالنسبة لهم أسهل مع أن نساءهم، ولا سيما اللائي يحملن أطفالهن، يعانين كثيراً من قلة الطعام والراحة. إن مجمل الرحلة يستغرق عادة أربعين يوماً أو خمسة وأربعين إلا أن الأربعين يوماً تعتبر كافية.

كان الملك عبدالعزيز ـ ملك العربية السعودية ـ قد أصدر قراراً يقضي بعدم جباية ضريبة الحج من القادمين على الجمال تقديراً منه لجهودهم. إلا أن موظفيه، على كل حال، لا يألون جهداً في تفتيش أمتعة المسافرين في حفر الباطن أو الزلفي بحثاً عن المحظورات. أما أغنياء الكويت والبصرة فلا يشملهم الاستثناء من الضريبة والذين يفضلون استئجار سيارة تقطع الرحلة بهم إلى الرياض لتوفر لهم الراحة. وفي هذه الحالة يدفعون ما قيمته أربعة جنيهات عن كل سيارة تؤخذ في (قرية العليا) في الصمان. هذا بالإضافة إلى أجور أخرى تؤخذ في نهاية رحلة الذهاب تصل كحد أعلى إلى خمسة جنيهات لكل سيارة[1].

لقد صادف خلال مدة إقامتي في الكويت ـ ولحسن الحظ ـ أن يأتي موسم الحج في الفصل البارد. إلا أن الأيام انقضت وصار على الحاج التعيس أن يقوم برحلته في منتصف الصيف ولقد فكرت بالمشقة الإضافية التي يجب عليه تحملها.

وكان شيخ الكويت قد أخبرني أنه مرة في شبابه كان عليه أن يقوم برحلة الحج في حزيران، وأنه في كل حياته لم يصادف وقتاً عصيباً كذلك الذي صادفه في رحلته تلك على الرغم من كل ما يوفره المال من الراحة والتسهيل.

إن طريقة تنظيم المسير في رحلة الحج في طقس ليس شديد الحرارة /في عام ١٩٣٦/ مثلاً، هي أن تبدأ القافلة مسيرها عند الفجر ولمدة أربع ساعات، مع استراحة عشر دقائق كل ثلاث ساعات لشرب القهوة. بعدها تتوقف للاستراحة في مكان ما حوالي العاشرة صباحاً ولمدة ساعات ثلاث. تتابع القافلة سيرها لمدة ثلاث ساعات أخرى بعد الظهر. وفي حال كون حرارة الشمس شديدة في استراحة منتصف النهار،

---

(١) في عام ١٩٣٨ كانت رحلة الحج في سيارة تتسع لستة ركاب، من الكويت إلى مكة والمدينة ومن ثم العودة عن طريق القصيم والرياض. هذه الرحلة كانت تكلف الشخص الواحد ٤٠٠ أربعمئة ريال سعودي بما في ذلك مشترياته. (المؤلف).

تنصب بعض الخيام الخفيفة لتؤمن الظل للنساء، كما تنصب في الليل أيضاً. أما الطعام فالعادة أن يتم طهو ما هو مطلوب في اليوم التالي خلال الليل. وهو عادة يتألف من الرز المطبوخ مع اللحم للميسوري الحال. ومن الرز والتمر للأقل يسراً منهم. وعندما يكون الطقس حاراً خلال رحلة العودة كما هو الحال في هذه السنة /١٩٣٦/ فإن السفر يتم في الليل ويقضى النهار في الاستراحة.

إن أصعب مدة على سكان المدن هي بداية رحلة الحج. فأي شخص يركب الجمل للمرة الأولى يدرك مدى الإزعاج الشديد الذي يسببه هذا للعقل والجسم معاً، إذا لم تتكسر الضلوع. لذا كان على المسافر أن يدرب نفسه على ركوب الجمل قبل الرحلة بأسبوع على الأقل أو عشرة أيام. فيقوم برحلات قصيرة تتزايد مسافاتها حتى تبلغ ٢٥ ميلاً يدرب نفسه خلالها، وبالتدريج على تحمل الركوب في المحطة واهتزاز الجمل أثناء سيره، لأن قافلة الحج لا تأخذ في نظر الاعتبار شدة العذاب الجسمي الذي يتعرض له سكان المدن في الأسبوع الأول من الرحلة. فمعدل المسافات الأولى التي تقطع يومياً لا تقل عن /٣٠/ ميلاً. هذا بالإضافة إلى أن الحجاج يقعون تحت رحمة المرشدين والأدلاء من البدو الذين لا يعرفون شيئاً عما يحسه سكان المدن ولا حتى ما تعنيه كلمة المشقة.

عند عودة الحجاج، تعم الأفراح المدينة ويخرج القادرون من المدينة مسافة عدة أميال لاستقبال أقاربهم قبل دخولهم المدينة. ولدى عودة الحاج إلى بيته يقوم جيرانه بزيارته لتقديم التهاني. ويستمر هو في استقبال المهنئين مدة تزيد عن عشرة أيام. ويتم خلال ذلك تقديم الهدايا للغائب العائد وتلقي الهدايا منه.

ظاهرة جميلة تلحظها عند عودة الحاج وهي أن كل حاج عائد من مكة يجب أن يحضر معه بعض الهدايا الصغيرة لأصدقائه وأقاربه في وطنه يشتريها من المدينة المقدسة أو بيت الله. وهي عادة يتبعها الأغنياء والفقراء على السواء. والهدية المفضلة هي زجاجة ماء من بئر زمزم ذلك النبع الشهير الذي يقع في الحرم العظيم أو المسجد نفسه.

ملاحظات حول مناسك الحج

(أوضحها للكاتب سمو شيخ الكويت في الثامن من كانون الثاني عام ١٩٤١)

على سبيل الإيضاح، فالأراضي المقدسة في مكة تتألف من منطقة كبيرة تحيط بالمدينة ذاتها، وهي بدورها محاطة بسلسلة من الأعمدة تقوم مقام الحدود أقيمت على

بعد ثلاثة أميال من المدينة، لتمر كل الطرق المؤدية للمدينة من خلال سلسلة الأعمدة هذه. كما أن هناك أعمدة خاصة تقام خلال موسم الحج فقط ليستريح عندها الحجاج ويطهروا أنفسهم ويرتدوا ملابس الحج.

إن الترتيب الفعلي لمناسك الحج المختلفة التي يؤديها الحاج معروف جيداً إلا أنه على سبيل التوضيح يمكن تلخيصه كما يلي:

لنفترض أن الحاج قادم على جمل ومن جهة الشرق. فعند وصوله الأراضي المقدسة ينصب خيمته في حوض النهر الجاف المسمى «الباتا» /على بعد أميال ثلاثة من المدينة/ وهو المكان الرسمي الذي يجب أن يستريح فيه ويقوم بالتطهر والاغتسال اللازم والوضوء بالماء الذي يجده تحت السطح الرملي لحوض النهر الجاف. يرتدي الحاج ملابس الإحرام الخاصة، وهي بيضاء للرجال وخضراء للنساء، يستمر في ارتدائها حتى يوم الأضحى في العاشر من ذي الحجة.

قد يصل الحجاج الموسرون اليوم في السيارات، إلا أنهم يقومون بالتطهر والوضوء على حدود الأراضي المقدسة ولكن في مكان يدعى «المَغْسَل» والمفترض هنا أن الحاج قادم من الشرق.

ينطلق الحاج الآن نحو مكة عاري الرأس حافي القدمين، وبوصوله إليها يخيم فيها، مع عائلته أو بدونها، في مكان معين يخصص له إذا كان قادماً على الجمل. أما الموسرون ومالكو السيارات فينزلون في فنادق أو بيوت خاصة، بعد وصوله ببرهة وجيزة يتوجه الحاج برفقة مرشد خاص (مُطوِّف) مهمته تتلخص في أن يرشد الحاج ويوضح له ما عليه أن يفعله كما يعلمه الأدعية والشعائر. يتوجه الحاج نحو المسجد الكبير الذي يعرف ببيت الله. فيدخله ويطوف بالكعبة سبع مرات ويقبل الحجر الأسود المحروس من قبل عدة رجال مهمتهم منع الازدحام بغية تهيئة الفرصة للجميع للوصول إليه. والحجرَ الأسود كما هو معروف لدى العالم مبني على الجدار الخارجي للكعبة بارتفاع قامة رجل تقريباً. ينتقل الحاج بعد ذلك إلى الجري بين هضاب الصفا والمروة ثم يلتفت إلى شعائر أخرى كزيارة مقام إبراهيم وشرب الماء من زمزم... الخ.

قد يصل الحاج إلى مكة مبكراً يومين أو ثلاثة أيام. في هذه الحال يمكن له أن يقوم بما أسلفنا ذكره تكراراً كل يوم إذا رغب فهي تضيف إلى حسناته المزيد.

في الصباح الباكر لليوم الثامن من ذي الحجة يتوجه الحاج إلى (منى) التي تبعد

حوالي عشرة أميال عن مكة حيث يخيم هناك، وهو ما يزال بلباس الإحرام. وفي صباح التاسع وباكراً، يغادر مخيمه مخلفاً وراءه نصف حاجياته ووجهته جبل عرفات، وهو هضبة مخروطية تبعد عن (منى) حوالي ثمانية أميال. يتناول طعام الغذاء مبكراً. وفي الساعة الثامنة على التوقيت العربي وعند جبل عرفات ينطق بالشهادتين وهو على جملة في وضعية المتضرع والمتوسل حاملاً ما خف من أمتعته. تستمر هذه الشعيرة حتى غروب الشمس أي الثانية عشرة بالتوقيت العربي.

حالما تغيب الشمس يندفع الناس عائدين إلى منى والتي يقع بالقرب منها موضع الرجم فيخيم الحجاج هناك تلك الليلة (يصل الحاج منى حوالي التاسعة ليلاً).

وفي صباح العاشر من ذي القعدة يبكر الحاج بالذهاب إلى موضع الرجم، فيجمع سبع حصوات يرميها على العمود الأوسط الذي يمثل إبليس والآخر الأصغر منه والذي يمثل أولاد إبليس. وقد أحيط كلا العمودين بجدار غير عالٍ.

بعد الانتهاء من الرجم يضحي الحاج (بذبح خروف أو جمل أو معزى أو عجل) ويخيم ليقضي ليلته الثانية. في الصباح الثاني يقوم برجم العمود الأوسط، وفي الصباح الثالث يعاود الكرة برجم العمود الأصغر. ومن المهم معرفته أن من الواجب على الحاج أن يقضي في منى هذه الليالي الثلاث. إلا أنه يستطيع إذا شاء خلال هذه المدة ـ لا سيما إذا كان يمتلك سيارة ـ أن يذهب إلى مكة ويطوف بالكعبة. ولكن عليه أن يخرج منها مرة أخرى.

بهذا تنتهي شعائر الحج. ويستطيع الحاج الآن أن يخلع ثياب الإحرام، ويغتسل ويحلق ويرتدي ثيابه العادية التي يجب أن تكون نظيفة وجديدة، كما يمكنه العودة إلى مكة استعداداً للذهاب إلى المدينة إذا لم يكن قد زارها أثناء قدومه.

من الضروري التأكيد هنا أن شعيرة النطق بالشهادتين عند عرفات ذات أهمية كبيرة بالنسبة للحاج. بل هي أكثر شعائر الحج أهمية. أما الذبح فهي الشعيرة التي تدل على أن الحج قد انتهى ويمكن للحجاج بعده أن يعودوا لبيوتهم وهو اليوم الذي يعرف بعيد الأضحى.

هذا ويمكن للبدوي، إذا أحب أثناء الوقوف على عرفات أن يرتدي عباءته فوق ملابس الإحرام.

منذ الأول من ذي الحجة وحتى العاشر منه ليس للحاج أن يقص شعره أو يقلم أظافره. أما بعد انقضاء الذبح فله أن يغتسل ويحلق شعره ويقلم أظافره ويرتدي

ملابسه العادية. ومن عادة الرجل البدوي أن يقص ذوائب ضفيرتي شعره بعد أن يلف نهاية الضفيرة على إصبعه ثلاث مرات ويقص ذلك المقدار. كذلك المرأة تقص شعرها بنفس طريقة الرجل الذي يزيد عنها، والذي يقص قليلاً من شعر جبهته.

إن زيارة المدينة ليست إلزامية للحاج ولكنها تعتبر سُنَّةً ويمكن القيام بها قبل أو بعد الحج.

إذا طرأ ما يمنع الحاج من الوقوف على عرفات كأن يصاب بمرض أو يتعرض لحادث فإن حجه يعتبر باطلاً لاغياً ولو كان قد أدى جميع الشعائر. مما يؤكد مرة أخرى أن الأساس في الحج هو الوقوف على عرفات والذي يجب أن يتم في اليوم التاسع لذي الحجة.

والجدير بالذكر أنه إذا كانت المرأة في دورتها الشهرية فليس لها أن تؤدي شعائر الحج لأنها غير طاهرة وليس هناك ما يجعل منها غير ذلك وهذا طبعاً ما يخيب الأمل[1].

من المعتاد لكل حاج يدخل حدود بيت الله أن يطوِّف بالكعبة قبل أن يقف على عرفات. إلا أنه يستطيع أن يفعل ذلك بعد الوقوف على عرفات والعودة من منى. إذا توافر لديه الوقت فبإمكانه الطواف قبل مغادرة مكة.

ملاحظة:

يقول الإسلام إن بئر زمزم هو نفس البئر الذي أوجده الله بمعجزة لهاجر التي كادت تموت عطشاً. والصفا والمروة هما نفس الرابيتين التي كانت هاجر تجري بينهما عندما خافت أن يهلك ابنها إسماعيل في البرية. كلا الموقعين يقعان في حدود مكة المقدسة اليوم.

ملاحظة حول عيد الأضحى:

يحتفل المسلمون سنوياً بهذا العيد لإحياء ذكرى رغبة إبراهيم بالتضحيةَ بابنه إسحق، أو كما يعتقد المسلمون ابنه إسماعيل، على جبل عرفات.

إنه عيد الأضاحي بالدرجة الأولى بالإضافة إلى كونه فرصة لمنح الصدقات

---

(١) سبق التعليق على هذا الخطأ الذي وقع به ديكسون وقلنا إن حج الحائض صحيح وتؤدي جميع المناسك ما عدا الطواف.

والمرح. كما يجتمع بعض المصلين في مكان فسيح في الهواء الطلق ليلقي أحدهم خطبة. إلا أن الأكثر أهمية هو أن يضحي كل مسلم بخروف أو جمل في صباح العيد إذا كان يطيق ذلك. ويتم إحضار الأضحية من قبل كل حاج إلى مكة، أو من قبل وكيل عنه إذا لم يتمكن من إحضارها بنفسه، ويتم ذبحها في سهل منى بالقرب من مكة كتتويج للحج العظيم.

إن الحج إلى مكة، الذي يتوّجه عيد الأضحى، فريضة على كل مسلم بالغ ذكراً كان أم أنثى في حال توافر الأسباب التي تمكنه من الرحلة. فهو ليس أحد أركان الإسلام فقط بل هو أحـد أقوى روابط الاتحاد. وكان له تأثير هائل في مجال التبشير والدعوة. كما كان القوة العظيمة التي تدفع بعالم المسلمين سنوياً وبازدياد مضطرد للحج إلى مكة التي ليس لها منافس.

يمكن تلخيص الشعائر التي على الحاج إلى مكة أن يتبعها كالتالي:

أ ـ عند الوصول إلى حدود الأراضي المقدسة في مكة، وعند أعمدة الحدود يرتدي الحاج لباس الإحرام ورأسه عار. وبعد أن يتوضأ الوضوء الشرعي، يذهب لزيارة المسجد الحرام ويقبل الحجر الأسود الموجود عند الكعبة في منتصف الفناء.

ب ـ يطوف بالكعبة سبعة أشواط ثلاثة منها بسرعة والباقي ببطء.

ج ـ بعد ذلك يبتهل إلى الله قائلاً (يا الله، يا رب البيت العتيق، اعتق رقبتي من نار جهنم واحفظني من كل عمل شرير واكفني بما رزقتني وباركني).

د ـ عند مقام إبراهيم (في المسجد الحرام أيضاً) يدعو الحاج مرة أخرى.

هـ ـ يشرب من البئر المقدس (زمزم) ذلك النبع الذي أنقذ هاجر في البرية كما يقبل الحجر الأسود مرة أخرى.

و ـ يغادر المسجد الحرام ليسعى بين الصفا والمروة التي تقع خارج حدود المسجد الحرام.

ز ـ أخيراً يزور جبل عرفات الذي يبعد بضعة أميال عن مكة، وبرفقة آلاف لا تحصى من الحجاج يؤدي الشهادة على عرفات.

ح ـ في طريق عودته، يتوقف عند منى ليرمي الأركان الثلاثة: الشيطان الأكبر والأوسط والأصغر كل منهم بسبع حصوات صغيرة.

ط ـ أخيراً ذروة الحج العظيم بالتضحية في سهل منى، وبه ينتهي الحج.

ملاحظات:

١ ـ زيارة عرفات تتم في اليوم الثامن من ذي الحجة حيث يخيم الحاج هناك. وفي صباح التاسع منه يؤدي الشهادة ليغادر بعد ذلك إلى منى ويصلها ليلاً. فينام فيها ليستيقظ في صباح العاشر ويضحي وهو أول أيام عيد الأضحى. بعد ظهر هذا اليوم يقوم برجم الأعمدة الثلاثة ثم يقضي يومين يعود بعدهما إلى مكة.

٢ ـ لباس إحرام الرجال بلون أبيض أما النساء فأخضر.

٣ ـ خلال المراحل الأخيرة للحج يمكن للحاج أن يقص شعر رأسه وأظافره ويبقى عاري الرأس إلا أن البدوي لا يقص من شعره سوى ذؤيبات قرون شعره.

الفصل العشرون[1]

الفصول والرياح في الكويت

فصول السنة الأربعة المعروفة في الكويت كما هي في كل مكان:

- **الربيع**: ويمتد تسعين يوماً هي شباط وآذار ونيسان.
- **الصيف**: ويمتد تسعين يوماً وهي أيار وحزيران وتموز.
- **الخريف**: ويمتد تسعين يوماً وهي آب وأيلول وتشرين الأول.
- **الشتاء**: ويمتد تسعين يوماً وهي تشرين الثاني وكانون الأول وكانون الثاني.

ويعرف أشد الأوقات حراً في الصيف بـ (القيظ) مثال (شدة القيظ). أما الفصل الماطر في الكويت ونجد فيعرف باسم (الوشم) ومدته خمسون يوماً، تحسب ابتداءً من ظهور نجم سهيل الذي يظهر في أول أيلول من كل سنة، فهو لذلك لا يرى في الكويت قبل السابع من أيلول. لذلك يقال (عند شهر السيل، تلمَّس التمر بالليل) أي ان التمر ينضج تماماً. أما الاعتدال الربيعي فيحسب محلياً بنضوج ثمار شجرة السدر فيقال (إذا استوى الكنار تساوى الليل بالنهار). وهو قول عربي.

يقسم الفصل الحار إلى ثلاث عشرة مرحلة، كل منها تتعلق بارتفاع برج من الأبراج. فعلى سبيل المثال: بعد الربيع يأتي الصيف المبكر مع ظهور برج الثريا، يأتي بعدها بالترتيب برج الجوزاء الأول ثم الثاني ثم مرزم، ثم كليبين وأخيراً سُهيل.

بعد ذلك بثلاثة عشر يوماً يبدأ الفصل المعروف باسم الصفري وهو نفس المدة

---

(١) تضمن الفصل التاسع عشر بحثاً عن الدعارة، وقد آثرنا حذفه نظراً لما تضمنه من الدس والأخطاء والبعد عن الحقيقة. والعجب أن البحث المذكور لم يرد مع الفصل الثالث عشر عن الأخلاق بل ورد بعد بحث الحج مباشرة. فما الذي قصده ديكسون!..

التي تسبق مطر الخريف، أو هو المدة الانتقالية بين أواخر الصيف (القيظ) التي تمتد من مرزم حتى سهيل.

تقع مدة الكليبيـن في الكويت في شهر آب وهي معروفة بأنها المدة الأشد حراً في الصيف، وهي تترافق إما بسكون مطبق أو برياح رطبة قاتلة تأتي من الجنوب الشرقي (الكوس).

إن ظهور نجم سهيل بالنسبة لعرب الجزيرة العربية يعني نهاية فصل الصيف. ففي الكويت، إذا كانت السماء صافية فبالإمكان رؤية نجم سهيل عند الجنوب في السابع من أيلول حوالي الساعة الثالثة صباحاً. وهو يشكل قوساً صغيراً عبر السماء ثم يختفي من الجنوب مرة أخرى.

عند ظهور نجم سهيل تعم الفرحة ويتبادل الناس التهاني في ذلك اليوم. (لقد رأيت ذلك النجم في أوقات مختلفة تمتد بين السابع والخامس والعشرين من أيلول على امتداد السنوات التي أقمتها في الكويت). ويقال إنه من الممكن رؤية نجم سهيل في نجد قبل عشرة أيام من رؤيته في الكويت.

أسماء أنواع الرياح

عموماً، هنالك نوعان رئيسـان من الرياح في الكويت، كما هي الحال في كل الخليج (العربي) وهما رياح الشمال والكوس.

رياح **الشمال** هي رياح شمالية غربية والأخرى جنوبية شرقية تهب فوق الخليج (العربي). وتعتبر رياح الشمال مانحة للحياة لكونها جافة باردة في معظمها.

بينما رياح **الكوس** مميتة لأنها ثقيلة محملة بالرطوبة. هذا إلى جانب كونها تسبب الخمول العقلي والجسمي ولها تأثير يجعل الشخص يتعرق بغزارة مما يسبب الضيق.

أما في الشتاء فكما هو متوقع، رياح الشمال جليدية باردة كأبرد الرياح الأوروبية وتسبب معاناة شديدة للإبل والبدو بشكل عام. بينما رياح الكوس تحمل معها الحر والراحة. وإذا أخذنا كل الأمور بنظر الاعتبار، فرياح الشمال مفضلة على الكوس التي يمكن تشبيهها برياح (السيروكو) التي يعاني منها سكان إيطاليا وجنوب فرنسا وحتى أسوأ بكثير.

رياح الشمال والكوس يتعرض لهما حتى سكان الداخل كالرياض عاصمة العربية السعودية وهما (الرياح) معروفتان بهذين الاسمين من البصرة حتى عُمان.

بما أنه في مكان كالكويت والخليج العربي، يعمل العديد من السكان في البحر

فقد توجه الاهتمام الأكثر لدراسة أنواع الرياح في أوقات معينة. هذه الأنواع أدرجها فيما يلي حسب توالي الفصول:

الرياح السائدة في الخليج العربي

المدة التقريبية من - إلى	اسم الرياح	ملاحظات
٢ كانون ثاني - ٧ شباط	البطين[1]	عادة تبدأ مع رياح الشمال ثم تتحول إلى رياح شرقية وتستمر على هذه الحال.
٢٦ شباط - ٨ آذار	العجوز	رياح شمالية قوية جداً تستمر على الأقل خمسة أيام وتتحول أحياناً إلى رياح الكوس فجأة.
١٥ آذار - ١٠ نيسان	السهيلي	وهي رياح حارقة تهب من الجنوب والصحراء ويقال عند هبوبها أن الصيف المبكر قد بدأ.
١٥ نيسان - ٢٧ أيار	بارح الثريا أو بارح الرايات	تبدأ عادة برياح الشمال العنيفة، ولكنها تتبدل بين الحين والآخر، وهي عادة ليست قوية جداً. لا يبحر العاملون في البحر خلالها. ويقال إن الثريا تتوق إلى تدمير البحارة المساكين في هـذا الفصل.
٩ حزيران - ١٦ تموز	بارح الجوزاء أو بارح الكبير	تهب رياح الشمال قوية خلال معظم هذه المدة ويقال إنها تهب وتتوقف لمدة أربعين يوماً وتدعى أحياناً (الأربعين)

(١) قبلها برد المربعانية وعدد أيامها ٤٠ يوماً، وفيها أشد درجات البرودة المرعبة والخطرة التي تتكرر كل شتاء لما تسببه من زمهرير وأمراض مختلفة منها الأنفلونزا الحادة.

المدة التقريبية من - إلى	اسم الرياح	ملاحظات
		والأوروبيون يطلقون عليها خطأً اسم (الشمال).
١٦ تموز - ٣٠ تموز	مرزم	رياح الكوس أو الرياح الجنوبية الشرقية الرطبة وهي مدة مرهقة جداً.
١ آب - ٢٠ آب	الكُلَيْبِيْن	سكون مميت في هذه الفترة أو تهب رياح الكوس المخيفة الرطبة. هذه المدة أشد وأسوأ أوقات الحر في السنة.
١ أيلول - ٢٥ أيلول	ظهور نجم سهيل في الكويت(*)	حسب ما يقوله العرب، إن ظهور نجم سهيل يعني نهاية الحر. إنها حقيقة غريبة، فعند ظهور نجم سهيل وعلى الرغم من أن ميزان الحرارة يشير إلى درجات عالية، إلا أن طبيعة ونوعية الحرارة تتبدل ويصبح كل شيء أقرب إلى الاحتمال حتى أنك إذا تركت الماء في الهواء الطلق ليلاً تجده بارداً عند الصباح.
١ تشرين أول - ٣ تشرين ثاني	حلول فصل الوسم	وهو الفصل الماطر، والمدة هذه قابلة للتبدل كثيراً. وهي تبدأ برياح الكوس القوية التي تنقلب إلى رياح غربية أو شمالية غربية. إذا هطلت المطر في الصحراء وهذا ما يحدث غالباً، فالبدوي يقوض مخيمه حالاً ويغادر الآبار التي قضى الصيف بجوارها

(*) حسب قول شيخ الكويت يظهر نجم سهيل فعلاً في الأول من أيلول كل سنة. ولكن بسبب الضباب والغبار نادراً ما يرى إلا بعد بضعة أيام (المؤلف) (هو الشيخ أحمد الجابر الصباح العتبي ١٩٢١ - ١٩٥٠).

المدة التقريبية من - إلى	اسم الرياح	ملاحظات
		ويتوغل في الصحراء. وفي حال هطول المطر في فصل الوسم فسيتبع ذلك ظهور الكمأة والفطر بشكل مؤكد.
٢ تشرين ثاني - ٢٣تشرين ثاني	أحيمر	تغلب عليها رياح الكوس. يندر إبحار المراكب لرحلة طويلة خلالها. ففي تشرين الثاني يعتبر فصل الأحيمر خطراً على العاملين في البحر والبحارة ومن الصعب التوغل في مياه الخليج.
٢٣ تشرين ثاني - ١ كانون ثاني	المربعانية	تبدأ برياح الشمال القوية جداً ثم تتحول إلى رياح غربية في الصباح الباكر وتنتهي إلى الشرق بعد الظهر.

وهذه أسماء تطلق على الرياح اليومية في الكويت حسب الجهة التي تهب منها:

ياهي: رياح شمالية.
شمال: رياح شمالية غربية.
شامي: رياح شمالية غربية مع رياح غربية.
غربي: رياح غربية.
قبلي: رياح جنوبية غربية.
سهيلي: رياح جنوبية.
كوس: رياح جنوبية شرقية.
شرقي أو مُطلعي: رياح شرقية.
ناشي: رياح شمالية شرقية مع رياح شرقية.

الصيف

الصيف المرعب أو الطقس الحار، هو الفصل المقيت لدى الإنسان والحيوان على حد سواء في الكويت وفي الصحراء. يقال إنه يبدأ شديداً منذ الأول من أيار

وينتهي في الثلاثين من أيلول. والبدوي لا يلجأ إلى ضرب مضارب قرب الماء منذ بداية أيار، ولكنه في ذلك التاريخ يبدأ تدريجياً بالتحرك نحو البقاع التي اختارها سابقاً لإقامة مضاربه في الصيف وهي عادة الآبار التي سيقيم خيامه حولها خلال أشهر الحر.

إذا كان فصل الربيع جيداً، ووفر كثيراً من أراضي الرعي، فإنه يؤخر بقدر امكانه موعد بدء الرحيل نحو الآبار. أما إذا كان العكس فإنك ستراه في العشرين من أيار مستقراً استقراراً إلزامياً لمدة خمسة أشهر من الكسل والإزعاج الجسماني.

وبسبب الاهتمام بالشمال الشرقي للجزيرة العربية، فيما يلي أشهر أراضي مضارب البدو من الشمال إلى الجنوب:

أ ـ **صفوان**: جنوب حدود الكويت الشمالية مباشرة، في أراضي العراق.
ب ـ **الجهرا**: عند رأس خليج الكويت.
ج ـ **الكويت**: (آبار الشامية والدسمة) خارج مدينة الكويت.
د ـ **الصبيحية**: على الحدود الجنوبية للكويت.
هـ ـ **الطويل**: في الجنوب الغربي لجبل وارة وعلى بعد عشرة أميال شمال غرب الصبيحية في الكويت.

و ـ **الوفرة**: في المنطقة الكويتية المحايدة.
ز ـ **عرك**: على الحدود الجنوبية للمنطقة المحايدة.
ح ـ **القرية العليا والقرية السفلى واللصافة واللهابة والقرعة**: في أراضي مطير الصمان /١٧٠/ ميلاً إلى الجنوب الغربي من الكويت (العربية السعودية).

ط ـ **حفر الباطن**: في وادي الباطن (العربية السعودية) /١٥٠/ ميلاً إلى الجنوب الغربي من الكويت.

ي ـ **العجيبة**: في أراضي حرب القبلية إلى الجنوب الغربي من مطير الصمان (العربية السعودية).

ك ـ **نقير، نطاع، العوينا، الصرار**: تقع في قلب الحسا في منطقة وادي المياه (العربية السعودية).

ل ـ **القطيف، الهفوف**: في جنوب الحسا (العربية السعودية).

هنالك أيضاً **الموقع الرباعي الأضلاع في المنطقة المحايدة العراقية** والواقعة على بعد /١٤٠/ ميلاً إلى الغرب من الكويت وهي معروفة باسم (طوال الضفير)

وتتألف من العديد من مواقع الآبار كالدليمية، والرخيمية، والجليدة، والثميرية.. الخ.

حسب القانون القبلي، كل بئر من الآبار المذكورة يعود إلى قبيلة أو عشيرة ويمكن نظرياً إبعاد الغرباء عنها. إلا أن الواقع وفي ظل حكم آل سعود وآل الصباح، سمح لبعض القبائل أو العشائر اليوم أن تستفيد من هذه الآبار، بما أنه ليس هناك ازدحام ولا عداوة بينهم وبين المالكين الأصليين، فنشأت قاعدة مفادها أن كل قبيلة من دولة أخرى تقيم مضاربها عند هذه الآبار عليها أن تدفع الزكاة للحكومة المركزية التي حلت ضيفة عليها.

أول علامات قدوم الصيف جفاف كل الأعشاب، وظهور السراب، الذي يتماوج في كل مكان على شكل بحيرات صغيرة، والعواصف الرملية، وهبوب الرياح الساخنة كما لو أنها قادمة من فرن عظيم يدفعها منفاخ هائل. كما يصبح وهج الشمس شديداً ملزماً ساكن الصحراء بلف الكوفية عبر وجهه. ويجعل المسافر يخطىء في تقدير أبعاد الشجيرات والخيام والرجال ولا سيما في منتصف النهار وعند اقتراب الليل.

في هذا الفصل يشعر كل من الإنسان والحيوان بالحاجة للشرب كثيراً لذا فمن الضروري أن تكون الخيمة أقرب ما تكون لمصدر الماء. أما النسوة فهن أيضاً في بيوت الشعر يتأثرن بالشمس، فيضعن أسقفاً مستعارة من الزعفران أو بسْطاً ملونة فوق رؤوسهن داخل الخيمة، ليبعدن عن أنفسهن تلك الأشعة اللاذعة.

يضاف إلى كل ما سبق أن كلاً من الرجال والنساء يزدادون نحولاً بشكل واضح. هذا إلى جانب إصابة وجوههم بسفعة شمسية غامقة أكثر من تلك التي يتعرضون لها في الشتاء.

إن أكثر سمات هذا الفصل سوءاً هي العواصف الرملية التي تتقارب بشدة أوقات هبوبها حتى حزيران، حين تصبح البلاد وكأنها مغطاة بظلّة دائمة من الضباب الرملي الذي يستقر في المنخرين والعينين والحنجرة. تتناوب مع العواصف الرملية رياح خفيفة قادمة من الجنوب الشرقي، أو سكون مميت يتخلله رطوبة ثقيلة كالندى. وهذان النوعان مرهقان للغاية.

بحلول الخامس من حزيران يتجمع شعب الصحراء، أو يكون قد تجمع ببطء في مناطق الآبار، وخيم قرب مصادر الماء. فإذا كانت مناطق الآبار هذه عامة ليست

ملكاً لأحد، تجمعت آلاف عديدة من الخيام حولها وهي متقاربة من بعضها قرب مصادر الماء. أما الشيوخ وذوو الشأن فتقع خيامهم خارج هذا التجمع بالنظر لحجم وعدد أعمدة خيامهم.

في الجهراء، على سبيل المثال، وفي عام ١٩٣٥ عندما خيمت قبائل الكويت وضفير وشمر (عبده) والدهامشة (عنزة) وفروع عجمان، كان المنظر فريداً. فعند بئر واحدة تجمع أكثر من ثلاثة آلاف بيت شعر أسود في منطقة لا تزيد مساحتها عن ميل مربع واحد.

في حوالي العاشر من حزيران، إذا كانت السنة عادية، فإن شمال شرق الجزيرة العربية وسواحل الخليج العربي ستتعرض لما يعرف برياح (البارح) ومن المفترض أن تستمر حتى السادس عشر من تموز، بين هبوب وتوقف (أربعين يوماً). إلا أنها يندر أن تستمر أكثر من ثلاثين يوماً. هذه الرياح تهب من الشمال الغربي، وهي جافة وتعرف محلياً بأنها مانحة للحياة، وتجعل الغريب يخطىء تقدير مدى ما ستصل إليه الحرارة، ويظن أن الصيف لن يكون سيئاً. ثم تبدأ العواصف الرملية اللاذعة واحدة بعد الأخرى مختلفة في درجات كثافتها وتسببها في الإزعاج حتى تجعل من صحراء ومدينة الكويت منطقة ذات مظهر وسخ تعيس. بينما يبدو على الرجال والنساء اللاهثين أنهم لم يسبق لهم أن اغتسلوا أبداً.

بين العشرين من أيار والعاشر من حزيران تصل الحركة على ضفاف البحر في الكويت أوجها، ففي هذه المدة تتهيأ قوارب صيد اللؤلؤ لموسم الغوص. وعلى الرغم من العواصف الرملية والحرارة والمزعجات الأخرى، نجد مالكي القوارب يزيتونها وينظفونها ويجمعون العاملين عليها، كل ما تسمعه هو همهمة دائمة ليلاً ونهاراً، ثم يسمع الصياح والغناء عندما تبحر المراكب نحو المياه العميقة.

هذا ولا يقتصر الاشتراك في الغوص على السواد الأعظم من العاملين في البحر من الكويت، بل ينضم إليهم كثير من بدو العوازم ومطير وعجمان قادمين من مضاربهم الصيفية في الداخل ليجربوا حظهم في يانصيب موسم الغوص هذا.

مناسبة أخرى تثير الحركة والضجة، ففي نفس الوقت تقريباً تعود المراكب التجارية ذات الشراع الواحد بعد غياب سبعة أشهر وراء البحار قادمة من أماكن بعيدة كزنجبار والحُديدة وساحل الهند الغربي. تعود هذه المراكب إلى مينائها الأم (الكويت). ثلاثون أو أربعون من (البغالة) و (البوم) و (القوطية) و (الدانجية) تصل محملة بالتوابل والأخشاب.. الخ. ترسو هذه المراكب بانتظار موسم تصدير التمور

من شط العرب في تشرين الأول والثاني، حين تبحر مرة أخرى حاملة تلك التمور إلى أفريقيا الشرقية والموانىء الهندية.

بعد السادس عشر من تموز تفسح عواصف الصحراء الرملية الحارقة المجال للرياح الخفيفة لتبدأ بالهبوب عبر الخليج العربي، وهي محملة بالرطوبة الثقيلة مما يجعل درجة الحرارة تتدنى إلى /١٠٠/ درجة فهرنهايت[١] أو أقل. إلا أن الإزعاج يصبح أكثر من ذي قبل عندما كانت درجة الحرارة /١٢٠/[٢] درجة فهرنهايت والهواء جافاً. هذه المدة مرهقة بشدة لكل من الإنسان والحيوان. إنه موسم (مرزم).

يحل الآن شهر آب وهو أصعب الأشهر وأكثرها حراً على الإطلاق، ويعرف باسم (الكليبين). وهو وقت السكون المطبق مع الندى الثقيل ليلاً ونهاراً. إنه شهر طويل مضجر للرجال والنساء على السواء، يأتي في الوقت الذي قاربت فيه قدرتهم على الاحتمال على نهايتها. تعرق غزير مستمر في الليل والنهار. ولا يمكنك تحمل أدنى حد ممكن من الملابس، ودرجة حرارة البحر تتراوح بين /٨٥ ـ ٩٠/[٣] درجة فهرنهايت وماء الاستحمام ساخن. فالحرارة اللاسعة تهاجم الجميع دون استثناء.

إن البدوي ـ بشكل خاص ـ يشعر بالحرارة المشبعة بالرطوبة تخترق عظامه مسببة له اعتلالاً جسدياً من جميع النواحي. الجميع الآن يتوقون ويبتهلون بانتظار ظهور نجم سهيل البراق الذي يجلب الفرج بقدومه. وتتبدى شدة التوق لديهم، في أن الرجال بعد الخامس والعشرين من آب يستيقظون قبل الفجر بساعات في محاولة لرؤية ذلك النجم المبارك. أخيراً يتحقق الأمل في شكل رسول على جمل قادم من نجد ويحمل معه أنباء تقول انه أمكن رؤية نجم سهيل في القصيم العليا قبل عشرة أيام. لذلك فمن الضروري أن يظهر الآن في الكويت. تتضاعف المراقبة ويقوم الصيادون الرشايدة ذوي العيون الحادة بمراقبة الطرف الجنوبي من السماء حوالي الثالثة صباحاً في الجهراء والصبحية لأن السماء فيهما أقل ضباباً من الكويت. أخيراً يظهر النجم وينتشر الخبر بين البدو لتتعالى الصرخات (لقد رؤي سهيل، لقد شوهد سهيل من قبل فلان، حمداً لله الرحيم، القيظ انتهى).

يعم الفرح العظيم إذ يعتقد العربي أن الفرج قادم حالاً. وهو بالفعل يبدأ

---

(١) تعادل ما يقارب ٣٨° بمقياس السانتيغراد.

(٢) تعادل ما يقارب ٥٠° بمقياس السانتيغراد.

(٣) تعادل ٣٠ ـ ٣٢° بمقياس السانتيغراد.

الإحساس بالبرودة. ولكن الأوروبي لا يدرك من ذلك إلا القليل. إن قناعة العرب في هذا المجال تتلخص في أن جسم الإنسان يصبح الآن أكثر برودة، إذ لم يعد العطش مؤلماً، والماء الذي يطرحه تعرقاً في الليل يبرد عند الفجر بينما كان في السابق يبقى حاراً.

بحلول الخامس والعشرين من أيلول يستطيع كل الناس الاستمتاع برؤية نجم سهيل. أما الخامس عشر من تشرين الأول فيبشر بموسم (الوسم) الممتع أو فصل المطر عندما تظهر الغيوم في السماء بعد ستة أشهر من احتجابها.

إن أي شخص يجرب الصيف ضمن حدود الخليج العربي، ويعيش مع البدو خلال تلك المدة المتكررة، لا بد وأن يقدر ضخامة الفرج الذي يأتي مع قدوم موسم المطر.

الأمطار

قد يهطل المطر في أي وقت اعتباراً من مطلع تشرين الأول حتى الثالث من تشرين الثاني. ويترافق عادة بسلسلة من العواصف الرعدية، عظيمة وغريبة تلك الفرحة التي تعم في الكويت عندما تحمل النسائم رائحة بشائر المطر القوية التي تسقط على الرمال الجافة. لقد وصفت في الفصل الثالث منظر الرجال والنساء والأطفال عندما يندفعون خارجاً بمرح وانفعال لجمع الماء النفيس في كل آنية أتت أيديهم عليها. بينما الجمال تغدو في أوج صخبها تعبيراً عن ابتهاجها، في حين تسمع صخب ثغاء الخراف الفوضوي. إن معظم سكان المدينة يعتمدون ـ كمصدر للماء ـ على شط العرب الذي يبعد مئة ميل. لذا نجدهم يتصرفون كالبدو ويحرصون على جمع الماء المتساقط عن أطراف سطوح المنازل في كل آنية.

في هذا الوقت من السنة يظهر زائر سنوي في الصحراء. إنه (بنت المطر) وهي عبارة عن عنكبوت صغيرة ممتلئة الجسم بلون قرمزي لامع مخملي، تظهر من مكان غير معروف حالما ترطب الأمطار الأرض.

أما الزائر الثاني في الكويت فهو في هيئة مجموعة من البدو المسنين يحملون حزماً من عشب أخضر جلبوه معهم لشيوخهم المحبوبين ليقدمونه مع التهنئة قائلين (يا طوال العمر، لقد منَّ الله بالمطر الغزير في المكان الفلاني حتى تشكل السيل بارتفاع العديد من راحات اليد. وقد أتينا لنريكم العشب الذي نما). ويحصل حاملو الأنباء

السارة عادة على هدايا مناسبة. يلي هذا خبر مفاده أن بحيرات تشكلت في المكان الفلاني وستدوم عدة أيام.

آخر الأنباء كلها يكون عن الحبارى وظهورها. واعتباراً من الشيخ حتى الغلام يخرج محبو الصيد ليعودوا إلى المدينة بالمئات من الطيور لتصبح طعاماً في العديد من مضارب البدو. إنها حتماً هدية أخرى من الله.

إذا هطل المطر في تشرين الأول، فالطعام المفضل لدى البدو وهو الكمأة والفطر، سيظهران في الربيع القادم، ويشكلان العماد الأساسي لطعام سكان الخيام لعدة أسابيع. إن الكمأة والحبارى هما من غير شك ـ كالمنّ ـ الجائزة لهؤلاء الذين تحملوا حرارة الصيف.

في فصل (الوسم)، المطر تلي ظهور الاخضرار على الأرض. وفي خلال ساعات تقريباً تكتسي الصحراء الصفراء بلون أخضر شاحب متدرج، يستمر في ازدياده حتى دخول رياح كانون الأول الباردة التي يتأخر ازديادها حتى شباط وآذار. بعد ذلك تتفتح الأزهار ويبدأ غطاء الزهر بتغطية الأرض كلها. ومع ذلك فإن أعشاب تشرين الأول والثاني تصل إلى ارتفاع كافٍ يسمح للخراف أن ترعاها بدون صعوبة وهذا كل ما يريده البدوي في وقت كهذا.

الشتاء

إن المدة الواقعة بين أمطار تشرين الأول والربيع الحقيقي تعرف باسم (الشتاء)، وتمتد من الخامس عشر من تشرين الثاني حتى الخامس عشر من شباط، حين يصبح البرد شديداً إلى حد أن الرياح الجنوبية الغربية تخترق الجسم حتى العظم. بعض الرجال والنساء الذين يتحملون هذا البرد يخرجون بأحذية ذات سيقان طويلة من الصوف كما يرتدي الموسرون من الشيوخ وأتباعهم الفروة. أما البدوي الفقير فهذا أسوأ أوقاته، إذ أن جسده اعتاد على الحرارة العالية في الصيف، ومن الصعب أن يكيف نفسه مع هذا البرد القارس، وكل ما يملكه هو تلك العباءة الصيفية البالية. فهو لذلك يحس بشدة البرد أكثر من إحساسه بشدة الحر.

يعتبر برد الشتاء في الجزيرة العربية، ولا سيما في الأراضي الداخلية، بالنسبة للأوروبيين بمثابة مقوٍ مدهش. فهواء الصحراء له تأثير الشمبانيا عليهم وليالي الصحراء تعتبر تجارب عظيمة.

مع اقتراب كانون الثاني تبدأ سلسلة من الصقيع بالتشكل، تصل في عددها إلى عشرة. فعند الليل تتدنى درجة الحرارة في الداخل إلى ‎/٢٩/‏[١] فهرنهايت أو أقل حين تتجلد القشرة السطحية للماء. إنه أمر لا يكاد يصدق، التبدل بين هذا الصقيع والصيف الذي سبقه. وإذا هبت الرياح الجنوبية الغربية فهي تزيد الصقيع في الليل، ولا يمكن للإنسان البقاء حياً دون نار مشتعلة طيلة الليل.

لقد سبق لي أن زرت «كاراكورام» و«البامير»[٢] في وقت فراغي، كما قضيت شتائين في «جيلجيت» إلا أن البرد في صحراء الجزيرة العربية فاق ذلك الذي واجهته في تلك المرتفعات. والتفسير دون شك هو أن الصيف في الجزيرة العربية يستنزف قوة وحيوية الإنسان، ثم يتركه ضعيفاً لمقاومة برد كهذا.

الرَّبيع

أخيراً، يحل الربيع في الخامس عشر من شباط. فإذا كانت الأمطار جيدة كان لدينا ربيع رائع. تنمو الأزهار البرية بغزارة وفي كل مكان، فتصبح الأرض سجادة متعددة الألوان. يشعر البدوي الآن بشدة قربه من السماء أكثر من ذي قبل فإبله وأغنامه ترعى حتى الشبع وبالتالي توفر الحليب واللبن. بينما أشعة الشمس الدافئة تمنحه حياة جديدة، فيصحّ إذ أن الدنيا مشرقة الآن.

في وقت كهذا يتحرك الموسرون من الكويت، تقوم بضع مئات من العائلات بتقليد إخوتهم البدو، ويدخلون عمق الصحراء ليمتعوا أنفسهم لمدة أربعة أشهر بالحياة البدوية التي حرموا منها من وقت ليس ببعيد، ليعودوا إلى حياة الصحراء السعيدة وإلى بيوت الشعر السوداء مرة أخرى. الرجال والنساء والأطفال وحتى الشيوخ يأخذون دورهم في هذه الهجرة من المدينة. وكم هي عظيمة تلك الصحة والقوة التي تمنحهم إياها. مساكين عرب المدن هؤلاء فما زالوا حتى الآن أنصاف متمدنين يبذلون أقصى جهودهم للخروج منها أيضاً إلا أنهم لا يملكون أن يتكلفوا ثمن الخيمة. لذلك تراهم يلتجئون إلى أقاربهم من جهة الرجال لدى قبائل مطير وعجمان والعوازم.

في نهاية الربيع، يكون كل سكان الصحراء قد تزودوا بنَفَس جديد للحياة.

---

(١) تقارب - ٢° بمقياس السانتيغراد.

(٢) أعلى هضاب العالم يزيد ارتفاعها عن ٦٠٠٠م وتقع شمال أفغانستان على الحدود السوفييتية.

فالصحة بادية عليهم بجلاء، أوداجهم منتفخة وأجسامهم ممتلئة. إنه تبدل واضح في هيئتهم عما كانوا عليه في نهاية الصيف.

إن ازدياد حجم أسنام الإبل وتضخم إلية الغنم واكتساء جسم البدوي باللحم ما هو إلا قوة احتياطية لمواجهة الصيف المميت القادم.

قد يخبرك البدوي أنه يفضل الصيف، ذلك لأنه لا يملك الملابس التي توفر له الدفء، أو المؤونة التي توفر له الراحة في أشهر الشتاء. أليس بسبب الشتاء البارد يكاد جنس البدوي ينقرض؟ إنه الشتاء الذي يفرض على ساكن الصحراء أن يكون نشيطاً خشناً نحيلاً قوي البنية. فلو أنه توافر له الجو المعتدل بدلاً من الصيف الحار لوجدت جنسه بالتأكيد واحداً من أحسن الأجناس في العالم خطراً في نسبته أو حجمه.

الفصل الحادي والعشرون

العواصف الرمليَّة

العواصف الرملية أكثر المظاهر إزعاجاً في الحياة الصحراوية. لقد عرفت بعض العواصف الرملية السيئة خلال مدة خبرتي الممتدة على مدى أربع وعشرين سنة، والتي قضيتها في وادي الفرات وصحراء العراق الجنوبية والبحرين والحسا والكويت الداخلية. يبدو أن الكويت تقع دائماً فريسة للعواصف الرملية التي تأتيها مباشرة من وادي الفرات خلال الصيف، وتستمر أحياناً أياماً وليالٍ دون انقطاع. ويقال في الكويت إن العواصف الرملية تستمر إما ثلاثة أيام أو سبعة أو أربعة عشر يوماً. لا شيء في مدينة الكويت أكثر صعوبة من العواصف الرملية في عز الصيف، عندما تكون درجة الحرارة في الظل تتجاوز (١٢٠) درجة فهرنهايت والرياح الحارقة تسفع مُقَل العيون. كل شي يجب أن يكون مغلقاً بإحكام، الأبواب والنوافذ والخزائن والطعام.. الخ. إن من المستحيل تبريد البيت بفتح الأبواب والنوافذ عندما يرخي الليل سدوله لأن ما في الخارج أسوأ عشر مرات من الداخل. ومع ذلك، وعندما يحين موعد النوم في الليل فإنه من المستحيل أن تتمكن من النوم داخل البيت، حتى باستعمال المراوح الكهربائية التي دخلت البيوت أخيراً. فخلال الليل هناك الكثير الكثير من الغبار والـذرات الرملية الخشنة التي تتطاير لتدخل في العيون والآذان والأنوف والأفواه طاردة أمامها الراحة والنوم.

كثيراً ما قال لي شيخ الكويت إنه يفضل أكثر الأيام حراً على العاصفة الرملية. ففي الحرارة تستطيع، على الأقل، أن تتنفس. ولكن في العاصفة الرملية يصبح الجو كله بلون حساء البازلاء، فلا تستطيع أن ترى أبعد من ياردات. وفي الداخل عليك أن

تضيء جميع الأنوار في النهار كما يحصل لدينا في أسوأ ضباب معتاد في لندن.

خارج البيت تعاني بشدة من الأجسام الرملية التي تحملها الرياح بسرعة من سطح الأرض. إن سكان المدن لديهم من الوسائل ما يجعلهم قادرين على تحملها، ولكني أترك لقرائي أن يتخيلوا ما يعانيه البدوي العاثر الحظ وعائلته في خيامهم النفوذة المصنوعة من شعر الماعز الأسود، والخالية من الأبواب والنوافذ، لتبعد حبيبات الغبار الناعمة عن الطعام وأواني الطبخ، وتبعدها عن الوجه والملابس في حين أن درجة الحرارة أعلى بكثير مما هي عليه في مدينة الكويت.

مع كل هذا، يتعايش البدوي مع العواصف الرملية ومع الرياح الحارقة بشكل مدهش، ويبقى رغم ذلك سعيداً مستسلماً لأنه حسب قوله: (أليست ككل الأشياء من عند الله، فلماذا أتذمر إذن؟).

على الرغم من الإزعاج الذي تسببه العاصفة الرملية إلا أن لها هيبة فريدة عندما تقترب من الهبوب على مدينة الكويت، كما أن لها عظمة لا توصف في الصحراء. فأول ما يرى هو غيمة سوداء صغيرة لا تتجاوز حجم يد الرجل. تكبر هذه الغيمة حتى تغطي الأفق وهي تلتف حول نفسها مشكلة كتلة هائلة في السماء. أحياناً ترى ومضات البرق في مركز هذه الكتلة القادمة لكنك قلما تسمع الرعد.

أحياناً، تكون العاصفة الرملية مجرد حواشٍ لعاصفة أضخم ضربت الصحراء بعيداً في الشمال الغربي، وزحف غبارها نحوك بصعوبة مع نفحات الريح، فتصبح أنت وجيرانك ضمن ظلمة مصفرة قبل أن تتبين أنك تعرضت لعاصفة رملية.

في أعالي الصحراء ـ كالنفوذ والدهناء ـ يُفقد الرجال نهائياً بعض الأحيان. لا سيما إذا كانت العاصفة مترافقة برياح شديدة تسوق الرمال، عندها يكون الموت نصيب البدوي إذا تصادف وجوده على الطريق بين بئرين متباعدين ما لم تكن مدة العاصفة قصيرة.

لقد أصبح البدوي خبيراً بأخطار كهذه فإذا كانت العاصفة الرملية شديدة، يوقف جملة في الوقت المناسب وينيخه وذيله مُدارٌ نصف دورة باتجاه الريح. ثم يزحف هو تحت غطاء خاصرة الجمل وعباءته مشدودة جيداً فوق رأسه. قد يبقى على هذه الحال عدة ساعات ليس له خلالها إلا أن يضرع إلى الله أن يبدل حاله بأحسن.

لقد تعرضت مرتين فقط لعواصف رملية سيئة في الصحراء، ووجدت نفسي آنئذٍ قد فقدت الإحساس بالاتجاه كلياً. لم تكن العاصفتان بالقوة التي تجبرني على التوقف

بل تابعت، بثبات، مهمتي في محاولة الوصول إلى مخيم. في كلتا الحالتين وبعد مرور ساعتين تبين لي أني ضللت طريقي بالتأكيد واضطررت للتوقف. وبعد أن انجلى الغبار اكتشفت أني سرت في الاتجاه المعاكس تماماً لبغيتي. هذا مع العلم أني أعرف الأراضي معرفة جيدة وتعرفت على نقاط علام مألوفة عند مسيري.

إن أعظم العواصف الرملية التي رأيتها باتساع تأثيرها وعظمتها كانت في نهاية نيسان ١٩٣٢.

كان مخيمي العربي مع أصدقائي البدو قد أقيم في النهاية الجنوبية لما يسمى (سلسـلة الظهر)، وهو مكان يبعد حوالي ثلاثين ميلاً جنوب مدينة الكويت مباشرة. خيامي السوداء كانت مختفية في وهدة عريضة قريبة من الجانب الشرقي لقمة سلسلة الظهر، لذا لم يكن من السهل على البدوي المسافر أن يرى هذه الخيام وبالتالي فلن يطلب أن يضيف ليلة فيها.

أما الأرض المحيطة فكانت مغطاة بشجيرات العرفج وهي في أوج إزهارها، لتبدو وكأنها بساط ذهبي كبير. قليل من المطر يتساقط في غير وقته من العام، وقد بدت الأمور جميلة منعشة. مع ذلك كان الجو حاراً وكل الدلائل توحي أن الربيع في نهايته. وأذكر أني وزوجتي اصطحبنا السيدة (بوري) القادمة من البصرة إلى المخيم لتتعرف على حياة البدو ورافقنا ولدي الصغير وابنتي.

كانت الساعة الثانية عشرة ظهراً عندما طلبت تحضير طعام الغذاء، ثم ذهبت أتمشى مع زوجتي والسيدة (بوري). وأثناء ذلك حانت مني التفاتةنحو مخيمي فرأيت سالم المزين مع العديد من البدو حول المخيم يحدقون النظر بطريقة غريبة نحو الشمال الغربي وهم يشيرون نحو بضع خيام تقارب الست في عددها مجاورة بمسافة لا تبعد أكثر من ربع ميل. في اللحظة التالية رأيت النساء والأطفال يهرعون نحو خيامهم كما لو أن شيئاً ما أفزعهم. تلا ذلك انسدال أطراف الخيام باتجاه الأرض، وبدأت عمشة ومنيرة بالدعاء. اتجهت نحو قمة السلسلة التي كانت تبعد مئتي ياردة، رأيت من هناك كل الأفق الشمالي الغربي وقد بدا وكأنه يحترق، فذكرني بحرج النار الذي قرأت عنه في صغري. اندفعت نحو سالم أسأله عما يظن في هذا الذي نشاهده، كما سألته عما إذا كان قد سبق له أن رأى شجيرات العرفج تلتقط النار وتشتعل بشكل جماعي، فأجابني بالنفي، وأضاف أنه لم يسمع بحدث مثل هذا في كل الجزيرة العربية. وبينما كنت أسائل نفسي عما يمكن أن أفعله وأنا أجول بنظري بحثاً عن بقعة من الأرض مكشوفة أجمع فيها أهلي، شعرت بنار عظيمة تسقط فوقنا،

والسِّقاط الفاتر يضرب المخيم. ثم تلا ذلك امتداد غيمة هائلة ملتفة شديدة السواد، كالتي رأيتها عند حرق القصب في سبخات العراق، امتدت الغيمة لتغطي كل الأفق، مندفعة بموجة عظيمة نحو السماء. تحت هذا الدخان الأسود كان هناك حزام لامع كأنه النار تنبثق منه ألسنة كألسنة اللهب ذات لون قرمزي داكن ممتد بطول مئات الأقدام، تحت الحافة الوردية للسحابة الدخانية. لقد أصبت بالذعر فعلاً عندما هبط علينا ذلك الشيء الخارق للطبيعة بسرعة عظيمة.

تحولت النسمات الخفيفة الباردة فيما بعد إلى عواصف من الرياح الجليدية. لفت سالم انتباهي إلى ذلك قائلاً: (قد لا تكون ناراً). لقد كان على حق فعلاً. ولكن ماذا كانت إذن؟ بمتابعتي المراقبة لاحظت أن الرياح هدأت إلى حد ما، ولكنه كان هدوءاً غريباً. ثم تحولت إلى عاصفة قوية باردة، فتيقنت أن عاصفة رملية هائلة حمراء اللون على وشك الهبوب، وأن تلك الموجة الدخانية السوداء ـ التي ارتفعت الآن آلاف الأقدام نحو السماء مغطية كل الأفق الشمالي الغربي ـ لم تكن سوى غبار كثيف.

أما ما يشبه ألسنة اللهب التي كانت تندفع بسرعة وانتظام نحو الأسفل، فلم تكن سوى تفريغ لشحنات كهربائية تنعكس في ومضات متتابعة على الجانب الأسفل للغيمة الدخانية، وعلى أعمدة الغبار الدوامية التي انطلقت من الأرض كأنها نوافير الماء من الأرض. ولكن السؤال: (لماذا كان كل شيء يشبه النار في لونه؟) لقد آن لنا أن نعرف. وتسابقنا نجري نحو المخيم ودخلنا إلى خيامنا الكبيرة التي لم تتقوض بعد وأسدلنا الستائر الأمامية والجانبية ثم أسندنا الأعمدة بزوايا مناسبة في مواجهة الريح كما أخرجنا الرجال للإمساك بالحبال ودعاماتها.

بقيت أنا وزوجتي خارجاً، حتى وصلت العاصفة أوجها، وصار من الواضح أنها هائلة، وغبارها بلون القرميد الانكليزي. عصفت بنا ومرت خلال نصف ساعة ويا له من منظر وأصوات. كل شيء كان مغطىً بالرمل الناعم القرمزي اللون. خلال لحظات، مع ومضات كهربائية يرافقها ضجيج قرقعة حادة، يتبعها قصف الرعد الذي يدوم طويلاً منذراً بنهاية كل شيء.

صار الجو الآن مظلماً مما يجبرنا على إشعال قنديلين مخصصين لهذه الأحوال. إلا أن العاصفة كانت قد انقضت، وأصوات القرقعة بدأت تضعف بينما صوت الرعد بدأ يموت بعيداً. كل هذا انقضى خلال نصف ساعة، وكل ما تبقى من هذه التجربة الهامة المخيفة هو نسمات خفيفة باردة.

أما النساء البدويات والأطفال الذين اختبأوا خوفاً في خيمتنا الكبيرة فقد بدأوا ينشدون (الحمدلله). (لم نر في حياتنا أو نسمع عن عقاب إلهي كهذا مع أننا ظننا أن نار الله تكاد تبتلعنا وأن نهاية العالم قد أزف موعدها). ها هو سالم، بعد أن استرد شجاعته، يهدىء من روع حريمه بكلمات صاخبة: (كل شيء انتهى، لا تخافوا، قوموا إلى عملكم، أليس الطعام والضيوف بأمان؟ هل غطيتم أواني الطبخ؟ الحمد لله، الحمد لله، ماكو شي، ذهبوا الفدا). إلا أن سالم كان مصاباً بصدمة ومع ذلك بقي هادئاً بقية اليوم.

أحس أحدهم بما سيجري، فقام بتغطية أواني الطبخ قبل إفراغها من الرز واللحم. ومع ذلك، فعندما تناولنا طعام الغذاء، كان كل شيء متشرباً بالغبار الأحمر الذي كان ينزل علينا كالغلالة القاتمة. فحتى الرز كان قد اكتسب لمسة من اللون الوردي الجميل.

خلال ساعة من الزمن عاد للسماء لونها، ولكن الأراضي المحيطة بنا وحتى شجيرات العرفج، كانت ماتزال مكتسية بغطاء محمر اللون، بينما كان السطح الأصلي للأرض مغطىً بطبقة من الغبار الناعم كالثلج الأحمر بلغت سماكته ربع إنش.

أثناء عودتنا للكويت ـ في نفس الأمسية ـ كانت عجلاتنا تشق سككاً في سطح الصحراء الأحمر كما لو كنا نسير فوق الثلج. وبوصولنا علمت أن أطراف العاصفة مرت فوق المدينة وسببت بعض الأضرار. وقد قدم لي الدكتور (مايلري) ـ أحد أعضاء البعثة الأمريكية ـ وصفاً حياً لمشهد الغيمة القرمزية والسوداء الرائع، التي عبرت خليج الكويت ملتفة كالدوامة نحو المدينة. ولكن من خلال الكمية الضئيلة من الغبار الأحمر التي خلفتها العاصفة في الكويت، تبين لي بوضوح أن المدينة لم تر سوى صورة متواضعة من هذه الظاهرة، وأننا واجهنا في الجنوب العاصفة بكامل قوتها. وبالتأكيد نحن وحدنا من رأى وسمع الومضات الكهربائية والرعد العجيبين والمخيفين.

في اعتقادي أن العاصفة نشأت في بلاد ذات تراب أحمر، أي في حلب على بعد/ ٩٠٠/ ميل، أو من الممكن أنها قادمة من البتراء. وأنا أرجح الفكرة الأولى لأن الرياح كانت تهب قادمة من الشمال الغربي.

إن السنة التي حدثت فيها هذه العاصفة الرملية الهامة، تعرف اليوم لدى البدو بالسنة الحمراء. وقد أُرِّخَت بعض الأحداث ومواليد الأطفال حسبها. وهكذا ثبتت السنة الحمراء في تاريخ شمال شرق الجزيرة العربية.

الفصل الثاني والعشرون

أحاديث عجمان وقصصهم

من يومياتي الأصلية

الربع الخالي و «فيلبي»

في السابع من تشرين الثاني عام ١٩٣٣، وعلى بعد ثلاثين ميلاً جنوب الكويت، كنت مخيماً إلى جانب مضارب كبيرة لعجمان تتألف من عدة عشائر كالمصرة ، ومحفوض ، وسليمان. ولقد اغتنمت هذه الفرصة لأتدارس مع محفوض رحلة «فيلبي» عبر الربع الخالي، الذي كان العالم ما يزال يتحدث عن تجربته الفريدة. كما كنت متلهفاً لمعرفة مدى ما يعرفه البدوي العادي عنها، لا سيما هذه العشائر العجمانية الشمالية التي أقامت في الكويت وعلى حدودها، ولقد وجدت أنهم يعرفون كل شيء عن مغامرات فيلبي، وأقل قليلاً عن رحلة برترام توماس أيضاً.

كل من زنيفر ومحمد بن الحجاج ، وكذلك الحاضرون من المسنين، صرحوا جميعاً أنهم يعرفون (فالح أبو جعشة) معرفة جيدة، بالإضافة لمعظم رفاق (فيلبي) من عجمان ومرة المذكورين في الصفحة العاشرة من كتابه (الربع الخالي) [إني أحمل الكتاب معي وقد قرأت الأسماء فيه]. وقد ذكروا طواعية بعض الأحداث المسلية التي وقعت لفيلبي. وكان حديثهم عنه حديثاً عن رجل لم يبخل بماله عندما حان الوقت ليكافىء فريقه. وأضافوا إنه كان (حمقياً) أي حاد المزاج، ولكن بما أنه كان مسلماً جيداً فهذا يشفع له. وقد قال زنيفر إنه يعرف الأراضي التي مر فيها (فيلبي) حتى بئري الفاضل والمَقَينمة، علماً أنه لم يذهب جنوباً أبعد من هذين الموقعين اللذين ـ كما قال ـ هما في ديرة مُرَّة. كما أنه وصل أيضاً إلى وادي الدواسر والسُلَيِّل وإلى الآبار الموغلة غرباً، وهي رانيا وبيشة وجحش وتثليث.

من جهة أخرى، قال محمد بن‌حجاج إنه كان في نجران قرب السُليل، وتزوج هناك من فتاة أقام معها لبعض الوقت. وكانت قبيلة (يام) المنتشرة في تلك المنطقة،

لها صلة أخوة بالدم مع عجمان ومرة اللتين تنحدران أصلاً من نجران". وقال إنه في الربع الخالي زار مرة آبار أم الحديد (قرب أبار) التابعة لمرة، وإنه سمع الكثير عن المدينة القديمة التي من المفترض أنها مدفونة هناك تحت الرمال. هذا الموقع الذي يتحدث عنه يقع في أقصى الجنوب وإلى الشمال قليلاً من شِنّا (أبعد مكان في الجنوب وصل إليه فيلبي) حيث الماء هناك غير صالح للشرب.

اتفق محمد بن حجاج وزنيفر على دعوة مدينة الأشباح بـأبار. ولقد حاولت أن أجعلهم يلفظونها وَبار، إلا أنهم قالوا إن لفظهم هو الأصح. وأضاف إن قبائل الشمال وما حول الحسا يلفظون الاسم (وَبار) بينما قبائل مُرة والمناصير والعوامر يقولونه عُبار. كان هذا مجمل وجهة نظرهما التي شرحها كل من فيلبي وبرترام توماس.

فيلبي والحليب

في السابع والعشرين من نيسان عام ١٩٣٥ قضيت بعض ذلك اليوم مع بعض عشائر محفوض التابعة لعجمان، والتي كانت قد أقامت مضاربها على بعد ثلاثين ميلاً جنوب الكويت وإلى الشرق من تلال الظهر. ذهبت إلى مضاربهم التي كانت منتشرة على مساحة كبيرة إلى الجنوب من مخيمي بمسافة خمسة أميال، وجدت أن محفوض والعرجة وعشائر أخرى قد أقامت مضاربها معاً هناك.

كان العجوز زنيفر بن حَوَيْلَه، وابن عمه مُرَيْط، وفهد، والد منيرة زوجة حمد بن مِشْوَط، بين المخيمين. فدعاني عبدالله بن زنيفر إلى الغذاء (كانت معي زوجتي وزهرة وسالم المزين). تألف الطعام من خروفين وصحن كبير من الأرز تم طبخهما على الطريقة العجمانية (أي بصب الزبدة الصفراء السائلة على الأرز كصلصة). وكان اللحم لذيذاً رائعاً، وقد استمتعنا بالوليمة أيما استمتاع. ولقد تناول سكان حوالي اثنتي عشرة خيمة طعام الغذاء من بقايا الطعام الذي لم نأكله. وبينما هم يأكلون انتقلنا إلى خمية حسين بن جما وشقيقه صويان اللذين كانا محاربين شجاعين رافقا ابن الملك سعود إلى نجران خلال حملة اليمن الأخيرة عام ١٩٣٤.

خلال حديثنا اكتشفت أن هؤلاء لم يكتفوا بالمكوث في نجران، بل اتجهوا إلى الجنوب الشرقي غازين حتى حضرموت وظفار. وقد حملوا معهم من هناك عدداً من الجمال سلبوها من القبيلتين المروعتين صيعر وكَرَب. وأن صويان نفسه أحضر معه خمسة جمال (كسباً) عرض علي اثنين منها خارج خيمته. كان الجملان صغيرين بلون بني، وعظامهما أصغر من أمثالهما في الحسا. ومن الهام ـ على ما أعتقد ـ أن ترى

جمالاً مسلوبة من حضرموت ترعى في الكويت. كما أن صويان نفسه ـ كما علمت ـ قد وصل إلى صنعاء، عاصمة اليمن، وحيداً مستطلعاً وعاد بسلام.

أثناء الحديث دخل راشد بن فهد ـ ابن عم الدليل والمرشد الأول لفيلبي في رحلته عبر الربع الخالي ـ كان بجعبته الكثير من القصص عن فيلبي وحادثة الحليب الشهيرة. (ماذا كنتم ستفعلون مع تلك الناقة التي رفضت أن تعطي الحليب عندما أراد هيلبي[1] أن يشرب؟ فالجمال هكذا، لا نستطيع إجبارها أن تعطي حليبها، والله يسلمه هيلبي لا يعرف ذلك وظن أن أفراد فريقه شربوا حليبه).

كان صديق فيلبي، فالح أبو جعشة، قد تعرض لمأزق جدي في آب عام ١٩٣٥ عندما كان آمراً لحامية حدود الكويت، التي صدر إليها الأمر لسوق سجين[2]، من الرشايدة، من القرية العليا إلى الهفوف. وقد كانت جريمة البدوي هي سرقته جملين سبيعيين من قرب الرياض، وهروبه بهما إلى حدود الكويت. عند الاقتراب من الهفوف استطاع السجين الفرار بذكاء مستغلاً نوم أفراد الحامية خلال اشتداد الحر في النهار. ومع أن يديه كانتا مكبلتين فقد تمكن بالحيلة من أخذ بنادق الحامية وذخيرتهم معه، فوضعها على ظهر أحد الجملين وسلك طريقه إلى الكويت فالعراق. ومن هناك، وحباً باللهو، أرسل الجمال والبنادق لأصحابها عن طريق امرأة تعيش في الكويت وبيد واحد من نُزُل العوانا (الرشايدة).

أما عقوبة فالح لإهماله فكانت كما أمر بها المرحوم عبدالله بن جلوي ـ حاكم الحسا ـ أن تحلق لحيته أو نصف لحيته كل يوم جمعة ولمدة شهر كامل.

كيف وصل مبارك الصبَاح إلى العرش؟

(قصة حقيقية)

الأحداث المثيرة التي سأرويها وقعت في القرن التاسع عشر، حين كان التوتر سائداً في الكويت، والحياة فيها غير مأمونة. أما الشيخ محمد الصباح الذي كان يمسك بزمام السلطة، فكان كسولاً غير قادر على اتخاذ قرار، بالإضافة إلى أنه يؤمن بسياسة إتاحة المجال للنشاطات الفردية أن تنشط دون رقابة حكومية، لذلك لم يكن قادراً ولا راغباً في مواجهة الجبهة التركية الشديدة التي كانت تضغط من الشمال

---

(١) يعرف السيد فيلبي بين البدو باسم عبدالله هيلبي. (المؤلف).

(٢) اسم السجين سلمان النصافي الرشيدي. (المعلق).

باستمرار. هذا بالإضافة إلى أنه لم يكن بإمكانه السيطرة على قبائل مطير وعجمان الشمالية المتمردة، أو حصر الغزاة الصحراويين - شمر وضفير - في منطقة الخليج شرقاً. لذا كانت الحدود تشهد حالة دائمة من الفوضى الناجمة عن الغزوات والرد على هذه الغزوات. وأخيراً تضاف (الخوّة) وهي ضريبة الحماية الأثيرة لدى قبائل الصحراء الكبيرة في الجزيرة العربية، والتي تعتبر بالنسبة لنا المنقذ من ابتزاز المال. هذه الضريبة كانت تفرض على كل من كان يغادر الكويت إلى الصحراء أو العكس بالعكس.

شقيق الشيخ محمد وصنوه كان (جراح) الذي اتصف بالعجز والكسل حتى بز أخاه نفسه. وهما صديقان حميمان قضيا حياتهما - كما يقال - ويد كل منهما بيد الآخر متفقان على كل شيء. باختصار كانا زوجاً عاجزاً ليس له مثيل.

لم تستمر هذه الحالة في دولة الكويت طويلاً لكونها غير طبيعية. فهناك شابان عاشا في الكويت عليهما أن يصنعا التاريخ؛ الأول، مبارك، الشقيق الأصغر للحاكم العاجز الكسول. أما الثاني فكان أجنبياً من البصرة اسمه (يوسف بن عبدالله الإبراهيم) وهو رجل ذو أملاك وثروة في بلاده.

كان مبارك الشاب عاقلاً، فخوراً متشرباً بحب متعصب لبلاده، هزيلاً عيناه كعيني الصقر، تربى في الصحراء، يستطيع أن يسابق البرق إذا اقتضت الحاجة، وقد حز في قلبه أن يرى وطنه يسير نحو الخراب، فكنت تراه - بلا وجل - وعلى الملأ، ينتقد يومياً الشيخ محمد وجراح لضعفهما. ولما أتعبتهما سخريته وانتقاده أرسله جراح إلى الصحراء بامارة البادية، وأمره بتطبيق القانون هناك إن استطاع. صحيح أنه منح سلطات واسعة إلا أن الأخوين الماكرين رفضا تزويده بالمال الذي يؤدي به إلى تحقيق هدفه، لأنهما كانا يتطلعان إلى سماع نبأ مقتله على يد أحد البدو.

أما يوسف بن عبدالله الإبراهيم فكان متشرداً طموحاً، بارعاً بشكل خارق ومعدوم الضمير. يتميز بكونه رجل مجتمع يتمتع بهيئة حسنة، وأسلوب لطيف، وهو رفيق ممتع. تتسم نصيحته بالدهاء، وتلبس ثوب الإطراء، ويختار لها الوقت المناسب. وهو المسؤول عن المأزق الشرير الذي تعرض له مبارك الشاب. ولقد درس بمكر لا يجارى الموقف لمدة طويلة لا ليجعل من نفسه عنصراً أساسيالدى الحاكم فحسب، بل مهد الطريق لنفسه ليصبح الوزير الأول المفضل. كما اتصف يوسف بتأييده المطلق للأتراك، وتطلعه إلى اليوم الذي يرى فيه الأتراك يتولّون لأمر في الكويت، ويعزلون الأمير الحاكم ليتولى هو وعائلته سلطة المشيخة بدلاً من آل

الصباح. لذا كان في خدمتهم مدركاً بذكائه ضرورة التحرك ببطء.

يرى يوسف في مبارك - ذي العينين الفولاذيتين - العدو الوحيد الذي يمكن أن يطيح بمشاريعه، فإرساله ضروري إلى الصحراء نحو الخطر المؤكد والموت المحتمل. وقدّم يوسف نصيحته للشيخ محمد ومجلسه: (ابق مبارك بحاجة للمال ومشغولا، وسيكون كل شيء على ما يرام بالنسبة لكم أيها الشيخ). أما مبارك - الصحراوي المولد - فقد قضى سنوات من العوز والفاقة، كان مجبراً أن يعيشها، إلا أنه تعلم أن يكره يوسف - رجل المدينة - كرهاً مميتاً، فقرر أن ينحيه. لذلك - وبصبر - عقد صداقات مع رجال الصحراء، ورويداً رويداً تحالف معه أشجع رجال قبائل الرشايدة وعجمان، رجال أحبوه لأنه موضع ثقة، وهو مثلهم يمقت سكان المدن. كان يجول الصحراء بشجاعته المتوقدة وينتقل من مكان لآخر كالبرق. لم يكن يفاجىء تجمعات عدوه ويضربهم بعنف ومهارة مدهشتين فحسب، بل نقل غزواته عميقاً نحو أراضي مطير وشمر وضفير حتى أصبح اسمه على كل لسان.

كان مبارك الشاب يطالب بالمال دائماً. فأنى له أن يستمر دون طعام، وبأقل قدر ممكن من الذخيرة. إن على رجاله أن يعيشوا. وككل الرجال وراء كل منهم امرأة وأطفال عليه أن يقوم عليهم. سيموت الحماس في الصحراء إذا لم يتوافر المال والغنائم.

كان مبارك يتردد بانتظام على الكويت ليقدم تقريره عن مجريات الأمور. ويستخدم كل حيلة وذريعة لينتزع المال من أخويه. إلا أن طلباته المعقولة كانت تصطدم برفض الأثير لدى الملك (يوسف). أخيراً قال مبارك لأخويه أنه يريد زوجة جديدة وبيتاً لها في المدينة. وطلب لتحقيق ذلك مبلغ عشرة آلاف ريال سعودي. وقد قصد من طلبه المال أن يلبي احتياجاته الحربية، ويشبع رجاله، وكان أمله أن تنجح هذه الحيلة إلا أن أخويه محمد وجراح أجاباه: (أنت كسول يا أخي. لا يمكن لك أن تطلب الحياة السهلة في المدينة بينما العدو على أبوابها. سوف لن تحصل على قشة ما دام الحال كما هو الآن. وفي الوقت المناسب من السنة سنأخذ طلبك بنظر الاعتبار ونسمح لك أن تسكن معنا. اذهب الآن إلى عملك).

عاد مبارك إلى الصحراء وقلبه مفعم بالكره الأسود. عاد هذه المرة ليتخذ قراراً بتنفيذ خطته التي احتفظ بها في ذهنه لمدة طويلة، وهي ذبح أخويه مع يوسف الكريه بضربة واحدة.

في مطلع صيف عام ١٨٩٦ بقي مبارك في أعالي الصحراء يقلب الأمر على

وجوهه حتى نضجت خطته. فالناس في الكويت ينامون على أسطحة منازلهم في بداية الصيف، فالحرارة ما زالت مقبولة. ومحمد وجراح كانا يقيمان معاً في قصر عال يقع في قلب مدينة الكويت القديمة مطلاً على البحر. كان مبارك يعرف تفاصيل القصر كما يعرف نفسه، فقد كان هناك جسر علوي عبر ممر ضيق يوصل إلى جناح السيدات في قصره. أما قصر الشيخ فله مدخل رئيس واحد بالإضافة لباب السيدات الخلفي.

كان لمبارك ولدان يثق بهما وهما شابان تجاوزا التاسعة عشرة من العمر، جابر وسالم . وهما يتصفان بالشجاعة والاستعداد لأي مخاطرة. اصطحبهما مبارك مع سبعة من المحاربين الموثوقين من عجمان والرشايدة، وأسرع بهم نحو المدينة على ظهر عشرة جمال سريعة، فقدم نفسه على بوابة المدينة قبل منتصف الليل بساعة واحدة في السابع عشر من أيار عام ١٨٩٦.

أمر مبارك الحراس أن يدخلوه ويغلقوا البوابة خلفه متعذراً أن بصحبته بضائع لشقيقه الملك. ثم اخترق المدينة النائمة بهدوء حتى وصل إلى الياخور أو الاسطبل الملكي - الذي يقع قرب سوق المدفع - فقيد الجمال هناك، وتسلل بصمت على الأقدام نحو القصور. وصل إلى بابه الخاص وعبر المدخل مع فريقه، دون أن يشعر بهم أي من السكان، مروراً بجناح الحريم. ثم اجتاز الجسر المؤدي إلى قصر أخويه. أقفل وأزلج الباب المؤدي للجسر ثم أمر سالم - ابنه الأصغر - أن ينزل إلى الطابق السفلي مع أربعة من البدو الشجعان ليقفوا على البوابة الرئيسة وباب الحريم الخلفي من الداخل.

كانت التعليمات التي تلقاها سالم تقضي بقتل أو حبس أي من العبيد أو الرجال المسلحين الذين قد يعثر عليهم في غرفة الحراسة الملحقة بالبوابة، والمحافظة على الصمت التام مهما كان الثمن. وقد تم تنفيذ ذلك بنجاح ودون صدور أي صوت يعكر هدوء الليل.

أما المرحلة الثانية في هذه المأساة فكانت إرسال جابر - الابن الأكبر - مع رجلين من الرشايدة إلى السطح نحو الجزء الخاص الذي كان جراح قد اعتاد النوم فيه إلى جانب زوجته. وكان على جابر أن ينتظر إشارة البدء وهي طلقة بندقية يقوم إثرها

بذبح جراح بضربة سيف أو خنجر. كما كان عليه أن يأخذ الزوجة إلى حجرة النساء ومنعها من إحداث أي ضجة. أما مبارك فتوجه مع أحد رجال الرشايدة الموثوقين نحو الجزء من السطح الذي ينام فيه محمد وحيداً، واقترب بحذر من السرير ثم رفع بندقيته وأطلقها على أخيه النائم. إلا أن الجرح لم يكن قاتلاً، فاستيقظ محمد من نومه ورأى مبارك يهيىء بندقيته ليطلقها مرة أخرى فصاح به (أخي، أخي، كيف يمكنك؟ . .) ولكن مبارك عاجله بطلقة ثانية في رأسه قتلته في الحال .

حسب الخطة، قام جابر بقتل جراح بسيفه ولكن بعد أن استيقظت الزوجة المفجوعة وألقت بجسمها فوق جسم زوجها لتحميه. إلا أن جهود السيدة الشجاعة ذهبت أدراج الرياح فقد سحبتها أذرع قوية وألقت بها جانباً حتى تمت الجريمة[٢].

باستثناء هاتين الطلقتين الطائشتين، لم يكن هناك في الكويت أية أصوات غير عادية في تلك الليلة. . كما لم يصدر أي تحذير من أي نوع ولم تعلم المدينة النائمة شيئاً عما كان يجري.

بعد نجاح الجزء الأول من الخطة، ترك مبارك ابنه سالم على بوابة القصر لحراستها، وأسرع نحو بيت يوسف، الرجل المسؤول عن ضعف إرادة أخويه والذي يتوق إلى قتله. كان بيت يوسف لا يبعد أكثر من عدة أبواب إلا أنه لم يكن في بيته. ويقال إن لدى يوسف إحساس غريب ـ بتوقع ما سيحدث ـ دفعه إلى الفرار في الليلة السابقة في قارب إلى (الصبيّة) عن طريق خليج الكويت حيث يمتلك هناك بيتاً ريفياً صغيراً. حتى أنه لم يمكث هناك بل غادر إلى البصرة على صهوة جواد ركبه طوال الليل.

تكدر مبارك كثيراً لاقتراب الصبح دون تحقيق غايته في يوسف. فعاد إلى بيته واغتسل وصلى وتناول الطعام. ثم تهيأ لمجلس شيوخ الكويت الذي ينتظره في القصر.

في نفس الوقت كان سالم محافظاً على بوابة القصر مغلقة، بعد أن حذر سكان القصر من نساء وعبيد من إصدار أي صوت أو محاولة الاتصال بالعالم الخارجي.

أخيراً انبلج الفجر. وبدأ أفراد عائلة الشيخ المتميزون وأكابر التجار يتقاطرون - كما هي العادة في الكويت - مثنى وثلاث إلى قاعة المجلس الكبرى ليقدموا تحية الصباح للحاكم. إلا أنهم فوجئوا بتغير كل الحراس المعتادين. فقد وجدوا بدلاً منهم ثلاثة من البدو المدججين بالسلاح يقفون على الشرفة في الخارج وصمتهم يثير الشك. دخل الزوار قاعة المجلس واحداً بعد الآخر، وجلسوا بعد أن ألقوا التحية المعتادة (السلام عليكم يا محفوظ) والقلق يسيطر عليهم بانتظار معرفة سبب وجود مبارك ذي الوجه الصارم على عرش الحاكم وابنه جابر إلى جانبه. اصطف الزائرون رتلاً يقدمون التحية دون أن يتلقى أي منهم رداً، يغشاهم الخوف من مغادرة المكان. أخيراً وعند امتلاء المكان استل مبارك سيفه من غمده ببطء، ونكسه بين ركبتيه، وجال بنظره بين أفراد المجلس بعيون كالنسر، ثم قال بصوت أجش: (يا شعب الكويت، يا أقاربي، ليكن معلوماً لديكم أن أخويَّ محمد وجراح ماتا في الليلة الماضية وأنا سأحكم بدلاً منهما. إذا كان لدى أحدكم ما يقوله فليتقدم أمامي هنا ويقوله). لم يبد أي من الحاضرين أية حركة فقد سيطر عليهم سكون كالموت دام حوالي عشر دقائق قام مبارك بعدها بالنداء على خادم القهوة وخدم آخرين تجمعوا خارجاً على الشرفة وقال: (أيها العبيد، ليذهب أحدكم ويأتني بـ(سعود) - ابن الشيخ محمد -). أُطيع أمره في الحال وأُتي بسعود الذي وقف أمامه، شاب في السادسة عشرة من عمره أو ما يقارب ذلك، وهو مرتبك وقلق فقال له: (اذهب واغسل والدك وعمك ورتب جنازتهما يا بني فقد حكم الله[1] بأن عليهما أن يموتا في الليلة الماضية وأن علي أن أحكم بدلاً عنهما. لقد حان موعدهما. حمداً لله).

صعق سعود للأنباء التي سمعها ووقف مشدوهاً لا يدري ما يفعله. فحدق مبارك فيه لمدة طويلة وقسمات وجهه تنم عن جديّة حتى بدا وكأنه قُدَّ من الخشب. فانسلت دمعتان على خديه وسمع يغمغم (أخوي، أخوي، ألا ليته لم يحدث هذا). ثم طرد الشاب بفظاظة قائلاً (اذهب وقم بتنفيذ ما قلته لك).

كان شعب الكويت كله ضجر من ضعف وتردد سياسة محمد وشقيقه جراح

---

(١) تم دفنهما في ساحة الصفاة الكبيرة ويمكن رؤية قبرهما اليوم معلّمة ببضعة حجارة كبيرة (المؤلف).

في الحكم. لذلك هللوا لمبارك وسألوه بحماس أن يدير شؤون الدولة ويدافع عنها ضد أعدائها في الداخل والخارج .

بدأ مبارك بعد ذلك مدة حكمه العظيمة الطويلة بكل التأييد والتشجيع من شعبه، سواء في ذلك سكان المدن وقبائل الصحراء، وأثبت للعالم حالاً أنه رئيس ودبلوماسي من الدرجة الأولى. فقام بسلسلة من الحملات الصحراوية البارعة تميزت بأسلوب السرعة الخاطفة، جعلت اسمه مرعباً بين بدو الصحراء حتى أن عبدالعزيز آل سعود، المشهور اليوم، حذا حذوه بنجاح فيما بعد مما مكنه من إعادة المملكة المفقودة لآل سعود وجعل من اسمه مرهوباً ومحترماً في أرجاء الجزيرة العربية وحتى اليمن.

في مجال السياسة استطاع مبارك بذكائه أن يبقي الأتراك في الخليج. وهو لم يجلب التجارة والازدهار للكويت فقط، بل عقد معاهدات صداقة وتحالف مع بريطانيا العظمى، تميزت ببعد النظر نتج عنها ما نراه اليوم من تعامل الكويت مع جيرانها الجائعين.

أما عن يوسف بن عبدالله الإبراهيم فمنذ وصوله البصرة أسرع إلى بيت صديقه الحاكم التركي، وبطريقة رسمية ومهارة مثيرة أخبره كيف أن مقتل الشيخ محمد وأخيه جراح كان سببه ببساطة هو كونهما صديقين للأتراك وكانا على وشك طلب وضع الكويت تحت الحماية التركية من الباب العالي للوقوف في وجه المخططات البريطانية في الخليج العربي. وقد أعلن رسمياً أن مبارك هو قاتل الشيخ محمد وأخيه جراح، وطالبه بإثبات عدم كونه أداة في يد بريطانيا، وألح على الأتراك بأن عليهم اتخاذ خطوات عاجلة من ضمنها عمل عسكري يكون غرضه إقصاء مبارك وتنصيب ابن الشيخ محمد بدلاً عنه.

أما السلطان التركي الذي علم بدوره بكل الأحداث فقد كان رد فعله متسماً بالوعي والخبرة الواسعة. إذ أنه سأل مبارك عن الحادث ورفض رسمياً أن يصدق أنه قتل أخويه، بل ألح عليه لإبداء ولائه له وللنظام التركي بإلقاء القبض على الفاعل

الحقيقي وسوقه إلى البصرة. عند ذلك أجاب مبارك ـ بدون خجل ـ (إن القاتل هو أفاق يدعى يوسف بن عبدالله الإبراهيم الذي وصل إلى ما وصل إليه بعطف أخيه العاثر الحظ الشيخ محمد، وهدفه أن يغتصب مشيخة الكويت لنفسه. وعندما حان الوقت المناسب دخل بيت محمد وجراح ليلاً وقتلهما، وكاد أن يعلن نفسه أميراً لولا عناية الله التي أرسلته (مبارك) من الصحراء للمدينة في نفس الليلة، حين أفشل خطته واضطره للفرار). وأضاف مبارك قائلاً: (إنه سمع بأن ذلك الرجل هو الآن في البصرة والمطلوب من الحكومة التركية أن تعطي تعليماتها بإلقاء القبض عليه وسوقه إلى الكويت لينال جزاءه). كما أكد للسلطان أن ليس للأتراك صديق أحسن منه، وأنه يثق بأن الباب العالي سيبدي نحوه شعوراً ودياً بإجابته لطلبه. وبدهاء من الأتراك، ورغبة في تحويل مجرى الأحداث لصالحهم، تظاهروا بتصديق قصة مبارك على الوجه الذي أراده، وأثنوا على ولائه لهم كما عينوه قائمقاماً لهم بالإضافة لاعترافهم به شيخاً.

فيما بعد، وفي عام ١٨٩٩، توجه مبارك نحو الإنكليز بشكل مكشوف وطلب حمايتهم. أما يوسف فكان يود الانتقام من مبارك، طوراً بالمساعدات المكشوفة من قبل الأتراك، وآخر بمبادرة منه بالتآمر على مبارك. كما استمر بإثارة قبائل الصحراء ضد الكويت. وأخيراً ساند بيت ابن رشيد في قلب الجزيرة العربية في حربهم الطويلة مع الكويت وابن سعود.

في هذا اليوم من عام ١٩٣٧ كثيرون هم الذين يرون في تصرفات الحكومة العراقية في السنين الأخيرة ـ ولا سيما حول مسألة حدائق تمر الشيوخ ومسألة التهريب ـ يرون يد أحد أفراد سلالة يوسف بن عبدالله الإبراهيم. وليس من قبيل المصادفة أن يقوم الوريث الأول، وأشد الأحياء قرابة ليوسف بالمطالبة[1] السخيفة، أو هكذا قد تبدو، بالجزء الشمالي من خليج الكويت مع المنطقة التي غرزت فيها شركة البترول أول بئر اختباري لها. إن أي عائلة عربية لن تنسى ذلك وحتى الجيل الخامس منها أو ربما أكثر.

غدر فهد بن جلوي وذبح زيدان الحثلان شيخ عجمان في أول أيار ١٩٢٩ ـ سنة السبلة ـ

هذه القصة الحقيقية رويت لي للمرة الأولى في الخامس والعشرين من نيسان عام ١٩٢٩ من قبل الشيخ حزام الحثلان (الذي قتل نفس العام في انقير). ثم رويت

(١) تمت المطالبة عن طريق عريضة مكتوبة قدمت لحكومة الهند في دلهي.

مرة أخرى من قبل الشيخ زنيفر بن حَوَيْلة شيخ عشيرة محفوض العجمانية في السابع والعشرين من تموز عام ١٩٣٥، بحضور العديد من شيوخ عجمان وعبدالله بن عايد بن مخيل، القاتل الفعلي لفهد بن جلوي، الذي وصف أيضاً كيف أن عبدالله بن جلوي قتل أباه بعد سنة من هذه الحادثة لاشتراكه مع ابنه في الجريمة.

بعد معركة السِبِلَة (٢٩ آذار ١٩٢٩) واجه جلالة الملك ابن سعود ثورة الإخوان المكثفة بأمرة سلطان بن حُميد (عتيبة) وفيصل الدويش (مطير). فاتُفق على عقد مؤتمر لجأ فيه الملك إلى القتال نجم عن ذلك القبض على حميد والدويش بعد أن جرح الأخير.

قبل معركة السِبِلة مباشرة، كان ابن سعود يخشى من أن زيدان الحثلان، (شيخ عجمان الشهير) قد ينضم إلى الشيخين الثائرين، لذلك استخدم كل براعته الدبلوماسية لإبقاء قبيلة عجمان القوية هادئة في قلب الحسا. هذا الموقف خدع زيدان وجعله يأمن جانب الرياض. ومن أجل غايته، زاره فهد بن جلوي وقدم له رسالة أمان من أبيه. هنا يكمن بعض الشك في أن عبدالله بن جلوي والد فهد وحاكم الحسا لم يتفق كلياً مع ابن سعود حول هذه المسألة، وكون الملك يهدف من استخدام دبلوماسيته استجلاب زيدان للرياض. لقد خطط ابن جلوي لعمل غادر لاعتقال رأس القبيلة.

وقعت أحداث هذه القصة عند آبار العوينا التي تبعد سبعة عشر ميلاً جنوب الصرّار، مركز القيادة العجماني في قلب الحسا وإلى الجنوب قليلاً من نطاع.

في مطلع الصيف، والحر شديد، كان زيدان مخيماً في الصرّار مع حوالي ألفين من العجمانيين وعائلاتهم، بعد أن كسب استحسان ابن سعود بعدم انضمامه إلى حُميد والدويش في السِبِلة عندما طالبا - بالنيابة عن الإخوان - بـ العُلَمَة في نجد إما لهما أو للملك. وزيدان من جانبه، ورغم أنه يتعاطف معهم، فقد رفض الانضمام لمؤتمر تفوح منه رائحة التحدي لسلطة ابن سعود.

أما ابن سعود فكان سعيداً وممتناً لموقف شيخ عجمان فأرسل له رسالة، قبل عشرة أيام من وقوع الأحداث التي نذكرها الآن، عبر له فيها عن شكره، وأطرى ولاءه

له ومنحه حرية الحركة في الحسا. كما منحه كتاب أمان تام يروح ويجيء بموجبه حسبما يناسبه. (إلك الله وأمان الله) هذا ما كتبه له، ونحن علينا أن نفترض أنه يعني ما كتبه.

بعد بضعة أيام تسلم زيدان رسالة مماثلة من عبدالله بن جلوي حاكم الحسا. وقد بدا كل شيء يوحي بالسلم، فكلتا الرسالتين عنتا الإشارة إلى أن زيدان في أمان ـ إلا أن الغدر الأسود كان يلوح في الهواء، عندما وجدت بضع مئات من الأصفاد في مخيم فهد.

الحدث التالي كان وصول فهد بن عبدالله الجلوي إلى العوينا وبرفقته خمسمئة من محاربي المدن التابعين لأبيه. كما كان معه فرق من البدو تمثـل مُرَّة وبني هاجر وسبيع والمناصير. . . الخ. مع بعض عجمانيي الهفوف بقيادة نايف أبي الكلاب الحثلان. كما رافقه أيضاً أخوه ناصر الجلوي. أقام فهد مضاربه في قلب العوينا بينما أقام بدوه على الجانبين.

لقد جعل فهد لنفسه سمعة سيئة، إذ أنه غدر بنايف الحميد بحيلة منذ ست وثلاثين شهراً سبقت، عندما كان الثاني مخيماً بأمان في صفوان على الحدود الشمـالية للكويت. فقد ألقى القبض عليه وهو ضيف لديه بعد أن سقاه القهوة في خيمته وأرسله سجيناً إلى ابن سعود. أحدثت هذه القضية صدى سيئاً جعل كل الجـزيرة العربية تتشنج أمام سلوك فهد الغادر ومحاولته اختطاف شيخ عتيبة المنفي إلى الأراضي العراقية. لذلك كان يُنظر إلى فهد نظرة شك وعدم ثقة.

بعد إقامة مضاربه، أرسل فهد إلى زيدان في الصرّار يدعوه للحضور لإبداء ولائه. كان للرسالة أثر طيب إذ قال فيها: (ألست أخي الأكبر. أفلا يجري في عروقنا كلانا الدم الحثلاني؟).

[جدة زيدان لأمه وجدة فهد لأمه كانتا شقيقتين عجمانيتين] . كتب فهد الرسالة بحضور زنيفر بن حويلة وحزام الحثلان ابن عم زيدان ثم مهرها بالخاتم وأرسلها بيد زنيفر. كما أنه ضمّن الرسالة عهداً بالقدوم والعودة سالماً، (عليك عهد الله وأمان الله).

جمع زيدان قبيلته وأنبأهم بوصول فهد إلى العوينا وعرض عليهم الرسالة. أما العجمانيون الذين ارتابوا ويرتابون دائماً بابن سعود ويعرفون ماضي فهد، لم يستسيغوا

فكرة شيخهم بالذهاب وناقشوه قائلين: (إنها خدعة وفيها رائحة الغدر، لا تذهب للعوينا)؛ هكذا نصحوه: (لأننا لا نتوقع غير الشر من رحلة كهذه واجتماع كهذا. ألم يقم فهد بحيلة كهذه منذ أربعة أعوام مضت (١٩٢٥) بإلقاء القبض على نايف الحميد شيخ عتيبة عند آبار صفوان. لا تذهب هناك، ها نحن نقول لك).

أبرز زيدان الشهم الرسائل الثلاث التي تسلمها والتي تمنحه كلها الأمن والثقة بأنه يستطيع بأمان أن يذهب ويعود لأي مكان حسب رغبته وفي أي وقت. ثم قال: (يا شعبي، كيف يمكنني رفض الذهاب إلى فهد بعد الأمان الذي منح لي من الملك والحاكم وابن الحاكم. سيكون عيباً علي إذا رجعت بكلامي وسوف لن أكون رجلا). وقرر الذهاب دون أي تأخير ورافقه اثنا عشر رجلاً كحرس بما في ذلك (مبروك) العبد الزنجي الذي تملكه العائلة (الحي الوحيد وهو الآن مع شيخ الكويت) .

عند اقتراب الفريق من العوينا خرج فهد مع مجموعة من رجاله على ظهور الجياد لملاقاة زيدان والترحيب به، كما يليق بشرف ضيف مثله. قبَّل فهد ضيفه على كلتا الوجنتين ومشى الاثنان إلى الخيمة يداً بيد. لقد بدا كما لو كانا فعلاً أخوين. ثم قدمت لزيدان واجبات الترحيب البدوية المعتادة بالإضافة إلى المزيد من القهوة والبخور. بعد ذلك اقترح فهد على زيدان أن من الواجب عليهما زيارة أخيه ناصر في خيمته، لتقديم التحية له نظراً لأهميته. مشى زيدان يتبعه الاثنا عشر رجلاً مرافقاً وبرفقتهم فهد حتى دخلوا خيمة ناصر الذي ـ كأخيه ـ قدم لزائره الترحيب الملكي اللائق وقدم القهوة المرة تلو المرة. أخيراً حان وقت الرحيل ونهض زيدان ليذهب. ولكن لدهشته وجد أن كلتا يديه ممسكتان من فهد وناصر بينما اندفع رجال مسلحون داخل الخيمة وقيدوه. أما رجاله فقد وقع أحد عشر منهم في الفخ بينما تمكن الثاني عشر، خلال الهرج والمرج، أن ينسل تحت ستارة الخيمة الخلفية ويقفز على ظهر حصانه ويعدو هارباً لإيصال خبر ما حدث .

احتج زيدان بشدة على هذا السلوك غير العربي والغادر بحق ضيف، إلا أنه لم يلق غير الشتيمة وإساءة المعاملة. ثم نقل الزعيم المعتقل ورجاله إلى خيمتين قرب خيمة فهد، حيث وُضع زيدان في واحدة صغيرة لوحده ووضع رجاله الأحد عشر في خيمة أكبر. بعد نصف ساعة أرسل فهد في طلب زيدان وهزىء منه وضحك من طريقة اعتقاله الزكية. لكن زيدان الفخور، بتجهم وصرامة، لام فهداً بقسوة مرة أخرى على خيانته وحذره من مغبة ذلك وما يجلبه عليه من انتقام عجمان. ولما وجد زيدان أن احتجاجه عبثاً رجا فهداً ـ على الأقل ـ أن يعطيه ورقة وقلماً ويستدعي سكرتيره (بين المساجين) ليكتب لابن عمه حزام بضمانته وتوقيعه ليعلم قبيلته أنه بأمان ويحذرهم من القيام بأية حركة، وقال زيدان: (وإلا يا فهد، فكما تثق الآن بأنك ترى الشمس تغيب الآن، فإني أثق بدوري بأنك والقوى المسلحة التي معك، سوف لن تراها تشرق مرة أخرى). ضحك فهد مقهقهاً ورفض تلبية طلب زيدان المتكرر بإلحاح. أعيد السجين إلى خيمته وقيد بالحبال بما في ذلك يداه. ثم اكتشف فيما بعد أن الحبال أحدثت جروحاً عميقة في كتفيه ورسغيه. ثم أرسل فهد في طلب الجلاد الذي يستخدمه أبوه، وهو زنجي يدعى ابن منصور (أعرفه شخصياً)، وقاله له أنه في حال هجوم عجمان وخروجه (فهد) لقتالهم فإن عليه (ابن منصور) أن يذبح زيدان من حنجرته ويقتل رفاقه بالسيف.

في نفس الوقت، كان الرجل الثاني عشر، الذي استطاع الفرار، قد وصل إلى مضارب عجمان في الصرار وهو يصرخ: (لقد قبضوا على سيدي، لقد قيدوا زيدان غدراً). ثم أخبرهم قصة ما حدث وهو ينشج. فانتشرت الأنباء في المضارب انتشار النار في الهشيم. وانطلقت صرخات اليأس من العجمانيين، وصار الرجال يجرون هنا وهناك غير قادرين على التفكير. أما نساء زيدان والحثلان فقد مزقن ثيابهن من الرأس حتى العقب، ثم خلعن الخمار وأطلقن شعورهن وانطلقن في المخيم وهن يحرضن رجالهن على إنقاذ شيخهم والأخذ بالثأر. وصلت صرخاتهم المريرة إلى السماء بينما سيطر عليهم الارتباك الشديد، صرخة قبيلة فقدت زعيمها ووجدت نفسها في أزمة وبدون زعيم.

غابت شمس الصيف الحمراء وراء الأفق. ومع حلول الظلام بدأ حزام الباسل بالسيطرة على مقاليد الأمور. فدعا إلى الهدوء وجمع الزعماء حوله وشرح لهم خطته لإنقاذ زيدان في نفس الليلة قائلاً: (يجب أن يكون هجوماً مباغتاً هذه الليلة. وبينما تهاجم قوتان من اليمين واليسار سأقوم أنا ونخبة من الرجال بمداهمة خيمة فهد في القلب وإنقاذ زيدان. يا أبناء عجمان، يا أبناء يام، لا رحمة لفهد أو لمرتزقته. السيف والخنجر فقط هما اللذان لهما العمل أكثر من البندقية فسوف لا يعرف الفرد منا صديقه من عدوه) .

تجمع في الحال ألف وخمس مئة محارب عجماني انسلوا بهدوء في الليل، بعضهم على الجياد وبعضهم على ظهور الخيل والبقية مشاة. إن عليهم أن يسيروا خمسة عشر ميلاً ودون إحداث صوت[٢].

استودعت نساء القبيلة رجالهن عناية الله الأوحد. وعندما أفسحت أشعة الشمس الغاربة المجال لأجنحة الظلام هرعن لجمع شجيرات العرفج، وجمعنهن على هيئة مشاعل ضخمة حولت الليل إلى نهار وهن يصرخن: (لنعطي لأزواجنا وأبنائنا بعض الحظ والنور). كان الضوء الناتج عن الآلاف العديدة من المشاعل عظيماً إلى حد أن الخائن فهد رأى ذلك النور الغريب في السماء من مخيمه البعيد وتساءل عن سببه. بعض العجمانيين الموالين له من الهفوف (خدم وفداوية) استطاعوا معرفة معنى الإشارة، فرجوا فهداً أن يقوض مخيمه ويركب متجهاً للجنوب قائلين: (إنهن نساء عجمان يودعن رجالهن ويطالبنهم بالتنفيذ أو الموت طر يا فهد، طر، فالعمل الذي قمت به اليوم وجه نحوك هيجان عجمان كلها ولن يوقفهم شيء). لكن فهداً على الرغم من أفعاله السيئة، كان فخوراً وشجاعاً ورفض أن يتحرك بل أمر بتوزيع القهوة.

بعد ساعة من الزمن، أرسل فهد مجموعة من الفرسان نحو الصرار ليستطلعوا بحذر. وطلب من قواته الاستعداد التام. أما حلفاؤه من البدو فقد صدمهم القبض على زيدان، وانشدهوا للخيانة التي شهدوها وأدركوا أن الجزاء لا محالة حاصل، لذلك زحفوا بعيداً في الظلام لتجنب التعرض للهجوم، مؤثرين البقاء على الحياد، عدا

القليل من بني هاجر الذين قرروا الوقوف إلى جانب فهد.

بعد ساعة أخرى عادت بعض الخيول بدون فرسانها مع ستة رجال من فريق الاستكشاف هم الذين نجوا بحياتهم، عادوا يعدون في الظلام صارخين: (يا فهد، العجمانيون يهاجموننا، إنهم يزحفون نحونا من جانبين وسوف يصلون إلينا قريباً كعاصفة الليل الرملية السوداء. طر يا فهد ما دام في الوقت متسع). إلا أن الوقت كان متأخراً إذ وصلت العاصفة وحصل القليل من إطلاق النار بينما كان الباقي طعنٌ بالخناجر.

اعتلى فهد ظهر فرسه وبرفقته ما يقارب مئتي فارس في محاولة لاختراق الصفوف، فكان يقاتل بيأس أمام خيمته وسط صرخات العجمانيين المتكررة: (يا زيدان، أرنا مكانك بدلالة صوتك، الانقاذ، الانقاذ). ومن خيمة صغيرة خلف خيمة فهد انطلقت صرخة احتضار (ها أنذا يا أولادي، أنا هنا أسرعوا). وتبع ذلك صمت إذ أن المتوحش المخلص ابن منصور قام بما طلب منه فذبح زيدان المقيد من الأذن للأذن كما لو فعل ذلك بشفرة. وكان قبل ذلك قد قتل الأحد عشر رجلاً في الخيمة المجاورة عدا رجل واحد هو العبد مبروك الذي أصيب بجرحين أحدهما في كتفه والآخر في ذراعه فتدحرج متظاهراً بالموت ليتم إنقاذه فيما بعد.

أما ابن منصور نفسه فقد هرب تحت جنح الظلام وبقي حياً حتى اليوم يمارس وظيفة رئيس الجلادين عند سعود بن جلوي حاكم الحسا الحالي. وعندما سئل عما إذا شعر بالخجل وهو يذبح زيدان العظيم بالشفرة أجاب: (لم يكن ذلك بالشفرة بل كان سيفي حاداً جداً فوقفت خلف زيدان ووخزته في نقرته فجأة فرفع رأسه كردة فعل مما أعطاني الفرصة فنفذت العمل بسيفي برشاقة وسرعة) .

خلال الاشتباك كان فهد يقاتل بيأس حتى وصل إلى خيمته، عندها برز من الظلام الشاب عبدالله بن عايد المخيل وقفز نحوه وأمسك بعنان فرسه وأطلق عليه النار ليصيبه بين عينيه وخر صريعاً. وعلى الأرض أطلق عليه مرة أخرى فاخترقت الرصاصة قلبه. أمسك عبدالله المخيل بسيف فهد الذهبي ومسدسه وخنجره وأخذهم معه لبيته في اليوم التالي ليكون معلوماً للجميع أنه هو قاتل فهد والثائر لله. وهو اليوم هارب دائماً في الشمال. أحياناً في العراق وأخرى في الكويت. وهو في خطر دائم من يد ابن سعود الطويلة.

انتهت المعركة الليلية الطاحنة عملياً بمقتل جميع أفراد قوة فهد. ولقد قيل (استقاء من عدة مصادر) أن حوالي ٤٥٠[1] رجلاً قتلوا فعلاً بما في ذلك بدو بني هاجر الذين تحالفوا مع فهد. أما بقية البدو الذين تحالفوا مع فهد فلم يتحركوا ولم يقاتلوا. لم يكن هناك أسرى. إنها مذبحة رهيبة في تاريخ المعارك العربية. لقد تحققت نبوءة زيدان.

عند الفجر، بدأ البحث الجدي عن ناصر الجلوي شقيق فهد، حتى وجد مختبئاً في خيمة نايف أبو الكلاب، القائد العجماني الصديق الذي وصل المكان مع فهد. وكان ناصر قد فر ليلاً ليطلب الدخالة من نايف. فرفض الأخير أن يسلمه حتى لأبناء جلدته العجمانيين، بل أرسله إلى أبيه آمناً. واستحسن العجمانيون تحت أمرة حزام تصرف نايف مع أنهم خابت آمالهم بعدم تمكنهم من الابن الثاني لجلوي. وعادوا إلى الصرّار لينقلوا النبأ السيىء في أنهم لم يتمكنوا من إنقاذ زيدان إلا أنهم نفذوا انتقاماً لن ينسى.

مع أن نايف أبو الكلاب كان شهماً بإجارة ناصر حسب القواعد القبلية والشرف العربي فقد عومل بسوء مقابل ذلك. إذ أنه أُخذ سجيناً إلى الرياض عام ١٩٣٤. ثم أرسل إلى الهفوف مع ابن لامي وسلطان الحميد وسلموا جميعاً لابن جلوي. لم يره أحد أو يسمع عنه شيئاً بعد ذلك. حتى الجبان ناصر لم يحرك إصبعه لإنقاذ من أحسن

---

(١) بعض العجمانيين رفعوا الرقم إلى ٧٥٠. (المؤلف)..

إليه، ولم يقل ولو كلمة واحدة يتدخل بها من أجله. لذلك نجد أحياناً بعض أفراد بيت آل سعود يخجلون من عظمة اسم كبير العائلة.

بعد سنة من الأحداث التي ذكرت، أرسل عبدالله بن جلوي في طلب عايد الأب المسن لعبدالله المخيل والذي عمل لمدة عشرين سنة خادماً شخصياً لحاكم الحسا. قال له الحاكم المتعسف: (عايد، لقد سمعت أن ابنك أخذ السيف والمسدس والخنجر العائدين لبكري فهد) فأجابه عايد: (قد يكون هذا صحيحاً يا طويل العمر، ولكني قلت لك من البداية وها أنا أقول لك مرة أخرى إني لم يعد لي ولد، عبدالله كان بكري أيضاً، ولكن بعد أحداث العوينا خلعته وفقدته إلى الأبد، تماماً كما فقدت ابنك. لم أره منذ ذلك الوقت). فقال الحاكم: (اكتب لابنك وأنبئه بأنك أنت أبوه قد رميت في السجن وأن ابن جلوي قد أقسم ليقتلنك ما لم ترد أسلحة فهد لأبيه كما هي. وإذا أعادها سيكون كل شيء على ما يرام وسوف أحررك).

نفذ عايد ما طلب منه وألقي به في السجن. بعد شهر أعيد السيف والمسدس والخنجر للحاكم الذي تبين أنه يفوق فهداً بالقسوة والغدر، إذ أرسل عبدالله بن جلوي خلف الرجل الأشيب عايد وأمر بقطع رأسه وتعليقه فوق البوابة الرئيسية للكوت في الهفوف ثم قال له: (أنا لم أعدك بحياتك إذا أعيدت أسلحة ابني إلي، بل قلت إني سأحررك وها أنذا أمنحك التحرر من هذا العالم).

بعد شهر من مقتل زيدان قابلت حزام الحثلان في الكويت. كان قائداً هاماً من قواد الإخوان ومتعصباً جداً، وشتائمه لابن سعود كانت غريبة ومخيفة. وقد أخبرني أن مقتل زعيمه جعل العجمانيين يقررون الانضمام للثوار. ثم عرض عليَّ رسائل ابن سعود وابن جلوي وفهد. كانت الرسائل مضمخة بالدم وقد استخرجها من جيب صدر زيدان الذي سال دم حنجرته عليها إلا أنها ما زالت مقروءة.

بعد أن تناولنا القهوة في خيمة حسين، كان علينا أن ندخل خيمة مُرَيط بن حويلة لتناول قهوته. ومن بين الذين قابلتهم هناك عبدالله بن عايد المخيل، الرجل الذي قتل فهد بن جلوي في الحسا لغدره بزيدان الحثلان. والسبب الرئيس الذي جعل عجمان تنضم لثورة الإخوان ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ . احتج عبدالله قائلاً: (إنه بريء

من هذا العمل). إلا أن رفاقه رددوا بصوت واحد: (ليس هو، فالرجل لم يعد وبحوزته سيف ومسدس وخنجر فهد، وهو لا يعرف سوى القليل عن مقتله).

أختان شهيرتان من عجمان، شقحا ووضحة بنتا حزام الحثلان

هذه القصة رواها لي الشيخ عويد المُطَرَّقة الحَرّي شيخ [illegible] (مطير) في الحادي والعشرين من نيسان عام ١٩٣٥. وأكدها الشيخ ثويران أبو صفرة شيخ مطير والشيخ خالد الحثلان من عجمان بعد ذلك بأيام.

تزوجت شقحا من سلطان الدويش وأصبحت بذلك أماً لفيصل الدويش المطيري المعروف الذي فتح المدينة للملك الحالي. قبل زواجها، يقال إن شقحا حلمت بأنها ولدت مشعباً[1] حديدياً. وعندما أخبرت والدها حزام الحثلان وأمها، سألاها عن تفاصيل الحلم فقالت خائفة إن العصا الحديدية ابتعدت عنها واصطبغت بلون النار الحمراء وبدأت بإصدار ومضات سببت احتراق خيام أهلها العجمانيين. أما والدها الذي كان يعرف بعض الشيء عن الأحلام فقد هدأها وأنبأها أن بكرها سيكون ذكراً وسيصبح رجلاً شهيراً وسيكون شوكة في لحم عجمان ثم ينقلب صديقاً عند الحاجة.

بعد سنة تزوجت شقحا من سلطان الدويش شيخ مطير، وولدت له فيصل الدويش الذي لم يشتهر مثله أي قائد قبلي في الجزيرة العربية. قضى فيصل، ابن السيدة العجمانية حياته يغزو العجمانيين تارة ويسالمهم تارة أخرى. كانت القبيلة تبجله وتعجب به بسبب أمه، وتكرهه لأن أباه كان مطيرياً عدواً. بقيت عجمان حتى يوم موته عام ١٩٣٢ تناديه (عصا الجمل الحديدية) التي جلدت القبيلة وأكدت أن نبوءة الأم نبوية.

صارت وضحة أماً لسعود العرافة من عبدالعزيز بن سعود بن فيصل بن تركي آل سعود (ابن العم الأكبر لجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود). لذلك كان سعود يُفضل بسبب قبيلة أمه والقول بأنه الشيخ الحقيقي لعجمان. إنه اليوم زوج أشهر أخوات ابن سعود وهي نوره ويعيش بجانب الملك بشكل دائم لأن الأخير يخشاه بسبب دم أمه.

---

(١) المشعب: عصا يستعملها البدو من أجل الجمال. (مشعاب).

الظُرف العجماني

(الحادثة العادية التالية هي نموذج للظُرف العجماني)

عندما زرت خيمة زنيفر بصحبة زوجتي، طلبت رؤية زوجة عبدالله التي جهزت لنا طعام الغذاء بشكل رائع. لذلك انتقلنا جميعاً إلى قسم النساء في خيمة عبدالله حيث قابلنا شاهه الفتاة الجميلة، التي كان لها أربعة أولاد، ماتوا جميعاً على الرغم من أنها تصرفت حسب العادات العجمانية وأكلت جزءاً من أذن آخر أولادها ليبقى حياً. لقد علمت من البعض أن شاهه تخشى أن يقدم عبدالله على الزواج من فتاة أخرى، لذا قررت مساعدتها.

عبدالله: متى ستعطيني البندقية التي وعدتني بها السنة الفائتة يا أبا سعود؟
أنا: عندما أسمع من فم زوجتك أنك تستحقها.
عبدالله: (لشاهه) تكلمي يا امرأة وقولي إني أحسن الأزواج وأستحق البندقية.
شاهه: إنه رجل طيب يا أبا سعود فأعطه ما يريد.
أنا: سأفعل بالتأكيد ومن أجل عينيك. ولكن طيراً أنبأني أنه يرغب بابنة مريط. ولا الله ولا أم سعود (زوجتي) سيوافقون ما دمتِ حية.

(ضحكت شاهه ضحكةً نصف مكتومة بينما ضحك زنيفر والد عبدالله بصوت عالٍ).

زنيفر: والله يا أبا سعود إنك لتقول الحق. ولكن من أين سمعت هذه الإشاعة فالله وحده يعلم. سوف لن تساء معاملتها ويمكن لك أن تشترط على عبدالله لإعطائه البندقية أن لا يطلق شاهه.

أنا: والآن يا عبدالله لقد كشفتك. البندقية ستكون لك حالما تعطيني ورقة ممهورة بخاتمك تقول فيها إنك لن تتزوج بنت مريط أو تطلق شاهه (ازداد ضحك وابتهاج شاهه).

عبدالله: حسن جداً يا أبا سعود. إن البندقية أفضل من كل النساء مجتمعات. سأجلب لك الورقة ولكن لا تنسى أن ترفقها ببعض الذخيرة.

ملاحظة: في عام ١٩٣٦ ذهب النذل عبدالله إلى الرياض وتزوج هناك فتاة صغيرة، وقيل لشاهه أنها ستبقى راعية البيت. ولحسن الحظ أن عبدالله لم يكن قد حصل على البندقية بعد، ولا أظنه سيحصل عليها الآن.

بعد هذا الفاصل المسلي، وقف زنيفر وقال: (يا أبا سعود، لقد وجدت لك فتاة عجمانية سنزوجك إياها). فأجبته: (أين هي؟) فتابع: (أنتن أيها النساء، نادوا على أختي المحبوبة سمحة ليراها القنصل). جيء بالعروس فإذا هي عجوز في الثمانين من عمرها. قال زنيفر: (ها هي ذي، ومع أنها مسنة فهي تطبخ جيداً، ونحن ندخر أفضل بناتنا لرجل مثلك). فصرخت زوجتي رداً على المداعبة (لا، لا يازنيفر، زوجي يحب البنات الصغيرات لا النساء العجائز. ماذا عن ابنة مريط الجميلة؟ لا شك أن زوجي يقبلها). ـ ابنة مريط هي البديل المحتمل لشاهه وشرط البندقية ـ فسادت موجة من الضحك داخل الخيمة وخارجها وتعالت صيحات تقول: (هذه واحدة عليك سجلتها أم سعود يا أبا عبدالله).

هذه القصة التي رويت أعلاه ما هي إلا لإيضاح مرح وظرف العجمانيين الذين يتميزون عن بقية العرب باستمتاعهم بالفكاهة.

بعد ساعتين من الزمن كنت مع زوجتي وابنتي في قسم النساء بخيمة حمد بن مِشوَط. لم يكن حمد في الخيمة فقام أخوه سعد بدور المضيف. كانت زوجة سعد بدينة بشكل هائل، إلا أنها كثيرة المزاح فعندما كانت تُرينا ابنتها منيرة زوجة حمد سألت عما إذا كنا نحن الإنكليز نحب البدينات أم النحيلات من النساء، فأجبتها بحذر (بين بين) فتابعت: (إذن فنورا، ابنتي الثانية هي ما تحب). وأتي بنورا وهي الأخت الأصغر لمنيرة وهي فتاة لطيفة. قالت المرأة البدينة: (والآن يا أبا سعود ما رأيك بها؟) فأجبتها: (لقد أعجبت بنورا كثيراً وأرى أن عليها، لمصلحتها، أن تترك زوجها لتكون زوجة لي). ضجت الحاضرات بالضحك بينما قالت المرأة البدينة: (هل تسمعين يا أم سعود؟ (مسز ديكسون) إن أبا سعود يريد أن يأخذ نورا كزوجة ثانية، ولكننا لن نسمح أن تؤخذ منا لتكون زوجة على رأسكِ) فردت زوجتي عليها الرد المناسب.

أصول عجمان

بعد يومين زارتنا زوجة الشيخ سالم بن أذين وابنتها ميثا اللتان كانتا مبعدتين في الشمال في خيمة محروض بن حضل لمدة أربع سنوات. كانت الزيارة بعد عودتهما مباشرة من (الواديان) مع محمد بن أذين، الذي كان عائداً إلى ابن سعود لإنهاء الخلافات معه.

في اليوم التالي عقدت مجلساً تدارست فيه مع شيوخ عجمان أصول عجمان وسألت عن القبائل التي تحالفت في جنوب الجزيرة العربية لانحدارها من أصل واحد فأتاني الرد التالي (٣٠ نيسان ١٩٣٥).

١ ـ اتفق الجميع على نفي ما يسمونه بالاعتقاد السائد، وهو قصة استعمار كسرى للحسا عن طريق المحاربين السجناء الذين أصبحوا فيما بعد أجداد العجمانيين. وهم لم يذكروا مصادر الرواية إلا أنهم أكدوا أنها غير حقيقية.

٢ ـ كل الزعماء والشيوخ، بمن فيهم سالم الأذين شيخ المصرة المسن، صرحوا بأن القول بانحدار أصلهم من نجران هو الصحيح. وهذا ما تؤكده كثير من أغانيهم وأشعارهم التي نظمت منذ أكثر من ألف سنة، وتناقلتها الأجيال من الأب للابن. هذا يبين بوضوح ـ حسب قولهم ـ أن جدهم الغامض هو يام الذي كانت مُرَّة والمناصير والمناجر والعوامر والراشد والصيعر (في حضرموت وظفار) وكذلك كَرَب وكثير من القبائل المقيمة في اليمن. لقد قام العجمانيون، وهم أعظم المنحدرين من سلالة يام بغزو سواحل الخليج العربي (حسب أساطيرهم القديمة) عندما كان بيت عريعر من بني خالد هو الذي يحكم شرق الجزيرة العربية والحسا الحديثة. أما الواقع فهو أن هذه الأحداث وقعت في عهد عريعر الشهير الحاكم الذي جعل عقوبة لمس بيض الحبارى هي الموت.

زيارة لمخيم الأمير هيف بن حجرف شيخ عشيرة آل سليمان العجمانية في ٢٥ آذار ١٩٣٥ .

كانت زيارتي الأخيرة لمخيم الأمير هيف مفيدة لأسباب عدة، لا سيما تلك الطريقة القيمة التي يعالجون بها الصقر الذي جرحت رأسه في صراعه مع أحد طيور الحبارى. كنا أنا وزوجتي وابنتي ومعنا عدس وصياد شيخ الكويت الرشيدي الذي له عينان كعيني الصقر، كنا قد وصلنا المخيم في حوالي العاشرة قبل الظهر وتوجهنا إلى الواجهة الشرقية للشق. كان ذلك في وقت الكساد المعروفة بخور الحجلان.

أما زوجتي فقد أحضرت معها ما يكفي من الحرير والساتين لإرضاء رغبات سيدات الأمير وهن سبعة بمن فيهن الإخوة والبنات. فوزعت عليهن المنسوجات إضافة لزوجتي عنيزان المُنَيْخَر الذي قدم من نجد في زيارة.

تناولنا طعام الغداء وقد أعدت المائدة ببراعة على الطريقة العجمانية. أما الأمير فقام بدور المضيف على أحسن ما يرام وأمتعنا بفخامته.

بعد فراغنا من طعام الغداء سمعنا قصة الصقر كلها. كان الطير موسوماً بين عينيه كما يسم البدو كلابهم السلوقية لحمايتها من سل الكلاب. أما الجرح الذي أحدثته الحبارى فكان في قمة رأسه وبحجم قطعة الستة بنسات، بينما كان الوسم بحجم البنسات الثلاثة، ومقابل الجرح. وبدا الصقر حزيناً على نفسه، لكن الأمير هيف أكد لي أنه سيتحسن ويسترد شجاعته. وأضاف أنه عرف بخبرته في معالجة الصقور وأن ما يتوقعه يحدث.

بعد الغداء قابلنا نهار المتلقم وأخاه عبدالله (المعروف باسم عُبيد لسواد بشرته وضخامة شفتيه) وهما شيخا عشيرة المتلقم من عجمان بالإضافة لكونهما محاربين.

أخبرني عبيد أنه كان واحداً من بين العشرين بطلاً[١] الشهيرين الذين كانوا تحت أمرة ابن سعود (اثنان من سبيع وواحد قحطاني، وسبعة عشر عجمانياً). وأن شقيقه محمد وعبدالله بن جلوي استوليا على الرياض وقتلا عجلان، حاكم ابن رشيد، عندما كان فاراً نحو الكوت أو حصن الرياض. وأضاف قائلاً: (آه يا أبا سعود كانت تلك أياماً عظيمة تساوي رؤيتها كل حياة الإنسان. إنه ابن جلوي الذي قذف خنجره نحو عجلان الذي كان فاراً فأخطأه[٢] فلحق به وأمسكه من ساقه عندما كان يحاول الدخول عبر الباب الصغير في البوابة وألقاه أرضاً إلا أن سيف عبدالعزيز هو الذي قطع رأس عجلان عندما استلقى الأخير على الأرض يتعارك مع ابن جلوي. وما زالت حتى الآن في مخيلتي صورة ابن سعود وهو يستعد لمداهمة بيت نساء عجلان. كم كان هادئاً، فقد رمى عقاله وربط الكوفية حول رأسه ورقبته وأتبع ذلك بعقد كُميَّه الطويلين بعناية خلف رقبته).

كانت زوجة عجلان امرأة مدهشة، فقد وجدت غائبة في نوم عميق فلمسها ابن سعود ليوقظها فتنبهت قائلة (مينو، مينو من هذا؟ من هذا؟) وعندما أخبرها ابن سعود عن نفسه لم تصرخ، كما هي عادة معظم النساء، إنما قالت: (والنعم يا أبو تركي والنعم). وهي في الواقع أظهرت فيما بعد مزيداً من الشجاعة بمحاولتها قتل عبدالعزيز بسحر شرير.

---

(١) حسب رواية ابن سعود التي رويت لي مؤخراً في تشرين الثاني ١٩٣٧ لم يكن عبيد المتلقم بين العشرين الشهيرين بل كان من المؤيدين لابن سعود الذين انتظروا خارج الرياض في بساتين النخيل. (المؤلف).

(٢) إن الأثر الذي تركه خنجر ابن جلوي عندما أخطأ عجلان مازال بالإمكان رؤيته على الباب الكبير للحصن في الرياض حتى اليوم. (المؤلف).

أثناء رحلة العودة، وفي نهاية يوم جميل، أوقفنا بعض نوق العوازم الحلوبة وشربنا منها جميعاً. ولكن عـدس أخجلنا إذ شرب خمس أوان من الحليب متتابعات دون توقف. أما صغَار الإبل فكانت سعيدة بلقاء أقرانها لدينا فلامست برؤوس أنوفها صغار إبلنا بحنان ورقة، كما أن أمهاتهم لم يشعرن بالفزع أو القلق.

حديث مع راشد بن فهد

أثناء إحدى رحلاتي العديدة الجميلة بين مضارب قبيلة عجمان، وفي العاشر من أيار عام ١٩٣٥، قابلت رجلاً ممتعاً يدعى راشد بن فهد من عشيرة العرجة العجمانية. قابلته في خيمة عنيزان المنيخر فروى لي العديد من القصص عن قبيلة مرة وعن الحياة فيها.

أ ـ فعندما كان إلى الجنوب من آبار جبرين والمغينمة، وبالقرب من أم الحديدة وإلى الجنوب من ذلك الموقع، كان قد سمع عن الحجارة التي تمشي إلا أنه لم ير منها إلا القليل ولمرة واحدة وقد كان هذا عندما كان في غزوة مع المرحوم زيدان الحثلان شيخ عجمان. قام زعيمه مع آخرين بفحص الحجارة بعناية وقالوا إنها مسكونة بالجان. إن ما رأوه كان حصى بحجم بيض الحمام في أرض حصوية. هذه الحصيات كانت قد دفعت أو تدحرجت لمسافة ستة أقدام على الأرض كما تدل الآثار التي خلفتها بوضوح. بضع حصيات فقط هي التي تغير موضعها، أما البقية فلم يتحرك منها شيء، مما يدل على أن ذلك لم يكن بفعل عاصفة قوية وإلا امحت الآثار.

ب ـ كما كان قد سمع من أفراد قبيلة مرة عن الرمال التي تغني إلا أنه لم يسمعها بنفسه. وقالوا له إن هذا الصوت من عمل الجان الذين يصدرون أصواتاً أخرى في الصحراء كبكاء الأطفال وأصوات المسـدسات ورنين المهابج كما لو أن هناك مضارب مجاورة. وأكد راشد أن هذه الظواهر معروفة في الرمال (الربع الخالي) وأنها دائماً من عمل الجان (الأرواح).

ج ـ وأضاف إن بعض أفراد قبيلة مرة خرجوا من الصحراء مخبولين يغنون ويضحكون بطريقة غريبة. كان هذا ولا شك بتأثير الجان.

د ـ وأردف إن تعبير الربع الخالي هو تعبير حضري لا يعرفه البدو وأنه هو نفسه لم يسمعه سوى مرتين أو ثلاثاً.

هـ ـ إن راشد يعرف سبعة من الأدلاء، الذين رافقوا فيلبي في رحلته عبر الربع الخالي، معرفة شخصية. أحدهم هو فالح أبو جعشة وهو ابن عمه (انظر الصفحة العاشرة من كتاب فيلبي وكذلك الجزء الأول من هذا الفصل).

المرأة الميتة التي أرضعت طفلها

(رويت من قبل ضويحي بن خرمة من العوازم في الواحد والعشرين من نيسان عام ١٩٣٥ في المضارب في الملاح، الكويت).

كان أحد رجال العوازم مسافراً قرب حائل مع زوجته الشابة التي كانت حاملاً. وأثناء مرورهما في ممر بين الهضاب الصحراوية أتى المرأة المخاض وولدت ذكراً إلا أنها توفيت إثر الولادة. بذل الزوج كل ما بوسعه لإنقاذها ولكنه كان وحيداً فلم يفلح، فدفنها بوضع جثمانها في كهف صغيرة في الجوار، ثم ملأ مدخل الكهف بالحجارة. لم يرغب باصطحاب الوليد لأنه يعلم أنه سيموت قريباً لحاجته للحليب فأسنده على ثدي أمه الأيسر ووضع فمه عليه ولف ذراع أمه اليسرى حوله ثم ركب راحلاً.

بعد تسعة أشهر تصادف مرور مجموعة من البدو من نفس القبيلة قرب البقعة التي دفنت فيها المرأة ووليدها. ولكونهم يعلمون بالقصة فقد اتجهوا نحو مدخل الكهف ليروا ما إذا كان الجدار الحجري مازال قائماً. ولدهشتهم وجدوا أن بعض الحجارة قد أزيلت لإحداث فتحة في الجدار، ووجدوا في الخارج آثار أقدام طفل يجري حول المكان. ملأ الرعب الجميع فركبوا وغادروا المكان بسرعة. ثم أعلموا والد الطفل بما رأوه فأسرع هذا إلى موقع الكهف ووجد الفتحة في الجوار وبضعة آثار أقدام. نظر داخل الكهف ليجد الطفل حياً يثرثر إلى جوار جثمان أمه. كان الجثمان قد جف كله عدا العين اليسرى والجانب الأيسر من الوجه والثدي الأيسر (الذي كان مليئاً بالحليب) وكذلك الذراع اليسرى. هذه الأعضاء كانت حية كتلك التي تملكها أية امرأة حية. خاف الرجل وحمد الله ثم أخذ الطفل ووضعه على جمله مصطحباً إياه بعد أن دفن الجثمان في قبر رملي.

حسب قول الراوي وقعت أحداث هذه القصة في أيام أبيه، وقد علم من أبيه أن الطفل كبر برعاية الله، وأصبح محارباً شهيراً في قبيلته، ويدعى (خَلَوي) وما زال حياً حتى اليوم إلا أنه مُسن. أما اسم خلوي فيعني (وُلد في الصحراء).

الصيادون العَوازم والغريب الأعمى

كان فهد المحيط عجوزاً عوازمياً يعيش مع زوجته وولده وزوجة ابنه وابنته وبضعة أطفال. يعيش هؤلاء جميعاً في خيمتين على شاطىء البحر في الجزء الجنوبي من أرض تعرف باسم رأس الأرض، وهي تبعد حوالي أربعة عشر ميلاً عن الكويت. كان العجوز فخوراً بقبيلة العوازم الكبيرة الغنية. ومع أنه كان فقيراً إلا أن القبيلة لم تنسه أو تقطع صلتها به. فكل ربيع تأتيه بأربع أو خمس نعاج أو شياة لتؤمن له الحليب اللازم حتى حلول الصيف، يعيدها إلى مالكيها. هذه العادة تدعى (مَنيحة).

في الربيع والصيف يلجأ الصديق فهد ـ باعتباره صياداً ـ إلى تدبير أموره بوضع فخ للأسماك من القصب في البحر قبالة بضعة من أشجار السدر التي كانت مكاناً جميلاً نطلق فيه حيواناتنا المدللة عندما نرغب بالسفر إلى انكلترا.

أما في الشتاء فإنه وابنه يقومان بصيد الأسماك من الشاطىء بواسطة شباك مستديرة، ينقلها حمارهما الوحيد إلى السوق لتباع لقاء عدة أجزاء من الروبية.

في الأول والخامس عشر من كل شهر عربي، ولمدة أربعة أيام، يقوم سكان الشواطىء بجمع بعض الأصداف تدعى (زَبابيت) وذلك عند انحسار الماء عن الشواطىء في الجزر وانكشاف هذه الأصداف. كل العوازم مغرمون بهذا العمل، وقد حاولت ذلك مرة، إلا أن أصدافي كانت مليئة بالرمل، فلم أستمتع بها. وأعتقد أن السكان المحليين لديهم خبرة في تنظيفها أكثر مما لدينا نحن.

في أحد الأيام، وأثناء تجولنا على شاطىء البحر، وبالمرور قرب خيمة فهد، رحبت بنا زوجته ودعتنا إلى خيمتها، فدخلنا فأخرجت لنا حقيبة كبيرة من الكمأة عثر عليها زوجها، قدمتها لنا، فأخذنا منها خمس قطع كبيرة استمتعنا بها مشوية على العشاء.

بعد ذلك سألت عمن يكون ذلك الأعمى العجوز جداً، الجاثم في الزاوية فأجابتني المرأة قائلة: (إنه ليس من أقربائنا، ولكنه عاش معنا منذ أربع سنوات، لقد وجدناه في الكويت، ضريراً ليس له من يرعاه. لذلك أتينا به هنا ورعيناه منذئذٍ حتى الآن. إنه أحد أفراد قبيلتنا وعلينا أن نفعل ذلك حرصاً منا على شرفها). وقد لاحظت خيط صيد أبيض يمتد على الأرض من داخل الخيمة حيث يربض الضرير إلى خارج الخيمة، وقد ثبت بوتد على بعد ثمانين ياردة، فسألت: (لم يستعمل هذا الخيط؟)،

أجابت المرأة: (إنه مخصص للرجل الضرير ليتبعه عندما يرغب بإراحة نفسه في الخلاء ليلاً، إذ أننا نخشى أن يضل في الوقت الذي نحن فيه نائمون، ولا يمكننا سماع ندائه فهو بهذه الطريقة يخرج ويعود بأمان وحيداً مستعيناً بهذا الخيط).

في زيارتنا الأخيرة، أخذنا للعائلة خمس روبيات مقابل الكمأة، سعد الجميع بالنقود وأعطونا المزيد ورجونا أن نأخذ نصيبهم من صيد السمك الذي تألف من أسماك قرش صغيرة وسمكة حمراء جميلة بحجم كف اليد تدعى بنت البحر، وأربع سمكات أصغر حجماً ولكننا أصرينا على تركهم لعشائهم.

أعطت المرأة لكل من بناتها وحفيداتها روبية من الروبيات الخمس التي جلبناها وهي تقول: (سوف تجلب لك هذه ثوباً جديداً للعيد. شكراً لأبي سعود). وزعت أربعاً وبقيت الخامسة لها. قال الزوج وهو يشير إلى لباس ابنه الدخاني اللون المصنوع من أكياس الرز القديمة: (لقد صنعنا عباءات من الخيش كما ترى، إلا أنها حارة وليس هذا بالأمر الهام لنا. عد إلينا مرة ثانية فسيكون لدينا حليب نقدمه لك. وتذكر أنك في أي وقت احتجت لخدمة تؤدى من قبل العوازم، وأنا واحد منهم، فستجدني خادمك في كل وقت).

عندما سرنا باتجاه سيارتنا قابلنا ثلاثة ضيوف متجهين نحو خيمة العائلة. من الواضح أنهم حضروا من أجل موسم (الزبابيت) لأنها كانت ليلة القمر الجديد وهم يأملون بصيد وفير.

لقد فكرنا مدة طويلة بذلك الضرير العجوز والخيط الذي يقوده بعيداً لمسافة مناسبة عن خيمة مضيفه وحاميه. إنهم في الواقع محسنون، فعلى الرغم من قسوة الحياة عليهم، ما زالوا يجدون الفرصة وما يلزم للإبقاء على غريب ضيفاً في خيمتهم لمدة أربع سنوات، لأنه كان من غير معين وأحد أفراد قبيلتهم.

المخلصة أسمية الدَغَمَّة

(قصة حقيقية)

يحكى كقصة معروفة في السعودية، أنه بعد محاولة الاعتداء على حياته في المسجد الحرام بمكة في عام ١٩٣٤، عاد جلالة الملك عبد العزيز آل سعود إلى عاصمته الرياض. في ذلك الوقت، دخلت امرأة مسنة من العوازم في أحد الأيام مناخة قصره، حيث يتوقف الضيوف والذين يرغبون بمقابلته ليترجلوا عن إبلهم ويربطونها بأمان، دخلت وأناخت جملها، وترجلت عنه ثم رجت أتباع الملك أن يدعوها تراه.

وأضافت إنها لا تريد سوى أن تلقي نظرة على سيدها وإمامها المحبوب الذي عاد إلى بيته سالماً كما قال الرجال.

نقلت الرسالة إلى جلالة الملك عبد العزيز الذي أمر أن يؤتى بها إليه. ولما وقع نظر الدغمة العجوز على ملكها المحبوب جرت نحوه وهي تلهج بكلمات الترحيب وحمد الله على سلامته من سكين المغتال الغادرة. إنها لنعمة. قال لها الملك: (لقد منحك الله ما تريدين يا أماه. قولي ما في قلبك ثم قولي ما ترغبينه). فقالت: (يا عبد العزيز، امنحني إذنك في أن أقبل قدميك مرة قبل أن أموت لأن متعتي الغامرة في رؤية أبي الميت يعود للحياة مرة أخرى أقل من متعتي في رؤية شيخي الذي قيل أنه قتل، قد عاد إلى بيته سالماً).

تأثر الملك كثيراً ومنح المرأة ما أرادت. وعندما رفعها عن الأرض برقة أعلن أنه مكافأة لولائها وإخلاصها، فالدغمة وكل أهل بيتها من الآن فصاعداً لن تدفع الزكاة، ويستمر هذا حتى أولاد أولادها.

كذلك كانت طريقة ابن سعود العظيم، وبهذه الأعمال كان يكسب حب وولاء شعبه. هذا وما زالت الدغمة حية بين العوازم حتى هذا اليوم الخامس والعشرين من شباط ١٩٣٩.

قصة صيّاد عربي

(قصة حقيقية مشهورة في نجد)

كان هناك رجل من قبيلة شمر في الجزيرة العربية. هذا الرجل كان رياضياً ماهراً وتسليته المفضلة هي صيد البقر الوحشي. في أحد الأيام ركب ذلوله باتجاه هضاب جبل شمر، قاصداً أن يقضي عدة أيام في الصيد كما هي عادته، وأخبر زوجته أنه سيعود بعد أربعة أيام قبل الظهر. أما إذا لم يعد فسيكون إما مريضاً أو أن حدثاً مشؤوماً وقع له.

في صباح اليوم الرابع عاد شقيقه الذي كان في رحلة طويلة في الحسا. وحال وصوله سأل عن مكان أخيه فعلم أنه ذهب للصيد ولكن يجب أن يعود في نفس هذا اليوم قبل الظهر. وحل الظهر دون أن يصل، وكذلك الغروب دون أي علامة عن وصوله. عند ذلك أرسل الأخ في طلب ذلوله وأخذ بعض الطعام ليخرج بحثاً عن أخيه.

كان الأخ يعلم مكان وجود البقر الوحشي بأعداد كبيرة حيث المراعي الكثيرة،

مما جعله واثقاً من توجه أخيه نحو ذلك المكان.

قضى الأخ ليلته مسافراً. وعند الصباح مر بمخبأ أعد في الأرض بعناية ومحاطاً بأجمة. إلا أنه فوجىء برؤية بندقية وعلبة بارود بالإضافة إلى خنجر يعرف معرفة تامة أنه خنجر أخيه. كما لاحظ خطاً من الدم غير منتظم يخرج من المخبأ ليتجه بعيداً مع آثار أقدام لعدد كبير من البقر الوحشي حول المخبأ وخط الدم. فرأى أنه عليه اتباع خط الدم، وهذا ما فعله ليجد بعد مسافة بسيطة ذلول أخيه ترعى بأمان. أخيراً وبعد مسيرة عدة أميال وجد قطيعاً من بقر الوحش يرعى، فاقترب منه ببطء وحذر وهو يتبع آثار الدم على الأرض حتى فوجىء برؤية شقيقه على ظهر إحدى الأبقار وفخذيه فوق قرنيها الشبيهين بالحراب. أما رأسه فكان يتدلى فوق ذيلها وذراعاه حول بطنها.

ماذا عليه أن يفعل الآن؟ إذا أطلق النار على البقرة ربما أصاب أخاه وقتله. وكيف له أن يقترب أكثر ليقتل الحيوان بخنجره فالصياد ما زال حياً وواعياً رغم ما فقده من دمه.

فكر الأخ بطريقة ودار مسافة كافية حتى وصل إلى وهدة اختفى فيها عن الأنظار، وقام باختيار أحسن بقعة نما فيها العشب لأن البقر الوحشي سيفضلها. وبين العشب والأزهار غرز خنجريه في مكانين متباعدين ودعا إلى الله أن تأتيَ البقرة إلى هذه البقعة ليتسنى لأخيه الوصول إلى أحد الخنجرين. ابتعد بعد ذلك مسافة بسيطة واختبأ خلف صخرة منتظراً. وبثقة تامة أتت البقرة إلى نفس البقعة التي غرز فيها خنجريه وصار بمقدوره الإيماء أو الإشارة لأخيه أن يبحث عن الخنجرين دون إفزاع البقرة. نظر الرجل من ظهر البقرة بحذر شديد فرأى خنجره مزروعاً في الأرض، وباستطاعته أن يتناوله بيد واحدة، فتناوله ووجد في نفسه بقية من قوة ليغمد الخنجر في قلب الحيوان ففعل. عندها تدحرج الحيوان على الأرض في حين اندفع الرجل الكامن ليطلق على الحيوان الرصاصة الأخيرة. وصار عليه أن يخلص أخاه من قرون الحيوان المغروسة في فخذيه فنفذ ذلك بنجاح ثم ضمّد جرحه بأحسن ما يستطيع ووضعه على ذلوله مع البقرة القتيلة.

بقي الأخ مريضاً جداً لعدة أشهر إلا أنه تعافى ببطء، ولما شعر بالتحسن أخبر عائلته بكل ما حدث له، وكيف أنه عثر على قطيع كبير من بقر الوحش، فاختبأ في مكان هيأه جيداً وانتظر ساعات طويلة ليقترب القطيع من مخبئه مسافة تدخل في المدى المجدي للبندقية. وعندما وجد الفرصة مواتية أطلق بندقيته القديمة المحشوة على أكبر حيوان في القطيع ووثق أنه قتله، فقفز تهيؤاً للخروج وإحضار الحيوان. وفي هذه اللحظة انطلق الحيوان الجريح نحو المخبأ بخط مستقيم مستدلاً بحاسة الشم

دون رؤية مصدر الطلقة. وعندما انتصب الصياد واقفاً خارج المخبأ، كان الحيوان منطلقاً نحوه ورأسه متجه للأسفل فتخللت قرونه الطويلة ساقَيْ الصياد ورفعه وجرى به بعيداً. ومع أن إصابته كانت بالغة جداً إلا أن عقله كان حاضراً فقد استطاع أن يتمسك بشدة، وبكلتا يديه، ببطن الحيوان لأنه كان يعرف أنه إذا سقط على أي من الجانبين فإن رأسه ستتحطم على الأرض، ولم يكن بوسعه أن يقتل الحيوان لأنه أعزل فخنجره وبندقيته سقطا عندما هاجمه الحيوان.

القصة قديمة، ويعتقد أنها صحيحة، وهي معروفة لدى كل أفراد قبيلة شمر، ويقال إن أحداثها وقعت قرب حائل قبل مئة عام.

رواها عبد الله العثمان الراشد من بُريدة.

إبراهيم وإسماعيل

عند العودة إلى البيت بعد رحلة صيد بالصقور في خريف عام ١٩٣٧ بصحبة مرشد بن طواله من قبيلة شمر، كنت أتدارس معه مشكلة فلسطين وسألت عن السبب الذي يجعل العرب يكرهون اليهود[١].

قال مرشد: يا أبا سعود، لقد أخبرنا الله أن اليهود شعب ملعون وشهادتهم غير مقبولة. لقد كانوا دائماً يقفون في وجه أي نبي يرسل إليهم، ولا سيما موسى وعيسى. وعندما أرسل الله النبي محمداً آخر الأنبياء أفلم يحاولوا قتله ثلاث مرات؟ نعم يا أبا سعود إنهم شعب قاس وعنيد وكانوا كذلك دائماً. أما نحن البدو فنكرههم بشكل خاص بسبب تآمر زوجة إبراهيم على هاجر أم إسماعيل التي تركتها بوحشية في الصحراء الخالية من الماء وهي تعلم أنها ستموت عطشاً. ولكن الله أنقذها وابنها الذي هو جدنا. أما إبراهيم فقد امتلأ ندماً وقضى سنواته الأخيرة في البحث عن ولده إسماعيل، بعد أن أنبأه الله أنه ما زال حياً وسينال من الله بركة عظيمة. إن كتابكم والتوراة اليهودي يتجاهل هذا. كما أنهما لا يذكران كيف أن إبراهيم وجد ابنه وأمره الله أن يأخذه إلى جبل عرفات ليذبحه قرباناً لله. إن بني اسرائيل الملعونين لا يذكرونها بهذه الطريقة، فهم يقولون إن إسحق هو الذي كان الله يفضله. وقد أعدوا الكتب المقدسة بطريقة جعلت أحفادهم كما جعلتكم تعتقدون - أنتم المسيحيون - حتى هذا اليوم أنه إسحق وليس إسماعيل الذي كان سيذبح قرباناً لله.

(١) لاحظ الفكر الاستعماري للمؤلف ديكسون من هذه العبارة فتاريخ الحديث هو سنة ١٩٣٧ والثورة الفلسطينية على أشدها، وبريطانيا تستعمل أشد وسائل الفتك والقتل للقضاء عليها، وذلك في سبيل إقامة الوطن الصهيوني على الأرض العربية.

قلت لمرشد: (أخبرني القصة يا مرشد فأنا لم أسمعها). فقال: سوف أختصرها لك لأنها طويلة جداً وسيتضح لك على كل حال أن إبراهيم عوَّض هاجر، أم إسماعيل، عن الخطأ الذي ارتكبه بحقها وأثبت أن إسماعيل كان أغلى ولديه والولد المفضل عند الله. ولا تنس أن إسماعيل هو الجد لنصف الجنس العربي، أما النصف الآخر أو الجنوبي فهو الأقـدم وقد انحدر من قحطان بن شيت وهو الفرع الأقدم من أجداد إبراهيم. وقد أطلق المنحدرون من قحطان على إسماعيل وأحفاده اسم العرب المستعربة بينما سموا أنفسهم بافتخار العرب العاربة وهم الذين كانوا عرباً منذ البداية.

عندما اقتيدت هاجر إلى الصحراء لتموت هناك مع ابنها. هاجر إبراهيم إلى الجنوب كما كانت عادته السنوية، وكما هي عادة كل البدو في التنقل بحثاً عن المرعى. وكان المكان الذي تُركت فيه هاجر غير بعيد عن الأرض التي تقوم عليها مدينة مكة اليوم. كما أن بيت الله الحرام لم يكن قد بني بعد.

في الوقت الذي كانت فيه هاجر تكاد تموت عطشاً، اشتد حزنها وخوفها على وليدها. وبذعر شديد تركت طفلها في بركة رملية وبدأت الجري قرب رابيتين صغيرتين قريبتين وهي تبتهل إلى الله كل الوقت لينقذ ولدها. وقد عرفت الرابيتان الصغيرتان فيما بعد باسم الصفا والمروة وهما الآن تقعان داخل حدود مكة الحديثة. هذا وقد استجاب الله دعاء هاجر، إذ أنها عندما عادت مترنحة منهكة القوىٰ لترى فيما إذا كان ولدها ما زال حياً، وجدت ثميلة صغيرة من الماء في قعرها حفرة صغيرة هي موضع أقدام الصبي الذي كان يضرب الرمال بقدميه. فحفرت المزيد فيها ليتسرب الماء إلى الحفرة ثم شربت حتى ارتوت. لقد استجاب الله دعاءها وحفظها وولدها. هذه الثميلة هي البئر الشهيرة اليوم باسم (زمزم) والتي تقع في الحرم في مكة. فيما بعد عثر الأعراب على هاجر فاعتنوا بها وصارت واحدة منهم. وبمرور الوقت كبر إسماعيل والتحقت هاجر بأهلها ولم تر إبراهيم بعدها.

أما إسماعيل فقد تزوج فتاة من القبيلة التي استضافت أمه، وبنى لها بيتاً صغيراً من الحجر والطين قرب منبع الماء الذي أنقذ حياته وحياة أمه. ومن هذا البيت صار إسماعيل ينطلق يومياً لرعاية الإبل والماشية ليعود إلى زوجته في المساء. وهو إلى جانب ذلك صياد ماهر.

عندما بلغ إسماعيل الخامسة والعشرين من عمره أمر الله إبراهيم العجوز في الحلم أن يعاود البحث عن ابنه إسماعيل، وانتقل مع إبله إلى المنطقة التي يقيم فيها إسماعيل. وصار يخرج يومياً بحثاً عنه حتى قادته خطواته، بإرادة الله، في أحد الأيام

إلى بيت إسماعيل الصغير. ولما رأته زوجة إسماعيل شيخاً ينيخ جماله المتميزة أمام بيتها خرجت إليه ودعته إلى بيتها، فدخل العجوز وجلس. إلا أنها لم تقدم له سوى شربة ماء متعذرة بأن ليس لديها طعام في البيت، وهذا ما لم يكن صحيحاً إذ كان لديها الحليب والتمر اللذين ضنت بهما على الغريب. أحس إبراهيم أن هذا البيت لا بد أن يكون بيت ابنه المفقود، إلا أنه لم يقل شيئاً، ونهض ليغادر. لكنه أثناء اعتلائه جملة قال للمرأة: (يا امرأة، عندما يعود زوجك قولي له أن ينظف عتبة داره)، وانصرف.

عاد إسماعيل في المساء فروت له ما حصل ورددت له الجملة التي طلب الشيخ أن تقولها لزوجها. غضب إسماعيل وقال: (يا امرأة، هذا يعني أنك أسأت التصرف وفشلت في إكرام الضيف بتقديم كل ما لديك له، فأنت عتبة داري ويجب أن أنظفها). ثم طلقها وأعادها إلى أهلها.

لم يطل الوقت على إسماعيل حتى تزوج مرة أخرى. وبعد سنتين عاد إبراهيم لزيارته كما فعل سابقاً، وكان إسماعيل غائباً أيضاً، فاستقبلته الزوجة وقدمت له بلطف كل ما كان لديها في البيت. وعندما نهض الشيخ مغادراً قال وهو يعتلي جمله: (يا امرأة، قولي لزوجك أن يحرس عتبة داره لأنها ستكون مباركة على ما فعلته اليوم).

عاد إسماعيل من الصيد وسمع قصة الشيخ وما قاله ففرح كثيراً وقال: (أنا أشم رائحة أبي، ومؤكد أنه هو الذي كان معك اليوم. مباركة أنت يا زوجتي لأن أولادك ستطبق شهرتهم الآفاق وعبر الأجيال لأنهم يقرون الضيف الغريب). هذه إشارة إلى أن أولاد إسماعيل كانوا مباركين ومقربين إلى الله.

نهض إسماعيل بعد ذلك وبدأ البحث عن أبيه حتى وجده بعد بضعة أيام وعرفه على نفسه ففرح إبراهيم كثيراً بالعثور على ولده.

عندما بلغ إسماعيل السابعة والعشرين حلم أبوه إبراهيم حلماً، فنادى ابنه إسماعيل وقال له: يا بني لقد رأيت في الحلم أني اصطحبتك إلى ذلك الجبل العالي، فهيىء لي حماراً أركبه واتبعني. أثناء الرحلة إلى الجبل سار إسماعيل خلف أبيه على بعد خطوات، فظهر إبليس من خلف بعض الصخور متنكراً بهيئة شيخ كريم وقال لإسماعيل: (يا بني، لا تتبع خطوات هذا الشيخ الخرف الذي يسير أمامك لأنه من المؤكد أنه سيقتلك على قمة هذا الجبل. عد وانج بنفسك). لكن إسماعيل شتمه ودفعه بعيداً عنه ورماه بسبع حصوات ـ يعرف المكان الذي رمى فيه إسماعيل ابليس الملعون بالحصوات، يعرف الآن باسم (منى) وهو محدد بثلاثة أعمدة يرميها

المسلمون بالحصى أثناء الحج. أما الجبل فيعرف باسم عرفات أو جبل الشهادة، ويزوره آلاف المسلمين أثناء تأدية فرائض الحج.

عند وصول إبراهيم وإسماعيل قمة الجبل قال الأب لابنه: (يا بني لقد رأيت في الحلم أني ذبحتك). فقال إسماعيل لأبيه: (يا أبت، إن رغبتك هي رغبتي، ولكن شد وثاقي جيداً حتى لا أرتجف، واخلع عني ثيابي حتى لا تتلطخ بالدم وتحزن زوجتي لرؤيتهم كذلك، وأشحذ سكينك جيداً ومررها على حنجرتي بسرعة فبذلك يكون الموت أسهل. وعندما تعود إلى زوجتي بلغها سلامي وأعطها قميصي إن رغبت فقد يريحها قليلاً). فقال إبراهيم: (يا ولدي، ساعدني على فعل ما أمرني الله به).

نفذ إبراهيم ما طلبه ابنه، وبعد أن أوثقه انحنى عليه وقبله. وهو يبكي طيلة الوقت، كما بكى إسماعيل حتى سالت الدموع على خديه. ثم مر إبراهيم بالسكين على حنجرة ابنه إلا أنها لم تقطع فيها. ويقال أن الله غلف حنجرة إسماعيل بالنحاس. فقال إسماعيل لأبيه: (يا أبت، أدر لي وجهي فقد تشعر بالحزن إن رأيت عينيَّ وتمنعك الشفقة من تنفيذ أمر الله). ففعل أبوه كذلك، ولما وضع السكين على مؤخرة رقبته ارتدت وسمع صوتاً يقول له: (يا له من عمل مخلص، أنت حقاً عبد صالح يا إبراهيم). فتلفت إبراهيم حوله ليجد كبشاً قرونه كالشجيرة فذبحه بدلاً من ابنه.

أقام إبراهيم قليلاً مع ابنه وزوجته ثم غادر إلى دياره بينما بقي إسماعيل حيث يقيم.

يبدو أن هذه القصة مأخوذة من كتاب قديم جداً اسمه (قصص الأنبياء). وقد كتب منذ عدة قرون. وليس لدي كتاب يشير إلى تاريخه. إنما يكفي أن أقول إن الكاتب كتب عدة قصص بالرجوع إلى أحداث إنجيل العهد القديم. وتعتبر كل معارف البدو تقريباً في الجزيرة العربية عن أحداث الإنجيل القديمة مأخوذة عن هذا الكتاب. ولقد قيل أن المثقفين من المسلمين لم يعيروا كتاب قصص الأنبياء أي اهتمام، لذا فأنا أميل إلى عدم تصديق هذه القصة.

ولكن من المفيد أن نتعلم من هذا الكتاب أن المسلمين الأوائل اختلفوا في تحديد الشخص الذي رافق إبراهيم ليضحي به، فالقرآن لم يشر إلى الاسم بجلاء. وقد ذهب بعض المعروفين إلى الاعتقاد بأنه إسحق وليس إسماعيل، بينما قرر آخرون أنه يوسف. إلا أن التقليد الذي استمر لمدة طويلة حتى وقوع الحريق الذي أصاب الكعبة أيام الحجاج وهو تعليق قرني الكبش على جدرانها جعل كاتب قصص الأنبياء يقرر أنه لا بد أن يكون إسماعيل.

انتقام غير طبيعي لأب

(قصة حقيقية)

وقعت أحداث القصة التالية في أطراف الكويت في أول آذار عام ١٩٣٩ قريباً من مخيمي. وبطل القصة الرئيس معروف شخصياً من قبلي وزوجتي.

كان فالح بن خُضيِّر رجلاً كويتياً معروفاً ميسور الحال، أتى من منطقة مطير القبلية. وقد اعتاد في أشهر الصيف أن يتولى إدارة أحد مركبيه المخصصين لصيد اللؤلؤ. أما خلال فصول الخريف والشتاء والربيع فإنه يعود لحياة البدو فيتوغل عميقاً في الصحراء لينضم إلى أبناء جلدته قبيلة مطير في شمال شرق الجزيرة العربية، متنقلاً معهم عبر مناطق الصُمان وقرعة ودبدبة.

ابن خضير هذا كان رجلاً ثرياً يمتلك العديد من الإبل والغنم، لذا لم يكن له اتصال بأي من عائلات شيوخ مطير. فثروته جمعت حوله من الأتباع ما يكفيه. هذا إلى جانب كونه يتمتع باحترام الجميع بدءاً من شيخ الكويت وما دونه.

كان لفالح ولد وسيم في الحادية والعشرين من العمر، ممتلىء بالحيوية[1]، وقد حدث أن تشاجر الولد مع أبيه يوماً من أجل فتاة، كما يقال، وأخذ الخلاف يزداد يوماً بعد يوم، إذ لم يتنازل أحدهما للآخر عن عزمه وتصميمه على الزواج من هذه الفتاة وأصر كل منهما على أن يخطبها لنفسه، وأخيراً قرر الولد الرحيل عن والده، والاتجاه إلى العراق بحثاً عن حياة جديدة في خدمة الملك غازي.

استعد لتنفيذ قراره، وأخذ الاحتياطات اللازمة، وحدد ليلة المسير، ووسائلها وكل ما يلزم لذلك، وعندما خيمت قبيلة المطير في دُبْدِبَة «على الحدود الكويتية الغربية» نهض الشاب في الليلة المحددة فيها من نومه، وانسل بحذر شديد من مضارب قبيلته بعد أن ركب أحسن ذلول عند والده، كما ربط فرس والده في مؤخرة الذلول، وأخذ بندقية والده معه، وحزام ذخيرة بندقيته، مع بعض حفنات من التمر ليتزود بها أثناء رحلته، وقربة ماء خفيفة. وكان عليه أن يقطع أربعين ميلاً ليدخل الأراضي العراقية بسلام، وكان يعتقد أن لا حاجة به أن يحث الخطى ويستعجل المسير.

لكن الوالد استيقظ مذعوراً قبل طلوع الفجر إذ تبين له هروب ولده، وأذهلته

---

(١) اسم الولد محمد فالح الخضير ولا يزال حياً حتى صيف ١٩٨٨. (المعلق).

المفاجأة أكثر عندما علم بما أخذه معه، وسيطرت عليه موجة من الغضب الشديد أفقدته صوابه. ولم يضع وقتاً فركب ذلولاً على الفور، وأخذ يطوف في مضارب القبيلة منادياً بأخذ الثأر، مدعياً أن بعض الخدم من قبيلة عنزة قد سرقوا له فرسه وذلوله وبندقيته، وكان يطوف صارخاً بأعلى صوته طالباً النجدة والثأر، وهو يعلم جيداً مدى العداوة التي تسيطر على علاقات قبيلته بقبيلة العنزة، وكان في تطوافه يحثهم على الإسراع للّحاق بهم، وكان ينادي يا أبناء عمومتي لا يزال أمامنا متسع من الوقت فلنلحق بهم. وهو يعلم جيداً أن من قام بهذا العمل هو ابنه، إلا أنه غرر بهم، ولم ينتبه أحد في البداية إلى لعبته الخطرة الحقيرة، ولو أعلمهم أن ولده هو الذي قام بهذه الفعلة لما استجاب أحد لدعوته، لعلمهم بما كان يجرى بينهما من حب لتلك الفتاة، أما عنزة فهو يعلم أيضاً مدى العداوة التي تكنها قبيلته لها، وبهذا فقد اختار لولده القتل سلفاً، وبعد عشر دقائق من طلبه النجدة كان رجال قبيلته على استعداد للثأر، كل منهم على ظهر راحلته، فرساً كان أم ذلولاً، وانطلقوا كالموج الهادر وقد تقلدوا أسلحتهم وراء الغزاة المجهولين المزعومين وهم يطلقون صرخات الحرب الخاصة بالقبيلة، وقد سهلت عليهم آثار حوافر الفرس التي أخذها أمر الملاحقة وتحديد اتجاه سير ذلك الشاب الذي كان يجهل ما كان يخبئه له القدر، واندفعوا بأقصى سرعة متتبعين على الدوام تلك الآثار. وبعد ساعتين من انطلاقهم شاهدوا على مدى النظر في الأفق، الفرس والذلول، فزادوا من سرعتهم وبدأت المسافة تقل بينهم وبين هذا المسكين الذي لم يكن يعلم أن تصل النذالة بوالده إلى هذا الحد، ولما كان الوالد اللئيم رجلاً عجوزاً، لا يستطيع مسايرة الركب في سرعته، فقد أخذ يعدو وراءهم على مهل، وعلى مسافة منهم، وكان في مقدمة الركب على مسافة معينة محمد الوطبان الدويش، إذ كان يخيم الخضير بالقرب منه.

وعندما اقترب المطاردون من الشاب الهارب، حاول التخلي عن الفرس، لأنه لا يعلم من الأمر شيئاً، لكن ذلك لم يجده نفعاً، واقترب منه المطالبون بالثأر إلى مسافة أكثر، وازداد رعباً وخوفاً، إذ لاحظ هذا الحشد الكبير الذي كان يطارده، وقد ثار الغبار إلى عنان السماء وراء تلك الحشود، وسمع أصواتهم، وهم يطالبون برأسه، وأصبح المغيرون قاب قوسين أو أدنى منه فطار صوابه، ولم يعد يدري ما هو فاعل فرمى بنفسه على الأرض، محاولاً بقدر الإمكان أن يحمي وجهه بذراعيه وبعد أن تخلى عن سلاحه، إلا أن المغيرين تجمعوا عليه كالكلاب المسعورة، يريد كل منهم أن ينال شرف قتل هذه الضحية فأشبعوه طعناً بخناجرهم، وهو لا يزال منكباً على وجهه يتلقى الطعن في ظهره وقبل أن يحاول أحد التعرف عليه حزوا رأسه، وفي هذه

الأثناء وصل محمد الوطبان وفالح بن خضير والده، وقد عرف كل منهما الشاب على الفور. وطاش صواب الشيخ محمد عندما علم بحقيقة الأمر، إذ لم يخف عليه طويلاً، وقد عرف بالخدعة التي اتبعها الوالد اللئيم، وكان الخضير بنفس الوقت صديقاً له، وزاد من حزن الشيخ أن تفقد القبيلة أحد أعضائها.

وعاد مرعوباً من أهوال تلك الرحلة المؤلمة. وأخيراً وبعد تردد منع الشيخ فالح بن الخضير من التخييم بين مضارب القبيلة، كما حرمه من أية حماية يطلبها في أحد الأيام من القبيلة .

الفصل الثالث والعشرون

قصص معبّرة

يعتبر العرب من أبرع الشعوب في سرد القصص والحكايات المعبرة، وهناك المئات من القصص والحكايات التي لم تنشر مع الأسف في الغرب.

هذا ويتميز العرب - سواء كانوا من سكان الحاضرة أو البادية - بحبهم للقصص والحكايات المعبرة، كما يعشقون سماعها، وغالباً ما يتم ذلك في جلساتهم حول النار في الصحراء عندما يعودون مساء من أعمالهم على اختلاف أنواعها، كما أن هناك بعض الرواة لأمثال تلك القصص. وهنا فيما يلي بعض الأمثلة.

١ - كيفية استرداد دين مقداره ٣٠ ديناراً؟

«تبين هذه القصة الفائدة من الصديق في الأوساط ذات الجاه والسلطان، وتوضح المعنى من القول المعروف، لا تدع نورك يغيب عن دربي». وهو مثل معروف لدى العرب.

يحكى أن حانوتياً يدعى عبدالله المنصور كان يتاجر بالثياب والنفائس يعيش في بغداد، ويتصف بالطيبُ والصدق. وله جار يدعى موسى بن خليل ذو علاقة حسنة معه كما أنه كان صادق القول والفعل، طلب أن يقرضه مبلغ ٣٠ ديناراً لسداد دين عاجل واجب السداد على الفور، على أن يرده بعد ثلاثة أيام، فما كان من التاجر إلا أن قام وأحضر المبلغ لجاره وسلمه إياه.

إلا أن موسى هذا لم يفِ بما وعد به، ومضى اليوم الثالث والرابع وحتى الخامس دون أن يعيد الدين، مما اضطر عبد الله التاجر أن يتوجه في المساء إلى منزل

موسى المجاور إلى منزله، ويسأله أن يفي بما وعد به، ويسدد دينه، فأظهر موسى كل أنواع الدهشة والاستغراب والاشمئزاز مما يقول، وأنكر عليه ما يقول، ونفى نفياً قاطعاً، ادعاء عبد الله بالدين، لا بل نهض، وطرده من بيته شر طردة، وهو ينعته بأقذر الكلام وأقذعه، موجهاً الشتائم والسباب إلى ذلك المحسن الكريم على مسمع ومرأى جميع الناس. وطرده خارج بيته، واصفاً إياه بالرجل الخبيث، سيىء الطوية والنية، زاعماً أنه يحاول ابتزاز النقود من الناس الشرفاء بادعاءات مزورة كاذبة... إلخ.

بقي عبد الله المنصور مدة يومين، مذهولاً مما جرى، لا يصدق ما حدث له، ويفكر كيف يستطيع أن يرفع عن نفسه تلك المظلمة، ثم ذكر أن الخليفة مشهور بحرصه على أداء الحق لأصحابه، وتذكر أن مجلسه معقود في ذلك اليوم لمعالجة مثل تلك القضايا، وليقيم العدل بين الناس، أغنياء وفقراء لا فرق عنده. فتوجه على الفور إلى قصر الخليفة لعرض قضيته عليه.

ولما حان دوره في الوقت المناسب لعرض قضيته، نهض وشرح ما جرى معه ومع جاره موسى، واستمع الخليفة إلى شكواه باهتمام حسب عادته. وما أن انتهى من سرد قصته، حتى خاطبه الخليفة قائلاً: «حسناً يا صديقي هات بيِّنتك فلا بد أن لديك شهوداً على ما تقول»، فرد التاجر: «وا أسفاه يا سيدي، ولو ملكت الشهود ما أتيتك وكيف لي بالشهود وأنا شديد الثقة بجاري». فرد الخليفة من جديد: «لا بد أنك تملك عهداً مكتوباً يبين دينك ومقداره وحقك في سداده في موعد مضروب؟». ومرة أخرى كان الجواب بالنفي، فأجاب الخليفة: (إذا لم يكن لديك شهود أو سند، فما عليك إلا «البينة لمن ادعى واليمين على من أنكر» فهل تحلف على القرآن أن ما تقوله صحيح) فرد: «أطال الله في عمر الخليفة، في الحقيقة إنني جاهز على أن أقسم على الفور».

ويبدو أنه قرر صرف النظر عن دعواه، وسيعوضه الله بأحسن مما فقد، إلا أن الخليفة طلب منه أن يذهب في اليوم التالي إلى الباب الشرقي من بغداد، ليشهد في الساعة الثانية مرور موكبه عندما سيتوجه إلى الصيد، وطلب منه عندما يمر الموكب أن يطالبه بحقه.

انصرف التاجر المسكين حائراً لا يدري ما يفعل، واستعد ليكون في اليوم التالي في الزمان والمكان الذي أمره الخليفة على تنفيذه. وكان ما كان. ففي صباح اليوم التالي أخذ مكانه بين العديد من الناس على بوابة بغداد الشرقية، لمشاهدة موكب الخليفة، وهو لا يدري ما يعمل، وكان جاره موسى بين الحضور أيضاً. وفي الموعد المحدد مر موكب الخليفة تحيط به حاشيته والجميع على خيولهم المطهمة، كما كان

يرافقه حملة صقوره وعدة الصيد، وما إن أصبح الخليفة تحت قنطرة البوابة، حتى ألقى نظرة باتجاه عبد الله فكبح عنان جواده على الفور وناداه بأعلى صوته فحياه وأشار إليه أن يقترب منه، وصرخ الخليفة قائلاً: «كيف حالك يا مصطفى؟ متى عدت من سفرك؟ آه يا صديقي القديم هل نسيتني، ؟ إنني لم أرك منذ وقت طويل. تعال لرؤيتي هذه الليلة بعد صلاة العشاء، لقد اشتقت لرؤياك، ولتخبرني عن رحلتك الطويلة)، وكان التاجر المسكين مذهولاً لا يدري ما يفعل وقد اعتقد أن المقصود هو بالتأكيد شخص آخر يشبهه، وإلا لماذا كل هذا الاهتمام، كما أنه ليس مصطفى بل هو عبد الله، ولم ينتبه أبداً لما كان يقصده الخليفة. وقد سيطر الذعر على عبد الله واستعاذ بالله من هذه الورطة اللعينة وازدادت حيرته، وسيطر عليه الخوف، لا سيما عندما طلب إليه الخليفة أن يعطيه عنوانه لإرسال محفة لحمله إلى قصره في الموعد المضروب. وفي الموعد المحدد استعد مصطفى، أو عبد الله التاجر لمقابلة الخليفة، وكانت تنتظره على باب منزله إحدى محفات الخليفة. وهكذا تم حمله إلى هناك، وكان الخوف والرعب يملأ قلبه. وكان يفكر بما قد يحدث له من مصير. وما إن وصل إلى قصر الخليفة، حتى استقبل باحترام واقتادوه لمقابلة الخليفة من باب خلفي، فسقط على وجهه وكاد أن يفقد وعيه، وبدأ يختلط عليه الأمر من جديد. وتساءل أحقاً أهو مصطفى أم عبد الله؟ ولماذا يدعوه الخليفة بالصديق، وهو لم يحلم حتى بمجرد تلك الصداقة.

وما إن مثل أمام الخليفة حتى توجه إليه على الفور قائلاً: (حسناً يا صديقي، هل تلقيت دينك؟ مسكين أنت يا عبد الله)، فرد عبد الله على الفور، وكانت بوادر العرفان بالجميل مما عمله الخليفة قد بدت على وجهه، وانطلقت أساريره من جديد واطمأن قلبه، وفهم ما كان يقصده الخليفة. فرد على الخليفة مخاطباً: (آه، يا والد الشعب، رعاك الله وحماك وأبقاك على الدوام رمزاً للعدل وإحقاق الحق. ونصرك الله على أعدائك، وبارك الله فيك. لم أتلق فقط ٣٠ ديناراً بل ٢٠٠ دينار).

فقد خاف موسى العاقبة، مما ظهر من مودة ما بين الخليفة وعبد الله، فأرسل له قبل أن يتوجه إلى قصر الخليفة مع رسول النقود.

٢ ـ ناصر باشا السعدون وفداويه المخلص

(قصة حقيقية)

في الوقت الذي كان فيه ناصر باشا السعدون ـ شيخ جميع عشائر المنتفك ـ والياً للبصرة، جاءه يوماً أحد رجاله المخلصين واسمه مشعب وقد تقدمت به السن،

طالباً منه متابعة خدمته ولو بالإشراف على إعداد القهوة، وكان الباشا مقيماً بالقرب من الناصرية على شاطىء الفرات، فسُرَّ الباشا لهذا الطلب، إلا أنه أدرك أن وراء الأكمة ما وراءها فسأله إن كان في ضائقة ويريد مالاً، فأجاب: (لا، ولكن أريد أن أكون قريباً منك وفي خدمتك أتلقى لعناتك وشتائمك تنفيذاً لوصية والديَّ).

ضحك الباشا كثيراً، وتعجب من أمره، وقال: (حسناً لك ما تريد يا ولدي وسألبي رغبتك). لكنه بقي على شكوكه.

وفي اليوم الثاني، جلس الباشا في مجلسه كما جرت العادة ليرى شؤون ولايته ويستقبل فيها الناس على اختلافهم، وما إن رحب بالناس في مجلسه وأمر أن تدور القهوة كما هي العادة، غمز مشعب العجوز الباشا ليذكره بما وعده أن يقوم به، فناداه الباشا على مسمع من الناس، ودنا مشعب من الباشا، ووضع رأسه بالقرب من أذن الباشا، وأخذ مشعب بتحريك يديه كأنه يشير إلى بعض الناس لإيهامهم بأهميته، وقام الباشا حسبما تم الاتفاق عليه، فشتمه همساً حسب وصية والديه وكان مشعب يحرك برأسه علامة الموافقة على شتمه، وليبرهن للمشاهدين أنه يعير انتباهاً لتعليمات الباشا وأن له حظوة ومقاماً عنده. . . إلخ. وتكرر الأمر في اليوم الثاني، وبنفس الطريقة كما تم في اليوم الأول، واستمر الحال على هذا المنوال أياماً وأسابيع، وأشهراً، إلى أن بدا العجب والاستغراب على الناس جميعاً من أمر الباشا وحاجبه، ولكن الأمر بدأ يتكشف للجميع، ولم يعد الأمر سراً بين جميع الناس، فكل شيء ينتهي إلى نتيجة، حتمية لا مفر منها. فقد جاء في أحد الأيام ابن أحد أبناء مشايخ قبيلة المزارعين قبل ساعة انعقاد مجلس الباشا المعتاد، وقال لمشعب أريد منك أن توصي الباشا بشأني قبل بدء الجلسة ـ والمسألة بسيطة تتعلق بضريبة الدخل، إذ أن جباة الضرائب يحاولون التهرب مني ـ ونقده (٢٠) ديناراً عمولة كثمن لاتعابه. فرد مشعب الماكر الخادع سوف أساعدك بكل تأكيد، وستنفذ رغباتك حتماً. وحسب العادة لا تزال عادة وشوشة الباشا قائمة، كما ازداد عدد الذين يطلبون من الباشا الحظوة لديه وقضاء الحاجات بالوساطة. وكان مشعب هذا لا يرد طلباً لأحد، طالما أنه سيتناول أجره، ولا يهم إن كان ثمن وساطته المزعومة غالياً أم رخيصاً. ولقد جمع من هذه العملية مبالغ لا بأس بها، يمكن كما قال أن تغنيه في شيخوخته من حاجته للناس. وخاف أخيراً أن يفتضح أمره عند الناس وتتكشف لعبته باستغلاله لطيبة قلب ذلك الباشا، فاشترى بعض الجمال والأغنام والماعز والخيل، كما استثمر بعض الأموال في شراء بعض الأراضي، يضاف إلى ذلك شراؤه بعض السفن النهرية التي كانت تبحر من البصرة جيئة وذهاباً، كما اشترى بعض البساتين أيضاً، ودارت الإشاعات والأقاويل أنه المفضل والمسموع

الكلمة دوماً عند الباشا، وأن الباشا لا يرد له أمراً، والباشا لا يعلم في البداية من أمره العجيب هذا شيئاً.

وانقضت ستة أشهر على هذه الحال، وبعد ذلك اقترب مشعب من سيده، ولكن هذه المرة ليعلن على رؤوس الإشهاد وعلى مرأى من الجميع ـ لا لينحني ويضع أذنه على فم الباشا كما جرت العادة ـ بل طلب منه إن كان في الإمكان أن يتوقف عن تلك اللعبة، وليتوقف الباشا عن شتمه، فوافق الباشا على طلبه فوراً، لكن الباشا سأله متعجباً عن السبب الذي دعاه لطلب إعفائه من خدمته وهو الذي رجاه أن يعمل عنده حتى مماته، كما أنه بهذا أراد أن يقدم له معروفاً اعترافاً منه بحسن سلوكه سابقاً. ولم يجد مشعب مناصاً إلا الاعتراف للباشا ما ابتغاه بحيلته من أن يضمن حياته في المستقبل. عندها عرف الباشا السبب وبطل العجب، وحمله أيضاً ما وسعه من الهدايا، كما عرض عليه أن يصبح قائداً لفداويته لكنه اشترط عليه هذه المرة أن يكون شريفاً في مهنته لا يسرق الناس ولا يستغلهم، وأضاف الباشا إذا رغبت يا ولدي يجب أن تعدني بشرفك أن لا تلجأ لمثلها أبداً. إلا أن مشعباً لم يقبل بهذا العرض وودع الباشا وشكره على حسن معاملته. ولقد روى لي هذه القصة ناصر السعدون شخصياً، كما رواها مشعب شخصياً للحاج عبد الله الفالح، والأخير رواها لي بتاريخ ١٨/تشرين الأول/١٩٣٣.

٣ ـ حكاية ذات مغزى ـ عن تجربة أب لولده المبذر ـ

يحكى أنه كان في سالف الأيام، وسابق العصر والأوان، تاجر ميسور الحال، طويل البال، وذو فهم واعتدال، من تجار البصرة، وكان لهذا التاجر ولد مدلل وعند الناس مبجل، وله بينهم مقام، وكان لأبيه وحيد، وليس عليه من مزيد، وكان قرة عين أبيه ومهما طلب يعطيه، وهذا ما أفسد الابن برفقته لعيال السوء، إذ كان الأب لا يرد له طلباً، وما أن كبر الولد وترعرع حتى زاد في مصروفه وإنفاقه، وكان الوالد يعطيه أكثر مما يحتاج ويطلب. وفي أحد الأيام قرر الوالد إخبار ولده أن عليه أن يبدأ عملاً يكسب عيشه بنفسه ويستعد للمستقبل، ففتح له تجارة صغيرة، وأعطاه رأس المال اللازم، إلا أن الشاب المدلل عوضاً عن أن يقوم ببذل الجهد لكسب عيشه، ويعد والده ببذل جهده بدأت تتراكم عليه الديون، وكثر الدائنون فمالهم ولا شك مضمون لدى الوالد، وأصبح لهذا الشاب العديد ممن كان يسميهم بالأصدقاء، وأكثرهم من أصدقاء السوء، إلا أن طلبات الابن لم تتغير بل زادت عما كانت عليه من قبل، وطالب والده بمبلغ كبير من المال فرد الوالد على الطلب قائلاً: (ماذا فعلت بما أخذت من المال الكثير؟،

وكيف أنفقت تلك المبالغ؟). فرد الشاب على الفور قائلاً: (إنه أنفقها على إسعاد أصدقائه ومتعهم). فقال الرجل العجوز: (تقول إن لك أصدقاء عديدين فكيف تقول إنهم أصدقاء كثيرون، يا بني؟. وكم عددهم؟.) فرد الشاب: (ثلاثون من الجيدين، وحوالي المائة من العاديين. إلا أنهم جميعاً أصدقاء).

فصرخ الأب العجوز بعد أن سمع ذلك الشاب الذي لم يجرب الحياة: (يا بني، اسمع من أب مجرب ما يقول: فمن تسميهم بالأصدقاء، وهم يعيشون على ما تنفقه عليهم من أموال ليسوا سوى أصدقاء لما تنفقه عليهم. فكيف تصفهم والحال هكذا بالجيدين؟. فهم ليسوا أكثر من منتفعين ينتفعون بما تنفقه عليهم. وسيتخلون عنك في الشدائد، وهم بذلك ليسوا أصدقاء .أما والدك العجوز الذي هو أمامك، وعلى مر السنين الطويلة، ليس له في هذه الدنيا سوى صديق ونصف صديق، وسأثبت لك قولي بالدليل والبرهان، ولأبين أن الصديق نادر الوجود. وسأقوم بتجربة عملية لتهديك سواء السبيل وتعينك في حياتك لفائدتك ورحمة بك).

استمع الابن المدلل إلى ما قاله أبوه وعن تجربته، وما عرضه عليه، وكان الابن يحب والده حباً جماً، ولا يريد أن يلحق به هماً أو غماً. فقام التاجر المجرب فأرسل أحد خدمه إلى السوق واشترى له كبشاً سميناً، وذبحه على الفور في بيته ودون أن يعلم به أحد. وغطى يديه وثيابه بالدماء، وقام بتقطيع ذبيحته، ووضعها في تابوت غطاه بغطاء أبيض وكأنه الكفن، وقام بتحضير الذبيحة لتعطي شكلاً وكأنها جسم إنسان ميت.

وفي الحال سمع الأب طرقات على باب داره، ففتح الباب، وكان الطارق ممن كان يسميهم الابن بأعز الأصدقاء. فاستفسر ذلك الصديق العزيز وبدهشة وذهول عن هذه الدماء، فأطرق الأب وكأنه قام بعمل منكر، ومثل دور القاتل الأثيم، وتنهد عميقاً، وقال: (وا أسفاه، ألك في السر مكان، لقد تخاصمت مع القاضي، وفي لحظة غضب قتلته، وها هو أمامك، وقد جاءت بك الأقدار وأنت الصديق العزيز لتساعدنا على إخفاء جريمتنا، بالتخلص من هذا الجثمان سراً، ولا حاجة أن يعلم أحد في الدنيا بهذا السر، وستسير الأمور على خير ما يرام، وكأن شيئاً لم يكن). فامتلأ قلب ذلك الصديق العزيز رعباً وولى على الفور الأدبار لا يلوي على شيء ولم يعطِ حتى جواباً.

وبعد وقت قليل والأب والابن بالانتظار، طرق طارق جديد وكان أيضاً من الأصدقاء المزعومين. وتوجه العجوز إليه أيضاً بالسؤال طالباً النجدة وستر الحال في

نقل الجثمان بعيداً، وإخفاء الأمور، إكراماً للمودة القديمة والصداقة الحميمة، وساعات المرح والسرور. . إلا أنه لم يكن أقل جرأة على الهرب من الصديق الأول، وجاء ثالث ورابع والكل متشابهون بما يفعلون. فقد رفض الجميع تقديم المساعدة للخلاص من تلك المحنة المزعومة. والولد في ذهول لا يدري ما يقول، وكان والده ممثلاً قديراً.

انتشر الخبر سريعاً بين الأصدقاء وتوقفوا عن زيارة صديقهم وانقطعت عنه زياراتهم، ولم يطل الزمان فبدأوا يتهامسون، ويعلنون سراً وعلناً ما قام به التاجر المسكين من إثم عظيم بقتله للقاضي المحبوب، إلى أن وصلت تلك الحكاية لحاكم البلد فصدق الأقاويل على الفور وأرسل عساكره لإلقاء القبض عل المجرمين وهم التاجر وابنه. فاندفعت العساكر كالشهب يبحثون عن المجرمين. وهم يتهددون ويتوعدون، وما إن وصلوا إلى المكان المقصود وشاهدوا المنظر الرهيب، حتى غلوا أيديهم بالحديد والقيود، وساقوهم كالنعام إلى سجون الحاكم الرهيبة وبينما هم على هذه الحال، تجمهر الناس على الفور، والكل يسأل وقد تملكهم العجب. وأخذ الجميع يستطلع الخبر اليقين عن هذه الجريمة النكراء وكيف دبرها الأب بدهاء. وبدأت كما في كل الأحوال الإشاعات والأقاويل، وانهالت النعوت والصفات على ذلك القاتل اللئيم. وكان على رأس هؤلاء الأصدقاء المزعومون.

لكن لا يخلو الأمر تماماً من المخلصين، حتى ولو كانوا ممن أطلق الأب عليهم اسم نصف الأصدقاء. إذ مر أحدهم في السوق، وما إن سمع الخبر حتى اندفع يستطلع الخبر اليقين، وليقدم العون بحدود، وتقدم على الفور نحو قائد الحرس فأوقفه ورجاه، وقال له: (إنه من أهل الجاه، وله أمل كبير في مساعدة صديقه العزيز)، وطلب منه أن يقص عليه ما جرى لهذا التاجر المعروف، وفعلاً روى له القائد ما رأى دون أن يتبين الحكاية أو يتأكد من صحة الرواية، فأستعجل الأمر، ونفذ ما أعطي له من أمر. فصرخ ذلك الصديق: (ويحكم يا ناس، إنني لا أصدق ما يقول فهو صديق حميم، على مثل هذه الأفعال بعيد عن سابق إصرار وتصميم)، وقال: (إن صديقه غير مؤهل لمثل هذه الأعمال مهما ساءت الأمور، وامتدحه بحرارة ودافع عنه بجرأة وجسارة). وقال أيضاً: (إن كان بالإمكان أن يدفع الدية فهو على ذلك قدير، وبهذه الأمور بصير. وأنه جاهز على الفور ليدفع (١٠٠٠) دينار عداً ونقداً أمام الجميع لانقاذ حياة صديقه على أن يطلق سراحه على الفور، وهو يعلم أن دينه لن يضيع). لكن قائد الحرس كان ممن قست قلوبهم، لا يغريه المال بسهولة ولو حصل على مقدار كبير من

العمولة. فرفض هذا العرض طالباً المزيد، إذ أراد لصديقه حقاً النجاة، فعاد وكرر أن يطلب المبلغ الذي يريد. وزاد العرض من جديد إلى أن وصل إلى العشرة آلاف من الدنانير، وهو مبلغ بحق كبير، وأخيراً قنط هذا الصديق، وقال: (إن هذا كل ما يملكه من المال)، وكان هذا العرض من المحال، وتقدم من صديقه المسكين وقال: (هذا أحسن ما عندي، وليس لدي من مزيد فأطلب مني ما تريد. قدمت لك ما أملك، من هذا العالم المهلك. ولا غرض لي كما تعلم سوى أن تسلم). فرد الشيخ العجوز، شاكراً له صنيعه، وما قام به من الشفاعة.

تابع العجوز المسكين وابنه المسير، والعساكر من حولهم يسيرون. ثم توجه الرجل العجوز إلى ابنه بالكلام وقد فهم الابن على الفور إذ أصبح مع والده على وئام: (إن هذا الذي تراه هو نصف صديق ولكن هناك نوعاً آخر من الأصدقاء).

واستمر الركب المسير حتى وصلوا الجميع إلى قصر الحاكم القدير. ومن هناك اندفع من أحد البيوت القريبة من قصر الحاكم شاب بهي الطلعة، حسن الهيئة، وسأل حائراً: (ما هذا الذي أراه؟ فماذا جرى؟. يا ترى إنني لا أصدق عيني!)، فأعلمه العسكر بالأمر، فاحتار واندهش لذلك الخبر، وصرخ على الفور: (إنهم أناس أبرياء وأنا صاحب الدار). وتابع صراخه قائلاً: (أيها العسكر المجانين، ما بالكم لا ترعون للأبرياء حرمة، وتتركون المجرم الحقيقي في الظلمة)، وأردف قائلاً: (إنه الآثم القاتل، وما عليكم إلا أن تمسكوه وفي غياهب السجون أن تلقوه). وهذا ما صار، وأضاف العسكر بريئاً جديداً إلى قائمة الموقوفين بجرم لم يرتكبوه، وإلى الحاكم مع الموقوفين قادوه.

وتقدم قائد العسكر من الحاكم، وقدم له كل ما شاهد وما رأى بالتفصيل دون أن ينسى ما مر معه في الطريق، ولا سيما مع نصف الصديق ومن ثَمَّ الصديق.

وكان الحاكم مشهوراً بين الناس بإحقاق الحق، كما كان حكيماً بصيراً وبالأمور خبيراً، وعلى فهم الأمور قديراً، وتملكته بالرغم من ذلك الحيرة كثيراً مما جرى وصار، فتقدم ذلك الصديق الشاب من الحاكم وقال: (أيها الحاكم العادل، إنني أنا القاتل، وأن ما يقوم به الرجل العجوز، لا يستهدف سوى إنقاذ مصيري من القتل أو السجن وتحريري، وإنني القاتل الوحيد، والله على ما أقول شهيد).

فطلب الحاكم من ذلك الشاب السكوت والهدوء، حتى يعرف لهذه القصة العجيبة من مآل. ولن نطيل الحديث فتقدم العجوز من الحاكم وأعلمه بالمقصود، وأن لديه كل الشهود، مما قام به بلا حدود أو قيود، وللحاكم حق التأكد من الخبر

اليقين. . ثم توجه بالحديث إلى ابنه الوحيد، وقال مشيراً إلى ذلك الشاب: (أهذا هو الصديق الوحيد).

فأرسل الحاكم من عنده من يستطلع الخبر على الرغم من أنه كان على ثقة بالأمر. فتبين له الأمر الصحيح. فأمر أن تكتب تلك السيرة وتوزع على الناس جميعاً لتراها كل عين بصيرة ولكي تصبح بين النـاس مشهورة. أما ما كان من أمر ذلك الابن العزيز فكان له الدرس المفيد.

رواها الشيخ سالم الصباح بتاريخ ١٢/تشرين الأول/١٩٣٤.

٤ ـ قصة الحجاج بن يوسف

رواها الحاج يوسف بن أحمد كانوا، يقال إن الحجاج بن يوسف، كان يوصف غالباً، على أنه الحاكم الوحيد الذي كان قادراً على حكم شعب العراق بنجاح.

وكان ذلك خلال حكم عبد الملك بن مروان، الخليفة الأموي بدمشق، إذ تطلب الأمر تعيين والٍ جديد للعراق وكانت الكوفة في ذاك الزمان عـاصمـة العراق وبقربها النجف الحديثة. وقد حدثت اضطرابات شديدة في العراق في تلك المدة، ولقي جميع الولاة الذين عينهم ـ وكانوا سبعة ولاة ـ مصرعهم بالقتل. فانعقد بدمشق مجلس كبير لمناقشة الأمور وتعيين والٍ جديد للعراق، ووضع حد لتلك الإضطرابات وكان الحضور بالإضافة إلى الخليفة وزراءه ومستشاريه وعلية القوم من أصحاب الرأي والمشورة. كما جرت العادة بالأمور ذات الأهمية الكبيرة، وكان الجميع يتساءلون من سيكون ذلك الوالي الجديد؟ وهل سيكون قادراً على وضع حدٍ لمثل تلك الاضطرابات؟. وبعد نقاش طويل نهض الخليفة عبد الملك بن مروان في وسط ذلك المجلس الكبير الذي ضم علية القوم من أمراء ووزراء ومستشارين، وتساءل بأعلى صوته: (من للعراق؟ من الذي سيكون كفوءاً ليكون الوالي القدير لهذا البلد المضطرب؟)، ولم يجبه أحد من الحضور فهم يعلمون جيداً ما الحكم في العراق. وكان بين الحضور شخص معروف بتواضعه ودرايته بالناس، وله خبرة في شؤون الحكم، رجل كان يبدو عليه أنه من أكبرهم سناً، وكان يجلس في آخر القاعة، فنهض على الفور، وصرخ بصوت عميق: (إنه جاهز للذهاب للعراق)، فرفع الخليفة يده، وألقى نظرة حادة على الحضور، وحدجهم بلمحة عميقة سريعة فتطلع الخليفة ليرى من هو المتبرع لحكم العراق وكان الحجاج يقف منتصب العود، وبدت عليه علائم الحزم والتصميم، وقد عرفه جيداً إنه الحجاج بن يوسف، إلا أن الخليفة لم يقل

شيئاً، وتطلع من جديد وسأل من جديد: (من سيكون منكم والياً للعراق). ومرة أخرى لم يتلق جواباً وخيم من جديد صمت وكأن على رؤوس الحضور الطير. فنهض الحجاج من جديد، وأطرى مرة أخرى نسبه وامتدح فضائله وما قام به من أعمال مجيدة في خدمة الخلافة. وقال أيضاً: (إنه جاهز للسفر فور إعطائه الأمر، وأنه لها)، وقطب الخليفة حاجبيه من جديد. ولم يشأ أن يعلن قراره على الفور.

وللمرة الثالثة، طلب الخليفة من الحضور بكل ما يملك من قوة الكلام والإقناع. ولكن لم يتلق جواباً ونهض الحجاج كما كان الحال في المرات السابقة. . . إلخ. ومرة أخرى تكلم الحجاج بجرأة أمام أمير المؤمنين الخليفة عبد الملك، وردد من جديد: (أنا للعراق يا أمير المؤمنين). وفي هذه المرة لم يرفض الخليفة طلبه، بل أجاب: (يبدو لي أيضاً وبحق أن العراق لك يا ولدي، فتوكل على الله وهو نعم المتوكلين).

وبينما كان الحجاج في طريقه إلى الكوفة أرسل الرسل لتخبر عن وصوله والياً عليها بأمر من أمير المؤمنين، ويدعو أيضاً الأمراء من أهل العراق والوجهاء للاجتماع به في الكوفة. على أن يتم ذلك الاجتماع في الجامع الكبير يوم جمعة.

وأخيراً جاء الموعد المضروب، وكان أمراء العراق ووجهاؤه من علية القوم على رأس الحضور، وكان كل منهم يصطحب معه ثلة من الرجال المسلحين تحدياً لذلك القادم من دمشق، وليراقبوا ماذا يمكن أن يحدث. وكان بعضهم يعادي حكم دمشق علناً، وبعضهم كان يحضر الاجتماع ليرى ويسمع، وكان هناك الفضوليون، وغيرهم من الذين أرادوا رؤية تلك الضحية الجديدة قبل فوات الأوان، وآخرون جاءوا بلا هدف ولا سبب.

وتجمع الناس في الموعد المضروب، وقد جاءوا من كل فج عميق، وكانوا سكوناً كأن على رأسهم الطير، الكل ينتظر المستقبل وما يخفيه الزمان، الذي قل فيه الأمان والاطمئنان. وفجأة يحطم ذلك الصمت ضحكة فيها السخرية، أظهرها أحد الحضور بلا مراء ولا خوف ولا وجل ولا حتى الخجل، ودوت دعابات ساخرة وهمسات ظاهرة. ولم ينتظر الحجاج بن يوسف طويلاً، وكيلا يسمح بتهويل الأمور وقف وسار متبختراً ليظهر لذلك المتمرد أنه لا يسمح أن يعبث أي مجنون، وليقول له بجلاء، إنه فوق كل كبرياء أو رياء. وإن ذلك القادم من دمشق، هو صاحب قلب من حديد، لا يخيفه أي صنديد، وزاد الحجاج ازدراءً للحضور أنه لم يكشف عن وجهه

بل بقي متلثماً، وعن هويته متكتماً، وزاد في تحديه لمثل ذلك المتسرع، أنه نهض ببطء لكن بطريقة فيها كل العزم فلقد قرر الحزم، وصعد المنبر العالي وتبعه خطيب الجامع، الذي أخذ مكانه عند مقدمة المنبر، وانطلق صوت أجش، تكلم الحجاج، من وراء اللثام ثم أمر خطيب الجامع، أن يتلو رسالة الخليفة العظيم عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين بتعيين الحجاج بن يوسف حاكماً للعراق، مزوداً بصلاحيات لإعادة الهدوء والنظام، والقضاء على كل الشرور والآثام.

نهض خطيب الجامع، متثاقلاً باشمئزاز، وبعد أن قرأ أمر أمير المؤمنين: (من أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة، السلام عليكم)، فأمرالحجاج بالتوقف عن تلاوة أمر أمير المؤمنين. وانطلق بصوت فولاذي من أعلى المنبر، وحسر لثامه ببطء، ورماه جانباً، وصرخ بصوت عال، جلجل في كل المكان، وانطلق كالرعد قوة، وفيه كل عزم وتهديد كما فيه كل أنواع الوعيد: (يا شعب الكوفة، لم أسمع جواباً على سلام أمير المؤمنين، كما جرت العادة أن يُردَّ على سلام أمير المؤمنين الذي بعثه إليكم)، وتابع الكلام: (من غير ريب إنني أرى الدماء في كل مكان أراها تتفجر من حولي، وثقوا جميعاً من قولي إنني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وأرى آلاف الرؤوس تتساقط فوق بعضها). ثم اتجه نحو خطيب الجامع، وقال: (اقرأ مرة ثانية).

بدأ الخطيب من جديد (من أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة، السلام عليكم) ـ وتوقف قليلاً ـ وجاء ما يشبه هدير البحر: (وعليكم السلام) من ذلك الحشد، فعلق الحجاج: (هذا أحسن، هذا أحسن، تابع أيها الخطيب)، وتابع الخطيب تلاوة الرسالة، وما إن وصل إلى: (يا شعب العراق يا أهل الشقاق والنفاق. . . إلخ). نهض الحجاج من جديد مستغلاً ذلك الهجوم من أمير المؤمنين، وتلك المقدمة في رسالة الخليفة. وتابع من عنده، متهدداً متوعداً أهل الكوفة، وهم لم يرون في حياتهم مثل هذه اللهجة، فخيم سكون غريب على الحضور، فلم تسمع نأمة أو حركة فخشي الجميع بحق أن تتطاير الرؤوس، وسمي مع ذلك الحجاج بالطاغية، وكان حقاً في الحكم داهية، ولكنه اعتبر أنجح حاكم عرفه العراق فكان حاكماً عادلاً ناجحاً، يعرف متى يستخدم العنف والشدة ومتى يستخدم اللين. وعلى الرغم من القرون الطويلة على مماته فلا تزال بعض النسوة العربيات تهدد أطفالهن بالحجاج، إذ تقول: (إحذر جيداً خشية أن يأتي الحجاج بن يوسف ويحملك بعيداً).

٥ ـ الشيخ مبارك شيخ الكويت والفدائي العاشق

«البيِّنة على من ادَّعى» هي القاعدة الإسلامية التي قام عليها حكم الشيخ مبارك في الكويت. كما اعتمد عليها أيضاً صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن سعود في حكمه بالسعودية. فهي قاعدة الحجة سواء تعلق الأمر بالحرب أم بالسلام. فالحجة هي الدليل في الحكم.

كان لدى الأمير أحد الفدائيين المخلصين لما تميز به من شجاعة وإقدام وسمعة حسنة، وقع في أحد الأيام هائماً بحب امرأة أغواها وراودها إلى أن تغلب عليها، فتمكنت العلاقة وزادت عن حد الصداقة إلى أمور كثيرة. حاول العشاق أن تبقى علاقاتهم سرية إلا أن أمرهم قد شاع ولم يكن الأمير ليهتم بمثل هذا الموضوع طالما أنه لم يسبب له مشكلة في حكمه. فقد كان يعرف كل صغيرة وكبيرة تجري في البلاد. لكن في نفس الوقت هناك الكثير من الأمـور تبقى في طي الكتمان على الرغم من كل الآذان. وقصتنا التالية جرت من أحد الموثوقين من أمير البلاد وشيخها، أحد فدائيته.

ففي يوم من الأيام شرع هذا الفدائي بإقامة علاقة غرامية مع عشيقته هذه والتي كانت زوجة لأحد صيادي السمك والمدعو حسن. وكان يسكن في الشارع الذي كان يسكن فيه ذلك الفدائي، صاحب الصيت الحسن الداوي. وكان هذا الصياد المسكين يعتقد أن زوجته بعيدة كل البعد عن الخيانة. فيتغيب ثلاث ليالٍ في الأسبوع، وهو من الفقر موجوع. وكانت طبيعة عمله هذه أحد أسباب تلك الرواية إذ كان عليه أن يجتاز خليج الكويت، ويبتعد إلى مناطق الصيد البعيدة، المملوءة بالسمك الجيـد فيتغيب عن المنزل. وبدأ الجيران حسب عادة العرب ـ ممن لهم عيون مفتوحة ـ بالقيل والقال، وسوء المآل، وانتشر الخبر ولم يعد سراً على أحد من أهل الحي. وسمع الزوج أخيراً بالخبر، وقرر أن يتأكد بنفسه من هذا الأمر، وصحة تلك الإشاعة بالرغم مما فيها من شناعة.

فهيأ نفسه للسفر واستعد له، وقال لزوجته إن غيابه سيطول أكثر من المعتاد، فلا تقلق عليه، وأمرها أن تحضر له الزاد لستَّة أيام. وقامت الزوجة على عجل، وكان يحدوها الأمل بقضاء ستة أيام مع العشيق، فلاح الأمل كالبريق. إلا أن الصياد المهان لم يرض بالهوان، فقد دبر الأمر، واستعد واحتمل الصبر، فاختبأ على أسطحة المنازل مع ثلاثة من الشهود، وهذا سيعود عليه بالنفع. ولم يشعر به أحد، ومن ذلك المكان الذي يمكنه من مشاهدة ما يجري ويدور حول زوجته المتهمة بالعهر والفجور.

اطمأنت الزوجة لرحيل زوجها، وخلا لها الجو، فأرسلت تطلب ذلك العاشق للقاء قريب.

فقدم العاشق مشوقاً، فعانق وأكثر، وبينما هو على هذه الحال انقض الزوج المراقب مع شهوده الثلاثة وألقوا القبض عليهما وفي جرمهم المشهود.

وعلى الفور كتفوه وعلى الأرض رموه، ومن كل أسلحته جردوه. وكانت أسلحته معه جاهزة ولإطلاق النار عامرة. بارودة ومسدس وسيف، لكنها جميعها لم تدفع عنه ذلك الحيف، ثم من أرجله ويديه ربطوه وكالشاة أرادوا أن يذبحوه وفي كيس وضعوه. لكن قالوا: (هذا من فدائية الشيخ الجليل، ولا يقبل شيخنا أي نكران للجميل، فلنعلمه بالرواية، وننقص عليه الحكاية). فحملوه معلقاً من يديه ورجليه المربوطتين على عمود كبير كأنه القرد الحقير. وأبقوا على رأسه الخسيس خارج الكيس. وهيأوه للمسير، وانتظروا نور الصباح، حتى بان ولاح. فنادوا حمالاً، ونقدوه ما طلب على أن يقوم بما يجب، نقل ذلك الخسيس إلى مجلس شيخ الكويت الذي لا يقبل بأي عمل خسيس. وليفعل به ما يريد وهو في إحقاق الحق عنيد. وقام ذلك الحمال، وهو من أقوياء الرجال فحمل تلك الهدية، إلى مجلس الشيخ المعقود وبه الكثير من أكابر القوم، وممن لا يعجبهم فعل الدنية، مخافة من رب البرية. وقام الزوج المسكين، وبرفقته الأصدقاء الأوفياء، ووقفوا ليروا ما يجري ويدور. فوضع الحمال حمله ورماه أمام شيخ الكويت، حسبما أمر، وصدع فعلاً بكل ما أُمر. ولم ينتظر الشيخ طويلاً، إذ عرف فيه شيئاً ودليلاً. فسأل الشيخ الكبير عن الخبر، وتقدم الزوج وباح بالسر، وروى للشيخ ما تقدم من أمره وأمر هذا الفدائي وما تأخر. وطلبوا منه العقاب الصارم، ولا يقبلوا عنه بديلاً، وجاء الشهود الثلاثة، وشهدوا على ما رأوه وبالحق نطقوا، وهم في شهادتهم صادقون، ومن عقوبته بالموت واثقون.

فغضب الشيخ مبارك غضباً شديداً، وطلب من ساكن الكيس ماذا يقول وهو لا قوة له ولا حول. فكان السكون بمثابة الجواب، فصرخ الشيخ العظيم: (أيها الوغد اللئيم، ماذا فعلت بهذا الصياد المسكين. يا خالياً من حميد الخصال، لقد علمت من قديم الزمان، أنك لا تستحق الثقة وحسن المآل، فليس لدي من عذر لأدفع الشر عنك، وقد قمت بفعل شنيع، إنه شر وبلاء، وسوء النية والطوية. فاغرب عن وجهي أيها اللئيم، وستنال العقاب، ولن ينجيك منه أي عذر). وعلى الفور سحب مسدسه من جنبه، وسدده إلى رأسه، وانطلقت منه طلقات بعثته إلى عالم الأموات. وانتهت

تلك السيرة لتكون أمثولة لكل صاحب عين بصيرة، واعتبر بها من اعتبره، وشاع بها الخبر، ما بين البدو والحضر.

رواها لي عبد اللطيف بن عبد الجليل في مدينة الكويت بتاريخ ١٠/تموز/١٩٣٢.

٦ - الكابتن شكسبير والبحار الكويتي

رواها لي عبد اللطيف بن عبد الجليل ولم أدقق في صحتها.

عندما كان الكابتن شكسبير المعروف بجرأته وشجاعته يقوم بمهمته كضابط سياسي لدى أمير الكويت. وكممثل للتاج البريطاني عام (١٩٣٢). اتفق مع أحد البحارة على القيام بجولات على شواطىء الكويت الغربية في نفس الوقت الذي كان يتظاهر فيه بأن لا علاقة له بسياسة الكويت الداخلية، إلا أن أمرة قد انكشف وانزعج منه الأمير ومن أعماله، وكان الشيخ معروفاً بتصلبه وتمسكه بوجهة نظره، وهو موصوف بالحزم عند اتخاذ أي قرار، ومهما كلف الأمر، حتى قال البعض عنه ممن لم يعرفوا كيفية التعامل معه أنه صعب المراس لا يلين بسهولة، لا بل يفرض رأيه على غيره. . . إلخ. ومرت أوقات ساءت فيها علاقة ذلك الضابط بشيخ الكويت كثيراً بشكل لم يعد يطاق. وحاول شيخ الكويت أن يوجه له تهم خرق قوانين الكويت عدة مرات، فقد يتطاول أكثر فأكثر إذا لم يوضع له حد.

وكان الشيخ مبارك يطالب هذا الضابط أن يعامله كملك للبلاد، بينما كان شكسبير الضابط السياسي يعامله كمستشار، كما كانت معاملته لا تخلو من العجرفة مع بعض الكبرياء، وكان يعتبر نفسه كضابط سياسي له الحق بتوجيه حتى اللوم والنقد علناً، على أنه الممثل للبلاط البريطاني لدى أمير الكويت، وهذا يعني أنه ليس فقط الضابط السياسي. يضاف إلى ذلك أن الشيخ مبارك كان رجلاً مسناً، ويتمتع بالحكمة والفهم، أما شكسبير فكان شاباً يسيطر عليه أحياناً حماس الشباب، كما كان في نفس الوقت قليل الخبرة بعقلية العرب وعاداتهم.

وازداد الشقاق، وكبرت الهوة، ولم يكن هناك مجال لإصلاح الأمور. واضطر الشيخ مبارك أن يرفض أية مشورة من ذلك الضابط، أو حتى إخباره بأي قرار. وأخيراً وصلت الأمور إلى حد القطيعة الكاملة.

وفي أحد الأيام قام الكابتن شكسبير بالإبحار كما جرت العادة للقيام بجولة،

وعندما اقترب من مدينة الكويت تابع رحلته على طول الشاطىء الكويتي، وكان هناك العديد من البواخر الشراعية وأنواع أخرى. واقترب زورق شراعي من زورقه وجرى نوع من التزاحم والتسابق، واجتاز بعضهم زورق ضابط المخابرات بشكل فيه كل التحدي. إلا أن المتنافسين كانوا كثر، وكان يبذل كل منهم جهده ليسرع أكثر من غيره.

وثارت ثورة غضب شديد لدى ذلك الضابط واستدار نحو الجسر، وكان منهوكاً من التعب وأمسك بجسم السفينة المجاورة وألقى بنفسه فيها ثم أمسك بقائد هذه السفينة الشراعية ورماه أرضاً، ثم رفعه وألقى به على مقدمة زورقه الذي كان بجانب تلك السفينة الشراعية. وقد نسي أن المرساة العربية ذات الشعب الخمس كانت معلقة على مقدمة زورقه، وكانت مخفية عن النظر وهو في ثورة الغضب. وهكذا سقط جسم ذلك المسكين السيىء الحظ فوق المرساة، فانغرز جسمه في شوكاتها، لا سيما منها التي كانت تقف عمودية، ثم غطس في الماء كأنه قطعة من الصخر. وكان من المعروف لدى الجميع أن أصحاب الزوارق من الناس الذين يجيدون السباحة عادة إذا سقطوا في مياه البحر فسيسبحون سريعاً بمهارة ومقدرة نادرتين. وفي هذه المرة اعتقد ضابط المخابرات في البداية أن ذلك البحار ـ عاثر الحظ ـ كان يهزأ منه أيضاً، إلا أن ذلك الغاطس قد غاص عميقاً في مياه البحر. ووجد شكسبير نفسه أنه أمام محنة خطيرة قد تؤثر على مستقبله، ليس فقط لأنه قتل مواطناً كويتياً بريئاً، بل أحس أن الشيخ مبارك حاكم الكويت سيستغل تلك الحادثة ويطلب نقله على الفور، فأخذ يتلفت حوله لا يدري ماذا يفعل، فرأى على الفور قريباً منه مدير الجمرك ـ الذي روى هذه القصة ـ فأشار إليه بالمجيء على الفور، وهذا ما كان، وقص عليه ما حدث معه، فرد عليه المدير قائلاً: (لا عليك فقد رأيت كل شيء فلست مسؤولاً عما حدث، وكان هذا هو قدر ذلك المسكين. اترك هذا الموضوع، وسأعالجه بحكمة وروية. وسأرتب كل شيء مع الشيخ مبارك، ولكن عليك أن تبتعد عن الشاطيء فوراً، ولتأت معي، كما عليك أن تبدأ حالاً بمحاولة لدفع الدية إلى عائلة القتيل، ودون إبطاء. لأن أي تأخير في معالجة هذا الأمر قد يؤدي إلى نتائج سيئة).

وأخيراً عندما التقى الشيخ مبارك بالضابط السياسي، وكان يرافقه مدير الجمرك، استقبله وكان الحزن بادياً على وجهه بتأثير ذلك الحادث، وقص الكابتن شكسبير على الشيخ مبارك تفاصيل ما جرى معه، وقد بدا على ذلك الضابط ليس فقط عميق أسفه وحزنه لارتكابه مثل هذا العمل نتيجة تسرعه ونزقه، ولكنه توجه بالرجاء للشيخ مبارك

أن يصفح عنه لتسببه بوفاة أحد رعاياه. وأفصح عن أمله بأن يتمكن ويسمح له بمعالجة تلك القضية حسب عادات العرب بدفع الدية لأهل القتيل. هذا وقد بدت على وجه الشيخ في البداية علائم القسوة لما سمع وكأنه قد انزعج كثيراً، إلا أن أساريره بدأت بعد تلك المسحة من العبوس بالانفراج. وأخذت تحل معها علائم الارتياح مع التقدم في سرد ما حدث، أثناء سرد القصة من قبل الكابتن شكسبير، وفور انتهائه كانت كل الأمور قد سويت تماماً وظهرت على وجه ذلك الشيخ العظيم ابتسامة عريضة، لكي يطمئن محدثه من جهة، وليعطيه مجالاً وفرصة لأن يصلح ما أفسده في علاقته معه وليظهر أيضاً عدم حمله أية ضغينة ضده. ثم نهض الشيخ في النهاية من مقعده وخطا عدة خطوات باتجاه الكابتن شكسبير، وعانقه بحرارة، وطبع على خده عدة قبلات، وقال: (يا ولدي إذا كان ذبح أحد هؤلاء من رعايانا قد أدى بك إلى أن تصل إلى هذه القناعة، وأدت بك إلى المجيء إلى عندي لتطلب مني العفو والسماح، وبكل تواضع وبما أظهرته من الندم على ما فعلت وقد أيقنت من مدى تأثرك بشكل يدل على أن ذلك التأثر هو تأثر يخرج من أعماق قلبك، ماذا يمكنني أن أقول، أكثر من القول اذهب وعالج موضوعه وادفع ديته).

ومنذ ذلك اليوم أصبح الإثنان أعز صديقين حميمين.. هذا وقد دفع الكابتن شكسبير دية ذلك القتيل، إلى أهله وكانت قيمتها (٨٠٠) ريال، وانتهى كل شيء بسلام.

٧ ـ الحطاب والخزنة

رواها لي الحاج عبدالله الفضيل بتاريخ/٧/كانون الثاني/١٩٣٥/.

يحكى أن حطاباً كان يعيش مع زوجته وابنته الشابة وبعض الأطفال، يكسب قوته من جمع الحطب الذي ينقله على حماره إلى المدينة. وفي ذات يوم سمع خطيب المسجد في المدينة يعظ الناس قائلاً إن من يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر فسوف يرزقه الله ما يتمنى بغير حساب.

وهنا قرر الحطاب أن يضع تلك الفكرة موضع التنفيذ على الفور، فحزم أمره وقال: (توكلت عليه وهو خير المتوكلين). وأعلن لزوجته قائلاً: (بأنه عازم على الإيمان بالله تعالى، وأنه لن يقوم بأي عمل بعد الآن، لأن الله يرزق من يشاء ومتى يشاء)، وأضاف: (إنه سبحانه وتعالى سيمدني بكل ما أحتاجه وذلك لأنني آمنت به وتوكلت عليه وهو خير المتوكلين) وأضاف أيضاً: (وإن الخير والشر من عنده تعالى، وأنه سيمنحه كل شيء يحتاجه، هو وعائلته لما يبقيهم على قيد الحياة إذا أراد ذلك).

حاولت زوجته عبثاً أن تثنيه عن عزمه، وكذلك فعلت ابنته، وكان ذلك الحطاب يتصف بالعناد الغريب، فقال لهما: (إنه لن يتراجع عما عقد النية على تنفيذه مهما كلفه الأمر).

وفي اليوم التالي جاءته زوجته ورجته أن ينثني عما قرره، وأن يخرج للتحطيب إذ ليس لديهم ما يأكلونه، وأنهم سيهلكون جوعاً إذا لم ينهض للعمل. إلا أن الحطاب لم يكلف نفسه حتى بالرد ولو بكلمة واحدة، وبعد إلحاح منها رد بعنف عليها طالباً أن تغرب عن وجهه، لأن الله سيمدهم برزقه.

واضطرت الزوجة أخيراً أن تبيع بعضاً من أدوات المطبخ لتستطيع شراء ما يكفي لسد رمقهم، وقضاء يومهم، ويقيم أودهم. وجاء اليوم الثالث، وكررت الزوجة المسكينة توسلاتها، إلا أن الزوج العنيد لم يعر ذلك أي انتباه، واضطرت من جديد أن تبحث عن أي شيء تبيعه لتقيم أود أطفالها، وقوت يومهم. وهكذا استمرت الحالة في الرابع والخامس، وكانت في كل مرة تزيد من توسلاتها، لكن دونما جدوى. ووصلت في اليوم السادس إلى أن وجدت نفسها أنها لم تعد تملك ما تبيعه. وبالرغم من كل ذلك استمر الحطاب في عناده. وأخيراً قرر أن لا يرد على أحد أو يحرك ساكناً مهما توسلت زوجته أو ابنته للقيام بعمل أو نشاط حتى لو ماتوا جوعاً. وفي اليوم السادس حدث أن قرر شابان من تجار المدينة القيام برحلة صيد في الصحراء لمدة خمسة أيام، كما قررا أن يصطحبا صقورهما معهما وعدة صيدهما وتأمين زوادة تكفيهما لتلك الرحلة. ولهذا بدءا بالبحث عن أحد الناس ممن يمكن أن يؤجر حماره لهذا الغرض. وقد سمعا بالحطاب وأن حماره عاطل عن العمل، ولهذا طلبا استئجار الحمار لمرافقتهما في رحلتهما، فسنحت بذلك فرصة أمام الزوجة لتقيم أود عائلتها من أجرة ذلك الحمار، إذ لم يبق أمامها ما تبيعه للإنفاق على شراء أية حاجة. ولذلك لم يجد الصيادان صعوبة في استئجار حمار ذلك الحطاب. واتفقا على الأجرة بسرعة.

اعتذر الحطاب عن مرافقة حماره، وقال: (إن ظروفه لا تسمح له بالذهاب معهما، وما عليهما إلا أن يعيداه بعد انقضاء رحلة الصيد).

وهكذا استعد الصيادان للرحيل وحملا ذلك الحمار كل ما يلزمهما لتلك الرحلة، وانطلقا للصيد. بينما تلقى الحطاب خمس قطع فضية كانت كافية لمؤونته خمسة أيام، ولفت انتباه زوجته إلى أن تثق بما وعد الله به، وهذا أول امتحان أمامها يجتازه بسلام، وسلمها قطع النقود التي تلقاها من الصيادين.

وانطلق الشابان للصيد، وقاما برحلتهما المقررة، إلى أن جاء اليوم الخامس، اليوم المقرر لعودتهما، والعودة إلى أهلهما، وعند اقترابهما من المدينة، ولم يبق عليهما سوى مسافة خمسة أميال، قررا أن يأخذا قسطاً من الراحة، وتحضير القهوة والتسلية قليلاً لتكون عودتهما ما بعد الظهر للمدينة، فأوقفا الحمار لينفذا ما عزما عليه، وأنزلا عدة القهوة وبدءا بالتحضير للقهوة وتجهيز النار اللازمة.

وأول عمل قاما به، هو جرف الرمال لتحضير ما يشبه الموقد في رمال الصحراء، لإيواء النار في ذلك العراء. وأخذا بجرف الرمال معاً، وأذهلتهما المفاجأة، إذ عثرا على صندوق خشبي كبير، سحباه سريعاً من بين الرمال، وفتحاه على الفور، وتملكهما العجب الممزوج بالفرح عندما تبين لهما أن الصندوق كان مملوءاً بالذهب.

وبرقت عيون الشابين فرحاً وسروراً، وبدءا بالتفكير لايجاد طريقة لحمل الصندوق إلى المدينة ذات المداخل المحروسة بمجموعات حرس على بوابات المدينة، وبعد نقاش وجدل اتفقا على أن يدخلا المدينة بعد حلول الظلام، ولما كانا لا يملكان طعاماً قررا أن يقوم أحدهما بالبقاء بجانب الصندوق، بينما يقوم الآخر بالذهاب إلى المدينة لجلب الطعام، وبعد الغروب بقليل ينطلقان إلى المدينة، وذلك تجنباً لأن يراهما حراس الأبواب على مداخل المدينة. وسيمران على بيت أحدهما لاقتسام المال، على أن يكون مناصفة.

وهكذا سار كل شيء على ما يرام، وقام المكلف بالذهاب إلى المدينة بشراء الطعام المتفق عليه، إلا أنه فكر بشيء لم يكن من ضمن الاتفاق، فقد لعب الطمع وحب المال برأسه، وتساءل: (لماذا لا يكون ذلك المال لوحده لا شريك له فيه؟)، وقال: (إنه لجنون مني أن أقبل اقتسام ذلك الكنز، والأولى أن يكون لي) ودارت في رأسه الخواطر، واستقر رأيه بأن يتخلص من ذلك الرفيق ولو بأحط الطرق، وبعد تفكير صمم على أن يضع في طعام ذلك الصديق الزرنيخ القتال، وهكذا رجع إلى صديقه وهو يحمل له الموت الزؤام.

ومما يؤسف له أن تأثير ذلك الأصفر الرنان لم يكن أقل على ذلك الذي بقي بجانبه، فوضع الآخر خطته، وكذلك تساءل كثيراً: (لماذا لا يحصل على ذلك المال لوحده، ولماذا يقبل بشراكة صديقه؟). وقال في نفسه: (إن ذلك الكنز سيكون من نصيبه وحده). ووضع خطة حسب الوسائل المتوافرة للقضاء على ذلك الرفيق. وتضمنت تلك الخطة، أن يقوم بعد وصول رفيقه، وتحميل ذلك الصندوق العجيب على ظهر الحمار بإطلاق النار على ظهر صديقه، وبهذا سيتفرد بالكنز الثمين، وسيأخذ

طريقه بعد ذلك إلى منزله ليخفي ذلك الذهب الرنان، بعد هبوط الظلام.

وهكذا فعل الذهب الرنان فعله فخان كل منهما العهد، ووضع كل منهما خطته للغدر برفيقه.

وعاد ذلك الصديق الذي ذهب للمدينة وكان يحمل معه الطعام القاتل، وما إن وصل حتى ألح على رفيقه بتناول الطعام، وقدم له كل إغراء للتعجيل طمعاً في التفرد بذلك الذهب العجيب. وقال إن الجوع والإرهاق باديان على وجه صاحبه، فالأولى به تناول الطعام ليخفف من إرهاقه. إلا أن ذلك الصديق الرفيق كان يستعجل رفيقه أيضاً أن يساعده على تحميل الصندوق ليتمكن من تنفيذ ما عزم على تنفيذه. وما إن تم لصاحبنا هذا وتم وضع ذلك الذهب الغدار على ظهر ذلك الحمار، وفي اللحظة المناسبة وجه سلاحه إلى ظهر صديقه العزيز ورفيق طريقه فأرداه قتيلاً، وهكذا اعتقد ذلك الصديق أنه انتصر على الدنيا وكيف لا. وأصبح الذهب ملك يديه، وهنأ نفسه على تحقيق ذلك الانتصار، وكان بالطبع لا يعلم أن ذلك الرفيق أيضاً قد هيأ خطته، ولكنه لاقى حتفه قبل أن ترى خطته النور. أما صاحبنا الآخر فبعد أن نفذ المهمة، أحس بالجوع فقرر تناول طعامه، وليستعد بعد ذلك لدخول المدينة بعد حلول الظلام. لكن ما قرره لم يتم، فما إن تناول الطعام المسموم حتى سقط ميتاً على الفور قبل تنفيذ أحلامه، وبقي الحمار وحيداً فريداً وعلى ظهره ذلك الصندوق العجيب، جالب الموت، لأنه يحمل في باطنه ذلك الأصفر الرنان، مفرق الأصدقاء، وهو لا يرعى حرمة للوفاء. فتابع الحمار الأمين سيره باتجاه بيت سيده وقد شاءت الأقدار أن لا يراه حرس البوابات، ودخل من البوابة الكبيرة، وكان من عادة ذلك الحمار أن يعلن عن وصوله بالنهيق، وهذا ما حدث فعلاً. فما إن نفذ ذلك الحمار تلك العادة حتى نهض صاحبه ترافقه زوجته لاستقبال ذلك الحمار العزيز فهما يعرفان جيداً صوت حمارهما، وما إن فتحا باب دارهما حتى فوجئا بحمارهما وهو يحمل الصندوق العجيب، فأنزلا الصندوق عن ظهر حمارهما، وكم كانت الدهشة كبيرة عندما وجدا الصندوق مملوءاً بالدنانير الذهبية.

وما إن شاهدت الزوجة ذلك الذهب حتى أسرعت قائلة: (أسرع يا زوجي وأعلم السلطات الرسمية عن ذلك الحمار وما يحمله، فهذا الذهب ليس ملكاً لنا)، فرد عليها ذلك الزوج قائلاً: (إن ما يحمله ذلك الحمار إنما هو هدية من الله العلي القدير إلى عبده المؤمن وهذه مشيئة الله، فكل شيء يأتي من عنده، إذن فكيف تطلبين مني رد ما وهبه الله لنا، كما أنني لن أذهب بعد اليوم للعمل بل سأنقطع للتعبد والصلاة. وانظري

ما بعثه الله لنا حتى دارنا، وهو قادر على كل شيء فحمداً لله وشكراً له).

وقام الحطاب على الفور فحفر حفرة في المكان الذي ينام فيه عادة وخبأ الصندوق ثم وضع فراشة فوقه.

وقد أظهر الحطاب كل حيطة وحذر حتى مرور مدة على البحث عن الشابين التاجرين الذين ذهبا للصيد ولم يعودا، لم يأخذ من الصندوق إلا القليل لسد حاجاته اليومية فقط.

وانقضت مدة ستة أشهر على هذه الحال، وكان الحطاب بنفس الوقت يراقب ما يمكن أن يدور حول اختفاء الشابين، ولاحظ أخيراً أن ليس هناك ما يمكن أن يثير الانتباه حوله، كما أنه كان يعتقد أن ما وصل إليه هو من عند الله، وهذه مشيئته. ولهذا قرر أن ينفض عن نفسه وأفراد عائلته أوساخ الفقر ليبدأ حياة جديدة، ولينفق مما أنعم الله به عليه. وهكذا بدأت تظهر عليه علائم النعمة والبذخ، فاشترى داراً تليق بمقامه الجديد، وبمقام ذلك الصندوق الذهبي الذي وهبه الله إليه. واشترى بستاناً فيه كل أنواع الفواكه. واشترى ثياباً أنيقة له ولجميع أفراد عائلته لتليق بمقامهم الجديد كما اشترى الخيول الأصيلة وقطعان الماشية من الجمال والأغنام والماعز، ولم ينس أن يقلد الأغنياء فاشترى العبيد والخدم من الرجال والنساء.

وسارت الأمور في البداية على خير ما يرام، إلا أنها لم تدم طويلاً. فبدأ الفضوليون في البداية يتساءلون عن كيفية استطاعته ـ وهو الحطاب البسيط الفقير الذي كان يتضور جوعاً مع عائلته ـ التحول إلى غني يعيش حياة البذخ والرخاء ويصرف بغير حساب، كما هو حال من ينقلب سريعاً من حالة الفقر إلى الغنى.

وأخيراً وصلت قصة حطابنا العزيز إلى ملك البلاد، فأرسل في طلب ذلك الحطاب الذي أصبح يلبس أجمل الثياب التي تليق بالملوك والأمراء وعلية القوم هو وجميع أفراد عائلته. واستقبله الملك بما يليق أيضاً بعلية القوم، وخاطبه قائلاً: (أخبرني يا صديقي، ماذا حدث، وكيف تغيرت أحوالك من فقير مدقع إلى غنيّ كبير، فمن المعروف أنك كنت حطاباً فقيراً تعيش على الكفاف من العيش، لا بل كنت أفقر الحطابين في بلدنا العام الماضي، وفجأة وبأقل من عام تصبح من أصحاب القصور وقطعان الماشية من الخيول العربية الأصيلة، ومن قطعان الإبل والغنم والماعز، وأصبحت تملك العبيد والخدم، وما إلى ذلك من مظاهر الغنى؟). فرد الحطاب: (إن ذلك من عند الله وهو على كل شيء قدير يرزق من يشاء بغير حساب. وإنني أؤمن بالله العظيم، وهو الذي نقلني من فقر إلى غنى بأمر منه تعالت قدرته). وسأله الملك من

جديد: (إن كل ما تقوله صحيح وأنا لم أسألك عنه، لكن قل لي كيف جرى ذلك، فليس من أحد يمكن أن ينتقل بهذه السرعة من فقر مدقع إلى غنى مفرط دون مبرر أو أسباب، هذا ومن المعروف أنك لا تعمل أي عمل يمكن أن يمنحك مثل هذا المال الكثير، وإلا فإنك تكذب علي، ولن يطول بك الأمر حتى نكتشف الحقيقة).

فرد الحطاب من جديد: (كلا يا مليكي العظيم، إنني لا أقول سوى الصدق ولا حاجة لأن أكذب عليك بل أقول الحقيقة، بعينها بكل بساطة وإخلاص وصدق)، فرد الملك من جديد: (يا صديقي العزيز أقول صراحة إنني أشك بكل ما تقوله)، ووجد الملك أن لا جدوى من الحوار مع ذلك الحطاب، فقرر اللجوء للحيلة ليتبين صدق ما كان يقوله عن حاله فقال له: (اسمع يا صديقي، إنني أعتقد أنك تملك مالاً كثيراً، وقد خبأته في مكان ما، وأظنك تخشى أن تخبرنا بهذا فهل تريد أن تكون رجلاً صالحاً نثق بما قلته وتؤمن بالله العظيم كما تقول، وتريد أن تكون محبوباً من رب العالمين أم تفضل أن تكون وغداً منبوذاً، ونذلاً وضيعاً منحط القيم والأخلاق، وعلى كل حال سأضعك أمام اختبار صعب، إذ سأطرح عليك ثلاثة أسئلة فإذا أجبت عليها بشكل صحيح عشت بسلام وأمان وسأسمح لك بالعيش كما تريد وترغب، أما إذا أخفقت في الإجابة الصحيحة فاعلم علم اليقين أن مصيرك سيكون الهلاك، وستؤول جميع أموالك إلى الدولة، وستجري مصادرتها. أما الأسئلة فهي:

أ ـ ما هو الشيء الأقسى في العالم، وهو بنفس الوقت الشيء الأكثر ليناً؟
ب ـ ما هو الشيء الأكثر إرعاباً وإرهاباً في العالم؟.
جـ ـ ما هو الشيء الذي يبعث على أكثر سرور في العالم؟

وإنني أسمح لك بالذهاب إلى دارك الآن ورؤية عائلتك على أن تكون غداً صباحاً قبل البدء بجلسة المجلس المعتادة وتحمل معك الأجوبة الصحيحة وإلا).....

ورجع الحطاب إلى داره مهموماً حزيناً، لا يدري ماذا يفعل، وهو لم يتلق علماً ولم يكتسب معـرفة ولم يعرف كثيراً من شؤون الدنيا فهو ليس أكثر من حطاب قضى حياته الماضية مع حماره العزيز يبحث عن جذوع الأشجار، إنه جاهل مسكين، وكان في وضع لا يحسد عليه من الحزن والقنوط، فرفض تناول أي نوع من الطعام، وكان في حيرة من أمره لا يدري ما يفعل، ولاحظت ابنته على الفور وأدركت ما يجول بخاطره، فسألته أن يقص عليها ما يجول بخاطره علها تستطيع تقديم المساعدة، فقالت له: (اسمع يا والدي إنني سأساعدك بإذن الله آه يا والدي، سأحل لك تلك

الألغاز، وهي لا شيء عندي). فعانق الصياد ابنته من الفرح على ما تقول وانتظر منها الجواب، أما ما كان من ابنته فقد أخذت تلك الأسئلة وتأملتها جيداً وردت عليها بالقول:

أ - الجواب الأول هو الماء فهو الألين لتناوله، وهو الأصلب أو الأقسى لطرقه.

ب - الجواب الثاني فهو الصوت الصادر عن آلاف الفرسان (الخيالة).

جـ - الجواب الثالث هو عندما تنام مع زوجتك فإنك تنسى كل شيء، وتحصل على لذة ومتعة لا تعادلها لذة أو متعة في العالم أجمع.

وما إن سمع حطابنا من ابنته الجواب الأخير، حتى ثارت ثائرته واستشاط غضباً لم تعهده به من قبل. إلى أن نهض وضربها وصرخ في وجهها قائلاً: (كيف تجروءين على مثل ذلك القول، إنه كفر وغدر أن يقال ذلك، وكيف عرفت جواب السؤال الثالث، ومن أين علمت به). وفي حقيقة أمره كان يعتقد أن ابنته التي يحبها حباً جماً تحب شاباً من جيلها فتنسى حب والدها فيخسر بذلك حبها، وما إن انتهى الأب من كلامه وانتهت ثورة غضبه، حتى اندفعت قائلة: (يا والدي لا تخف مما تظن، إنني ابنتك وإنني بريئة من كل ما تظن، ولكن لي عيون ولي قلب، لي عيون ترى، وقلب يحب، لكن لي عقل يتمسك بالقيم والأخلاق ولن أسمح لأحدهم أن يتغلب على الأمور الأخرى، ولكن تمهل يا والدي الحبيب لأقص ما حدث معك في يوم ما، وأظنك لن تنكر ما سأقوله: عندما كنت صغيرة مرضت مرضاً شديداً، واعترف أنك سهرت على رعايتي، فلم تنم الليالي ولم يغفل لك في بعضها جفن، وكنت ألاحظ الأسى والحزن في عينيك، وكنت تناولني الماء بيديك إذا عطشت، فقد كانت الحمى تحرقني وتحرق رأسي ولقد قمت فوق ما اتصور؛ لأنك والدي وتحبني، إنني ابنتك إنني قطعة منك. وفي إحدى الليالي كانت الحمى تلهب رأسي، أفقت وطلبت الماء، وصرخت ورفعت رأسي لأرى ماذا يحدث، وكررت بنفس الوقت دعوتك صارخاً فرأيتك بين ذراعي أمي تتبادلان الحب والغرام. ولهذا عرفت سبب عدم استجابتك لطلبي فلم تلب ندائي إليك، وأنا المريضة المنهكة، فكانت آذانك كأنها صماء عن سماع صوتي، وإن ذلك الشيء قد أنساك، حتى صوت ابنتك التي تحبها، ابنتك الصغيرة التي كانت الحمّى تلهب رأسها، لأن ذلك الشيء قد أنساك ابنتك الحبيبة التي احبتك وتحبك على الدوام ولقد فهمت أن ذلك هو الشيء الوحيد الذي يعطيك السرور، وينسيك كل العالم حتى عني وأنا مريضة).

وفي اليوم التالي قدم نفسه للملك وكان يحمل معه حلول الأسئلة التي طرحها عليه الملك من قبل، وقد تلقاها الملك مندهشاً، وتعجب كيف يستطيع إنسان غبي مثله الإجابة على تلك الأسئلة وعلائم البلادة بادية على وجهه وشك كثيراً حتى بمجرد قدرته على التفكير بمثل تلك الأسئلة، واعتقد جازماً أن وراءه من يوجهه، ويعطيه الحلول، وأنه ليس أكثر من ببغاء يردد ما يقال له، فقال للحطاب: (أجوبتك صحيحة)، وأضاف: (سأتابع معك نفس الاختبار وفي هذه المرة ستكون الأسئلة أصعب قليلاً، وذلك لأزيل كل شك بقدرتك على الفهم ولكي أثق بك تماماً اذهب وأتني بخمسة جواميس ومعها خمسة أقنعة على رأسها، وإن حياتك كلها تتوقف على ما تعمله).

وعاد الحطاب المسكين إلى منزله حزيناً مكدوداً مغموماً، يائساً قانطاً. ولاحظت ابنته على الفور ما يعانيه ذلك المكدود الهلع وهي الموهوبة القادرة على كشف خفايا النفوس فسألته بلطف عما ألمَّ به وإذا كان بحاجة لمساعدتها، على الرغم من يقينها أنها كانت تعلم بما يجول بخاطره من هم وغم. وقص عليها ما جرى معه، وقال في النهاية: (إنه يقترح أن يشتري خمسة جواميس بناء على طلب الملك، ومعها خمسة أقنعة لرأسها)، وفهمت تلك الفتاة على الفور ما يقصده الملك إلا أنها لم تشأ أن تفاجىء أباها بما فهمته. ولكنها أرادت أن تظهر له الاحترام والمحبة، وردت عليه بلطف وبشكل لا يشعر بعجزه عن مجاراتها في فهم الأمور قائلة: (ألا ترى معي يا والدي أن الملك لا يقصد جواميس بالمعنى الحرفي للكلمة، أم تعتقد أن الملك كان يقصد شيئاً آخر كالجواميس، وساعلمك برأيي). ثم نصحته بالذهاب إلى الجامع الكبير في المدينة، وهناك يقف على بابه على أن يكون ذلك يوم الجمعة، وبعد خطبة الجمعة والصلاة، سيخرج الناس من الجامع، وهناك سيشاهد شيوخاً من رجال الدين أو من يقلدونهم وعلى رؤوسهم العمة، أو العمامات البيضاء، وعند خروجهم من المسجد عليه أن يطرح عليهم سؤالاً قائلاً: (هل لك أو لكم أن تخبروني ما هو اليوم من أيام الأسبوع)؟. ومن أجوبتهم، ستجد ولا شك ضالتك التي عناها الملك.

انتظر الحطاب يوم الجمعة، واستعد منذ الصباح ليقوم بما نصحته به ابنته واندفع إلى الجامع، ووقف على بابه ينتظر خروج المصلين، وشاهد من بين الخارجين أصحاب العمائم البيضاء، فاقترب منهم وبادرهم بالتحية، وقال لهم: (أيها الأصدقاء الأعزاء، هل لكم أن تعلموني، في أي يوم من أيام الأسبوع نحن اليوم؟) فأجاب أغلبهم: (يا رجل هل أنت مجنون فاقد العقل لتسألنا سؤالاً وقحاً وغبياً، وأنت ترانا نخرج من صلاة الجمعة؟). ولن نطيل الحديث فلقد وجد ضالته التي يبحث عنها

ضمن أصحاب العمائم، ولكن لم يجد سوى أربعة منهم أجابوه: (لماذا تسألنا عن يوم نحن فيه ولا يظهر عليك الجنون، ولماذا لا تعرف أنت الجواب؟) فرد عليهم أن الملك هو الذي كلفه بذلك وسيقابلونه فيما بعد. ورجاهم الذهاب معه إلى منزله، وهناك التقى بابنته على الفور وقص عليها ما جرى معه، وأنه لم يجد ممن يبحث عنهم سوى أربعة وطلب الملك خمسة. وقال إنه عجز عن العثور على الخامس، وقال لها: (إنه خائف من النتيجة إذا لم يجد ذلك الجاموس الخامس حسب طلبه)، فردت عليه ابنته: (الخامس هو أنت يا والدي، وقد نجحت في تنفيذ ما طلبه الملك منك. اذهب إلى الملك فوراً، وخذ معك هؤلاء الرجال الأربعة معك، وتقول له إنك وجدت الجواميس الخمسة، وهم أمامك وعلى رؤوسهم عماماتهم، وهذا حسبما طلب).

فرد الحطاب قائلاً لابنته: (أليس من الصحيح أن أقول، إنني وجدت أربعة جواميس فقط؟) فردت تلك الابنة الذكية: (هذا صحيح في الحقيقة إنك لم تجد سوى أربعة لكن يجب أن تعلم الملك أنك أنت الخامس من الجواميس المطلوبة، وهذا هو الرد على سؤاله، وسينشرح صدره وسيسر لمثل ذلك الجواب).

وقام الوالد الحائر ونفذ ما أمرت به ابنتـه فوضع هؤلاء عماماتهم على رؤوسهم، واصطحبهم وتـوجهوا نحو القصر الملكي، وهناك اتجهوا نحو مجلسه، ودخلوه على الفور، وما إن أصبح الحطاب أمامه حتى انحنى أمامه بكل أدب واحترام حسبما أوصته ابنته، وخاطبه قائلاً: (أيها الملك العظيم، دونك الجواميس الخمسة المطلوبة وعلى رؤوسهم أقنعتهم) فرد الملك: (لم تقدم لي سوى أربعة فأين خامسهم؟) فأجاب الحطاب: (يا صاحب الجلالة، أنا الخامس).

انشـرحت أسارير الملك وقال: (إنني الآن على يقين أن وراءك من يعلمك الأجوبة التي تحضرها لي، أخرج الآن جواميسك وابق أنت لتعلمني من هو الذي يعلمك الأجوبة، وعندها سأسمح لك بالعودة إلى أهلك حراً طليقاً).

ولم يجد الحطاب مناصاً أمامه سوى الاعتراف بكل ما جرى معه، من بداية قصته عند سماعه لخطيب الجامع وهو يحدث الناس عن الإيمان، وأن لا يعمل إلى آخر ما جرى معه، من قصة الكنز وعن ذكاء ابنته، وأخذت أسارير الملك بالانشراح والسرور وأصغى بانتباه كبير لما يقوله عن ابنته، وصرح الملك على الفور: (إنه من دواعي سروري يا صديقي أن أستطيع مكافأة تلك الفتاة الذكية الجديرة بكل احترام، وكل تقدير، بأن أشرفها بطلب يدها). وعلى الفور أقيمت الاحتفالات لعرس الملك على ابنة الحطاب، ولكن الملك قرر أن يضعها أمام اختبار قبل الدخول عليها، وقد

أظهر لها أنه يشك بها، ولا يثق بأخلاقها وحبها له، ولهذا فقد أعلمها أنه لن يقضي ليلته الأولى معها أملاً في إبقائها عذراء حتى عودته من رحلة صيد مفاجئة، وأنَّ رحلة الصيد هذه ستدوم طويلاً، وقد حاولت تلك العروس أن تثنيه عن عزمه، ولكن محاولاتها باءت بالفشل وكان الملك عنيداً بالرد عليها، وأظهر لها أنه لن يتنازل عما قرره، لكن قبل رحيله بلغها أنه يوصيها بوصايا يجب الاهتمام بها، وأولى هذه الوصايا أن قال لها: (أوصيك بفرسي الحمدانية الشهباء المشهورة، وعليك أن تعتني بها، وهيَ فرسي المفضلة، وستكون تحت رعايتك لوحدك، ويجب أن تعلمي أنها لم تختلط بحصان فحل حتى الآن، وإنني شخصياً سآخذ معي حصاني الفحل الكروشان، ولكن أعهد إليك أيضاً وسأكلفك بمهمةالعناية بتلك الفرس أثناء غيابي، وعند عودتي أتوقع أن تكون فرسي هذه قد حملت وولدت مهراً، من قبل حصاني الفحل الكروشان، وأكثر من ذلك فإنني اتوقع أن يكون لي طفل منك ويجب أن أكون أنا والده.

انطلق ركب الملك على الفور في رحلة صيد طويلة كما قال بعد أن ودع زوجته الصبية تاركاً إياها لتعيش في قصرها وحيدة، يحيط بها خدمها وحرسها، تحت إشراف أحد العبيد من الخصيان، كما جرت عادة الملوك في قديم الزمان، وكان ذلك العبد مخلصاً لسيده، وكان الملك يهدف من إعطاء زوجته تلك المهمة المستحيلة اختبارها، واختبار ما يمكن أن تتصرف به، وهو اختبار صعب ولا شك. وكان يعتقد أنها لن تنجح هذه المرة كما نجحت في المرات الماضية عندما وجدت الحلول المناسبة لوالدها، وأنقذته من الموت عن طريق تزويده بالأجوبة الصحيحة على أسئلته. وكانت بارعة ذكية في إيجاد الأجوبة. ولكن في هذه المرة فإن الأسئلة موجهة إليها مباشرة، وأن أجوبتها المرضية ستكون ولا شك الاختبار المباشر لموهبتها، وقد شعرت ابنة الحطاب أنها قادرة أيضاً على الخلاص من تلك الورطة. وبالطبع لنا الحق أن نتساءل أيضاً: (كيف يمكن لفرس أن تحمل من حصان دون إجراء اتصال جنسي، كما يطلب منها أيضاً أن تلد له طفلاً على الرغم من أنه سيتغيب عنها هذه المدة؟ فكيف لها إذن أن تحمل من رجل تركها عذراء في ليلة دخلتها، وطالبها أن يجد معها طفلاً منه عند عودته، وقد تركها عذراء؟). ولكنها الذكية البارعة، تستطيع الوصول للحل المناسب على الرغم من أن الملك كان يظن أنه وضعها في اختبار صعب، وكانت واثقة من نفسها. فودعت ذلك الملك ببسمة فيها كل معاني الفهم، وأوصى الملك عبده الأسود المخلص الأمين أن يقوم على حراستها بشكل جيد، ثم انطلق في تلك الرحلة الطويلة.

وما إن انطلق الملك برحلة الصيد، حتى قامت الزوجة الشابة فتملقت العبد الأسود المكلف برعايتها ومراقبتها والإشراف على شؤونها، ونجحت خلال أيام قليلة من سفر سيده أن تجعله رهن إشارتها يلبي طلباتها بلا تردد، فأقنعته بأن يشتري لها ثياباً من التي يلبسها عادة شيوخ البدو والشباب، وخيمة صغيرة، كما طلبت منه أيضاً أن يساعدها على مغادرة القصر سراً، حينما ترغب وحيثما ترغب للبحث عن زوجها إذ ستقوم بلعب حيلة معه تتحداه على إثبات قدرتها وحيلتها، وقد وعدت ذلك العبد الأسود على أنها ستعود خلال ثلاثة أسابيع، وهذا ما تم فعلاً.

غادرت القصر بعد أن استعدت للسفر وأخذت جميع الاحتياطات اللازمة، ولكن قبل ذهابها قام العبد الأسود المكلف برعايتها وصبغ الفرس الشهباء بلون الكهرمان الأسود، بناء على طلبها، وانتزعت وعداً من ذلك الخصي، أن يشيع بين الناس على أنها مريضة بالحمى ولازمت الفراش، ولا تقابل أحداً، وهكذا أصبح كل شيء جاهزاً لتنفيذ الخطة التي رسمتها للتغلب على ما طلبه منها زوجها الذي يختبر قدرتها وموهبها.

وانطلقت بعيداً في الصحراء تسأل عن أماكن الصيد التي يرتادها الملك عادة إلى أن وجدت ضالتها، ولحقت بركب زوجها الملك الظنون. وكان يخيم بالقرب من مجموعة آبار في الصحراء، وكان بالقرب من مكان تخييمه واحة صغيرة مملوءة بأشجار النخيل فنصبت خيمتها بين أشجار النخيل، وكانت تلبس ثياباً أنيقة لشاب من شيوخ البدو، وقد أعدت بدقة وعناية كل ما يلزم، وتنكرت بشكل دقيق وحاذق فقد صبغت لها شوارب شاب بدقة وعناية أيضاً، ولا يمكن لأحد أن يشك في ظهورها بمظهر شاب أنيق، كما قامت بتلويث ثيابها بقدر الإمكان بغبار الصحراء لتظهر أنها تعيش في الصحراء على الدوام، واستعدت لمقابلة الملك كأحد شيوخ البدو الشباب، وحيث يقيم في المناطق التي تنزل فيه قبيلة ذلك الشباب ومن عادات العرب أن يرحب الشيوخ بالضيوف، وعلى أن يقدموا له الولاء والاحترام. ونقلت رغبتها إلى الملك الذي رحب بتلك الزيارة، ووافق على مقابلتها كأحد شيوخ القبائل من الشباب، وفي المساء استعدت على أحسن ما يمكن لمقابلة الملك، وكان الملك ينتظرها شخصياً فاستقبلها بما يليق من الاحترام، وبعد أن جلسا ودارت الأسئلة المعتادة عن الصحة والرعي وجميع هذه الأمور، أعجب الملك بفصاحة ذلك الشاب إذ روى للملك العديد من قصص وحكايات البدو في الصحراء، ولا سيما قصص صيدهم وقصص خيولهم وإبلهم وأغنامهم وعادات قبيلته في الزواج.... الخ.

وكان الملك يصغي باهتمام إلى ذلك الشاب، ويزداد به إعجاباً، وتكررت الزيارة المسائية هذه، وتوطدت عرى الصداقة، وهكذا اجتازت الزوجة المرحلة الأولى من الخطة التي رسمتها بكسب ثقة الملك. واستطاعت أن تخدعه بحيلتها وحسن تدبيرها، فوجد في القصص التي كانت أو كان يسردها ذلك الشاب تسلية ومتعة. وأصبح الملك يسأل عن ذلك الشاب إذا ما تأخر في المجيء مساء ولو قليلاً من الوقت. وهكذا توطدت عرى المحبة والصداقة بين الشيخ وملكه، وفي نهاية الأسبوع الأول من لقائهما سأل الملك ذلك الشاب فيما إذا كان له أخت بنفس صفاته، وأنه سيكون سعيداً جداً أن يشرفها ويطلب يدها، على أن تكون تلك الأخت شبيهة به من جميع النواحي من الذكاء والجمال. وهذه عادة الملوك في رحلات الصيد بالزواج من إحدى بنات شيوخ القبائل.

فرد الشاب بالإيجاب قائلاً: (إن له أختاً تشبهه في كل شيء تماماً لأنهما توأمان، لكن إذا أراد الملك الزواج بها فيجب أن يجري ذلك سراً لعدة ليال فقط وعليه أن يطلقها بعد أسبوع ويدعها وشأنها، ذلك لأنها ترغب بالزواج من ابن عمها)، وهي عادة دارجة بين العرب. فوافق الملك على تلك الاقتراحات، كما تم الاتفاق في تلك الليلة، واتخذت الاستعدادات اللازمة ليوم الدخلة لكن اشترط الشاب أن تجري الدخلة في خيمة صغيرة بعيداً عن المخيم الملكي للمساعدة في سرية ذلك الزواج وعلى أن تكون تلك الخيمة بالقرب من خيمته تنصب بين شجيرات النخيل. وهكذا سارت الأمور على خير ما يرام ضمن الخطة التي رسمتها تلك الزوجة الذكية، وجرت مراسم الزواج، مثل عقد القران حسب الأصول بحضور أخ العروس وهو الشيخ الشاب، وذهب الملك للخيمة الصغيرة التي نصبت لتلك المناسبة، وانتظر هناك قدوم تلك العروس، التي ستأتي سراً إليه.

عاد ذلك الشاب المزعوم إلى خيمته وبدأ يستعد للمساء، فغيرت ثيابها ولبست أحلى حلل العرس لدى البدو، وحسب عادات بنات القبائل المشهورة تحجبت بلباسها برقعها تماماً كما تلبسه البدويات، وما إن حل المساء حتى توجهت إلى خيمة العرس التي نصبت لهذه الغاية، قضت ليلتها مع الملك كما تنقضي بين الأزواج، وكان الملك سعيداً جداً بمغازلتها وقضاء الليل بجانبها وتمتع معها بأحلى ما يتمناه ويشتهيه، ولازمها ولم يشأ الخروج من خيمة العروس. وبعد ليال أربع انقضت بالمتع والسرور ليلاً في خيمة العرس، ونهاراً في خيمتها كاحد الشباب يزور الملك في خيمته. وفي إحدى المرات سأله الملك بماذا يمكن أن يكافئه على حسن صنيعه معه، وذلك

بتزويجه من أخته، وما قدم له من خدمات لا تنسى، وكان ذلك الشيخ الشاب ينتظر ذلك السؤال، لإتمام خطته، فرد الشاب بتأدب نعم، وهو يتمنى أن يسمح لفرسه أن تحمل من حصان الملك الجميل الأسود الكروشان، وبذلك تكون أجمل خدمة وأحسن ذكرى، وأفضل هدية، فوافق الملك على الفور دون تردد، كما ألح الملك أن يقبل الشيخ منه هدية العروس مبلغاً من النقود، إلا أن ذلك الشيخ اعتذر عن قبول مثل تلك الهدية. وفي الليلة الأخيرة حضرت العروس إلى خيمة العريس حسبما جرت العادة وقد رسمت في ذهنها أن تنزع خاتم الملك من يده عندما ينام، وقد تعود أن ينزع ثيابه أمامها بعد أن وثق بها، ولم يعد يخشى شيئاً. كما جرت في تلك الليلة أن قضت فرسها برفقة حصان الملك، وحملت تلك الفرس من حصانه الكروشان الأشهب. ثم اختفى ذلك الشيخ الشاب مع أخته المزعومة، طبقاً للشروط التي رضي بها الملك، وهكذا سار كل منهما في طريقه المرسوم فعادت إلى قصرها وتابع الملك رحلة الصيد.

وانقضت مدة الصيد أحد عشر شهراً قرر على آثرها الملك العودة ليرى ما يمكن أن يكون قد حدث في مملكته. وأرسل رسولاً سبقه بمسافة ليعلم تلك الزوجة للاستعداد لاستقبال الملك، كما أرسل بعض الرسل لإخبار سلطاته بعودته ليقام له الاحتفال اللازم، أما الرسول الذي توجه إلى الزوجة العذراء ليخبرها أن الملك قادم إليها فلتستعد لاستقباله، وأبلغها الرسول أيضاً أن الملك يطلب منها أن تكون قد نفذت كل ما طلبه منها. وعاد الرسول بعد أن نفذ ما أمره الملك به، ولما كان يجهل كل شيء حول تلك الشروط التي طلبها الملك قبل سفره، أخبر الملك على الفور أنه بلغ رسالته وأضاف: (إنني يا سيدي أهنيء جلالتكم، فقد رأيت زوجتكم الملكة الشابة وهي تحمل طفلاً آية في الجمال والبهاء إنه ولد ذكر، أما فرسكم المشهورة فكان إلى جانبها أيضاً مهر جميل سبحان الخالق الوهاب، القادر على كل شيء. بارك الله لكم فيهما).

وما إن سمع الملك ما قاله الرسول، حتى كان الشرر يتطاير من عينيه إذ استشاط غضباً، ولم يعد يكلم أحداً وعجل في العودة إلى قصره ليستطلع ما حدث، وليقف على الخبر اليقين حول خيانة زوجته له، وحاول كل جهده أن يظهر بعض الظرف والكياسة أمام مستقبليه من الوفود للتهنئة بسلامة العودة والترحيب به، واتجه على الفور إلى قصر ملكته العذراء وكان لا يعلم ما يفعل من شدة الغضب، وأقسم أنه في حال تأكده مما قيل له فسيكون الموت الزؤام نصيبها ولا شك ولن يقبل لها عذراً، وقال إن جزاءها الموت.

وما إن دخل القصر حتى استقبلته تلك الزوجة الشابة هاشة باشة، فخورة بانتصارها، وتنفيذ ما طلبه منها قبل الرحيل، أما الملك فسألها على الفور صحة الخبر الذي نقله المراسل بشأن ذلك الطفل، وكانت لهجته صارمة، ولم ترد عليه بأية كلمة بل قدمت له ذلك الطفل ثم خاطبته قائلة: (أيها الملك إن القصة صحيحة لا لبس فيها كما ترى وها هـو دليلها، لقد سألتني أن أحمل لك بطفل قبل رحيلك، وها هو كما أوصيت فلقد نفذت أوامرك، كما أعطيتني تعليماتك بشأن فرسك الشهباء الأصيلة أن يكون لها مهراً وهذا ما كان أيضاً، ألم تأمرني بذلك)، فامتلأ قلبه سخطاً وغضباً وكأن الشرر كان يتطاير من عيونه بسبب وقاحتها وقلة أدبها واستخفافها به. ولم يعد يطيق صبراً على سماعها، فاستل سيفه استعداداً لقتلها فصرخت في وجهه الغاضب قائلة بهدوء: (هدىء من روعك أيها الملك العظيم وانتظر قليلاً حتى أكمل الرواية وأقص عليك كامل الحكاية، ولأجهز نفسي للموت، الذي سأستقبله بطيبة خاطر وصدر رحب؛ لا سيما إذا كان قاتلي هو الملك العظيم، لكن قبل ذلك أخبرني أيها الملك الجبار واسمح لي أن أتوجه لك بالسؤال فيما إذا لم تقم بأعمال تخجل أنت من ذكرها قمت بها وأنت الملك العظيم بعيداً عن عيون الناس، ألم تتزوج سراً بفتاة ادعت أنها ابنة أحد شيوخ قبائل، وقبلت بجميع شروطها دون خجل أو وجل منك أيها الملك العظيم). وبدأ الملك يحس أن في الأمر سراً فاستعجلها أن تبوح له بسرها، فاستمهلته قائلة: (تمهل أيها الملك العظيم) وروت له بالتفصيل ما جرى معها من زواجها من الملك في الصحراء أثناء رحلة الصيد فصرخ الملك، وقد خجل من نفسه لفعلته ولتسرعه، وصرخ في وجهها ماذا تقولين أيتها المرأة الذكية. فردت عليه بهدوء لا شيء أيها الملك العظيم وناولته الخاتم الذي سرقته منه قبل الليلة الأخيرة قائلة خذ هذا إنه دليل على كل ما قلته، ثم روت له من جديد ما حدث معها ومع والدها من البداية حتى النهاية وأخيراً أخذها بين ذراعيه وقبلها فرحاً بها وبشجاعتها وهنأها على ذكائها، وجعل منها الملكة المفضلة يستشيرها في الملمات التي كانت تصادفه، وكانت فعلاً على الدوام محل ثقته، كما كانت أهلاً لتلك الثقة.

١٠ - قصة الثعلب الذي أصبح ورعاً

رويت هذه القصة الطريفة بعد أن شارك صاحب السعادة ياسين باشا الهاشمي، الذي كان رئيساً لوزراء العراق عام /١٩٣٥/ في العصيان الذي جرى على الفرات، واستسلم أخيراً بعد اخفاق ذلك العصيان، ثم تم سجنه ومن معه ممن ثار ضد النظام والدولة في ذلك الوقت ومنهم العديد من شيوخ القبائل.

أما القصة فهي التالية: عندما أصبح الثعلب شيخاً طاعناً في السن ولم يعد موضع احترام أقرانه من وحوش البر، وزالت هيبته ووجاهته بين أصدقائه من الحيوانات، وأخذ يحس بابتعادهم عنه، قرر أن يقوم بعمل يعيد إليه بعضاً من تلك الوجاهة بأي ثمن. فقرر في أحد الأيام أن الوقت قد حان ليصبح أمام أقرانه تقياً من الطراز الأول، فاشترى عمامة مناسبة لمقامه الجديد، كتلك التي يلبسها (الملّا) فوضعها على رأسه باحترام وإجلال، وأخذ يشيع بين أقرانه من حيوانات الغابة وسكانها بأنه قرر أن يسير باتجاه جديد وقد كفر عن ذنوبه ولبس لباس التقوى والورع. كما أنه قد غير سلوك الغدر والحيلة وابتعد عن إتباع المكر والخديعة. وجاءه في إحدى المرات الغراب الأسود يسأله النصيحة والمشورة وأن يسمح له بمرافقته في تقواه وعزلته لأنه سمع بتوبته وإتباعه سواء السبيل، فرد الثعلب على طلبه بالموافقة، مهما كلفه الأمر، واقترح أن يدعو معه كلاً من فرخ حجل، وديك قوي، واشترط على الجميع أن يعتزلوا معه للتعبد والتنسك، ووافق الغراب وبقية الربع على اقتراح ذلك الناسك المتعبد بالذهاب إلى التل المجاور ليعيشوا بعيداً عن كل الدنيا. وطلب من الجميع الانضباط والتنسك والحذر والاحتراس، وأن يكونوا أتباعاً طائعين له لأن ذلك هو طريق الفلاح وليطهروا أنفسهم من كل رزايا الدنيا وليصلحوا من أخلاقهم، والتكفير عما تقدم من ذنبهم، والتدليل على صدق نواياهم وتطهير نفوسهم كل ذلك طلباً للرحمة وللتخلص من خطاياهم.

وهكذا اصطحب الثعلب تلاميذه وضيوفه إلى حيث يوجد وكره في التلال القريبة فأغلق بابه جيداً بحجارة بشكل لا تسمح لمتطفل من رؤيتهم أو إزعاجهم أثناء تعبدهم. وطلب منهم أن يبدأوا بتطهير أنفسهم والاعتراف بخطاياهم ليختبروا نفوسهم بقدرتهم على صدق نواياهم، على أن يقوم كل منهم بالاعتراف أمام ذلك الناسك المتعبد لوحده وهو سيحتفظ بسرهم، لكن على كل واحد منهم أن يقبل بالعقوبة التي سيفرضها شيخنا العظيم. وسيكون شيخنا عادلاً في حكمه متبعاً لأصول الاستقامة ولن يحيد عنها ولن يبغي من وراء ذلك سوى الحق والعدل.

وقد وقعت قرعته وتم اختياره أن يبدأ ديكنا العظيم باعترافه فذكر محاسن أعماله كلها. إلا أن ناسكنا خاطبه قائلاً: (نسيت أنك كنت تمنع العصافير والطيور الأخرى حتى من تناول حبة شعير إذا أتت لعندك وكنت تطردها شر طردة، كما أنك أنت الذي يوقظ النساء والأطفال باكراً فتزعجهم في نومهم بصياحك قبل طلوع الفجر، كما توقظ جميع الناس الشرفاء يومياً وتمنعهم من النوم في ساعات الصباح فهذه خطايا لا يمكن

غفرانها، وأن عقوبتها الموت، لذا حكمنا عليك بالموت طبقاً للتعاليم السماوية). وتقدم الديك التائب نحو ذلك الشيخ الناسك ليعتذر له عما تقدم من ذنبه، وما كان من ناسكنا إلا أن أمسك برقبته بكلتا يديه لينفذ فيه حكم الإعدام شنقاً، وكانت أول وجبة دسمة لثعلبنا الناسك المتعبد.

وجاء دور ديك الحجل فخاطبه الثعلب قائلاً: (أيها الطائر الجميل كنت تقوم في دنياك بإغواء الناس لصيدك فيرتكبون إثماً، كما أنك تنهض من نومك باكراً كل يوم وتتنقل طائراً بسرعة فكنت توقظ النيام بحفيف طيرانك، وعقاب هذه الأعمال المنكرة هو الموت شنقاً). وكان وجبة دسمة أخرى للثعلب الناسك.

أخيراً جاء دور الغراب، صاحب الذنوب الكثيرة، والخطايا التي لا تغتفر، فخاطبه ناسكنا قائلاً: (أيها السيىء السمعة والسيرة، السيىء الأخلاق والطوية إنك أسوأ كل الطيور على الإطلاق، فلا شرف لك، ولا ترعى ذمة، فعندما يموت الرجال لا تتوانى عن فقء عيونهم وهم أموات، فلا ترعى حرمة لشجاعتهم أو موتهم، وتتجرأ على مهاجمة جيفهم والتهام لحومهم، وإنك وحدك من يستحق الإعدام أكثر من غيرك). وهكذا انتهى غرابنا أيضاً إلى ما انتهى إليه الآخرون من النساك التائبين. وأحس الثعلب بعد ذلك أن وجاهته قد رجعت إليه، وعليه أن يتحرك من جديد. وفي هذه المرة ظهر على حقيقته فألقى بعمامته جانباً، وقال: (يفضل أن يكون ملكاً للطير الضالة من أن يكون شيخاً على بعضها)، وليظهر للعالم أجمع أنه لا يزال ذكياً يملك الحيلة والوسيلة.

«رواها لي ثويران أبو صفرة، في مدينة الكويت، بتاريخ ٦/ نيسان/ ١٩٣٥».

١٠ - نيسوب والأفعى

روتها لي عمشة، زوجة سالم المزين، عندما كنا نخيم في منطقة العريفجان، بتاريخ ١/ نيسان/ ١٩٣٣.

كان في يوم ما رجل يسمى نيسوب يتجول في الصحراء، فرأى أفعى ترتعش من البرد تحت شجيرة صغيرة، فقد كان الجو شديد البرودة، وكانت تلك الأفعى من النوع السام فأشفق عليها نيسوب والتقطها من مكانها وقرر أن يدفئها بوضعها تحت (زبونه) وقد قربها كثيراً من بطنه، لكي تدفأ بسرعة، وبعد قليل تغير اتجاه الريح وأصبح جنوبياً ومع تلك الرياح تغير الطقس فأصبح الجو دافئاً، وشعر أن تلك الأفعى لم تعد بحاجة إليه، ولهذا خاطبها قائلاً: (يا صديقتي لقد اعتدل الجو، وأصبحت حرارة الشمس

كافية، ولم تعد بك حاجة إلى حرارتي فلا خوف من البرد، دعيني أضعك على الأرض، حتى تتمكني من الذهاب والبحث عن قوتك بطريقتك الخاصة). فردت الأفعى على الفور: (إنني لم أطلب منك أن تلتقطني، وتدفئني، ولكنك أنت وحدك الذي ارتأيت ذلك دون أن تسألني، أما أنا فإنني في غاية الراحة والاطمئنان وقد قررت البقاء حيث أنا وأكثر من ذلك إذا حاولت أن تلتقطني لترميني على الأرض فسوف أعضك وأفرغ كل سمومي، وستموت على الفور). وحاول نيسوب هذا أن يثني تلك الأفعى عن عزمها، ولكن عبثاً حاول، وباءت جميع محاولاته بالفشل الذريع.

وهكذا وجد نيسوب السيىء الحظ نفسه مكرهاً على حمل هذا الضيف الثقيل الظل والذي يهدد حياته في كل لحظة ليلاً ونهاراً. وافتكر أخيراً (أبا الحصين - الثعلب)، فتوجه إليه على الفور، ودون أي تردد توجه حيث يقيم ثعلبنا العزيز، وطرح أمامه قضيته، وقص عليه قصته، وقال نيسوب في الأخير: (إذا حسمت الأمر وخلصتني مما أنا فيه من ورطة، وأزلت عني تلك العقبة فسأكافئك مكافأة عظيمة).

وكان الثعلب قد تلقى في يوم ما معروفاً قد قدمه له نيسوب فلم يشأ إلا أن يناصر نيسوب فوافق على التحكيم فوراً في الموضوع، فلما قص عليه نيسوب قصته رد الثعلب: (حتى يكون التحكيم جائزاً فلا بد من موافقة الطرفين على ذلك التحكيم وما يمكن أن يصدر عنه من أحكام)، فوافقت الأفعى أيضاً مقتنعة على أن تلك القضية ستكون إلى جانبها، وأنها ستربح تلك الدعوى ولا شك.

فأمر الثعلب أطراف النزاع أن يجلس كل منهما على جانب منه وإلى الأمام، وأمر أن يجلس نيسوب إلى يمينه وفي مواجهته وأن تجلس الأفعى إلى يساره وإلى الأمام في مواجهته أيضاً بشكل يكون فيه الطرفان في مواجهة القاضي، فاعترضت الأفعى في البداية، إلا أن القاضي أصر أن يجلس الطرفان في مواجهته وفي الأماكن التي قررها، وإلا فإنه سينسحب من تلك الدعوى وسيرفض التحكيم فيها، وأخيراً وافقت الأفعى، ورضخت لقرار القاضي، وانسلت من على بطن نيسوب، وأخذت مكانها في الموقع الذي حدده الثعلب.

وبعد أن استمع القاضي لكلا الطرفين، اقترح على الأفعى وأصدر حكمه أن تقوم بمغادرة بطن نيسوب وتبحث عن مكان آخر فرفضت الأفعى قبول ذلك القرار واعتبرته جائراً بحقها وقالت: (لقد أعطيت منزلاً مريحاً وأميناً، فلماذا أتخلى عنه بسهولة). فلم يسع القاضي إلا أن يتوجه إلى نيسوب ويقول له: (لقد سمعت ما تقوله الأفعى من حجج بعد صدور الحكم، فماذا تقترح علينا أن نفعل؟)، فرد نيسوب ألف

(طز) على ما تقول وبضربة من عصاه حطم رأس تلك الأفعى ناكرة الجميل، ورماها لتكون عبرة لمن يعتبر.

١١ ـ رأس الذئب ـ قصة ذات مغزى

في يوم قائظ قرر الأسد ملك الغاب الخروج إلى الصيد برفقة اثنين من رعيته وهم الذئب والثعلب اللذين لم يترددا، وبعد لأي تمكنا من صيد ثور وغزال وأرنب فاكتفى الأسد بما صاد ومال إلى غدير ماء لتناول الغداء مع صحبه بعد أن أنهكهم التعب. فاغتسلوا وهموا بالطعام، إلا أن الأسد لم يشأ أن يكون الطعام كيفياً بل أراده مقسماً، وبدأ بمشورة الذئب عن كيفية الاقتسام.

فأجابه الذئب الأمر بسيط: (جلالتكم تأكلون الثور وأنا الغزال وصديقنا الصغير يأكل الأرنب).

وما إن أنهى الذئب الكلمة الأخيرة حتى نزلت على رأسه ضربة أفقدته حياته رافقها زئير هز الغابة، وكان من نتيجة تلك الضربة أن تمزق رأس الذئب، وتدحرج بجسمه بعيداً كالكرة على الأرض، حتى تمدد على طرف غدير الماء. وقال الأسد على الفور: (هذا جزاؤك أيها الوغد السافل).

واستدار الأسد بعد ذلك نحو الثعلب، وقال له بصوت ناعم منخفض: (يا صديقي الصغير، يردد الجميع أنك تملك عقلاً راجحاً وحكمة وحيلة، ما يقول الجميع أنك ذكي جداً، فكيف تقترح علي في قسمة هذه الكمية من اللحم على شرط أن يرضى كلانا عن هذه القسمة؟). فرد الثعلب: (أيها الملك العظيم)، هناك قسمة عادلة واحدة فقط فالجاموس لك وحدك، والغزال لك وحدك، والأرنب كذلك). وضحك الأسد وقال: (آه أيها الثعلب الحكيم، المدهش إنك نطقت بالحق لكن قل لي، من أين تعلمت هذه الحكمة، وهذا الذكاء واللباقة؟).

فأشار الثعلب إلى رأس ذلك الذئب المحطم، المطروح على الأرض وقال: (آه يا ملك الغابة، إن رأس ذلك الذئب علمني كل شيء من الحكمة والذكاء».

«قصها علي يوسف بن أحمد كانو البحراني في شباط ١٩٣٢.

الفصل الرابع والعشرون

الأحلام وتفسيرها

يعير البدو اهتماماً كبيراً للأحلام وتفسيرها. وكثيراً ما يقومون بمحاولة تفسيرها مهما كانت بسيطة أو عادية، وتفسر عادة لدى مفسرين مختصين، وغالباً ما يكونون من النساء العجائز البارعات في معرفة الأعشاب والحشائش واللواتي يقمن بدور القابلات، والخبيرات بالطب، كما يقمن بدور الساحرات العرافات ويصنعن الحجب وما شابها للحماية من عيون الحساد.

كما يوجد مفسرون من الرجال من ذوي الخبرة والدراية، كالشيخ عبدالعزيز النمر مفسر صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز ملك المملكة العربية السعودية الذي كان شغوفاً جداً بتفسير الأحلام وقد علمت هذا الأمر من أمير الكويت.

وكقاعدة عامة وطبقاً لما يعتقده العرب في تفسير الأحلام، يجري تفسير الحلم عادة بعكس ما جرى فيه من أحداث. فإذا رأى النائم حلماً أنه يقتل ثعباناً فتفسير ذلك الحلم يعني أنه سينتصر على أعدائه، أما تفسير حلم إخماد النار فهذا يعني أن الأمر ملائم من أجل تنفيذ قرار متخذ مثل طعن (المرأة) بالخنجر، و(الرجل) بالسيف. وهناك بعض الأشخاص ممن يعملون في المجالات العامة غالباً ما تفسر أحلامهم في المجالات العامة أيضاً.

وهنا نذكر عدة أمثلة من الأحلام.

الحلم رقم (١)

في ليلة ٢٧ نيسان ١٩٣٤ رأيت فيه ما يرى النائم أن ناراً لا توصف قد أتت على مدينة الكويت بالكامل، وسرعان ما انتشرت هذه النار حتى شملت المدينة بكاملها،

وتجاوزت هذا الحد حتى دخلت الصحراء وهرب الناس مذعورين، أما أنا فقد حملت عائلتي وهربت بسيارتي وقد تعلق بها بعض الهاربين من كل جانب ورجوني السماح لهم بذلك. هذا وامتدت النار إلى أن وصلت إلى تل قريب يسمى تل العدلية،

والذي ما كان ليبعد أكثر من أربعة أميال، ومن هناك شاهدت لهب الحريق وأواره، فدهشت وتملكتني الحيرة من أمر هذه النار. وبينما أنا على هذه الحال إذ بي أرى بحراً هائجاً متلاطماً يندفع باتجاه هذه النار الموقدة فإذا هي برد وسلام.

وهكذا كان حلمي مفعماً بالحيوية والحركة العنيفة والنشاط في جميع مراحله وتفاصيله، وقد أدهشتني الطريقة التي جرت فيه، وانتقال الأمر من نار مستعرة إلى طوفان. . . . الخ. لذلك قررت أن اذهب إلى أم مبارك، لأقص عليها ما رأيت ولأجد عندها تفسيراً لحلمي ولمعانيه. فسردت عليها تفاصيل حلمي، ثم أطرقت برأسها، وفكرت ملياً، ثم انطلقت قائلة إن تفسير النار هو شر قادم علينا وعلى مدينتنا.

أما البحر وأمواجه المتلاطمة فيرمز إلى خير عميم سوف يحل علينا وعلى المدينة وهذا يا بني ليس من صنع البشر وإنما من تدبير العلي القدير الذي نطلب منه الرحمة والغفران.

وبعد ستة أيام من حلمي هذا هطلت أمطار شديدة وفي غير موسمها وسالت المياه في شوارع الكويت في الأول من رمضان، وتجمعت حتى هدرت أمواجاً تجرف معظم البيوت التي تصادفها وبارتفاع تجاوز الخمسة أقدام وفي زمن لم يتجاوز ثلاث ساعات مما سبب خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات؛ وأدركت لتوي أن ما جرى حتى الآن هو القسم الأول من حلمي قسم النار.

أما الجزء الثاني وهو طوفان البحر فيعني الخلاص، والرحمة والخير من عند الله تعالى، فالمطر في تلك البلاد يجلب الخير والبركة ولا سيما بالنسبة لعالم البدو، وسكان الريف، فبعد الأمطار تلك، وما إن مرت أيام معدودات حتى غطت الأعشاب الأرض في جميع أنحاء الكويت، وكستها بغطاء أخضر جميل رائع، وكأنها مروج خضراء على مدى النظر تزينها الأزهار البرية الجميلة من مختلف الألوان والأشكال، كما جلب الربيع معه الخير العميم من الحليب، واللبن، والزبدة، والخراف، والصوف، وقل ثمنها إلى الحد الأدنى وسهل شراؤها، وكانت تلك السنة ـ ١٩٣٤ ـ سنة قياسية بالنسبة لجميع مناطق الكويت. سواء في المصيبة التي حلت بأهلها أو بالخير العميم الذي أصاب معظم الناس.

هذا وقد ذكرت حلمي ذلك إلى شيخ الكويت، وعديد من لفيف القوم من الأصدقاء، وذلك قبل حدوث الكارثة ولكنني خشيت كثيراً أن أذكر تفسير أم مبارك لحلمي هذا.

الحلم رقم (٢)

يتذكر قارئي ولا شك ما ذكرته له آنفاً عن محاولة اعتداء آثمة وخسيسة كانت تستهدف حياة صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية، من قبل ثلاثة يمنيين في الحرم الكبير في مكة عام ١٩٣٤. لقد حلمت تماماً قبل تسعة أيام من الحادث ورأيت فيما يرى النائم أن ابن سعود كان في الكويت وقد حل في قصر مبارك القديم. ورأيت أيضاً أنني كنت أقطن بالقرب من هذا القصر في منزل الشيخ عبدالله السالم ورأيت أيضاً أنه في منتصف الليل، ولما كنت أنام على السطح كما هي عادة أهل الكويت في فصل الصيف، سمعت سبع طلقات نارية انطلقت من اتجاه القصر أو حوله الذي كان ينزل فيه الملك. وبعدها سمعت ضجة كبيرة، ونحيباً، كما رأيت في منامي أنني نهضت من نومي على الفور، وأيقظت الشيخ عبدالله السالم، وأسرعنا معاً باتجاه القصر الذي يحل به الملك، إلا أن حرس الباب الرئيس رفض أن يسمح لنا بالدخول على الرغم من أننا كنا نسمع الملك وهو يصرخ على أنه قد أصيب إصابات قاتلة بعدة طلقات نارية، وكان في نفس الوقت يطالب بحضور الكولونيل (ديكسون الذي هو أنا شخصياً) إليه ثم مات الملك على الأثر فوراً دون أن نستطيع مشاهدته كما أن ابن جميعة رئيس البلاط الملكي أعلمنا بوفاته، وأضاف أن القاتل استطاع النجاة، إذ لم يستطع أحد اللحاق به أو إلقاء القبض عليه.

وهنا تذكرت حلمي المتعلق بحريق مدينة الكويت، وما أعقب ذلك من كارثة ألمت بالكويت على النحو الذي ذكرته سابقاً. وقد أعلمت الشيخ بحلمي، وقد تلقيت منه عدة توجيهات حكيمة تتعلق بعدم إشاعة هذا الحلم بين الناس، وأخذ الحيطة والحذر.

هذا ولقد حاولت أن أتعلم بعض أصول تفسير الأحلام وحكمتها من أم مبارك. إلا أن هذه الأخيرة رفضت أن تزيد على أن الله يضع سره في أضعف خلقه، وأضافت لما قصصت عليها الحلم الخاص بابن سعود أن لابن سعود أعداء كثيرون، ومن بينهم الكثير ممن يتمنون له الموت. وفي الحقيقة أن في محاولة الاغتيال الحقيقية التي جرت قد تمكنت سلطات الأمن من إلقاء القبض على الجناة وتم إعدامهم بعد

سبعة أيام من الحادث (تفسير للسبع طلقات) وجرى ذلك في الحرم الكبير بمكة بعد تسعة أيام من حلمي هذا وقد سرد شيخ الكويت حلمي إلى العديد من الناس من أصدقائه، ولقد تحققت معظم أحلامي، وكنت على الدوام حذراً في تفسيرها وسردها للناس.

الحلم رقم (٣)

«كان هذا الحلم في أواخر شهر أيلول ١٩٣٧ عندما بدىء بحفر أول بئر بترولية من قبل شركة البترول الكويتية، التي التحقت للعمل بها في خليج الكويت: ظهرت كميات بترول جيدة، واستبشر خبراء الشركة بتوافره بكميات تجارية. لكن الشركة أحجمت في البداية من الاعلان عن هذا النجاح الذي حققته بسرعة. كما أن الشركة الأمريكية المتفرعة عنها تحت اسم «بول بوت» كانت هي أيضاً تقوم بالتنقيب والسبر في المنطقة الشمالية الغربية من الكويت، وكانت تستخدم في أعمالها طريقة التفجير بالديناميت في محاولة تستهدف إيجاد مكان يمكن الانطلاق منه وللسير في العمل بسهولة أكثر، وبنفس الوقت كانت الشركة الأمريكية المتفرعة تقوم بالمسح في المنطقة الواقعة إلى الغرب من خور الصبية وحتى جبل السنم على الحدود العراقية.

وكان الخبراء يخشون من الحفر عميقاً حتى الوصول إلى عمق يستحيل معه متابعة الحفر بسبب عدم تمكن الآلات من المتابعة، ودون الحصول على نتيجة تذكر، أي دون الحصول على أثر للبترول.

وهكذا كان حلمي يتضمن تلك المعاني وهو: كنت أعيش مع زوجتي في معسكر كبير تابع لشركة البترول تلك، وكان ذلك المعسكر يضم العاملين في التنقيب عن البترول، وكانت البيوت التي نعيش فيها من نوع (البنغالو ـ بيوت خشبية متنقلة) وكان لكل بيت قطعة أرض واسعة ملحقة به، وفي وسط رقعة الأرض التابعة لبيتنا، وفي الطرف الجنوبي وإلى الخلف، كانت هناك مجموعة من شجر الأرز الحراجية. وكان منزلنا ـ البنغالو ـ يطلّ على فسحة رملية قاحلة.

وفي إحدى الليالي هبت عاصفة رملية عنيفة لم أعهد لها مثيلاً من قبل. واستمرت الرياح الهوجاء بالهبوب طيلة الليل وكانت الأبواب والنوافذ تطلق صريراً وأصواتاً طوال الليل وبشكل مزعج تماماً، وتزيد من وحشة العاصفة، وكنا نحس برائحة الغبار المتطاير مع تلك الرياح الهوجاء وهو يسفح كل شيء ويزكم الأنوف، ويملأ الرئتين، ويسد أجهزة التنفس. وكانت الرياح تسوق إلينا عبر الشقوق ـ مهما

كانت صغيرة في (البنغالو) ـ الغبار، ويجعل من تنفسنا أمراً عسيراً جداً. وقضينا ليلة ليلاء نادراً ما قضينا مثلها من قبل. وعندما انبلج الصباح، لاحظنا أن العاصفة قد خفت حدتها، إلا أنها قد بدلت كثيراً من المعالم التي كانت تحيط بمنزلنا، وبشكل غريب. فحملت الرياح الرمال من مكان لآخر، وتركت حفرة هنا وحفرة هناك، وتلة رمال صغيرة هنا وهناك. . . . الخ. وكان ذلك التغير والتبدل ظاهراً بشكل بارز بالقرب من شجر الأرز، خلف ـ البنغالو ـ وقد وصلت أبعاد بعض الحفر إلى ١٠٠ × ١٠٠ قدم وبعمق وصل إلى ٦ أقدام، وقد لوحظ في وسط تلك الحفرة، وجود نوع من البناء تعلوه بلاطة صخرية، كبيرة، وكانت أبعادها «٦× ٤ × ٤» قدم، وقد لاحظنا أنه كان يتمدد على تلك البلاطة الصخرية شكل مشوه مقلوب غير واضح المعالم، وكان ذلك الشكل يغطيه قماش قطني عتيق شبه بال. وخرجت مع زوجتي للتحقق من طبيعة ذلك الشيء وما هيئته وتفحصناه بحذر وعناية، ورفعنا عنه من جهة الرأس والوجه، وقد تبين لنا أن ذلك الرأس هو لامرأة شابة، كان متعفناً حتى أن بعض هذا التعفن خرج بأيدينا وقد زادت دهشتنا عندما بدأت تظهر معالم ذلك الوجه لامرأة جميلة. إلا أن الجلد بدت عليه علائم التقدد أو التحنيط، واكتسب لوناً رمادياً محمصاً، وقد اعتقدنا أن العاصفة لا بد قد مرت على بعض القبور فحملت معها من جملة ما حملت ذلك الجثمان، وقررت أن أبحث عن بعض العمال لإعادة دفن ذلك الجثمان من جديد أو القيام بنقله إلى مكان آخر ودفنه هناك. وعندما عدت وجدت زوجتي وقد بدت عليها علائم الدهشة والخوف، وهي تحدق في وجه ذلك الجثمان بنوع من الهياج، وقد لاحظت أن زوجتي كانت تحاول إفهامي أنها قد تغيرت، وأنها تعود إلى الحياة، وبدأت الحياة تعود إلى الجلد. وبدأ الجلد بالطراوة شيئاً فشيئاً كما بدأت الحياة بالعـودة إلى ذلك الجسم الميت. وشعرنا أن الجسم بدأ بالتنفس، وفتحت عيونها، ثم رفعت رأسها ببطء شديد وأخذت تحرر نفسها مما هي فيه من غطائها وكفنها، ثم أدارت رأسها نحونا ولاحظت وجودنا، ثم قالت لنا: (إنها إحدى العربيات في قديم الزمان) وأضافت: (أنا أشعر بالبرد الشديد، وقد نمت آلاف السنين، ساعدوني إنني أحتاج لثياب دافئة، كما أحتاج لبعض الطعام لأسد به رمقي). ثم ناولتنا قطعة نقدية نحاسية من النوع القديم جداً كثمن مـا يمكن أن نقدمه لها، ثم قدنا تلك المرأة إلى بيتنا من أيديها وكانت تتحرك ببطء شديد من الإرهاق والتعب. وقامت خادمتنا بغسلها وقدمنا لها الطعام وأكلت بشراهة حتى شبعت.

وبعد أن تناولت الطعام عبرت لنا عن رغبتها بالذهاب إلى تحت شجرات الأرز للجلوس تحتها، وقد سمحنا لها بذلك، لكن قبل أن تنطلق تلفتت حولها وقالت:

(إنني أشعر أنني بخطر شديد، ويجب أن أذهب إما إلى القنصلية البريطانية، وإما إلى صاحب السعادة شيخ الكويت المعظم، وليس من أحد غير ذلك قادر على حمايتي). وطلبنا منها أن توضح لنا أسباب طلبها وخوفها، وقالت: (إن بعض الرجال الضعفاء إذا عرفوا بوجودها، وإذا عرفوا أنها عادت للحياة لا بد وأن يقتلوها، ويدفنوها من جديد، ولن يسمحوا لها بالبقاء على قيد الحياة لترى نور الصباح). وطلبت إنقاذها من ورطتها وقالت: (اريد أن أعيش). وفي نفس الوقت، الذي كنا نتحدث فيه، سمعنا صيحات وضجة صادرة عن حشد من الناس، ورأيناهم يندفعون نحونا، وكان بعضهم يحمل العصي والهراوات، وبعض آخر كان يحمل السيوف، وكان جلياً أننا مستهدفون من ذلك الحشد وأنهم ينوون إلحاق الضرر بنا وكان يقود ذلك الحشد رجل عجوز، له لحية بيضاء، وتدل كل الدلائل أنه فارسي. وكان يحمل في يده سكيناً طويلة، وكان وجهه مغضباً، كما كانت علائم التعب بادية عليه، وما إن اقتربوا منا حتى صرخ ذلك الشيخ في أتباعه، لإلقاء القبض على تلك المرأة، وأمر بدفنها حية. فقام بعض منهم فاتجه نحونا، بينما قام بعض آخر وبدأوا بحفر حفرة على شكل قبر حيث كنا نقف، وقد بدت العصبية على حركاتهم، بينما قام فريق ثالث منهم بتحضير الطين للقبر، وفجأة وجدنا أنفسنا ـ زوجتي وأنا ـ وكأن الشلل قد أصابنا إذ لم نبد حراكاً فلم نحرك ساكناً تجاه ما يقومون به على الرغم من شعورنا بمساعدة تلك الفتاة مهما كلف الأمر.

وصرخ الرجل العجوز ذو اللحية البيضاء بشكل مسعور: (سندفنها حية، وبقبر من الوحل هذه المرة). وكان فريق يمسكها وتقدم بها إلى حافة القبر، ثم أخذوا بإدخالها إلى تلك الحفرة، وكانت تصرخ طوال الوقت وتنظر الينا بعيون دامعة حزينة، وأخذت في مقاومتهم، وتكافح بكل قوتها. فشعرت فجأة بالمهانة والهزيمة، وأحسست أنَّ عليَّ أن أقوم بعمل ما لإنقاذها مهما كلف الأمر، وبذلك تقدمت نحو ذلك الرجل العجوز، وبضربة واحدة مني على رأسه، خر صريعاً فاقد الحياة، ولم يحرك أحد ساكناً فكنت كالمسعور هائجاً، وتقدمت زوجتي نحو تلك الفتاة وخلصتها من قبرها، واتجهنا نحو البنغالو، وبعدها استيقظت على الفور.

وقد بدا لي أن ذلك الحلم كان مزعجاً ومخيفاً، ووجدت نفسي مضطراً للذهاب إلى أم مبارك، لاستشارتها وتفسير ذلك الحلم، وكانت تخيم في ذلك الوقت على بعد ٣٩ ميلاً جنوب مدينة الكويت، فسردت لها ذلك الحلم بكل تفاصيله فأطرقت برأسها فترة قصيرة، ثم نظرت إليَّ وانطلقت تقول:

(اذهب يا بني إلى المدير الكبير ـ وكان السيد سكوت المدير العام ـ وبلِّغه أنه

لن يجد بترولاً، حيث تحفرون الآن، وأعلمه أن عليه أن يوقف الحفر على الفور لعدم جدواه، وينقل معسكره من منطقة البحر في شمالي خليج الكويت إلى برقان جنوبي الخليج (٣٥ ميلا جنوب مدينة الكويت)، وعند عودتك بلغه أن عليه أن يبحث خارج منطقة شجرات الأرز، التي كبرت الآن، وعليكم أن تبحثوا عن البترول في المناطق المجاورة أيضاً، وهناك ستجدون ولا شك كثيراً من ذلك الذهب الأسود، وبمقدار ما تحلمون به، هذا هو تفسير حلمك يا ولدي)، وأضافت: (إن تلك المرأة التي كانت مدفونة وعادت للحياة تعني البترول الذي تبحثون عنه، أما شجرة الأرز التي شاهدتها بالقرب منها في حلمك فهي إشارة إلى شجرة الأرز الموجودة بالقرب من تلال البرقان، وإنها الشجرة الوحيدة في تلك المنطقة من الصحراء، وهي بالقرب من آبار مياه جعيدان. أما الرجل العجوز ذو اللحية البيضاء فيرمز إلى حكومة مجاورة تعارض التنقيب عن البترول في مناطق الكويت، وهي دولة غير عربية. أما الفتاة التي كانت ترغب أن تأخذوها إلى شيخ الكويت أو إلى القنصلية البريطانية، فهذا يعني أن كليهما يلحان على إيجاد البترول، وأنهما جاهزان لعمل كل ما يلزم لحماية حقول النفط من أي خطر خارجي من أين أتى. أما قطعة النقود النحاسية القديمة فهذا يعني، الغنى الذي ستحصل عليه بنتيجة اكتشاف حقول النفط، إذ ستدر على البلاد أرباحاً كبيرة تخلص البلاد من الفقر الذي هي فيه).

هذا وقد تأثرت كثيراً بما قالته أم مبارك من تفسير لحلمي، وقمت على الفور بإعلام المدير العام، (السيد سكوت) وكذلك خبير التنقيب، (السيد راكسترو) في البحرة. وكان حديثنا أمام السيد رودس خبير الشركة الجيولوجي، وبحضور السيدة راكسترو. وفي صباح اليوم التالي توجهت إلى قصر صاحب السعادة الشيخ أحمد الصباح، وأعلمته بحلمي وتفسير أم مبارك له: وبعد شهرين بدأت الشركة المتفرعة بالبحث عن البترول، بالقرب من تلال البرقان، وقد وجدت على الفور أنها عثرت على كميات من البترول جيدة جداً، وبالقرب من شجرة الأرز القريبة من آبار مياه جعيدان. ثم بعد ثلاثة أشهر أخرى بدأت الشركة بالتنقيب والحفر شمالي منطقة خليج الكويت، وقد عثر على البترول أيضاً من النوع الممتاز وبكميات وافرة جداً.

الفصل الخامس والعشرون

الحكم والأمثال

يعتبر العرب من أشهر الشعوب في العالم في قـول الأقـوال المأثورة وعندهم لكل حادث حديث أو قول مأثور أو شعر يتمثل به أو قصة رمزية لما يريده العربي. وكثيراً ما تستعمل الحكم والأمثال لدى أهل الحضر أكثر من أهل البادية. ففي المدن مثلاً عندما تجلس على مائدة الطعام فلا بد أولاً من ذكر عدة أقوال وأمثال قبل البدء بتناول الطعام، هذا وإن كثرتها وأهميتها تدل على أهمية الضيف والاهتمام به، وفي حال السكوت فهذا يعني عدم الاهتمام. يضاف إلى ذلك ترديد أقوال الرسول، والحكايات القديمة، وهذه يشار إليها عموماً بالتبجيل والاحترام، وغالباً ما تتميز حتى الحكايات بالحكمة والنصح والإرشاد.

وإنني أبين فيما يلي مجموعة من الأمثال والحكم والأقوال، وقد اخترتها من بين مجموعة كبيرة جمعتها أثناء إقامتي بين العرب وانتقيت القليل منها:

- إن الأحـارم اطايب ما عندنا هست[1].
- ثلاثة لا تظلمهم ولو ظلموك: فلاحوك، زوجتك، والمملوك.
- أحبوا من دنياكم ثلاث أطايب: النساء، وقربها، والصلاح.
- ثلاثة يذهبن عن القلب الحزن: الماء، والخضرة، والوجه الحسن.
- جارك ثم جارك، ثم جارك.
- يـا ضيفنـا لـو زرتنـا لـوجـدتنـا

نحن الضيـوف وأنت رب المنزل

---

(١) كذا في الأصل Hast .

- اضرب الكلب يتأدب الفهد.
- البيت بيتك والجامع لك قريب.
- دارِهم مادمت في دارهم.
- إذا استدل البدوي على باب بيتك، فأوصي على باب يدخل منه جمله.
- إيش لك في شجراته، وحياتها.
- المتفرج غير اللاعب.
- استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان.
- الخبز الذي خبزتيه يا رفلة كليه.
- إذا أنت أكرمت الكريم ملكتـه

وإن أنت أكـرمت اللئيم تمـردا

- العلم في الصغر كالنقش في الحجر.
- لا تركب العمانية ولا تتجوز الزغبية، العمانية تخرب الجيش، والزغبية تخرب الحريم. فالأولى يصعب عليك السيطرة على سرعتها، والثانية تغويك بذكائها وجمالها.

- الصبر مفتاح الفرج.
- من صبر ظفر ومن عجل ندم.
- الفرس الأصيلة لا يعيبها جلالها.
- من نوخ البعير ظهرت السكاكين.

الفصل السادس والعشرون

القبائل وحروبها

يعتبر الغزو من طبيعة حياة البدو وغالباً ما يكون مصدراً للرزق. وأهمية الإغارات بالنسبة للبدو كأهمية الرياضة للرجل الغربي المتحضر الذي يعشق ألعابها مثل كرة القدم، والتنس والرمي.... الخ. والإغارات بالنسبة للبدو أيضاً رياضة يحافظ بها على صحته وتجلب له المسرة وتزيل عنه الكآبة وبها يثبت البدوي شجاعته وقوة شخصيته. ولجميع هذه الأسباب كانت الإغارات والغزوات أمراً لا بد منه للبدوي.

هذا ويعتبر الرجل الذي يقوم بالإغارات، موضع احترام جميع الرجال، كما يعتبر الشباب مشاركتهم في الإغارات من أسعد أيام حياتهم وليدللوا بذلك على رجولتهم، وأنهم دخلوا المرحلة التي يمكن أن يعتمدوا فيها على أنفسهم وإثبات شخصيتهم لا سيما عندما يقبل الكبار من الرجال مرافقتهم ومشاركتهم.

ومع ذلك تعتبر الإغارات من الأمور الصعبة، وتتطلب مهارات خاصة، وشخصية حاذقة، ومبادهة وسرعة في اتخاذ القرارات الطارئة ومعرفة في أصول ركوب الخيل والجمال. كما تتطلب شجاعة وجرأة.

هذا ولا تستلزم الإغارات إراقة الدماء، فالمغيرون هم في الدرجة الأولى يهمهم النهب والسلب، ولا يهمهم القتل أبداً لا بل يتحاشونه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وهم يَطمعون في الجمال في الدرجة الأولى حين يسهل عليهم سلبها، وبهذه الرغبة وحدها يندفعون للنهب، دون أن يكون لهم أحقاد مسبقة، إذ ليس من الضروري أن تكون هناك عداوة حتى يجري السلب. هذا وإن نهب الجمال في الصحراء هي الطريقة المثلى في إلحاق الضرر في الخصم، فالجمال بالنسبة لبدو الصحراء هي كل

حياتهم وما يملكون، وهي بالنسبة للمغير ثروة نزلت من السماء إذ يصبح هذا مالكاً بعد أن كان ـ غالباً ـ معدماً لا يملك شيئاً من حطام الدنيا، وأخيراً لأن الجمال هي كل شيء بالنسبة لحياة البدوي.

وليس من الضروري أن تكون حروب البدو مماثلة أو مشابهة لما يجري في معارك الحروب الكلاسيكية، لا سيما الدفاع أو الهجوم حتى الموت، أو كما يقال النصر أو الموت، فالبدوي يعرف جيداً معنى التفوق عليه بالعدد أو العدة، لذلك كثيراً ما يلجأ في مثل هذه الحالات للمواجهة والمجابهة المباشرين، وقد يلجأ أحياناً للحيلة. فإذا قدَّر أنه يستطيع الوقوف في وجه المغير فإنه سيقف في وجهه ويمنعه من تنفيذ أغراض إغارته، أما في الحالة المعاكسة أي في الحالة التي يشعر فيها أن حظه بالنجاح قليلٌ، أو أن تلك الوقفة قد تعرض حياته أو حياة أفراد عائلته للخطر عندها يعرف جيداً أن لا جدوى من تدخله ولهذا يفضل الانتظار حتى تسنح له الفرصة المناسبة للأخذ بالثأر، وبهذا لا يغامر كثيراً ولا يمانع في أن تنهب أمام عينيه، على أمل أن ستعود إليه في يوم من الأيام حسب قاعدته في ذلك أو مفهومه (ناخذ وبنْوخَذْ) إلا أن ذلك لا يدل على عدم اتصافه بالرجولة والشجاعة، بل على العكس تماماً فالبدوي شجاع عند الضرورة لا يهاب الموت أبداً، ولكنه يقدر الموقف غالباً بشكل جيد، فإذا تطلب منه الوقوف بحزم فلن يتوانى أبداً عن الاندفاع كالذئب الكاسر، إلا أنه في نفس الوقت لا يقبل التحدي في بعض الحالات أبداً.

وإذا قدر أن قوة المغيرين لا تزيد كثيراً عن قوته أو تعادلها، فلن يتردد عندها أن يقاتل بشجاعة نادرة. وستقوم نساؤه بإثارة حماسه ودفعه للقتال وحثه على التصدي للمعتدين فتطلق الزغاريد والأهازيج وصيحات الحرب. وفي قبائل عجمان وعوازم تساعد النساء الرجال بجلب الذخيرة والماء وما إلى ذلك، ويعرف عن البدويات عدم المبالاة بالأخطار التي يمكن أن تحل بهن نتيجة ذلك لأن النصر هو أهم شيء. أما في الحالات التي يشعر بها البدوي أن لا أمل له بالنجاح في اعتراض المغيرين لأسباب مختلفة، عندها يسيطر عليه التعقل والهدوء وضبط الأعصاب، وقد يناوش المغيرين لكن دون التعرض للخطر، ويستكين أحياناً ولا يقوم بأية حركة على أمل أن يستعد لأخذ الثأر في المستقبل عندما تسنح الفرصة المناسبة وهو ذو نَفَسٍ طويل في مثل هذه الأحوال.

إن حب البدوي لجماله يفوق كل وصف، فهي كل شيء في حياته، وفي حال فقده أحدها بإغارة أو بسرقة عادية من لص محترف فلن يسكت على مثل هذا الهوان، ولن

يستكين، ولن يهنأ له بال قبل البحث في كل مكان، ومهما كلف الأمر، حتى العثور على ضالته، ثم يبدأ بالبحث عن اسم شيخ ذلك الجاني وعن ذلك الشخص الذي أصبح مالكاً جديداً لهذه الماشية، والقبيلة التي ينتمي إليها، ولديه في هذا الشأن طرق ووسائل مختلفة للعثور على ضالته المفقودة والتعرف على كل ما يريده، وغالباً ما يلجأ إلى طريقة (البلصة) أو (الرشوة) وذلك مقابل دفع مبلغ من المال، لأحد البدو الحياديين، فيقوم هذا الأخير بالبحث والتنقيب، وقد يطول بحثه زمناً طويلاً. ثم يأتي عادة بالأخبار الصحيحة فيبلغ صاحب العلاقة بها، وكل ما يلزم لاسترداد ما فقده بطريقة أو بأخرى.

ولما كان المغيرون يأتون غالباً من مسافات طويلة فهذا يتطلب من المغيرين في بعض الحالات وقتاً طويلاً قد يصل إلى أشهر في معظم الحالات، ومن هذه الأمثلة كثيراً ما تم العثور على بعض الجمال المسلوبة من الكويت في الجوف مثلاً أو في الرطبة أو في الهفوف وحائل، وكل من هذه الأماكن يبعد مسافة تزيد عن ٥٠٠ ميل، وإذا ما تم التعرف على المغيرين فيسارع أصحاب الماشية المفقودة إلى تحديد الأماكن التي وصل إليها المغيرون على الفور، ومن ثم يلجأون للقيام بإغارة معاكسة دون إبطاء ليتم التغلب على المغيرين، واسترداد ما سلبوه أو أكثر. أما إذا لم يتم التعرف على المغيرين أو أماكن لجوئهم، أو معرفة قبائلهم.... الخ، لأنهم استخدموا المفاجأة، ليلاً بإغارتهم، فلا بد من العمل أولاً على كشف النقاب عما ذكرناه من كشف للفاعلين وقبائلهم وأماكن تجمعهم... الخ، وقبل اتخاذ القرار المناسب لاسترداد ما سلب.

وإذا كان السلام يخيم على علاقات القبيلتين (المغيرة والمسلوبة) في المنطقة فعندها لا بد من إعادة جميع ما سرق لأصحاب تلك الحيوانات، لكن في مثل هذه الحال تخضع لقانون (العرافة).

إن سرقة الجمال والتجول فيها ومشاهدتها من قبل الآخرين، حتى لو لم يكن المالك أو قبيلته بحالة حرب مع قبيلة الآخر لا يعتبر ذلك عملاً مهيناً أو معيباً، بل ينظر لمن حصل عليها على أنه رجل شجاع (كسيب). ولا غرابة أيضاً إذا ما صادف بدوي في طريقه مثلاً، جمالاً أو أغناماً غير محروسة أو شاردة أو ضالة فهو لا يتردد في سرقتها، ويكثر حدوث هذا دون أن يخجل من ساقها من عمله، ويقودها إلى حيث يقيم، وإذا ما علم المالك الأصلي بوجودها وطالب باستعادتها فستعاد له، وإلا فإنها ستصبح ملكاً للمالك الجديد، وهذا الأمر لاعيب فيه أبداً لدى البدو وليس هنالك من مشكلة يمكن

أن تعترض المالك الجديد. وتشتهر قبائل عجمان والضفير بمثل هذه الأفعال.

أما في العربية السعودية حيث أصبحت يد ابن سعود قوية فعالة، فقد تقلصت كثيراً الإغارات حتى يمكن القول إنها اختفت نهائياً في بعض المناطق ولم يعد لها وجود بتاتاً، ويقول البعض من البدو تعليقاً على هذا التصرف: (إذا منعتنا من القيام بالإغارات لكسب عيشنا، ولا زراعة، ولا تجارة لنا ولا عندنا أشجار نخيل، فكيف لنا إذن أن نعيش؟).

هذا وقد ساءت أحوال بعض البدو، حتى درجة المجاعة، وزاد من صعوبة الأمور وتعقيدها ظهور السيارات مما أدى إلى كساد في تجارة الجمال ولا سيما أنها كانت تصدر من قبل من شبه الجزيرة العربية كل عام ويباع منها سنوياً مئات الآلاف إلى كل من مصر، وبلدان شمال أفريقيا، فلسطين، سوريا، تركيا، العراق، وفارس. وكان البدو بهذه الطريقة يحصلون على ما يسد رمق عيالهم.

إعلان الحرب

قد ينشب النزاع بين قبيلتين من القبائل العربية في الصحراء، أو حتى بين دولتين عربيتين، فعندها لا بد من اتباع قاعدة معروفة نظامية، يجب التمسك بها، وهي تقضي بالإعلان عن الحرب وغالباً ما تكون بلهجة حماسية وبأحد التعابير المتعارف عليها. وهذه الطريقة لا تستخدم على الأطلاق بين أفراد البدو في النزاعات الفردية. أما في حال النزاع بين القبائل، فتقوم القبيلة التي لحق بها الضرر أو الإهانة، أن ترسل رسالة مكتوبة أو شفهية لتعلمها عن قرارها، بأن عليها (النقا) ولا سبيل إلى إصلاح ما فسد بينهما سوى الحرب، وكلمة (نقا) تعني التحذير أو الإنذار، ثم إعلان الحرب، وهذا لا يعني أبداً إلغاء المبدأ القائل بالمفاجأة بالهجوم، وإن (النقا) هي نقيض الهدنة، فالأخيرة تعني إيقاف الأعمال القتالية، وإن كلمة (علق) تعني عقد الهدنة. وهناك تعبير دارج عند البدو يقول (مردود النقا عليكم) أي أن ذلك الخصم قبل التحدي بتحد آخر. كما يعني ذلك قبول الإنذار بالحرب، وكثيراً ما كان يسمع في الأيام السابقة في حروب الصحراء.

وقد علمت بشهر آب /١٩٣٤/ عندما أعلن صاحب الجلالة الملك ابن سعود الحرب على اليمن، أرسل الإمام يحيى إلى الملك السعودي، رسالة، كانت تتضمن الكلمات التالية: (مردود النقا عليكم، وولدنا سيف الإسلام أحمد يصلكم). أما ابن سعود فقد رد على تلك الرسالة، يعتبر ذلك كإعلام بتلقيه الجواب قائلاً: (أهلاً وسهلاً بابنك، وإننا لنا ولد أيضاً وهو سعود الذي يسعده أن يلتقي بابنكم أثناء حضوره).

وعندما ترسل قبيلة ما (بالنقا) إلى قبيلة أخرى، يضاف إلى تلك الرسالة - شفهيـة كانت أم مكتوبة (- أن فلاناً - هو من المقاتلين المشهورين - هو قادم للقائكم وقتالكم، كما أن الفارس الفلاني أيضاً سيذيقكم مر الموت). ومن ثمّ يقوم شيخ القبيلة التي أعلنت الحرب بدعوة مقاتليه المشهورين، وكذلك وجهاء القبيلة، ويعلمهم بإعلان الحرب، ومن ثم يصب فنجان قهوة، وينادي (إن هذا الفنجان، هو رمز المقاتل، كذا، وكذا، والآن من منكم يتقدم ليتابع طريقهم؟. من سيشرب هذا الفنجان ويتابع القتال؟ ومن سيجلب النصر في معركة واحدة وحيدة؟). ثم ينظر هؤلاء في وجوه بعضهم ثم ينهض من بينهـم من يعتقد بنفسه أنه كفوء لكسب تلك الحرب، وغالباً ما يكون معروفاً بشجاعته وقدرته في فنون الحرب والقتال، ويقول: (أنا لها) وبعدها يتقدم ويتناول فنجان شيخ القبيلة ويشربه وسيكون بهذا مسؤولاً عن تنفيذ وعده.

الحشد للحرب ، أو للإغارات الكبرى

أولاً: يجب أن نتذكر أنني أوضحت في مكان سابق من هذا الكتاب، أن كل قبيلة في حالات القبائل الكبيرة تسلم أمور قيادتها ومشيختها وجميع سلطاتها العليا بشأن تقرير الحرب والسلم وما إلى ذلك إلى أحد بطون القبيلة التي تتميز عادة بصفات معينة، كما هو الأمر في (الحثلان، والدوشان، والصويت). وما على بطون القبيلة الأخرى إلا أن تنفذ ما يقرره شيخ القبيلة الكبير والذي يتمتع عادة بصفات معينة تفوق غيره لا سيما ما يسمى (الحظ في الحرب) أو (الفأل الحسن). فمثلاً حالة قبيلة المطير التي كانت تتبع على الدوام فيصل الدويش في الماضي، لأنه أثبت وبرهن على قدرات فائقة في قيادة قبيلته وحقق لها انتصارات عديدة.

ثانياً: لا يستطيع شيخ القبيلة ببساطة أن يرسل الرسائل والمراسيل إلى مختلف بطون القبيلة يأمرهم فيها بإجراء التحشدات الضرورية تحت قيادته، بل إنهم لا يمتثلون لأوامره في مثل تلك الأحوال. والذي يجري عملياً، هو أن يدعوهم لعنده فيرسل بطلبهم للاجتماع لأمور هامة، ويناقش معهم عزمه على الحرب وما هو المطلوب من هذه الحرب موضحاً غايتها وأسبابها. . . . الخ، وتجري هذه الأمور عادة بسرية تامة. ثم بعد ذلك يتم الانتقال إلى مناقشة خطط الحرب والمعلومات المتوافرة عن الخصم وأماكن الهجوم، وما إلى ذلك، ويدوم هذا النقاش حوالي الأسبوع، وقد تكون هذه الاجتماعات مدعاة لتنبه الخصوم أحياناً، وقد يدوم بحث الأمور واتخاذ الاستعدادات اللازمة مدة قد تصل في بعض الأحيان إلى الخمسة عشر يوماً، وأحياناً

قد تمتد إلى الشهر. وما إن تتوالى التأييدات والموافقات على اقتراح الشيخ العظيم، حتى يبدأ المختصون في القبيلة بتفحص الأمور بدقة، حول العمليات المقبلة المحتملة الواجب القيام بها ودراسة مختلف الأمور المتعلقة بالمعركة، من ناحية العدو والأرض والقوات الصديقة والاحتمالات المختلفة. ويتم ذلك عادة بعد قناعة مختلف قادة القبيلة على مقترحات شيخهم. وهذا يعني أنه قد تم تسوية جميع الأمور. ثم يأتي دور تحشد القوات وينطبق ذلك على كل فرد من القبيلة دون استثناء، ويجري تجميعهم في أماكن متفق عليها مسبقاً، وتكون معدة طبقاً للخطة العامة للعمليات الحربية المقبلة، والتي تمت المصادقة عليها من معظم زعماء القبيلة، ولا يبقى في المخيم عادة سوى الشيوخ من الرجال واليافعين بهدف حماية مخيمهم وإبلهم من أي طارىء خلال العمليات الحربية. إذ يحدث في بعض الحالات أن يحاول البدو تخفيف الضغط في المعركة الرئيسة بالقيام بإغارات على مخيم القبيلة المهاجمة. ولهذا السبب توكل مهمة حماية المخيم إلى الشيوخ واليافعين وفي بعض الأحيان تشارك النساء في القتال.

هذا ويسمى جيش القبيلة في هذه الحالة (بالقوم، تلفظ القاف باللهجة البدوية) فيقال قوم ابن سعود عوضاً عن جيش ابن سعود.

أما قوات الإغارة أو الهجوم التي تقوم بالأعمال القتالية فتسمى بالغزو وعملها يسمى (غزوة).

أما كلمة حربية فهي غير معروفة إطلاقاً في مناطق نجد، ما بين البدو، ولكنها تستخدم كثيراً بين قبائل العراق.

فإذا فرضنا أن ابن سعود أمر بصفته ملكاً إجراء عمليات حربية في نجد مثلاً، فإن القبائل تتحرك فور الطلب إلى مناطق التحشد التي عينها ابن سعود لها وحتى الانطلاق للهجوم. أما الهجوم عملياً فيترك أمر تحضيره وتنفيذه وكل ما يتعلق به إلى زعماء القبائل أنفسهم.

أما في حال الإغارات التي تستهدف النهب والسلب فيكون الهدف الرئيس منها عملية تطويق لمخيم القبيلة المقصود نهب ممتلكاتها، ثم جمع إبل ذلك المخيم، وفي حال المقاومة، وإذا لم يتمكن المغيرون من السيطرة على المواشي حسب رغبتهم عندها توجه الضربات بهدف إحداث أكبر قدر ممكن من الأذى في الأرواح والممتلكات لا سيما بين اليافعين الذين هم في المخيم وقتئذ.

وقلما تحدث الإغارات في فصل الشتاء:

أ - ففي فصل الشتاء، توجد المراعي في كل مكان، وتقوم القبائل القوية بحشد قواتها في الأماكن التي ترعى بها مواشيها ولا سيما قطعان إبلها، وغالباً ما يكون تحقيق المفاجأة في مثل هذه الظروف مستحيلاً.

ب - لا تكون تحركات القبائل في مثل تلك الأحوال خاضعة للحاجة للمياه. فالماء في موسم الشتاء يوجد غالباً في كل مكان وإن وجوده لا يشكل عقبة على أحد.

جـ - وإذا كانت القبيلة قليلة العدد وضعيفة القدرة القتالية فإنها تحاول تجنب العداوات وتلقي الهجمات المماثلة، بأن تتابع تنقلها على الدوام، كما تتجنب المناطق التي قد تسبب لها بعض الأخطار.

أما في فصل الصيف فيصبح جميع البدو عرضة للإغارات والإغارات المعاكسة، إذ أنهم في الفصول الحارة يجبرون على التجمع حول آبار المياه بكثافة وحتى أن الخيام تصبح قريبة من بعضها البعض، حتى تصل حبالها للتشابك مع بعضها لا سيما الإبل، لتتجمع القبيلة حول آبار المياه، أما قطعان الماشية فعليها أن تذهب بعيداً بحثاً عن أماكن لرعيها لا سيما الإبل، وهذا ما يجعلها عرضة للنهب والسلب أكثر بكثير مما لو كانت بالقرب من مخيمات أصحابها، وبشكل أكثر بكثير من أوقات البرد كما هو الأمر في فصل الشتاء والربيع. ولهذا لا تستطيع أي قبيلة من تأمين الحماية لقطعانها بشكل مناسب، اذ يتوزع رجالها المقاتلون عادة ما بين مرافقة قطعانهم لرعايتها والاهتمام بها، مع بقاء عدد لا يستهان به منهم في المخيمات، وفي هذه الحال تتوزع جهود قواهم المسلحة ما بين المخيم وقطعان الإبل في المراعي البعيدة، بحيث يبحث رعاتها عن مراع لها لتسد بها حاجتها من الأكل، وغالباً ما تكون تلك القطعان التابعة لقبيلة واحدة متباعدة عن بعضها البعض، كيلا يسبب المضايقة أحد لآخر. وفي بعض الأحيان يمكن تشكيل زمر للحماية أو تشكيل دوريات صغيرة العدد وهي لا تشكل لهم حماية كافية، وما إن تحس هذه الزمر بعجزها عن المقاومة حتى ترسل في طلب النجدات. بينما يقوم المغيرون بجمع قطعان الماشية وسوقها معهم إلى حيث يقيمون وقد يسوقون تلك القطعان كلياً أو جزئياً حسب الظروف المحيطة بهم وحسب شروط الموقف، ويسوقونها قبل أن تزول المفاجأة ويتكاثر عليهم أصحاب تلك الحيوانات، ويقومون بإغارة معاكسة.

وقد جرى في إحدى المرات أن تمت مراقبة ودراسة بطائرة استطلاعية للتعرف

على كيفية إمكانية العمل في حال الضرورة. وقد تبين بوضوح مدى الصعوبات إذا ما تمت محاولة ضرب أهداف في الصحراء، خلال فصل الشتاء، إذ أن أفراد البدو ينصبون خيامهم بشكل متباعد، خلال فصل الشتاء، إما بشكل إفرادي كل خيمة على حدة، وأحياناً زوجياً، وفي الحالات النادرة كل ثلاث خيم. هذا وتنتشر الخيم على مساحات واسعة جداً من الأرض تتراوح المسافة بين خيمة وأخرى من ربع إلى نصف ميل في المتوسط، وهذا ما يساعد على صعوبة الإغارة إذ أن انتشار القوات المهاجمة على مساحات كبيرة ينتج عنها أخطار كثيرة وكبيرة. ويصعب معها أيضاً على المغيرين تجميع قطعان الإبل التي هي أهداف الإغارة، كما تحقق الفائدة من عدم التزاحم على أماكن الرعي.

على أن الصعوبات التي تواجهها قوات مغيرة على مخيمات واسعة الانتشار تواجهها أيضاً قوات عسكرية نظامية لا سيما القوات الجوية المكلفة مثلاً بالعمل ضد البدو، ولن تلحق مثل تلك القوات سوى أضرار طفيفة جداً بالبدو، إذ أن هذا الانتشار والتوزع يشكل حماية طبيعية، ويساهم في الدفاع عنهم إلى حد بعيد، وإذا كان لا بد من إجراء عمليات عسكرية ضدهم فيجب أن يتم ذلك خلال الصيف.

الإغارات

يعتمد البدوي بالدرجة الأولى لتحقيق النجاح في الإغارة على عنصر المفاجأة. فإذا وجد أن عنصر المفاجأة لن يتحقق، وأصبح ما سيقوم به من هجوم واضحاً، فلن يتردد أبداً بإلغاء الهجوم نهائياً أو تأجيله إلى موعد آخر أو مناسبة أخرى. ولن يقوم بهجوم لا تكون سريته تامة.

وفي الحالات التي تتطلب الإغارة قطع مسافات كبيرة، يفضل استخدام الجمال لتنفيذ الإغارة، وتنفذ الضربة المفاجئة عادة من مسافة لا تقل عن ٢٥٠ ميلاً، إذ يجري تجميع القوات من قواعد انطلاق بعيدة، بهدف تحقيق المفاجأة، وبعد الانطلاق يجري المسير ليلاً ونهاراً دون توقف للمساعدة في اختصار الوقت لتحقيق المفاجأة. أما في الإغارات التي يجري تجميع القوات فيها من مسافات قريبة، فيمكن عندها استخدام الإبل والخيول معاً، وبشكل متساوٍ، وينطلق كل خيال عادة وراء راكب جمل، وتسير الخيول هكذا حتى تصبح القوة المغيرة عند المسافة التي يجب توجيه الضربة منها، فيترجل راكبو الخيول عن خيولهم، ويكملون المسافة الباقية على ظهور الإبل، ثم يقوم الخيالة بمطاردة الإبل المسلوبة بينما يقوم راكبو الإبل بدور الدعم

بالقوة، ويقومون بتغطية الخيالة وحمايتهم عندما يقوم الأخيرون بسوق قطعان المواشي المسلوبة.

هذا وبصورة عامة تجري الإغارات من مسافات تزيد عن ١٠٠ ميل.

وهناك مبدأ عام يطبقه المغيرون، وهو إلقاء القبض على كل من يصادفونه في طريقهم أثناء توجههم نحو أهدافهم، خشية أن يقوم مثل هؤلاء بنقل نبأ تحركهم، وبالتالي يفقدون مبدأ المفاجأة الذي ذكرناه سابقاً، وسيسير هؤلاء المحتجزون مع المغيرين دون معارضة، حتى انتهاء المهمة، ثم يطلق سراحهم.

ومن جملة ما يقوم به قادة الإغارات عادة بهدف تضليل أي مراقب، أن يأخذوا أثناء مسيرتهم اتجاهات سير تقع أحياناً باتجاه معاكس تماماً إلى الجهة التي يقصدونها، وقد لا يأخذ ذلك مسافة طويلة بالطبع. ويجري أحياناً تغيير اتجاهات المسير نهاراً لمسافات محدودة. ويبدأ الهجوم عادة عند مطلع الفجر، ويفضل ـ إن أمكن ذلك ـ أن يجري أثناء هبوب العواصف الرملية، إذ يسهل الاختفاء تماماً أثناء هبوبها، وقد جرت العادة أيضاً إجراء بعض الخدع الحربية مثل القيام باحتلال آبار المياه، ومنع الورود إليها، كما حدث مع عُزَيز بن الدويش الذي قام بمحاولة لمنع الورود إلى آبار المياه فدمرت قواته، وقتل على الفور عام ١٩٢٩ في أم رضمة، حين وقع في كمين شتت قواته وقضي عليه.

إن إعداد هجوم ما على منطقة محصنة أو قوية، أو محاولة المغيرين احتلال موارد المياه، حتى القيام بسحب القوات الرئيسة التي قامت بسلب قطعان الإبل وتجميعها، يتطلب إجراء سلسلة من التعزيزات، وتكون هذه التعزيزات راجلة، وكأنها قطعات عسكرية نظامية، وفي هذه الحال يحتفظ براكبي الجمال والخيول في الإحتياط.

إن طرق الهجوم هذه كثيراً ما كان يستخدمها جماعات الإخوان في هجماتهم، وكانوا يتقنون تنفيذها، وبنجاح. وكانت الطريقة المثلى في هجماتهم، وقد استخدموها عند هجومهم على الجهراء عام ١٩٢٠ على الرغم من وجود قوات كويتية مشتركة. كما استخدموها في العملية التي أدت إلى استيلائهم على حائل. هذا وغالباً ما تستخدم قوات من البدو ـ وهي قوات غير نظامية ـ في الأنساق الأولى والثانية والثالثة، بينما تتشكل قوات الاحتياط من المتدينين، وهم عموماً من راكبي الخيول، وهم الذين يقومون عادة بالضربة الرئيسة، وهذه الطريقة ابتدعها الإخوان وطبقوها بنجاح كبير في

معظم عمليات الهجوم التي كانوا يقومون بها. وقد تستخدم هذه الطرق أيضاً في المستقبل في أي قتال قد تخوضه قوات العربية السعودية.

أما الهجوم على الأجنحة والأطراف، وقتال القوات المكلفة بحماية الأطراف والمؤخرات، وكذلك عمليات التقرب من العدو فإنها تجري كما هو الأمر في العمليات القتالية الكلاسيكية، وتختلف حسب المناسبات.

وهناك أمر هام أيضاً، ففي كل أنواع الهجوم وأشكاله، تنقل المياه مع المقاتلين إلى ساحات القتال، وتحمل على ظهور الجمال وبكميات كافية، ولا تسقى الإبل قبل انتهاء المهمة أو الهجوم المقرر. هذا ويتميز العرب في جميع حروبهم على مختلف أشكالها وأنواعها بأنهم يتجنبون الاعتداء على النساء، وطيلة تاريخ العرب الطويل يعتبر الاعتداء على النساء رذيلة، كما يعتبر خطيئة لا تغتفر بالنسبة للمقاتل، وتدل على سوء أخلاقه مهما تميز بالشجاعة والإقدام، ولا يسامح العرب مقاتلاً يعتدي على امرأة أبداً. ويعامل العرب النساء أثناء غزواتهم بفروسية وشهامة ومنتهى الاحترام.

وإنني شخصياً أثق كثيراً بأخلاق البدو وسلوكهم وفروسيتهم تجاه النساء. ولهذه القناعة ترافقني زوجتي على الدوام، ومعها أطفالي، ونقيم مع البدو في مخيماتهم ونعيش معهم كما يعيشون، ولم نلاحظ ولو مرة واحدة ما يمكن أن يسيء إلينا بتاتاً، أو ما يثير الشبهة. وكثيراً ما كنت أترك زوجتي وأولادي يعيشون مع البدو لوحدهم، وبدون حراسة ولم أسمع مرة أنهم قد تعرضوا إلى أي شيء يعكر عليهم حياتهم.

هذا ولكل أمير عربي عادة، كما لكل قبيلة صرخة أو صرخات للحرب. ويعرف كل فرد في القبيلة عادة صيحة أو صرخة قبيلته كما عليه أن يعرف صيحات القبائل الأخرى.

وتسمى صيحات الحرب هذه (بالنخوة) و (العزوة) ويطلقها المقاتلون عادة أثناء القتال، أو أثناء الاندفاع بالاغارة أو الهجوم، وهي تثير الحماس، بل تلهب المشاعر حماساً ورجولة، ولا سيما عندما تختلط أصوات الخيول بصيحات المقاتلين. وهي عموماً تطلق بأصوات حادة تشبه الصراخ، مع إطلاق بعض الكلمات. وتهدف هذه الصرخات أو الصيحات إلى إلقاء الرعب في قلوب الخصوم، كما تستخدم للتمييز بين الصديق والخصوم أثناء احتدام المعارك. وكثيراً ما يستخدم المهاجمون اللثام على وجوههم فيخفون وجوههم به، ولا يبقون سوى عيونهم مكشوفة. علماً بأن البدو يلبسون نفس الثياب عموماً، لا فرق بين صديق أو خصم.

الاستسلام

تجري عملية الاستسلام عادة كما في الجيوش النظامية بالغرب بالشكل، إذ يلقي المستسلم بسلاحه على الأرض، ثم يرفع يديه إلى الأعلى مفتوحة، ثم يتقدم الشخص المستسلم بهذا الوضع، باتجاه الشخص الذي استسلم إليه، وهذه الطريقة العادية في الاستسلام.

يضاف إلى ذلك أنه حتى في قلب المعمعة، يحق لكل بدوي أن يحصل على نفس النتيجة عندما يرغب بذلك. إذ يكفي أن يصرخ مثلاً ـ إذا كان يعرف خصومه ـ يا فلان أنا في وجهك، وفي هذه الحال على ذلك المنادى عليه أن يقوم بحمايته ويكون مسؤولاً عن أمنه وسلامته. وقد يضطر حتى للدفاع عنه في بعض الظروف. وعموماً يطلب الأمن من قادة المغيرين بالنسبة للمستسلمين، وليس من المقاتلين العاديين، ويرد على طلب الاستسلام أو دعوة المستجير. ويرد المستجار به بالإيجاب بقوله: (وصلت يا فلان، أو يا هذا عليك أمان الله، أعطيتك وجهي سلم سلاحك)، فيصبح المستسلم آمناً مطمئناً على حياته.

وقد يصادف أن يتوجه المستسلم بطلبه الاستسلام إلى شخص عادي ليس من المشهورين من بين المقاتلين، وفي مثل هذه الأحوال يقوم المستجار به بدعوة المستجير بأن يتوجه باستسلامه إلى فلان وفلان. . . وهم عادة من البارزين القادرين على تأمين الحماية له. ولا حرج في ذلك إطلاقاً، ويقول له (اطلب وجه فلان) وبالطبع عليه أن يتوجه بطلبه إلى ذلك الشخص، وسيصبح بعدها بأمان.

هذا وللمقاتل الذي قبل حماية المستجير به أثناء المعركة أن يحدد حدود الاستجارة. فمثلاً له الحق أن يحتفظ لنفسه ببعض التحفظات على الاستجارة، كأن يقول مثلاً: (حياتك مضمونة، وسلاحك كذلك، أما حصانك فلا) أو (حياتك في أمان، وليس سلاحك وحصانك). وقد يقول المستجار به: (إنني أمنحك حياتك لشيخي)، وللشيخ بالطبع الأمر النهائي.

بعض المغيرين المشهورين ممن أعرفهم شخصياً

١ ـ الشيخ محمد بن سالم الأُذين من بطن مصرة من قبيلة عجمان.

قد يكون أعنف المغيرين ممن أعرفهم، وقد سبب الكثير من الأذى في خصومته لابن سعود، أثناء عصيان الأخوان وتمردهم في المدة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠. ويمتاز بالمرح

الشديد على الدوام، وله وجه ضاحك، قصير القامة، عريض المنكبين بشكل بارز، له أنف حاد ولحية سوداء طويلة لها عقصات محببة في نهايتها.

وأجمل متعة لديه هي القيام بالإغارات، كان ينطلق من حدود الكويت، (الوفرة) حتى المناطق الشرقية، من آبار أبو جفان، على الطريق بين الهفوف والرياض، وكان ينصب كمائنه بعناية في تلك المناطق، فقد استولى على مجموعة من الإبل كانت محملة بالمؤن للقوات السعودية، كما استولى أيضاً في ٥ آب ١٩٢٩ على اثنتي عشرة سيارة كانت محملة بالرجال المسلحين، بالقرب من رماح عندما كانت تلك القافلة تجتاز منطقة رمال الدهناء (من الرياض إلى الهفوف). وقد استولى على السيارات، وقام بحرقها، جميعاً ولم ينج أحد من طواقم تلك السيارات.

وقد حدث أن التقيت به بتاريخ ٢٢ آب ١٩٢٩ بعد أسبوعين من الحادثة الأخيرة عندما كان يحاول مقابلة شيخ الكويت، وكان يرافقه فرحان بن مشهور، وكان يلبس عمامة بيضاء كبيرة على غرار ما كان يلبسه الإخوان، وحدثني مطولاً عن كيفية تحضيره الضربات القتالية، وعن وضع الخطط اللازمة، وكيف كان يقود معاركه المشهورة، ثم أنهى حديثه بأن ناولني حوالي ستين رسالة وبرقية أرسلها الملك عبدالعزيز للبدو وكلها تحثهم على قتلي وتشجعهم على الابتعاد عني وتغريهم بكل الوسائل لاغتيالي. وأضاف بأنه كان حزيناً جداً لمثل تلك المحاولات، وبعد عدة سنوات، انتهت ثورة هؤلاء فعاش محمد في العراق، ثم انتقل إلى الكويت، ولا يزال يعيش هناك ١٩٣٥. وقد نصحته أن يقبل بعرض ابن سعود القاضي بالعفو عنه، وعن قبيلة عجمان كلها، وقد عاد فعلاً إلى السعودية بعد أن تمت مصالحته مع الملك بناء على نصيحتي.

٢ - ومن مشاهير المغيرين أيضاً وممن أعرفهم: فيصل الدويش.

هو آخر شيخ لقبيلة المطير، وكان قبل ذلك من أهم أعوان الملك ابن سعود من بين البدو جميعاً، فقد ساعده بقبيلته وبكل ما يملك في الاستيلاء على السلطة في شبه الجزيرة العربية، فقد استولى على المدينة المنورة لحساب ابن سعود. وباختصار يعتبر فيصل الدويش أكثر العرب إخلاصاً وأكثر من قدم المساعدة لابن سعود، وكان بحق ملكاً للبدو جميعاً، وهو أهل لذلك بكل ما يتمتع به من صفات حميدة. هذا ويعتبر بعد ابن سعود أكبر استراتيجي عرفته شبه الجزيرة العربية خلال هذا القرن، ويشهد له بذلك جميع من عرفه. وهو رجل عريض المنكبين، قصير القامة، وله أنف كبير بشكل بارز، ورأس ضخم، تبدو عليه علائم الصرامة والقسوة، وله نظرات صارمة، حاد الطباع، صامت لا يتكلم إلا ما يجب تماماً، حذر في حديثه وفي كل

كلمة يقولها، ونادراً ما يتحدث إلى من حوله من الناس، كما أنه مقاتل عنيد، شجاع فهو دماغ عشيرته في القتال، وله سمعة واسعة بين البدو، إلا أنه عنيف لا يقبل المساومة أبداً. وهو من بطن الدوشان بقبيلة المطير، وقد ربح جميع المعارك التي خاضها مع قبيلته، وكان بطلاً من أبطالها المشهورين وهم يعتزون به وبقيادته. ويعتبر بحق بطلاً من أبطال حرب الصحراء. وعندما يمشي يلاحظ عليه أنه أحدب، ولكنه بشكل خفي، ويترنح قليلاً في مشيته بسبب جرح قديم في ساقه. وقد توفي في الرياض في سجنه عام (١٩٣٢) .

هذا وقد التقيت به للمرة الأولى بالقرب من الصبيحية بتاريخ ٣١/آب/١٩٢٩. خلال حركة العصيان والتمرد التي أثارها الإخوان ضد ابن سعود، وكان جميع أفراد قبيلة المطير وعجمان في وضع التمرد والعصيان على سلطة ابن سعود، وقد عبروا الحدود إلى الأراضي الكويتية وخيموا حول آبار مياه الصبيحية، وكانوا جياعاً وفي وضع سيء. وكان يأمل أن يسمح له بشراء الأغذية اللازمة من ميناء الكويت، وقد تألف مخيمه من أكثر من ثلاثة آلاف خيمة، مع قطعان إبلهم التي كانت تزيد عن المئة ألف رأس من الإبل، وكان من الممكن أن يؤثر تأثيراً كبيراً على دولة الكويت. وقد تلقيت تعليمات من القيادة العامة تتضمن إنذار فيصل الدويش أن عليه أن ينسحب ويجتاز الحدود الكويتية من حيث أتى خلال ثمان وأربعين ساعة، وإلا فإنه وشعبه سيكون عرضة للقصف الجوي من قبل القوات الجوية الملكية البريطانية، التي ستنطلق من قواعدها الجوية من مطار الشعيبة في البصرة.

وعلى الرغم من تحذيرات شيخ الكويت لي ونصيحته بعدم الذهاب حيث يقيم فيصل الدويش ـ خوفاً علي من أن أتعرض لما لا تحمد عقباه ـ فقد ذهبت بالسيارة إلى مَلَحْ وطلبت من فيصل أن نتقابل هناك، وقرر شيخ الكويت أن يلحق بي في آخر لحظة، وكان برفقته أربعة من عبيده فقط، وذلك خوفاً من أن يلحق بي بعض الضرر. وقد حضر فيصل في الموعد المحدد تماماً، وكان معه زعماء الإخوان الرئيسيين. وبعد أن قلت ما يجب قوله، وأضفت إنني تلقيت تعليمات يجب أن أضعها بين أيديهم تقول إنهم سيتعرضون للقصف الجوي، هم ونساؤهم وأطفالهم والذين يعدون بعدة آلاف،

رجوتهم حفظاً لمصلحتهم باجتياز الحدود السعودية ضمن المهلة المقررة، وقد ترددوا في البداية في إعطاء الجواب، وكانوا يدَّعون أنهم ليسوا خصوماً لبريطانيا، ولا يريدون معاداتها، وأضافوا أن قبيلة مطير كانت في الماضي من رعايا دولة الكويت، وأنهم يرغبون الآن العودة إلى ولائهم السابق، إلا أنني لم أقبل هذه الحجج، وكنت صارماً معهم، مع الإصرار على تنفيذ الرحيل، وإلا فليس هنالك من حل آخر أمامهم، وإن هذا قرار نهائي.

وبالفعل فقد شعرت وأنا أخاطبهم بتلك اللهجة من التهديد، أنني أقسو عليهم لأنني كنت أعلم ما ينتظرهم، وقد أشفقت عليهم، لكن لم يكن أمامي أو أمامهم من خيار. وقد كان القرار متخذاً بقصفهم بطيران القوات الجوية البريطانية في حال ممانعتهم للرحيل، وألححت على إعطاء وعد بالرحيل ضمن المهلة المقررة ولا حاجة لأية مساومة، ولم يجدوا منـاصاً إلا الخضوع لهذا الطلب المجحف. وانتهينا من هذا الجدل، وحصلت على الوعد المطلوب في الوقت الذي كانت فيه كرة الشمس المحمرة وكأنها اللهب تميل نحو الغرب خلف أفقها البعيد، وقد بدت لي أنها كانت تنذر بشر رهيب.

وأذكر جيداً أن فيصل اعتذر قائلاً إنه يريد أن يؤدي فريضة صلاة المغرب في موعدها، فقام مؤذناً وداعياً للصلاة، ثم قام وأمَّ الجميع، واصطف الجميع خلفه وقد شعرت برهبة تلك اللحظات، وكان منظراً مؤثراً بالفعل، فقد وضع كل واحد منهم سلاحه أمامه كما هي عادة الإخوان أثناء أداة فريضة الصلاة، وما إن انتهت الصلاة، وكما هي العادة بأن يدير المصلي رأسه إلى اليمين واليسار وفي كل مرة يردد (السلام عليكم ورحمة الله)، حتى فعل المصلون، ثم استدار نحوي وهم لا يزالون جلوساً، وقال (أعدك بالله العظيم، أن ألبي ما طلبته مني، اذهب بسلام). وهذا يعني أنه سيجتاز الحدود إلى العربية السعودية خلال ثمان وأربعين ساعة، وقمت من جهتي، ووجهت بعض عبارات المجاملة، فشكرته على ذلك الوعد، وحاولت أن أخفف عليه، بتطمينه لما سيحدث. إلا أن ذلك لم يغير من قناعته شيئاً، ونهض من مكانه ورافقني لوداعي، في نفس الوقت كانت طائرة استطلاع تحوم حول مخيمه، وبالفعل فقد وفى فيصل الدويش بوعده.

وقد شعرت برهبة الوداع التي خيمت علينا، وشعرت أنني حقاً أمام رجل صحراء فذ في أخلاقه وقوة شخصيته، وصدقه، على الرغم أنه كان يعرف خطرالموت بسبب وفائه بما وعد، ولم أره بعد ذلك إطلاقاً، حتى استسلامه في الجهراء بتاريخ

٨/كانون الثاني/١٩٣٠، أي بعد خمسة أشهر على لقائنا الأخير، عندما زرته بناء على طلب قيادة القوات الجوية البريطانية، وقد أخذت طريقي في وسط قنابل الطائرات المتفجرة وشظاياها، التي كانت تتساقط على مخيمه، وقد حاولت إقناعه على مدى ساعتين من نقاش صاخب أن يستسلم لقيادة القوات الجوية البريطانية الملكية، وأن لا يحاول اجتياز الحدود باتجاه العربية السعودية حيث كانت تنتظره قوات ابن سعود على الحدود، كما كان مقرراً أن يفعل، وكانت القوات السعودية منتشرة على طول الحدود الكويتية الجنوبية.

لقد كان موقفه ميؤوساً منه تماماً، فدخوله الأراضي الكويتية مرة ثانية ضد التعليمات المعطاة له بإخلاء الأراضي الكويتية، وهذا يعني تعرضه وقبيلته للقصف الجوي من قبل طيران القوات الجوية الملكية البريطانية من جديد، أو الاستسلام للقوات البرية البريطانية. ولم يكن أمامه سوى أمل ضعيف جداً بالهرب. وقبل فيصل أخيراً نصيحتي، وفر باتجاه معسكر قيادة القوات الجوية البريطانية في العراق، وكان قائد تلك القوات في ذلك الوقت نائب المرشال الجوي (السير. س. س. بورنت)، وكان يقود العمليات الجوية ضد قوات فيصل بنفسه. وهناك تخلى فيصل عن سيفه واستسلم لهم.

وقبل أن يطير فيصل إلى البصرة كأسير ـ وكان الوقت في نهاية النهـار ـ أمنني على زوجته، وأخواته الثلاث، وطفليه الصغيرين وسبعة وعشرين قريباً له، وقال لي بلهجة مؤثرة: (أهلي في ذمتك يا أبا سعود)، وقمت على رعايتهم والاعتناء بهم، وأبقيتهم عندي في الكويت لمدة تزيد عن شهر، إلى أن أرسل صاحب الجلالة الملك عبد العزيز في طلبهم من أجل الإقامة نهائياً في عاصمته.

هذا وقد قدر الملك لنا تقديراً عالياً ما قمنا به تجاه أهل فيصل، وشكرنا على ذلك بحرارة ضمن رسالة وجهها إلينا تضمنت كل معاني الشكر والتقدير. ومن غير ريب أن ابن سعود يتمتع بصفات الفروسية العربية تجاه تلك العائلة الكريمة إذ كان يرعاها بنفسه، ويسهر على كل ما تحتاج إليه.

وأخيراً لا بد من كلمة حق أقولها بأن فيصل الدويش كان يملك صفاتاً نادرة بين الرجال، ومهما قيل عنه بأنه تسبب في الأذى لبعض الناس، فذلك يعود لإخلاصه لمبادئه التي آمن بها ودافع عنها بشجاعة نادرة، وكان في كل مراحل حياته لا يخشى شيئاً في سبيل تحقيق ما عزم على تحقيقه، وإن أمثاله قلة في كل زمان ومكان.

كان فيصل الدويش قائداً مبرزاً في القتال في الصحراء، واسع الحيلة، ذا فكر عسكري بارز، وكان يتميز بشجاعة نادرة، لا يخاف الموت أبداً، وقد عمل مع ابن سعود طويلاً، وأدى له خدمات جلّى هو وعشيرته، ثم وقع خلاف بينهما، إذ كان فيصل متمسكاً بأفكاره لا يقبل المساومة. وكان يأمل بمستقبل زاهر للعرب، ويسعى ما وسعه ذلك لتحقيق ذلك الهدف، لكن خصومته المبكرة مع ابن سعود الذي ـ أي ابن سعود ـ يتمتع بالحزم كحاكم، وبكل صفات الرجال العظام، وقد خلق هذا تناقضاً بين الاثنين أدى أخيراً إلى أن يقضي أحدهما على الآخر، وكان فيصل من الناس الذي ينظر للمبادىء في المقام الأول دون النظر كثيراً للاعتبارات السياسية، وكان مخلصاً صادقاً في اعتقاده، ولا يبغي من وراء ذلك شيئاً سوى تجنيب البلاد الوقوع في مشاكل هي بغنى عنها. وكان ابن سعود يعمل للتوفيق بين علاقته بالإنجليز الكفار غير المؤمنين من جهة، وبين الوهابيين الصارمين ووعظ الإخوان وتوجيههم من جهة أخرى.

وأعتقد أنا شخصياً أن فيصل الدويش كان كالشوكة بالنسبة لابن سعود، لا سيما في السنوات الأخيرة من حياته، لكن على الرغم من ذلك فإن ابن سعود لا يمكنه مهما كلف أن يطرح من ذاكرته فيصل الدويش وفضله عليه، كما أن شعب العربية السعودية لا يمكنه أيضاً أن ينسى تاريخ ذلك الرجل الحافل بالبطولات. ذلك الرجل الذي قضى حياة الطفولة في الكويت، ثم أصبح ذلك الرجل المشهور، والقائد الذي لا ينسى في شبه الجزيرة العربية.

فقد كان فيصل أحد الثلاثة والعشرين الذين ناصروا ابن سعود في احتلال عاصمته الرياض. كما كان ولا شك الرفيق الذي لم يفارق ابن سعود في لحظات الخطر كلها، فكان دوماً في مقدمة المقاتلين، كما كان قائداً عنده، وناصحاً له، ولا يمكن لابن سعود أن ينساه أو ينسى تاريخه العظيم، وهو يعرف جيداً أنه لولا فيصل الدويش وأمثاله لما تمكن من الوصول إلى الحكم.

ولعل أشهر الإغارات التي قام بها فيصل الدويش هي تلك التي وصل فيها إلى البحر الأحمر، منطلقاً من مقر قيادته في الأرطاوية ،وقد وصف لي هذه الغارة ابن مسيلم شيخ الرشايدة في الكويت، بتاريخ ٢٧/كانون الثاني/١٩٣٥. ومما يؤسف له أنني لم أدون تواريخ تلك الغارة بدقة، وقد تحدثنا عن طول تلك المسافة، كما سألته فيما إذا كان يعلم شيئاً عن وسطي مسافات الإغارات، وبعض الأمور المتعلقة بالإغارات وما إليها، ولا سيما تلك الإغارة الموصوفة، فأشار علي برجل كان يجلس في خيمته معنا، وطلب منه أن يقص علي تفاصيل تلك الغارة تحت أمرة فيصل

الدويش، التي استلزمت قضاء أربعة أشهر لتنفيذها، وكان ذلك قبل ثماني سنوات من موعد لقائنا هذا. وقد وجدت ترحيباً منه أن يقص علينا قصة تلك الإغارة المشهورة، فبدأ بسرد انطلاقهم تحت قيادة فيصل الدويش من الأرطاوية ،باتجاه عجيب، مروراً بالقرب من حائل التي كانت على يسارهم، ومن ثم تابعوا سيرهم بسرعة كبيرة إلى الوجه على البحر الأحمر، ومن ثم توجهوا باتجاه الشمال، وهاجموا التجمعات في بِلي، وفاجأوا هناك بعضاً من بني عطية وعادوا أخيراً وقد سلبوا غنائم كثيرة من الإبل، ورجعوا عن طريق لينا، الرضيمية، الرخيمية، حفر الباطن، وأخيراً الصمان. وأضاف أيضاً أن تلك الإغارة اقتضت أربعة أشهر كاملة، من البداية حتى النهاية، أما المسافة المقطوعة فكانت حوالي (١٥٠٠) ميل، وكانوا يسيرون في أغلب الأحيان ليلاً.

٣ ـ عبد العزيز فيصل الدويش، المعروف بين الناس باسم عْزَيِّزْ.

كان عزيز هذا أكبر أولاد زعيم الإخوان فيصل الدويش، وكان بهي الطلعة، جميل الصورة نحيفا، مستقيم العود. وكان والده شغوفاً به، ويقول البعض أن إخفاق ثورة الإخوان (١٩٢٩ ـ ١٩٣٠) بدأ منذ اليوم الذي قتل فيه الشاب عزيز، وطبقاً لما يقوله البعض من المطير أن الأب قد أصبح منذ تلقيه نبأ مقتل ابنه كئيباً، صعب المزاج، قنوطاً، يائساً، ولم يعد يتناول من الطعام والشراب، إلا ما يسد رمقه فقط، وبدأت تظهر عليه علائم عدم التركيز في التفكير واتخاذ القرارات الصائبة أو القيام بعمل ناجح، وزاد في تعصبه الديني كثيراً، وأصبح لا يقبل النقاش، وسيطرت عليه عقيدته الدينية كلياً، وأخذ الناس يرددون أنه لم يعد قادراً على تحقيق أي نصر كما كان من قبل. وأخذ يدعو الناس أن يهجروه ويلتحقوا بالملك وكان ينصحهم بإقامة علاقات حسنة معه.

وعندما توفي عزيز هذا ولم يكن يتجاوز من العمر الخمس وعشرين سنة، وكان قد رافق والده في قتاله معظم الأوقات، ونفذ معه عدة إغارات ناجحة أيضاً. هذا وقد أخبرني بغزواته الأخيرة وقصته البطولية، ابن عشوان، والشيخ مطلق الصور، وفيصل بن شبلان، وكان ثلاثتهم قد رافقوه في هذه الغزوات.

بتاريخ ١٥/آب/١٩٢٩ تماماً قبل أن يحاول الإخوان اجتياز الحدود باتجاه الكويت هرباً، قرر فيصل الدويش أن يرسل ولده ليقوم بإغارة على حَرَبْ في المناطق التي هي عادة خاضعة لشمر، وعنزة من الجنوبيين، بهدف إقناع المتشككين بقوة الإخوان، أن الإخوان حركة قوية وحقيقية وتشكل خطراً حقيقياً وكبيراً على ابن سعود، ولهذا فعلى الذين يراقبون الإخوان أن يفكروا ملياً قبل أن يقرروا مصيرهم.

وكان فيصل الدويش يريد أن يثبت قوته، فأرسل ابنه عزيز على رأس قوة كبيرة مؤلفة من ستماية وخمسين راكب جمل للقيام ببعض الإغارات، وكانت قوته تلك مؤلفة في معظمها من قبائل المطير وعجمان. وقد انطلقوا في بداية مسيرتهم باتجاه الشمال الغربي، وكان على رأس تلك المسيرة كما ذكرنا عزيز بن فيصل الدويش يرافقه بعض المستشارين من ذوي الخبرة والدراية في أمور الإغارات والغزو، أمثال فيصل بن شبلان، وابن عشوان، ومطلق الصور، وأبو هقوطة (من عجمان) وكان هؤلاء بمثابة الخبراء ليجنبوه الوقوع بأي خطأ، وليساعدوه في اتخاذ القرارات الصحيحة وهم من المعروفين بخبرتهم الطويلة، وقدرتهم على اتخاذ القرارات الصحيحة.

انطلقت الحملة من عرك، الواقعة في منطقة الكويت المحايدة، تاركين حفر الباطن على يمينهم، مروراً بمنطقة باشوك، يسار آبار لينا ويمين آبار التربية، ثم الوصول إلى عازل (شمال حائل) ومن هناك يتوجهون شمالاً باتجاه آبار ليفيا، وقد استولوا وهم في طريقهم على بعض قطعان الإبل من شمر وعمارات بالإضافة إلى قافلة سعودية كانت تنقل عشرة آلاف ريال وهي أموال الزكاة، التي جمعت من حائل. وما إن قاموا بذلك حتى انطلقوا من جديد عائدين إلى أهلهم. وكانت مسيرتهم الرئيسة في المرحلة الأولى الوصول إلى آبار أم رضمة، جنوب غرب المنطقة العراقية المحايدة، تاركين لوقا على يمينهم وجميمة على يسارهم، ويتابعون المسير إلى أن تكون لينا على يمينهم. وعند الوصول إلى آبار أم رضمة يقومون بسقاية إبلهم العطشى، وعند اقترابهم من لينا عرفوا من بعض مصادرهم أن ابن مساعد حاكم حائل المعين من ابن سعود سيحاول اعتراضهم، وقد سيطر على آبار المياه لتهديد خطوط مواصلاتهم في طريق عودتهم، وقام ابن مساعد هذا فاستولى على آبار المياه وحصن الدفاع عنها وعزز القوات المدافعة عنها، وكانت تلك الأنباء مقلقة لا سيما في شهر آب الذي ترتفع درجة الحرارة فيه إلى أعلى معدلها، وانقضت أربعة أيام وإبلهم لم ترد الماء، وماتت بعض الإبل التي استولوا عليها. ويضاف إلى ذلك أن أمامهم مسافة كبيرة لا يستطيعون اجتيازها دون ورودهم المياه؛ وبدأوا يحسون بضائقة العطش الشديد، واجتمع ما يشبه المجلس الحربي لدراسة الموقف واتخاذ القرار الصحيح، وقد أيّد الاقتراح الذي تقدم به فيصل بن شبلان العجوز، والقاضي بتغيير الاتجاه على الفور لإنقاذ حياتهم من الموت عطشاً والسير باتجاه الشمال الشرقي من طريق طوال الضفير، باتجاه الرضيمية وريقا. (جنوب غرب الزاوية الكويتية)، ومن ثم يعودون باتجاه الجنوب الشرقي من جديد في محاولة للوصول إلى المناطق الصديقة من منطقة الكويت المحايدة، ونصحهم ابن شبلان أن تلك هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذ حياتهم من

الهلاك. بينما وقف ابن عشوان والآخرون يؤيدهم عزيز نفسه موقفاً معارضاً تماماً، وقالوا بالاندفاع ومهاجمة قوات ابن مساعد. وقالوا إن الله سيكون بجانبنا، وأنه من المعيب تجنب التحدي السعودي، ويجب خوض المعركة بكل ثمن. وقد حاول الرجل العجوز دون جدوى ثنيهم عما عزموا عليه، ودافع عن رأيه بحرارة لكن دون جدوى، إذ باءت جميع محاولاته بالفشل، حتى على الرغم من ورود معلومات، عن طريق إرسال دورية استطلاع من أربعة مقاتلين عادوا بأنباء غير سارة أبداً، وتؤكد رأي هذا الرجل العجوز، وأشاروا إلى أن آبار أم رضمة يدافع عنها بقوات تفوق عدد قواتهم بثلاث مرات، ولهذا فقد قرر ذلك المحارب القديم وفيصل بن شبلان العزم على التوجه باتجاه الشمال الشرقي، ومعه مجموعته من المحاربين. وقال أيضاً: (على كل حال فإني أدعو كل عاقل للالتحاق بي. وبذلك يتجنبون معركة انتحارية خاسرة بالتأكيد). إلا أن عزيز العنيد ومعه بعض المؤيدين رفضوا نصيحته، واستمروا في عنادهم. وأخيراً انفصل كل من ابن شبلان وابن عشوان، ولحق بهما ما يزيد عن مائة وخمسين مقاتلاً، بالإضافة إلى عدة مئات من رؤوس الإبل التي استولوا عليها. أما عزيز ومن بقي معه ويبلغ عددهم حوالي خمسمائة مقاتل، فقد عزموا على مهاجمة قوات ابن مساعد، على الرغم من أحوالهم السيئة على مختلف الأصعدة، فهم عطشى جياع، أنهكهم التعب، وكانت الحرارة شديدة جداً، واندفعوا باتجاه آبار أم رضمة فوصلوا إلى منطقة مجاورة لتلك الآبار، وكان الوقت ظهراً، وجاءتهم الأنباء عن طريق دورية استطلاع كانوا قد أرسلوها للقيام بالاستطلاع والعودة، وجاءت معلوماتهم متفقة مما كان لديهم من معلومات سابقة، فقالوا إنهم يقدرون القوات المدافعة بما يزيد عن (١٥٠٠) مقاتل، وهم من بدو شمر وحرب وحضر، وهم مكلفون بالدفاع عن تلك الآبار ومنع وصولنا إليها، وقد حفروا الخنادق حولها على عدة خطوط دفاعية، وقالوا ان لا أمل إطلاقاً من الهجوم لأنها ستكون معركة خاسرة ولا شك، وأن الهجوم يعتبر عملاً طائشاً. أما الحرارة فكانت لا تطاق، وكانت جمالهم أيضاً بأشد الحاجة للمياه.

وتوقف عزيز وكان على مقربة من مواقع القوات المدافعة عن الآبار، وتعرف من جديد على مدى أخطار مهاجمة ذلك الموقع الحصين، وكان يعلم أنها معركة خاسرة ولا شك. فدعا للأذان وإقامة الصلاة، وقد لاحظ الإنهاك الذي يسيطر على قواته والجوع والعطش، وبعد الصلاة خاطبهم قائلاً: (إن الله سيكون معنا، وسينصرنا على أعدائنا). إلا أن تلك اللحظات كانت لحظات عذاب مريرة ولا شك، وبعد ساعة ونصف أعطى عزيز الأمر بالهجوم، وكانت أوامره الأخيرة للعبيد أن يقوموا بالاعتناء

بفرسه إن استشهد، واندفع الرجال بهجوم يائس، وكان الموقف واضحاً، وقاتل عزيز ومن معه ببسالة نادرة تفوق الوصف، إلا أن الشجاعة لا تكفي لوحدها إن لم يرافقها تقدير صحيح للموقف، على الرغم أن المهاجمين قد ساعدهم السراب نتيجة الحرارة الهائلة، وجرت معركة رهيبة، لا بل مجزرة، اختلطت بها الشجاعة والبطولة بشكل لا مثيل له، وكان الإخوان المؤمنون يسيطر عليهم الحماس بشكل غريب، على الرغم من جوعهم وتعبهم وقلة عددهم، وقاتلوا بشجاعة نادرة، إلا أن ذلك لم يكن كافياً لتحقيق النصر لهم على الرغم أنهم كادوا أن ينتصروا خلال معركة النهار، إلا أن ذلك الأمل لم يدم طويلاً، إذ بدأت كفة الغلبة تميل في نهاية النهار لصالح المدافعين الأكثر عدداً، وبنفس الوقت كان ابن مساعد يزج بمقاتلين جدد في المعركة، كانوا في الاحتياط، وما إن مالت الشمس على المغيب حتى كانت خسائر عزيز قد بلغت ثلاثة أرباع قواته، وبدأ يشعر أنه فقد كل أمل، وأنهك التعب عزيز ومن بقي معه حياً فقاده خمسة من عبيده الخاصين من ميدان القتال وقرروا أن يبذلوا آخر جهد لانقاذ قائدهم وسيدهم، المحبوب. وقد ماتوا عطشاً هم وإبلهم ووجدت جثثهم بعد شهرين من تاريخ حدوث المعركة.

إن عقيدة الإخوان القتالية هي دوماً النصر أو الموت في سبيل الله، فالموت هو الشهادة في سبيل الله، وهذا يعني من مات هكذا فمصيره جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، ولهذا فمن الخمسمائة مقاتل لم ينج من المعركة سوى خمسين مقاتلاً، فقد نجا مطلق الصور ومعه عشرة من الرجال، منهم الشيخ عزه بن بدر، الذي كان قد أصيب بطلق ناري قبل أسبوع من قبل أحد رجاله في برعصي، وقد استطاعوا الاحتفاظ بما سلبوه من الإبل إذ انسحبوا من ساحة القتال خمسة أميال إلى الخلف، ثم ابتعدوا نهائياً، بالتحرك بعد غروب الشمس عن طريق مُوَيِّدْ، عرخمية، ريقا، ثم إلى الجهراء في الكويت، أي الطريق الذي اقترحه سابقاً ابن شبلان.

وبعد ذلك توجهوا إلى عرك وقدموا لفيصل الدويش زعيمهم تقريراً عما جرى معهم بالتفصيل، منذ انطلاقهم. هذا وقد خلفت تلك المعركة أربعين جريحاً ذكروا كيفية نجاتهم من الموت، بعد تلك المعركة الرهيبة، وقالوا إنه بعد انتهاء المعركة، وجدوا أنفسهم لا حول لهم ولا طول، وقد أنهكهم الجوع والعطش، والدم ينزف منهم، لكنهم قرروا مقاومة الموت، فانسحبوا من ساحة القتال بضعة أميال واختبأوا بين التلال الرملية المحيطة، وكانوا ينتظرون غروب الشمس بصبر نافذ، وأمضوا الهيجع الأول من الليل، وقد أنهكهم العطش والجوع، وعند الفجر عادوا من جديد وحاولوا

الحصول على الماء، ووجدوا أن آبار المياه يحرسها بعض من تركهم ابن مساعد كحرس لمؤخرته، وهم من شمر، فأعطوهم (الوجه) إلا أنهم نزعوا منهم أسلحتهم.

أما ابن مساعد فقد انسحب ليلاً مع قواته باتجاه عجيبة.

وفي اليوم التالي، انسحب ذلك الحرس من منطقة الآبار، ولم يبق فيها سوى هؤلاء الجرحى لوحدهم، ومن حسن حظهم أنه انضم إليهم بعد قليل، أحد البدو، (شافي)، وكان معه بندقيته وذخيرتـه، ثم هارب آخر، يرافقه ثلاثة هاربين كانوا يركبون جميعاً على فرس واحدة، ولكن هؤلاء لم تدم إقامتهم، إذ وردوا الماء وانصرفوا على الفور. هذا وما إن عاد حرس المؤخرة إلى الالتحاق بابن مساعد حتى أعلمه بموضوع الجرحى، وذكروا له أن عددهم أربعين جريحاً، وقصوا عليه أنهم انتزعوا أسلحتهم منهم، وتركوهم أحياء في منطقة آبار أم رضمة، فأرسل على الفور ستة مسلحين لإطلاق الرصاص عليهم حتى الموت، وما إن وصلوا حتى التقوا بـ (الشافي) الذي خبأ بارودته، وبدأوا على الفور بإطلاق النار على الجرحى حسبما أوصاهم ابن مساعد، وهم عزل من السلاح فما كان من (الشافي) إلا أن تناول بارودته فقتل اثنين منهم وفر الأربعة الباقون بجلودهم، بعدما قتلوا اثنين من جماعة عزيز والجرحى. واستولى الجرحى على ذلولين من الهاربين، كان أحدهما محملاً بأربع قرب ماء مملوءة ساعدتهم في سد ظمأهم والوصول بها إلى أهلهم، بعد أن فقدوا اثنين من رفاقهم، وهكذا وصلوا أحياء رغم ما عانوا من أهوال الجوع والعطش، وهم بنفس الوقت كانوا قد خاضوا معركة رهيبة تقشعر منها الأجساد.

وقد قتل من هؤلاء الناجين ثمانية أشخاص عندما خاضوا معركة جديدة مع فيصل الدويش في النقير حين قرر فيصل مباغتة قبيلة العوازم.

أما خسائر ابن مساعد من الرجال فكانت تزيد على خمسمائة قتيل، وكان منهم فرسان مشهورون أمثال ابن نُهَيِّرْ، وغبيب، وابن عرهان، وزبر الزامل، وماجد القحطاني، ونايف العتيبي، وصياح القحطاني وغيرهم من البارزين.

وهكذا انتهت حياة عزيز الدويش وقد ملأت تلك الملحمة وقصصها حياة البدو مدة طويلة من الزمن لم يكن للناس حديث الا بها، وبالبطولات التي خاضها مع رفاقه، وقد وصلت قصة بطولتهم إلى مسامع الملك، وقابلها بكل إعجاب.

وهنا لا بد لي من أن أشير وأسجل أنه كانت لعزيز زوجتان ترملتا بعد مقتله، وهن حصة بنت صحن المطلق، والجازي بنت فرج الشبلان، فتزوج الملك الأولى، بينما

تزوج أخوه عبد الله السعود الثانية، وتعتبر مثل هذه الزيجات عند العرب إكراماً لروح الميت وتقديراً له، كما أنها عادة دارجة لديهم، وقد يعتبر مثل ذلك الأمر مستهجناً لدى الغربيين، أو أن تلك العادة غير دارجة لديهم، أما عند العرب فهو شرف كبير لتلك الأرملة أن تتزوج من أحد المشاهير مثل الملوك أو الأمراء أو الشيوخ، ويضاف إلى ذلك في حالتنا هذه أنها تعني في نفس الوقت أن الملك السعودي قد ربح كل شيء وعلى الآخرين أن يقتنعوا بذلك.

٤ ـ صوَيَّانْ أبو جما، من فخذ المحفوض، قبيلة عجمان.

انطلق ذلك الشاب عام ١٩٣٤ إلى نجران مع الأمير سعود نجل الملك عبد العزيز، ومن هناك نجح في التسلل إلى صنعاء عاصمة اليمن بحجة البحث عن أخيه المفقود، ولكنه في حقيقة الأمر كان مكلفاً بالقيام بمهمة تجسس لحساب ابن سعود، وقد أدى مهمته بنجاح، واستطاع أن يخدع اليمانيين وتم الحصول على ما أراد أن يحصل عليه، يضاف إلى ذلك أنه أثناء عودته إلى نجران، انطلق بإغارة مع مجموعة من قبيلة عجمان على المناطق البعيدة عن الشاطىء، أو المناطق الداخلية من حضرموت وأغاروا على قبائل الصيعر وكَرَبْ وغنموا منها أعداداً كبيرة من الإبل، وقد شاهدت بنفسي تلك الإبل العنانية عندما كانت بالقرب من مدينة الكويت. كما قابلت صويان أبو جما هذا بتاريخ ٢٩/نيسان/١٩٣٥. وقد قص عليَّ بعضاً من إغاراته الناجحة لا سيما على مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية، ولم أكتف بما قاله عن نفسه، فسألت العديدين ممن يعرفونه عن صحة تلك القصص فأكدوا لي صحتها، كما شهدوا له بالشجاعة، وأكدوا بسالته.

٥ ـ فرحان بن مشهور الشعلان، من قبيلة الرولة، (عنزة).

كان في أحد الأيام من المفضلين لـدى الملك السعودي، لكنه التحق فيما بعد بالثوار الإخوان الوهابيين تحت قيادة فيصل الدويش، إلا أنه عاد من جديد إلى بلاده عن طريق بغداد وقد قتله بالقرب من دمشق فواز بن نواف الشعلان بتاريخ ٢٠/نيسان/١٩٣٥. وكان من المغيرين المشهورين، إلا أنه لم يكن من الرجال الذين ترغب بلقائهم إذا التقيت بهم للمرة الأولى، بل تحاول تجنبهم، ذلك أنه ثقيل الظل، غير لطيف المعشر، سيىء التهذيب، وكان يتهمني بعدم الإخلاص، وكان متقلباً لا يستقر له قرار، فطوراً مع ابن سعود وطوراً مع فيصل الدويش، ومن قادة الإخوان، وأعتقد أن انضمامه للإخوان ليس بسبب عقيدته الدينية المشكوك فيها، ولكن على الأغلب ليحتل منصباً يرضي به غروره بمساعدتهم، كشيخ للرولة، ولكنه مع ذلك

فشل في تحقيق ذلك الأمر وانكشفت ألاعيبه، وعدم إخلاصه، وكان يطمع بالمشيخة بعد وفاة الأمير نوري الشعلان. وقد تزوج ابن مشهور هذا من فتاة عجمانية، وهي ابنة محمد بن أذَيْن، وقد توفيت في العراق عام ١٩٣٣.

٦ ـ الدهينة، من قبيلة عتيبة.

ويتمتع بسمعة حسنة بين البدو، وقيل عنه أنه مغير حاذق، ومشهود له بالشجاعة بين من عرفه، وكان أحد أنصار فيصل الدويش قبل وبعد ثورة الإخوان، وقد شارك مع ابن مشهور في معارك الرضى والنقير، في الحسا، عندما انضمت قبيلة عجمان وقبيلة المطير واشتركتا معاً في مهاجمة قبيلة العوازم، في عقر دارها. وبعد فشل ثورة الإخوان فر الدهينة للعراق، وهناك أعطي راتباً ليعيش فيه من قبل الملك فيصل، واستقر به المقام في بغداد ١٩٣٥. وقد التقيت به مرة واحدة فقط.

الفصل السابع والعشرون

ادلاء الصحراء ومتتبعو الأثر

بتاريخ ٢٧/تشرين الأول/١٩٣٥ قمت بزيارة لمضرب الشيخ مطلق المسيلم العظيم، شيخ مشايخ الرشايدة، ودار بيننا حديث مطول تضمن العديد من المواضيع، كان من بينها أن قبيلته تعود في أصولها إلى مجموعة هتيم التي كانت تخيم في الماضي، شرق المدينة المنورة، وكانت في ذلك الوقت من أقوى التجمعات القبلية، كما كان من شيوخها العظام ابن براك وابن نومس.

ثم تطرقنا بعد ذلك بحديثنا إلى موضوع الأدلاء في الصحراء. وقد علمت منه أن قبيلة الرشايدة لديها من الأدلاء ما ليس لغيرها من بين جميع قبائل العرب دون استثناء ولا سيما منهم من يمتاز بمهارته وقدرته على اجتياز شبه الجزيرة العربية، ولا ينازعهم في مثل هذا أي منازع، وقال إن لديه بعض الأدلاء من يستطيع التوجه من الكويت مباشرة إلى البلدان التالية.

أ ـ دمشق.
ب ـ عمَّان.
جـ ـ الوجه.
د ـ المدينة المنورة.
هـ ـ مكة المكرمة.
و ـ وادي الدواسر.
ز ـ الرياض وضواحيها.
حـ ـ الحسا وقطر.

وكان أحسن دليل في شبه الجزيرة العربية حسب رأيه من قبيلته، وهو (ابن هدبا) وهو أحد أفراد عائلة تسمى باسمه، وكلهم يتمتعون بمقدرة توجه عجيبة، ولهم خبرة لا يملكها غيرهم في الصحراء، حتى أن النساء منهم لديهن قدرة لا تقل عن الرجال في هذا المجال، وليس المهم بالتوجه الاعتماد على الشمس أو النجوم، لا بل فإن هؤلاء لهم قدرة التوجه في كل الظروف والأحوال، إذ أنهم يتمتعون بحاسة خاصة بالتوجه، كما أن التوجه لا يمكن اكتسابه بالتجربة أو بالمراس، بل هو حاسة خاصة.

ومن جهة أخرى يعترف الشيخ مطلق، أن قبيلته لم تكن من قبل مشهورة بوجود الأدلاء بين أفرادها، أما من كان يحمل فوز السبق بهذه الحاسة، أو ما يسميه بعلم التوجه، فهي قبيلة المرة، ممن يقطن أفرادها شمال الحسا، وفي جبرين. هذا وإن تتبع الأثر (أو معرفة الجرا) كما يسمونه، يختلف نهائياً عن علم الأدلاء أو الدلالة (معرفة الدلالة). فمعرفة الدلالة تقتضي معرفة تامة بالأرض، مع عيون جيدة، كما تقتضي معرفة ممتازة بالنجوم والكواكب، أما تتبع الأثر فيتطلب مهارة خارقة وحذاقة وبراعة، وهي أمور يمكن أن تسمى بحاسة سادسة لا سيما وهي ملكة عقلية تشمل تتبع الآثار أو الأثر بشكل صحيح للإنسان أو للحيوان، في مختلف الظروف والأحوال. فمثلاً من السهل جداً على أحد هؤلاء من قبيلة مُرَّة أن يفرق حتى بين ألوان الجمال من اتباع أثرها، فيقول إن هذه آثار جمل أبيض (وضحة) أو جمل رمادي اللون (حمرة) أو جمل أسود (سودة) وهو قادر أن يميز بين ذكر الإبل أو أنثاه من أثره، وإذا كان قاعوداً أو قاعودة. ويزيد على ذلك محدثي حتى أن البارعين من متتبعي الأثر لهم قدرة خاصة (خاصة المتتبعات)، إذ يستطيعون القول مثلا: (إذا كان صاحب الأثر متزوجاً أو عازباً، حتى فيما إذا كانت صاحبة الأثر حاملاً أم لا... إلخ).

هذا ومن المعروف أنَّ كلًا من قبيلة مرة وعجمان يرجعان في أصولهما إلى أصل واحد، ويعودان إلى (يام) في نجران في شمال شرق اليمن، وهناك احتمال أن تعود أصولهم إلى حِمْيَر. وإن القبائل الثلاث تعتبر نفسها من الشرفاء. ويتشابه أفراد هذه القبائل كثيراً من النواحي الفيزيولوجية، فمعظمهم يتمتعون بجباه عريضة، وعيون واسعة، ولهم ذقون متطاولة تنتهي بنهاية حادة، وتنطبق هذه الأوصاف على النساء وذلك بتطاول الذقن.

وفيما يلي أذكر حادثة شخصية، حدثت معي في شهر شباط ١٩٢٠ حين كنت مسافراً من الهفوف إلى الحسا، ولم أكن أتبع الطريق المباشر بينهما، إذ كانت غايتي تفحص بعض الأراضي والمناطق. نزلت ضيفاً على ابن سعود في الهفوف، وأقمت

مدة سبعة عشر يوماً، وقد رافقني في تنقلاتي، مجموعة مؤلفة من أحـد عشر شخصاً، من حرس ابن سعود، وكان هؤلاء بأمرة شاب شجاع يسمى باني، وقد علمت منه أنه وصل حديثاً من الرياض، للمرة الأولى في حياته، ولهذا كان عليه أن يعتمد على غيره لمعرفة المنطقة. وقد توجهنا باتجاه الشاطىء، وفي منتصف الطريق صادفنا في طريقنا عدداً كبيراً من قطعان الإبل، وكان رعاتها من قبيلة مرة، كما لاحظنا كثرة القعـدان بينها، ولا سيما الحديثة الولادة، وكانت ترعى بجانب أمهاتها بهدوء، ووجهتها نحو الشمال، وكانت تلك المنطقة كثيرة الكثبان الرملية، هذا ولم نلاحظ وجود رعاة لهذه القطعان مع العلم أننا كنا على يقين أن مئات العيون كانت تراقبنا من بعيد دون أن نلاحظ أحداً منها.

وفجأة اقترح عليَّ باني شرب حليب النوق، وهو خبير بحلبها، كما قال، ولم أمانع بالطبع، وكانت تلك النوق تحيط بنا من كل جانب. ولم يتردد طويلاً، بل على الفور اقترب من إحداها، وقام بحلبها، وشربنا حليباً لذيذاً طيب الطعم مغذياً، ثم جلسنا للاستراحة لعشرين دقيقة. وفجأة برزت أمامنا فتاة صغيرة قد لا يتجاوز عمرها السابعة، ولا ندري من أين خرجت إذ لم نلاحظ إلا وهي بيننا، وتوجهت إلينا بالسؤال على الفور عمن سمح لنا بحلب تلك الناقة، التي هي ملك لوالدها، ودون إذن من أحد، وسخرنا منها ثم نهرناها، إلا أنها لم تخف ولم تتردد في الرد علينا، ووجهت لنا كلمات لاذعة، وفجأة ظهر أبوها، من وراء أحد الكثبان الرملية، واقترب منا بسكون، وما إن أصبح على بعد خطوات، حتى ألقى التحية المعتادة، (السلام عليكم)، وأجبنا التحية بمثلها (وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته)، ودون أن يزيد بكلمة واحدة، أخذ يحدجنا بنظرات متفحصة من الأعلى إلى الأسفل، ومن الأسفل إلى الأعلى، ثم تقدم من باني، وسأله من جديد: (كيف أنت؟). ثم قال: (كيف حال الوالد؟). واستغرب باني منه ذلك السؤال، ورد باستغراب: (من أين لك أن عرفت والدي يا هذا؟. وكيف عرفت أنني ابنه؟). فرد ذلك الرجل المرِّي - من قبيلة مرة - (لم أمر بحياتي من منطقة الحسا، كما أنني لا أعرفك شخصياً)، وأضاف: (حقاً ما تقول، لكن والدك يدعى شجعان، أليس كذلك؟. وقد تعرفت عليه قبل خمسة وعشرين عاماً، ومن المحتمل أن لا تكون قد ولدت بعد، ولم أعد أراه فيما بعد لكن وجهه لا يزال ماثلاً في ذهني للآن، ومن هنا عرفت فيك والدك، إنك بحق صورة عنه، وتشبهه تماماً، ولولا فرق العمر لقلت إنك هو).

ومرة أخرى، بينما كنت في رحلة صيد مع الشيخ أحمد شيخ الكويت العظيم، في أراضي العربية السعودية، وبعيداً عن الحدود الكويتية وإلى الجنوب حوالي

١٥٠ ميلاً في منطقة كراع الى الجنوب من سلسلة تلال مسناة، وكنا نطارد سرباً من الحبارى، وقد بدأت مطاردتنا لها قبل حوالي الساعة والعشرين دقيقة، ثم أطلقنا بعض الصقور وراءها لمطاردتها. وقد أفقدتنا حركتنا هذه حس التوجه تماماً، وكانت الشمس في كبد السماء فوق رؤوسنا، كما كانت المنطقة منبسطة وممتدة على مدى النظر، ولم يكن أمامنا أي شيء يمكن أن يرشدنا إلى المكان الذي كنا فيه، وقررنا التوقف لتناول طعام الغداء، وبعد ذلك استدعيت رئيس صيادي الشيخ واسمه نزال، وسألته: (أين تقع مدينة الكويت؟. وكم بعدنا عنها) ـ ونزال هذا هو رشيدي ومن المعروفين بخبرتهم بالصحراء ـ فأجاب دون تردد، وعلى الفور: (هناك الكويت، باتجاه تلك الشجيرة، وهي بعيدة عنا بمسافة خمس رحلات يومية من هنا، لراكب جمل على أن يسير على مهل دون عجلة، وعلى أن يسير في اليوم من ثمان إلى تسع ساعات فقط)، ثم استدعيت أحد الصيادين وهو رشيدي أيضاً، ولم يكن يعلم إطلاقاً ما كنت توجهت بالسؤال عنه لنزال، فرد تماماً كما قال الأول، ثم توجهت إلى ثالث، وكان بالضبط، وكأنه يردد ما قاله الأخران. ثم توجهت بالسؤال إلى نزال من جديد عن مكان نجم القطب، فدلني على اتجاهه دون تردد، وأشار بيده ـ كما جرت عادة البدو ـ إلى شجيرة صغيرة، وقال أنظر تلك الشجيرة يا أبا سعود وإلى الأعلى، هناك إذن نجم القطب، وبالفعل تناولت بوصلتي التي كنت أحملها معي على الدوام لأتأكد مما قاله، وكان جوابه دقيقاً إلى حد بعيد، ثم بسطت خارطتي، ودققت فيها فوجدت أن اتجاه مدينة الكويت الذي حددوه كان أيضاً صحيحاً بدقة متناهية. وقد أصبح بإمكاني تحديد موقعي بدقة في منطقة كراع الواسعة المنبسطة، وتأكد لي أننا كنا على بعد ١٥٠ ميلاً من مدينة الكويت، وكانت قدرتهم على التحديد بهذه الدقة من الأمور العجيبة بالنسبة لي. كما كانت معرفتهم موضع دهشتي ومع ذلك فقد لاحظوا علي ذلك فأخذ هؤلاء يضحكون، وكأنهم يريدون إظهار قدراتهم بشكل أكثر، وأضافوا أن محاولة اختبار قدراتهم ومعرفتهم هذه لم تكن على درجة كبيرة من الصعوبة، لا بل قالوا إنها سهلة جداً، وكأن ذلك الأمر لا شيء بالنسبة لهم، ثم بدا لي أنهم يعرفون معالم الأرض هنا معرفة جيدة جداً، ولا أبالغ إذا قلت إنهم بدوا أمامي وكأنهم كانوا قادرين على تحديد كل ياردة من هذه الأرض. وللتأكيد على ذلك، فقد صرخوا جميعـاً وبصوت واحد: (تمامـاً من هنا على مسافة ربع ميل باتجاه الشمال الغربي، هناك قطعة أرض يوجد فيها الكمأة، بشكل كثير وقد تعودنا أن نجد فيها الكمأة بكميات كبيرة خلال فصل الشتاء). ثم قال نزال، سأريك عملياً ماذا أعني بالضبط قد أجد بعض الكمأة هناك، وقفز إلى إحدى السيارات وقادها بسرعة كبيرة وعاد بعد عشر دقائق فقط وكان يحمل

معه سبع حبات من الكمأة من النوع الكبير، وقال: أتصدق الآن أننا على حق، وأضاف نحن الآن على مقربة من المكان الذي فقدنا فيه في العام الماضي ساعة اليد عندما كنا نشارك في إحدى الاغارات، ثم وصف كيف استطاعوا العثور على تلك الساعة، علماً بأنهم كانوا في حالة تراجع، بعد تنفيذ الإغارة، وقد فقدوا تلك الساعة أثناء الذهاب لتنفيذ الإغارة وعثروا عليها أثناء عودتهم منها، بينما كانوا ينسحبون، وقد تذكر المكان الذي وجد فيه الساعة بالضبط.

وأجد نفسي مضطراً أن أكرر ما قلته، بأننا كنا في منطقة مراعي منبسطة تماماً لا يمكن تمييز أي شيء بتاتاً، إذ تتشابه جميع أشكال الأرض، وهي مناطق رعي تغطيها نباتات يابسة، مع بعض الشجيرات الصحراوية المنتشرة هنا وهناك، وكنا على بعد ١٥٠ ميلاً من مدينة الكويت، وإنني أعتقد شخصياً أن مثل تلك الأمور الدقيقة، هي ظواهر خارقة للعادة.

الفصل الثامن والعشرون

الصيد بالصقور

كان الصيد بالصقور رياضة الملوك منذ أقدم العصور. ومن المحتمل أنها دخلت أوروبا عن طريق شبه الجزيرة العربية مع بدايات الحروب الصليبية. لكن من المؤكد أنها دخلت اسبانيا مع الفاتحين العرب، لم تنتشر هذه الرياضة في بلاد فارس مع انتشار الإسلام الذي امتد حتى أقاصي الصين.

وقد ورد الصيد باستخدام الصقور في التاريخ العربي منذ أقدم العصور، وهناك العديد من القصص والحكايات التي تدور حول الصيد بالطيور الجارحة مثل الصقور. وكيف أن الحكام القدماء كانوا يربونها ويعتنون بها، ومنها أن الحكام القدماء من عائلة العريعر، الذين هم ورثة شيوخ بني خالد في الحسا ونجد كانوا يقيمون سنوياً مهرجانات ومباريات للصيد بواسطة الصقور بهدف تعميم تلك الرياضة والاهتمام بها.

أما في مناطق شمال شرق الجزيرة العربية فلا يزال الصيد بواسطة الصقور الرياضة المفضلة لدى أمرائها ومشايخها حتى اليوم، وتصل إلى هذه المنطقة عادة الدفعات الأولى من الحبارى المهاجرة سنوياً. والحبارى كما هو معروف هي الأهداف الأولى للصيد بواسطة الصقور، يضاف إلى ذلك صيد الغزلان والأرانب البرية.

هذا وتظهر الحبارى عادة أول ما تظهر على الشواطىء الشرقية والشمالية الشرقية من منطقة الخليج عموماً في بداية شهر تشرين الأول من كل عام، وتستمر حتى شهر نيسان حين تختفي مع بداية الحر الشديد وتعود من جديد مع بداية موسم الأمطار.

ويقول العرب المحليون إن مصدر هذه الحبارى، هو المناطق الجبلية في بلاد فارس، وهناك احتمال آخر بأنها تأتي من مناطق وسط آسيا، ثم ترحل إلى الجنوب

الغربي عبر بلاد فارس لتجنب البرد الشديد هناك. ومن المؤكد أن بلاد فارس، والعراق، وشمال غرب الهند، وبلوخستان والمناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية، هي جميعاً مناطق تمر بها موجات الحبارى المهاجرة.

وتعود عادة إلى مواطنها الأصلية، ولا يبقى منها إلا العدد القليل جداً في مناطق شبه الجزيرة العربية لتعيش مع الطيور المحلية الأخرى، على الرغم من أن ما يبقى منها قليل جداً، وقد شاهدت بنفسي مرة بيضة للحبارى في منطقة تبعد حوالي أربعين ميلاً إلى الجنوب من مدينة الكويت وذلك بتاريخ ١٥ آذار ١٩٣٥.

ويبدأ انتظار مواسم صيد الحبارى عموماً بفارغ الصبر، بدءاً من منطقة الزبير (جنوب العراق) وحتى خليج عمان، ويقوم عادة الأمراء والشيوخ في هذه المناطق باستعدادات خاصة، ويشاركهم في ذلك أي بدوي تسمح له إمكانياته بشراء أحد الطيور الجارحة، وقد يقضي أحد البدو عدة سنوات في جمع ثمن طير صيد واحد، وهي بالنسبة له متعة، ومورد عيش. وهكذا يخرج الجميع في رحلة صيد ممتعة جداً.

أما طيور الصيد فتعرف محلياً باسم: (الطير الحر) أو: (الشاهين). ويعتبر الطير الحر الأغلى ثمناً، والأحسن للصيد، ومنها ما يغلو ثمنه كثيراً مما يعجز عن شرائه الناس العاديون. هذا وهناك أنواع متعددة من طيور الصيد والصقور بشكل خاص، أما أحسنها وأغلاها ثمناً فهي تلك التي تأتي من بلاد فارس، ولا سيما من المناطق الساحلية الغربية. ويتراوح ثمن الواحد منها ما بين ٥٠ ـ ١٥٠ ريالاً. أما صيد هذه الجوارح فيقوم بها عادة صيادون مختصون من البدو يملكون مهارات خاصة. وتعتبر جزيرتا وربة وبوبيان الواقعتين إلى الغرب من شط العرب، من أحسن المناطق بالنسبة لهؤلاء البدو في الكويت لصيد هذه الطيور بواسطة الشباك، وأعتقد أيضاً أن شبه جزيرة الظهران هي من المناطق الصالحة لصيد الصقور.

أما وصول الحبارى المهاجرة فيبدأ عادة، مع بداية أول الخريف، أي في شهر تشرين الأول من كل عام، ويزداد وصولها مع تزايد الأمطار ونمو الأعشاب. كما يتزايد وصول الطيور المهاجرة الأخرى، وكلما ازدادت هجرتها ازداد توغلها إلى الغرب وحتى إلى المناطق الغربية من شبه الجزيرة العربية، وتنتشر شمالاً حتى شمالي الصحراء بسورية، وتصل جنوباً إلى الخط الممتد بين مدينة الرياض، وواحات جبرين، ونادراً ما يجتاز القليل منها هذا الخط باتجاه الغرب.

وتوجد بوفرة حوالي الزبير، ومدينة الكويت وأبعد باتجاه الجنوب حتى قطر

خلال فصل الشتاء وموسم الأمطار، وهناك يقتل السكان المحليون منها الآلاف، كما يُقتل منها الألوف من قبل أمراء الكويت وشيوخهم خلال فصل الأمطار الذي يعتبر أيضاً فصل صيد الحبارى، وكذلك في العربية السعودية ونجد، إذ يصاد منها الألوف كل عام، ولا سيما من قبل أمراء تلك المناطق وشيوخها، كما يشارك في هذا الصيد شيوخ البحرين سواء داخل الجزيرة أو خارجها في مناطق الصيد المعروفة.

ويعتبر رجال قبائل الرشايدة، وأهل مرة الشماليون من أحسن مروضي هذه الطيور الجارحة ومدربيها في الكويت والرياض، وهم معروفون أنهم يملكون قدرة وقابلية لا تتوافر لسواهم من الناس على تدريب هذه الطيور. هذا ويستطيع الصقر المدرب تدريباً جيداً من قتل أو اصطياد ٤ ـ ٥ حبارى في اليوم الواحد. وهناك بعض الصقور النادرة تستطيع اصطياد ٧ ـ ٨ حبارى في اليوم الواحد، وإنني أعرف شخصياً ـ وقد اختبرت ذلك بنفسي ـ بأن صقر شيخ الكويت المسمى (بترول) يصل صيده في اليوم الواحد إلى إحدى عشرة حبارى، وهذه من الحالات النادرة ولا شك.

ويظهر على (بترول) المشهور، أنه جاهز ليجرب حظه من جديد مع الحبارى، وقد رأيته مرة بعد أن استطاع قتل الحبارى التاسعة، وكان منهوك القوى حتى تحسبه ميتاً من كثرة الإعياء، وقد تمدد على الأرض، لا يستطيع حراكاً، وفي مثل هذه الحالات يعطي حبة من الأسبرين محلولة في الماء لتعيد إليه نشاطه وحيويته.

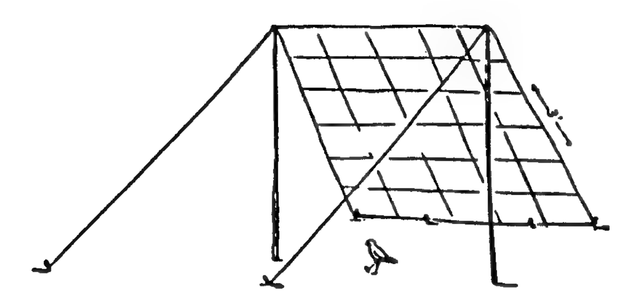
أما الأسماء التي تطلق عادة على الصقور فترمز عموماً إلى بعض أبطال التاريخ العربي أو الأسماء التي تعطي معاني القوة والسلطان، وهذه بعض منها، مثل: سلطان، شبيب، ذياب، ساهود، صداح... الخ.

أما من يربي الصقور ويدربها، فيطلق عليه اسم (الصقار)، ويحتاج الصقار لتدريب أحد الصقور إلى ثلاثين يوماً على شرط أن يقل عمر الصقر عن سنة واحدة، أما إذا تجاوز عمره السنة، وكان يتراوح بين السنة والسنتين وحتى الثلاث سنوات فإن مدة تدريبه تتراوح بين ٢٠ ـ ٢٥ يوماً.

وهناك طريقتان لصيد الصقور.

أ ـ طريقة الصيد بالشبكة المربعة الصغيرة، مع يربوع أو حمامة تكون طعماً للصقر، الذي يهوي عليها ويعلق بالشبكة والتي تكون من القماش الخشن، أو من الصوف، وتكون أبعادها «٣ × ٣» أقدام تنصب مائلة على الأرض لتشكل زاوية قدرها ٦٠ درجة. ويربط الطرف السفلي بأوتاد بالأرض بشكل جيد لتصل أطراف الشبكة

السفلى إلى الأرض وتلتصق بها، بينما يرتكز الطرف العلوي على عمودين، ويعلق في رؤوسها حبال تمتد للجانب الآخر من الشبكة «أنظر المصور» وتصبح الشبكة مائلة بهذا الوضع. الشكل (٥٠).



الشكل (٥٠) مصيدة الصقور

هذا ويربط في وسط الشبكة يربوع صغير (نوع من الفئران) بخيط مموه بشكل جيد، وحالما يشاهد الصقر هذه الفريسة من بعيد، ينقض عليها دون النظر لما ينتظره، ذلك أن الشبكة مموهة أيضاً بشكل جيد، وما إن يصل إلى فريسته ويلتقطها بأرجله ويحملها للابتعاد بها، حتى يرتطم بالشبكة، التي تعلق فيه حالاً، وهكذا يجد نفسه محبوساً تحتها، غير قادر على الحراك، ويسهل التقاطه، وغالباً ما يخرج رأسه من أحد ثقوب الشبكة.

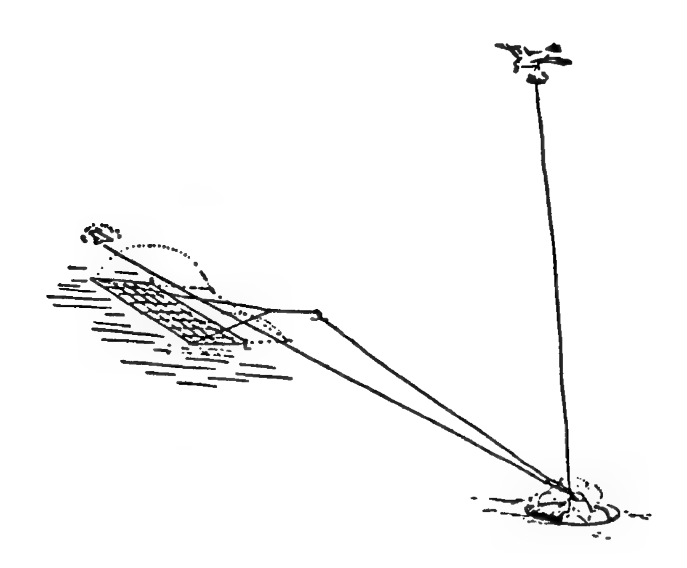
هذا وتستخدم تلك الطريقة عادة في المناطق القريبة من الأماكن المأهولة، والتي تكثر فيها الصقور أو في المناطق التي يتوقع وجودها فيها.

وعند الانتقال تحزم الشبكة على شكل كرة صغيرة يمكن حملها بحقيبة سفر صغيرة مثلاً، أما الدعامات التي تحملها أثناء نصبها فهي مصنوعة من قضبان الخيزران، ويمكن تعليقها على الظهر كما تعلق البندقية.

ومن الملاحظ أن أغلب بدو الحسا والكويت يحملون معهم شباك الصيد هذه أثناء ارتحالهم مع بقية معداتهم، خلال تنقلهم في الخريف، والربيع، والشتاء عندما تبدأ أيضاً عملية صيد الصقور.

أما الأوتاد الصغيرة التي تؤمن تثبيت الشبكة ودعمها فهي مصنوعة من معدن خفيف.

ب ـ طريقة الصيد بالشبكة ذات الفتحات الأصغر؛ تنشر هذه الشبكة على الأرض مباشرة، أما أبعادها فهي ٧ × ٣ أقدام، مع بعض العصي، والحبال التي يبلغ طولها ١٠٠ قدم، وعند تحضيرها، تنشر على الأرض، أما في حال اقتراب الهدف فتشد الحبال وتنجذب الشبكة إلى الأعلى، وبالتالي تؤدي تلك الحركة إلى حبس أي جسم بداخلها يمكن أن يكون متمدداً تحتها. الشكل (٥١).



الشكل (٥١) مصيدة أخرى للصقور

ويتم عادة ربط حمامة من جناحها لجذب انتباه الصقور إليها، والحمامة عبارة عن شرك للصقور. ويجلس الصياد في حفرة مموهة ببعض شجيرات وأعشاب، ويراقب عن قرب ما يجري، ويكون بعيداً عن مكان الشبكة بحدود ١٠٠ قدم، ويمسك بخيط مربوط بتلك الحمامة الشرك ثم يأتي دور الغراب الذي تم اصطياده، ويجري ربط ساقيه بحبل صوفي أسود، يزيد طوله عن ٢٠٠ قدم ويبدو وكأنه طريدة.

وبهذا يكون لدى صياد الصقور ثلاثة حبال أو خيوط، وهي: خيط للشبكة، وخيط للحمامة، والثالث والأخير للغراب. ويطلق الغراب المربوط من ساقه، ويبدأ بالدوران بمقدار طول الخيط المربوط به، ويحوم حول الشبكة.

هذا وإن أي صقر في المنطقة حتى لو كان على بعد عشرة أميال سيرى ذلك

الغراب وهو يحوم، وهنا لا بد أن يظن أن لذلك الغراب بعض الطعام، وعلى الفور لا بد أن يتوجه إليه ليحاول الإمساك بتلك الفريسة.

وما إن يشاهده الغراب قادماً من بعيد حتى ينعق خوفاً، وينقض الصقر على الأرض بسرعة، ومن ثم يُسحب بسرعة لحمايته. ثم يقوم الصياد فيهز الحمامة هزاً عنيفاً عن طريق الخيط الثاني، وعندما يشاهدها الصقر، ينقض عليها، ويقتلها على الفور وهي على الأرض، بينما ينشغل الصقر بافتراس فريسته تلك يقوم الصياد بسحب الحمامة شيئاً فشيئاً، وبنفس الوقت يسحب معها الصقر المتمسك بها، باتجاه الشبكة، وعندما يصل إلى المكان المطلوب، يقوم الصياد بشد الحبل الذي سيسقط الشبكة فوق الصقر عن طريق شد الحبل، وهكذا يتم أسر ذلك الصقر ويلقى القبض عليه.

ولما كان دور الحمامة الأولى قد انتهى، عندئذ يجري طمرها في ثقب صغير في الأرض، وتُغطى ببعض أغصان الشجيرات الصحراوية فيقوم بعد ذلك الصياد بهزها وجعلها وكأنها ترفرف بجناحيها، وبالتالي لجر الصقر إلى القرب منها.

هذا وبعد أن يلقى القبض على الصقر يجري ثقب إحدى جفن عينه الأسفل، ويمرر خيط من ذلك الثقب، ويسحب الخيط حتى أعلى رأس الصقر باتجاه الجفن الآخر السفلي، ومن ثم يجري ثقبه، وهنا يجبر الصقر على إغماض عينيه، ثم يغطى رأسه إما ببرقع خاص، أو بغطاء للرأس من الجلد.

عملية الصيد بالصقور

توجد طريقتان حتى اليوم «١٩٣٥» لصيد الحبارى بواسطة الصقور.

أ ـ طريقة أهل الزبير، والكويت.
ب ـ طريقة أهل البحرين والحسا ونجد.

ففي الزبير والكويت يقوم الصيادون قبل إطلاق صقورهم بوقت كاف بربط ريشتين من مقدمة جناح الصقر. لأنه إذا انقض ولم يوفق بالسيطرة على فريسته البطيئة الطيران يهيم على وجهه ولن يعود.

وهذه الطريقة ابتدعها ابن مشري من الزبير بعد أن فقد العديد من الصقور أثناء مطاردتها لطرائدها، رغم أنها من الأنواع المدربة جيداً، ثم تبنّى هذه الطريقة فيما بعد شيوخ الكويت.

أما الطريقة القديمة فهي ولا شك تسمح للصقر بحرية طيران كافية، كما أن سرعته كانت أكثر أيضاً، إلا أن تلك الطريقة قد تسببت في فقدان العديد من الصقور المدربة، حتى تلك التي كانت مدربة بشكل ممتاز، وهذا يعني خسارة العديد منها. وقد أخذت الطريقة الجديدة تحل محل الطريقة القديمة شيئاً فشيئاً. وقد علمت في عام ١٩٣٥ أن أمراء السعودية في الرياض قد تبنوا الطريقة الحديثة، وعلمت أنها أعطتهم نتائج جيدة.

وبالطريقة الجديدة يستطيع الصقر أن يرى على الدوام بقعة من الأرض بسبب رفع القناع جزئياً عن قسم من رأسه. فإذا ما شاهد طريدة انطلق مباشرة من على يد مدربه وطار بخفة وسرعة وراءها دون أن يرتفع كثيراً عن الأرض بسبب جناحيه المقيدين، وعندما تحين الفرصة ينقض على فريسته، ويمسكها من عنقها، ويبقى حتى قدوم صاحبه إليه، إلا في الحالة التي تتخلص منه بطريقة أو بأخرى كزيادة سرعتها وعدم قدرته على اللحاق بها. وفي بعض الأحيان فإن الحبارى تتمدد على الأرض بالقرب من الصقر، ويفقدها حالما يقترب منها.

وإذا كان الهجوم ناجحاً، يشاهد المراقب من بعيد بقعة من الريش، كما يشاهد عراكاً على الأرض قد يدوم عدة دقائق، وينتهي عندما يتمكن الصقر من رقبة الحبارى، وبعد ذلك يأتي دور صاحب الصقر. فحال وصوله يقوم بذبحها ويسمح لصيادها بأخذ نصيبه منها إذ يسمح له عادة أن ينهشها من صدرها فينتزع منها جزءاً من لحمها. وبعد ذلك يقوم الصياد بإخفاء الطريدة في كيس مخصص لذلك.

فإذا كانت الحبارى تلتمس الأمن، كما يجري في بعض الأحيان، فإن الصقر المدرب، بشكل جيد، يكمن عادة بالقرب من المكان الذي اختفت فيه الحبارى بانتظار انطلاقها أو للهرب من جديد لينقض هو بدوره من جديد عليها، أو ليأتي صاحبه، وبذلك يفهم الصياد الماهر مثل تلك الحركات، وكل حركة من حركات صقره، لذلك حالما يصل يبدأ بالبحث حول المكان الذي يقف فيه الصقر، وبالتالي ستحاول الحبارى التخلص من هذا الموقف، إلا أن الصياد الماهر ينتظر هربها بحذر وما إن تتحرك حتى يطلق النار عليها.

هذا والحبارى قادرة على أن تجثم في مكان تختفي فيه وتموه نفسها بين الصخور، أو أشكال الأرض المحيطة، فيصعب أحياناً رؤيتها حتى من مسافة قريبة جداً لا تتجاوز أحياناً بضعة أقدام.

صيد الغزلان بالصقور

يهيم البدو عموماً باستخدام الصقور في صيد الطيور، لكن يضاف إلى الطيور حبهم لصيد الغزلان طمعاً في الحصول على لحمها. واهتمام البدو في مثل هذه الحال أكبر بكثير من أهل الحضر، كما أن البدو في مثل هذه الأحوال يستخدمون كلاب السلوقي بالإضافة إلى الصقور، كما تستخدم أيضاً صقـور خاصة مدربة على صيد الغزلان. ولما كانت الغزلان تعيش عموماً على شكل مجموعات، يقوم الصقر عند مهاجمتها باختيار أحـدها ومطاردته، ويبدأ بضربـه على رأسـه بمنقاره وجناحيه، كما يحاول فقأ عينيـه. بينما يحاول الغزال المطارد عادة التخلص من مطارده العنيد، كالقيام بزيادة سرعته أو القفز نحو الأعلى أو السير تارة يميناًوتارة يساراً، إلا أن هجمات الصقر تتتابع بشكل أعنف، وأخيراً تعجز تلك الطريدة عن متابعة سيرها، فتسقط على الأرض، ويتابع الصقر هجومه، ثم يأتي بعد ذلك دور الصياد.

الفصل التاسع والعشرون

كلاب السلوقي

يهتم البدو عموماً، ومن يقيم منهم في أقصى الشرق والشمال الشرقي من شبه الجزيرة العربية بتربية كلاب الصيد، ويستخدمونها عادة في صيد الغزلان والأرانب البرية. ولا يقل اهتمامهم بها عن الصقور والطيور الجارحة الأخرى لصيد ما أحل الله لهم من البر. ولكلاب الصيد أنواع متعددة، أحسن ما فيها ما يطلقون عليه اسم (السلوقي)، أما إذا كان الكلب خليطاً ما بين نوع السلوقي وآخر من بقية الأنواع فالهجين هنا يسمى (اللوجي).

ولهذا يحتاط البدو كثيراً كيلا يتم أي تزاوج من هذا القبيل، فمن يقتني أنثى سلوقية، لا يسمح لها عموماً بالاختلاط مع كلاب الحراسة والتزاوج في مواسم هيجانها الجنسي، وإذا ما حدث ذلك يقوم عادة بقتل جميع الولادات الناتجة عن هذا التزاوج، وهناك أيضاً عادة دارجة عندهم، إذ يقومون بربط الكلبة أثناء مواسم هيجانها الجنسي من إحدى قوائمها الخلفية بحبل، ويشدوه إلى رقبتها، فتصبح في وضع يصعب معها الاتصال الجنسي بكلب آخر لا بل يستحيل ذلك. وهذا يدل على مدى الاهتمام بسلالات هذه الكلاب. وتربى كلاب السلوقي عموماً من أجل صيد الغزلان والأرانب البرية، ويجري تدريبها أيضاً على مطاردة هذه الأنواع من الطرائد البرية، هذا ويتم تدريب البعض منها على القيام بالبحث عن الطرائد مفرداً ولا سيما الأرانب البرية، وبالتالي ملاحقتها واصطيادها وحملها والعودة بها لصاحبها. وإنني أعرف شخصياً بعض الأمثلة على ذلك، مثل سلوقي الشيخ سليم الحمود الصباح، إذ يقوم في أغلب الأيام بالخروج وحده إلى بعض المناطق المحيطة بمدينة الكويت ليقوم بالبحث وحيداً، ويلاحق طريدته ويصطادها ويحملها معه إلى بيت سيده دون أن

يمسها. يكرر ذلك مرتين أو ثلاثاً خلال الأسبوع الواحد.

هذا وعملية الصيد بواسطة السلوقي ليست معقدة كالصيد بالصقور، وكل ما يحتاج الأمر هو كلب الصيد فقط، وكثيراً ما يتفق بعض الشباب مثلاً للخروج للصيد، فقد يخرج اثنان أو ثلاثة ومع كل منهم كلبه. وفور وصولهم إلى المناطق التي يحتمل وجود الأرانب فيها ينفصلون عن بعضهم ويسيرون على جبهة يبعد الواحد عن الآخر بحوالي ثلاثين ياردة، ويكون كلبه عادة أمامه ويتابع كل منهم كلبه يراقبه أينما اتجه، وما إن تظهر إحدى الطرائد من الأرانب حتى تلاحقها كلاب الصيد وتصل إليها، وتجري عادة معركة صغيرة بين الكلاب والطريدة وغالباً ما تنتهي بانتصار الكلاب، وقد تتملص الطريدة من ملاحقيها لا سيما إذا كانت كلاب الصيد حديثة العهد بالصيد.

أما في حال صيد الغزلان فالأمر أعقد قليلاً، إذ يجري عادة على ظهور الجمال، وهذا ما يعطي الصياد مجالاً لحقل رؤية أوسع، وبالتالي يسمح للصياد بملاحقة الطريدة بشكل أسهل بكثير. كما يستطيع الصياد ملاحقة كلابه عن قرب، ويتابع معها ملاحقة الطريدة، مما يشجع كلابه على المتابعة، وبالتالي يزداد حماسها، ويقل احتمال نجاة الطريدة.

ومن المعروف أيضاً أن كلباً مدرباً نادراً جداً ما يفقد طريدته، فمن النادر أن يكتب النجاة للطريدة، فإذا ما طارد كلبٌ سلوقي غزالاً، فلن يتوقف أبداً قبل الوصول إليه واصطياده بعد معركة قصيرة طبقاً لنظرية حب البقاء، ثم ينتظر الكلب قدوم سيده الذي غالباً ما يكون قريباً منه، وقد يراقب تلك المعركة عن قرب من على ظهر جمله، وما إن يصل إلى مكان الطريدة، حتى يترجل من على ذلوله ويذبحه. وفي بعض الأحيان قد يضل الصياد طريقة أثناء ملاحقة الطريدة، فيقوم كلبه المدرب بالعواء لإرشاد صاحبه إلى مكان وجوده.

أما الطرق الحديثة لصيد الغزلان فهي مطاردتها بالسيارات، ففي حال ظهور الهدف تجري ملاحقتها بالسيارة على الأراضي المنبسطة إلى أن يحل الإعياء بالطريدة، أو قتلها بإطلاق الرصاص عليها، لكن الأمر يختلف في هذه الطريقة، إذ يصبح الجشع هو هدف الصيد لا المتعة منه أو الحاجة إليه. هذا وقد أصدرت الحكومة العراقية تعليمات منعت بوجبها الصيد بالسيارات.

ولنعد بحديثنا مرة أخرى إلى كلاب السلوقي، ذلك أن الكلب السلوقي العربي يختلف عن نظيره الفارسي، سواء بشكله أو حجمه. فهناك نوعان من كلاب السلوقي، وهي :

أولاً السلوقي الضامر، وله آذان طويلة متدلية وذنب رفيع معقوف إلى الخلف، ويشبه بشكله إلى حد بعيد السلوقي الإنجليزي، ويتوافر هذا النوع من الكلاب عادة لدى قبائل المطير بشكل رئيس.

أما النوع الثاني، فهو أيضاً من النوع الضامر في مؤخرة بطنه، لكنه يتميز بوجود شعر طويل على ذنبه وأذنيه.

هذا ويختلف النوعان عن بعضهما اختلافاً كبيراً باللون؛ فالأول منقط وألوانه تميل إلى اللونين الرمادي والأحمر، مع بقع سوداء، أما النوع الثاني فيميل لونه عموماً إلى اللون الرمادي الضارب للحمرة، ويغلب عليه اللون الأبيض. هذا وتهتم بتربية هذا الأخير عادة قبيلة العوازم.

ويغلب على كلب السلوقي العربي صغر الحجم إذا قورن بالكلاب المتوافرة من نفس النوع في إنجلترا أو فرنسا.

هذا ويهتم البدوي عادة بالنقاط التالية التي يجب توافرها حتى يكون كلب الصيد من النوع الذي يمكن أن يقتنيه، وهذه النقاط هي التالية:

أ ـ يجب أن يكون خطم (أنف) الكلب متطاولاً ورفيعاً وممطوطاً إلى الأمام.

ب ـ يجب أن يكون محيط الصدر كبيراً مما يساعد على التنفس بحرية أثناء مطاردته لطرائده.

جـ ـ يجب أن يكون محيط الخصر ضيقاً ضامراً.

د ـ يجب أن تكون العراقيب نازلة إلى الأسفل قليلاً.

هـ ـ يجب أن يكون عظم أعلى الفخد عريضاً مسطحاً، ولا يقل عرضه عن كف اليد بما في ذلك إبهام اليد.

هذا ومن خلال إقامتي التي دامت قرابة الستة عشر عاماً، يمكنني القول إن أفراد قبيلة العوازم هم أفضل جميع أفراد القبائل الأخرى في تربية وتدريب الكلاب السلوقية في جميع أنحاء شرق شبه الجزيرة العربية، تليهم قبيلة عجمان ثم أبناء عمومتهم أبناء مرة، ثم في الأخير المطير.

هذا ولا يعتبر لمس كلب السلوقي لدى البدو نجساً، إذ يسمح لكلاب السلوقي بالدخول إلى الخيمة في أي وقت تشاء، وتتمدد على البسط أو الحصير دون أن يعترضها أحد، لكن هذا لا يعني تدليلها كما يجري في الغرب. ومن يلمسه عموماً النساء والأطفال أما الرجال فغالباً ما يتجنبون لمس كلابهم. هذا وقد أخبرني شيخ

الكويت أنه طبقاً للمذهب الشافعي فإن لمس الكلب السلوقي لا يعتبر نجساً، ، وليس هناك اعتراض ديني على ذلك.

وفي فصل الصيف عندما تكون الأنثى من كلاب السلوقي على وشك الوضع تقوم عادة سيدة الخيمة أو إحدى نساء العبيد بحفر حفرة في الرمال بعمق حوالي ثلاثة إلى أربعة أقدام بالقرب من جناح النساء في الخيمة، حيث تضع تلك الحامل جراءها، وقد يفرش البعض الحفرة أحياناً ببعض أغصان الشجيرات الصحراوية وبعض الأعشاب.

هذا ويهتم معظم شيوخ القبائل وزعمائها بتربية الكلاب السلوقية جنباً إلى جنب مع الصقور، مثلما يهتمون بتربية الخيول ومن السلالات الممتازة، حتى أن الغالبية تتفاخر بكلاب الصيد التي تملكها كما تتفاخر تماماً بخيولها. وتجري مقارنة ما يملكه هو وما يملكه غيره من هذه الحيوانات.

هذا ويعتبر الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة حاكم البحرين أفضل خبير في معرفة أصول كلاب الصيد وسلالاتها وتربيتها وتدريبها وكل ما يتعلق بها، ولديه كلب سلوقي يختلف بالشكل والحجم عن تلك التي يملكها الأمراء والمشايخ الآخرون، إذ يمتاز بكبر حجمه، ومدى عرض مقدمته، وارتفاع جسمه عن الأرض، وقد يكون من نفس السلالات الموجودة، لكن حسن تغذيته والاهتمام الزائد به جعله أكبر حجماً عن غيره.

وأعتقد شخصياً أن كلب الشيخ حمد هو مزيج من تزاوج السلوقي العربي مع السلوقي الفارسي، ومن نوع السلالات الجيدة لدى الطرفين.

هذا وتتأثر الكلاب هذه كثيراً ببرد الشتاء لذا يقوم أصحابها عادة بوضع غطاء على ظهرها، كما تغطى ليلاً خشية من إصابتها بالبرد.

ويعتبر كلب السلوقي كبقية الحيوانات التي يعشق البدوي تربيتها مثل تربية الخيول أو غير ذلك، لكن معاملته لا تتوازى مع معاملة مثيله في البلاد الغربية إنما تفضل على غيرها بطعامه، إذ يعطى بعض العظام، وفي بعض الحالات تعود بعض كلاب السلوقي إلى حالاتها الوحشية فتعتدي على الدجاج وحتى على بعض الأغنام والماعز الصغيرة.... الخ. ولن يجد صاحبه حلاً في مثل هذه الأحوال سوى قتله. وأشير فيما يلي إلى الأسماء العامة التي تطلق عادة على كلاب السلوقي.

أ ـ للأنثى: ترفه، صلفه، خزة، شيهان، نجمة، وضحة.

ب ـ للذكر: قطف، ضبعان.

وقد علمت أيضاً، ولم أتمكن من التأكد عما قيل أن في سامراء بالعراق سلالة من الكلاب يطلق عليها اسم (الصقلاوية) ومن الوصف الذي قدم إلي فإنه يشبه ذلك النوع الذي لدى الشيخ حمد شيخ البحرين.

كما ذكر لي بعض الأصدقاء من شمَّر، أن لديهم بعض كلاب السلوقي لا ذنب لها (كما هو الأمر بالنسبة لقطط الماكس) لكنني لم أره.

الفصل الثلاثون

الخيول العربية

يهتم الكثيرون في مختلف أنحاء العالم بدراسة الخيول العربية، ولهذا فقد استفدت من وجودي خلال إقامتي الطويلة في المنتفك والحلة في العراق، ومن جولاتي المتكررة لمناطق إقامة البدو في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية، كما جذبني حبي للخيول العربية إلى محاولة دراسة كل ما يتعلق بها، ابتداءً من ولادتها ومروراً بترويضها وكذلك كيفية التعامل معها وبيعها وشرائها، وكيفية قضائها سنوات حياتها الأخيرة وحتى موتها... الخ. هذا وقد صدرت كتب عديدة، حول الخيول العربية، منها مثلاً (كتاب الخيول العربية لبراون) نشر في الولايات المتحدة الأمريكية، وهناك كتب عديدة منها باللغة العربية.

كيفية تربية الخيول ومعاملتها

دعوني في بداية حديثي عن هذا الموضوع الهام أشير إلى أنه من المؤسف جداً أن الخيول العربية لا تجري سياستها كما في الغرب، أي في الاسطبلات الأوروبية، باستثناء البعض منها المخصص للسبق في مصر بصورة خاصة، أما ما تبقى وبخاصة لدى البدو فتكون مهملة لا عناية بها إطلاقاً، ولا يجري تنظيفها في أغلب الأحيان طيلة حياتها.

ولن أبالغ أبداً إذا قلت إن الاهتمام بالخيول أو رعايتها لا يتجاوز في أغلب الأحيان، أكثر من وضع القيد الحديدي في قوائمها الأمامية، وإطلاقها في المراعي، مثلها مثل بقية ما يملكه صاحبها من الحيوانات الأخرى كالجمال والحمير أو الغنم. وفي فصل البرد يضاف إلى مهمة وضع القيد وضع غطاء (جلال) على ظهرها لوقايتها

من البرد الشديد. هذا وتتجول الخيول عادة لوحدها بالقرب من مضارب أصحابها كما تشاء بحثاً عن الكلأ، ولا تعود عادة إلى الخيمة إلا بعد أن تشعر بالعطش، وتقدم لها سيدة الخيمة الماء اللازم. كما أنها لا تعطى عموماً أي نوع من العلف، إلا في الحالات التي يحتاجها صاحبها للقيام بإغارة ما أو للمساهمة مع قبيلته في معركة حربية قبلية، أو في الحالات التي يثبت فيها عدم جدوى المراعي لأسباب مختلفة، كالجفاف، أو في فصل الصيف، عندها تعطى الخيول فقط ما يسد رمقها، ويبقيها على قيد الحياة ورد الموت عنها. أما في فصل الربيع وخلال الأشهر الأولى من فصل الصيف، حين تتوافر المراعي، تتحسن صحة تلك الدواب، معتمدة على ما تقتات به من الطبيعة وتسوء في بقية أشهر الصيف ولا سيما في فصل الخريف نظراً لعدم إعطائها حاجتها من الطعام. ويصبح حال بعضها مزرياً، وقد ينفق عدد منها.

وعلى الرغم من ذلك، لا أبالغ إطلاقاً إذا قلت إن العرب عموماً يقدرون قيمة خيولهم بشكل يزيد عن تقديرهم لزوجاتهم، وبناتهم لا سيما إذا كان السؤال من سيموت أولاً.

الفرس كأحد أفراد العائلة

إنه من الأمور الهامة بالنسبة للعائلة البدوية هو مدى اهتمام جميع أفرادها عادة بالمحبة، حبهم لفرس البيت كما يقال عندهم، سواء من قبل سيد الخيمة أو سيدتها على حد سواء، هذا وقبل كل شيء يمكن القول إن فرس العائلة لا تباع أبداً، بينما على العكس بالنسبة للأحصنة. ويعامل جميع أفراد العائلة فرسهم وكأنها الفتاة المدللة. ولكن من المعروف أن الخيول لدى البدو لا تجري سياستها أبداً طيلة حياتها، وليس هذا بالأمر الغريب لدى أناس نادراً ما يغتسلون أو يستحمون إلا بالحدود التي تفرضها عليهم عقيدتهم الدينية، وفي مثل هذه الظروف يمكن القول إن الفرس أيضاً تشبه البشر بمعاملتها والاعتناء بها لدى البدوي. وهذا ما يجعل من الفرس كأحد أفراد العائلة المدللين، ويخلعون عليها الصفات البشرية، ولا عجب أبداً مثلاً أن تقوم الفرس بالدخول إلى الخيمة لتحتمي من برد في ليل قارس، أو لتتقي حرارة الهاجرة خلال فترة الظهيرة. ولن تجد أحداً ما يحاول منعها أو الوقوف في وجهها، لا بل تراهم يراقبون أعمالها بفرح وسرور، وكأن طفلاً مدللاً يقوم بمثل تلك الأعمال، وليس غريباً أن يقدموا لها مثلاً بأيديهم بعض حبات التمر، أو قطعة خبز مفضلها عن نفسه أو حتى قدحاً من الماء من نفس الوعاء الذي يستخدمونه لشرابهم. وتقوم النساء عادة بمثل هذه الأعمال بالدرجة الأولى، وهذا ما يخلق علاقة وثيقة لا تنفصم بين أفراد العائلة

وتلك الدابة المدللة، كما لا يقل اهتمام الأطفال وعنايتهم بها عن الكبار، إذ يقدمون لها ما يعطى لهم، وكأن لهذه الفرس من الذكاء ما تفهم به أن هؤلاء الصغار هم أبناء وبنات سيد الخيمة الذي يقوم على حمايتها ورعايتها. ولذلك تعاملهم معاملة حسنة جداً، وبكل لطف، وبعناية فائقة، ولا أبالغ إذا قلت أو استخدمت كلمة تدللهم كما يدللها الكبار منهم. حتى أن الصغار من الأطفال يمكن أن يتجولوا بين أرجلها ولا خوف عليهم أن يمسهم أي ضرر وكأنهم أولاد لها.

وقد شاهدت بنفسي ولأكثر من مرة أطفالاً صغاراً يلعبون بين قوائم فرس أصيل، وكنت أراقب نظرات الحيطة والحذر بعيون مفتحة، وكأن الفرس أم حنون تراقب صغارها.

سقاية الخيول

لا تجري سقاية الخيول عادة حسب أوقات محددة في مواعيد دقيقة، وإنما يجري الأمر أنها كلما أحست بالعطش اتجهت على الفور باتجاه جناح النساء من الخيمة، وتقوم بصهيل خفيف يفهم منه على الفور أنهـا تطلب الماء، إذ أن سيدة الخيمة تفهم تماماً سبب مجيئها وصهيلها، فتربت عادة على رأسها وعنقها ثم تقدم لها الماء اللازم وليس من المستغرب أن تسمع صاحب الخيمة وهو ينادي زوجته أو أحد أفراد عائلته قائلاً: (إعط الفرس ما تشربه، إنها تسأل عن الماء).

هذا ومن خلال ملاحظاتي تعرفت أن الخيول مثلها مثل الجمال والأغنام تقل حاجتها للماء خلال فصلي الشتاء والربيع أي في الأيام الباردة، بينما تزداد حاجتها خلال أشهر الصيف والخريف أي في الأيام الحارة، وقد تبقى الخيول أحياناً حوالي أربعين يوماً دون سقاية خلال الأيام الباردة، إذ تتناول حاجتها عادة من الأعشاب التي تلتهمها أثناء رعيها، وقد تعطى في بعض المناسبات أو يعرض عليها فيما إذا هي بحاجة لشرب الماء، وقد تشرب أحياناً وعاءً صغيراً من الذي يستخدم في حلب النوق وقد تشرب بعضاً منه. وفي خلال فصلي الصيف والخريف فإنها ترد الماء مرة على الأقل في اليوم الواحد، أما في الأيام التي تشتد فيها الحرارة فتزداد حاجتها للماء بمقدار ارتفاع الحرارة، وقد ترد الماء ثلاث مرات في اليوم، صباحاً، وظهراً، ومساء.

ثمن الفرس بالمقارنة مع ثمن الحصان

ليس للخيول العربية من ثمن، إذ جرت العادة ألا تباع أبداً بل تجرى عملية

مشاركة فيها، أما الذكور منها فلا يجري الاحتفاظ بها في أغلب الحالات، ويتخلصون منها مثلاً في مناطق ساحل البحر الأحمر، ومناطق شواطىء الخليج العربي بتحويلها من خيول للركوب إلى حيوانات للجر أو لحمل الأشياء أو للفلاحة. ويجري بيع الأحصنة من هذا النوع أحياناً إلى مصدري الخيول الذين يتعاملون مع بعض البلدان مثل سوريا والعراق والهند، إذ تجد طريقها لاستخدامها في فلاحة الأرض. أما الأفراس فعموماً لا تخضع إلى هذه القاعدة، إذ يحتفظ بها عادة كإحدى القطع الثمينة في البيت، وفي استخدامها في بعض المناسبات المختلفة. وعموماً لا تختلف أغراض اقتنائها كثيراً عن الأغراض التي يتطلبها صاحبها من تربية النوق. وينظر للفرس باهتمام أكثر قليلاً باعتبارها تحفة لتزيين الخيمة وإعطائها البهجة والسرور، وهي بالنسبة لمعظم البدو كالزوجة والأطفال يجب أن لا يخلو منها بيت، كما يقول مثلهم: (الدار بلا أطفال فيها، مثل غرفة بلا نور). كما أنه لا يعني أن تربية الأفراس لا يستهدف إلا الإنجاب من الأمهار الأصيلة. لكن مما لا شك فيه أن قيمتها تزداد بمقدار ما تنتجه من السلالات الجيدة، وهذا يعني أنها من الأنواع ذات الحسب والنسب المشهود لها به، لكن في بعض الأحيان قد تنتج ما يسميه البدو بعلامة الشؤم، مثلاً أن تلد مهراً أو مهرة إحدى قوائمها بيضاء والقوائم الثلاث الأخرى سوداء، وعندها يتطيَّر البدوي أيما تَطَيُّر. وحتى في حال كون إحدى القوائم كستنائية بدلاً من بيضاء وفي هذه الحال فالمهرة ستبقى علامة نحس، وغير مرغوب بها على الدوام.

الصعوبات أمام شراء الأفراس العربية

إنه لمن الصعب جداً على أوروبي أن يتمكن من شراء فرس أصيلة استهوته، وهناك حالة واحدة يمكنه بها أن يحصل على أحد هذه الأنواع، لا سيما من السلالات الجيدة، ومن النوع المضمون الأصل، وذلك بأن يصادفه الحظ ويتلقى إحداها هدية من أحد الأمراء أو الشيوخ أو من أيٍ من زعماء القبائل، ولكن بشرط أن يملك حق التصرف بها، إذ يغلب في معظم الأحوال أن الفرس الأصيلة لا تعود ملكيتها لمالك واحد، بل إلى عدة ملاك، قد يبلغون العشرات أو أكثر، ولهذا السبب أيضاً يصعب إهداء الفرس الأصيلة من الدرجة الأولى، ونعود ونكرر أن ليس هناك من أحد من أفراد القبائل يكون مالكاً لفرس أصيلة بالكامل، وقد يملك حقاً في عدة أفراس في آن واحد، ولكن لا يملك حقاً كاملاً بفرس واحدة، ولهذا يندر جداً وجود شخص واحد يملك حق التصرف بفرس واحدة بيعاً أو إهداءً. وتوزع الملكية بعدد قوائم الفرس، فيقال إن فلاناً يملك فيها قائمةً أو قائمتين أو ثلاث قوائم أو نصف أو

ربع أو عشر قائمة. . . الخ. ولهذا لا يستطيع أحد التصرف إلا بما يملكه، أما ما يملكه غيره فليس له الحق في التصرف به، وقد يملك أحدهم عشر قائمة وقد وافت ذلك المالك منيته، ولنفترض أن ورثته قد يبلغون العشرة، أو يزيدون فهؤلاء جميعاً أصبحوا ملاكاً يتمتعون بحقهم بحصتهم، ولهذا فالمالك لا يحق له البيع أيضاً إلا بعد استشارة الآخرين، ذلك أنهم يملكون الأفضلية بالشراء قبل غيرهم وذلك حق لهم. كما يجب الانتباه فيما إذا كان ذلك المالك الذي يرغب في البيع يملك حقاً في الولادات المقبلة أو أنه حصل على هذا الحق قبل غيره وبقي الآخرون ينتظرون دورهم للاستفادة من هذا الحق في المستقبل، ومدى ومقدار المحاصصة في الولادات المقبلة، وفي حالات الولادات مهراً أو مهرة. . . . . الخ.

وكقاعدة عامة هناك على الأقل نصف دزينة من المالكين ممن لهم حصة أو أكثر في فرس واحدة، وكل واحد يتمتع بحقوق كما لغيره وقد يصدف أحياناً ـ كما هي حالات البدو ـ أن هؤلاء يقيمون في مناطق مختلفة متباعدة، قد تزيد عن مئات الأميال، وقد تصل إلى الآلاف أيضاً، ولهذا من الصعب جداً قسمة فرس واحدة، ويزداد الأمر صعوبة إذا تحولت ملكية أحدهم إلى الورثة ممن قد يصل عددهم إلى العشرات أحياناً، ولهذا فمن الصعب جداً على أجنبي أن يشتري فرساً عربية لاسيما إذا كان يرغب الحصول على نوع ممتاز منها، وإنه من الأمور المربكة والمزعجة أحياناً أن يشاهد أحد ما فرساً ويهوى شراءها، وبالتالي يجد أمامه مثل هذه العقبات التي ذكرنا بعضاً منها. فيقال له مثلاً: (إن من يقتنيها لا يملك كامل حق التصرف بها وإن مالكيها هم كذا وكذا، ويقيمون في كذا وكذا)، إنها سلسلة طويلة من الأسماء والأماكن، وقد يغامر أحدهم ويبدأ بالبحث عن كذا وكذا، فيجد بعضاً منهم ويقال إن آخرين قد ارتحلوا إلى مكان كذا وكذا، هذا وقد تعترضك شروط البيع والشراء، كأن لا تملك حقاً بولادة أو أكثر، وإذا كانت الولادة مهراً أو مهرة، هذا وإذا علم المالكون المشاركون برحيل فرسهم عنهم فإنهم سيعترضون على البيع بالكامل.

ويطلق العرب على الخيول ذات النسب بالخيول الأصيلة لتمييزها عن الهجينة غير الأصيلة. وهناك أنواع مختلفة منها فهناك سلالات أصيلة مثلاً من الدرجة ـ أ ـ ومنها خمس سلالات تعرف هذه السلالات في شبه الجزيرة العربية باسم «الخمسة» أو «الخمسات الرسول» وهي:

ـ الكحيلات مؤنثها كحيلة.
ـ الصقلاوي مؤنثها صقلاوية.

- الهدبان، مؤنثها هدبا.
- عُبَيّانْ، مؤنثها عُبَيَّةْ.
- الحمداني، مؤنثها حمدانية.

أما السلالات في مرتبة - ب - فتعرف باسم الخمسة الديناري، ويطلق عليها الأسماء التالية:

- الدهمان.
- المعنقية.
- الشويمان.
- الجلفان.
- أبو عرقوب.

أما في حال تزاوج احدى سلالات العرقين السابقين فينتج عن هذا التزاوج سلالة جديدة من الدرجة - جـ - ويطلق عليها عندئذ الأسماء التالية:

- المَوجْ - ريشان - خويزان - وضحان - خرسان، وهنا يكون الذكر من نوع الصقلاوي.

- ملوه. يكون الذكر في هذه الحال من سلالة عبيان.

- سعدان، - رطبان - سمحان - خبيصان - مخلد، الذكر في هذه الحال من سلالة المعناقي.

كما ويعتبر أصيلاً كل من يرجع بأصوله إلى هذه السلالات المذكورة أو ينحدر منها، أو المولدة عنها، أو المولدة عن المولدة عنها وتبلغ في مجموعها أكثر من مئتي اسم لسلالة مختلفة.

وطبقاً للمعتقدات البدوية، يقولون إن أول فرس في العالم قد اقتناها إسماعيل، فقد استطاع أن يصطادها من رمال النفوذ الكبرى، جنوب المنطقة التي تعرف حالياً باسم الجوف، وهناك قام بترويضها وتدجينها، وعندما ألقى القبض عليها كانت مهرة متوحشة كغيرها من الحيوانات المتوحشة قبل تدجينها، ومن ثم ولدت له مهرة أطلق عليها اسم كحيلة العجوز، (وذلك بسبب سواد جفون عيونها) ويضيفون أيضاً أن هنالك مئة وثلاثين عائلة تفرعت عن سلالة كحيلة العجوز في الأصل، أما ما بقي منها الآن فهي السلالات الخمس المذكورة تحت المجموعة - أ - وهي المعترف بأصالتها بشكل أكيد بالنسبة لهم ويقولون إن لا شك في أصالتها إطلاقاً.

وقد زار الكويت المستر كارل راسوان الخبير المشهور بالخيول العربية وأنواعها وأصـولها سنة ١٩٣٢ والتقيت به عدة مرات، وأعلمني إنه بعد دراسة مطولة اقتضت منه سنوات عديدة فإنه قد توصل إلى نتائج شبه مؤكدة تقول إن هناك أكثر من عشرين سلالة أصيلة، وأكثر من مئة وثلاثين سلالة مولدة عن المولدة قام بدراستها جميعاً وتبين له أخيراً أن هناك ثلاث سلالات رئيسة يمكن في الحقيقة اعتمادها وهي:

- **سلالة الكحيلان**: وهي تمثل القوة في الخيول العربية الأصيلة.
- **سلالة الصقلاوي**: وتمثل الأناقة والجمال والرشاقة في الخيول العربية الأصيلة.
- **سلالة المعناقي**: وتمثل السرعة والخفة في الخيول العربية الأصيلة.

وأضاف إن سلالة الحمدان والهدبان المصنفتان في المرتبة ـ أ ـ تعود في الحقيقة إلى مجموعة الكحيلان.

رباط الخيل

يحتفظ عادة كل شيخ أو صاحب مقام وكل من يملك فرساً أصيلاً حسبما هو معروف ـ برباط فرسه، والرباط هو شهادة الميلاد تتضمن معلومات كافية عن تاريخ الولادة، وعن أصول والدي تلك الأصيلة ـ أمها وأبوها ـ وسلالة كل منهما، وتمهر تلك الشهادة بخاتم خاص، ومثل ذلك الرباط يكون مجال فخر واعتزاز صاحب تلك الفرس المدللة.

وهناك عديدون ممن يملكون أعداداً من هذه الخيول الأصيلة، فهناك مثلاً إبراهيم بك بن مزعل باشا السعدون من المنتفك، والذي يحتفظ لنفسه بحوالي ثلاثين فرساً أصيلاً ذات السلالات والعروق الأصيلة، وأغلبها من سلالتي الدهمان (سلالة الكحيلان) وجميع من في العراق ممن يهمه مثل هذه الأمور يعرف ذلك جيداً.

وهناك أيضاً مشايخ البحرين الذين يحتفظون لأنفسهم ببعض الخيول الأصيلة، وتمتاز بأنوفها المعقوفة قليلاً إلى الوراء، وهي من نوع الشواف، (سلالة كحيلان)، كما يجدر أن نشير أيضاً أن الدويش شيخ قبيلة المطير يحتفظ ببعض أنواع من الخيول من الكروش (كحيلان) وهم يحتفظون بها، ويعتبرونها مجالاً لفخارهم كما يحتفظون بأنواع من الجمال السوداء اللون وهي من الأنواع النادرة، وتعرف هذه الجمال باسم (الشرف). إلا أنهم فقدوا كل ذلك بعد أن فشلت ثورة الإخوان (١٩٢٩ ـ ١٩٣٠)

وأصبحت أملاكهم ملكاً لملك العربية السعودية، وأصبحوا بذلك مالكي هذه السلالة عوضاً عن الدويش.

وأريد أن أشير أيضاً إلى أن عبدالله بن جلوي حاكم الحسا يملك حصاناً ضخماً من سلالة عبيان، كما يملك أيضاً اسطبلاً خاصاً بخيوله، فيها عديد من الأفراس، وأكثرها من سلالة عُبَيَّانْ، والجميع في شبه الجزيرة العربية يمكن أن يخبرك إذا ما سألته حول ما يعرفه من معلومات عن تلك الخيول التابعة لابن جلوي وما ينفقه عليها من أموال طائلة، كما أن ابنه سعود يسير على هدى أبيه في هذا المجال.

الأنواع ذات القيمة الأعلى

يوجه البدوي اهتماماً أقل للفرس التي يمكن أن تفوز في السبق في المسافات القصيرة، ويفضل عليها تلك التي يكون لها قدرة تحمل وطاقة أكثر. وانطلاقاً من هذا المبدأ فإن السباقات التي تجرى تتراوح مسافتها عادة ما بين «١٠ ـ ١٥» ميلاً. كما لن يكون الأمر صعباً للبحث عن السبب، فالبدوي يقتني فرسه ويهمه منها ـ بالدرجة الأولى ـ أن يستخدمها للقيام بالإغارات، وفي هذه الحال ـ وفي مقدمة الأفضليات بالنسبة له ـ الانطلاق بعيداً وبسرعة إذا انقلبت الأمور بعكس ما كان يأمله، إذن فالفرس التي تملك قدرة على متابعة الركض بعيداً هي التي تهمه بالدرجة الأولى.

القوة والقدرة على الاحتمال

تعيش الأفراس العربية عمراً مديداً إذا ما قورنت بمثيلاتها من العروق الأخرى، وتؤدي المطلوب منها حتى في سن العشرين أو ما يزيد، فالأفراس العربية يمكن لها أن تنجب الأمهار حتى بعد سن العشرين.

أما الأحصنة فلا تقل قدرتها وطاقتها عن أخواتها الأفراس، إذ تعمر هي الأخرى طويلاً إذا ما قورنت بالأحصنة من العروق الأخرى. وإنني ما زلت أذكر حتى الآن عندما التحقت للمرة الأولى في عام ١٩٠٦ بفوج الخيالة الهندي المسمى بفوج الرماة ٢٩ (يسمى اليوم الفوج الملكي التاسع) وكان في ذلك الفوج سرية من الخيول العربية وكان معظمها قد بلغ أو تجاوز سن العشرين، وكانت تؤدي أعمالها على خير ما يرام.

ميزات الفلوة أو المهرة والفرس

إذا رغب بدوي ذو خبرة أن يحدد قامة الدابة التي يرغب ـ كما هو الأمر من الفلو

أو الفلوة المولودة حديثاً ـ فسيقوم بقياس المسافة من قمة الحافر (من الجانب) حتى جانب عظم الركبة، وهذه المسافة لا تتبدل منذ الولادة، ويقولون إنهم بهذه الطريقة يتعرفون على علو قامة ذلك المهر أو المهرة في المستقبل، وذلك باستخدام مقياس مبسط حسب الطريقة التالية.

أ ـ إذا كانت المسافة ما بين قمة الحافر وعظم الركبة ١٧ إبهاماً عندها سيصل علو المهر إلى ١٤,٢ عندما يصبح حصاناً.

ب ـ إذا كانت المسافة ما بين الحافر والركبة ١٨ إبهاماً فسيكون ارتفاع المهر عندها ١٤,٣ عندما يصبح حصاناً.

جـ ـ أما في الحالة التي تكون فيها المسافة ١٩ إبهاماً فسيكون علو المهر ١٥ عندما يصبح حصاناً.

وهكذا يجري عادة القياس حتى النهاية وبنفس النسبة.

ويقيس البدو عادة باستخدام عرض إبهام اليد، ويجري القياس ويتابع بالتتالي استخدام إبهامي اليد الواحدة بعد الآخر من الأسفل إلى الأعلى، أي للوصول إلى عظم الركبة.

وسيخبرك البدوي إذا ما سألته بأن كل مهر بلغ من القياس ١٧ إبهاماً فما فوق فسيكون من الخيول الجيدة بارتفاع القامة.

أما العربي العادي فيقيس الخيول بطريقة أخرى، وذلك بأن يمرر خيطاً من وراء أذن الدابة حتى الوصول إلى نهاية الشفة العليا. وهذه بالنتيجة تؤدي نفس النتائج في حال القياس من الحافر إلى أعلى الكاهل.

هذا وليس لكل بدوي الإمكانية لأن يقوم بذلك القياس كما لا يمكن لأي كان أن يملك القدرة على أن يكون قاضياً في شؤون الخيل، وهناك قواعد عامة لمعرفة الدابة الرديئة من الدابة الجيدة، فضيق الصدر والحوافر المدورة علامات لا تدل على جودة الدابة التي جرى فحصها، أما الدابة التي تتميز بأكتاف عريضة فهي دابة جيدة، وهناك قياس خاص لمعرفة الدابة الحسنة من الرديئة.

يضاف إلى ذلك اهتمام البدوي بعيون فرسه فيفضلها من ذوات العيون الواسعة عن تلك صاحبة العيون الضيقة الصغيرة، كما أن اقتراب العينين من بعضهما هي من العلامات السيئة، والعكس هو من حسناتها. ويفضلها من التي تكون مرفوعة الذيل والمؤخرة.

أما للحكم على أكتاف الحصان ومؤخرته، فيقوم البدوي بعملية قياس خاصة يستنتج منها حكماً عليه. ولهذا يستخدم قضيباً صغيراً من الخيزران فيضعه على حافة كتف الحصان، ثم يمرره، نحو الأعلى، من خلال أعلى قمة كاهل الحصان أو الفرس. هذا وسيقوم أيضاً بقياس الخط المشكل ما بين العرقوب والقسم الناتىء من العظم العلوي للفخذ، فالخطوط المشكلة ما بين هذه القضبان أو هذه الخطوط، سيشكل منها هرم متخيل، (يفضّل استخدام قضيبين متشابهين) على ظهر الدابة التي يجري فحص مميزاتها فكلما كانت القمة المشكلة لهذا الهرم المتخيّل لظهر الدابة قليلة الارتفاع دلت على جودة تلك الدابة.

أما بشأن المؤخرة والقوائم الأمامية والحكم عليها فتستخدم الطريقة التالية:

يوضع قضيب من الخيزران في مقدمة حافر الحصان أو الفرس المراد إعطاء حكم على مدى جودته ثم تنقل حتى قبال قمة الكتفين.

كما يجري قياس عرقوب الدابة بوضع القضيب بشكل يلامس قطعة اللحم الأخيرة من القسم العلوي من العرقوب، والنتيجة أنه كلما كان الخطان المشكلان بالقضيبين ـ إذا كان الناتج باتجاه الأعلى ـ متماثلين فيدل على دابة سيئة.

الولادة وحالات الفلو

إذا ما تمت الولادة نهاراً فذلك من علامات الفأل الحسن، وغالباً ما يتم الاحتفال بهذه المناسبة، احتفالاً بسيطاً. كما جرت العادة أيضاً أن يجري شق نهاية الأذن شقاً طولياً صغيراً بحدود نصف إنش.

كما يجري بعد الولادة أن تخاط أطراف الأذنين لبعضها البعض بهدف ضمانة عدم تهدلها، وللمحافظة عليها كي تبقى منصوبة عندما يكبر ذلك المولود، وترفع تلك الغرزات عادة بعد أسبوع من الولادة. ويجري أيضاً شد قوائم المولود الجديد بشكل مستقيم لكريها (أي بعث القوة فيها) كما يجري تدوير الحوافر باتجاه الداخل للتأكد من سلامتها، أما العراقيب فتشد للخارج، ثم تفرك القوائم الأربع بشكل جيد بهدف الحصول على قوائم سليمة.

ويهتم البدو كثيراً باستمرار مدة الرضاعة سنة أو أكثر، ومن المفضل أن تستمر الرضاعة طالما أن الأم الحنون قادرة على ذلك، كما لا يتم الفطام فجأة بل يجري تدريجياً، وتطبق على الفلو أو الفلوة نفس القواعد التي يطبقونها على أطفالهم تماماً،

لا سيما بما يتعلق بمدة الرضاعة والفطام وتوفير ما أمكن من العناية. وبعبارة أخرى فإن ذلك المولود سيبقى على الدوام محل اهتمام وعناية الجميع. وبعد سنتين ونصف أو ثلاث سنوات يبدأ ترويض المدلل وذلك بما يسمى عملية التطبيع إذ يجري ركوبه. وهكذا تبدأ مرحلة جديدة من حياة المهر أو المهرة.

التكاثر والتوالد

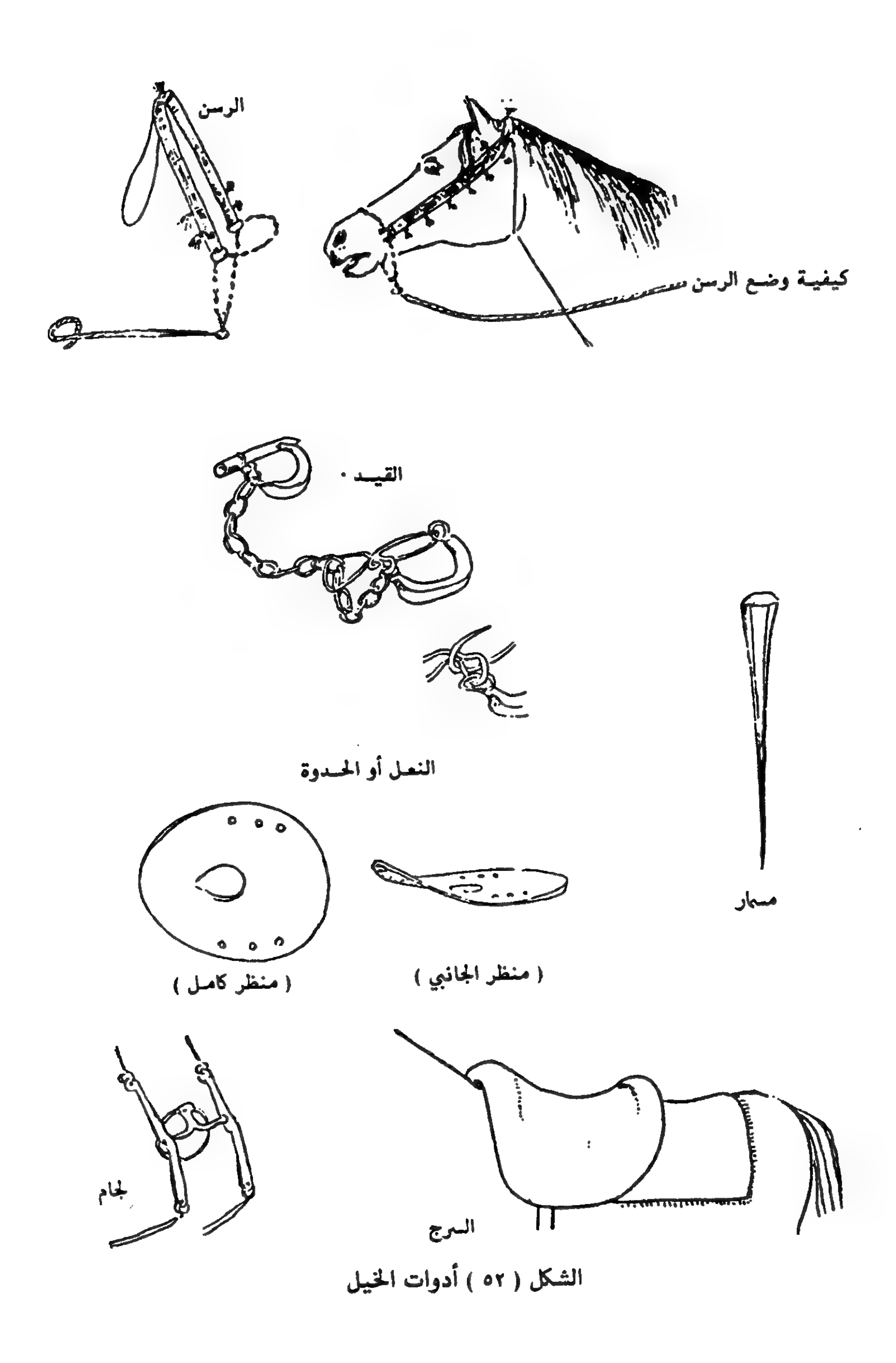
يحتفظ كل شيخ عادة بفحل أو فحول من الخيول الأصيلة لتلقيح أفراسه. ويهيىء لها عادة أمكنة خاصة بعيدة عن الأماكن التي توضع الأفراس فيها، يبقى ذلك الفحل مقيداً على الدوام بقيد حديدي، إلا أنه بالرغم من هذا فله طعامه الخاص بـه لما يمتاز بعنفه وقوته وغالباً ما يكلف أحد العبيد برعايته والإشراف على شؤونه، وفي بعض الأحيان يقوم الفحل هذا بتلقيح بعض الأفراس والتي لا تعود للشيخ بل قد تكون لبعض آخر، ولكن لا يجري ذلك إلا بأمر منه، هذا ولا يجري تقديم الأفراس للتلقيح ما لم تظهر تعاطفها مع هذا الفحل، وغالباً ما يكون الوقت ليلاً مقمراً.

نعال الخيل وأعنتها

تبقى الخيول في الصحراء منعلة ما عدا المهاري وبنفس الطريقة الغربية إلا أنها أقل إتقاناً، إذ يكون النعل كاملاً يغطي جميع الحافر.

أما الحدوة الأوروبية فغير معروفة على الإطلاق في عالم البدو، والفكرة من استخدام هذا النوع من النعال المسطحة هي تقديم غطاء كامل تقريباً ما عدا ثقب في الوسط للتهوية في أسفل الحافر لمنع الحصى وحبات الرمل من أن تسبب الإزعاج للفرس. هذا وفي عالم البدو لا يتم نزع الحدوة قبل أن تبلى نهائياً تقريباً، وحتى يتم سقوطها، ولا غرابة أن نجد بعض الخيول وهي تسير حافية في أحد حوافرها انتظاراً حتى تبلى البقية الباقية ليتم بعد ذلك حدوها من جديد. كما يمكن أن نلاحظ بعضاً منها تعرج في مشيتها بسبب فقدانها أحد نعالها.

أما الأعنة فلا تستخدم إطلاقاً في عالم البدو، ويستخدم بدلاً عنها الرسن، وهو مؤلف من عدة قطع يصنع معظمها من خيطان الصوف الملون، كما يجري تزيينه بعدة قطع تتدلى من كل جانب، والقطع الرئيسة هي ثلاث، أولاً قطعة من الصوف تحيط بالرأس من الجانبين مروراً من وراء الأذن، وتربط بسلسلة من جانبين تحيط بالفم فوق المنخرين، من الأعلى الشكل (٥٢) وتربط تلك القطعة بالسلسلة المحيطة بالفم، وهذه السلسلة هي القطعة الثانية، وتكون مصنوعة من سلسلة معدنية تحيط



الشكل (٥٢) أدوات الخيل

بالفم، تنتهي بحبل آخر يربط في أسفل الذقن، ويطلق عليه اسم المقود، وبه يستطيع الفارس أن يوجه به ركوبته، هذا ومنعاً من سقوط الرسن هناك أيضاً قطعة أخرى قد لا تستخدم دوماً، وهي عموماً مصنوعة من خيطان الصوف، وأحياناً من السيور الجلدية وتعلق في للقطعة الأولى في قمة الرأس، مروراً من وراء الأذنين بأسفل الرأس، بالقرب من البلعوم.

وتأتي سيطرة الخيال على ركوبته باستخدام ذلك الرسن، ويمسك عادة باليد اليسرى من جهة واحدة، ولهذا تحاول الفرس العربية أن تحمل رأسها باتجاه اليسار على الدوام. والسبب أن المقود هو الذي يتسبب في ميل الرأس.

كما يجري كبح جماح الركوبة أيضاً باستخدام هذا الرسن، إذ يجري شد ذلك المقود بقوة لا سيما إذا كانت تلك الركوبة من النوع الجامح أو أن يكون الفارس مبتدئاً، قد يؤدي بمثل هذا الخيال إلى السقوط الذي ينجم عنه غالباً أضرار مختلفة.

هذا وقد يسأل القارىء كيف يتمكن الفارس من السيطرة عن طريق المقود. والجواب إن تلك السلسلة المحيطة بالمنخرين تصنع عموماً من مادة خشنة، إما من المعدن أو من الحبال القاسية التي تتسبب عند شدها بالضغط الشديد على المنخرين، فيسبب بالركوب ألماً شديداً، مما يؤدي عموماً إلى توقفها.

أما اللجام فكما ذكرت لا يستخدم إطلاقاً من قبل البدو، لكن هناك البعض من شيوخ القبائل في العراق يستخدمون اللجام عوضاً عن الرسن، كما يمكن أن تكون تلك العادة دارجة أيضاً بين الأمراء والعائلة الحاكمة في العربية السعودية. (لم أر ذلك بنفسي مطلقاً وكل مرة كنت أشاهد ابن سعود شخصياً فإنه يستخدم الرسن، ولم أشاهده مرة يستخدم اللجام).

هذا وقيل أيضاً انه يستخدم في بلاد فارس وكذلك في سوريا وشمالي افريقيا، ومن الأمور الأخرى الواجب ذكرها أنه يمكن استخدام الشكيمة المؤلفة من سلسلة معدنية من النحاس عوضاً عن تلك المصنوعة من الخيطان الصوفية أو من الحديد، ونشير أيضاً، أن استخدام اللجام لكبح جماح الخيول العربية يظهر كبرياءها عندما ترفع رأسها عالياً فيعطيها طابعاً يزيد من جمالها.

السروج

لايستخدم البدو عموماً السروج والركابات بل يركبون خيولهم غير مسرجة.

هذا وقد صادف أن اختبرت في إحدى المرات ركوب الخيل غير المسرجة، أثناء معركة الشعيبة في العراق عام ١٩١٥ إذ كان لدينا في ذلك الوقت لواء هندي سيء التدريب والتسليح مدعوما ببطارية مدفعية، وكان لنا مجموعة استطلاع كانت تسير في المقدمة. وفجأة اصطدمت تلك المجموعة بقوة من الخيالة المعادية غير النظامية، وكانت تلك القوة متفوقة بعددها، وكان قوام تلك المجموعة من فرسان البدو مع الأكراد.

وبعد تراجع مدروس مسافة ثمانية عشر ميلاً، وصلنا قريباً من غابة البرجسية، وتمركزنا هناك بعد أن قمنا بحفر الخنادق، ثم شنت تلك القوات هجوماً على جناحنا، وكان يقود تلك المجموعة عجيمي السعدون ومعه حوالي ألفي فارس من خيالة المنتفك وكنا نجهل تشكيلهم أو تسلحهم إذ كانوا يختبئون في تلك الغابة.

هذا ولما كان انسحابنا على جبهة عريضة لتفادي ضربة قاسية في مثل تلك الأحوال أثناء التراجع أو الانسحاب، فقد كانت المسافات بين السرايا تزيد عن مئتي ياردة. وأعطينا مهمة حماية المؤخرات أثناء عملية الانسحاب إلى بعض الوحدات الراجلة وكانت قواتنا منتشرة على جبهة عريضة، وبالتالي كان يصعب علينا تطوير الموقف بسرعة لتفادي الهجوم على الأجنحة بتبديل الجبهة، ولم نستطع اتخاذ قرار سريع لتبديل شكل الجبهة، وسيطرت علينا حالة من الذعر والفوضى والقلق، ولم ندر ماذا يمكننا أن نفعل، والفرصة أمامنا محدودة من حيث المكان والزمان.

ولحسن حظنا قدمت قوة صديقة شاهدتنا وجاءت لنجدتنا ولتساعدنا على الانسحاب من معركة لو خضناها لكانت كارثة علينا. وقد تم تمركز تلك النجدة على مقربة منا لإنقاذ الموقف. وإلا لما كان بيننا أحياء ليقص تلك الرواية.

وهكذا تحولت تلك النكبة التي كانت ستحل بنا عن طريق هذه النجدة إلى هزيمة أعدائنا الممثلين في عجمان ومقاتليهم الشرسين، ودامت المعركة عدة ساعات، وقد ساعدت بطارية المدفعية على صد اندفاعهم الذي كان كالأمواج المتلاحقة، وكانوا جميعاً يركبون خيولهم دون سروج، وقد أصبح لزاماً عليهم أن يجابهوا القوات التي كانت متخندقة من التي وصلت إلى نجدتنا من جهة بالإضافة إلى نيران المدفعية من جهة أخرى وأخيراً وجهوا خيولهم إلى الوراء وولوا الأدبار لا يلوون على شيء.

الأسلحة الحديثة والسيارات

سبق أن ذكرت أن البدوي لا يرغب بالأحصنة لهذا يعمد إلى بيعها للخلاص منها، وتستعمل عادة في جر العربات المستخدمة عموماً في المدن الواقعة على الشواطىء الشرقية لشبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر. ويعتقد أن الأمور ستزداد سوءاً بسبب دخول السيارات إلى هذه المناطق وحلولها محل عربات الجر في أمور كثيرة، وبالتالي سيسبب ذلك كساداً كبيراً في تجارة الخيول، وهذا ما بدأ يظهر جلياً مع ازدياد عدد السيارات يوماً بعد يوم في منطقة الشرق الأوسط إحدى المناطق التي تشتري الخيول للجر. وهكذا قل الطلب كثيراً على الخيول مما اضطر بعض البدو في بعض المناطق إلى قتل صغار الذكور فور ولادتها.

وقد علمت (عام ١٩٣٥) من مختلف شيوخ القبائل الذين قابلتهم أن انتشار السيارات قد تسبب لهم مشكلة معقدة ولذلك فلم يعد البدو قادرين على تربية خيولهم ـ ولا سيما الأحصنة ـ لمدة تزيد عن ثلاث إلى أربع سنوات، وبالتالي وإذا كان من المحظوظين واستطاع أن يجد مشترياً لذلك الحصان الذي رباه هذه المدة فلن تتجاوز القيمة الثمانين أو التسعين ريالاً. هذا وقد رأيت بنفسي في بازار بالكويت أحد الأحصنة العربية الجميلة يباع فقط بأربعين ريالاً أي بمبلغ (٣ جنيهات استرلينية). ومن حسن الحظ أن هناك بعض المدن لا تزال تمارس فيها سباقات الخيول، وبها يمكن استخدام أعداد محدودة، مثل بومباي، وبغداد، والقاهرة. . . . الخ. ومن المعروف أن الخيول العربية لها عصا السبق في مثل هذه السباقات إلا أن تلك المهمة تبقى محدودة.

وإذا صرفنا النظر عن قتل الذكور من الولادات الحديثة للخيول، فهناك مصدر خطر آخر أصبح يهدد الخيول بالانقراض. فقد أعلمني صاحب الجلالة الملك ابن سعود شخصياً في عام ١٩٣٢ أن الأفراس العربية هي في طريقها إلى الانقراض، بعد أن تم اختراع الأسلحة النارية وشاع استعمالها في الحروب القبلية، إذ كان المقاتل البدوي في السابق يستخدم الرماح والسيوف، لذلك فإن الأفراس المستخدمة في ساحات القتال لا تصاب غالباً بالأضرار إلا الطفيفة منها، وكان القتال يجري من مسافات قريبة، وتوجه تلك الأسلحة بين المقاتلين إلى بعضهم البعض. أما اليوم وبعد أن انتشر استخدام الأسلحة كالبنادق ومختلف الأسلحة النارية بين البدو، أصبح القتال يبدأ من مسافات بعيدة ولهذا كثيراً ما توجه النيران إلى الخيول أكثر مما توجه إلى المقاتلين، وبذلك يزداد عدد القتلى بين الخيول أكثر من المقاتلين.

ويضيف الملك السعودي إنه يخشى حقاً من أن تتطور الأمور وتزداد سوءاً لتؤدي مع الزمن ومع تطور الأسلحة النارية إلى انقراض الخيول العربية. ولذلك فقد قرر المساهمة في الحفاظ عليها فشرع في إنشاء مزارع خاصة في السعودية بلغ عددها أربعاً للآن وضعها تحت إشرافه مباشرة وجهزها بالوسائل اللازمة، وأضاف أنه سيسعى بكل جهد لزيادة أعدادها وتطويرها لتستوعب أعداداً أكثر، ولكن يقول إنه مع ذلك غير متفائل كثيراً.

هذا وقد سمعت (عام ١٩٣٥) أن الملك السعودي لا يزال يتابع هذه الهواية بهمة ونشاط، وأن أي واحد يذهب من العراق إلى الرياض، ويأخذ معه إحدى الأفراس الجميلة فسيستقبل استقبالاً حسناً، كما سيتلقى ثمناً جيداً لفرسه، والأهم من ذلك المساعدة التي يقدمها الملك إلى القبائل السعودية ممن ساءت أحوالها بعضها ولم يعد قادراً على الاحتفاظ بخيوله خلال فصل الصيف، فيقوم مثل هؤلاء بتقديم خيولهم كهدايا للملك، وبهذا فهم لا يتخلصون فقط من عبئها وعبء العناية بها، بل يتلقون عوناً عنها أضعافاً مضاعفة لأثمانها تعويضاً عن دوابهم.

وعلى الرغم من كل ذلك يقول ابن سعود إن السيارات أصبحت تشكل خطراً حقيقياً على هذا الإرث العربي التاريخي الذي لا يقدر بثمن، إنه خطر يتزايد مع مرور الزمن؛ هذا ويؤمل من جميع المسؤولين في جميع مناطق الشرق الأوسط بالدرجة الأولى أن يحذو حذو صاحب الجلالة الملك السعودي للحفاظ على هذه الثروة الغالية، وأن يتعاونوا فيما بينهم للوصول إلى نتائج ملموسة لإنقاذ هذه الثروة العالمية من الضياع مهما كلف الأمر.

أسماء الخيول حسب أعمارها

يطلق البدو الأسماء التالية على خيولهم طبقاً لأعمار هذه الخيول:

- **فلو**: الحديث الولادة حتى يتم السنة الأولى من عمره.
- **حَوْليّ**: من أنهى السنة الأولى وبدأ بالثانية.
- **جده**: ابتداء من نهاية السنة الثانية وحتى نهاية السنة الثالثة من العمر.
- **الثني**: ابتداءً من السنة الثالثة حتى ابتداء السنة الخامسة.
- **الربع**: ابتداءً من السنة الخامسة حتى نهايتها.
- **الخمس**: ابتداءً من السنة السادسة حتى نهايتها.
- **السبع**: ابتداءً من السنة السابعة حتى نهايتها.
- **الغرة**: ابتداءً من بدء السنة الثامنة حتى نهاية العمر.

شيخوخة الخيول ووفاتها

كلما تقدمت السن في الخيول، واقتربت من سن الشيخوخة قل استخدامها، حتى تصبح في النهاية غير قادرة على الحراك تعامل معاملة حسنة إلى أن توافيها منيتها، ولا يجري قتل الأفراس للقضاء عليها عند الشيخوخة وما تعانيه من آلام كـما يفعل الناس عادة في الغرب. فعندما تقترب هذه الخيول من نهاية عمرها، تتمدد على الأرض وتموت بهدوء كما تموت البدوية بهدوء وسلام. أما إذا صادف وكانت من بين أملاك أحد الأمراء أو الشيوخ فستقضي شيخوخة سعيدة، إذ يحتفظ كل منهم عادة بقطعة من الأرض لرعي حيواناته سواء الخيول أو الجمال أو الأغنام وتختار عادة من بين أحسن المناطق على الإطلاق، ولا يجرؤ أحد على الاقتراب منها، وهناك تترك الأفراس حرة طليقة تتمتع بما تستطيع أن تتمتع به على هواها لا يزعجها شيء حتى يأتي أجلها.

هذا وقد عرض كارل راسوان في الصفحة ١٢١ من كتابه (الخيام السود في شبه الجزيرة العربية) أنه من الأمور الملفتة للنظر ـ لكن غير معروفة من قبل الكثيرين ـ أن للحصان العربي الصحراوي من النوع المتميز خمس فقرات قطنية عوضاً عن ست في العمود الفقري، وله أيضاً عدد أقل من العدد العادي في فقرات الذنب. ست عشرة بدلاً من ثماني عشرة فقرة، كما يختلف أيضاً عن الخيول وجود استطالة في الحوض، وكذلك فى الناحية العقلية، وهناك أيضاً بعض الملاحظات الفيزيولوجية الأخرى لا يتّسع المجال لذكرها هنا. كما أن ذلك الكتاب يتضمن أموراً كثيرة ذات قيمة جيدة حول الخيول العربية، وهناك كتب أخرى قيّمة حول هذا الموضوع، وقد وجدت أن كتاب راسوان من أسهل الكتب وأكثرها دقة.

الخيل في الأدب العربي

يقول العرب في أدبهم أن الله سبحانه تعالى قد خلق أولاً الفرس، ثم خلق بعدها الحصان، وعندما خلق أولاً الفرس خاطب رياح الشمال قائلاً: (سأخلق من أجلك كائناً سيبعث البهجة والسرور في قلب الأناس الصالحين لكن سيكون وبالاً على الناس غير الصالحين أما البهجة والسرور فسيكون في جبين ذلك المخلوق، كما ستهب الخير من مؤخرتها كما يكون لصاحبه الخير والبركة)[1].

يقول العرب أيضاً إن الفرس لا تضرب أبداً، ومن يضرب فرساً قد يعاقبه الله وإن

---

(١) الرواية على ذمة المؤلف.

بلوى قد تصيبه نتيجة ذلك لا سيما إذا ولدت مهراً.

هذا وقد ذكر في القرآن الكريم، أن على كل إنسان أن يحب حصانه، وأن يقدم له كل ما يستطيع، أما الحديث الشريف فقد ألح على حب الخيل: (إن التبرك بعيون الحصان يشبه التبرك بالبيت الجميل).

وطبقاً للمبادىء والتعاليم الإسلامية أن من تسبب العمى لحصان بضربه، عليه أن يدفع فدية كجزء من ثمن الحصان. وهي غرامة يدفعها من تسبب في أذى حصان غيره.

هذا وإن نفس التعاليم تمنع أكل لحم الحصان احتراماً له، لكن يسمح بشرب حليب الأفراس.

والرسول العربي كان يحب الخيل كثيراً، ويشبهه بالسهم، وكان يحث المسلمين على اقتناء الخيل، وكان يأمر أن يملك كل مسلم حصاناً، وكان يقول إن الحصان يجلب الخير والبركة.

أما الخليفة عمر بن الخطاب فكان يستشهد بأقوال الرسول العربي بحب الخيول، وكان يقول: (أحبوا خيولكم وأحسنوا معاملتها، ومن عمل ذلك سينال الخير والبركة من الله تعالى). أما من أساء معاملة فرسه فسوف يلقى اللعنة من الله ويقول الرسول في مكان آخر في حب الخيل. (بعد المرأة يأتي الحصان ليبعث السرور والبهجة في قلب الإنسان) وهذه أمثلة من أقوال كثيرة في حب الخيل لدى العرب.

خيول الرسول

يقال إن الرسول العربي قد ملك خلال حياته التي عاشها خمسين فرساً، وكانت فرسه الأولى قد أحضرت من بدو قبيلة بني فزاره، وكانت تسمى (الصكبة) وتعني المتدفقة في اللغة العربية، وكان ذلك في فجر الإسلام، وكانت بلون أشهب، كما كانت في جبينها نجمة بيضاء. أما الفرس الثانية التي ملكها الرسول العربي فكانت تسمى المرتجس، ويقال إن لونها كان رمادياً.

أما فرسه الثالثة فكانت تسمى (الصبحة)، وقد جلبها من قبيلة جهينة. وقيل إنه دفع ثمناً لها عشرة جمال.

أما الخيول الأخرى التي ملكها فكانت:

الجلمة ـ ذو العقل ـ اللهيف ـ اللزاز ـ الوردة «أعطيت فيما بعد للخليفة عمر» ـ الصقلة ـ الشهاية ـ السرحان ـ المرتجل ـ اليابوب ـ اليعسوب ـ المروحة.

سباق الخيل

قيل إن الرسول كان يشجع على القيام بسباق الخيل، كما كان يشجع على اقتنائها ويحث على انتقاء أحسنها بين رجاله. ويذكر المؤرخون المختصون أن أول سباق جرى في زمن الرسول كان في السنة الرابعة للهجرة. وقيل إن حصان أبي بكر الصديق خليفة الرسول الأول هو الذي ربح شرف السباق هذا. وقد أقيم في الكفيان، وجرى من مكان ثنيات الوداع. وكانت المسافة حوالي ستة أميال. ويقال إن ابن عمر بن الخطاب قد شارك في ذلك السباق. وقيل أيضاً إنه لم يستطع السيطرة على حصانه فجرى به حتى دخل المسجد.

الخيول وعيون السوء

منذ أقدم العصور يقول العرب إنهم يخشون أن تقترب العين الشريرة من مكان تجمع الخيول. هذا ولا يزال العرب حتى اليوم يعتقدون بأذى العين الشريرة وتأثيرها على الخيول، وبهذا فهم يتجنبون من يشتهر بينهم ويوصف بأن لديه عيوناً شريرة، ولا غرابة أن تحمل بعض الخيول حجباً تكتب عادة كما تكتب للناس.

صفات خيول السبق

يقولون طبقاً لمواصفات الخيول العربية، يجب أن يتمتع حصان السبق بالصفات التالية:

أ ـ كبر المنخرين.
ب ـ طول الأذنين.
جـ ـ عرض الصدر. كبر عظم الفكين السفليين.
د ـ ضخامة الأضلاع.
هـ ـ طول الرقبة. مدور الكفل.
و ـ قوي عضلات القوائم.
ز ـ أن لا تقل خطوته أثناء القفز عن ١٢ قدماً.

ولادات الخيل

قال الرسول العربي عندما عرض عليه موضوع ولادة الخيل: (إن كل رجل له حصان يشبه الإنسان الذي يتصدق بالصدقات).

وينصح أن يعير المسلم انتباهاً كبيراً عند اختياره لحصانه. وكان الرسول يغضب

كثيراً إذا علم أن أحدهم أخذ أجراً لحصانه إذا ما استخدم بتلقيح فرس ما.

علامات الحصان الجيد

يضع العرب بعض الصفات المعينة عند اختيارهم للفرس أو الحصان الجيد، وهي صفات تتميز بها الخيول العربية. وبمقدار ما تتوافر هذه الصفات يكون الاختيار موفقاً.

١ ـ وجود علامة مدورة بيضاء ناتجة عن طريق نمو الشعر في الجبهة، ويطلق عليها اسم (السعد).

٢ ـ وجود خط من الشعر يمتد من الداخل إلى الخارج من كل جانب على طرفي الرقبة تنطلق من خصلة الشعر المرفوعة فوق الجبين. ويطلق عليها اسم (السرو).

٣ ـ إذا كان للحصان فوق الصفات المذكورة أعلاه في نتوء مؤخرات الحوافر الخلفية شعر بلون أبيض. يطلق عليه اسم (المحجل) وهذا يعني أنه من النوع الجيد.

أما إذا كان للحصان أيضاً في نتوءات القوائم الأمامية شعر أبيض فهو مربع (المحجل). وهذا يعني أنه من النوع الجيد جداً.

٤ ـ وجود خطوط مستقيمة من الشعر في القائمتين الخلفيتين تتجه كل منهما باتجاه الآخر.

٥ ـ وجود خط مماثل لما ورد في الفقرة الرابعة نازل من مؤخرة البطن باتجاه القوائم الأمامية وهذا يسمى (الأزبك) وإذا كان لتلك الدابة خصلتين من الشعر ما بين القائمتين الأماميتين فهذا يدل على حسن الحظ.

٦ ـ يعتبر اللون الكستنائي هو اللون المفضل للحصان.

علامات الحصان الرديء

١ ـ وجود بقعة سوداء في الحنك. أو أن يكون الحنك أسود بالكامل.

٢ ـ وجود خطين من الشعر فوق البلعوم متجهين أحدهما باتجاه الآخر، فهذه من العلامات السيئة جداً وسيصاب الخيال بالموت حسداً.

٣ ـ وجود خصلتين من الشعر في الرقبة خلف الأذن، فهذه من علامات سوء الطالع وتدل على احتمال موت الخيال بطعنة من رمح.

٤ ـ وجود علامتين بيضاوين بما يشبه الجوارب على مقدمة القوائم الأمامية. فهذه أيضاً من علامات سوء الطالع. وأن ذلك الحصان سيتسبب لمالكه بالموت.

٥ ـ وجود قائمة بيضاء واحدة تدل على سوء الطالع.

٦ ـ وجود قائمة خلفية بيضاء أيضاً تدل على سوء الطالع.

وهكذا عند اختيار المركوبة المناسبة يجري اختيارها ضمن الشروط المذكورة.

الفصل الواحد والثلاثون

الغنم والماعز

١

الغنم

تسميات الأغنام في مناطق وسط وشمال شرق الجزيرة العربية.

- النعجة - الخروف أو الفحل - الرعية - البهم.

أسماء الأنواع المختلفة

- **النجدية**: ولها صوف طويل الشعر، تعود بأصولها إلى نجد. وهي غالباً ذات لون أسود مع وجه أبيض.

الهكرية: وهي من الأغنام التي تعيش في العراق بلون رمادي، أو أبيض.

- **عربية**: تعيش في الكويت ومنطقة الحسا، كما يربيها أفراد القبائل من المطير وعجمان، والعوازم أما ألوانها فهي غالباً اللون الأسود الفاحم.

- **النعيمية**: وهي الأغنام التي يربيها أفراد قبائل العنزة.

الحبصية: وهي التي تربى عند قبيلة قحطان، ولها حجم صغير إذا ما قورنت بالأنواع الأخرى، صوفها خشن وقصير.

مواسم الغنم

- **مواسم التزاوج**:، تبدأ في نهاية الربيع.
- **مدة الحمل**: خمسة أشهر.
- **موسم الولادات**: وهي الأشهر: تشرين الأول، تشرين الثاني، كانون الأول، كانون الثاني، شباط.

ـ **مواسم جز الصوف**: في شهري آذار ونيسان.

هذا ويحتفظ عادة بوجود الذكر من الغنم مع بقية القطيع طوال العام، ولا يتم عزله أبداً. ولمنع احتمال قيام تلك الذكور بتلقيح النعاج في المواسم غير الملائمة، يجري ربط قطعة قماش تثبَّت بأحكام على شكل فراشة حول الأعضاء التناسلية، وتعلق من الأسفل بالقرب من الأرض. وهناك طريقة أخرى، وهي أن يربط حبل حول الأعضاء التناسلية. لكن لعدة ساعات في اليوم.

هذا وإن كبشاً واحداً يكفي عادة لتلقيح مئة نعجة.

الأمراض التي تصيب الغنم

توجد ثلاثة من الأمراض المعروفة التي تصيب الغنم وهي:

أ ـ الطحال.

ب ـ أبو هرار.

جـ ـ الجدري.

أ ـ الطحال: يظهر على رأس الغنم المصاب أنه بحالة جيدة، وفجأة يظهر الدم في بول المصاب. ويموت الرأس المصاب بهذا المرض بعد ربع ساعة من تبول الدم، ويقولون إن هذا المرض هو نتيجة لالتهاب العضلة القلبية. والدابة المصابة تصاب بدوار وتسقط ميتة، ويأكل العرب الدابة المصابة بمرض الطحال، وعند فحص قلب الدابة المصابة يظهر عليه دم متجمد بلون أسود، وطبقاً لما يعتقده البدو فإن مرض الطحال غير معدٍ.

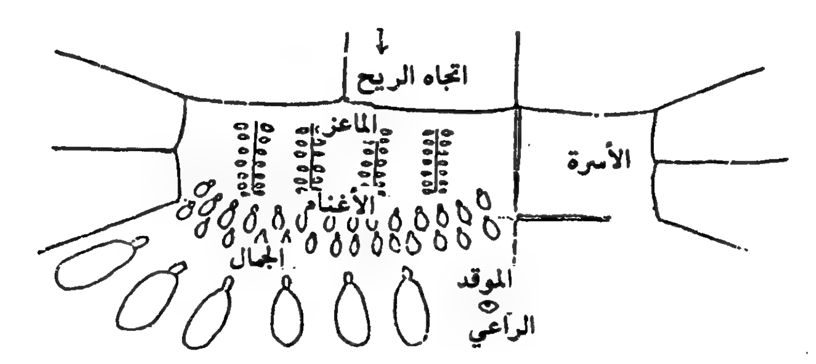
ب ـ أبو هرار: تظهر أعراض هذا المرض على الأقدام والفم، ويظهر على الدابة المصابة في البداية تصلب حول الركب فتعجز الدابة المصابة عن الحركة والمسير، ثم تبدأ بالضعف والهزال، وبعدها تصبح غير قادرة على الأكل، ويخرج الزبد من فمها. ويدوم المرض حوالي الشهر وينتهي عادة بالموت. ويعتقد البدو أن ليس لهذا المرض من علاج على الإطلاق، ويقولون أيضاً إنه مرض سريع العدوى. ولهذا فور ظهوره على إحدى الدواب، يجب عزل تلك الدابة المصابة بعيداً عن باقي القطيع، كما يجب عزل القطيع وإبعاده عن منطقة الرعي التي مرت بها الدابة المصابة. ويقولون إن السبب المباشر للموت هو فقدان شهية الدابة المصابة، وبالتالي الموت جوعاً وهزالاً. ويضيفون أنه من الأمراض المستوطنة في الصحراء، ويظهر كل عام على الدوام في مناطق مختلفة. هذا ويأكل البدو لحم الذبيحة المصابة، ويقومون

بذبح الدابة المصابة فور ظهور المرض عليها. ويذكرون إنه خلال سنة (١٩٣٢ ـ ١٩٣٣) اجتاح هذا الوباء مناطق واسعة من الكويت وتسبب بموت عشرات الآلاف من الأغنام لا سيما في منطقة حازم جنوب الكويت في المنطقة المحايدة.

جـ ـ **الجدري**: أعراضه هي نفس الأعراض التي تظهر على الإنسان عند إصابته بهذا المرض. إلا أن جدري الغنم غير معد للإنسان. وتظهر بثور الجدري في جميع أنحاء جسم الدابة المصابة، وفي بعض الحالات تشفى بعض الإصابات من هذا المرض، وبعض آخر ينتهي بالوفاة. وهو مرض سريع العدوى، وتتسبب إصابة واحدة في البداية بإصابة قطيع كامل، وما إن تتم مشاهدة الإصابة حتى يذبح البدوي تلك الدابة ويتناول لحمها.

حراسة الغنم

تساق قطعان الغنم عند حلول الظلام إلى قرب الخيمة لتبيت ليلتها ولحمايتها من هجمات الذئاب المفترسة، ومن البرد الصحراوي القارص، وذلك بتأمين وقاية كافية لها من هبات الرياح الباردة. وتزداد أهمية ذلك في فصل الشتاء حيث يشتد البرد



الشكل (٥٣) حراسة الأغنام

وتصل درجة الحرارة إلى القرب من الصفر في معظم الليالي. كما تكثر الذئاب في فصل الشتاء وتزداد ضراوة وشراسة. ولهذا يجري حماية الحملان بربطها داخل الخيمة من إحدى قوائمها، كما تربط من رقابها بحبل موتد بالأرض الشكل (٥٣) وتقوم كلاب الحراسة بجولات حول الخيمة ليلاً وهي لا تتوقف عن النباح ويزداد نباحها إذا شاهدت أحد الذئاب، أو أحست باقترابه، وقد يصدف أن تكون أعداد الذئاب المهاجمة كثيرة،

كما يحدث في مناطق عريفجان وشمالي الحسا، هذا وتعقل الإبل عادة لزيادة الحماية لقطيع الغنم حول القطيع بشكل تؤدي إلى تشكيل نوع من الزريبة، للمساهمة في منع اختراق الذئاب لخطوط الدفاع هذه والوصول إلى أهدافها، كما يقوم رعاة الغنم بإشعال النار ليلاً للمساهمة في منع اقتراب الذئاب، ويتناوبون الحراسة طوال الليل.

لكن على الرغم من كل هذه الاحتياطات فغالباً ما تتسلل الذئاب ليلاً وقد ازدادت شراسة وجوعاً في فصل الشتاء ما بين خطوط الدفاع هذه، غير عابئة أحياناً بكل تلك الاحتياطات المأخوذة، فتهاجم إحدى الماشية لا سيما من الغنم، وتنشب أنيابها في بلعومها ليسهل جرها إلى المكان الذي قد يؤمن الحماية لها. وغالباً ما تهاجم الذئاب على شكل مجموعات إذ يقوم ذئب آخر أو عدة ذئاب بمشاغلة كلاب الحراسة والمدافعين الآخرين، بينما يقوم المهاجم بأداء المهمة.

هذا ويقوم بعض البدو أحياناً بوضع قطعة خشبية حول عنق كل رأس من الغنم، ذلك أن الذئاب تهاجم ضحاياها دوماً من بلعومها، وبالتالي تعيق الخشبة مهمة الذئب. كما تسمح باللحاق بالذئب مع ضحيته، وإذا تم اللحاق به فيمكنهم إنقاذ تلك الضحية من قبل المطاردين قبل أن يجهز الذئب عليها.

وفي الحالات التي لا تتسع فيها خيمة واحدة لاستيعاب كافة الحملان، يجري ضم خيمة أخرى عادة ويساهم هذا في تخفيف الخسائر إلى حد كبير.

هذا ويقوم الرعاة من قبيلة العوازم أثناء موسم التوالد بتنظيم حراسة مشتركة، ويقولون إن تلك العادة قد اكتسبوها منذ عهد بعيد وقد أثبتت جدواها، خلال السنين الطويلة.

حليب الغنم واستعمالاته

يصنع من حليب الغنم، الروبة، واللبن، والأقط.

الروبة: لصنع الروبة، يسخن حليب الغنم إلى درجة حرارة قريبة من درجة حرارة الجسم، ثم يصب في وعاء خاص يسمى (بالشكوة)، وهو من جلد الحيوان، ويسمى أيضاً بالمخمر، ويغطى ببساط أو بأي شيء متوافر ليحافظ على درجة الحرارة أطول مدة ممكنة حتى يتخر اللبن، ويقتضي ذلك وسطياً حوالي أربع ساعات، وتتم عملية التخمر، أما في الحالة التي تصنع فيها الروبة بوعاء آخر كما يتم صنع اللبن، فلا بد من إضافة كمية من اللبن القديم لتتم عملية التخثر أو التخمر.

كما يجري صنع اللبن في البيوت بهدف تناوله مع الطعام، وهنا يحتاج لزمن وسطي من (٤ ـ ٥) ساعات في الليالي الباردة، ومن (١,٥ ـ ٢) في الأيام الدافئة.

اللبن: أما صنع اللبن المخصص للخضيض وصنع الزبدة، فيجري بتسخين الحليب إلى درجة حرارة بحدود (٤٠) درجة مئوية بطريقة مشابهة لما تم في صنع الروبة، وتطبق تقريباً نفس المبادىء العامة ثم يصب في (المنخة) المعلقة على منصب من ثلاث قوائم بعد إضافة الماء بحدود ثلث حجم اللبن، ويخض لمدة ساعتين. ويقول البدو إن الخضيض يجب أن يبدأ باكراً حتى يتم تشكل الزبدة وإلا فلن تتشكل الزبدة. وتتشكل الزبدة على شكل قطع صغيرة متفرقة تجمع إلى بعضها بعضاً.

الأقط: أما صنع الأقط، فيتم عن طريق تجفيف اللبن المتبقي بعد رفع الزبدة، ويسمى بالشنينة، ويترك في أكياس من القماش الأبيض حتى يصل إلى كثافة معينة، وفي بعض الأحيان يجري غليه على النار أو نشره في الشمس، لتتم عملية التبخر وهنا يعمل أقراصاً بحجم الكف المضمومة وتترك في الشمس حتى تجف تماماً، وتصبح صلبة، ويحتفظ بها كمؤونة. وعند استخدامها من جديد يجري إذابتها بالماء للحصول على اللبن بفركها بقوة.

هذا كما يباع الأقط في أسواق الكويت وفي جميع مدن نجد. ويستخدمه البدو أثناء تنقلهم بالصحراء في فصل الصيف، وفي الأوقات التي تتوقف جميع مواشيهم عن إعطاء الحليب، من الغنم والماعز والإبل.

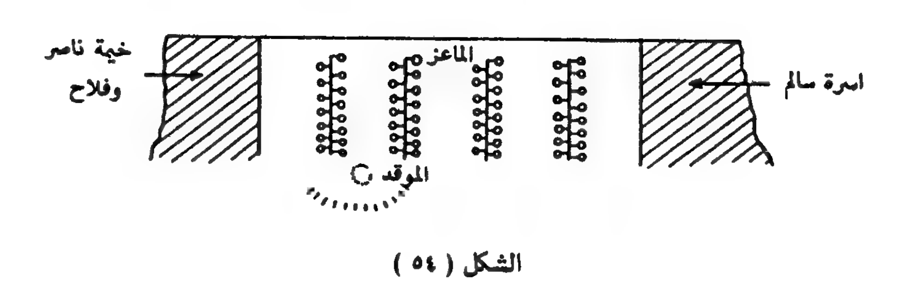
تقاليد الرعيان

من الأمور المدهشة حقاً بشكل يدعو للإعجاب عند البدو، أن يعرف كل راعٍ من رعاة الغنم قطيعه، إذ يعرف فيه كل نعجة. هذا وقد لاحظت أيضاً لدى الرعاة في قبيلة العوازم أن كل راعٍ يعرف بشكل جيد كل رأس غنم في قطيعه ولكل رأس اسم يطلقه عليه ويناديه فيه، ويعطى هذا الاسم منذ الولادة عادة، يطلقه الراعي على أفراد قطيعه، ويبقى حتى الوفاة، ويناديِ الراعي تلك النعاج بأسمائها، كما تعرف كل نعجة اسمها جيداً، مثلها مثل بني الإنسان تماماً، وتستجيب إذا ما دعاها أحد باسمها بالثغاء فوراً ولا يختلط عليها الأمر أبداً.

ولقد قمت بتجربة لأتأكد مما قيل لي، وما كنت أظنه مبالغاً فيه. إذ قمت بتاريخ ١٤/كانون الثاني/١٩٣٤، وانتحيت جانباً دون أن يشعر بي أحد، لأراقب كيف

تجري الأمور ولأتأكد مما قيل لي. وكان الوقت موعد عودة قطيع الغنم التابع لسالم المزين، وكانت الحملان قد عادت قبل ذلك بقليل، وكانت أعمارها تتراوح بين الشهرين والثلاثة، وقد قضت النهار في مرعى يبعد ربع ميل عن المخيم برعاية مرزوق العبد الأسود الصغير، وحمود بن منيرة، ويجري عادة إرسال الحملان في مثل هذا العمر لتعلم الرعي، ولتتريض قليلاً. هذا ولم يكن قد هطل المطر بعد في تلك السنة، وكانت تلك الحملان تتغذى ببعض أغصان العرفج اليابس إذ لم ينبت العشب بعد. وكانت الأرض شبه قاحلة.

وقد عادت الحملان بعد غروب الشمس مباشرة وتم ربطها في خيمتها كما جرت العادة في كل ليلة، إذ لكل حبل أنشوطة خاصة به تربط إلى حبل طويل مصنوع من شعر الماعز. (أنظر الشكل ـ ٥٤ ـ).



الشكل (٥٤)

وحوالي الساعة السادسة والثلاثين دقيقة مساءً. أي بعد ساعة من غروب الشمس، قدمت النعاج إلى المخيم وكانت برعاية ناصر وفلاح، وكلاهما راعيان من قبيلة العوازم، وكان قد خيم الظلام، ولم يكن قد ظهر القمر، وما إن وصلا على بعد حوالي خمسين ياردة حتى توقفا مع النعاج من الأمهات، وقام الرعاة أيضاً بتفحص الحملان المربوطة، وتأكدا من مكان ربط كل منها. وأن كل شيء على ما يرام، ثم جرى تقريب الأمهات بشكل أكثر في مواجهة الخيمة الكبيرة، وأصبح الظلام يخيم على المكان باستثناء نار صغيرة قريبة كان سالم وضويحي قد أشعلاها، وكانا يحضران عليها القهوة المسائية، أما باقي المكان فكان يلفه الظلام. كان عدد الأمهات (٥١ منها ٤٢ نعجة و ٩ من الماعز)، وقد بقيت تلك الأمهات تحت إشراف فلاح وسالم، بينما قام ناصر بمناداتها بأسمائها فتأتي النعجة، وكان ناصر بنفس الوقت يفك أنشوطة ذلك الحمل الذي نودي على أمه، ويسلم ذلك الحمل لها، إذ تقوم عادة بشمه والتأكد من أنه وليدها. أما ناصر فكان يتعرف على كل أم وكل حمل على الرغم من الظلام

الدامس. إذ كان يعرف كل نعجة ويعرف كل حمل هذا وقد صادف أن أخطأ في حالة واحدة، وقد جرت تلك الخطيئة بالصدفة، وهي لا تتكرر كثيراً. وهكذا جرت تلك المشاهد العجيبة وسط ضجيج من الثغاء والصراخ.

أما الأمهات فكانت تعرف حملانها بطريقة الشم، وقد جربنا مرة وغطينا وجه إحدى النعاج، وقدمنا لها حملاً غير وليدها، وما إن اقترب منها حتى أخذت تشمه. ومرت لحظات، ثم رفضت أن يقترب منها. أما الحملان فكل ما يهمها هو أن تملأ بطونها، وغالباً ما تخطىء بالتعرف على أمهاتها. ويقول الرعاة من قبيلة العوازم إنهم يتعرفون على أغنامهم حتى في الظلام الدامس وذلك عن طريق صوتها، ولمسها، ويضيف هؤلاء الرعاة، إن الرعاة في قبيلة العوازم وبين البدو في الكويت ونجد من القبائل الأخرى، يستطيعون التعرف على أغنامهم بسهولة حتى في الظلام، وإن هذه الصفات لا يتمتع بها الرعاة من قبائل البدو في العراق أو المنتفك.

أسماء بعض الأغنام حسب أعراف قبيلة العوازم

الحمرا: ذات اللون الأحمر.
السودا: ذات اللون الأسود.
الحديد: ويطلق على النعجة كثيرة الشعر.
الشاهد: ذات الأكتاف البيضاء.
الكحلة: ذات الصوف المائل للسواد.
الوضحة: ذات اللون الودعي، أي بلون الودع، اللون الأبيض المائل للصفرة.

وتفقد الأغنام في فصل الصيف كثيراً من سمنتها بسبب تعرضها للحرارة الشديدة،وكذلك لعدم أكلها ما يكفي حاجتها وتؤثر الشمس كثيراً على رؤوسها أكثر من التأثير على أجسامها، إذ أن صوفها يقوم بحمايتها صيفاً وشتاء.

وتفحص الأغنام ظاهرياً بفحص إليتها باليد برفعها للأعلى. وبمقدار ما تكون وازنة تكون من النوع الجيد. أما ما يخص سقاية الأغنام فتتم طبقاً للشروط الجوية، إذ تزداد حاجة الأغنام للمياه بمقدار ما ترتفع حرارة الجو، وتخف بمقدار انخفاض الحرارة مثلها مثل بقية الحيوانات في الصحراء.

ـ الماعز ـ

أسماء الماعز

- ـ السخلة.
- ـ التيس.
- ـ العنزة.

ـ أنواع الماعز في الكويت وشمال شرق شبه الجزيرة العربية ـ

ـ **بربرية**: وهي بحجم صغير، منها ما هو بلون أبيض، ومنها الأسود، وعموماً يكون شعـر ذات اللون الأسود قصيراً، ولها آذان طويلة، وتعطي كميات جيدة من الحليب.

ـ **عارضية**: من ذوات الشعر الطويل، وهي دوماً سوداء اللون، ولها آذان طويلة.

ـ **شترا**: تمتاز بقصر آذانها.

أمراض الماعز

يعرف نوعان فقط من الأمراض التي تصيب الماعز. وهي :**أبو رمح، والجرة**.

ـ **أبو رمح**: وهو مرض يصيب الأعضاء الداخلية، ومن المحتمل أنه يصيب الرئتين. أما أعراضه فهي: تتمدد العنزةالمصابة، وترتفع حرارتها، ويظهر عليها الإعياء فلا تستطيع التحرك، وتئن كأنها تعاني من آلام شديدة، والعلاج الوحيد هو أن تذبح إحدى المصابات بذلك لعرض، وتقطع رئتاها، وتطمر بقية العنزة المصابة تجنباً لإصابة غيرها بالعدوى. كما تطمر الرئتان لمدة ساعة، ثم يجري إخراجها وتقطيعها إلى قطع صغيرة وتخلط مع بعض الأعشاب مثل: (الفز، والعر، والصبير والجليط)، ولا يوجد في بقية شبه الجزيرة العربية ويتم جرح أذن عنزة أخرى مصابة وذلك في طرفها العلوي ـ حتى يسيل الدم ـ ويجري فرك الجرح بالخليط من الدواء الموصوف، كما يجري أحياناً بحشو ذلك الجرح بتلك الخليطة من الأعشاب وتربط جيداً لمدة ساعة من الزمن. وبالفعل فإن ذلك الدواء يعطي نتائج جيدة. هذا وإن ذلك المرض معدٍ جداً.

ويقال إن ظهور ذلك المرض يتكرر كل سنتين أو ثلاث سنوات.

ـ **الجرة**: وهو من الأمراض الخبيثة السامة. ويشبه الجرب. والعلاج هو أن

يقص شعر تلك العنزة المصابة ثم يطلى الجسم بمرهم مصنوع من البارود والزبدة المذوبة. ويجب تكرار هذه العملية ثلاث مرات حتى يكون الدواء ناجعاً. والجرب مرض لا يصيب الغنم أو الكلاب ولا الجمال أو الخيول.

ملاحظات عامة

تربى الماعز في الصحراء عموماً ومن أجل حليبها وشعرها. ويفضل البدو عموماً تربية الأغنام على تربية الماعز. ولكن البعض منهم ولا سيما الذين يتمتعون بأحوال مادية جيدة، فإنهم يربون الماعز بالدرجة الأولى للاستفادة من شعرها واستخدامه في صنع الخيام.

الأسماء التي تطلق على الماعز ما بين قبيلة العوازم

- **الدوية**: لا معنى لها.
- **الشعل**: صفراء اللون.
- **الرقطة**: ذات جلد منقط بألوان مختلفة.
- **الرخيم**: ذات الرأس الأبيض.
- **الدغيم**: ذات الرأس الأسود.
- **الطويلة**: الطويلة.
- **الدجاجة**: النحيفة.
- **الحسنة**: البيضاء الطويلة.

الماعز في المدن: تحتفظ كل مدينة من مدن شبه الجزيرة العربية بأعداد كبيرة من الماعز، إذ أن الماعز بشكل عام تحتاج إلى مراعٍ أقل، وتعطي كميات من الحليب أكثر من الغنم. وإنه لمن المناظر المألوفة أن يشاهدُ الإنسان كل صباح قطعان الماعز وهي تنطلق من مدينة الكويت مع طلوع الشمس وتعود في المساء بعد غروبها.

هذا وإن الكثير من سكان المدن يحتفظون عادة بعنزتين أو ثلاث في بيوتهم للاستفادة من حليبها.

وفي الصباح الباكر تسوق النسوة ما لديها من الماعز مع طلوع الشمس ويتم تجمعها في إحدى ساحات المدن، ويتجمع كل قطيع بحدود (٢٠٠) رأس من الماعز، ويرافقها راعيها إلى مراعٍ قريبة، لا تبتعد عادة أكثر من «٥ أو ١٠» أميال عن المدينة. وفي المساء يعود ذلك الراعي مع غروب الشمس. وقد لا يتم استقبال عودة

الراعي في المساء، ولا غرابة في هذه الحال أن تتوجه العنزات بمفردها إلى بيوت أصحابها. ويستقبلها أحياناً بعض الأطفال لمرافقتها حتى دارهم. وما إن تعود حتى تكون سيدة البيت بانتظارها وتقوم بحلبها ثم تقدم لها بعض العلف. وعموماً تربى في المدن أنواع الماعز المسماة بالبربرية. وهي من الأنواع التي تعطي كميات وافرة من الحليب.

وهذا المنظر مألوف تماماً في مدن شبه الجزيرة العربية.

ويجرى دفع أجرة الراعي سنوياً عن كل رأس من الماعز، وتدفع أحياناً أخرى بالشهر، وفي بعض المرات كل ثلاثة أشهر ويعرف الراعي هنا باسم الشاوي. وتعطى في المساء قليل من العلف المؤلف من التبن (قش) مع قليل من الشعير.

الفصل الثاني والثلاثون

الإبل
أنواعها ومواصفاتها

يمكن القول بصورة عامة إن الجمال التي تربى عند قبائل أقصى شمال شبه الجزيرة العربية تمتاز بجسم أضخم، وحجم أكبر من تلك التي تربى في المناطق الجنوبية. وقد يعود السبب بشكل رئيس إلى الظروف المناخية بالدرجة الأولى، أكثر مما يتعلق بأنواع الأعشاب التي تتناولها.

من جهة أخرى ومما لا شك فيه، أن أجمل الجمال بالمظهر والشكل هي تلك التي تربى في الجزء الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، ولا سيما في عمان والخليج (المتصالح) [دولة الامارات العربية المتحدة] وتعرف هذه الإبل عموماً باسم العمانية. كما أن أحسن أنواع العمانية هي تلك المسماة (الباطنية).

وتحاول عادة كل قبيلة أن تحصل على أحسن أنواع الإبل بالتزاوج، أو بتربية الأنواع الأفضل، وإن لكل قبيلة من الأنواع ما تفضلها عن غيرها وتعتقد أنها أحسن من غيرها. فالجمال المفضلة لدى الضفير والتي يملكونها هي من التي تمتاز بلونها الأبيض. أما الرولة (العنزة) فتمتاز إبلهم باللون الأبيض أيضاً. أما الإبل التي تربى لدى عتيبة الكبرى فتمتاز بلونها الأسود الداكن. وتفضل قبائل المطير والعوازم وعجمان تلك التي تمتاز بلونها المائل للحمرة، ويفضل الدوشان (مطير) الأنواع السوداء الداكنة. أما مرة وقحطان مثلهم مثل عتيبة فيفضلون الألوان القاتمة، هذا ويقال أيضاً إن الألوان البيضاء تمتاز بها الإبل التي تعيش في الشمال وكذلك جميع الألوان غير الداكنة. أما في الجنوب فتميل ألوانها إلى السواد وتكون عموماً قاتمة.

ويقال أيضاً إن أحسن الجمال التي تربى في شبه الجزيرة هي تلك التي تربى

في الحسا. ويقال إن السبب يعود إلى أنواع الأعشاب التي تتناولها الإبل هناك ولا سيما العرفج.

كما يقال إن أحسن الأنواع في الحسا هي تلك التي تربى في قبيلة العوازم، ولا سيما إبل البدو الذين يتجولون بقطعانهم عادة ما بين الكويت وعينين (جبيل) على شاطىء الحسا.

الجمال المعدة للركوب

من المبادىء العامة أن ما يستخدم للركوب هي الإنثى من الإبل أو النوق. وأفضلها ما كانت عمانية، وأجملها ما يسمى الباطنية، وتمتاز برأسها الصغير، وبجبهتها العريضة، وأنفين صغيرين، وأذنين طويلتين نسبياً، وعيون واسعة. وهي لطيفة المعشر جداً وذكية.

وتمتاز بقوائمها الرفيعة، وتناسق جسمها بدقة متناهية، وتشبه حركتها حركة الغزلان وتمتاز بسرعتها الفائقة. هذا وتستطيع العمانية أن تسير بوتيرة تصل إلى (١٤) ميلاً في الساعة، دون أن تغير من سرعتها ولمسافات طويلة، وتبقى على الدوام رافعة الرأس ممدودة العنق. كما وتمتاز بمحافظتها على قوتها في المسير في كل الظروف والأحوال.

وقد ذكر لي الشيخ نايف بن حميد من قبيلة عتيبة أنه عندما هرب من سجن ابن سعود في الرياض عام (١٩٢٥) اجتاز المسافة، من الرياض وحتى الناصرية في العراق، بمدة ثمانية أيام، وكان يركب أحسن الجمال من التي تربيها قبيلته، وتبلغ تلك المسافة التي قطعها (٨٠٠) ميل.

كما أعلمني صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن سعود أنه في عام (١٩١٥) عندما قامت القوات الإنجليزية بضرب القوات التركية في معركة الشعيبة بالقرب من البصرة، كان يتلقى أنباء المعارك تباعاً من قبل أحد مراسليه الذي كان ينطلق من الزبير، ليقدم له تقريراً عن تلك المعارك وكان يسمى باني بن زيد، وكان يقطع هذه المسافة من الزبير إلى الرياض البالغة (٥٣٠) ميلاً بخمسة أيام ونصف.

وقد شاهدت في إحدى المرات بنفسي شاباً عجمانياً شجاعاً، كان يتسابق مع القطار المنطلق من بغداد، وقد تم السباق مسافة أربعة أميال بالقرب من تلال رطوى جنوب بحيرة حمر في العراق. وقد احتفظ ذلك الشاب بمسايرة القطار، إذ كان يعدو

بذلوله بالقرب من وسط القطار، وذلك في عام (١٩١٨). وكانت تعليمات المواصلات في ذلك الوقت لا تسمح بتجاوز سرعة القطار (٣٠) ميلاً في الساعة.

تسميات القطعان

للإبل أسماء مختلفة، كأن يقال قطعان الإبل، أو قطعان الجمال وهناك أيضاً من يقول (الدبش) و (البعير) ويسميها البدو (بعران) ويقولون أيضاً (المواشي) وتطلق هذه التسمية عندما تكون القطعان في وضع الرحيل أو الرعي. أما تسمية الفحل: فتطلق فقط على الذكر المخصص لتلقيح النوق.

ومن التصورات الخاطئة بالنسبة للغربيين، أن يذهب خيال البعض منهم فيتصور أن الإبل تتجول مربوطة إلى بعضها البعض، رأساً إلى ذنب. ويقوده هذا الخيال فيصفها كالثعبان تمتد من مدينة إلى أخرى في الصحراء. وهذا بالطبع تصور خاطيء، إذ في الحقيقة تعيش الإبل على هواها. ولا تقيد على الإطلاق في شبه الجزيرة العربية حيث يعيش البدو الخلص الحقيقيون، الذين يحافظون على تقاليد أجدادهم من أقدم العصور، فترى قطعان الإبل منتشرة في كل مكان من الصحراء ترعى حرة طليقة على هواها، ولا غرابة أن ترى مئات الآلاف منها منتشرة على مساحات واسعة، تبحث عن رعيها، وتتجول من منطقة لأخرى. هذا وتربى الجمال عادة للاستفادة من حليبها ومن لحمها وفي بعض الحالات تباع للاستفادة من أثمانها لسد بعض حاجات الحياة البدوية على الرغم من بساطتها.

أما قطيع الإبل، فيتكون عموماً من أنثى الجمال أو النوق، ويحتفظ ببعض الذكور للقيام بالمهمات التي تتطلبها حياة البدو، مثل حمل الخيام، والأدوات البسيطة التي تحتاجها حياة البداوة. كما يحتفظ ببعض الفحول من الذكور لأغراض التلقيح والتزاوج، إذ يحتفظ بفحل واحد لكل مئة ناقة. هذا ويحتفظ بمثل تلك الفحول مربوطة بشكل جيد بالقرب من الخيمة خلال أشهر البرد، «كانون الأول، كانون الثاني» حتى يبلغ الهيجان الجنسي عند فحولة الإبل حده الأقصى .أما في فصل الصيف حين تقل أعشاب المرعى تنتهي عموماً فترة التلقيح. وتطلق عندها الفحول لتتجول مع بقية القطيع.

التناسل عند الإبل

يستطيع فحل جيد في موسم جيِّد أن يلقح قريباً من مئة ناقة.

أما عملية التلقيح عند الإبل فتتم بأن يقوم الفحل بعض الأنثى من عنقها،

فيجبرها على الركوع، ثم يتمدد فوقها بشكل تكون فيه قائمتاه الأماميتان حول كتفي الناقة ويمنع حركتها.

هذا ولا يجد البدو غضاضة في مراقبة تلك الأعمال، رجالاً أو نساءً، كباراً أو صغاراً.

سلالات الإبل المشهورة

١ ـ **العمانية**: وتعود في أصولها إلى ساحل عمان والخليج (المتصالح) [دولة الامارات العربية المتحدة حالياً] مع أنها توجد اليوم على طول السواحل الشرقية لشبه الجزيرة العربية، من الكويت حتى عمان. وعيب الإبل العمانية أنها لا تستطيع العمل في المناطق ذات الحصى أو الصخرية، لأن الخف عندها من النوع الطري.

٢ ـ **الحرة**: تربى في المناطق التي تنتشر فيها قبائل شمر وعنزة، ويقال إن أصولها تعود إلى قبيلة الشرارات، وتعتبر من أحسن السلالات في أعمال الصيف، وفي المناطق الصخرية، ذلك أن خفوفها من النوع القاسي وتستطيع الترحال طويلاً بدون ماء. ويقال ويعتقد أنه لا يزال للآن تتجول في شمال غرب شبه الجزيرة العربية سلالات من الإبل الوحشية، وأن فحول تلك الإبل تلقح أنثى هذه السلالة (حيث تترك معقولة طوال الليل... إلخ) ونتيجة تلك الليلة تأتي الحرة.

٣ ـ **الباطنية**: تربى في الأصل على ساحل الباطن العماني، وهي من الأنواع التي تمتاز بعلو القامة، وكانت الباطنية تكلف قبل عام (١٩١٤) أكثر من (١٠٠٠) ريال. ثم انخفض سعرها، إذ تباع هذه الأيام بـ (٤٠٠) ريال فقط، وقليل جداً من العرب العاديين يملكون الباطنية لارتفاع أثمانها، وعموماً يتبادلها الحكام والأمراء والشيوخ هدايا فيما بينهم.

٤ ـ **الأرضية**: وتربى في المناطق الجنوبية ـ الغربية، وأواسط شبه الجزيرة العربية، في مناطق (خرمة وتربة) ويقال إنها من الأنواع الجيدة.

٥ ـ **عطية**: وتربى في مناطق وسط وشمال ـ شرق شبه الجزيرة العربية، ولكنها لا تمتاز بقوام جيد.

هذا وتعتبر الإبل ذات اللون الأبيض من النوع الجيد، ويعرف القطيع الذي يغلب فيه الإبل من اللون الأبيض (بالمغاتير). أما الواحدة فتسمى بالوضحة. وتطلق الأسماء التالية على الجمال. فيقال:

- **جيش**: يطلق على الجمال التي يستخدمها المتحاربون.
- **راحلة**: المستخدمة في نقل الحمولات من مختلف الأنواع.
- **ملحة**: الجمال من اللون الأسود.
- **المجهم**: قطيع الجمال المشكل في أكثريته من الإبل ذوات اللون الأسود.
- **الشهلة**: ويطلق على القطيع من الإبل البنية اللون.
- **القاعود**: ابن الناقة، بعد عام من الولادة.
- **البكرة**: ابنة الناقة.
- **الحوار**: ويطلق على وليد الإبل منذ الولادة حتى نهاية السنة الأولى من العمر.
- **المفرود**: ويطلق على ابن الناقة بعد فترة الحوار، وحتى نهاية السنة الثانية من العمر.
- **الحدز**: ويطلق على من بلغ من العمر ابتداءً من نهاية السنة الثانية، حتى نهاية السنة الثالثة.
- **اللقي**: ويطلق على من بلغ الثالثة حتى الرابعة.
- **الجذع**: من بلغ سن الرابعة حتى نهاية الخامسة.
- **الجنبية أو الربعة**: من بلغ سن الخامسة حتى نهاية السادسة.
- **السدس**: من نهاية السنة السادسة، حتى نهاية السابعة.
- **الناقة**: بعد بلوغ سن السابعة.
- **الهرش**: بعد سن العشرين للذكور.
- **فاطر**: بعد سن العشرين للإناث.

ملاحظة: مدة الحمل عند الإبل، اثني عشر شهراً.

ورود الإبل للماء

في فصل الشتاء وفي ظروف الرعي الجيدة، لا تورد الإبل إطلاقاً. وما إن تبدأ الحرارة بالارتفاع حتى يبدأ معها ورود الإبل للماء، في البداية كل سبعة إلى تسعة أيام. وتنقص هذه المدة مع ارتفاع درجة الحرارة. وتصل في فصل الصيف حين تبلغ درجة الحرارة ذروتها إلى يومين عندما تصل درجة الحرارة في الظل إلى ١١٠ - ١٢٥ فهرنهايت ويتوقف ذلك على إمكانية ورود الماء، فهذه هي الشروط العادية في الظروف الملائمة. وتورد الإبل أولاً ثم يأتي دور قطعان الغنم. وهذه الأخيرة

لا تتحمل العطش كما تتحمله قطعان الإبل. فهي لا تستطيع البقاء دون ماء أكثر من أربعة أيام في فصل الشتاء.

وتدعى عملية ذهاب الإبل لآبار المياه للشرب (بالورود أو ورود الماء) ويجري سحب الماء من الآبار باستخدام أوعية خاصة من الجلد أو الخشب تسمى بالدلاء. وتربط الدلاء هذه أو الدلو منها بحبال من المرس، يختلف طوله بحسب عمق البئر. وترفع المياه إما بالشد مباشرة أو باستخدام بكرة منصوبة على منصب خشبي ثلاثي القوائم. ثم تصب المياه المرفوعة في وعاء كبير من الجلد أو الخشب، يسمى بالحوض. ويرتفع هذا الحوض قليلاً عن سطح الأرض، حتى تتمكن الإبل من الورود بسهولة ويسر.

تمليح الإبل

للحفاظ على الإبل في ظروف صحية حسنة، لا بد لها من تناولها نوع من النبات يسمى (الحمض) يتألف من شجيرات صغيرة تنبت في الصحراء، وتسمى تلك العملية بالتمليح، إذ يحتوي النبات على كميات كبيرة من الملح، ويجب ألا تزيد أوقات التمليح عن عشرة أيام. وفي الحالة التي لا تتوافر فيها مثل تلك النباتات تقدم للإبل حفنة من الملح لكل منها تلتهمها مباشرة من اليد.•

هذا ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن القوافل في شبه الجزيرة العربية، مثلاً القوافل المنطلقة من الكويت باتجاه القصيم، وكذلك تلك المتجهة من القصيم إلى نجد لا تربط فيها الإبل رأساً إلى ذنب، كما يتصور الأوروبيون، بل تتحرك على شكل خليط، وتقوم بالرعي أثناء تحركها، لكن بنفس الوقت تسير مع بعضها دون انفصال على شكل مجموعة.

وعندما ترد الإبل الماء، يقفز أحد الرعاة على ظهر إحداها ويطلق صيحات، سرعان ما تفهمها الإبل فتتقاطر وراءه دون أي عناء، ويتابع الراعي هذا إطلاق الصيحات، وهي بنفس الوقت تتبع ذلك المنادي.

العناية بالإبل

الإبل من الحيوانات شديدة الحساسية، وتتطلب اهتماماً وعناية.

فإذا ما طبقت تلك الشروط الضرورية كالإطعام والتمليح، سريعاً ما ينمو سنامها ويمتلىء بالشحم الذي يعتبر مخزناً متنقلاً لمؤونة الجمال يحتفظ به كاحتياط للأيام

العصبية. أما إذا صغر ذلك السنام إلى حد ظاهر فهذا يعني أن صاحبه ليس في شروط مناسبة، وبكلمة أخرى فإن سنام الجمل هو عبارة عن مخزن مؤونة كما هو الأمر بالنسبة للإلية بالنسبة للغنم. كما أن الإلية والسنام تعطيان انطباعاً عن صحة وحالة أصحابها.

يضاف إلى ذلك أن الإبل الجيدة لا تحتاج إلى حماية من البرد في الليالي الباردة، أما إذا كان السنام صغيراً فلا بد من وضع غطاء (جلال) في مثل هذه الليالي. ويتكون هذا الغطاء (الجلال) من قطعة من الخيش، أو أية حاجة بالية لم يعد بالإمكان استعمالها كالبسط أو اللحف وما إلى ذلك، ويكون لها في وسطها فتحة يدخل فيه السنام، ثم يربط ذلك (الجلال) إلى بطن حامله كيلا يقع.

أما في الأيام الباردة جداً، وعندما تهب الرياح القوية، فعندها لا بد من إحضار الإبل إلى القرب من الخيمة، خلال ساعات الليل. ثم تجري إناختها في مواجهة مدخل الخيمة بشكل لا تكون رؤوسها ورقابها داخل الخيمة، وهذه العملية تمنح الإبل الحماية الكافية في أيام الصقيع.

أما في الأيام الحارة في فصل الصيف، فيمكن ترك بعض الإبل حرة طليقة للرعي.

هذا ويجمع روث الجمال عادة ويجري تجفيفه في الشمس لاستخدامه وقوداً (جلة) يصنع عليها القهوة وله استخدامات أخرى في حياة البدو، لا سيما في الحالات والظروف التي لا يتوافر فيها الحطب.

غريزة الحنين عند الإبل

تعتبر غريزة الحنين للأصدقاء عند الإبل من الغرائز النامية، إذ تسيطر عليها ولا غرابة أن ترى بعضاً من الناس وقد جاءوا لبيع أحدها، ورافقوه بعدد آخر قد يزيد عن العشرة، وما إن يتم بيع ذلك المنوي بيعه حتى يغادرون على الفور متسللين، محاولين عدم السماح لذلك المباع أن يحس بنواياهم ويعودون مع بقية الإبل التي أحضروها معهم، حتى لا يشعر بالحنين الذي لا بديل عنه سوى العودة إلى مضاربهم التي تبعد مسافة لا تقل عن (٣٠) ميلاً عن المدينة في أغلب الأحيان. وتظهر هذه الغريزة لدى الإبل الصغيرة السن، التي لم تعتَدْ على مغادرة الديار التي عاشت فيها مع بقية القطيع منذ ولادتها، ولم تألف بعد الأماكن الأخرى.

والوسيلة الوحيدة للتغلب على هذه الغريزة، غريزة الحنين للديار والسيطرة عليها

هي تقديم الطعام والماء، ولا سيما الماء، وبهذه الوسيلة يمكن التغلب على غريزة الحنين لدى الإبل.

وقد روى لي مرة زنيفر بن حويلة ـ من قبيلة عجمان فخذ المحفوض ـ ومحمد بن حجاج ـ وهو أيضاً عجماني من فخذ السليمان ـ كيف أن الجمال تستطيع العودة إلى الأماكن التي عاشت فيها، وذكروا أن غريزة الحنين لدى الجمال هي أقوى من جميع الحيوانات الأخرى مهما بعدت المسافات. وقد سمعت قصصاً متعددة حول هذا الموضوع، كانت تحكي كلها كيف استطاعت بعض الإبل العودة إلى الأماكن التي عاشت فيها.

طعام الإبل

يعتبر عشب «النصي» الغذاء الرئيس لقطعان الإبل، وكذلك (العرفج) أما في فصل الربيع وخلال السنوات الماطرة حين تنبت الأعشاب بأشكال مختلفة فتعتبر جميعها من الأطعمة الممتازة لقطعان الإبل. كما أن الإبل التي تعيش على أطراف الفرات، حيث تنبت نباتات شوكية تسمى (العاقول) تلتهمها الجمال بشهية على الرغم من شوكها، لكن هذا النوع لا يسر كثيراً الجمال التي تعيش في الصحراء.

أما غذاء الجمال التي تحتوي على كميات من الملح فهي (الرمث، الضمران، الارطا، العجروم، والغفرف) وهي تنمو جميعاً على شكل شجيرات صحراوية. وكلها تعرف بالاسم العام (الحمض).

هذا كما أن الجمال تعشق كثيراً أكل التمر، وتعطى الجمال التي ستكلف بمهمات شاقة حبات التمر الممزوجة بالحليب.

لحم الإبل

يعتبر لحم الجمال من الأغذية الرئيسة لدى البدو، ويشبه إلى حد بعيد لحم البقر في مذاقه وقيمته الغذائية، ويأكله البدو بكثرة، حتى كأنه الطعام الرئيس لهم، لا سيما خلال الأشهر التي تقل فيها أسباب المعيشة الأخرى، مثل شهري تشرين الثاني وكانون الأول، وعندما تكون حالة الأغنام في ظروف سيئة لقلّة أسباب معيشتها. كما أن لحم الجمال يعتبر مادة جيدة لتأمين الحرارة اللازمة للبدو في الأيام الباردة.

وغالباً ما يتم ذبح الجمال في الأعياد الدينية وفي بعض المناسبات الخاصة، هذا ويعتبر العرب أن لحم السنام أطيب أجزاء لحم الجمل.

أما حليب الإبل فيشربه الجميع في جميع أطراف شبه الجزيرة العربية، وهو غذاء جيد جداً، إلا أنه لا يحتوي على المواد الدسمة. ولهذا لا يصلح لاستخدام الزبدة لعدم احتوائه لها، ويسبب الإسهال قليلاً، لا سيما عند شربه في المرات الأولى، وعلى الأوروبيين أن يحذروا كثيراً من شربه، إذ يجب أن يتناولوه بحذر شديد. وأن لا يطلقوا لأنفسهم العنان حباً بتقليد البدو.

التجهيزات الخاصة للسفر على ظهور الإبل

تشمل التجهيزات الرئيسة اللازمة للسفر على ظهور الجمال:

- **السرج الخاص بالإبل** (الحداجة) بقربوصين أمامي وخلفي.

- **الأكياس العريضة** (الخرج) التي تعلق عادة على جانبي الجمل، وهي من النوع المزود بشرابات صوفية للزينة.

- **الوزرة** من الجلد المزينة، التي تغطي صدر الذلول، وتعلق في مقدمة الحداجة، وتتدلى إلى الأسفل، وتنتشر على الجانبين من رقبة الذلول، حتى الركبتين.

- **المزودة الخاصة** بحمل البارودة.
- **العصاة أو القضيب** لركاب الجمال.
- **الكيس الجلدي** لحمل الزوادة من التمر.
- **كيس يحمل** فيه قليل من الأقط.
- **كيس لحمل** قليل من حبات الهيل، وحبات البن... إلخ.

- **أما الذخيرة الخاصة** بسلاحه فتحمل في نطاق خاص ولا تترك عادة إذ تستخدم كنوع من الحزام. (انظر الأشكال ٥ و٦ و١٧ و١٩ و٢٠ و٢٢ من ص ٧١-٧٧).

سرعة السير عند الإبل

تبلغ سرعة المسير العادية للذلول ٤ أميال في الساعة. كما تبلغ ٦ أميال في الساعة ما بين المشي والسير خبباً، و٨ أميال في الخبب، و١٣ ميلاً في الساعة في السير السريع لمسافة قصيرة، و١٠ أميال في الساعة في السير السريع لمسافات طويلة في المراحل التي تصل إلى ١٠٠ ميل في اليوم الواحد، أما سرعة الإبل في قافلة محملة فتصل إلى ٣ أميال في الساعة.

يقول ابن سعود إنه اجتاز المسافة ما بين عقير والهفوف والبالغة ٦٠ ميلاً بـ ٥ ساعات. كما ويتم اجتياز المسافة ما بين الكويت والرياض والبالغة ٥٠٠ ميلٍ بالنسبة للمسافرين العاديين بـ ١٠ أيام من السفر المتواصل.

هذا ويتم السفر نهاراً في الأيام الباردة كما هي الحال في فصل الشتاء. أما في الصيف فيتم السفر ليلاً لاتقاء حرارة الشمس، وعند السفر لمسافات طويلة يتم التوقف كل مسافة ٢٠ ميلاً. ويتم خلال هذا التوقف عادة شرب القهوة، التي تكون محضرة مسبقاً ولا تحتاج إلا إلى عملية تسخين فقط، بجمع بعض الحشائش والشجيرات الصحراوية.

الأمراض التي تصيب الإبل

هناك أمراض خاصة بالإبل، كما هي الحال بالنسبة لأمراض حيوانات الصحراء، ومنها ما هو خطر ومعد قد يؤدي إلى موت الدابة المصابة، ومنها ما يمكن معالجته بالأدوية المحلية. أما أهم أمراض الجمال فهي:

- **مرض الجرب**. وهو عدو خطير للإبل، ويسمى بجرب الجمال، وينتشر وباء الجرب في كل آن وزمان بين قطعان الإبل، وهو يشبه إلى حد بعيد مرض الجدري.

وينتشر الجرب في القطيع عادة شيئاً فشيئاً، وإذا لم تتم العناية اللازمة غالباً ما تنتهي الإصابة بالوفاة خلال مدة أربعين يوماً من ظهور الإصابة، لا سيما خلال فصل الصيف وفي الأيام الحارة.

أما معالجة الجرب فتتم على الشكل التالي:

يدهن جسم الجمل المصاب، بمزيج من الجير والزرنيخ، بعد إزالة الوبر بالكامل عن جسم الدابة المصابة بشكل جيد.

ثم يفرك الجسم بعد ذلك بالسمن، ويرش فوقه زهر الكبريت الممزوج بالفلفل الأحمر.

يعاد الدهن بالطريقة الموصوفة آنفاً كل أربعة أيام مرة، كما يجري الدهن مع الفرك بعناية فائقة، وتعاد العملية ثلاث مرات.

أخيراً يجري غسل الجسم المصاب بماء البحر، وفي الحالة التي لا تتوافر فيها مياه البحر لأسباب مختلفة يجري غسله بالماء العادي بعد مزجه بكميات كبيرة من الملح.

- **مرض الغش**: وتسببه لسعة من ذبابة (السرة) التي تكثر عادة على ضفاف نهر الفرات، وجنوب بحيرة حمر ، ومن المحتمل أن تكون قد قدمت من الهند أو من بلاد فارس. ويتسبب هذا المرض بالموت للجمال أكثر من غيره من الأمراض الأخرى. وتجري الإصابات في فصل الصيف فقط، حين تنتشر ذبابة السرة. فعندما تقوم هذه الذبابة بلسع ضحيتها ينتقل الجرثوم إلى دمه، ويظهر على المصاب ما يشبه مرض النوم، فيبدأ انخفاض مستمر في درجة الحرارة، كما يأنف مريضنا تناول أي نوع من الأكل، ويتوجه برأسه على الدوام باتجاه الشمس أينما اتجهت وبعد أربعين يوماً غالباً ما تنتهي الإصابة بالموت، ويندر أن يتم الشفاء من هذا الوباء الخطير. والدواء الوحيد غير الفعال، إجراء عملية الكي بالنار لبطن المصاب على شكل (×) ولهذا يندر أن تجد بدوياً يتجول بجماله على ضفاف الفرات في فصل الصيف خشية الإصابة بهذا المرض الخبيث في المناطق العراقية في المنطقة الموصوفة. أما في فصل الشتاء فلا خوف من التجول هناك نظراً لعدم نشاط تلك الذبابة.

وقد خسر الجيش البريطاني خلال الحرب الكبرى (١٩١٤ - ١٩١٨) عدة آلاف من الإبل بسبب الإصابة بهذا المرض، وكانت تلك الجمال قد جلبت من الهند، للقيام بمهمات نقل المعدات والمؤن. وكانت مجمعة في البصرة خلال فصل الصيف، على الرغم من النصائح التي كانت تلح على إبعاد تلك الجمال من هناك.

- **مرض المنحوز**: وهو مرض يصيب الرئتين. ومن علاماته أن الدابة المصابة تصاب بسعال قوي، وإذا لم تقدم لها الإسعافات اللازمة، لا سيما الأكل اللازم فالإصابة تؤدي إلى الموت. ويقال إن السبب يعود إلى تناول الجمل المصاب كمية كبيرة من نبات (الثلث) وهو نوع من نباتات الحمض، وهذا النبات الأخير يكثر في المناطق السبخة، ويقال إن هذا المرض معد جداً، لذلك يعزل الجمل المصاب فور ظهور الإصابة مع بقية القطيع، لكن بالرغم من ذلك يتسبب ذلك المرض بموت لا يقل عن نصف القطيع نظراً لانتشاره السريع.

هذا، ويقال إنه في الحالات التي تتعرض فيها الجمال للعطش، ولا تتوافر إمكانية إعطائها الماء بسبب عدم توافره عندها يجري تنشيق الجمل عن طريق المنخرين، بصب قليل من الماء فيهما، وإن المعالجة بهذه الطريقة تسمح للجمل العطشان أن يتحمل العطش يوماً آخر، ويقال إن هذه العملية تؤدي إلى ترطيب دماغ الجمل العطشان.

هذا ويذكر فيلبي في كتابه الربع الخالي، طرق معالجة هذه الحالات في الصفحات (٢٦٧ ـ ٢٧٣) وفي «٣٢٨، ٣٣٢ ـ ٣٣٣، ٣٣٨، ٣٤٦».

حليب الإبل

كما ذكرنا في مكان آخر، يجري بشكل عام عزل الذكور عن الإناث خلال فصل الشتاء، الذي هو بنفس الوقت فصل التناسل، أما في فصل الصيف فيسمح للذكور بمخالطة الإناث من الإبل، وتشاركها في المراعي.

ولا يسمح عادة بأن ترضع الأمهات أولادها أثناء الرعي، إذ يجب الاحتفاظ بحليب الأمهات لأفراد العائلة البدوية، ومشاركة الوليد في حليب أمه، وتحلب مساءً عند عودتها من المراعي، ويترك الوليد بعد ذلك مع أمه طوال الليل، حتى ساعات الصباح الأولى، ويعزل عنها بعد ذلك. هذا وقد ترافق الأمهات معها أولادها لكن في هذه الحالة يتم استخدام قطعة قماش تمنع ذلك الوليد من رضاعة أمه، وتلف قطعة القماش حول أضرع الناقة الأربعة، وتعلق إلى نهاية الظهر، وتسمى (الصرار)، هذا وللناقة أربعة ضروع.

وسم الإبل

لكل قبيلة وسم خاص بها، والوسم هو العلامة التي بها يمكن تحديد ملكية الموسوم، وتجري عملية الوسم بالنار، ولا يجري وضع الوسم عادة على الرايات والأعلام الخاصة بالقبائل. كما لا يجري وسم الخيول، أما الأغنام فيجري وسمها وسماً صغيراً يطبع على الأذن، بهدف تمييز عائديتها في حال فقدانها.

أما الجمال فيجري وسمها جميعاً بوسم أو علامة القبيلة، بالإضافة إلى وسم الشخص صاحب العلاقة إذا كان ذلك الشخص من البارزين.

هذا ومن بين القبائل المنتشرة في شبه الجزيرة العربية، هناك فقط قبيلة العوازم ـ التي تنتشر في منطقة الحسا ـ الوحيدة التي تملك وسماً موحداً لجميع أفراد القبيلة، أما القبائل الأخرى فتملك العشرات والعشرات من علامات الوسم المختلفة، وتعدادها يختلف بحسب البطون التي تنتمي إلى تلك القبيلة، كذلك إلى عدد شيوخ تلك القبيلة، وفي غالبيتهم يفضلون أن يكون لهم وسمهم الخاص بهم.

وفيما يلي، أنواع مختلفة من الوسم المنتشرة في شبه الجزيرة العربية:

١ ـ صاحب الجلالة. الملك عبد العزيز السعود (ابن سعود) توضع على الفخذ اليمنى.

ـ بعد أن فشلت حركة الأخوان ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ صودرت الجمال التي كانوا يملكونها من قبل ابن سعود ووسمت بهذا الوسم، لتشير إلى أنها أصبحت من أملاك الملك. ولكنها صودرت من الثوار. ووضعت العلامة على الفخذ اليمنى.

٢ ـ محمد السعود (أخ الملك) توضع العلامة على الفخذ اليمنى.

٣ ـ عبد الله بن جلـوي (أمير الحسا) توضع على الفخذ اليمنى.

٤ ـ صاحب السعادة شيخ الكويت (ابن الصباح) توضع على كل فخذ.

٥ ـ السعدون (شيخ المنتفك) توضع على الخد الأيسر. (تعرف الدائرة باسم الحلقة).

٦ ـ قبيلة عتيبة.

أ ـ ابن حميد «شيخ مجموعة البرقا» في مقدمة الكتف.

ب ـ ابن ربيعان «شيخ مجموعة الروقة» على الجانب الأيسر من الرقبة.

باقي أفراد العائلة على الجانب الأيمن من الرقبة.

جـ ـ ابن شامل (شيخ مجموعة المقطة)، على الخد الأيسر.

د ـ ابن حجنة (شيخ مجموعة عوفة)، على الفخذ اليمنى.

هـ ـ ابن جعمة (شيخ مجموعة الروسان)، الحلقة على الخد الأيمن.

٧ ـ قبيلة الضفير (فقط ابن صـويت)، على الفخذ اليمنى.

٨ ـ قبيلة العوازم.

أ ـ ابن جامع «الأمير»، على الفخذ الأيمن.

«الهدلان» أيضاً على الجانب الأيسر من الرقبة.

ب ـ ابن دريه، على الفخذ اليمنى أيضاً.

«سوابير» على الخد اليسرى.أو هلال على الفخذ الأيسر.

٩ ـ قبيلة المطير.

أ ـ الدوشان جميع أفراد القبيلة، على الفخذ الأيسر.

ب ـ الفغم «صهبة ـ ثويان»، على الجانب الأيسر من الرقبة.

جـ ـ ابن لامي «كعيمات ـ جبلان» على الجانب الأيسر من الرقبة.

د ـ ابن شبلان «اليحيى ـ جبلان» على الفخذ اليمنى.

هـ ـ ابن غنيمان «ملاعبه ـ ثويان» فوق العين اليمنى.

و ـ ابن رشيدان، على الفخذ اليمنى.

ز ـ المعرقب ، على الجانب الأيسر من الرقبة ـ أيضاً على الخد الأيسر.

حـ ـ الصور، «البراعصة ـ موهه» على الفخذ الأيسر، أيضاً على الخد اليسرى.

ط ـ ابن زريبان
أبو سفرة «رخمان ـ موهه». على الخد الأيمن أو هلال.

ي ـ ابن شوّيات «خواطرة ـ موهه» على الفخذ اليسرى.

ك ـ أبو راس «الجبرة ـ موهه» على الفخذ اليمنى.

ل ـ ابن متعب «الصعانين ـ موهه» على الجانب الأيسر من الرقبة.
أيضاً على الخد الأيسر.

م ـ ابن عشوان «عبيات ـ واصل» على الفخذ اليمنى.

ن ـ ابن شويربات «برزان ـ واصل» على الجانب الأيسر من الرقبة.

س ـ ابن جربوع «دياهين ـ واصل» قطع قطعة من الخد الأيسر والأذن اليسرى.

ع ـ ابن مهيليب «وسامة ـ واصل» على الفخذ اليسرى.

ف ـ ابن مصيص «صعران، أولاد علي) على الخد الأيمن أيضاً على الفخذ اليمنى.

ص ـ ابن جرناس (الميمون ـ بني عبد الله) على الخد الأيسر.

ق ـ ابن ضمنة ـ ابن درويش (الصعبة ـ بني عبد الله) على الخد الأيمن.

٩ أ ـ قبيلة الرشايدة.

أ ـ ابن مسيلم خط طويل حول الرقبة تحت الخدين جانب الحاجب.

ب ـ ابن عويد «عوانا» على الفخذ الأيسر.

جـ ـ الشهير «الشهرَة» على الفخذ اليمنى.

د ـ ابن نعمان (المجزيات) على الفخذ اليمنى.

هـ ـ ابن سامي، على الفخذ اليمنى.

١٠ ـ التالي هو رسم عجمان، أعطيت لي من قبل مبارك بن هيف الحجرف شيخ السليمان، نيسان ١٠/١٩٣٤.

- الحثلان ـ على الخد الأيسر.
- الهادي، على الخد الأيمن.
- الحجرف، على الجانب الأيسر من الرقبة.
- السليمان، على الجانب الأيسر من الرقبة. أسفل.
- ابن الحشم (شيخ السليمان) على الجانب الأيسر من الرقبة.
- المحفوض ـ على الفخذ اليسرى
- السفران ، على الجانب الأيسر من الرقبة.
- الحيان: على الفخذ اليمنى.
- الصالح: على الجانب الأيسر من الرقبة.
- الريمة: على الجانب الأيسر من الرقبة في الأعلى.
- الحثلان، إلى اليمين، حول الحنجرة،
- الضاعن، على الجانب الأيسر من الرقبة.

١١ ـ قبيلة بني خالد.

أ ـ ابن عقل، على الجانب الأيمن من الرقبة.

ب ـ ابن عجران، على الفخذ اليسرى، «مثل العوازم».

١٢ ـ قبيلة بني هاجر «ابن مبارك فقط»، على الجانب الأيسر من الرقبة.

عصاة الجمال «المشعاب»

غالباً ما يحمل المشعاب أيضاً نفس الوسم موسوماً بالنـار، وقد أهديت ثلاثاً منها كذكرى، من قبل فخذ الدوشان، قبيلة المطير، واحتفظ بها.

«وسم» علامات القبيلة ـ التشقق على صخور، في الشمال الغربي في جبل واره «الكويت».

أسماء القبائل أو أفخاذ القبائل تبين بعض أنواع الوسم. معطاة فيما يلي:



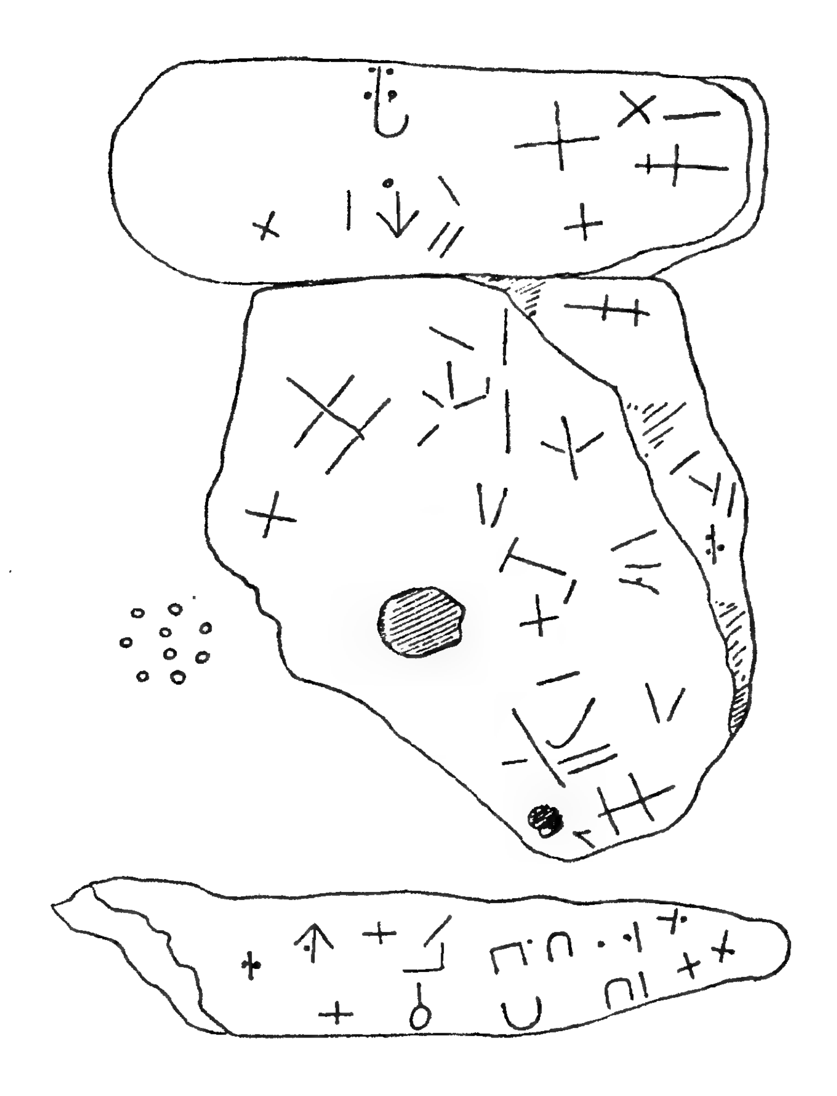
|• الصور (مطير).

┬ ابن شويربات (مطير).

∏ ابن جامع (عوازم).

∩ ابن دريع (عوازم).





وسم في الجانب الشمالي ـ الغربي في واره على صخرة.

في الأسفل ـ بعض أنواع وسم قديمة، وجدت في الجانب الشمالي من واره.

الآبار

تعود ملكية الآبار الكبيرة المنتشرة في شبه الجزيرة العربية في غالب الأحيان لهذه القبيلة أو تلك من القبائل، وتكون تحت تصرفها تتمتع بمياهها لسقاية قطعانها من الإبل والأغنام. . . . الخ. وليس للآخرين حق الاقتراب منها. وترجع ملكيتها عادة إلى قديم الزمان، ولما كان الوسم رمزاً جرت عليه التقاليد في المنطقة، فإننا نجد أيضاً هذا الوسم قد نحت على عدة صخور من التي استعملت في بناء البئر وتلك التي تحيط بفتحتها من كل جانب، لتدل بشكل قاطع على ملكية تلك الآبار.

ومن المهم أن نعرف أن هذا الوسم يغني عن كل نزاع لإثبات ملكية هذا البئر أو تلك الآبار على مدى الأيام، ومنذ أقدم العصور. يضاف إلى ذلك أن الأراضي المحيطة بالآبار تحدد أيضاً بوسم القبيلة كإشارة على أن ملكيتها أيضاً تعود إلى نفس القبيلة ولا يحق لأحد غيرها أن يقوم بالرعي فيها.

ويعترف بهذه العلامات جميع البدو أفراداً وقبائل، ولا تكون محل خصومة أو نزاع أبداً. وإن كانت في الماضي من أهم الأسباب التي أدت إلى حروب قبلية عنيفة.

من جهة أخرى لنفترض أن بدوياً كان يخيم لوحده في فصل الصيف. وقد اختار على هواه مكانه الذي خيم فيه واعتقد أنه سيجد ماء فيه، وبدأ فعلاً بالحفر بالقرب من خيمته، ووجد الماء حسبما كان يتوقع، ففي هذه الحال طبقاً للشرائع عند البدو أصبحت تلك البئر ملكه، ويمكنه أن يبنيها بالطريقة التي تلائمه. والملكية هنا ملكية شخصية. ولا يحق لأحد أن يرد الماء منه إلا بإذن منه. هذا في الكويت، ولا سيما في المناطق الداخلية حيث توجد مياه سطحية في كل مكان تقريباً. وإن تملك مثل تلك الآبار، أو آبار المناسبات كانت من أسباب النزاعات المختلفة في الماضي.

الآبار الطبيعية

إن الآبار الطبيعية (دحل، جمعها دحول) في مناطق الصمان تشغلها على الدوام قبيلة المطير، وتقع هذه الآبار على مسافة تتراوح بين ١٥٠ ـ ٢٠٠ ميل جنوب ـ غرب الكويت. ويوجد حوالى مئة بئر من هذا النوع، وهي تنتشر على أطراف الدهناء، حيث تقع الصمان. ومنها فقط حوالي ثماني عشرة معروفة منها بشكلٍ جيدٍ، وفيها كميات كافية من المياه على الشكل (٥٥).

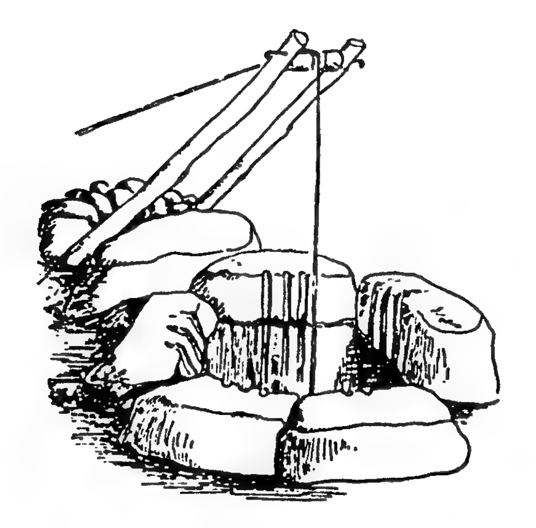
وتشق مداخل مثل هذه الآبار في الصخور، وتنفتح عموماً على نوع من الكهوف على عمق ثلاثين أو أربعين قدماً إلى الأسفل، ومن هناك تنفتح على عدة كهوف،

تحتوي معظمها على تجمعات مياه على شكل بحيرات صغيرة. وهذه (الدحول) تحتوي على مياه عذبة صالحة للشرب، ولكنها غير صالحة للإبل أو الغنم بسبب صعوبة سحب المياه من تلك الآبار بالدلاء أو ما يشبه ذلك. ولمن يريد الحصول على الماء لا بد أن يحمل معه قربته وينزل بها، ثم يصعد بها مملوءة بالماء، وعليه أن يزحف على بطنه أيضاً عدة ياردات سواء في الذهاب أو الاياب. وهي مياه جيدة جداً وصالحة للشرب.

وتتوافر أيضاً مثل هذه الآبار في جنوب الطريق الواصل بين عمان ـ بغداد بـ ٥٠ إلى ١٠٠ ميل في الصحراء الجنوبية على ذلك الطريق الصحراوي.

ونورد هنا بعض أسماء الآبار من منطقة الصمان من نوع (الدحول):

الرقاص، الطيب، أم جمد، بيت الصحافي، أب الديان، الشمشول، الجرابي، الأجاجي، الخلفجة، أبو طوطبة، أم القرم، أبو سخيم، العزير، المطّار، أم ورشام، الأكثامي، الخروشيف، أبوحرملة، أم نخلة، سديرة، الفرية، شلشوم، الفتيح.



الشكل (٥٥) بئر صحراوي

الفصل الثالث والثلاثون

النزاع حول الجمال

يعتبر حق الفرد لجماله من الأمور المقدسة لدى البدو، وهذا الأمر يشمل جميع البدو في شبه الجزيرة العربية، حتى أن هذا الحق يفوق في قدسيته حقه في الحياة، هذا وتتشابه هذه الاعتبارات في جميع أطراف شبه الجزيرة العربية مع بعض الاختلافات في تفسير بعض الأمور في وجهات النظر. وسنورد فيما بعد بعض القواعد والأسس التي تطبق بصورة رئيسة في المناطق الشمالية الشرقية من شبه الجزيرة العربية وفي وسطها كما تطبق هذه القواعد جزئياً في عُمان واليمن مع بعض الاختلافات البسيطة.

وإني أتوجه بالشكر لصاحب السعادة شيخ الكويت، ولنائبه الشيخ عبدالله الجابر المكلف أيضاً بشؤون القبائل، وذلك للمساعدات القيمة، التي قدماها لي:

مبادىء عامة

١ ـ في الحالة التي تعود ملكية الجمال إلى أحد الأفراد أو القبائل وقد شردت مع قبيلة صديقة:

أ ـ إذا شرد أحد الجمال أو عدة جمال من أحد رعاة قطعان الإبل، ووجدها فيما بعد مع قبيلة صديقة، فإن المالك يستطيع أن يرسل في طلب إعادتها إليه من شيخ القبيلة الصديقة، واتخاذ الاحتياطات الضرورية لإعادة ما شرد دون تأخير، وتعاد فعلاً وتنتهي القضية.

ب ـ قد لا يعاد الجمل أو الجمال الشاردة، فيصبح للمالك الحق ـ بعد أن ينتظر الفرصة المناسبة ـ أن يستولي على أي شيء كان من أملاك ـ كالمواشي ـ وحتى

الرجال التي تعود إلى القبيلة المغتصبة لحقه، ويحتفظ بما استولى عليه حتى تتم إعادة حقوقه كاملة إليه.

جـ ـ قد تستمر القبيلة المغتصبة في عنادها (عاصية) عندها فللمدعي الحق في احتجاز ما يمكن أن يحتجزه بشكل يصبح راضياً عما احتجزه، وعليه أن يستغل تلك المناسبة ويعلن بين الناس بأنه استولى على عدد من الجمال مساوية إلى جماله التي خسرها لا أكثر ولا أقل.

٢ ـ في الحالة التي يكون فيها الجمل أو الجمال الشاردة وقعت في أيدي قبيلة معادية:

ففي هذه الحال على المالك أن ينتظر الفرصة المناسبة، إذ له الحق في الاستيلاء على أي عدد من جمال القبيلة المعادية، وحتى عن طريق الإغارة أو باستخدام أي حيلة أو وسيلة في مناطق الرعي بالصحراء في فصل الصيف أو خلال أشهر الربيع، أو في طريق القوافل، أو في المدن أو الأماكن المأهولة التي يردها أفراد القبيلة المعادية لشراء الحاجيات والمؤن اللازمة.

وللجهة المظلومة (المالك الأصلي للجمال الشاردة أو المسلوبة) أن تحتفظ لنفسها بمقدار ما كانت تطالب به عدوها كحق لها. ويمكن أن تضع شروطاً مع الخصم يرضى بها. ويستطيع أن يصفي حسابه إذا رغـب مع الجهة الغاصبة بأن يحتفظ بكل ما استطاع أن يستولي عليه عوضاً عما فقده. وقد يصدف أن تسفك الدماء نتيجة تلك الإغارة، عندها تقـضي القواعد والأصول والعادات الصحراوية الأخذ بالثأر مدى (خمسة أجيال). وتشير هذه الأصول أو القواعد أن للشخص أو الأشخاص الذين فقد لهم شخص ما نتيجة لتلك الإغارة، الحق ـ إذ تخولهم تلك القوانين بذلك ـ بقتل أي فرد من أفراد الجهة القاتلة نزولاً حتى الجيل الخامس ما لم تتم تسوية الأمور بدفع الدية، وتساوي الدية في أيامنا هذه في نجد والكويت ٨٠٠ ريال.

٣ ـ في الحالة التي تعود فيها القبيلة أو القبائل إلى إحدى الحكومات المعترف بها، بينما تعود فيها القبيلة أو القبائل المغيرة أو المعتدية إلى حكومة أخرى:

فعندها على الحكومة التي تنتمي إليها القبيلة المغيرة أو المعتدية، أن تعلن عن استعدادها لإعادة الأملاك المسروقة أو المغتصبة إلى حكومة القبيلة المجني عليها، أو تعلن عن دفع تعويضات عما فقد، على أن تحدد التعويضات باتفاق مشترك بين الطرفين. وفي بعض الحالات قد ترفض القبيلة الجانية إطاعة أوامر حكومتها، ويستحيل على تلك الحكومة أن تسترد الأملاك المغتصبة أو التعويض عنها، يصبح

للقبيلة التي وقع عليها الضرر الحق في أن تسترد أملاكها المفقودة بوسائلها الخاصة، وبالطريقة التي تجدها مناسبة.

٤ ـ في حالة سرقة الإبل أو فقدانها ثم التعرف عليها في المدينة أو في أي من المناطق المأهولة من أصحابها الأصليين:

فإذا كان الطرفان ينتميان إلى قبائل صديقة تربط بينهما علاقات حسنة، وتخضع كلا القبيلتين لحاكم تلك المدينة التي التقيا بها، يعمد المطالب باسترجاع حقوقه إلى إثبات دعواه باستدعاء ثلاثة شهود يشهدون جميعاً، ويؤكدوا على أن هذه الجمال كانت تعود إلى هذا المدعي المطالب بها. أما الكلمات التي يستخدمها لإثبات دعواه قبل أن تصل القضية إلى أسماع السلطة كطرف في المشاركة في حل هذه القضية فهي (أشهد أن تلك الجمال لم أبعها أو أمنحها لأحد من قبل). وفي هذه الحال للمدعي الحق باستعادة جماله بأمر من حاكم تلك المدينة. (كثيراً ما تمر قضايا مماثلة في مدينة الكويت، وفي مدن أخرى من نجد). أما في الحالة التي يكون فيها الشخص الذي توجد تلك المفقودات بعهدته، قد اشتراها من شخص ثالث، وكان يجهل أنها كانت شرعاً وقانوناً أملاكاً لأحد أفراد القبيلة الصديقة، فالأمر هنا يختلف عما ذكرناه، (انظر الحالات القادمة).

أما إذا كان الشخص الذي يصطحب تلك المفقودات، قد استولى عليها بالحرب، من شخص ثالث، فالمطالب في هذه الحال (أي المالك الأصلي) يتلقى ما كان فقده إذا كانت الأعراف السائدة بين القبيلتين تسمح وتقضي بذلك.

٥ ـ الحالة التي تهاجم فيها قبيلة تابعة لإحدى الحكومات قبيلةً تابعة لحكومة أخرى وحدثت خسائر نتيجة المعركة أو ما شابه ذلك:

فللقبيلة التي هوجمت الحق في أن تطالب حكومتها أن تسترد عن طريقها ما فقدته بدفع الدية عن قتلاها، ورفع الظلم عنها عن طريق حكومة الطرف المعتدي. وقد تكون حكومة المدعي في وضع لا تستطيع فيه تحقيق مطالب المدعي لأسباب مختلفة، إذ قد لا تصل إلى اتفاق مع حكومة المدعى عليه، سواء بدفع الدية المتوجبة، أو بإجراء تسوية سلمية مقبولة من قبل القبيلة التي فقدت بعض الضحايا نتيجة الاعتداء عليها، فعندها للقبيلة التي فقدت بعض الضحايا الحق بالانتقام والأخذ بالثأر في الوقت والمكان المناسب بدون أن تكون حكومتها مسؤولة عما فعلته.

التقاليد والأعراف

أو

التعرف على حيوان من قبل المالك

١ ـ الحالة التي يتم فيها الاستيلاء على جمل أثناء الإغارات:

قد تربط الأعراف علاقات قبيلتين من القبائل بقبيلة ثالثة قبلت أيضاً بتطبيق هذه الأعراف في علاقتها مع القبيلتين موضوع البحث، ولنفترض أن أحد الفرقاء قد استولى على جمال كانت تعود للفريق الأول، ثم استولى عليها فريق ثالث يعترف بنفس الأعراف، عن طريق القيام بالإغارة. ولنضرب على ذلك مثلاً إذا كانت تلك الجمال مثلاً تعود ملكيتها إلى قبيلة عجمان، وأغارت عليها قبيلة العوازم، وفي مناسبة ثالثة أصبحت تلك الجمال تابعة لقبيلة المطير، عن طريق قيامها بإغارة ما، فهل يحق لعجمان أن تطالب الفريق الثالث (المطير) بأن تسترد إبلها المفقودة، موضوع البحث، دون دفع أي مكافأة ما؟. الجواب يعود في هذه الحال إلى موضوع الأعراف السائدة بين عجمان والمطير.

٢ ـ حالة أخرى، اشترى شخص جمالاً من شخص آخر، من ثم تم التعرف عليها من قبل مالكها الأول (وهو شخص ثالث)، وادعى أنها سلبت منه.

تجري تسوية هذه الحالة على النحو التالي:

فإذا كان المالك الأصلي والمشتري من قبيلة واحدة، أو من قبيلتين بينهما اتفاق صداقة وسلام، أو اتفاق (أعراف) كما هي الحال مثلاً أن تطبق بينهما أو على علاقتهما، حالات أبناء العم، ففي هذه الحال يقوم كل من المشتري والمالك الأصلي معاً والدواب المسروقة موضوع البحث بالذهاب إلى البائع، وتستعاد منه أموال المشتري التي يأخذها الرجل الذي اشترى الجمال، أما المالك الأصلي فيستعيد ما كان قد فقده. لنفترض مثلاً، أن رجلاً من شمر قد تعرف على جماله المسروقة، وكانت تلك الجمال مع رجل من ضفير، وادعى الأخير أن تلك الجمال قد اشتراها من رجل من المطير، وقد تكون علاقات عشيرتي الضفيري والشمري تحكمهما أعراف بني العم عندها سيذهب الاثنان لمقابلة المطيري، فإذا كان هذا الأخير قد استولى على هذه الجمال شخصياً من الشمري عن طريق الإغارة أو السرقة، وكانت العلاقات التي تحكم قبيلتي الشمري والمطيري علاقات سلام ففي هذه الحالة عليه أن يعيد ثمن الجمال المسروقة إلى الضفيري، أما الشمري فإن له الحق باستعادة الجمال التي

يطالب بها. أما إذا كان المطيري قد اشترى تلك الجمال موضوع البحث من شخص آخر، ولنفترض أن ذلك البائع كان من أفراد قبيلة عجمان. أيضاً في هذه الحال سيعيد الثمن إلى الضفيري، ثم عليه أن يذهب ويطالب بالمبالغ التي دفعها من العجماني، وهكذا حتى تعاد الأملاك المفقودة إلى السارق الأصلي وبعبارة أخرى يعتبر كل ما جرى في عملية البيع والشراء وكأنه لم يكن من أساسه.

وهذه الطريقة في استعادة الأشياء المفقودة وإعادتها لأصحابها الأصليين باسم الصداقة ما بين القبائل تعرف باسم نظام (سق وخذ). وهو نوع من التسويات العائلية لاستعادة الحيوانات المفقودة بالتفاهم دون اللجوء إلى أي نوع من الخصومة والنزاع.

ومثل هذه الحلول والطرق تعود بالفائدة الكثيرة على البدو، وذلك بإبقاء الحكومة التي تعود إليها تلك العشائر بعيدة عن التدخل مباشرة في شؤونهم، إذ أنهم كثيراً ما يكرهون أشخاص السلطات الرسمية نظراً لجمودهم في اتباع الحلول وعدم قدرتهم على فهمهم.

هذا وإن الكثير من تسويات المشاكل يتوقف أمر حلها عادة على قوة شخصية الشيخ الذي تعرض عليه المشكلة وعلى مدى نفوذه بعشيرته.

هذا وقد يصادف البدو بعض الأمور غير المتعارف عليها، وتختلف الأطراف المتنازعة في آرائها حول الحل المناسب، فعندها يلجأون إلى أهل الخبرة ممن لهم قدرة على الاجتهاد أو القياس في مثل هذه الأمور، وإذا تعقدت الأمور في حل القضية المطروحة، يلجأ هؤلاء إلى القاعدتين الأساسيتين لإيجاد الحل المناسب في أصول (العرافة):

أ ـ إذا تم الاستيلاء على الأشياء المفقودة بالحرب، أو أعيد الاستيلاء عليها بالحرب أيضاً من قبل أفراد أو جماعات يعودون إلى قبيلة صديقة للمالك الأصلي، عندها تعاد الأشياء المفقودة دون أي تعويض، إذا كانت القوانين (الأعراف السارية المفعول) بين تلك العشيرتين تعترفان فيما بينها بقوانين العرافة، فلا بيع على كل المفقودات.

ب ـ إذا تم شراء جمل بالنقود فلا يمكن أن يسترده صاحبه الأصلي دون دفع تعويض مناسب لمن اشتراه أو كان بحوزته، حتى لو كان المالك الأصلي من نفس قبيلة المشتري. وهناك استثناء وحيد أعني إذا استطاع المالك الأصلي إثبات أن ذلك الشاري كان يدرك ويعي أن تلك الإبل التي يشتريها مسروقة من قبل شخص من

القبيلة الصديقة. فإذا كان أحدهم مثلاً من قبيلة العوازم، واشترى جمالاً مسلوبة أو منهوبة، من ابن شقير من قبيلة الدياهين، بعد يوم من قيامه بالغزو على الدياهين بالقرب من الكويت كما جرى في عام ١٩٢٨ فهذا الأخير له الحق باستعادة جماله من العازمي دون دفع أي تعويض. وفي هذه الحالة ليس لأحد أن يبيع تلك المفقودات أو يشتريها، بل يجب إعادتها لمالكها الأصلي.

التطبيق العملي لعادات (العرافة) على الحدود بين دولتين

إن تطبيق قوانين العرافة في مثل هذه الأحوال يصبح أكثر صعوبة، لا سيما عندما تكون القبيلتان في حالة عداوة فيما بينهما، وتزداد الأمور تعقيداً وصعوبة إذا كانت كل قبيلة تنتمي إلى دولة مختلفة عن الأخرى، وتجاور الواحدة الأخرى، وتتمتع هذه الدول بسلطان على قبائلها، كما هي الحال في الكويت، والسعودية، والعراق. وتهتم سلطـات تلك الحدود كثيرا بعدم السماح لأحد بالقيام بتجاوزات من اختراق قوانين تلك البلاد، كما لا تسمح باجتياز حدودها كيفياً للقيام بأية إغارات لا سيما إذا كانت تلك الإغارات تتم على قبائل تنتمي إليها وتقطن داخل أراضيها.

إن هناك تقاليد وأعرافاً لدى البدو كانت أساسية في حياتهم لأنها ذات عراقة وأصالة في مجتمعهم. فقد أخذت بجميع نواحي حياتهم مرتكزة على معتقداتهم الدينية في معظم جوانبها. وقد اعترف لي بذلك شيخ الكويت، وهي قادرة على الفصل في جميع الخصومات. إلا أن أنظمة الدول والحكومات التي حلت محل الأعراف والتقاليد القبلية.. قد خلقت بعض التناقض والخلل، فغالباً لا تكون الحكومات قادرة على الفصل أو إحقاق الحق وهنا يسود الأقوى وليس الأحق. وإليك بعض الأمثلة لإيضاح ما سلف:

أ ـ مواطن يدعى ـ أ ـ من رعايا دولة ما، وجد بطريقة ما جماله ـ التي سرقت منه في الماضي ـ في الصحراء وأصبحت عائدة إلى ـ ب ـ (مواطن من البدو من رعايا دولة أخرى). وفي نفس الوقت لا تلتزم القبيلتان التي ينتميان (أ ـ و ب) إليهما بقواعد الصداقة في علاقاتهما مع بعضهما. لهذا لا يضيع ـ أ ـ وقتاً بل يشرع على الفور ببحث الوسائل التي تمكنه من استرداد حقه السليب. فيذهب أولاً إلى ـ ب ـ ويطالبه بإعادة حقوقه إليه، ومن الطبيعي في هذه الأحوال كما هي في أغلب الحالات ـ أن ينكر ـ ب ـ الحق على ـ أ ـ ويرفض بالتالي طلبه متذرعاً بحجج مختلفة. فيجد ـ أ ـ

نفسه مضطراً عندئذٍ ـ حسب القوانين السائدة ـ للتوجه إلى حاكم المنطقة التي يعيش فيها، ليحتكم إليه ويطالبه بالعمل على استرداد حقوقه، فيزوده الحاكم بكتاب إلى سلطات الحدود التابع لها ـ ب ـ وهو مثلاً حمود البقعوي ممثل المملكة العربية السعودية اليوم في شمال ـ شرق شبه الجزيرة العربية، وعبد الله بن جابر ممثلاً عن الكويت، أما في العراق فهناك أحد الضباط من الشرطة المكلفين بشؤون المنطقة الجنوبية الصحراوية ـ وفي الكتاب بيان بوجود الإبل المسروقة من ـ أ ـ بين أملاك ـ ب ـ فيقوم الضابط المسؤول عن شؤون المنطقة المذكورة ويرسل في طلب ـ ب ـ وفور حضوره، يوجه ذلك الضابط السؤال إلى ـ أ ـ بحضور ـ ب ـ أن يثبت دعواه، وتطبق أصول الشريعة الإسلامية بهذا الخصوص وعلى ـ أ ـ أن يثبت دعواه باتباع إحدى الطريقتين التاليتين:

١ ـ **الطريقة الأولى**: أن يقوم ـ أ ـ بإحضار شاهدين يؤكدان ويثبتان في شهادتهما دعواه ويقولان إن تلك الجمال كانت حقاً من أملاك ـ أ ـ وأن هذا الأخير لم يقم ببيعها أو إهدائها لأي شخص كان.

٢ ـ **أو أن يقوم ـ أ ـ** بإحضار شاهد واحد على أن يقسم هذا الأخير يميناً بأن تلك الجمال كانت من أملاك ـ أ ـ وأنه لم يقم ببيعها أو إهدائها لأيٍ كان.

وفي المقابل، فإنه من حق ـ ب ـ أن يحدد ويلح على ـ أ ـ شكل القسم، إلا أن ذلك ليس ضرورياً طبقاً للقانون. وإذا لم تنته القضية عند هذا الحد وتابع أصحابها دعواهم فإن حكومة الضابط المكلف عن المنطقة بمعالجة الموضوع، ليس عليها أن تسأل كيف أن ـ ب ـ استطاع الحصول على تلك المفقودات لكن بناء على البيانات الماضية عليها أن تأمر ـ ب ـ أن يسلم تلك الدواب إلى ـ أ ـ موضوع البحث فوراً.

وإذا كان ـ ب ـ هو السارق الفعلي لتلك المسروقات، فإنه يعيدها فوراً إلى ـ أ ـ ويرجوه ألا يذهب بعيداً في جلب الشهود لإثبات حقه وفضحه كسارق.

لكن إذا ادعى ـ ب ـ أن تلك الإبل المسروقة قد اشتراها أو تلقاها. . . . إلخ من ـ جـ ـ وهذا يعني براءته من الاتهام بالسرقة المباشرة فعلى الضابط المسؤول أن يتصرف حسب الطريقة التالية: يسأل بالتفصيل حول ـ جـ ـ الجديد، وكل المعلومات اللازمة ثم يأمر باحضاره، وعلى ـ ب ـ أن يقدم البيانات اللازمة عن ـ جـ ـ وهنا على ـ ب ـ أن يحضر شهوداً لإثبات دعواه بأنه اشترى تلك الحيوانات من ـ جـ ـ بحضور شهوده، فإما أن يُحْضِرَ شاهدين أو شاهداً على أن يؤدي ذلك الأخير القسم. وعندما

يقوم ـ ب ـ بتنفيذ ما طلب منه تحقيقاً لرغبة الضابط لإثبات دعواه على ـ جـ ـ. وفي الختام إذا ما ثبت ذلك الادعاء، يأمر الضابط المختص ويجبر ـ جـ ـ على إعادة قيمة الصفقة إلى ـ ب ـ. لكن قد يدعي ـ جـ ـ أنه اشترى أو تلقى هذه المسروقات من ـ د ـ. إذن على ذلك الضابط المختص أن يسلك نفس الطريق الذي سلكه مع ـ جـ ـ حتى إيجاد السارق الحقيقي، وفي هذه الحال لا بد من معاقبته.

إلا أن الأمور تصبح أكثر تعقيداً عندما يكون فيها كل من ـ أ ـ و ـ ب ـ و ـ جـ ـ و ـ و. هم من دول أو تابعين لحكومات مختلفة أي أنهـم رعايا أكثر من دولة واحدة، مثلاً قد يكون ـ أ ـ من رعايا الكويت، و ـ ب ـ من العراق، و ـ جـ ـ من نجد. . . . الخ. تتبع مع هؤلاء جميعاً نفس الطرق السابقة، لكن قد يحتاج الأمر إلى زمن طويل، وقد يقوم ثلاثة محكمين من تلك البلاد المختلفة، أو أن يقوم ضباط الحدود للدول الثلاث ويتم تكليفهم بحل تلك القضية، وهذا ما يجري فعلاً. وعندما ترفع القضية إلى شيخ الكويت كما هو حال مثالنا لأن ـ أ ـ هو من رعايا الكويت، فإن شيخ الكويت يرسله مزوداً برسالة (كما جرت العادة أن يزود بكتاب من الضابط السياسي أيضاً) إلى الضابط المفتش، أو قائد شرطة المنطقة الصحراوية الجنوبية، حيث يقيم فيها ـ ب ـ وسيقوم ذلك الضابط باتخاذ الإجراءات اللازمة بناء على تلك الرسالة، فإذا كانت البيانات المرسلة لا تحتاج لتأكيد أو لإيضاح أو لأدلة جديدة، تعاد الجمال فوراً إلى ـ أ ـ وسيرسل ـ ب ـ مع رسالة تشرح فيها ملابسات القضية إلى البقعوي أو إلى أي شخص مسؤول في نجد عن شؤون الحدود في العربية السعودية مع العراق والكويت. ويرافقهم بنفس الوقت الشهود الذين أحضرهم ـ ب ـ. وما إن يتسلم البقعوي القضية ويطلع على تفاصيلها ويتأكد من صحة الوقائع حولها، حتى يأمر باسترجاع كل ما فقده ـ أ ـ. لكن عن طريق ـ ب ـ الذي حصل على تلك البضاعة من ـ جـ ـ فيرد ـ جـ ـ إلى ـ ب ـ كل حقوقه، وهذا الأخير يقوم بدوره بإعادة الحقوق إلى ـ أ ـ. وفي الختام، لا بد من الإشارة إلى أن سهولة تطبيق (الأعراف على الحدود) ذلك النظام الذي يستغني كثيراً عن هذه التعقيدات يعتمد أيضاً وبكل جلاء على أربعة عوامل أساسية هي:

١ ـ أن تكون العلاقات ما بين الدول المتجاورة علاقات حسن جوار وتعاون.

٢ ـ وجود سلطات مسؤولة كضباط الحدود أو ما إلى ذلك لمعالجة مثل تلك القضايا، على أن يخولوا الصلاحيات اللازمة.

٣ ـ تخويل الضباط المحليين وإعطائهم الصلاحيات اللازمة في معالجة تلك

القضايا مباشرة دون الرجوع إلى السلطات العليا، وتشتمل عادة على القضايا المتعلقة بالرعايا الذين يوجدون على طرفي الحدود، أما القضايا التي تحتاج إلى معالجة أوسع أو تلك التي لا يتم حلها مباشرة فتحال عندها إلى الجهات العليا لمعالجتها.

٤ ـ أن لا تتعارض الأعراف البدوية مع الشريعة الإسلامية، أو مع قوانين الأحوال الشخصية المدنية.

في المدة الواقعة ما بين ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ كان الكابتن غلوب مسؤولاً عن المنطقة الصحراوية العراقية الجنوبية. في حين كانت مهمتي ضابطاً سياسياً في الكويت، مما سمح لي بالاتصال المباشر مع كل من كان يدعي بدعوى ما أو بشكوى من جميع أفراد القبائل من البلدين العراق والكويت، وقد اتفقت مع غلوب على تسوية عدة قضايا من هذا القبيل، وكان الرضى كاملاً من جميع أطراف القضايا التي عالجناها، وخلال نفس المدة لم يكن من السهل معالجة جميع مشاكل القبائل التي كانت تنشأ على حدود العربية السعودية وذلك للأسباب التالية:

أ ـ من سوء الحظ أن العلاقات بين البلدين ـ الكويت والعربية السعودية ـ لم تكن على الدوام جيدة.

ب ـ لم يكن هناك ضباط مسؤولون رسمياً لمعالجة تلك القضايا بشكل دائم، والتوجه إليهم في حالة الضرورة لمعالجة القضايا المشتركة، على الرغم من أن صاحب الجلالة الملك ابن سعود كان يهتم كثيراً ويشرف أحياناً بنفسه على بعض مشاكل الحدود، حتى عين لمعالجة تلك القضايا مسؤولين من مستوى جيد زودهما بصلاحيات لمعالجة كل الأمور وذلك في كل من حفر وقرية العليا وقدم لهما كل ما يلزم.

واقترح صاحب الجلالة الملك ابن سعود بتاريخ شباط ١٩٣١ على شيخ الكويت بأن كل دعوى تتعلق برعايا البلدين على طرفي الحدود بين البلدين تحال إلى شيخ الكويت، أما القضايا التي سبقت ذلك التاريخ فيجب دفنها، على أن كل جديد فيها يعالج باهتمام. لا سيما بعد أن انتهت ثورة الإخوان، وتم القضاء على المشاكل التي نشأت عنها إذ كان من الصعب قبلاً معالجة الأمور معهم، لكن بعد أن انتهوا إلى غير رجعة، عادت الأمور من جديد إلى مجاريها وانتهت فترة الجفاء.

مفهوم البدو عن ـ الجهامة ـ الإبلاسة ـ تيراهة ـ خدمة

١ ـ **الجهامة**: لنفترض أن اتفاق سلام كان قائماً بين بعض القبائل، ولنفترض أن

أحد أفراد قبيلة ما فقد بعض جماله، وبعد البحث استطاع العثور عليها مع رجل تابع لقبيلة أخرى في هذه الحالة، للمالك الأصلي الحق في استعادة كامل حقوقه حسب الأعراف السائدة بين القبائل ويسترد جماله المفقودة دون أن يكلفه ذلك دفع أي تعويض، لكن بعد اتخاذ الإجراءات لاسترجاع جماله، ويطلق على المفهوم الذي يحدد مثل هذه العلاقات اسم (الجهامة) ويطلق على الجمال في مثل تلك الحال اسم الجهامي. وقد يكتشف أحدهم من بين بعض أفراد تلك القبيلتين الصديقتين بعض الجمال التي ينطبق عليها حالة الجهامة، ويقوم بالعناية بها، فإذا عثر مالكها عليها بعد حين فعليه أن يدفع عن كل جمل مبلغاً قدره ١٢ ريالاً إلى الشخص الذي عثر عليها واعتنى بها، وفي حالة الضرورة، قد يتوجه ذلك الذي عثر عليها إلى شيخ المالك للحصول على كامل حقه، والحصول على المبلغ المطلوب، وعلى ذلك الشيخ أن يقوم بإيصال المطالب إلى حقه.

٢ ـ الإبلاسة: إذا عثر أحد أفراد قبيلتين متصادقتين على جمال تتجول في ظروف (الجهامة) وقام بإخفائها عن مالكها ثم تم العثور عليها من قبل إبلاسة ـ (أي الرجل الذي استأجره المالك للتجسس والبحث عن جماله المفقودة) واكتشف مكان تلك الجمال المفقودة فلا بد من إعادتها إلى صاحبها الأصلي الذي يدفع (الإبلاسية) وهذه «أي الابلاسية» يحصل عليها المالك الأصلي من الشخص الذي أخفى الجمال، وتدفع إلى من عثر عليها (الإبلاسة) وقد تصل تلك المكافأة إلى ٢٠ ريالاً وهو مبلغ جيد بالنسبة إلى بدوي.

٣ ـ التيراهة: لنفترض أن جمالاً قد أفزعها أمر ما، وهربت إلى الصحراء، وعثر عليها شخص من قبيلة أخرى صديقة وأعادها إلى صاحبها، فعلى صاحب الإبل الأصلي أن يدفع مكافأة للرجل الذي عثر عليها وأعادها، وتبلغ عادة ٢ ريال عن كل جمل أعيد إلى صاحبه وتسمى هذه المكافأة بـ«التيراهة».

٤ ـ الخدامة: إذا أعقب السرقة إخفاء للحيوانات المسروقة، ولم يتم التوصل إلى حل بين القبيلتين المعنيتين، ففي هذه الحال يرفع الخلاف إلى السلطات المسؤولة لدى كل من القبيلتين، سواء للحاكم المحلي، أو للسلطات المركزية حسب الظروف، وتقوم تلك الأخيرة بالإجراءات اللازمة لمعالجة مثل ذلك الأمر، وعندما تتم تسوية القضية تطالب تلك السلطة بأجرٍ على أعمالها ويسمى هذا الأجر (بالخدامة) وتقع الخدامة على الجهة التي حكم عليها، والخدامة توزع عادة على فداوية السلطة والحاكم نظراً للجهود التي بذلوها لإحضار الشهود ولتقصي الحقائق وما إلى ذلك.

تقاليد البدو في الوساطة
بين أبناء العم

إذا كانت علاقات أبناء العم قائمة بين بدوي وآخر، وإذا ما قام أحد أبناء العم فسرق جمال ابن عمه، عندها يجبر السارق على إعادة ما سرقه أو عدد مماثل لما سرق وينتهي الأمر، وإن عودة الأمور إلى نصابها تجري عادة بتدخل الأهل.

وتدعى عملية إعادة المسروقات إلى صاحبها، وتسوية الأمر بالكامل، (بالوساكة أو الوساطة). وقد ذكر لي الشيخ علي الخليفة أحد مشايخ الكويت بتاريخ ٨ تشرين الثاني ١٩٣٨ أن علاقات بني العم هي علاقات وطيدة، فإذا ما تسبب أحد أبناء العم في ضرّر لأحد أبناء عمه كقيامه بالتجسس عليه فحياة ابن العم المتسبب تصبح مهدورة وتنتهي بقتله حتماً.

الزكاة

الزكاة هي إحدى الفرائض الخمس بالنسبة للمسلمين، ويجب على كل مسلم أن يؤديها إذا كان مسلماً حقاً، أما كلمة الزكاة فتعني (التزكية) وتطبق من حيث الشكل كالصدقات كما هو الأمر بالنسبة لمشروعيتها، إلا أنها تدفع هنا إلى المكلفين بجباية الزكاة من قبل الدولة التابع لها. وتعادل قيمة الزكاة $\frac{١}{٤٠}$ مما يملكه المسلم أو المسلمة.

وتعتبر الزكاة أمراً ثقيلاً على قلب البدوي ولا تبعث السرور إلى قلبه إذ يكره بطبعه أن يدفع للملك أو الحاكم تلك الزكاة؛ أما الزكاة فتكون على الشكل التالي:

أ - ريال واحد عن كل جمل كامل النمو.

ب - نصف ريال عن كل جمل لم يتثمر للآن بسبب صغر سنه.

جـ - رأس من الغنم أو ما يعادل قيمته «٨ ريال» عن كل أربعين رأس غنم. دون النظر إن كان رأس الغنم كامل النمو أم لا.

هذا ولا تدفع الزكاة عن الجمال المخصصة للركوب، وكذلك الجمال المخصصة لنقل الحمولات والتجهيزات الخاصة بتنقلات البدو. كما أن للسلطة التي تجبي الزكاة الحق في دعوة هؤلاء المزكين أن يقوموا بالجهاد لصالحها إذا دعى لداعي، وعليهم أن يلبوا الطلب دون تردد، وإلا فستجري مصادرة كل ما يملكون.

قد تمتنع بعض القبائل أو أحد أفرادها عن دفع الزكاة إلى ذلك الحاكم. فعندها يصدر الحاكم أمراً بـ:

أ ـ مصادرة أملاك الممتنع عن الدفع.

ب ـ يرفض أن يقدم له الحماية أو الخدمات العادية أو القيام بأي عمل من شأنه الاستفادة منه طالما هو ممتنع عن دفع الزكاة.

جـ ـ عدم الدفاع عن كل ممتنع عن دفع الزكاة من أي خطر خارجي.

وتعتبر السلطة التي تدفع لها الزكاة مكلفة بالدفاع عن دافع الزكاة في كل الأحوال سواء أمام عدو خارجي أو داخلي. ولدافع الزكاة حق طلب الحماية من أي خطر يهدده.

وليس للحاكم الحق في أخذ الزكاة من القبائل الغريبة عن المنطقة والتي قامت بهذه الزيارة بسبب البحث عن المرعى. وهذا يعني البقاء لمدة مؤقتة وليست دائمة تستوجب من السلطة تقديم الحماية وما إلى ذلك من خدمات مقابل الزكاة. وكذلك بحجة أن ذلك المقيم بشكل مؤقت من المحتمل أن يكون دفع الزكاة إلى السلطات التي يتبعها. وهذا القانون يعود في أصله إلى عهود قديمة كانت تطبق في شبه الجزيرة العربية.

وقد تطلب تلك القبيلة الزائرة الحصول على الإقامة لقضاء فصل الصيف، وهذا يعني أنها تحتاج للمياه، وللرعي، وما إلى هنالك من أمور الحماية... إلخ. إذن ففي مقابل ذلك فللحاكم الحق بأن يطالب تلك القبيلة بدفع الزكاة المقررة مقابل ما يقدم لتلك القبيلة من المراعي والماء والحماية، كما أن الفكرة من ذلك أن تلك المراعي والمياه التي ستستهلكها القبيلة الوافدة يعني مشاركة القبائل التي تدفع الزكاة بمثل هذه الفوائد لذا وجب عليها دفع الزكاة.

هذا وقد تجاوز ابن سعود هذه القواعد والأسس عدة مرات، بأن أرسل وراء القبائل التي كانت ترعى خارج بلاده وحصل منها الزكاة. على أن الشروط المذكورة تلزم تلك القبائل بدفعها للسلطات التي كانت توجد على أراضيها بحجة أنه لم يسمح لتلك القبائل بمغادرة البلاد، وأن مغادرتها غير مشروعة.

الخوة

تدفع من قبل القبائل الأقل قوة إلى الأقوى كما تدفعها القوافل

تعتبر الخوة نوعاً من التأمين، تدفع من قبل الغرباء الذين دخلوا أرضاً

لا تخصهم. لنضرب على ذلك مثلاً: دخل رعاة من قبيلة المنتفك مناطق تعود ملكيتها إلى قبيلة حرب في العربية السعودية، إذن على الأولى أن تدفع الخوة للقبيلة الثانية.

وتدفع الخوة عادة إلى شيخ القبيلة. وقد تتألف الخوة من عدة رؤوس من الغنم، أو قد تكون كمية من السمن.

وهذا وقد منعت الخوة منذ قدوم سلطة السعوديين إلى الحجاز. كما أنها أصبحت ممنوعة في العراق. أما الخوة على القوافل العابرة فتفرض عادة من بعض القبائل الكبيرة، إلا أنها أصبحت ممنوعة بعد مجيء السعوديين إلى السلطة.

الذبيحة والمنيحة

تدفع من القبائل الأقل قوة للقبائل الأقوى

هناك عادة غريبة تعود في أصولها إلى أيام شبيب بن السعدون. الجد الأكبر لعائلة السعدون المشهورة بهذا الاسم وهم شيوخ المنتفك، فعندما قدم شبيب هذا إلى العراق، واستقر في الأجواد (الغراف)، صدف أن قتل ابنه من قبل بعض الرعاة، فقرر أن يعزز من قوته وسلطته بين البدو، وذلك بأن رفض الأخذ بثأر ابنه واحداً مقابل واحد، كما رفض قبول دية عن مقتل ابنه، ولكن اشترط بعض الشروط وهي:

١ ـ لا يقوم لأي شيخ من مشايخ الأجواد إذا ما دخل هذا الأخير إلى مجلس موجود هو فيه.

٢ ـ على كل شيخ من الأجواد أن يقبل خديه أو كتفيه، أما أولاد الشيوخ فينحنون حتى الركبتين أو حتى القدمين وذلك وفقاً لمقام ذلك الولد.

٣ ـ عند قيامه بزيارة إلى قبيلة الأجواد له الحق أن يطلب ما يشاء من حليب الغنم، أو الصوف، أو من الخراف كطعام له.

وقد وافق أفراد قبيلة الأجود بكل سرور على تلك المطالب، ومن هناك جاءت التسميات الذبيحة والمنيحة. لتوضيح الشروط التي طالب بها الشيخ شبيب السعدون. (شبيب جد السعدون).

وكلمات الذبيحة والمنيحة مفهومة بشكل جيد من قبل بدو شمال شرق الجزيرة العربية، فمثلاً، إذا قام رعاة المنتفك ودخلوا إلى الكويت، بحثاً عن مناطق لرعي مواشيهم، فيرسلون أولاً بعض رجالهم وبرفقتهم بعض الهدايا من الذبيحة والمنيحة.

وهذا يعني أن شيخ الكويت سيقاتل من أجل الدفاع عنهم، وسيجدون في الكويت كل ترحيب وتعني الذبيحة والمنيحة إلى حد بعيد، (إنني رهن إشارتك وطوع أمرك فأمرني بما تريد).

فقدان الحاجات في الصحراء

ذكر (لويس ميوزيل) في كتابه (عادات وتقاليد بدو الرولة) أشياء مفصلة وصورة واضحة ومدهشة، وأعطى صورة دقيقة عما يمكن أن يحدث إذا خسر أو فقد بعض البدو جزءاً من حاجياتهم، أو أحد إبلهم، أو خيولهم، أثناء ترحالهم أو تنقلهم في الصحراء.

حسب الأعراف البدوية ليس معيباً أن تسوق أي دابة تهيم على وجهها في الصحراء أو أي حاجة مطروحة على الأرض تلتقطها، وليس من واجب من وجد شيئاً أن يبحث عمن فقدها، ولا حتى مجرد السؤال أو حتى الإعلان عن أنه عثر على شيء ما

وفي بعض الحالات قد يقوم هذا الشخص الذي عثر على بعض المفقودات بإعلام الشيخ أو أحد وجهاء قبيلته بأنه عثر على كذا وكذا. وغالباً ما يحدث هذا الأمر عندما يبدأ صاحب العلاقة بالبحث عن أشيائه. وبالتالي يخشى ذلك الشخص الذي عثر على تلك المفقودات أن تؤدي أعماله إلى فضيحته إذا ما بقي محتفظاً بها. ولذلك فهو مضطر للإعلان عن أنه عثر على المفقودات كذا وكذا، وفي الحالة التي تكون هذه الحاجات ذات قيمة مثل الجمال أو الخيل أو الغنم فعندها يحق له أن يتلقى مكافأة مناسبة، تتناسب مع ما قام به من عمل. ويعتبر هذا حق للبدوي له أن يطالب بذلك.

لنفترض أن بدوياً كان في المسير مع عائلته، لا سيما أثناء الرحيل بحثاً عن المراعي وغالباً ما يجري الانتقال جماعياً وفي هذه الأحوال كثيراً ما تسقط حاجات محملة على الإبل لا سيما أثناء الانتقال ليلاً، عندما تكون بعض الجمال محملة بالخيم وأدواتها وحاجات أصحاب الخيمة، وعندما تقترب تلك الجمال من بعضها البعض ترتطم تلك الأحمال مع بعضها، وقد يسقط كثير مما تحمله الإبل من عدة وعدد، ولا يلاحظ سقوطها، ويمكن التنبه لفقدانها بعد مدة أو عند الوصول إلى مكان التخييم الجديد. ولهذا من عثر على هذه الأشياء يستطيع إخفاءها عن الأنظار وبالتالي قد يستعملها وتصبح ملكاً له، دون الإعلان عن عثوره على هذه الأشياء. وبالمقابل يلاقي من فقدها صعوبات جمة بالبحث عنها لأسباب عديدة. منها بعد المسافات التي اجتازها، وهو لا يدري أين فقدها، وقد تكون تلك الحاجة متوافرة لدى الكثيرين من البدو وبالتالي يسهل إخفاؤها... إلخ.

الفصل الرابع والثلاثون

الجراد

هنيئاً لكل بلد أو شعب لا يعرف الجراد بسبب آثاره المدمرة حيثما حل.

فإذا حلت جيوش الجراد وأسرابه بأرض فلن تبقي وراءها شيئاً أخضر، فلا شجر، ولا زرع، ولا عشب، إذ تأتي جيوش الجراد على كل شيء. ولا نبالغ إذا قلنا إن الجراد إذا حلَّ بأرض فلن يخلف وراءه سوى الخراب. هذا والأسوأ أن تأتي موجات الجراد على عدة دفعات، أو عدة موجات في عام واحد، فتقضي كل موجة على ما يمكن أن ينبت بعد الموجة التي سبقته لا سيما إذا كان الأمر يتعلق بشجيرات صحراوية. ولن تترك هذه الضيوف المؤذية وراءها شيئاً، فلا الأغنام أو الجمال بالإضافة للإنسان يجد ما يقيت الحياة، فتموت الحيوانات بالآلاف، وراء الآلاف، وليس من حل ممكن، وتصبح مشكلة الرعي معقدة جداً أمام البدو.

ويعتقد البدو أن الجراد يمر سنوياً بشمال إفريقيا، وفي وسط وجنوب إفريقيا، ثم بلوخستان، فالهند وبلاد فارس، العراق وتركيا.

كما يعتقد أن مصادر الجراد الرئيسة بالنسبة للمنطقة، هي إفريقيا، منها تنتشر إلى مناطق متعددة فتتجه نحو الجزيرة العربية، وغالباً ما يكون الطريق من الحبشة، فشبه الجزيرة العربية، وقد تكون بعد الحبشة اليمن كمرحلة أولى، ومن هناك تتوزع أسراب الجراد. فبعضها يتجه باتجاه بلوخستان، فالهند عن طريق شواطىء جنوب شبه الجزيرة العربية.

أما الطريق الآخر فهو باتجاه الحجاز، ثم نجد، فشمال شرق شبه الجزيرة العربية، ثم باتجاه العراق، فبلاد فارس.

وفي بعض الأحيان قد تمر بمصر ثم تجتاز صحراء سيناء، ثم فلسطين، وأحياناً أخرى تجتاز بعض الأسراب البحر الأحمر مباشرة منطلقة من الحبشة، ثم تتجه باتجاه جنوب غرب شبه الجزيرة العربية.

أما أنواع الجراد التي تجوب عادة تلك المناطق من العالم فهي، من ذات اللون الأحمر، وتعرف محلياً باسم (بخاخ) أما النوع الآخر فهو النوع الصحراوي ذو اللون الأصفر، هذا ويأكل الناس النوع الأحمر في شبه الجزيرة العربية، ويأكلون الإناث دون الذكور، وتقلى بالزبدة، وأحياناً تغلى بالماء فقط، وهي من الأكلات التي يحبها سكان شبه الجزيرة العربية كثيراً. ومن الأكلات التي يشتهيها الناس هناك.

وقد كتبت هنا بعض ما شاهدته من مذكرات حول الجراد.

فهنا، أذكر موجزاً عما ذكرته، - أ - تميز الربيع والخريف من عام ١٩٢٩ بأعداد كبيرة من أسراب الجراد، وهي من الأنواع الطيارة، وقد أتلفت مناطق الشمال الشرقي من شبه الجزيرة العربية، كما تعرضت المراعي في تلك المناطق إلى خراب كلي، وقد صادف أن أمطار الخريف قد جاءت مبكرة نسبياً فقضت على ملايين الحشرات من هذا الوباء، ولكن ظهرت أسراب جديدة قادمة من الحسا، في فصل الشتاء.

- وهناك أوصاف مماثلة للسنوات، - ١٩٣٠ - ١٩٣١ - ١٩٣٢ . . . . الخ.

الفصل الخامس والثلاثون

الطيور البرية

يشبه هذا الفصل بقية الفصول الأخرى من هذا الكتاب ذلك أنه يتضمن الملاحظات الشخصية التي كنت أجمعها خلال وجودي في تلك المنطقة من العالم بحكم وظيفتي، وبنفس الوقت إشباعاً لهوايتي الشخصية حول هذه المواضيع. كنت أدون كل ذلك في مذكراتي التي هي من أهم مصادر كتابي هذا، وليعذرني القارىء إذا بدرت مني بعض الأشياء التي قد تختلف عن تجربته، لأنني هنا أعتمد بالدرجة الأولى على تجربتي الشخصية وعلى ما أحاول أن أجمعه من الآخرين.

ومن وجهة النظر الخبيرة بموضوع الطيور البرية، تعتبر الكويت عموماً ـ والتلال المحيطة بمدينة الكويت على وجه الخصوص ـ من أكثر المناطق أهمية في الشرق الأوسط مصدراً لدراسة الطيور المهاجرة، حتى أن بعضاً من أهل الخبرة بهذا الموضوع يصف المنطقة بأنها نهاية لممر طويل تمر منه الطيور المهاجرة شمالاً وجنوباً كل عام لا سيما الطيور التي تنطلق من جنوب شرق شبه الجزيرة العربية، والهند والمناطق الواقعة على طول الشاطىء الغربي للخليج العربي، أو لتلك الطيور المنطلقة في رحلتها باتجاه الجنوب مرة ثانية في طريق عودتها إلى مواطنها الأصلية. وهناك الآلاف من الطيور التي تمر فوق الكويت كل عام والممر الساحلي بعرض يبلغ الـ ٢٠ ميلاً ويمتد باتجاه الجنوب على طول شواطىء شبه الجزيرة العربية، ومن المحتمل أن تكون هذه الهجرات السنوية، رحلات من الشمال إلى الجنوب وبالعكس، وتختار في طريق ذهابها وإيابها الشواطىء الغربية لمنطقة الخليج العربي. وتحدث معظم رحلات هذه الطيور في فصل الربيع بالكويت. ويحط الكثير منها رحاله هنا وعلى طول شواطىء شبه الجزيرة العربية.

ومن المحتمل أن هذه الطيور تختار المناطق القريبة من الشواطىء نظراً لبرودة جوها نسبياً من جهة ولتوافر المياه لشربها من جهة أخرى، وتبقى منها أعداد كبيرة في تلك المناطق أثناء مواسم توالدها ولا تتابع رحلتها باتجاه الجنوب، وتضع بيوضها، ولهذا نجد الكثير من صغار هذه الطيور بين أيدي الناس خلال مواسم تكاثرها. والبعض من هؤلاء الناس يستخدم مثل تلك الطيور الصغيرة للطعام والبعض الآخر للعب بها.... الخ. هذا ومن الأمور المدهشة حقاً أن يقوم الناس بالتقاط العديد من هذه الطيور حتى من على أسطحة المنازل، في الكويت، ويستخدمها أيضاً لنفس الأغراض التي ذكرتها.

ويمكن تصنيف أنواع الطيور المهاجرة إلى ثلاثة أنواع رئيسة:

أ ـ الطيور القادمة من شمال فارس، وشمال آسيا الصغرى، وتتم رحلتها إلى الكويت في أشهر فصل الشتاء، أما أنواع هذه الطيور فهي: **الحبارى، الزقزاق، النسور، الصقور، والكروان، والعقبان.**

ب ـ الطيور التي تهاجر سنوياً من الشمال إلى الجنوب وبالعكس. أما أنواعها فهي، **طيور القطا، الحمام البري الفارسي، والطيور المائية المختلفة** من أنواع متعددة **والصقور العوسقية.**

جـ ـ كذلك الطيور المهاجرة بحثاً إما عن الدفء أو العكس. مثل **البط، والبط النهري صغير الحجم، وطيور الشنقب، وبعض الطيور المائية من النوع الصغير الحجم.**

هذا، ويكون أول ظهور للطيور الواردة في الفقرة ـ أ ـ مع بداية شهر تشرين الأول، عندما تبدأ الأمطار بالسقوط في تلك المناطق. وتزداد هجرة هذه الطيور، وتبلغ أشدها خلال تشرين الثاني، ونجد منها الآلاف وحتى مئات الآلاف خلال أشهر كانون الأول، وكانون الثاني، وشباط، وذلك من كل نوع من الأنواع المذكورة في الفقرة ـ أ ـ في الأراضي الواقعة خلف المناطق الساحلية. أما خلال شهري آذار ونيسان، وعندما تصبح الكويت مغطاة بالأعشاب فتنتشر في كل مكان. وفي نهاية شهر نيسان تبدأ تلك الطيور بالاختفاء من الكويت. إذ تعود من حيث أتت إلى المناطق الشمالية الباردة من هذا العالم. وليس من السهل تحديد طرق عودة هذه الطيور إلى المناطق التي أتت منها، ولكن من الممكن القول إن الطيور التي كانت موجودة على طول ساحل الخليج العربي تأخذ طريقها مروراً ببلاد فارس، ثم تتجه شمالاً إلى مناطقها، بينما تتجه تلك التي حلت في أواسط شبه الجزيرة العربية، فتجتاز متجهة الشمال الشرقي مروراً

بالعراق ثم تتجه نحو الشمال على جبهة عريضة، هذا وكما ذكرت في مكان آخر تبقى من هذه الطيور أعداد قليلة تضع بيضها، ومن المعتقد أنها تستمر حتى فصل الصيف، فيمكن العثور على بيض الحبارى وغيرها، كما يمكن العثور على بعض بيض طيور القطا، وغالباً ما يكون ذلك خلال شهري أيـار وحزيران، ويقال إن شيوخ بني خالد من الحسا ونجد منذ قرون طويلة في عز مجدهم وأثناء قوتهم، كانوا يمنعون أياً من الناس دخول بلادهم ممن يتسبب في العبث ببعض بيوض الطيور مثل القطا.

أما الطيور الواردة في الفقرة ـ ب ـ فيبدأ قدومها خلال النصف الأول من شهر نيسان إلى الكويت، والمناطق الواقعة على طول الشاطىء الشرقي لشبه الجزيرة العربية، وتتجه عائدة نحو مناطق الشمال، كما ويمكن مشاهدة بعضها وهو يتجه نحو الجنوب حتى منتصف أيلول.

أما ما يتعلق بالطيور الواردة في الفقرة ـ جـ ـ فيمر معظمها فوق الكويت ليلاً، ذلك لعدم توافر البحيرات والمستنقعات في الكويت والتي يمكن أن تجذب انتباه هذه الطيور المائية، ويمكن أن يسمع طيران هذه الطيور خلال الليالي في شهري أيلول وتشرين الأول. ومرة أخرى أثناء عودتها إلى مناطقها الأصلية تسمع أيضاً ليلاً خلال شهر نيسان.

وقد حدث في عام ١٩٣٣ أن حدثت أمطار غزيرة، تشكلت على أثرها عدة غدران من المياه، وقد خرجنا في رحلات صيد لصيد البط إذ وفدت بأعداد كبيرة، لا سيما في المناطق الواقعة على ٤٠ ميلاً جنوب مدينة الكويت وفي المنطقة المعروفة باسم العريفجان.

ويمكن العثور أحياناً على طيور البجع، والفلامنكو، أو «النحام» وبعض الطيور البحرية مثل صياد المحار. . . . الخ. وتوجد عموماً في أطراف الخليج الغربية. وأغلب الظن أن هذه الطيور تأتي من منطقة بحيرة الحمر في العراق، وتمضي عدة أيام وتقفل راجعة بعد ذلك.

كما أن هناك بعض الطيور في الجزر الكويتية الصحراوية الخالية من السكان، وهذه الجزر: وربة، وأوها، ومسخن، وأم المرادين، وتقوم تلك الطيور البحرية بوضع بيوضها عادة بهدوء خلال فصل الربيع، حتى أن كثافة البيوض لا تمكن أي إنسان يمر فيما بينها من تجنبها، وذلك لكثرتها، إذ أنها تنتشر في كل مكان لا سيما في جزيرة أوها. ويذهب البعض عادة إلى هذه الجزيرة لجمع بعض البيوض لأغراض مختلفة.

ونورد فيما يلي ملخصاً لما كتبته في مذكراتي حول الطيور المهاجرة:

أ ـ طيور القطا في الكويت:

١ ـ تهاجر إلى الشمال، هرباً من مناخ الجنوب، مروراً فوق الكويت بأعدادٍ كبيرة جداً، ويبدأ مرورها عموماً اعتباراً من العاشر من شهر نيسان وحتى الثلاثين منه.

٢ ـ حدث في عام ١٩٣٥ أن جادت السماء بغيث عميم، ونما العشب بوفرة، وكان طقس الربيع بارداً نسبياً فحدث أن تأخرت مواعيد هجرات الطيور حوالي الشهر عن مواعيدها المعتادة.

٣ ـ كانت هجرات القطا العادية تجري كل عام في وقت مبكر من شهر نيسان، إلا أنه في هذا العام (١٩٣٥) كادت أن تتوقف باديء الأمر، ثم شاهدنا أعداداً منها بتواريخ، ٤، ٦، ١١، أيار عندما كنا نخيم مع عجمان في منطقة تقع إلى الغرب من مدينة الكويت، بـ ٢٢ ميلاً، وبقيت أعداد منها لبناء أعشاشها كما جرت العادة.

٤ ـ كانت أغلب الأعشاش، موجودة فوق الرمال المجروفة، وكانت مغطاة بأغصان شجيرات متناثرة هنا وهناك، كما كانت مموهة ببعض الحصى بحيث تصعب رؤيتها، أما ألوان الحصى فكانت قريبة بألوانها من ألوان ريش تلك الطيور. وبعض البيوض كانت موضوعة بين فجوات صغيرة.

٥ ـ وجدنا ذات مرة بعض الأعشاش في العراء كما هي لا تمويه لها ولا غطاء ولا أي شيء. كما شاهدنا بعضها وقد غطيت بإهمال ببعض أغصان الشجر، بلا عناية ولا ترتيب. كما وجدنا بعض البيوض مهجورة بلا عناية.

٦ ـ شوهدت بعض الأعشاش وقد كسرت بيوضها، وأكلت محتوياتها، ويبدو أن محتويات البيوض تعتدي عليها عموماً طيور (الدغناش)، وهذا النوع أيضاً من الطيور المهاجرة من تلك التي ترافق طيور القطا، ويروي البدو أن الأفاعي تشارك بأكل محتويات بيوض الطيور من مختلف الأنواع، وتمتص محتوياتها دون تحطيم قشرتها الخارجية بالكامل. أما إذا كانت الثعالب قد هاجمت البيوض فإنها لا تترك منها أثراً في أغلب الأحيان أو أنها تترك بعض القشور.

٧ ـ تشبه بيوض القطا بحجمها بيوض الحمام، لكن ألوانها تشبه ألوان الرمال، منقطة بلون أصفر، هذا وإذا ما اقترب أحدهم إنساناً أو حيواناً من أحد أعشاش الطيور على مختلف أنواعها تطير فزعة، وتقف على بعد ياردات قد لا تزيد عن الثلاثين، وتلف وتدور حول عشها وهي تصرخ طالبة النجدة من الطيور الأخرى، وتبقى على

تلك الحال تراقب صغارها أو بيضها، كأنها تستجير بأن أحدا يسبب الأذى لها، وقد يهاجم بعض أنواعها تلك الحيوانات التي تقترب من أعشاشها.

ب ـ **عصفور الذعرة.** وهو بلون أصفر، صغير الحجم، وله ذنب طويل نسبياً، وتراه وهو يطير هنا وهناك، وهو يلاحق الحشرات الطائرة والفراشات، ولا يخشى الحيوانات، إذ يجول بينها.

جـ ـ **الدغناش:** وهناك أنواع كثيرة من «الدغناش» الذي تستحق الملاحظة، إذ يضع هذا النوع من الطيور عشه عادة بين شجيرات العوسج الشائكة جداً لا سيما في تلك المناطق. وإذا ما تفحصت تلك الأعشاش وحولها وجدتها ملأى بالحشرات من مختلف الأنواع، حتى من بينها بعض الأفاعي الصغيرة إذ يجلبها هذا الطائر ليقتات بها. ومن بينها السحالي من مختلف الحجوم.

د ـ **الهدهد:** يشاهد في مختلف أنحاء الكويت بألوانه الزاهية، ويقال إن مصدره الهند، وهذا احتمال قوي، ويشبه الهدهد طائر الدغناش، ويصل إلى الكويت عادة قبل بقية الطيور المهاجرة الأخرى، كما أنه يغادر الكويت باكراً.

هـ ـ **السماني أو الفري:** وهو طائر يشبه الحجل بشكله إلا أنه أصغر حجماً، وهو يطير على ارتفاع منخفض.

ز ـ **الحمام الفارسي:** ويشاهد بأعداد كبيرة خلال شهر أيار، وبداية شهر حزيران. وأعداده هذه تتجه نحو الشمال، ولا تشاهد أثناء توجهها نحو الجنوب. ويجري اصطيادها بأعداد كبيرة في الكويت، كما أن الناس يحبون لحم ذلك الطير كثيراً.

حـ ـ **السنونو:** ويبدأ ظهوره في وقت مبكر من شهر آذار كل عام، وتشاهد أسرابه متجهة نحو الشمال، وتستمر حتى نهاية شهر نيسان، وفي رحلتها المعاكسة تبدأ بشهر تشرين الأول بأعدادٍ كبيرة جداً، وتراها في ساعات الصباح الأولى صفوفاً متراصة ممتدة على أعمدة الهاتف، وفيما بينها على خطوط الهاتف المعلقة في الهواء استعداداً لرحيل يوم آخر جديد.

التسميات التي يطلقها البدو على بعض الطيور البرية

- **العقاب.**
- **أبو حقب:** غراب أبيض اللون وأسوده.
- **عصفور الدرجين:** طائر من جنس الزقزاق، مشهور بسرعة عدوه.

- الغرموك. الفلامنكو.
- القطا.
- قوبة. (القبرة).
- الغراب.
- الحبارى.
- الهدهد.
- الحمامي.
- الطير الحر.
- الكروان.
- الحضيرى: البط البرىء.
- المريعي: الفري.
- النسر.
- القبيسة: البوم.
- الرقية: السنونو.
- الوز
- الشيهان.
- الزرزور.
- السيماناب. الحميراء..

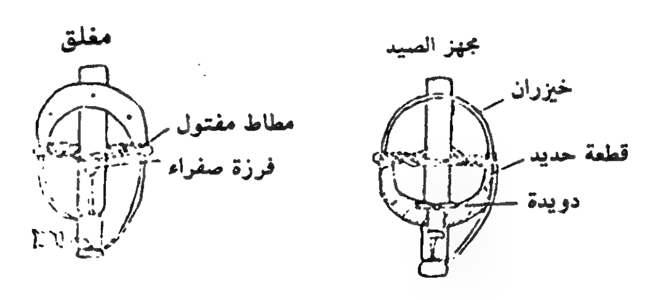
صيد الطير بالفخ

هناك ثلاث وسائل لصيد الطيور، وتستخدم عادة لصيد الطيور الصغيرة الحجم. وتعرف بالأسماء التالية:

أ - الفخ: يستخدم عموماً لصيد الصقور من ذوي الأحجام الصغيرة، إذ يفد هذا النوع من الطيور بالآلاف كل عام إلى الكويت في نهاية شهر آذار، ومطلع شهر نيسان، علماً أن أفضل طريقة لصيد تلك الصقور تبقى الشباك، هذا ويجري عادة ربط نهاية الفخ ويربط هذا الحبل بشجرة قريبة، ويبلغ طوله حوالي القدمين، ويجري إخفاء الفخ في الرمال بشكل جيد حتى لا يثير انتباه تلك الطيور، وتربط أيضاً دودة أو عدة ديدان لجذب انتباه الطير الذي يحب أكل الديدان. وما إن يمسك الصقر بتلك الدودة حتى ينطلق الفخ حول عنقه.

ويجرى نصب الفخاخ عموماً بالقرب من الشجر لا سيما من تلك التي يحتمل

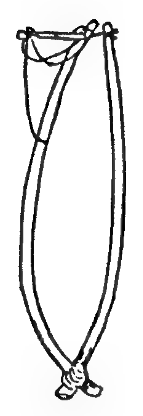
وقوف تلك الطيور عليها، وما إن يحس الطير الحر أو سواه بوجود الديدان حتى يحوم حولها عدة مرات، ثم ينقض عليها، وتكون الحيلة قد انطلت عليه، إذ يكون الصياد عادة على مسافة قريبة يراقب ما يجري وليتدخل في اللحظة الحاسمة، وما إن تقع فريسته في الشرك الذي نصبه لها حتى يأتي مسرعاً، فيخلصه من ورطته، ويعيد صلي فخه، أو فخاخه من جديد، ثم يتأكد الصياد من سلامة طيره، فيتفحص الأجنحة خشية إصابتها ببعض الكسور. ثم يتأكد من جديد من حسن نصب فخه من جديد، وفيما إذا كانت لا تزال مربوطة إلى الشجرة..... الخ. الشكل (٥٦).



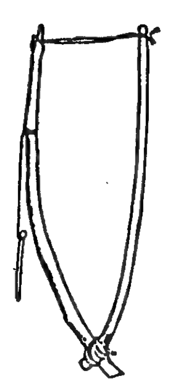
الشكل (٥٦) الفخ

هذا وتستخدم الفخاخ لصيد أنواع الطيور الأخرى من ذوات الحجوم الصغيرة والمتوسطة، وهناك أنواع أخرى يمكن استخدامها حتى لصيد الحيوانات المفترسة، وهي ذات حجم أكبر.

ب ـ **الصلابة**: تستخدم عموماً لصيد العصافير الصغيرة، وتنصب على الأشجار مباشرة، أو تنصب على أشجار اصطناعية على سطوح المنازل. ويمكن نصب عدة صلابات بآن واحد على تلك الشجرة الاصطناعية أو الطبيعية حتى يمكن أن يبلغ عددها الست في آن واحد. كما تنصب خارج مدينة الكويت على حيطان الطين الفاصلة بين الحويطات أو فوق شجيرات الورد، وعندما تحط الطيور التي تنصب عليها الصلابة، تنطلق الصلابة على الفور لتمسك بأرجل ذلك الطير، إذ لا يستطيع الخلاص. الشكل (٥٧).



ب ـ المصيدة مجهزة



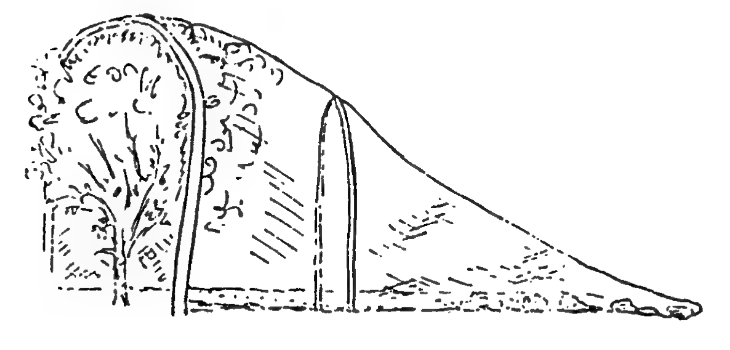


أ ـ المصيدة مطلقة

الشكل (٥٧) الصلابة

جـ ـ الصالية: تستخدم عموماً لصيد الطيور من الحجم الصغير نسبياً، وتنصب أيضاً في الشجيرات الصغيرة التي تنبت في (الحويطة ـ أي البستان الصغير) وتنتشر تلك الحوطات في جنوب مدينة الكويت.

تتألف الصالية من شبكة صغيرة تشبه تلك التي تستخدم في صيد السمك بشكلها. وتثبت تلك الشبكة على هيكل من قضبان الخيزران المحني على شكل قوس، وتلقى الصالية عادة على شجرة صغيرة في أحد جوانبها، وتثبت على الأرض من الأسفل، ويجري تثبيتها بوضع حجارة كبيرة يصعب تخليصها، وتعطي مظهراً كأنها كهف منصوب بالقرب من الشجرة لايهام العصافير أو الطيور للدخول للاحتماء بها لسبب أو لآخر. وما إن تدخل العصافير لذلك الكهف المصطنع حتى يغلق بابه عليها، وتصبح حبيسة لا خلاص لها إلا بأيدي صيادها. الشكل (٥٨).



الشكل (٥٨) الصالية

الفصل السادس والثلاثون

الحيوانات البرية

في شبه الجزيرة العربية أنواع عديدة من الوحوش ولا سيما في منطقة الكويت منها:

١ - **الفهد الصياد**، ويسميه البدو (فهد).

٢ - **القطط المتوحشة**، ويسميها البدو (الهر).

٣ - **الوشق**، (من فصيلة السنانير)، وهو أصغر من النمر، ويسميه البدو (الإتفة) وهو نادر جداً، وقيل انه يشاهد بأعداد قليلة.

٤ - **الغُرَيرْ**، ويسميه البدو (الضرامبول) ويقال إنه يعطي رائحة كريهة لا سيما عند الدفاع عن نفسه. ويوجد في مناطق الصمان، بالقرب من الصفا.

٥ - **النيص**، وهو من الحيوانات الصالحة للأكل، حسبما يقول البدو، يوجد أيضاً في مناطق الصمان بالقرب من الصفا.

٦ - **القنافذ**، ويسميه البدو بـ(القنفوذ) وهو كذلك صالح للأكل.

٧ - **الفهد**، ويطلق عليه البدو أيضاً اسم (النمر). وهو نادر الوجود.

٨ - **الذئاب**، وهي من الحيوانات التي تهاجم دواب البدو، ومنها أعداد كثيرة.

٩ - **الثعالب**، ويسميها البدو (بأبي الحصين).

١٠ - **ابن آوى**، ويسميه البدو (الواوي) يوجد في مناطق الحسا، حول الهفوف والقطيف. أما في الكويت فيقال ألا وجود لها.

١١ - **الضباع**، وهي من الحيوانات التي يكرهها البدو.

١٢ ـ **اليرابيع**: من الحيوانات الصغيرة التي تشبه الفأر.

١٣ ـ وهناك نوع آخر من اليرابيع يطلق عليه البدو اسم الشراتي، ويمتاز بآذان طويلة.

١٤ ـ **الضب**، يأكله البدو.

١٥ ـ الوورال، وهي نوع من الأفاعي السامة.

البقر الوحشي، الغزلان... إلخ

ـ يسمى البقر الوحشي لدى البدو، (بالوضيحي). ويوجد في مناطق النفوذ شمال حائل، وفي مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية، وعلى أطراف الربع الخالي.

ـ الغزلان، أو الظباء، ويوجد منها ثلاثة أنواع مختلفة في شبه الجزيرة العربية وهي:

أ ـ **الريم**: وهي أكبر هذه الأنواع الثلاثة بحجمها. كما أنه الأجمل بشكله. ويقال انه الأطيب لحماً. لونه مائل إلى الحمرة، رملي، مع جوانب بيضاء، وكذلك في المؤخرة والبطن، كما أن الوجه الأبيض اللون أيضاً، ما عدا نطاق صغير على الأنف. ويظهر عن بعد أنه أبيض بالكامل.

ب ـ **الأدمي**: وهو نوع أصغر من سابقه، ولونه رمادي على الجانبين، وبطنه أبيض.

جـ ـ **العفري**. وهو أصغر أنواع الغزلان، رمادي اللون ومائل إلى البياض في القسم السفلي. أما القرون فهي متشابهة في الأنواع الثلاثة.

ـ النعامة: وقد أصبح وجودها نادراً في صحراء النفوذ، ما بين حائل والجوف، ويقال انها توجد في مناطق الربع الخالي.

ـ الماعز البري، ويطلق عليه البدو اسم (الوعول) ويوجد منه في جبال الحجاز وعسير واليمن.

حياة الحيوانات البرية في الصحراء

كانت صحراء الكويت، وشمال الحسا قديماً، تعج بالحيوانات المتوحشة، وأنواع الحشرات المختلفة كما يقال. إلا أنها بدأت بالتناقص منذ زمن طويل، لا سيما بعد اختراع السيارات التي ساعدت على صيد هذه الحيوانات بأعداد كبيرة. وبالطبع

يوجد صيادون لقضاء حاجة الجوع لكن آخرين يذهبون للصيد للمتعة، وهم يصطادون كميات كبيرة أحياناً. وسأقدم فكرة موجزة عن هذه الحيوانات من خلال ما كتبته في مذكراتي اليومية. دون التعرض للتفاصيل.

الوورال، ذو الرأس الشبيه برأس الحية (المونيطور):

وقد يصل طول الوورال حتى ٣,٥ أقدام، وله لسان طويل يمده عند اصطياد الحشرات، كما تفعل بقية الأفاعي وهو من الحيوانات المؤذية، والمفترسة، وإذا ما هوجم الوورال يدافع بشراسة، إذ يندفع في اتجاه المهاجم وتصدر عنه أصوات تشبه أصوات الكوبرا.

ويمكن أن يتحرك بسرعة، وهو من أكبر أعداء أنواع الضب المختلفة، والحراذين، والجرذان. ويهاجم الوورال هذه الحيوانات ويلتهمها. ويقول البدو: (إن عضة الوورال سامة. وقد تكون أحياناً قاتلة في بعض الأحيان). ويقولون أيضاً: (إن عضة الوورال تسبب آلاماً مبرحة)، ولا يعرفون أي نوع من الإسعافات التي يمكن أن تقدم في مثل هذه الأحوال.

كما يعتبر البدو أن الوورال من الحيوانات القذرة لذلك فهم يعافون أكله، وقد تكون أسباب كراهيته، لأنه يشبه الأفاعي. هذا ويتغذى الوورال بالأعشاب، لكنه في نفس الوقت مثله مثل الأفاعي وأنواع الضب المختلفة من الحيوانات المغرمة بالجراد.

أما لون الوورال فهو بلون الرمل، وله ذنب ناعم الملمس، طويل وقوي. وله حول الذنب حلقات سوداء بلون قاتم، أما لون البطن، فهو أصفر شاحب، وليس له حراشف.

وبعد الضب يأتي في مقدمة أعداء الوورال الأفاعي السامة وغير السامة، والتي تلتهمه بسرعة، ويقال إن الوورال - إذا ما عضته إحدى الأفاعي ينطلق مباشرة نحو شجيرة الرمرام، ويلف نفسه حولها، ويأكل بعض أوراقها. ويقال أيضاً إن تلك الأوراق، تقوم مقام الترياق ضد سم الأفاعي، وعلى أي حال وبمراقبة الطرق التي يستخدمها الوورال، كمهارته الطبيعية في الهرب من آثار سم الأفاعي، والتخلص منها بأكل أوراق شجر الرمرام، والتفافه حولها، فقد تعلم البدو قيمة الرمرام في معالجة سم الأفاعي، وبالفعل فقد أدت تلك المعالجة إلى نتائج جيدة.

الضب:

يعرف هذا النوع من السحالي برأس أنفه الأفطس، وبذنبه الضخم، والمغطى بالنتوءات المتقرنة. فهي التي تشكل سلاحه الرئيس في الدفاع عن نفسه.

ويوجد الضب في كل مكان فوق المناطق الشمالية ـ الشرقية من شبه الجزيرة العربية، وغالباً ما تفضل تلك السحالي الأراضي الحصباء عن الأراضي الرملية، ويعيش الضب في أي ثقب بالأرض يمكن أن يخفيه، طالما تجاوز عمقه ٤ أقدام. ويحفر عادة ثقوبه بشكل متعرج. وقد يكون من المشاهد العامة أن مثل تلك الحيوانات تتشمس بشمس الخريف عموماً بالقرب من ثقوبها، وسريعاً ما تنسل إليها إذا أحست بأي خطر. أما في فصل الشتاء فتختفي نهائياً، وتظهر من جديد في أواخر الربيع، وخلال أشهر الصيف، كما هو الأمر بالنسبة لجميع الزواحف ذوات الدم البارد، ويبلغ أقصى طول لهذه السحالى حوالي ٣ أقدام، وهي من الأنواع الشرسة.

وأكبر أعداء الضب هو الوورال، إلا أن الضب مسلحٌ أيضاً بأسنان قوية للدفاع عن نفسه، إلا أن سلاحه الرئيس يبقى ذنبه.

وللضب أيضاً مخالب حادة، وله بطن أبيض، ويطلق فحيحاً يشبه فحيح الأفاعي إذا أحس بالخطر.

وعند ظهور الضب للمرة الأولى ـ بعد أن يمضي سبات الشتاء ـ يكون لونه أصفر لماعاً، وما إن يقترب فصل الخريف حتى يكتسب لوناً رمادياً ـ مخضراً، مخططاً مع ألوان صفراء مخططة فوق الظهر، وتظهر تلك الحلقات الصفراء على امتداد الذيل ما بين الحراشف الخشنة.

وتضع أنثاه بيوضها بحدود (٥٠ ـ ٦٠) بيضة، وتغطيها عادة بالرمل. وما إن يحين موعد تفقيس البيوض، حتى تعود الأم من جديد ويقال بأنها تأكل جميع تلك المواليد ما عدا ثلاثة منها، تضعها على ظهرها وتحملها أينما ذهبت ـ ويقال إنها تضع واحداً على رأسها، وآخر على ظهرها والثالث على مؤخرة الظهر.

هذا ويتناول الضب في طعامه بعض الأعشاب، إلا أن الغذاء الرئيس له الجراد من نوع الجندب، وأنواع الحشرات الصغيرة الأخرى، أما الجراد فيعتبر الغذاء المفضل للضباء.

ـ الخصوى:

الخصوى نوع من السحالي، لكن من النوع الحساس وأقصى طول يمكن أن

يبلغه هو ٧ إنش، ويشاهد في كل مكان في شمال ـ شرق شبه الجزيرة العربية، فتراه يتنقل من شجرة عرفج إلى أخرى، وهو يحرك ذنبه بسرعة على الدوام، ولهذا النوع من السحالي جلود حساسة ناعمة.

هذا ويسمى بين قبيلة شمر بـ (السليمانية).

ـ **الخنافس**:

توجد أعداد كبيرة من تلك الخنافس في الصحراء لا سيما في الأماكن التي يخيم فيها البدو، حيث تتجمع أعداد كبيرة من هذه الخنافس حول براز الحيوانات، ويعرف محلياً باسم (أبو جلة) أو (أبو جعل). ويبدأ ظهور تلك الهوام في مطلع الربيع، يشاهد وهو يدحرج بعضاً من فضلات الدواب.

ـ **الأفاعي**:

توجد في شمال شرق شبه الجزيرة العربية عموماً، ولا سيما في المناطق الساحلية، أعداد كبيرة من الأفاعي. كما توجد أعداد منها في المنطقة الساحلية جنوب مدينة الكويت، وشمالي الحسا، ولكن معظم هذه الأفاعي من الأنواع غير السامة.

أما الأنواع السامة التي توجد في تلك المناطق فهي الأنواع التالية:

أ ـ **الكوبرا**.
ب ـ **الأفاعي** ذات **الحراشف**. أو ذات المادة القرنية.
جـ ـ **الأفاعي** ذات **الأجراس**.

وقد صادف أن تم قتل النوع ذي الحراشف أكثر من مرة في بيت الكاتب في مدينة الكويت. وتم إرسال تلك الأفعى إلى متحف التاريخ الطبيعي في بومباي بالهند، وتأكدت جميع المعلومات التي ذكرتها عن تلك الأفعى.

أما النوع المذكور في الفقرة ـ جـ ـ فقد تم إرسال بعضها أيضاً، إلى متحف التاريخ الطبيعي في بومباي، كذلك تم التأكد من جميع المعلومات التي ذكرتها.

أما أفعى الكوبرا، فيسميها البدو بالحنش، وأوصافها تنطبق تماماً على أوصاف الكوبرا، وكنت أشك بوجود أفعى الكوبرا في شبه الجزيرة العربية، ولكن قتلت إحداها في عريفجان على بعد ٣٥ ميلاً إلى الجنوب من مدينة الكويت، على الشاطىء بتاريخ ١٧/نيسان/١٩٣٥ وقد قست طول تلك الأفعى فكان ٣ أقدام و ٦ إنش، وهي تشبه تلك الكوبرا التي تعيش في الهند، ولكن أصغر حجماً.

أما لون الأفاعي في تلك المناطق فهو من النوع الأصفر.

ومن الأشياء المميزة لهذه الأنواع أيضاً الجلد الخشن القاسي على طول جسم الأفعى، لا سيما في الظهر تماماً كما هو الأمر في الأفعى الهندية، أما البطن فهو بلون أبيض مائل إلى الصفرة.

أما العيون فهي بلون أصفر ذهبي، مع نقاط سوداء داكنة في الوسط، وتظهر هذه العلامات الأخيرة، عندما تكون تلك الأفاعي في حالة الغضب.

أما الأسماء التي يطلقها البدو على الأفاعي فهي:

أ ـ **الحنش**: أفعى، بلون أسمر لمَاع، قريب من لون الرمال، مع نقاط سوداء في القسم الأسفل باتجاه المؤخرة. يبلغ طول **الحنش** ٤ أقدام، كما أن تلك الأفاعي من النوع الجريء، وتشعر بغضبها سريعاً، ولذلك تهاجم متحديها فوراً.

ب ـ **هام**: أفعى سوداء اللون، بطول يصل من ٣ وحتى ٥ أقدام وهي بلون أسود (الكوبرا).

جـ ـ **حية**: وتطلق هذه التسمية على جميع أنواع الأفاعي.

يقول البدو من خبرتهم إن الأفاعي المذكورة في الفقرتين أ ـ و ب ـ هي من الأنواع السامة.

د ـ **الزراق**: أفعى بلون الرمال، مع خطوط سوداء على طول جسم تلك الأفعى، يتراوح طولها بين ٢,٥ ـ ٣ أقدام. تتحرك بسرعة وبشكل مستقيم ـ وليست كبقية الأفاعي ـ بطريقة متعرجة. ويقول البدو إن هذا النوع من الأفاعي غير سام.

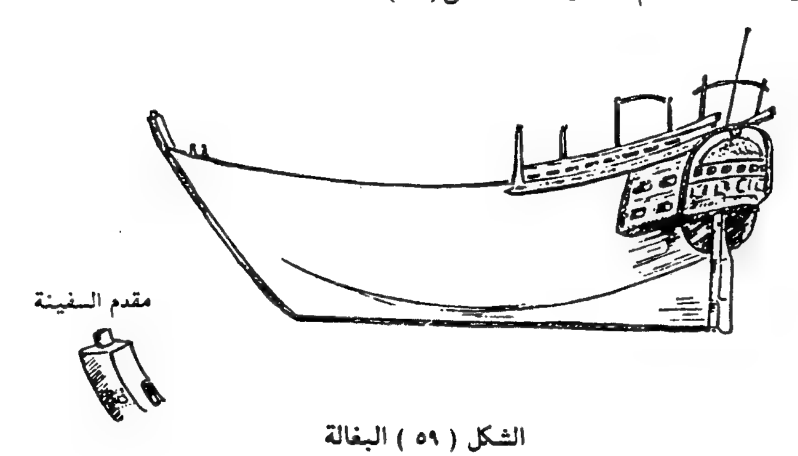
الفصل السابع والثلاثون

بناء السفن

تشتهر الكويت بصناعة السفن. ويقال إن أحسن السفن والزوارق ما صنع في الكويت. وقد يعود السبب الرئيس للطقس الجاف، وهذا ما يجعل الخشب هناك من أحسن الأخشاب التي تستخدم في صناعة السفن والزوارق في منطقة الخليج كلها. وقد طرأ تحسن كبير على صناعة السفن في الكويت خلال الخمس والثلاثين سنة التي خلت.

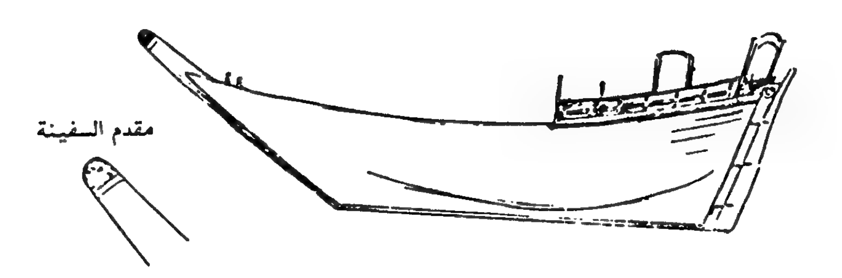
ومن أنواع هذه السفن:

ـ **البغالة**: كانت هذه السفينة فيما مضى أضخم السفن الشراعية التي تمخر عباب البحر، كما كان لها زوايا صلبة حادة، ونوافذ في المؤخرة، وتعتبر من أحسن السفن ذات الحجم المتوسط. الشكل(٥٩).



الشكل (٥٩) البغالة

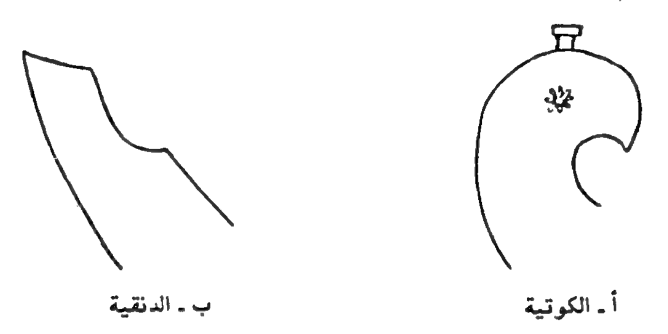
- **البوم**: أضخم السفن التي تبنى حالياً في الكويت، ويقال اليوم عنها إنها أحسن السفن للنقل البحري في الكويت، فهي أحسن من البغالة، ولها مقدمة حادة، كما أنها أسرع، وأصبحت بالتالي أحسن السفن التي تعبر البحر منطلقة من الكويت أو إليها، وللبوم أحجام مختلفة، منها الكبير والصغير، وتصل حمولات بعضها إلى ثلاثمئة طنٍ. ولهذه السفن عموماً صاريان، إلا أن لبعضها ثلاثة صواري لا سيما العريضة منها. ولهذه السفن مقدمة طويلة، ومستقيمة، مع مؤخرة مدهونة بلون أسود، مع حلقات سوداء. الشكل (٦٠).



الشكل (٦٠) البوم

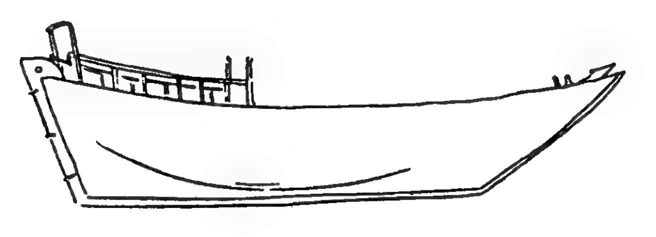
- **الكوتية والدنقية**: وهي من السفن التي تصنع في الهند، إلا أنها كثيراً ما تستخدم في الكويت، وهما مشابهتان للبغالة والبوم إلى حد بعيد، والأولى أكبر حجماً من الثانية، وكما قلنا تشبه البغالة إلى حد بعيد سوى أن مقدمة الكوتية لها شعار مميز، وغالباً ما يكون على شكل رأس عصفور مع منقاره، وهو يتجه برأسه نحو الخلف، أما البغالة فليس لها سوى مقبض مسطح.

أما الدنقية، فهي قليلة الاستعمال، وهي تشبه إلى حد بعيد سفينة البوم، سوى أن مقدمة البوم يشبه بشكل أكثر مقدمة سفينة الشوعي.



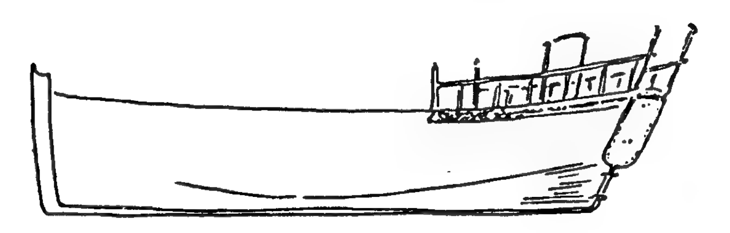
الشكل (٦١) مقدم السفينة الكوتية والدنقية

ـ البلم: وهي تصنع في شط العرب، وهناك نوعان منها، البلم النصاري، والبلم العشاري، والأخيرة تشبه إلى حد بعيد البوم، إلا أن المقدمة في البلم العشاري كأنها مقطوعة قطعاً، كما أن مظهرها يعطي انطباعاً عن سوء بنائها، كما تبدو سيئة التجهيز أيضاً. الشكل (٦٢).



الشكل (٦٢) البلم النصاري

ـ الجليبوت: (أو الجلي، كما يسميها البعض) ويظهر من أسمها أنها تقليد للباخرة الانجليزية (جولي بوت) وقد لا يكون هذا هو السبب الحقيقي لتلك التسمية. وأغلب الظن أن الاسم العربي والإنجليزي قد جاءا من اسم الباخرة (غالفات، أو غيليوات) وهو الاسم الذي يطلق على المركب الحربي الذي كان يستعمل في منتصف القرن الثامن عشر وحتى الآن في شواطىء الهند الغربية. وهناك احتمال أن تلك التسمية قد جاءت من النوع البرتغالي المسمى (غالوتا). الشكل (٦٣).



الشكل (٦٣) الجليبوت

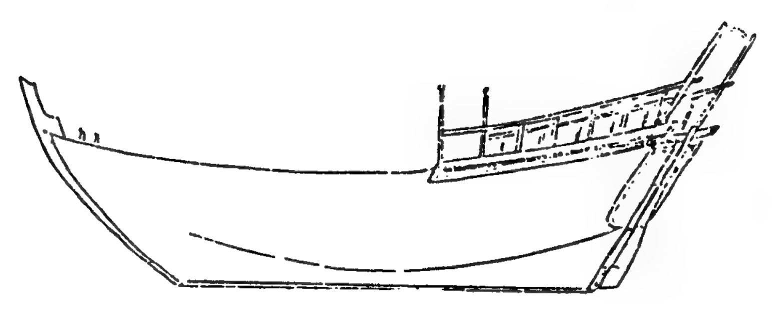
ومن الجدير بالملاحظة أن السفن ذات المؤخرات المربعة مثل السامبوك، والشوعي لها عارضة خارجية علوية، (لاأعرف الاسم الفني) حيث تستند وتعلق عليها دفة السفينة. أما في السفن من طراز الجليبوت، فغير موجود نهائياً.

ـ المَشُوَّة: لها شكل القارب، لكنني لم أميز فروقاً بين المشؤة والجليبوت، علماً بأنني سألت عن الفروق لكنني لم أتلق جواباً مقنعاً، إذ تلقيت نفس الوصف في كلا الحالتين.

ـ **السمبوك**: تستخدم السمبوك أكثر ما تستخدم في صيد اللؤلؤ. إذ يستخدمها صيادو اللؤلؤ في منطقة الخليج، ومن النادر أن تستخدم لأغراض أخرى.

ويقال إن القسم المربع الخلفي أو مؤخرتها، وكذلك القسم المقعر فيها، مكيف بشكل يسمح بسرعة الانطلاق بواسطة المجاديف، إذ يتطلب ذلك الأمر القيعان التي يوجد فيها اللؤلؤ.

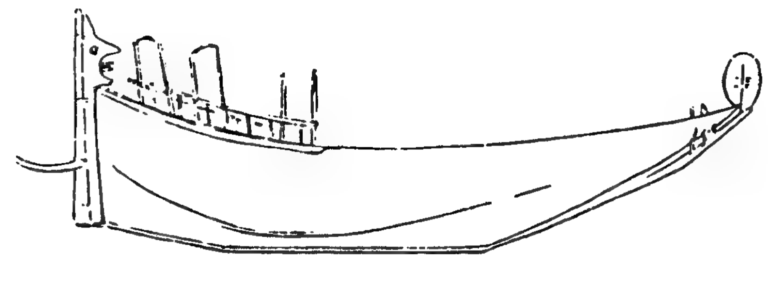
ـ **الشوعي**: يشبه إلى حد بعيد السمبوك، إلا أنه أصغر حجماً. على أي حال فإن الفرق الحقيقي أن في المقدمة بعض الأشكال التزيينية فقط. الشكل (٦٤).



الشكل (٦٤) الشوعي

على أي حال إن سفينة الشوعي كثيراً ما تستخدم في الكويت، لا سيما في صيد السمك، وصيد اللؤلؤ. أي من قبل الغطاسين.

ـ **البتيل**: هو طراز مميز وخاص من المراكب أو السفن الأخرى. لكنه أصبح نادر الوجود في الكويت الآن. ويستخدم الآن فقط من قبل قائد الأسطول البحري الخاص بصيد اللؤلؤ. ويقال إنه من أسرع المراكب البحرية المعروفة في المنطقة وكان يستخدمه قراصنة المنطقة في قديم الزمان. الشكل (٦٥).



الشكل (٦٥) البتيل

- **الزاروقة**: ويقال إنه أصغر أنواع المراكب على الإطلاق، لكنني لم أشاهد أحدها طيلة إقامتي في المنطقة.

- **البدن**: كذلك لم أره طيلة إقامتي في المنطقة، ويقال إنه صغير، مثل البكرة.

- **الحوري**: وهو مصنوع من جذع شجرة فقط، ويحمل من قبل المراكب العربية.

- **الحويرية**: لم يستطع أحد من البحارة ممن سألتهم أن يحدد بالضبط صفات ذلك المركب ويعتقد أنه من أقدم المراكب في العصور القديمة. وقد يكون هذا القدم في العالم أجمع. ويصنع كلياً من سعف النخل. تربط هذه السعف مع بعضها البعض بحبل أو خيوط من الصوف أو من ورق النخيل. ويقال إن طوله يبلغ ١٠ أقدام فقط ومخصص لحمل رجل واحد، وأحياناً رجلين، ولكن بصعوبة.

الفصل الثامن والثلاثون

صيد اللؤلؤ بالغوص

مما لا شك فيه أن أدق أنواع اللؤلؤ وأجودها في جميع أنحاء العالم، هي المستخرجة من منطقة الخليج العربي، وهناك حوالي خمسة آلاف مركب تستخدم جميعها لصيد اللؤلؤ والبحث عنه داخل محاراته. ويعتبر موسم صيد اللؤلؤ من الناحية الرسمية، اعتباراً من ١٥ أيار، وحتى ١٥ أيلول. وهناك بعض الهواة ممن يبدأون بالصيد قبل هذا الموسم بـ ١٥ يوماً وينتهون بعده بـ ١٥ يوماً. وتعرف هذه الاستثناءات باسم الخانشية، والرضة بالتتالي.

كانت الأساطيل البحرية المخصصة لصيد اللؤلؤ عموماً تعود إلى دول الكويت، البحرين، قطر، والخليج المتصالح [دولة الأمارات العربية حالياً]، وبدرجة أقل من القطيف، وجبيل. كما كان هناك القليل من السفن التي كانت تنطلق من الشاطىء الشرقي للخليج.

هذا وكانت صناعة اللؤلؤ مزدهرة جداً قبل الحرب العالمية الأولى، في منطقة الخليج، إذ كانت تنطلق من الكويت كل عام حوالي ٧٠٠ سفينة مخصصة لصيد اللؤلؤ، وعلى متونها ما يتراوح بين (١٠٠٠٠ ـ ١٥٠٠٠) بحار جميعهم من المشتركين في صيد اللؤلؤ. إلا أن الكساد الاقتصادي الذي تلا الحرب العالمية الأولى، بالإضافة إلى ظهور وانتشار اللؤلؤ الصناعي الياباني، في كل أنحاء العالم، زاد وبشكل كبير من أزمة صناعة اللؤلؤ الطبيعي. أما اليوم «١٩٣٧» فهناك بعض الدلائل والعلامات التي تشير إلى تحسن انعكس على استعادة صناعة السفن لدورها في المنطقة، وهناك كثير من الأمال التي أخذت تنتعش من جديد في إحياء صناعة اللؤلؤ من جديد.

ويقول بعض الخبراء، منهم صديقي (فكتور روزنتال) من باريس، إنه لا يمكن أن يحل اللؤلؤ الياباني الصناعي محل اللؤلؤ الطبيعي، المستخرج من مناطق الخليج العربي. وذلك للأسباب التالية:

أولاً: لأنه لا يمكن مقارنة اللؤلؤ الصناعي، مع اللؤلؤ الطبيعي لا سيما من ذوي اللون الوردي ـ القرنفلي المستخرج من مناطق الخليج، يضاف إلى ذلك أن اللؤلؤ الصناعي لا يحتفظ بألوانه.

ثانياً: لأن اللؤلؤ الاصطناعي لا يتلاءم بشكل جيد مع صلابة الفضة، ولا يماثله بالشكل، لكن في كل مرة يسيطر على العالم عسر اقتصادي ينعكس هذا العسر على مجالات الحياة المختلفة، يبدأ البحث عن الأشياء التي تلبي الحاجات بطريقة ما ضمن طاقات محدودة، وما إن تمر حالة العسر، إلا ويعود العالم من جديد مع تجدد الازدهار الاقتصادي إلى البحث من جديد عما يرضي الذوق وتعود الأمور إلى مجاريها.

ثالثاً: وهناك عامل آخر لا يقل أهمية عن العوامل الأخرى التي ذكرتها أدى أيضاً إلى إلحاق الضرر في تجارة اللؤلؤ الطبيعي في العالم أجمع، ألا وهو التقدم الذي طرأ على صناعة السيارات، فالفتاة اليوم تفضّل أن تشتري سيارة أكثر من اهتمامها بعقد اللؤلؤ الذي كانت تبحث عنه أمها وجدّتها في الماضي. فالسيارة بالنسبة لها هو أكثر فائدة من عقد اللؤلؤ، ويعتقد أن الحاجة للسيارة قد بلغت حدها النسبي، لا سيما في أوروبا وهناك دلائل تشير إلى أن النساء الشابات بدأن بالبحث من جديد عن أمثال هذا اللؤلؤ بعد أن أشبعن حاجاتهن من السيارات خلال مدة معينة. وقد تكون فكرتها الآن (أعطني السيارة أولاً، ثم العقد).

هذا، وإنني أعتقد أن ليس في العالم أجمع حياة أقسى وأصعب من حياة صيادي اللؤلؤ في منطقة الخليج العربي وذلك للأسباب التالية:

أولاً: إن لباس الغطس لا يزال حتى الآن غير مسموح به في منطقة الخليج.

ثانياً: تتوافق مواسم صيد اللؤلؤ مع أشهر الصيف الحارة جداً في منطقة الخليج، إذ يخيم على المنطقة سكون مميت، مع حرارة شمس لاهبة لا تطاق.

ثالثاً: لا يستطيع الغطاسون البقاء طويلاً تحت الماء فهم لا يتناولون من الطعام سوى أقله، إذ يتألف طعامهم في أغلب الأحيان من قليل من الماء مع الأرز المسلوق، وبعض حبات التمر.

رابعاً: إن المياه الملحة تزيد من تعرض الغطاسين للشمس، ويزيد من حاجة الغطاسين للمياه العذبة للاستحمام بعد قضاء يوم كامل بالغطس، ولكن لا يستطيع الغطاسون في الخليج الحصول على المياه العذبة هذه. وبسبب تلك الحاجة وذلك النقص يصيب جلود الغطاسين نوع من الأمراض الجلدية الخطيرة.

خامساً: يعتبر داء الأسقربوط من أخطر الأمراض التي يتعرض لها الغطاسون بسبب سوء التغذية، وهو يصيب الغطاسين على الدوام.

سادساً: يتعرض الغطاسون لخطر سمك القرش، كما أن هناك أخطار أسماك قنديل البحر أو الأسماك الهلامية، إذ أن خطرها على الغطاسين أشد من سمك القرش، وهناك أخطار أخرى.

مراحل أعمال صيد اللؤلؤ

ما إن يقترب موسم الصيد حتى يبدأ معه الاستعداد، فيبدأ ربابنة المراكب بالبحث عن الغطاسين الجديرين، وعن تجهيز المؤونة اللازمة، أما بالنسبة للغطاسين فكل واحد منهم يملك سجلاً خاصاً بخدماته. يسجل فيها عادة كل ما قام به الغطاس من أعمال خيراً كانت أم شراً. ثم يقوم الطاقم المختار من قبل القبطان بالبدء في عملية تجهيز وتحضير المركب للغوص، فيجري دهن القسم الخارجي، كما يدهنون القسم الغاطس، وعموماً يتألف من شحم الغنم. وبعد ذلك يقوم الطاقم بسحب المركب قريباً من الماء، حيث قضى فصل الشتاء، ويقوم البحارة بإطلاق صيحات حماسية، تدفعهم إلى حماس أكثر، وتختلط تلك الصيحات عادة مع نوع من الغناء. وتستخدم الحبال الغليظة للمساعدة في الجر وتعلق تلك الحبال عادة بالحلقات الأمامية.

وهكذا يصبح المركب في مياه البحر، بالإضافة إلى أنه يصبح مزوداً بكل المؤونة اللازمة، من التمر والرز كما تملأ خزاناته بماء عذب كاف.

وبعد أن يصبح كل شيء جاهزاً، يسمح للطواقم بقضاء يوم مع عائلاتهم لوداعهم، ولما كان أغلب البحارة من الفقراء، فإنهم يستلفون عادة مبالغ زهيدة لمعيشة أهلهم، وقد لا تتجاوز تلك المبالغ ٣٥ ريالاً لكل واحد، يسلفهم إياها قبطان السفينة الذي يطلقون عليه اسم (النخودة) وهناك قانون في الكويت يصدر عن شيخ الكويت شخصياً يحدد مقدار السلفة سنوياً.

وما إن تعود مراكب صيد اللؤلؤ ومعها طواقمها وصيدها من اللؤلؤ بعد قضاء

أربعة أشهر في الغوص المضني، ومهما كانت نتائج الصيد حسنة أم سيئة، فإن صيادي اللؤلؤ يتلقون مبلغاً آخر يطلق عليه اسم (تسكام) ليستطيع الغطاس أن يؤمن لعائلته حاجاتها الضرورية، وغالباً ما يكون ذلك المبلغ ديناً على ذلك البحار ليعود للعمل في موسم الصيد المقبل.

أما المراكب المستخدمة في صيد اللؤلؤ فهي ـ كما ذكرنا في فصل سابق ـ من نوع السامبوك، أو الشوعي أو البتيل. وتنطلق هذه المراكب عادة في وقت واحد تقريباً على طول شواطيء شبه الجزيرة العربية، لتصل إلى منطقة تبعد تقريباً حوالي ١٠٠ ميل إلى الجنوب من مدينة الكويت، ويقال إن قيعان البحر هناك جيدة وصالحة لصيد اللؤلؤ، كما أن المياه ليست عميقة، وتتجمع في تلك المنطقة مئات مراكب الصيد المخصصة لصيد اللؤلؤ. وتكون جميعها تحت لإمرة أميرال أسطول صيد اللؤلؤ، وهو في مركبه الخاص البتيل، وهناك يبدأ الغواصون عملهم.

ويقسم طاقم كل مركب إلى قسمين، إما (سياباً) أو (غواصاً)، فالأول يكون مسؤولاً عن مساعدة الغواص على الغوص حتى قاع البحر، أما الآخر فيقوم بمهمة الغوص بحثاً عن محارات اللؤلؤ.

هذا ويربط الغواصون إلى حجارة مسطحة، يضع كل واحد منهم حجره عليه أثناء عملية الغوص. كما يربط بنفس الوقت بحبل يربط بسفينة الصيد.

وتسمح تلك الصخرة للغواص، بالغوص عميقاً في المياه بسرعة كبيرة، كما أنها تساعده على البقاء في قاع البحر، أما مهمة (السياب) فهي المسك بالحبل عندما يحين الوقت للغواص بالتنفس.

وليحمي الغواص نفسه من دخول المياه إلى جهازه التنفسي، يقوم عادة بوضع قطعتين من الخشب في فتحتي أنفه كما يقوم بتثبيت سلة إلى صدره ويمرر أنشوطة الحبل حول رقبته. هذا ويتسلح الغطاسون عادة بسكاكين صغيرة، من أجل المساعدة على فصل محارات اللؤلؤ عن القاع الصخري حيث تكون عالقة. كما يلبس قفازات لحماية أصابعه من أي احتمال.

ويلبس الغواصون عادة لباساً خفيفاً لتستر عوراتهم فقط، أما إذا كان هناك احتمال بوجود سمك قنديل البحر، فإن الغواصين يلبسون عندها درعاً من القماش السميك من اللون الأسود يغطي الرأس والأرجل والوجه وبقية الجسم وتترك فتحات خاصة بالعيون فقط.

وهكذا يستمر الغواصون في عملهم، نزولاً إلى القاع ثم خروجاً إلى السطح، وتصل مدة العمل إلى ٦ ـ ٨ ساعات في اليوم الواحد، مع بعض دقائق قليلة يقضيها في استراحات قصيرة، وتناول وجبة طعام خفيفة، مما يتوافر من حبات التمر أو قليل من الرز. أما السياب فمهمته لا شك أسهل من مهمة الغواص وهو شد الحبل صعوداً ونزولاً.

هذا وما إن يصل الغواص إلى قاع البحر حتى يبدأ بالبحث عن محارات اللؤلؤ. فيلتقطها ويجمعها إلى سلته المعلقة على صدره.

وهكذا يستمر العمل حتى المساء تقريباً، ويتناول البحارة من جديد وجبة الطعام المعهودة، ويستعدون من جديد إلى يوم آخر من ذلك العمل الشاق.

قد تحدث أحياناً أن تهب العواصف أثناء عمليات الصيد، فيضطر البحارة إلى اللجوء سريعاً إلى بعض الأماكن الآمنة ليتقوا بها شر تلك العواصف، وتكون بالتالي فرصة مناسبة لينال الغطاسون قسطاً من الراحة، كما يقومون بالاغتسال من المياه الملحة التي تؤثر على جلودهم وتسبب لهم آلاماً مبرحة، إذ أن المياه العذبة التي بحوزتهم يمنع استخدامها إلا لقضاء حاجات الشرب فقط.

ـ الطواشة:

وما إن تمضي عدة أسابيع على بدء موسم صيد اللؤلؤ إلا وينطلق تجار اللؤلؤ ويدعون بـ(الطواشة)، نحو مناطق الصيد، وهناك يأخذون بالتجول على مراكب الصيد، ويتفحصون بخبرتهم كميات وأنواع اللآليء المستخرجة وتبدأ عمليات المساومات والزيادات على الأسعار والبيع. هذا ويجري في كل مساء عادة بعد غروب الشمس فتح الصدفات لاستخراج حبات اللؤلؤ منها.

ومع قرب نهاية موسم الصيد، يبدأ ظهور مرض الاسقربوط على بعض البحارة، وهنا يجب إعادة المصابين إلى الكويت للمعالجة، ويتم إرسال هؤلاء عادة بعد تجميعهم في أحد المراكب. أو في مراكب خاصة تقوم عادة بتزويد أسطول الصيد بالمياه العذبة. وتقوم هذه المراكب عادة برحلات نظامية ما بين مناطق الصيد ومدينة الكويت.

ـ إقفال موسم الصيد:

في نهاية الأربعة أشهر المحددة لصيد اللؤلؤ عادة، يقوم حاكم الكويت نفسه بزيارة منطقة الصيد، ويطلق هناك عدة طلقات من المدفعية معلناً انتهاء موسم صيد

اللؤلؤ، وتعرف تلك الإشارة بين الصيادين بـ(القفال). وبعد ذلك تندفع مراكب الصيد عائدة بسرعة باتجاه مدينة الكويت، فإذا كان اتجاه الريح ملائماً ترى أسطولاً ضخماً مؤلفاً من حوالي ثلاثمئة مركب تتزاحم كلها في سباق من أجل الوصول والاستراحة.

وما إن تبدأ مراكب الصيد بالوصول إلى المنطقة المواجهة لمدينة الكويت، حتى تستقبل بالطبول والزمامير، وتنطلق من جديد بعض طلقات المدافع إعلاناً عن وصول الصيادين. وتندفع النساء بعد أن لبسن أجمل ما لديهن من ثياب لاستقبال أزواجهن بعد ذلك الغياب الطويل، ويخيم على المدينة بالكامل جو من الفرح والسرور، كما يعم جميع أنحاء الكويت، فترى النساء والأطفال قد تجمهرت جماعات جماعات لاستقبال العائدين.

وما إن تلقي تلك المراكب العائدة مراسيها على شواطيء السلامة حتى يسمح للغطاسين بالذهاب فوراً إلى بيوتهم، أما (السياب) فيبقوا حتى ينهوا ما يجب القيام به من ربط مراكبهم على الشاطيء بعد سحبها قليلاً على اليابسة، وبعد فرك جسم تلك المراكب جيداً وتنظيفها وإعادة تزييتها.

- بيع الصيد:

يأخذ الآن (النخودة) محصوله من اللؤلؤ إلى السمسار أو الوسيط، وهناك تبدأ مساومات البيع، ويستمر الرهان والمزاودة، وتدوم مدة المراهنة والمزاودة بين شهر وستة أسابيع، وخلال هذه المدة تقدم للبحارة عادة سلفة أخرى (تيسكام)، وما إن تتم عملية البيع حتى يتم إعطاء البحارة ما بقي لهم من أجور. هذا وإذا كان موسم الصيد وفيراً يتلقى الصيادون عندها أجراً جيداً، وإلا فالأمر عكس ذلك، وقد يصدف أحياناً ألا يتلقى الصيادون إضافة على ما أخذوه من قبل، وكل ذلك يتوقف على مواسم الصيد. وتنشأ أحياناً نزاعات وخصومات بسبب ذلك، وقد تؤدي إلى نتائج سيئة.

وتبدأ من جديد عملية تحضير مراكب الصيد، لا سيما عمليات الفرك والدهن... إلخ.

أسماء اللآلىء وأنواعها

- **الجيوان:** اللؤلؤ تام الأوصاف والمثالي.

- **الشرين:** يأتي في الدرجة الثانية بجودته. وهو أيضاً يصنف من الأنواع الجيدة.

ـ **الغلوار**: ليس له شكل مدور تماماً، أما لونه فلا يختلف كثيراً عن لون السابقين.

ـ **الغات**: يأتي ترتيبه متأخراً بجودته فهو من الحجم الصغير، أما اللون فهو غير جيدٍ.

ـ **البدلة**: وهو من ذوي الحجم الضخم، أو أضخمها، وله منظر مختلف، يعطي طابعاً خاصاً لا يسر كثيراً.

وإذا ما رغب أوروبي بالشراء فمن المفضل له أن يتوجه فوراً إلى سوق اللؤلؤ، وعليه أن يتوجه بعد ذلك إلى الدلال وهناك يمكن أن يطلب منه حاجته، وسيلبي تلك الحاجة ويتخلص بالتالي من صعوبات كثيرة.

أما إذا كان الشاري من القادرين على المساومة فعليه أن يتوجه إلى (النخودة) فهم يتجولون عادة على طول الشاطيء منذ عودة مراكب الصيد من مهمتها، ويستمرون حوالي عشرة أيام يقضونها عادة في المساومات وشراء ما يمكن شراؤه. وبعد ذلك يتحول ما بقي من اللؤلؤ إلى أيدي السماسرة والوسطاء، ومن ثمَّ تنتهي مواسم الصيد لذلك العام. ويبدؤون من جديد بالاستعداد إلى موسم جديد.

وبعد ذلك تنقل كميات اللؤلؤ المتبقية، إلى البحرين، حيث يوجد هناك المركز التجاري الرئيس لتجارة اللؤلؤ في منطقة الخليج كلها، إذ يتقاطر سنوياً تجار اللآليء من مختلف أنحاء العالم لا سيما من الأوروبيين والهنود ويقومون بشراء ما تحتاجه تجارتهم من اللآليء ويقفلون عائدين لبلادهم.

ونشير هنا إلى أن أعظم تاجر أوروبي لهذه المادة يتعامل بها منذ عدة سنوات هو (روزنتال وإخوته، بيت باريس)، وفي هذه الأيام فقد انتقلت تلك التجارة إلى أيدي هذا التاجر الكبير (الروسي ـ الفرنسي، اليهودي السيد فكتور روزنتال)، وهناك تاجر آخر مشهور لهذه المادة، ألا وهو (علي زينال)، وهو مصري ـ هندي، ثم السيد (باك) من باريس ـ بومباي. والسيد (حبيب، فرنسي ـ تونسي)، وهناك أخيراً (عبد الرحمن قصيبي) من البحرين وبومباي.

أقاصيص عن اللؤلؤ

هناك عدة أقاصيص وحكايات أشبه بالخرافات تحكي قصة تشكل حبات اللؤلؤ، وكيف تنمو وكيف تكبر، أما الأشياء المشتركة في هذه الخرافات والقصص فيقول

أغلبها، إن المحـارات عندما تريد أن تتحول إلى لآلىء تنتقل من الأعماق إلى سطح الماء أثناء سقوط المطر، وتفتح قواقعها، من أجل التقاط بعض قطرات المطر، ومع الزمن تتحول تلك القطرات إلى لآلىء.

وهناك رواية أخرى تقول إن حبات اللؤلؤ، ترغب أن يكون البحر هادئاً، على سطحه، وبكلمات أخرى، يقال إن قطرات المطر تنزل إلى الأسفل، حتى قاع البحر، وهناك تقوم بغسل حبات اللؤلؤ، وتنظفها من الطين والوحل، والأوساخ الأخرى، وينتج عن ذلك أجمل حبات اللؤلؤ.

أما في السنوات التي تكثر فيها العواصف فيقولون إنها تصبح من الأنواع الرديئة، كما تصبح نادرة، وتأتي تلك الأحوال الجوية عندما يزداد غضب الله وتتحول المحارات إلى صدفات فارغة لا لؤلؤ فيها. وقد حدث فعلاً، في عام ١٩٣٥ أن من مجموع عدد المحارات الملتقطة، وكانت أعدادها كبيرة جداً خلافاً لما اعتاده الصيادون، أن معظمها كانت محارات فارغة، إذ قيل أن في كل ٤٠٠٠ محارة حبة واحدة من اللؤلؤ بينما في الأحوال العادية، هناك احتمال بوجود حبة لؤلؤ في كل ١٠٠٠ محارة. أما أهل العلم فيقولون إن القصة العلمية لتشكل اللؤلؤ هي:

أ ـ تدخل حبة رمل أو ذرة غبار، بطريقة أو أخرى إلى إحدى المحارات، وتنطمر في جسم المحارة فتهتاج المحارة لهذا الأمر وبعد ذلك تقوم المحارة باحتواء هذا الجسم الغريب، فتغلفه بعدة أغلفة (على غرار طبقات البصل)، من اللعاب، ويتحول هذا اللعاب مع الزمن إلى لؤلؤة ناعمة، وتبدأ تلك اللؤلؤة بالنمو، لا سيما إذا بقيت لوحدها بعد موت تلك المحارة.

ب ـ ويقال إن الهجوم الطفيلي يسبب دخول جسم غريب إلى المحارة فتحدث المحارة صفاً من الثقوب في صدفتها من الخارج، لتحيط وتنقذ نفسهـا من الدمار فينشأ عن ذلك حبة اللؤلؤ وتسد بها الثقوب، والبرهان على ذلك القروح التي تظهر على جوانب حبات اللؤلؤ.

ويمكن القول إن كلتا النظريتين يمكن أن تكونا صحيحتين، وقد تكون الأولى مقبولة في حالات اللآلىء العائمة أما الثانية فهي للشكل الخارجي فيها.

وقد تساءلت كثيراً فيما إذا كانت تلك المحارات عليها علامات نـزف نتيجة طبيعية لجسم غريب، إلا أنه لم يستطع أحد أن يعطيني جواباً صحيحاً، علماً بأنني توجهت بالسؤال إلى العديد من ربابنة السفن، وإلى العديد من الغواصين وغيرهم ممن يتعاملون ويشتغلون في هذا المجال.

اللآلىء السوداء واللآلىء البيضاء

يحكى أنه كان في بغداد وفي سالف الزمان أميرة وهي ابنة أحد الخلفاء وكانت تملك لؤلؤة سوداء كبيرة، نالتها هدية من والدها، وكانت اللؤلؤة نادرة، لهذا فقد كانت الأميرة فخورة بها، وقررت أن تحصل على ما يماثلها فلجأت إلى تاجر لؤلؤ مشهور وسألته إذا كان في قدرته أن يؤمن لها لؤلؤة مماثلة لتلك اللؤلؤة التي تملكها، ولم يَخْفَ على ذلك التاجر من هي صاحبة السؤال، على الرغم من أنها كانت تلبس على وجهها خماراً كثيفاً. فرد عليها: (إنه ليس بقدرته إجابة طلبها) وقال أيضاً: (إنه لا يوجد في هذا العالم لؤلؤتان متشابهتان تشابهاً كاملاً، وإن اللؤلؤة التي هي بحوزتها من أعظم لآلىء العالم على الإطلاق، وهناك حظ قليل جداً في إمكانية الحصول على لؤلؤة مماثلة لها). وقد تفحصت الأميرة جميع اللآلىء التي كانت بحوزة ذلك التاجر الكبير، كما أوصته بأن يسأل لها في كل أنحاء العالم إذا كان هناك ما يماثل تلك التي في حوزتها، وأخذت تتردد بين حين وآخر على ذلك التاجر المشهور أملاً في الحصول على طلبها.

وفي أحد الأيام بعد أن شعر بضيق من إلحاحها وترددها، وأخذ يحس بالحرج من إلحاحها، قال لها: لقد وصل إلى مدينتنا، رجل مشهور بصيد اللؤلؤ ويعتبر من أشهر من احترف هذه المهنة، وهو خبير كبير في جميع أنواع اللآلىء، كما أن ذلك الغطاس هو ابن أحد الغطاسين الذين اشتهروا في زمانه وشاعت شهرته في المنطقة، وقد خلفه ابنه في مهنته بعد وفاته، وقد تعلم الابن فنون صيد اللؤلؤ وأسراره، وهما من البحرين. وقال أخيراً: (يمكن أن يكون ذلك الرجل هو الوحيد في العالم الذي يمكن أن يلبي رغبتك).

وبعد ذلك أشار إلى رجل كان يجلس على الأرض على مدخل مخزنه، فقالت الأميرة، دعه يدخل لمحادثته وخذ حذرك عند الطلب إليه، ومن غير شك إنك تعلم أن قلبي حزين لعدم تمكني من إيجاد ما طلبته، وعدم قدرتك على مساعدتي. وكان اسم ذلك الرجل (عناد بن فرج) فتقدم من الأميرة بكل احترام وأدب، وكان شاباً جميلاً تبدو عليه ملامح الأدب والتهذيب، وكان يمتاز بجسمه الكبير المتناسق، وتوجه إليه تاجر اللآلىء بالحديث وخاطبه قائلاً: «يا عناد، هذه السيدة تملك لؤلؤة سوداء ذات حجم فوق العادة، ولها بريق يفوق غيرها، فهل لك أن تخبرها إذا كان بإمكانك أن تعلمها إذا كان بالإمكان إيجاد ما يماثلها في العالم، وهل في قدرتك أن تؤمن لها ذلك؟».

وبدأ صياد اللؤلؤ الشاب يتفحص تلك اللؤلؤة بعناية ودقة، وأخذ يقلبها

ويتفحصها بعين خبيرة ثم نظر إلى تلك الفتاة، وخاطبها قائلاً: (يا سيدتي لقد شاهدت تلك اللؤلؤة من قبل، وأعرف من أين أتت، وأعرف أن والـدي قد عثر عليها في إحدى المرات في كهف كبير مرعب، وذلك الكهف يوجد على عمق كبير في البحر جنوب البحرين، حيث يوجد هناك ويقيم عنكبوت من النوع المتوحش، وقد اكتشف والدي خلال قيامه بالغطس ومن خبرته الطويلة بشؤون الغطس وصيد اللؤلؤ، أن ذلك الكهف يحوي على أعظم لآلىء يـمكن أن توجد في العالم، وأغلبها من النوع الأسود الذي هو بحوزتك، وفي أحد الأيام حاول والدي أن يصيد إحدى تلك المحارات من ذلك الكهف بناء على طلب والدك، الخليفة العظيم، وقد كان والدي مشهـوراً بالجرأة والإقدام، فلم يشأ أن يرفض طلب الخليفة، فقرر الغوص بحثاً، وهو يعلم المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها في ذلك الكهف المخفور، وما إن وصل إلى ذلك القاع حتى بدأ على الفور بمصارعة ذلك الوحش الحارس لذلك الكهف، ولكن من أين لوالدي أن يتغلب على حيوان ضخم مثل ذلك المكلف بحراسة ذلك الكهف. وقد عثر على جسم والدي طافياً على سطح الماء بعد أن كان مشوهاً تماماً، ذلك أنه لم يستطع الصمود أمام ذلك الوحش الضخم، وقد عثرنا مع جثة والدي على لؤلؤة سوداء هي تلك التي بحوزتك الآن، وكان قد أخفاها معه، وعندما قمنا بفتح صدفتها، وجدناها من النوع الأسود ومن الأنواع التي لا تقدر بثمن وكما تعلمين الآن فقد كان ثمنها حياة أبي، ويعلم الجميع الآن أن ليس هناك مكان في العالم يمكن أن يوجد به ما يماثل هذا النوع من الآلىء. أما في ذلك الكهف المسحور، فإن محاولة الاقتراب منه تعني الموت المحقق).

وكانت الأميرة تصغي بإعجاب، ودهشت لهذه القصة المثيرة، وما إن انتهى عناد من سردها حتى توجهت الأميرة إليه بالسؤال، فيما إذا كان يتمكن من زيارتها في قصرها لأنها ترغب في متابعة سماع قصة ذلك الكهف المسحور وقصص أخرى حول صيد اللؤلؤ، وبالطبع وافق على طلبها شاكراً لها كرمها، وقد استعد لذلك الموعد، وكان يخامره الخوف والأمل، الخوف من طلبها وإلحاحها، وحباً في لقائها، وكيف لا وابنة الخليفة تستقبله في قصرها. وفي الموعد المضروب، كان على باب جناحها في قصر الخليفـة، وقدم نفسه إلى حرسها وقادوه على الفور إلى حيث تقيم الأميرة. وقد استقبل استقبالاً يـليق بالزوار من أصحاب الجاه والسلطان.

واستقبلته الأميرة بجناحها بكل ما يلزم من الود والاحترام، وأجلسته في قاعة مملوءة بالطنافس والتحف، وأحس أنه كان في حلم، وقدمت له الشراب بنفسها، وكان شراباً لم يتعود على مذاقه من قبل، إذ لا يوجد إلا في بيوت أصحاب الشأن، وكيف لا

وهو الآن بين أيدي ابنة الخليفة، وتقوم على خدمته بنفسها. وبعد ذلك توجهت إليه بوابل من اسئلة، حول ذلك الكهف المسحور، وعن ذلك الحارس (العنكبوت الوحشي)، ذلك الجبار، وعن الحيلة الممكنة للتغلب على هذا الوحش. وطال الحوار، والسؤال والجواب، وكانت تلح من جهتها على إمكانية التغلب على ذلك الوحش فالإنسان قادر على كل شيء، أما هو الخبير المجرب، كان يقول على الدوام بعدم تمكن أحد من العثور على ذلك الكهف، من جهة، وإذا ما عثر عليه فإن الاقتراب منه، يعني الهلاك المحقق.

وهكذا انتهت الزيارة الأولى على أمل لقاء آخر في موعد آخر حددته له في اليوم التالي، وهذا ما كان، واستقبلته بنفس الطريقة من الترحاب، وقدمت له حسب العادة من أطايب الشراب، وأعادت معه الحديث من جديد حول ذلك الكهف المسحور، وعن حارسه اللعين، وكيف يمكن لإنسان أن يتغلب عليه لينال ما يشاء من تلك اللآلىء السوداء نادرة الوجود، ألا تستحق أميرة مثلها، كل ذلك! وطلب عناد أن تأذن له بمغادرة القصر على أمل بلقاء آخر، وهكذا تكررت الزيارات وبدأت الأميرة تكشف عن القسم العلوي من وجهها، وظهرت من ذلك الوجه عينان لم ير من قبل لهما مثيل، أخذت منه لبه وأطارت صوابه، وهام بهما حباً، وأخذ سحر تلك العينين فخاطبته في إحدى المرات قائلة: (يا عناد أيها الشاب الشجاع، إن أمثالك لا يعدم الحيلة والوسيلة للتغلب على ذلك العنكبوت الوحش، وأظن أن فيك كل ما يلزم للتغلب على ذلك الأمر، فأنت الرجل الشجاع، ومن يملك عقلاً مثل عقلك وجسماً مثل جسمك لا بد وأن ينتصر على كل المصاعب التي يمكن أن تعترضه). هذا وكان سحر جمال عيونها قد أخذ بلبابه، فلم يجد جواباً، وأحس بأنه بدأ يشعر بحبها، ومقدار سيطرتها عليه، وقال لها أخيراً: (يا أميرتي لقد علمت من تاجر اللؤلؤ أنه لا يمكن أن تتشابه اللآلىء أبداً في العالم، لكني شاهدت في عينيك أجمل وأحلى لؤلؤتين في العالم، وقد تشابهتا تماماً، ومن أجل تينك العينين فإنني سأقوم بالبحث عن ذلك المكان، وإنني لعاثر عليه، كما أنني، سأقاتل ذلك الوحش من أجل عينيك، وإنني لمنتصر عليه ولا شك. وأخيراً فإن الله سبحانه وتعالى سيمنحني القدرة للتغلب على كل المصاعب التي ستعترضني وإنني لمنتصر بإذن الله).

ثم جاء دور الأميرة بالحديث، فتوجهت إليه وخاطبته: (يا عناد إذا نجحت في مهمتك وأعانك الله في الحصول على تلك اللؤلؤة السوداء، فلك الحق في أن تطلب ما تشاء، وستجدني رهن إشارتك لتلبية طلبك مهما كلف الأمر. وهذا وعد مني ويشهد عليه الله رب العالمين).

قفل عناد راجعاً إلى الكويت، وهناك لم يضع وقتاً لتنفيذ ما وعد به، إذ قام على الفور بتحضير نفسه لتلك الرحلة الرهيبة المحفوفة بالمخاطر، فقام بتحضير مركب يتناسب وتلك الرحلة، كما بحث عن الرجال الذين يمكن أن يثق بمقدرتهم على تقديم العون والمساعدة، وانقضى شهران، وهو دائب العمل. بلا كلل ولا ملل، وتم له العثور على خمسة من الرجال، الذين خبرهم وخبر فيهم الخبرة والشجاعة والمقدرة، واستعدوا لذلك اليوم المشهود، بعد أن تزودوا بالطعام والشراب، كما تسلح كل منهم بخنجر طويل من النوع الحاد، للدفاع به عن النفس. ولم يطل بهم الوقت كثيراً حتى وصلوا إلى المنطقة التي عثر فيها سابقاً على جثمان والده طافياً على الماء، بعد تلك الحادثة المشهورة، وكانت الشمس ساطعة، والسماء صافية، والجو معتدلاً والبحر هادئاً، يتموج بموجات صغيرة ناعمة كأنها ألوان خضراء زمردية، وبدأوا على الفور بالبحث عن ذلك الكهف المسحور، مستفيدين من هدوء الموج، وصفاء المياه، إذ لم تكن مياه البحر عميقة. فشاهدوا عن بعد في أعماق المياه ما يشبه ذلك الكهف الموصوف لهم، وقد بدا لهم أن مدخله كان محاطاً بشجرة عملاقة، تتحلق حول ذلك الكهف، وقد تبين لهم أن تلك الشجرة هي من المرجان.

أما خطة عناد التي كان قد قررها بعد دراسة وتمحيص، فتقضي بالغوص وحيداً، بعد أن سلح نفسه بذلك الخنجر القاطع، وقد لف وسطه بحبل طويل، ربطه بحبل آخر ترك نهايته عند أصحابه، وأعلمهم أنه عليهم الاسراع بسحب الحبل بقوة عندما يهز ذلك الحبل، وقام أيضاً ـ كما يفعل صيادو اللؤلؤ ـ فوضع قطعتي الخشب في فتحات أنفه، وربط نفسه بالصخرة المعروفة لتساعده على الغوص بسرعة، وأمر جماعته بمساعدته لتنفيذ المهمة فرموه في الماء، بعد أن صلى لربه، ودعاه لإعانته في تنفيذ تلك المهمة الخطرة، التي قد تكلف حياته، وما إن وصل إلى ذلك الكهف حتى وجد نفسه أمام مدخله، فتوجه إليه على الفور، وكان ينتقل بحذر وروية، وهو يراقب أية حركة يمكن أن تصدر من أية جهة كانت حتى لا تأخذه المفاجأة، ولم يلحظ في البداية أي شيء يمكن أن يكون غير عادي، سوى تلك الشجيرات الكثيفة من المرجان المحيطة بالمدخل، وكان من المرجان الأبيض واللون القرنفلي الأحمر، وتابع سيره باتجاه المدخل، شاهد على ذلك المدخل وعلى السطح، وعلى الصخور المحيطة أعداداً كبيرة من المحارات التي لم ير مثلها من قبل. فتوقف ومد يده لالتقاط ما يمكن أن يلتقطه منها وبدأ بقطع بعضها من الصخور القريبة منه، وما إن انتهى من الأولى وبدأ في قطع الثانية، حتى اظلم باب الكهف، وأصبح يلفه ظلام دامس، وشاهد في وسط هذا الظلام سرطعاناً ضخماً كأنه الوحش المفترس، وله ست أذرع عملاقة تنتهي

بأظافر كأظافر الشيطان، وقد تملكه رعب لا يطاق، ولم يدر إن كان في حلم أم حقيقة وسيطرت عليه لحظات من الخوف فلم يدر ماذا يفعل، وكان ذلك الوحش قد اقترب منه، بل أصبح قاب قوسين أو أدنى، ودون تفكير هز حبل الوصل مع رفاقه هزات عنيفة تبينوا على الفور معناها، وبسرعة البرق بدأوا بسحبه، إلا أن الوحش في هذه اللحظات كان فوق جسم عناد، وأحس عناد ألا بد من أن يدفع عنه ذلك الشر فاستل خنجره، وأخذ يدافع عن نفسه ضربة بضربة، وأن يقابل الهجوم بهجوم، وكان يدرك ما في فم هذا الوحش المفتوح من خطر عليه، وما كانت تسببه عيناه المفتوحتان الواسعتان من رعب له، وكانت سعة كل عين كأنها وعاء كبير، وهنا استل عناد خنجره وقرر أن لا خيار له سوى القتال، وكانت المعركة شرسة، إذ دافع بكل قوته موجهاً ضربته الأولى إلى عينه اليمنى وكانت الضربة محكمة فقد انغرز النصل في عين الوحش. وهنا شعر كأن شيئاً ما كان يعصره من وسطه، وقد أطبق عليه بإحكام، كاد أن يكسر منه حتى العظام، وشعر بآلام لم يألفها من قبل في حياته، إلا أنه لم ييأس ولم تهن عزيمته، فاستل خنجره من عين الوحش، وقد أصابت منه مقتلاً، وأخذ كل منهما يكافح بشراسة لم يألفها من قبل، فكل منهما يواجه الموت، إنها لحظات رهيبة، وأخذ عناد يوجه إلى خصمه ضربات في كل مكان يستطيع الوصول إليه، وفي نفس الوقت كان خصمه يناضل بقوة لا تقل عن قوته، وقد أحس عناد بغمامة سوداء تحجب عنه كل شيء، وتذكر في هذه اللحظات تلك الأميرة والهدف الذي جاء من أجله وبأيدٍ مرتعشةٍ تحسس تلك المحارة فوجدها لا تزال معه، وقرر أن لا يتركها طالما فيه عرق ينبض، ونفس يتحرك.

وبدأ شيئاً فشيئاً يغيب عن الدنيا، وأصبح لا يرى شيئاً فقد غاب عن الوعي، ولم يعد يدرك ما يدور حوله، وما إن أفاق من ذلك الكابوس، حتى وجد نفسه ممدداً بين رفاقه، وكانوا يقومون بفرك أطرافه بشدة في محاولة لإعادة وعيه إليه، وما إن أفاق من غيبوبته، حتى هنأوه بالسلامة، ثم نهض وصلى لربه وشكره على مساعدته في تنفيذ مهمته، ونجاته من خطر ذلك الوحش الغريب. وزاد من فرحه وسروره أنه وجد تلك المحارة التي جاء من أجلها، بأنها لا تزال سليمة معه، وفتحها بهدوء وروية، فشاهد داخلها أجمل لؤلؤة وقعت عيناه عليها في تاريخ حياته، وهي من النوع الأسود، وهو الخبير الأريب، وكانت تشبه لؤلؤة الأميرة، سواء من حيث الحجم والشكل.

ومرت الأيام، وانقضى شهر بكامله، كان عناد يستعد خلاله للذهاب وتقديم تلك الهدية إلى الأميرة ابنة الخليفة، وكان يأمل الكثير من وراءذلك اللقاء، وبعد أن

أتم استعداداته، قرر الرحيل إلى بغداد ومقابلة الأميرة. وما إن وصل إلى بغداد حتى توجه على الفور إلى قصر الخليفة، وإلى جناح الأميرة بالذات، فقدم نفسه إلى حراس القصر الذين قادوه إليها على الفور، وما إن استقر في غرفة استقبالها حتى جاءته على الفور تتهادى في مشيتها، وقد سبقها عطرها الفواح، وكانت تلبس أحلى ما عندها من ثياب، وكشفت عن وجهها على غير عادتها، ورفعت حجاب وجهها، ببشاشة، فقد أحست ـ ويقودها إحساس الأنثى ـ أن هذا الرجل الشجاع لم يأت لو لم يكن قد جاء بما وعد به، فنظر إليها بحياء، فرأى فيها جمالاً لم يحلم برؤيته من قبل، كما كان فيها كبرياء الأمراء، وما إن اقتربت منه حتى حيته أجمل تحية، ورحبت به ضيفاً في مقصورتها، ثم أجلسته إلى جانبها، وهنأته بسلامة العودة، ولم يطل بها المقام حتى سألته سؤال الواثق عما مر به، وأردفت: (أظنك قد عدت تحمل ما وعدت الأميرة به؟). فنهض عناد على الفور، ووقف قبالتها، ثم انحنى على ركبتيه احتراماً وإجلالاً لها، وأجاب: (أطال الله عمر الأميرة، كيف لا ورغبات الأميرة أوامر على أمثالي أن ينفذها مهما كانت الأخطار والأهوال). ثم رفع بيـديه المتقابلتين حتى قبالة وجهه كعلامة تبجيل واحترام وتقدير ومحبة، فنهضت من مكانها ومدت إليه يديها وأنهضته من مكانه، وتلقت منه تلك اللؤلؤة التي كادت أن تكلفه حياته، وأحسن أنها قد حازت على الدنيا، وتوجهت إليه بالثناء والشكر بعد أن امتدحت شجاعته ورجولته، ووفاءه بما وعد، وبعد أن أمطرته بوابل من كلمات الشكر والثناء، أخذت مكانها، وأمرته بالجلوس إلى جانبها، ليقص عليها ما جرى معه، فقص عليها سيرته بالكامل منذ غادرها حتى عودته إليها من جديد ولا سيما ذلك الوحش حارس ذلك الكهف. وما إن انتهى من سرد حكايته بالكامل حتى توجهت إليه بالكلام من جديد قائلة: (يا عناد كنت ذلك الرجل الذي وعد فأوفى بوعده، وقاسيت المصاعب، وواجهت الأخطار، وقد جاء دورك الآن فأطلب ما تريد مكافأة على شجاعتك وشهامتك وسترى الأميرة رهن إشارتك تحقق لك بإذن الله كل ما تريد. لقد منحتني تلك اللؤلؤة السوداء، وهي لا تقدر بثمن، وأكرر أنني الآن رهن إشارتك لكل ما تطلبه مهما كان الثمن، حتى لو كان ذلك الثمن يكلف حياتي).

فأطرق عناد برأسه إلى الأرض، وصمت قليلاً ولم يحر جواباً. فكررت عليه الأميرة الطلب، أن يطلب ما يريد، وبعد تردد وصمت أجاب عناد: (آه، أيتها الأميرة، آسف إن قلت، إنني قد تعلمت خلال حياتي، أن الفضيلة والحب، هما أغلى وأثمن ما في الوجود، وأنت يا أميرتي، ولا ريب أغلى من كل لآلىء الدنيا، ولهذا فإنني أتجرأ وأسمح لنفسي ـ وسيكون ذلك أعظم سرور أحصل عليه في حياتي كلها ـ لأن

لؤلؤة بيضاء مثلك لا يمكن لها أن تقترن بلؤلؤة سوداء مثلي، كتلك التي بين يديك، والتي كادت أن تكلفني حياتي).

وفجأة استل خنجره اللماع من خلال ثيابه وبحركة فاقت حركته في القضاء على ذلك الوحش الذي صادفه أمام ذلك الكهف المخيف، وجه به طعنة نجلاء إلى صدره، أصابت منه مقتلاً على الفور، دون أن يضيف كلمة أخرى، وكان عناد هذا أسـود.

الفصل التاسع والثلاثون

الرق

إنني لا أقصد هنا أن أكتب تحقيقاً مفصلاً كما تفعل الصحافة عندنا عن هذا الموضوع الهام، فلا شك أن هناك العديد من الكتب القيمة التي كتبت حول الموضوع، وكتبت عدة كتب عن العبودية والرق بشكل عام، وعن الرق عند العرب وفي شبه الجزيرة العربية بشكل خاص. علماً بأن من كتب في هذا الموضوع هم من أهل الخبرة والاختصاص، وهم على خبرة ومقدرة أكثر مني ولا شك.

كثير من الناس في العالم لا يزالون يجهلون حقيقة العرب، يجهلون طريقة حياتهم، ويجهلون حقيقة عقيدتهم الدينية والتي تتلاءم ولا شك مع حياة العصر كثيراً، هذا وإن المساعي التي أبذلها على الرغم من تواضعها هي لاظهار بعض الحقائق عن حياة هذا الشعب العظيم، فإنني أهدف من وراء عملي إثارة الحوافز والدواعي للمتخصصين للاهتمام بمشاكل هذا الشعب، وبخاصة في الظروف الراهنة، لأن هذه الأمور سيكون لها تأثير كبير على مجريات الأمور. هذا ويتطلع العرب إلى اليوم الذي يستطيعون فيه إعادة أمجادهم، كما حدث في الماضي، وإعطائهم الفرصة للمساهمة في بناء تاريخ العالم الحديث. وإنهم يشعرون بالضيق من محاولات الغرب فرض وصايته عليهم

ونعود من جديد إلى موضوعنا الذي نحاول به إعطاء فكرة عن الرق وتطوراته خلال التاريخ العربي باختصار، وأشير هنا أن أفضل ما كتب حول هذا الموضوع، واستطعت الاطلاع عليه، هو التالي:

أ ـ الكتاب الذي صدر بتاريخ ١٥/آذار/١٩٣٣ عن الشركة الملكية الآسيوية، بقلم (الدون راتر) وهو بعنوان (الرق في شبه الجزيرة العربية).

ب ـ التقرير الرسمي، الذي كتبه (السير هوف بيسكو)، وهو أحد ضباط الاستخبارات، ممن أقاموا مدة في منطقة الخليج العربي ويعود تاريخه إلى عام ١٩٣٣ أي في نفس العام الذي توفي فيه كاتب التقرير.

هذا وتعتبر مدينة الكويت أيضاً من المدن المتهمة بمثل هذا الموضوع، فيقال في الكويت، إن فلاناً عبدٌ أو رقٌ إذا بيع بثمن مهما قل أو كثر، ومن هذا المفهوم يمكن القول إن المماليك أصبحوا قلة تماماً، حتى درجة الندرة، بل لا أبالغ إذا قلت إنه لم يعد لهذه المشكلة من وجود.

من جهة أخرى، فالمولدون أو العبيد الذين يعيشون مع أفراد عائلات أسيادهم منذ قديم الزمان، وهم ممن ولدوا من أبوين كانوا عبيداً لديهم من قبل، أي ممن ينتسبون إلى عائلات عبيد سابقة، بقيت تلك العائلات للآن على الدوام في خدمة أسيادها، فهذا النوع من العبودية لا يزال قائماً حتى الآن، بخاصة بين العائلات الموسرة، لكن قد تكون المعاملة مختلفة تماماً عما كانت عليه في الماضي.

ولا تقتصر الحالة الأخيرة على الكويت فقط، بل يمكن القول إنها تنتشر تقريباً في عدد من البلاد العربية، ويمكن القول إن معظم الرقيق هم من مثل الحالة التي ذكرت، إذ يعيش هؤلاء ما بين أفراد العائلات الغنية أيضاً كما في البصرة وبغداد وغيرها، ولا أريد أن أشير إلى مدن أخرى في العالم الإسلامي.

ويمكن التأكيد أن هؤلاء العبيد الذين يعيشون في الكويت، في بيوت العائلات الغنية هم سعداء في حياتهم. ومع هذا فإن حاكم دولة الكويت الشيخ أحمد الجابر الصباح، قد وقف بكل حزم ضد تجارة الرقيق، وقد رفض تلك التجارة ولم يقبل بها إطلاقاً داخل حدود بلاده، وقد أصدر قانوناً في عام ١٩٢٤ حرم بموجبه الإتجار بالعبيد تصديراً أو استيراداً، حتى لو كانوا من المولدين، واعتبر هذا القانون تجارة العبيد جريمة من الجرائم ضد الدولة، ويحاكم كل من تحداه باسم تلك الجريمة، ويمكن القول إن تجارة العبيد منذ ذلك التاريخ لم يعد لها وجود، وقضي على تلك التجارة نهائياً، بكل أشكالها استيراداً أو تصديراً، حتى يمكن القول إن تلك التجارة قد اختفت تماماً.

ويتابع شيخ الكويت شخصياً بين مختلف الأوساط العامة والخاصة بهدف تحرير العبيد من عبوديتهم ويحثهم على الامتناع عن أن يشتري الإنسان إنساناً بسبب لونه، ويصف تلك التجارة بالبربرية. ويضيف شيخ الكويت إن ذلك بعيد عما كان يأمر به الرسول، ولا سيما أنه أعطى المثل الصالح إذ أعتق عبيده لوجه الله تعالى، وما قام به هو دعوة للآخرين بأن يقتفوا أثره ويتبعوه، لا سيما في أيام الإسلام الأولى، وكان

الرسول يحث الناس على تحرير عبيدهم، وكان يستخدم في سبيل ذلك كل أسلوبه في إقناعهم. هذا وبالرغم من هذه المواقف الحقة بشأن ما يفكر فيه الإسلام حول العبيد والعبودية، فإن كثيراً من الأوروبيين يبثون دعايات مضللة ضد الإسلام والمسلمين، وهذا ما يغضب كثيراً من العرب والمسلمين، علماً بأن الغربيين من الأوروبيين لا يتورعون أيضاً عن تجارة العبيد.

وكما قلت من قبل هناك عبيد مولدون في الكويت، أي العبيد ممن ولدوا من آباء كانوا عبيداً في الماضي ممن يعملون في الأعمال المنزلية، وقد أصبح الإتجار بهؤلاء بيعاً أو شراءً من الأمور النادرة أيضاً، لكن قد يحدث أن أحد هؤلاء المولدين لم يعد يرغب في البقاء في خدمة أسياده هؤلاء، عندها يطلب منهم أن يبيعوه إلى أشخاص آخرين، وله الحق في هذا الطلب عندما يريد ودون أن يقدم المبررات اللازمة. وهناك حالات أخرى قد تحدث على الرغم من قلتها. إذ يقوم أحد الحجّاج العائدين من مكة بشراء أحد العبيد أثناء عودته، ويدخله إلى الكويت تهريباً تحت أسماء مختلفة على الرغم من العقوبة الصارمةالتي ستقع على الفاعل إذا اكتشف الأمر.

ويساعد شيخ الكويت بكل الوسائل الممكنة على العمل على تحرير العبيد، وهو يحقق بكل شكوى تصله شخصياً، وغالباً ما يساعد على عدم عودة المشتكي إلى أسياده السابقين، وهناك العشرات من هؤلاء ممن أصبحوا يشتغلون في قصر شيخ الكويت نفسه، ويتقاضون أجوراً شهرية مقابل أعمالهم، ويعاملهم شيخ الكويت معاملة الخدم لا معاملة العبيد.

وكما ذكرت من قبل فإن الشريعة الإسلامية تحث على تحرير العبيد، وتقضي الشريعة أيضاً أن لكل عبد أن يطلب من سيده متى شاء أن يعتقه لوجه الله دون أن يقدم أسباباً لهذا الطلب، وعلى ذلك السيد أن يحقق هذه الرغبة، لكن ليس هنالك من سلطة قادرة على التحقق من تنفيذ ذلك على كافة المستويات.

وأشير هنا بهذه المناسبة أن العديد ممن تحرر من العبيد يمتهن مهنة صيد اللؤلؤ وفيهم بعض الغطاسين المهرة لا يقلون عن الآخرين مهارة إن لم يفوقوا أقرانهم من البيض.

وتجدر الإشارة هنا بأن الغالبية من الناس يعاملون عبيدهم من العاملين في خدمتهم بالأعمال المنزلية معاملة حسنة، ولا أبالغ إذا قلت إن بعضهم يعاملهم كأطفالهم تماماً، فلهم حرية التزاوج بالطريقة المناسبة وبمساعدة أسيادهم، ولهم

الحق بالتناسل بمقدار ما يشاؤون، ويعامل أطفالهم كما يعامل أطفال أسيادهم، يلعبون معاً ويعيشون معاً، ولا أبالغ إذا قلت إن سيدات البيت يعاملن هؤلاء معاملة أفضل، وحتى في بعض الأحيان لا تختلف عن معاملة أخت لأختها.

وكما هو الأمر في كل مكان من العالم، هناك إلى جانب الناس الطيبين أناس قساة، أو كما يقال في كل قطيع من الغنم هناك بعض رؤوس الغنم سوداء اللون. ومنهم حتى قساة القلوب ممن لا يعرفون للرحمة مكاناً في قلوبهم، ولكن تلك الرحمة ليست فقط لعبيدهم بل حتى لأولادهم.

وخلال إقامتي في الكويت كضابط استخبارات وأمن سياسي لدى صاحب السعادة شيخ الكويت، لم ألاحظ إلا شكايتين قدمتا لي فيهما حالتان لامرأتين ورجلين، وقد أعلمت بتلك الحالات شيخ الكويت، فقام على الفور بحل الموضوع بشرائه لهؤلاء العبيد ومن ثم تحريرهم جميعاً.

وأشير بهذه المناسبة أن لا شيء يمنع هؤلاء من المجيء إلى مكتب الضابط السياسي وتقديم شكوى مناسبة ضد من يقف في طريق تنفيذ ما هو مطبق في الكويت.

لكن الشيء المحزن في هذا الفصل، هو النتيجة التي تؤول إليها حالات العجز والشيخوخة عند هؤلاء الناس، وبخاصة عند بلوغهم سناً يعجزون فيها عن تقديم أية خدمة لأسياهم، وهنا يحق لمالكهم أن يطلق سراحهم، ويصبحون بلا مأوى ولا معين، يهيمون على وجوههم كالكلاب الشاردة ويقضون بحق شيخوخة بائسة، وهذا يتنافى بما أوصى به الرسول تماماً، علماً بأنهم يدعون أنهم قد حرروهم بناء على ما أوصى به رسول الله، وليس أمام هؤلاء سوى التسول في الشوارع لكسب قوت يومهم، وهم متناثرون في الشوارع، يفترشون الأرض ويلتحفون السماء. وهناك من أهل الخير من يقدم لهؤلاء اللباس والمسكن، حتى يقضي الله أمراً كان مقضيًّا.

هذا ويمكن لمن اشترى عبدة أن يجعل منها محظية، وإذا رغب في ذلك فلا حرج عليه، لا سيما إذا كانت تلك الفتاة ممن فيها مسحة من جمال، لكن ذلك يحدث فقط عند شراء فتاة سوداء جديدة، إلا أن هذه العادة الدارجة بين سكان المدن فقط أما عند البدو فهي غير معروفة تقريباً.

وتسمح الشريعة الإسلامية أن تحمل عبدة ما من سيدها، وعندها تجبره الشريعة على أن يعطي الحرية لهذه الأم على الفور، وذلك لكي يكون ابنها حراً قبل ولادته،

وبعد ذلك سيحتل كل من الأم والابن مكاناً لائقاً في المجتمع الذي سيعيشان فيه، فالأم أصبحت تتمتع بحريتها بالكامل، ويمكنها أن لا تسمح عندها لذلك السيد من الاتصال بها جسدياً، أما الوليد فهو أيضاً حر ويحمل اسم والده، وغالباً ما تجد مثل تلك المرأة زوجاً مناسباً من بين العبيد الذين حصلوا على حريتهم أيضاً بسرعة مناسبة، أما الطفل فإنه يبقى ويكبر على اسم والده، وإن زواج أمه لا يغير من الأمر شيئاً. ويأخذ ذلك الابن مكانه بين أهله وذويه، مثله مثل غيره من الآخرين غير الملونين، ولكن يحرم على ذلك الشاب الزواج من فتاة عربية أصيلة عندما يكبر ويصبح في سن الزواج، أما الفتاة المولودة بنفس الطريقة فتعامل نفس المعاملة. هذا وإن النتائج الرئيسة لمثل تلك الحالات والعادات تفسح أحياناً لفتاة سوداء أن تغري سيدها، وبالتالي قد تصل أحياناً إلى ما ذكر قبلاً، ومما لا شك فيه أنها ترغب في الحمل منه، إلا أن ذلك الأمر لا ينظر إليه بعين الرضى من قبل جميع أفراد العائلة، وبخاصة من قبل زوجة ذلك السيد فيما إذا كان متزوجاً.

ويدعو العبد سيده عند مخاطبته بعمي، أما العبدة فتخاطب سيدتها، بعمتي، أما الشخص الغريب فيسأل العبد عن سيده بقوله أين معزبك؟ فيقال مثلاً أين معزبك؟ عوضاً عن أين سيدك؟.

أما أعمال الرجال من العبيد في بيت سادتهم، فهي أعمال جمة عديدة، إذ يقوم بكل أعمال البيت، فيقوم مثلاً بدور الحارس كما يعتني ويراقب ويشرف على مؤونة البيت، كما يقوم بتزويد البيت بكل ما يحتاجه من المؤونة من الخارج. وهو دوماً محل ثقة سيدة البيت وسيده، فيقوم بشراء حاجات البيت كما يقوم بتحضير القهوة، ويرافق سيدات البيت عندما يقمن بالخروج من البيت لقضاء بعض الحاجات أو الزيارات، ويقوم بأي دور يمكن أن تكلفه به سيدات البيت، وكما يقوم بدور الحراسة فيما يتعلق بجناح النساء في بيت سيده.

أما العبيد لدى أصحاب السلطان كالملوك والأمراء والشيوخ، فيقومون عموماً بدور الحرس الخاص لهم، ومن أمثلة ذلك عاهل المملكة العربية السعودية وكذلك شيخ الكويت، والبحرين. . . إلخ. ويقال إن هؤلاء العبيد يخلصون كثيراً لأسيادهم، وينفذون أوامرهم دون تردد ومهما كلفهم الأمر. وهم يعتمدون عليهم في سرهم وعلنهم، لا سيما أن ابن العرب يكره عموماً القيام بمثل تلك الأعمال، إذ تعاف نفسه وعزته أن يقبل من أن يصبح مأموراً لأي كان.

أما أعمال المرأة العبدة في حال عملها لدى العائلات من أهل الوجاهة

والسلطان ومن تملك المال، فهي أعمال بسيطة لا تتجاوز أحياناً الاهتمام بسيدة البيت، من القيام بالإشراف على ثيابها ولباسها ونظافتها، وكل ما يتعلق بزينتها، كما تعاونها على إلباسها ثيابها، وترافقها حيث توجهت وتقوم على خدمتها، كما تقوم بالعناية بأطفال تلك العائلة وتشرف في أغلب الأحيان على أطفال تلك السيدة، وهي دوماً مكان ثقة سيدة البيت وسيده، وقد تعطي رأيها في أمور كثيرة ويتفاخر العبيد عادة ويعتزون بثقة أسيادهم، وهم يعلمون تماماً أن أي خطيئة قد يرتكبوها قد تودي بحياتهم. لكن بنفس الوقت فإن السيد أو السيدة لا يقبلا أن توجه الإهانات لعبيدهما أبداً ومن حاول ذلك قد يتسبب في مشاكل عديدة.

من جهة أخرى، يعتقد ممن لهم العبيد، أن على هؤلاء أن لا يسمحوا لهم بالتصرف على هواهم، لأن ذلك غالباً ما يؤدي إلى نتائج سيئة، ولهذا لا بد من إظهار القسوة من حين لآخر.

ويتلقى عموماً معظم العبيد نوعاً من الراتب على الخدمات التي يؤدوها، وهناك من يعاملون عبيدهم معاملتهم لدوابهم تماماً ويكلفونهم بأعمال لا طاقة لهم بها ويستعملون معهم الضرب لأي خطأ يمكن أن يرتكبوه، ولا يأكلون إلا القليل من فضلات طعامهم، وباختصار، يعاملون معاملة لا إنسانية بتاتاً.

الرق عند القبائل البدوية

يمكن القول إن كل شيخ، وكل ذي شأن في القبيلة، يملك أعداداً من العبيد الذكور، كما تملك زوجاتهم أعداداً مماثلة من النساء سواء من المولدين أو المولدات، أو ممن يتم شراؤهم حديثاً من قبل الطرفين.

وإن شراء العبيد هي الحالة الغالبة على المولدين، كما أن هنالك الكثير من الشيوخ يتلقون العبيد هدايا، من أمراء وشيوخ آخرين، كما يتم للبعض أحياناً لأن يؤدي فريضة الحج ومن مكة يقوم بشراء بعض العبيد. ويسمى العبيد من النساء لدى البدو بالجواري، والواحدة منهن جارية، ولا يقال عبدة كما هو الأمر في المدن.

هذا، ويعامل أهل نجد وبدو الشمال عبيدهم بشكل أفضل من معاملة إخوانهم أهل المدن، وغالباً ما تأخذ هذه المعاملة طابع الأخوة أكثر من طابع العبودية والسيادة، أي أن معاملتهم في البادية أفضل بكثير مما هو الأمر في المدن عموماً. فالإنسان في الصحراء بطبيعته، ولأسباب معيشته، وبسبب الحياة والتقاليد التي يعيشها كل هذا يفرض على إنسان الصحراء أن يعامل العبيد بطريقة أكثر إنسانية من هؤلاء سكان

المدن، وبالمقابل فالعبيد في البادية يتحملون قسطاً كبيراً من المسؤوليات التي يكلفون بها من قبل أسيادهم، فيقومون بالعمل على سحب المياه من الآبار لسقاية قطعان الإبل والأغنام التابعة لأسيادهم، كما تقوم النساء بعملية التحطيب لقضاء حاجات الخيمة، وتحضير القهوة المرة، ويمكن أن يكلفوا بأعمال مختلفة كرعاية المواشي من الخيول والإبل والغنم، ويمتاز الناس الملونون عموماً بطاقة تحمل للحرارة والشمس أكثر مما يتحمله الإنسان الأبيض، ولهذا يكلفون بمعظم أعمال رعاية قطعان الحيوانات في أيام الصيف الحارة عندما يخيم البدو حول آبار المياه.

ويفسر السيد (راتر) في كتابه، أن أسباب هذه المعاملة المختلفة للعبيد بين أهل المدن وأهل الصحراء، يعود إلى أن العبيد يوجدون في أغلب الأحيان لدى الشيوخ، وهؤلاء يعاملون من يعمل معهم معاملة الأب لأولاده، إذ يحب كل شيخ أن يكون أباً لكل فرد في قبيلته، ويحس برضى كبير عندما يحس برضى الجميع عنه، كما يريد سماع كلمات الثناء والشكر، سواء من قبيلته أو من قبل القبائل الأخرى وبخاصة بين أقرانه الشيوخ، ولهذه الأسباب فإنه مضطر أن يعامل جميع من يعمل معه بالرضى والسرور، فهو يفرح كثيراً عندما يحس برضى الجميع لديه، سواء أكانوا رعاة أم عبيداً، ويحس بالرضى كذلك عندما يستقبله هؤلاء ويقدم لهم الهدايا من الثياب في بعض المناسبات كالأعياد أو الأعراس أو المناسبات الأخرى، كما يقول السيد راتر، إنه كلما حسنت معاملة الشيوخ لعبيدهم كلما زاد ذلك من شهرتهم بين أقرانهم. وهناك بعض المبادىء العامة في معاملة العبيد لدى البدو نشير إليها فيما يلي، طبقاً لما ذكره لنا الشيخ هلال الفجحان، شيخ المطير بتاريخ ٧/ كانون الثاني/ ١٩٣٥ وهي مبادىء عامة على رجل الصحراء أن يتقيد بها في معاملة العبيد:

أ ـ يعتبر العبد (كسيباً) وله الحق أن يقوم بأعمال السلب إن كان قادراً على الكسب بالسيف، إذا كانت القبيلة التي ينتمي إليها سيده بحالة حرب مع قبيلة أو قبائل أخرى، أما إذا تم الاستيلاء على عبد أثناء عمليات الغزو، فيعتبر العبد عندها في عداد الإبل.

ب ـ في الحالات العادية من أعمال الغزو وإذا حدث أن مرت مجموعة من المغيرين الذين يركبون الإبل، والتقى أحدهم بأحد العبيد وهو يرعى الإبل فلا حرج عليه أبداً من أخذ ذلك العبد، كما يمكن لهؤلاء المغيرين أن يلقوا القبض على ذلك العبد فيطرحوه أرضاً ويربطوه لمنعه من القيام بأية حركة يمكن أن تعيق تحرك المغيرين بطريقة أو أخرى.

جـ ـ من الأمور المشروعة أيضاً، في حالة العداوة بين القبائل، أن يقوم أحدهم بالإغارة وسلب أحد أولاد العبيد أو عدداً منهم ويجعلهم من أملاكه، لكن جرت العادة ـ حتى أصبح ذلك قانوناً غير مكتوب ـ على أن عمر هؤلاء الأطفال يجب أن لا يقل عن عشر سنوات. وعلى سيدهم أن يحاول إعادتهم مهما كلفه من دم، كما أن عليه السعي للانتقام بقتل السارق لهؤلاء الأطفال، عاجلاً أم آجلاً، وعليه أن لا يلين ولا يكل أو يمل.

د ـ إذا صادف أثناء الإغارة أن عثر المغيرون على عبد كان قد اعتق، وجلبوه معهم في عداد الإبل، رجلاً كان أم امرأة وتبين لهم فيما بعد، حقيقة الأمر فعليهم إعادته لأهله وتصحيح الخطأ.

هـ ـ بشكل عام لا يمكن لعربي أصيل أن يتزوج من إمرأة كانت عبدة وأعتقت، وعلى أهل من خالف ذلك أن يقتلوه، لأنه قد تسبب في إلحاق الخزي والعار على شرف القبيلة وأصالة دمها.

إن هذه الأسس والقواعد معترف بها من قبل بعض القبائل، وقد يكون هناك قواعد أخرى، وقد تم التأكيد والتصديق عليها بتاريخ ١٠/آب/١٩٣٦ من قبل الشيخ نهار المتلقم من بطن الهادي، من قبيلة عجمان، ومن الشيخ عبيد المطرقة الهري، من بطن الدياهين، من قبيلة المطير، وقد أضافا أيضاً معاً أن العربي الأصيل، لن يقبل من أن يحط من قدره لقضاء شهوة عابرة ويتصل جنسياً بعبدة اشتراها بثمن، لأن ذلك يعتبر عيباً كبيراً، وإهانة مشينة لشرفه.

لكن مما يؤسف له أن هذه القواعد والأسس لا يتقيد بها الجميع، لا سيما أولئك الذين هم في مرحلة نصف البداوة والحضر، أمثال السعدون في العراق وغيرهم، ممن يتذرعون بالقول إن من يشتري عبدة له الحق أن يتمتع بها بالطريقة التي يراها مناسبة، وما العيب إذا كانت ملكه؟. وما هو الإثم إذا مارس معها الجنس عندما يرغب؟. أما البدو الخلص فيرفضون هذه الأفكار، ويقولون إن تلك سفسطة لا معنى لها، وتبريرات مخزية، ولن تكون مقبولة بالنسبة لهم.

الفصل الأربعون

العلل والأمراض

عموميات

ليس المقصود بالملاحظات التالية أن تكون معتمدة من الناحية الطبية، بل هي معلومات أسوقها فقط لإعطاء فكرة عامة عن بعض العلل والأمراض الخاصة عند العرب، وقد يكون ما يماثلها في جهات ومناطق أخرى، لكن ما يعنيني الموجود بين هؤلاء الذين كرست كتابي لوصف العديد من جوانب حياتهم.

وترجع أسباب المرض بالنسبة للعامة من العرب إلى أمرين رئيسين وهما:

أ ـ العين الشريرة أو المشؤومة.

ب ـ مشيئة الله.

يعتبر بعض العرب أن العين الشريرة هي من الأسباب الرئيسة التي ينتج عنها المرض. ولهذا يقاوم السحر عندهم بما يسمى (الحجاب) إذ يكتب على ورقة بعض الآيات القرآنية، وتلف تلك الورقة جيداً، وتوضع ضمن غلاف من الجلد، ويلبسها الرجال والنساء على السواء، وهذا ما يحميهم من أخطار العيون الشريرة. ويقولون أيضاً إنه قد يقع أحدهم، صريع سحر آخر، عندها تستخدم أيضاً نفس الوسائل من أجل طرد الأرواح الشريرة التي تتسبب في آلامهم وتحرير المريض المصاب بها منها.

ومن المؤسف أن يلجأ هؤلاء الناس حتى بالنسبة للأمراض العادية إلى تلك المعالجات، أو إلى معالجات بدائية تعتمد على بعض المواد الطبيعية بحالتها البدائية أيضاً.

فلدغات الأفاعي، تعالج بطريقة استعمال الضاغط لوقف انتشار السم، بأن يلف

المريض في القسم المصاب، بجلد الماعز كما يرش بعض الحشائش على مكان الإصابة، وتربط برباط من قطع الخرق البالية.

هذا ويستخدم البدو في منطقة السليمانية في العراق مثلاً عندما يلدغ عقرب أحدهم نوعاً من المعجون المصنوع من الحشائش، أما معالجات وجع الرأس وكذلك أوجاع البطن، والظهر فتعالج بالكي بالنار، إما على الظهر أو في البطن، أو في أسفل الصدر، ويعتبر الكي عند العرب من المعالجات الرئيسة لأمراض كثيرة. هذا وتستخدم مغارز الخيام في الكي بعد حميها على النار حتى درجة الاحمرار.

وهناك العديد من الأمراض والعلل تعود في أسبابها كحقيقة مسلم بها علمياً إلى سوء التغذية، وإلى مياه الشرب الملوثة عموماً، ومن الأسباب الأخرى الهامة أيضاً تعود إلى عدم النظافة وعدم التقيد حتى بالحدود الدنيا من الشروط الصحية العامة، يضاف إلى ذلك شروط الحياة الصعبة في كل مجالاتها، وتعرضهم لتقلبات الطقس صيفاً وشتاء وعدم ملاءمة حياتهم مع متطلبات الطبيعة القاسية. ومن المعروف أن نسبة الوفيات بين أطفال البدو هي من النسب العالية جداً وقد تصل إلى أرقام تزيد عن ٦٠٪ في أغلب الأحيان. ومن الصفات العامة أيضاً أن متوسط عمر الذين يتخطون الأخطار ويبقون على قيد الحياة، قصير جداً، ويبدأ الشيب بالظهور عند الرجال قبل سن الأربعين، كما تعتبر المرأة عجوزاً في الثلاثين من عمرها.

أما الزواج فيتم في أوقات مبكرة جداً، ويستمر إنجاب الأطفال طيلة مدة الإخصاب عند المرأة دون توقف مهما كانت الأسباب، وكثيراً ما تنتقل الأمراض وراثياً بسبب التزاوج بين الأقارب، وتزداد الصفات الوراثية سوءاً.

وقد يبدو البدو من النظرة الأولى أنهم أصحاء البدن وأشداء، وهذا الأمر صحيح لحد ما، لكن علينا أن لا ننسى أن ذلك البدوي قد يكون ممن استطاع الثبات في وجه كثير من الأمراض. فقد تم اختياره طبيعياً بعد أن حطم المرض الكثيرين من سواه. فمن بين ستة مواليد لا يصل إلى النضج أكثر من واحد فقط ذكوراً أو إناثاً. وقد تلد البدوية خلال حياتها القصيرة ما لا يقل عن ١٥ ولادة، لكن قد لا يعيش من مجموع هذه الولادات الخمس عشرة سوى ثلاثة أطفال أو أربعة، وقد لا يتجاوز الجميع سن البلوغ، وقد تمر بعض الجائحات فيموتون فيها جميعاً، ويتحمل كل من الزوج والزوجة قسطاً من مسؤوليتهم بسبب هذه الوفيات، ويعود السبب الرئيس إلى جهلهم حتى بالحدود الدنيا من الشروط الصحية من قبل الطرفين. على الرغم من أن دينهم يحث على النظافة، إذ قال الرسول: (النظافة من الإيمان). إلا أن عدم توافر

الإمكانيات تجعلهم عموماً عاجزين عن القيام بأعباء النظافة، هذا وتحس المرأة العربية بعجزها، وحتى بالقصور عن بقية بنات جنسها إذا لم تكن قادرة على الإنجاب لسبب من الأسباب، وإن هذا العجز قد يسبب لها الكثير من المشاكل خلال حياتها. وتعتقد العربية عموماً والبدوية على وجه الخصوص أن أولى مهمات المرأة في الحياة هو الإنجاب، ومن قصرت عن ذلك فهي مقصرة في كل شيء. وتحمل النساء العربيات بعض الأفكار الخاطئة فتعتقد أن حليبها يصبح غير صالح للرضاعة حالما تحس بحمل جديد، وقد يتسبب ذلك في موت وليدها الرضيع. ولا تشعر البدوية بحرج في أن تتابع إرضاع وليدها حتى سن متأخرة قد تصل أحياناً إلى السنة الرابعة من عمر ذلك الوليد، وتستمر عادة في الرضاعة حتى يجف حليبها أو تصبح غير قادرة على ذلك بسبب من الأسباب. ولا تتردد البدوية أن ترضع وليداً آخر ليس لها مقابل دريهمات معدودات.

أما الأمراض التي تصيب المواليد من البدو فهي:

أ ـ الرمد: المرض الذي يصيب العيون، ويتسبب في عمى الكثير من البدو، وهو من الأمراض المنتشرة كثيراً بينهم ولا سيما خلال أشهر فصل الصيف الحارة، ومن أسباب هذا المرض الرئيسة الذباب والأوساخ، يضاف إلى ذلك عدم العناية بعيون الأطفال بغسلها، فترى أحياناً وقد تراكم الوسخ على العيون، كما ترى أكوام الذباب تحط عليها أفواجاً أفواجاً بشكل ملفت للنظر، أما المعالجة لمرض الرمد فتستخدم الأم البدوية عموماً الكحل كعلاج، وكذلك تستخدم أنواعاً من الأصبغة التي تشبه الحبر الأحمر، يذاب في الماء وتقطر في العيون، وهذا ما يزيد في احتمال تسبب الالتهابات للعيون، إذ يزيد عموماً من تلوثها، كما يزيد في جلب انتباه الذباب ليحط فوقها بشكل أكثر. وغالباً ما ينتج عن استمرار الرمد التهابات مزمنة تؤدي في معظم الحالات إلى العمى.

ب ـ **الديدان الطفيلية**: وهي على أنواع مختلفة، مثل حيات البطن، والدودة الوحيدة وسواهما، وتعود أسباب الإصابات بمثل هذه الأمراض إلى العدوى، فالبدو غالباً ما يتغوطون في الطبيعة بالقرب من الأودية ومجاري المياه، فتنتقل العدوى بشرب المياه الملوثة في أغلب الأحيان، ببيوض تلك الديدان.

جـ ـ مرض القرع: وهو مرض منتشر كثيراً، بين أطفال البدو، ويمكن القول إنه ما من طفل بدوي لا يصيبه هذا المرض، ويقولون إن ذلك المرض يشفى تلقائياً، ولا جدوى من معالجته، وهو من الأمراض الشديدة العدوى، ويزول تلقائياً عند بلوغ

الطفل الخامسة عشرة من عمره ، وهو أيضاً من الأمراض الطفيلية ، ينتج عن القذارة وفقدان النظافة .

د ـ **السعال الديكي**: ويصيب كل أطفال البدو تقريباً، خلال أشهر فصل الربيع والخريف، وغالباً ما ينتهي بالشفاء تلقائياً دون أية معالجة.

هـ ـ مرض **الجدري**: وهو من الأمراض القاتلة جداً بالنسبة للبدو، وغالباً ما يكره البدو اللقاح ضد الجدري على الرغم من توافره من وقت لآخر، ويقوم البدو غالباً بعزل المريض بمرض الجدري في خيمة معزولة تنصب بعيداً عنهم بحوالي ربع ميل، وكثيراً ما يبقى المريض وحيداً، ويقدم له الشراب والطعام عن بعد أيضاً، وفي أغلب الحالات ينتهي مرض الجدري بموت المصاب.

و ـ **الحصبة**: وهي من الأمراض التي تصيب جميع الأطفال تقريباً، وغالباً ما ينتهي ذلك المرض بالشفاء، دون أن يترك آثاراً خطيرة، ويقوم البدو بإعطاء المريض القليل من الطعام، كما يقولون يجب إبعاده عن أن يشم روائح الطعام لا سيما الأنواع الدسمة منها.

أما الأمراض الأخرى مثل أوجاع المعدة فتعالج بالكي، وبعض هذه الأمراض خطرة جداً، وتتسبب عموماً عن الأوساخ والذباب وسوء التغذية.

الأمراض التي تصيب الكبار رجالاً ونساءً

بصرف النظر عن الأمراض التي تصيب الصغار وبنفس الوقت قد تصيب الكبار أيضاً، هناك أمراض أخرى تصيب الكبار دون الصغار، وهي:

أ ـ مرض **السل**: وهو من الأمراض المعدية والخطرة عند البدو، ويتسبب في العديد من الوفيات، ويعتقد أن من أسباب هذا المرض الرئيسة عند البدو سوء التغذية، وانتقاله بالعدوى، إذ من المعلوم أن البدو يشربون القهوة المرة بفنجان واحد، يدور على الحضور، ويشرب منه الجميع، دون غسله، ومن المعروف أن السل من الأمراض الشديدة العدوى في الظروف المناسبة، مثل سوء التغذية والضعف العام، والمقاومة السيئة للجسم، وهناك من الأسباب الأخرى النوم تحت الغطاء المعروف باللحاف، لا سيما في الأيام التي يشتد فيها البرد، فيغطون رؤوسهم عند نومهم، وغالباً ما ينام الرجال مع نسائهم في فراش واحد، وهذا ما يتسبب في العدوى أيضاً، ولما كانت العدوى تنتقل عن طريق الفم، فهذه الحالات أيضاً من أسباب

انتشار ذلك المرض الخبيث، وهناك أسباب أخرى، مثل استخدام وعاء واحد للشرب... إلخ.

ومن المعتقد أيضاً أن من أسباب العدوى كثرة الغبار المتصاعد نتيجة لهبوب العواصف الرملية، مع وجود الحرارة المرتفعة في أيام الحر الشديد.

ب ـ **مرض السفلس**: ويعرف عند البدو باسم (البلش). أما في المدن فيطلق عليه اسم (الأفرنجي). ويقال إن انتشار ذلك المرض كان قليلاً قبل عدة سنوات، ولكنه انتشر كثيراً فيما بعد، لا سيما بين أفراد قبيلة المطير، وعجمان والضفير وشمر. وهذه القبائل من القبائل الهامة في مناطق شمال ـ شرق، وشمال ـ وسط شبه الجزيرة العربية. وقد ذكر (فيلبي) في كتابه المشهور (الربع الخالي)، عن ندرة هذا المرض أيضاً في نجد، وأعتقد أن ذلك الأمر كان صحيحاً قبل عدة سنوات، وهناك رأي لكل من الدكتور (دام) والدكتور (ميلري)، كلاهما من المستشفى الأمريكي في البحرين، يقولان فيه إن مرض السفلس منتشر كثيراً بين البدو في الكويت والبحرين.

ومن المعتقد أن أسباب هذا المرض تعود أصلاً إلى انتشاره أولاً في المدن الساحلية، مثل الكويت، والبحرين، وقطر وغيرها من المدن الأخرى.

وقد زاد في انتشاره وسائط النقل الحديثة كالسيارات وغيرها، وسرعة الانتقال بين مكة والرياض، ويحتمل أن يكون الأتراك قد ساهموا في نقل هذا المرض وانتشاره في مناطق الحسا، لا سيما قبل عام ١٩١٢، ومن المحتمل أن يكون قد انتقل عن طريق البحرين، أو من بلاد فارس. وفيما يلي وصف بعض معالجات البدو لمثل هذه الأمراض:

ـ **مرض السل**: يصفه البدو أيضاً بأنه مرض خبيث وخطر، ويفتك بهم بعض الأحيان، وأهم علاماته السعال الشديد مع ظهور الدم مع القشع، ويزداد الدم مع السعال كما اشتدت حالة المرض، كما تنخفض درجة حرارة المريض عن معدلها، (هناك ملاحظة بارزة، وهي كثرة إصابة النساء بهذا المرض أكثر بكثير من الرجال). هذا ويقوم الأهل أنفسهم بمعالجة المريض بمرض السل، إذ يقوم هؤلاء بكي المريض على شكل (١١) بوضع خطين مستقيمين متوازيين على رسغ اليد اليسرى، وينتظر الأهل، فإذا لم تعط تلك المعالجة نتيجة بعد ١٥ يوماً، وغالباً لا تعطي شيئاً، يكرر الكي على اليد اليمنى بنفس الطريقة، ثم أخيراً يجري الكي على ظهر اللسان، والعملية الأخيرة تتسبب في آلام لا تطاق، ويتوقف المريض عن الكلام عدة أيام، ثم

بعد ذلك يتوقفون عن أية معالجة، لأنه غالباً ما تنتهي تلك المعالجات بالوفاة، ويقال بالطبع إن ذلك هو قدره، وأنه لأمر مكتوب ولا سبيل لإنقاذ المريض، إذ أن المكتوب ليس منه مهرب.

هذا وقد شاهدت من الحالات المحزنة شباباً يموتون بعمر الورود بسبب هذا الداء الوبيل. إذ يظهر المرض بسعال خفيف، ثم يشتد سريعاً إلى أن ينتهي بالوفاة، وكثيراً ما كان المرضى يرفضون الاعتقاد بخطورة مرضهم، وأن ذلك قد يتسبب في وفاتهم. وحتى في المراحل الأخيرة من هذا المرض فإنهم يقدمون لك القهوة بالفنجان الذي يستخدمونه لشربهم القهوة. هذا وقد ذكرت قبلاً كيف تمت وفاة وضحة بنت مريط زوجة عبد الله الزنيفر عام ١٩٣٢، وعلى الرغم من اشتداد المرض والإلحاح على الانتقال إلى الكويت للمعالجة، إلا أنها كانت ترفض ذلك. وهناك حالات مماثلة كثيرة منها أيضاً المرأة الشابة غزالة زوجة عبد الله الغليفص، كذلك لم تقبل بالمعالجة، وتوفيت في الهفوف عام ١٩٣٣.

- **معالجة مرض السفلس**: يعرف سكان المدن الكثير أو القليل من طرق معالجة هذا المرض، بينما يجهل البدو أي معرفة عن المعالجة، ويوجد الآن عدة بعثات طبية أوروبية وأمريكية منتشرة على طول الخليج «العربي» في المدن الرئيسة. ويقول المختصون بهذه البعثات الطبية إن هذا المرض كثير الانتشار وفي بعض الأحيان يشمل بطون قبائل كاملة، ويضيفون إن أكثر الحالات ناتجة عن الوراثة، وبسبب إهمال الآباء، وينتقل هذا المرض إلى الزوجات والأطفال.

ولإعطاء مثل واضح عن هذا المرض وانتشاره هي حالة فخذ الشقير من فرع المحمد، من قبيلة الدوشان، وهم القبيلة الحاكمة في قبيلة المطير الكبرى. ويقال إنهم عملياً قد أصابهم مرض السفلس، والآخرون من قبيلتهم لا يخشون شيئاً من كونهم مصابون بهذا المرض الخطير، كما أن أحد قادة القبيلة، وهو الشيخ ماجد الأصقة قرر أخيراً وبعد مدة طويلة من إصابته بالمرض المجيء إلى الكويت للمعالجة، وذلك في عام ١٩٣٣. ويقول قد أصيب هو أولاً بهذا المرض، ومن ثم انتقل إلى زوجته ومن ثم ابنه مطلق. وهناك أيضاً من الحالات المماثلة حالة الشيخ فيصل الشقير، الذي قدم إلى مدينة الكويت للمعالجة أيضاً عام ١٩٣٣ وقد تلاهم فيما بعد ابن الجازية بندر.

ومن مناقشاتي المتكررة مع شيخ الكويت، تبينت أنه يعد مرض الجدري من أشد الأمراض خطراً على البدو، إذ يفتك في الآلاف بعض الأحيان.

- **أمراض العين: - مرض التراخوما:** يصاب به أطفال البدو الصغار، ويمكن القول إن هذا المرض يُعد عاماً بالنسبة إلى معظم الأطفال. وأعتقد أن السبب الرئيس لهذا المرض يعود في معظمها إلى الغبار المتصاعد أثناء العواصف الرملية بشكل خاص، إذ يتعرض الأطفال إلى هذا المرض منذ سن الطفولة، ويسبب هذا المرض العمى للكثيرين من البدو.

- **التلبكات المعدية العامة:** وهي أمراض تصيب معظم البدو، وقد لا يعيرون لها اهتماماً كبيراً، وتنتج في أغلب الأحيان عن الشراهة في تناول الطعام عندما تسمح لهم إحدى المناسبات، مثل الدعوات التي يقوم بها شيوخهم. هذا وإن شرب المياه الملوثة بالوحل، لا سيما بين من يقوم بأداء فريضة الحج، ويعود العديد من الحجاج وهم يحملون معهم أمراض الدزنتري.

ويجب أن يكون جلياً، أن ما قمنا بوصفه ما هي إلا معلومات عامة قدمناها بكل تواضع وهي بعيدة عن الدراسة العلمية المتعمقة، والتي تحتاج إلى خبرة ودراية، وليس مرور الكرام، فإنني آمل أن يأتي اليوم - وكل شيء لناظره قريب - الذي يتحقق فيه القضاء على تلك الأمراض المستعصية، بالقضاء على عواملها الـرئيسة كالجهل والفقر، ولا سيما الأمراض المنتشرة بين البدو، وذلك بتوجيه اهتمام أكبر إلى هؤلاء الناس والعناية بصحتهم وتوجيههم التوجيه الصحيح، وإقامة المستشفيات في المدن الـرئيسة، ووحدات صحية متنقلة، ومعها كفاءات علمية على مستوى المسؤولية أمام تلك الأمراض الخطرة، وأن تقوم تلك الوحدات الصحية بالطواف على مضارب البدو في أماكن تخييمهم وتقديم كل ما يحتاجون إليه من اهتمام بصحتهم والعناية بهم.

ومن الأمور البارزة في حياة البدو بشكل عام هي مواقفهم حيال الجروح والقروح والآلام، واعتقادهم الراسخ - وكأنه اليقين - أن الروائح العطرية الذكية، لها تأثير مؤذ وضار على المصابين بها، إذ تؤثر على تلك الجروح مباشرة، وتؤخر شفاءها، ولهذا السبب فلا غرابة أن ترى بدوياً يتجول في مدينة الكويت، أو أي مدينة عربية أخرى وقد سد فتحتي أنفه بقطعة قماش قذرة لتجنب شم بعض الروائح المؤذية كما يقولون، ويبقى البدوي على هذه الحالة حتى خروجه من المدينة، كما يعتقد البدو أن رائحة المرأة عموماً خطرة على الرجال وبخاصة على الجروح والقروح.

وإذا تم شفاء أحدهم من مرض الجدري يعتقد البدو أن الفضل في هذا الشفاء يعود إلى رائحة أحد الرجال، أو أنه، أي المريض، قد تناول بعض الأطعمة التي ساعدت وعجلت في شفائه. إلا أنهم يجهلون من هو ذلك الرجل (صاحب الرائحة)، أو ما هو

الطعام، وقد يستعرضون الأطعمة البسيطة التي تناولوها أو الرجال الذين مروا لزيارة المريض.

ونشير أخيراً أن الجبائر عند البدو من الأمور الجيدة النتائج عموماً، فإذا ما تعرض أحدهم لكسور، فهناك من يتقن أعمال التجبير منهم، ويقوم ذلك المجبر بإعادة العظم المكسور إلى مكانه، ثم يضع مزيجاً من بعض الحشائش والبيض والملح على الجزء المكسور، يليه وضع الجبائر حوله، ويدوم الوضع هكذا مدة خمسة وعشرين يوماً، ترفع بعدها الجبائر وتكون النتائج عموماً جيدة. ويتغذى الجريح في مثل هذه الأحوال باللبن أو بحليب النوق، ويبتعد عن تناول التمور، أو أي مواد سكرية، وعليه أن يسد فتحتي أنفه طيلة المدة التي تعالج بها جروحه.

وللجروح تسميات خاصة عند البدو، فيقال (صواب) إذا كان الجرح بسيطاً، أما إذا كانت الإصابة كبيرة، فيقال عند ذلك (جرحاً). وتبقى النصيحة قائمة بالابتعاد عن الروائح العطرية، لأنها تتسبب في تفتح الجروح، وعدم التعجيل في شفائها، طبقاً لاعتقادهم، ولهذا يوضع الجريح في الخيمة في الاتجاه الذي تهب منه الرياح عادة، لتجنب الروائح غير المرغوب فيها، وعلى المصاب أن يحتفظ بفتحتي الأنف مسدودتين، ويضيفون أن على ذلك الجريح أن يتجنب ممارسة العمل الجنسي قبل أن يتم الشفاء التام، لأن الجنس يسبب للمريض آلاماً، كما يساعد على تفتح الجروح وعدم شفائها، كما على الجريح أن يمتنع عن الاغتسال، وأن لا يقترب من المرأة المحيضة، أو تقترب منه. هذا وتعتبر الروائح التالية غير مؤذية، ولا مانع من استنشاقها لأنها لا تسبب الأذى للمصاب حسب اعتقادهم:

١ ـ الدخان المتصاعد من روث الجمال عند حرقه لتحضير القهوة العربية.

٢ ـ الروائح المنبعثة من التبغ عموماً.

٣ ـ رائحة القطران المستخدم في مداواة الجرب للإنسان أو للجمال.

٤ ـ رائحة حبات البن المحمص، ورائحة مختلف أنواع الطعام.

ـ **معالجة لدغات الأفاعي**: عندما تلدغ أفعى بدوياً يعتقد أنها سامة، يجري البدو الإسعافات التالية للمصاب على الفور:

١ ـ يقطع في الجزء الملدوغ من الجسم بسكين حادة أو برأس أحد الخناجر، جرحاً عميقاً ليسهل على الدم النزف بسهولة.

٢ ـ وضع رباطين على الجزء الملدوغ وشدهما بشكل جيد في اتجاه قلب الملدوغ لمنع تسرب السم إلى القلب.

٣ ـ ذبح رأس من الغنم، وسلخه على الفور والاحتفاظ بجلده لوضع الدم النازف من جسم المصاب، في جلد تلك الذبيحة على أن يكون ذلك قبل أن يبرد الجلد، أي على شرط أن تحتفظ الذبيحة بحرارة كافية، أي تنفيذ السلخ بسرعة.

ويفضل أن يلف الجسم بالكامل بجلد تلك الذبيحة إذا كان ذلك الأمر ممكناً، وإلا فيلف الجزء المصاب فقط، والغرض من ذلك حسبما يعتقدون هو حصول التعرق السريع، ومما لا شك فيه أن التعرق يحدث بشكل أبطأ في الأيام الباردة، ولهذا يمدد المصاب، وتشعل النيران بالقرب منه على الجانبين.

٤ ـ يعطى الملدوغ قدحاً من مغلي الرمرم، كما يتم وضع مسحوق الرمرم على الجزء الملدوغ.

ويحتاط البدو كثيراً بأن يمنعوا الملدوغ من النوم قبل مرور ٢٤ ساعة، وعليه أن يبقى مستيقظاً مهما كلف الأمر، وبعد مرور ٢٤ ساعة يرفع جلد الذبيحة عن الملدوغ، لكن يحتفظ بالأربطة حول الجزء الملدوغ، على الرغم من الورم والآلام المبرحة، ولمدة عشرين يوماً.

معالجة تقرحات العيون:

إن المعلومات التي سترد فيما يلي، أعلمتني بها ـ في إحدى المناسبات ـ زوجة الشيخ ثويران أبو صفرة، شيخ الرخمان أحد بطون قبيلة المطير، بتاريخ ٢٤/نيسان/١٩٣٧ وتتعلق بمعالجة أمراض العيون عند البدو، واعترفت بنفس الوقت أن تلك الأمراض تتسبب عموماً عن الذباب والغبار وعدم الاعتناء الكافي بنظافة العيون. وقالت إن أفضل الطرق لمعالجة حالات مرض العيون هي التالية:

١ ـ في حال كون المريض طفلاً، على الأم أن تضع عدة نقاط من حليبها في عيون طفلها المصاب، وأن تكرر العملية لعدة أيام، ومن المفضل بشكل عام أن تقوم الأم بوضع نقاط الحليب يومياً، فهذا يمنع الأمراض عن عيون الطفل، والمحافظة عليها سليمة.

٢ ـ أما في حال كون المريض من البالغين، يجري أيضاً حلب عدة نقاط من حليب أم مرضعة، بشرط أن لا تكون تلك المرضعة زوجته، أما في الحالة التي

يستخدم فيها حليب الزوجة فالنتائج ستكون سيئة، وهذا أمر محـرم حسب الشريعة الإسلامية ويعتبر ذلك العمل إثماً.

وأضافت أيضاً إن على المرأة أن تتجنب تذوق حليبها، ومن تذوقته فهي آثمة أيضاً، وقد يسبب ذلك في إهمال زوجها لها، ولا تسمح المرأة المسلمة أن يتذوق زوجها حليبها فهو محرم شرعاً أيضاً.

الفصل الواحد والأربعون

الصلبة

إن كلمة «صُلُبَةْ» هي صيغة عامة، ومفردها صُلَيْبي.

كثيرون كتبوا عن هذه القبيلة أو المجموعة الوضيعة أو الجماعة الأقل عراقة في سلم العرب.

وينتشر (الصلبة) في صحراء النصف الشمالي من شبه الجزيرة العربية، من الخط الممتد من الشرق إلى الغرب مروراً بـالمدينـة المنورة والريـاض، وبـاتجـاه الشمال حتى خط يمتد بين حلب والموصل .

وهم مكروهون في الجنوب، أكثر مما في الشمال، إذ ينظر إليهم في الجنوب باحتقار، وحتى حالتهم المادية في الجنوب فهي متواضعة جداً.

وفي كل منطقة من المناطق التي تعيش فيها القبائل ذات الحسب والنسب تعيش مجموعات من الصلبة، ويقوم الصلبة عادة بإصلاح أدوات المطبخ من الطناجر والقدور وسوى ذلك (تبييضها) لقبائل البدو حيث يعيشون، كما يقومون عادة بإصلاح عُدَد الصيد، وهم من المتتبعين الممتازين للأثر، وغير ذلك من الأعمال التي يعافها البدوي بطبعه وطبيعته.

ويمتاز معظم أفراد الصلبة بقدرة خارقة تفوق العادة في اكتشاف أماكن تجمع المياه تحت سطح الأرض، مثل الصخور أو ما شابه ذلك، حيثما وجدوا، ولهذا يعترف لهم الجميع بهذه الميزة النادرة، وهم في هذا الأمر موضع تقدير واحترام، وهم مفيدون ولا شك للقبائل التي تقدم الحماية لهم، كما يعتبرون أحياناً مصدر قوة أيام الحروب، ولهم فوائد جمة أثناء القيام بالإغارات، لا سيما البعيدة المسافة، ولهذا

كثيراً ما يصطحب المغيرون معهم أحد أفراد الصلبة، ويستخدمونه غالباً كدليل.

كما يحتفظ الشيوخ غالباً بأحد أفراد الصلبة ويبقيه بالقرب منه يرافقه في تجواله، إذ يعرفون جيداً أماكن تجمع الغزلان، وأماكن تحشد النعام أيضاً.

والصلبة من الناحية الأسمية مسلمون، إلا أنهم لا يتقيدون كثيراً بأداء الفرائض. ويقال عنهم إنهم لا يهتمون كثيراً بالعقائد الدينية، إلا من أجل استخدام الدين كغطاء في تعاملهم مع الناس لتنفيذ مآربهم، لا سيما في مناطق نجد والكويت، إذ لا يستطيعون الظهور هناك إلا بمثل هذه المظاهر المتدينة.

ويمتاز أفراد الصلبة ببراعة في التملق، والظهور بمظهر مهين وذليل أمام الآخرين، لتنفيذ مآربهم والوصول إلى حاجاتهم ويتذللون في مخاطبتهم لغيرهم.

ومن الصفات الأخرى لجماعات الصلبة امتيازهم بالجمال نساءً ورجالاً، ويقال عنهم أيضاً أنهم يأكلون لحوم الحيوانات الميتة (الفطيسة) كما يأكلون نفايات الذبائح.

ويعترف الصلبة أن أصولهم ليست عربية، ويقولون إن لفظهم للحروف يختلف عن الطريقة السامية - باللفظ - لمخارج الحروف، ولجميع أحرف الأبجدية.

ويحتفظ الصلبة بمخيمات كبيرة خارج أسوار مدينة الكويت والزبير، ولهذا يعاملهم الأوروبيون هناك على أنهم عرب، أو بدو عاديون، وهذا خطأ قد يؤدي في بعض الأحيان إلى نتائج سيئة.

هذا ولا يمكن لعربي أن يتزوج من فتاة صلبية، إذ أن أفراد قبيلته سيقتلونه وسيهدر دمه، ويقال مثلاً إن فواز أحد أمراء الرولة لم يشعر بوخز الضمير عندما اتخذ محظية من إحدى فتيات الصلبة، وقد احتفظ بها عنده بزواج عرفي، ولهذا فهو مكروه جداً بين جميع أفراد البدو في كل الأطراف.

ولكل مجموعة من الصلبة زعيم، كما أن لهم شيوخاً يهتمون بأمورهم، ولبعض هؤلاء الشيوخ قطعان من الإبل والغنم، وكل منهم يحاول أن يقلد أمثاله من شيوخ العرب، وأن يعامل بكل مظاهر الاحترام والتقدير. ومن هؤلاء في الوقت الحاضر:

- الشيخ بن شنوف، وهو شيخ الصلبة المطيرية.
- الشيخ مثلج الصافي، شيخ الصلبة الشمرية.
- الشيخ محمد بن جلاد شيخ الصلبة في العمارات.

- الشيخ معذيف شيخ الصلبة في الرولة.

ولا تتحجب النساء الصلبيات كما لا يضعن (الملفع) فوق القسم السفلي من وجوههن، ولهذا يمكن تمييزهن عن غيرهن في نجد بدون كبير عناء.

والنساء الصلبيات مغرمات بالرقص، حتى درجة التوله، ففي أية مناسبة ما لا يتحرجن أبداً من تشكيل حلقات للرقص، يتشارك فيها الرجال مع النساء بأعداد متساوية، وتتشابك الأيدي رجل وامرأة وهكذا، وهذه من الأمور التي تعتبر مخزية جداً عند العرب، كما لا تليق بالنساء العربيات، كما يقبل الرجال بين حين وآخر وفي بداية الاحتفال كل شريكته من فمها.

ومن بين الاحتفالات التي يقيمها جماعات الصلبة أثناء قيامهم بأداء رقصهم، تظهر بعض العادات الغريبة عن عادات وتقاليد المناطق التي يعيشون فيها، إذ يرفعون رايات متصالبة مصنوعة من قطعتين من الخشب مربوطتين معاً على شكل شعارات، وقد تعني رموزاً لقبائلهم الأصلية.

هناك بعض المطلعين العرب، ومنهم الشيخ عبد الله السالم الصباح ابن عم شيخ الكويت وأمثاله، يقولون بشكل حازم إن الصلبة من المتحدرين من بقايا الصليبيين، ومن المحاربين الغربيين منذ ذلك الوقت، فالغالبية من هؤلاء بعد فشل الحملات الصليبية، نقلوا إلى شبه الجزيرةالعربية حيث استخدموا عبيداً في بادىء الأمر، وهؤلاء الصلبة الآن متحدرون من أولئك الناس، ويستشهد الشيخ عبدالله لاثبات فكرته بالتالي:

أ - الحقيقة أن الصليب هو رمز الصلبة على مر الزمان، وأن هذا الأمر لم يكن عفوياً، وليس هناك من رمز بين العـرب للصليب حتى بين المسيحيين منهم.

ب - إن اسم صلبة، هو من الأسماء التي كان يطلقها العرب على الحملات الصليبية.

قد يكون لبعض هذه الأقوال صحتها، وعلى الرغم من ذلك، يمتاز الصلبة بعادات وتقاليد غريبة نسبياً عن عادات وتقاليد البدو وأهل المدن أيضاً.

وتوجه التهم إلى النساء الصلبيات على أنهن يملكن قوة خارقة في الأذى والشر ينطلق من عيونهن. كما أن لهن خبرة جيدة في تحضير السموم وطرق استخدامها للقضاء على خصومهن. وفوق ذلك فالنسوة الصلبيات شريرات، وغير حسنات في سلوكهن.

هذا ويجب أن لا يتم الخلط بين الصلبة وجماعات النَّوَر (الكاولية). ويوجد النَّوَر في كل مكان في العراق مع أن النَّوَر في هذه البلاد هم من أصول رومانية، إذ لهم نفس الصفات في كل شيء. ولا يختلفون حتى عن النَّور المنتشرين في كل أنحاء أوروبا، مثل إنجلترا وغيرها من البلاد. فالنَّوَر في هذه المناطق يلبسون مثل البدو، كما يعيشون في بيوت من الشعر، ويتجولون في كل مكان بين مضارب البدو، وهم يحملون عُدَدَهم على الحمير عادة عوضاً عن الجمال ـ كما يفعل البدو ـ ويمتاز النَّوَر بقدرتهم على السرقة، وتقوم النساء بالرقص مقابل أجرة بسيطة، وتقوم النساء النوريات بأعمال ختن الأطفال من الإناث، وهذه من العادات المنتشرة بين سكان شمال العراق، وبين قبائل المنتفك، التي تعيش في حوض الفرات وبين بني تميم من العرب.

وصف للرقص بين الصلبة

من مشاهداتي بتاريخ ٣/حزيران/١٩٣٤ في الكويت.

جرت حلقات الرقص بالقرب من مكان مضارب الصلبة، وعلى مقربة من قصر نايف، داخل البوابة المسماة باسم نايف أيضاً. وكانت المناسبة، احتفالاً بختان أحد أطفال ابن صلبي. واستمرت تلك الاحتفالات ثلاثة أيام متتالية، إذ جرى في اليومين الأولين تقديم رقصات منفردة أو خفيفة أو على شكل جماعات صغيرة، لكن في اليوم الثالث بلغت ذروتها بعدد المشاركين وأنواع الرقص وما إلى ذلك.

وكما هي العادة لدى الصلبة رفعت الرايات على الخيمة التي سيقام فيها الاحتفال، وهي على شكل خشبتين متصالبتين رفعتا على عصا أخرى، ووضع فوقهما قطعة من القماش. من ثياب بالية، كما تشير تلك الراية إلى استمرار الاحتفال إذ تدوم طالما استمر الاحتفال بهذه المناسبة.

كان رئيس الحفل رجلاً عجوزاً، وهو بنفس الوقت والد الطفل الذي سيتم ختانه، وقد بدأ بجولة على النظارة يدعوهم بأسمائهم للمشاركة في احتفاله وأفراحه، وكان يحمل بيده سيفاً يلوح به على الدوام، وكأنه يريد بذلك أن يبعث الحماس بنفوس المتفرجين، وكانت تطلق صيحات الحماس بين الفينة والأخرى، تنطلق من هنا

أو هناك، وكلها لتبعث الحماس بالمتفرجين. ثم اندفع شاب من بين المتفرجين بثيابه المزركشة (كلها بلون الزعفران والأخضر)، وكان يلبس فوقها ثوباً أبيض وانطلق يتمايل داخل الساحة التي خصصت كحلبة للرقص، وكان حاسر الرأس، فكانت جدائله تتمايل وتندفع أينما مال وانـدفع وأخذ يطلق صيحات حماسية، وفجأة اندفعت فتاة جميلة حاسرة الرأس، وقد ظهر شعرها الطويل الغزير، غطى الوشم معظم وجهها ورقبتها، وأخذ الراقصان يدور أحدهما حول الآخر، وعلى الفور انطلق الراقصون والراقصات من الحشود المجتمعة، واندفعوا وهم يتمايلون، وتتطاير جدائلهم مع حركاتهم، وما إن يصل أحدهم حتى يطبع قبلة خفيفة على ثغر شريكته في الرقص، يعتقد أنها تعبير على موافقتها وتشجيعها على القيام بالرقص، وكانت كل فتاة تحمل عصا صغيرة، كانت تلوح بها فوق رأسها وعلى الجانبين، بينما كان الشباب يطلقون صيحات كأنها الصيحات التي تطلق للحرب عادة، ثم يتجمع الشباب وحدهم في جانب والفتيات في جانب آخر والكل يقوم بحركات منتظمة متناسقة، وكان كل فتى في مواجهة فتاته التي اختارها لمشاركته الرقص، وتغيرت التشكيلة من جديد، إذ شكل الراقصون حلقة للرقص مفتوحة باتجاه النظارة، وبنفس الوقت اندفعت مجموعة من النسوة بالغناء معاً بإيقاع مشترك متناسق ومتناسب مع حركات رؤوس وأرجل الراقصين. وتقوم تلك النسوة بالتصفيق، كضابط للإيقاع والمحافظة على التنسيق بين الغناء والرقص. وهكذا يزداد الحماس ويعلو الغبار، وتزداد رائحة العرق التي تنبعث مع حرارة الجو، ومع ازدياد حماس الراقصين يزداد أيضاً حماس المتفرجين، فيقوم هؤلاء بأخذ أماكنهم في حلبة الرقص، وكلما تقدم راقصان يبدآن بنفس الطريقة التي بدأ بها الآخرون بتبادل قبلة على الشفاه، ويندفعون فرادى ثم ينضمون للحلبة. هذا ولم يظهر على الحلبة أي شيء يمكن أن يعكر صفوه أو يسيء إلى شعور الآخرين، سوى مرة واحدة عندما تقدم رجل عجوز كان يحمل سيفاً، وقام بعدة حركات كانت ممجوجة وغير مؤدبة، وقد بدت علامات الاستنكار على الجميع. هذا وقد تميزت معظم الفتيات بجمال أخاذ، يدعو للإعجاب حقاً. وقد صبغت معظمهن شعورهن بلون أحمر جميل باستخدام الحناء.

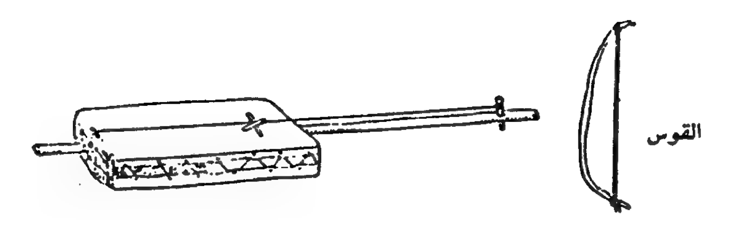
وتتابع الفتيات أثناء الرقص شركائهن في حركات الرقص، فتقلد كل منهن من يقابلها، كما كانت الرقصات تتابع مرة إلى الأمام وأخرى إلى الوراء، وقد تبدأ بطيئة وتزداد حماساً إلى أن تبلغ ذروتها، ثم من جديد تبدأ بالتباطؤ، ويندفع الشباب نحو الفتيات بين الحين والآخر، فتحرك الفتيات عصيهن وكأنهن يقمن بحركات يمنعن

بموجبها اندفاع الشباب نحوهن، وقد تقوم الفتيات أحياناً بتوجيه ضربات مؤلمة حقاً من عصيهن إذا تجاوز الشباب الحدود المرسومة. كما يظهر بين الفينة والأخرى رجل عجوز يخرج من بين المتفرجين، ويقوم بجولة بين الراقصين ليبعث الحماس فيهم وليشجع الآخرين على المتابعة، ويحمل على الدوام سيفاً يلوح به فوق رأسه كما يطلق صيحات حماسية. ومع انطلاق الرجل العجوز هذا تزداد حرارة الراقصين وتزداد حركاتهم نشاطاً وحماساً، كما لو كانوا يدخلون مع ذلك الرجل العجوز بسباق لإظهار قوتهم وحماسهم.

وعموماً لا تختلف رقصات الفتيات عن رقصات البدويات الأخريات، إذ يقمن عموماً بحركات بالأرجل، مع حركات الجسم بالاندفاع تارة إلى الأمام وأخرى إلى الوراء، وتتناسق تلك الحركات عادة مع حركات الشباب، وتزداد وتيرتها مع ازدياد الحماس وتقوم الفتيات بحركات إيمائية من رؤوسهن، كما يلوحن بين الفينة والأخرى بجدائلهن. وتتخذ الفتيات عادة في مثل هذه الأحوال مواقف جدية تغلب عليها الصرامة والرزانة، فلا بسمة، ولا إيماءة فردية، وتنتهي حفلة الرقص مثلما بدأت، إذ يطبع كل راقص قبلة أخرى على ثغر شريكته، وهذا إيذان بانتهاء الرقص. ويقوم الشباب من جديد بمرافقة الفتيات ويبتعدون عن مكان الاحتفال.

الربابة

تعتبر الربابة قيثارة البدو، وتستخدمها كآلة للطرب معظم القبائل البدوية، إن لم نقل جميعها، في جميع أطراف شبه الجزيرة العربية. إلا أن المغنين والعازفين على الربابة ينتمون عادة إلى القبائل المتواضعة، أو إلى الصُلبة أو النَّور أو إلى طبقة العبيد والخدم. ومع انتشار المذهب الوهابي بين قبائل البدو في عام ١٩١٩، وظهور نوع من التعصب حيال الكثير من الأمور، اعتبرت الربابة نوعاً من الإثم، وتم تحريمها، لكن استمرت قبائل الشمال من شمر والضفير وعنزة في استخدام الربابة كآلة للطرب والمتعة. لكن كما ذكرنا من قبل استمر الخدم أو العبيد أو من على شاكلتهم بالعزف على الربابة والغناء، ومن هؤلاء بطن (الصناع) إذ كان هؤلاء يشتهرون بنظم الشعر الشعبي وغنائه. أما مواضيع ذلك الشعر فتدور في معظمها حول حروب القبائل، وقصص الحب، وحول كرم الشيوخ، ومدحهم وما إلى ذلك، كما أن هنالك قبائل الرشايدة، والهرشان والعوازم، فهؤلاء يعتمدون على بعض أفراد الصلبة في العزف على الربابة ويرافقونها بالغناء. كما يمكن الاعتماد أحياناً على عناصر النَّوَر أو الزّط في العزف على الربابة. الشكل (٦٦).



الشكل (٦٦) الربابة (كمان ذي وتر واحد)

ومن الجدير بالملاحظة أن الربابة لا تستخدم لمرافقة الراقصين عند أداء الرقص، بل تستخدم الربابة عموماً في قضاء الليالي عندما يتجمع الناس حول نار القهوة، ويقص شاعر الربابة وعازفها بعض الحكايات وقصص الحب والحرب بين القبائل، كما يقص قصة الشجعان من القبائل، وقصص الكرم والسخاء.

ونشير من جديد أن عازف الربابة لا ينظر إليه بعين الرضى من قبل العرب الأقحاح. وينظرون إلى هؤلاء عادة بعين لا تليق بمقامهم.

العرافة، وقراءة البخت، والتنبوءات

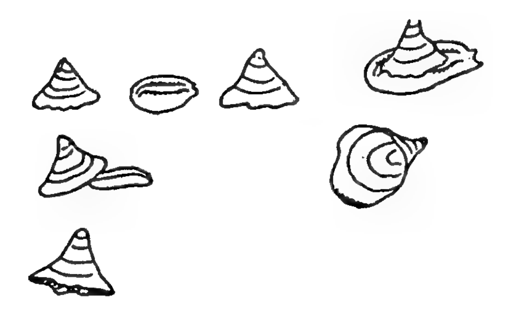
تمارس الكثير من البدويات العرافة أو قراءة البخت بشكل عام، والنساء من الصلبة بشكل خاص، ولا تختلف مبادىء هذه العرافة عما يجري في البلدان الأوروبية ومنها إنجلترا عندما تقوم النّوريات بهذه المهنة، إلا أن الصلبيات يستخدمن المحارات البحرية أو نوى التمر، أو قطع الآجر عوضاً عن ورق اللعب الذي تستخدمه النوريات في أوروبا. وقبل البدء بتنبوءاتها تقوم العرافة عادة بهز تلك المجموعة بين الكفين، ثم تلقي ذلك على الأرض، ومن تناثرها تبدأ العرافة بقراءة البخت والتنبوءات المختلفة.

هذا وإنني أعرف شخصياً منيرة المطيرية، وهي من بين المشهورات في المنطقة على قدراتها حول التنبوءات، وكثيراً ما تتردد على زيارتنا بين فينة وأخرى، وتحمل معها دوما كيسها القماشي مع محتوياته من الودع، وتتألف تلك المجموعة عموماً من:

- ثلاث ودعات كبيرة.
- ثلاث ودعات من الحجم الصغير.
- تسع ودعات من الحجم الصغير، ولها حواف مكسرة في أحد وجوهها.

ـ قطعة من الآجر واحدة فقط، ومن اللون الأزرق، وتبلغ أبعادها حوالي الإنش تقريباً.
ـ قطعة أخرى من الآجر بلون أحمر، لها نفس المواصفات السابقة بالحجم.
ـ خمس نوى من حبات التمر.

وتقول منيرة المطيرية: (إن القطع الفخارية ذات اللون الأزرق ترمز للبحر، أما ذات اللون الأحمر فترمز إلى الأرض أو اليابسة، وتمثل حبات التمر النساء، أما إذا استقرت نوى حبات التمر بعد إلقائها على وجوهها فترمز للرجال، أما إذا استقرت على جوانبها فترمز إلى الجمال. . . إلخ). وتقوم العرافة عادة برمي أدواتها ثلاث إلى خمس مرات، وبعد ذلك تعطي تنبوءاتها. وفي كل مرة تقوم عادة بفحص أوضاعها وتناثرها. وبعد ذلك تبدأ عادة بسرد رواية قصيرة مثلاً كأن تقول: (إن ابنك قد قطع البحر، وهو الآن يكتب لك رسالة، وسيأتي قريباً لزيارتك، ولكن هذه المرة بالطيارة وليس عن طريق البحر، هذا ويشعر ابنك بالوحشة لفقدك، ولكن هناك من يرعى أموره ويقوم مقامك في كل شيء. . . إلخ). وبالطبع تعتمد تنبوءاتها هذه على المعلومات التي تكون قد استقتها منك بطريقة أو بأخرى. الشكل (٦٧).



الشكل (٦٧) نماذج للودعات بأشكالها المختلفة

لعبة الحويلة

تعتبر لعبة الحويلة اللعبة المفضلة لدى العرب، وتؤدى من قبل شخصين أو لاعبين حسب الطريقة التالية:

ـ يقوم كل لاعب بحفر سبعة ثقوب في الأرض، وتكون تلك الثقوب على خط مستقيم، يقابلها أيضاً سبعة أخرى للاعب الآخر، بشكل متناسب ومتناسق.

- يوضع في كل ثقب من هذه الثقوب خمس بحصات بحجم نوى حبات التمر.

يبدأ اللعب، بأن يقوم أحدهم برفع الحصى حسبما يراه مناسباً من أحد تلك الثقوب، ويمر بها بإلقاء حصاة في كل ثقب يمر به بعكس اتجاه عقارب الساعة، مبتدئاً من الثقب الأول على اليمين الذي يلي مباشرة الثقب الذي رفع منه حبات الحصى، فإذا ما انتهى من توزيعه بأعداد فردية اعتبر رابحاً، وإلا فلا. وهكذا تستمر اللعبة بالتناوب، حتى يتم إخراج كافة الحصى من ثقوبها، ويعتبر رابحاً من جمع عدداً أكبر من الحصى. وهكذا قد يلعب اللاعبون عدة مرات.

وهناك لعبة أخرى مماثلة تقريباً تسمى (أم الجديرة)، لكن الفرق أن الثقوب تكون على شكل دائري عوضاً عن الشكل المستطيل في الحويلة. مع ثقب في الوسط أيضاً.

خاتم سليمان بن داوود

قمت بتاريخ ١٢/كانون الأول بزيارة لمضارب سالم المزين، ومضارب الخرميط (من العوازم) وقد نصبت خيامهم في غور سطحي، بالقرب من الجانب الغربي لسلسلة تلال الظهر، التي تبعد حوالي ١٥ ميلاً عن مدينة الكويت، وكان الجو صحواً والشمس ساطعة، وتميل إلى الحرارة، وقد شاهدت أمام خيمة سالم في مواجهة جناح النساء عشاً كبيراً للنمل، كما كانت جموع النمل مشغولة بنقل مؤونتها التي كانت تجمعها من هنا وهناك، وتقوم بحركة دؤوبة نشيطة، وكان لعش النمل هذا فتحتان، إحداهما للدخول إلى ذلك العش والآخر للخروج منه، وكانت تبعد الفتحة عن الأخرى حوالي أربع أقدام تقريباً.

وقد لاحظت أنه قد تم رسم دائرة حول عش النمل، وقد بدا ذلك واضحاً، وكانت تلك الدائرة قد حفرت بالأرض بعمق حوالي الإنش. وقد وضع ضمن تلك الدائرة المرسومة على الأرض، حبلان أيضاً كانا لهما شكل الدوائر، ومن النوع المستخدم عادة من أجل حزم أعمدة الخيمة أثناء عمليات التنقل والارتحال، ولا أعرف لها عادة استخدامات أخرى غير ذلك، وكان قطر الدائرة الكبرى حوالي ١٢ قدماً أما الدائرة المشكلة بالحبل وهي الصغرى أيضاً، فكان قطرها حوالي قدم واحدة و٦ إنش.

هذا وتوجهت بالسؤال إلى النساء عما تعنيه تلك اللعبة التي يمكن للنساء أن تلعبها، أو يلعبها أطفالهن، ولكن تبين فيما بعد أن ظني هذا كان خاطئاً. فردت النسوة

موضحات إن ما أشاهده ليس كما أتخيل لعبة أطفال، بل إنه خاتم سليمان بن داوود، أو خطاب سليمان كما يقولون.

فقادني فضولي أن أسأل عن معنى هذا الخاتم وأهدافه. فقالوا لي إنهم لم ينتبهوا إلى عش النمل الذي أراه الآن، عندما قاموا بنصب الخيمة فوجئوا به ولم يشاؤوا نقل مكان الخيمة، والبدو عموماً يخشون من تسلط النمل على مؤونتهم من الرز أو أنواع الحبوب الأخرى التي تقع ضمن اهتمامات النمل. لهذا قاموا بوضع خاتم سليمان حول عش النمل لتجنب أذاه كما قالوا، وقالوا أيضاً إن خاتم سليمان هذا يمكن إقامته في أي مكان يراد من ورائه تجنب أذى النمل، ويصرون أن ليس هنالك من نملة يمكن لها أن تتجاوز تلك الحلقة. ثم سألت عطشة، فيما إذا كان يكفي فقط رسم تلك الدائرة أم هناك ما يجب إضافته حتى تكمل الشروط الضرورية. فأجابت بالإيجاب، قائلة إن هنالك أدعية تقال لمنع النمل بالإضافة إلى تلك الدائرة، لأن الدائرة لوحدها لا تعني شيئاً. أما كلمات الأدعية فهي:

(هذا خاتم سليمان بن داوود باسم الله الرحمن الرحيم، لا تجينا ولا نجيك).

لا بل قد تحدثني قائلة خذ بعض حبات الرز وألقها إلى جموع النمل، وستجد أنها ستعافها ولا تقترب منها، وعندما لاحظت دهشتي مما كانت تقول، قالت يجب أن لا يدخل الشك إلى قلبي أيضاً، ويجب أن أصدق ما قالته بإذن الله وألحت علي أن أجرب ما اقترحت علي، وكانت النتائج كما ذكرت لي عطشة. ويمكن القول إن تلك لطريقة يستخدمها جميع البدو أينما وجدوا.

وقد وجهت اهتماماً لتلك المسألة المحيرة، وقد تعجبت فعلاً، لعدم اقتراب النمل من أوعية الرز، ولم أجد لها مع ذلك تفسيراً معقولاً.

وأضافت عطشة أيضاً إنه من أجل نجاح العملية يجب استخدام الحبال المستخدمة لربط أعمدة الخيمة أثناء الارتحال، وإلا فلن تكون العملية مجدية إطلاقاً. وقالت إن أي حبال أخرى، لن تجدي نفعاً أبداً.

الفصل الثاني والأربعون

الثأر وعداء الدم

إن موضوع عداوة الدم هي من أهم المواضيع التي يمكن الكتابة عنها، وإنني أشعر بالخجل العميق أمام عجزي عن معالجة ذلك، إذ يتطلب معرفة جيدة بالشرائع القرآنية. وما أنقله هنا لقرائي، عبارة عن طروح عامة، لا تمس القضايا الأساسية بل سرداً لبعضها دون الغوص كثيراً في تعقيداتها التي نتركها لذوي الاختصاص.

نبدأ القول إن هناك قاعدة في الشريعة الإسلامية تقول (العين بالعين والسن بالسن)، وبكلمات أخرى إذا قتل أحدهم النفس التي حرم الله قتلها عامداً متعمداً، فجزاؤه القتل، إذ تهدر حياة القاتل. أما إذا سبب له جروحاً أو تشويهاً أو أقعده عن العمل، فالقاعدة تقول، الجزاء من جنس العمل، أي أن يحصل له ما حصل لغيره. أما إذا أثبت الفاعل أن ما قام به من قتل أو تسبب في الضرر لشخص آخر كان دفاعاً عن النفس أو عن غير قصد، فعندها، يمكن أن يدفع جزاء فعلته مبلغاً من المال، ويحدد المبلغ حسبما تقتضيه الأعراف والتقاليد، ويجري ذلك باتفاق الطرفين، وتوسط الأطراف الأخرى بمعرفة قاضٍ شرعي يعرف أصول الشريعة الإسلامية، عند عرض الحلول المناسبة بشكل لا يتعارض مع الشريعة.

كما يمكن في بعض الحالات أن يجري دفع مبلغ من المال مقابل القتل العمد، أو التسبب في الضرر عمداً، كل ذلك وفقاً لمبادىء الشريعة الإسلامية. وهناك أسس عامة حول المبالغ التي تدفع بسبب التسبب بالضرر أو الأذى.

وهنا بعض الأمثلة، وقد استقيتها من شيخ الكويت بتاريخ ٥/نيسان/١٩٣٦ قال لي إنه استقاها من قاضي الكويت الشيخ حمادة، وذلك للاستعانة بها بدفع تعويض

عن كل إصابة قد تنتج لأحد العمال الذين يقومون بالعمل في شركة النفط، وقد ذكرت الأرقام هنا بالروبية وليس بالريال طبقاً لأسعار العملات رسمياً.

أ ـ يدفع تعويض كامل عن كل من تعرض للإصابات المذكورة فيما يلي. وقد حدد ذلك بمبلغ ٣٠٠٠ روبية على أن تكون الحادثة قضاءً وقدراً:

- القتل غير العمد، أو الموت نتيجة العمل.
- جميع الحوادث التي تسبب الجنون أو الخبل أو فقدان الوعي وما إلى ذلك من العوارض المماثلة.
- الحوادث التي تسبب العمى الكامل.
- الحوادث التي ينجم عنها الصمم الكامل.
- الحوادث التي تسبب أو ينجم عنها فقدان الصوت.
- الحوادث التي تسبب فقدان التذوق بالكامل.
- الحوادث التي تسبب فقدان اليدين.
- الحوادث التي تسبب فقدان القدمين.
- الحوادث التي تسبب فقدان إحدى عيني الذي تعرض للحادث.
- فقدان الأذنين.
- الحوادث التي تسبب فقدان الأنف بالكامل.
- الحوادث المسببة لفقدان عضو التذكير للرجل.

ب ـ يدفع نصف تعويض، لكل من يتعرض للإصابات التالية، ومقدار التعويض ١٥٠٠ روبية. والحوادث هي:

- الحوادث التي تتسبب في فقدان إحدى اليدين.
- الحوادث التي تتسبب في فقدان إحدى القدمين.
- الحوادث التي تتسبب في فقدان إحدى العينين.
- الحوادث التي تتسبب في فقدان إحدى الخصيتين.

جـ ـ يدفع ربع تعويض عن كل حادث يتسبب في الإصابات التالية، ومقدار التعويض ٧٥٠ روبية.

- التسبب في فقدان بعض أجزاء الأذنين.

د ـ يدفع ثمن تعويض عند التسبب في الإصابات التالية. ومقداره مبلغ ٣٧٥ روبية.

- فقدان إحدى الأذنين فقداناً كاملاً.

هـ - يدفع العشر للحوادث التي تتسبب في الإصابات التالية، ومقداره مبلغ ٣٠٠ روبية.

- فقدان أحد أصابع اليد، أو فقدان أي إصبع من أصابع القدم.

و- يدفع تعويض يعادل الواحد من عشرين للإصابات التالية، والمبلغ هو ١٥٠ روبية.

- عن فقدان كل سن.

أما في العراق فيدفع عن عقوبة القتل غير العمد مبلغ قدره ٨٠٠ روبية أو ما يعادله من الدنانير، أما من كان من أصول عريقة، كأن يكون من أحد أفراد القبائل ذات الحسب والنسب عندها يصل التعويض إلى ١١٠٠ روبية أو ما يعادله من الدنانير. أما الدية في قبائل نجد، الحسا، الكويت، فتصل إلى ٨٠٠ ريال. وهو يعادل ١٢٠٠ روبية حسب أسعار العملات في عام ١٩٣٦.

وتعرف هذه التسوية، بدفع مبلغ من المال، كفدية مقابل قتل أحد الأشخاص بين قبائل العراق، باسم (الفصل)، وترافق تلك العملية بدفع مبلغ آخر وهو عادة من المبلغ المدفوع لتسوية الدم، ويعرف بأنه شرفية نقدية، وتسمى تلك العملية (بالحشم)، وتصرف في الحالة التي تكون فيها عملية القتل تمس شرف القبيلة.

أما في الصحراء فإن كلمة (فصل) غير معروفة، كما أن كلمة حشم أيضاً غير معروفة، وإذا كان أحدهم يعرفها فقد يكون ذلك صدفة ويقابلها في الصحراء كلمة (دية) وهي شائعة الاستعمال.

يضاف إلى ذلك أنه في العراق يمكن على الدوام تسوية مشاكل القتل بدفع مبلغ من المال (الفصل). أما في نجد مثلاً فذلك يتوقف على رغبة إرادة أهل القتيل بالدرجة الأولى، وهم في كثير من الأحيان يصرون على تطبيق القاعدة: العين بالعين، والأخذ بالثأر. وبكلمة أخرى إذا جرت عملية قتل أحدهم بخصومة شخصية أو فردية، عندها للأهل المباشرين الحق في اتخاذ القرار الذي يرونه مناسباً للأخذ بالثأر أو القبول بالمصالحة وتسوية الأمر عن طريق القبول بالدية. وإذا رفض الأهل المباشرون، يعتبر دم القاتل مهدوراً، وعلى هؤلاء الأقارب المباشرين ترصده وبالتالي قتله، لكن لا بد من استشارة الشيخ أولاً قبل اتخاذ القرار اللازم، على الرغم من أنه يجري الأخذ بالثأر عموماً من قبل الأقارب المباشرين للقتيل.

ومن المهم جداً أن تنفذ عملية الحكم بالموت كعقوبة بنفس الطريقة التي جرت فيها عملية القتـل، أي تطبيقاً للقاعدة القائلة العين بالعين.

لنضرب على ذلك مثلاً. لنفترض أن (أ) قتل من قبل (ب)، وذلك بأن قام الأخير عامداً متعمداً بإطلاق رصاصة على رأس (أ) فأرداه قتيلاً. وطبقاً للقاعدة العامة، على أهل (أ) أن يتخذوا الاجراءات المناسبة لإطلاق طلقة على رأس (ب) وحتماً على الرأس وليس في مكان آخر من الجسم، وإلا فسيتعرض المنتقم للأخذ بالثأر منه مجدداً، في حال تعمد إلحاق جروح فقط، وليس الوصول إلى القتل، ولنفرض أن (د) قتل (ج) بقطع رأسه بالسيف، وفي هذه الحال على أهل (ج) أن يقطعوا رأس (د) كما فعل (د) ذلك مع (ج). ولهذا عليه أن لا يتخطى حقه بأن يقوم بالأخذ بالثأر لوحده، وباسمه فقط، وهذا سيعرضه للأخذ بالثأر منه أيضاً. وللإلقاء بعض الأضواء على بعض التعقيدات على هذا الموضوع، إليكم ما قصه علي شيخ الكويت، معتمداً على حادثة وقعت فعلاً في الكويت عام ١٩٢٧، كما تبين الصرامة التي تعالج فيها أحياناً بعض الأمور من قبل بدو الصحراء للدلالة دوماً على ما يمكن اعتباره صحيحاً أثناء تنفيذ العقوبة مهما كانت قاسية:

كانت تعيش في الكويت امرأة مطيرية، وكان لها ثلاثة أولاد ذكور، وقد مات زوجها قبل مدة من الحادث الذي سنسرده، وفي أحد الأيام تخاصم اثنان من أولادها: الأكبر والأوسط منهم، وجرت الخصومة في سوق المدينة وعلى مرأى من الناس، وفي لحظة غضب، أطلق الأخ الأكبر على أخيه الذي يليه في السن النار فأرداه قتيلاً على الفور، إذ أصابت تلك الرصاصة منه القلب. وجرى توقيف الجاني، ولما علم شيخ الكويت بالحادث، قام باستدعاء الأم، ليتعرف منها عن رأيها لمعالجة ذلك الموقف قبل اتخاذ القرار المناسب، وسألها عن نوع العقوبة التي يستحقها ابنها الثاني، قاتل أخيه، وهو ابنها بالطبع، فردت على الفور إنها لن تقبل دون رأسه بديلاً عما فعله بأخيه، فصرفها شيخ الكويت لتفكر بالموضوع وتعطيه قرارها النهائي، وقد شعر شيخ الكويت بقسوة الموقف أن يقوم الأخ الأصغر بقتل أخيه الأكبر منه وبالتالي تفقد الأم ابناً آخر، إلا أن الأم أصرت على تنفيذ العقوبة حسبما تنص الشريعة الإسلامية. وهذا يعني أن يقوم الأخ الأصغر بإطلاق النار على مكان القلب من أخيه. وهذا ما جرى أخيراً، بناء على إلحاح الأم التي رفضت حلاً آخر، فقام باستدعاء الابن الأصغر وناوله بارودة لإطلاق النار على أخيه تنفيذاً لرغبة الأم، وطبقاً لما تقتضيه الشريعة، وأراد شيخ الكويت اعتبار الأمر وكأنه حادثة قتل عن غير عمد، إلا أن الأم لم تقبل بذلك العرض. فاضطر الشيخ من جديد إلى استدعاء الابن الأصغر وطلب إليه

أن يطلق النار على أخيه في مكان القلب، وجرى هذا الأمر في مكان عام في مدينة الكويت، وأصيب ذلك الولد بالاغماء، إلا أنه ما إن صحا من غيبوبته إلا وطلب منه تنفيذ ذلك فرفض بإلحاح إطلاق النار على أخيه، وألقى بالبارودة على الأرض، وأخيراً تم تنفيذ عملية الإعدام، من قبل أحد حرس الشيخ.

أما نتائج تلك العملية، فهي أن معظم الناس لم يكن راضياً عن تصرف تلك الأم القاسية، إذ فقدت الأم ابنين لها، أما ولدها الثالث فقد رفض رؤية أمه. وأصبح يكرهها كرهاً عجيباً متهماً إياها بالقسوة، ورفض العيش معها، ولم يعد يطيق رؤية أمه، وبهذا خسرت الأم أولادها الثلاثة.

هذا ومن الأمور المتعارف عليها بين البدو، أن ليس من حق أحد أن يطالب بفدية أو دية أو. . . إلخ ،وذلك عن مقتل أحد أثناء معركة جرت بين قبيلتين متحاربتين، والسبب يعود إلى أن أحداً لا يستطيع التعرف على القاتل لا سيما في الظروف الراهنة التي تستخدم فيها الأسلحة النارية عن بُعد إذ يصعب فيها التمييز بين شخص وآخر. أما في الحالة التي يتم فيها التأكد على دخول أحدهم معركة واحدة ما بهدف قتل شخص ما على نحو متعمد، ففي هذه الحال سيقوم أهل القتيل، إذا علموا بالموضوع، بالأخذ بالثأر، ولهم حسب الأعراف حق بذلك.

إنني أعرف حالة مماثلة، إذ كان مرة رجل رشيدي يدعى عيد العويد، وشاءت الصدف أن قتل خمسة رجال أثناء غارات شارك فيها الإخوان قتالهم، والخمسة هم من قبائل مختلفة، فكانوا (من عتيبة، ومن الضفير، والمطير، ومن حرب وأخيراً عجماني) وقد عرف فيما بعد أنه قاتلهم، وبدأ أهل القتلى يبحثون عنه وعن محاولة الأخذ بالثأر، ولهذا كان يخيم على الدوام مع آخرين ممن يستطيعون الدفاع عنه عند الضرورة.

ولهذه الأسباب يقوم البدو عادة عند ذهابهم إلى القتال متلثمين حتى العينين بالكوفية بتمريرها أمام الوجه من طرفيها، وبالتالي ربطها في الجهة العليا من الرأس بالعقال، وذلك بهدف ستر هويتهم عن الآخرين خصوصاً عندما تحتدم المعارك، لا سيما إذا وصلت إلى درجة التشابك بالأيدي، كما يجري في بعض الأحيان، وإن تلك العملية تعطيه شعوراً بالراحة والاطمئنان من المستقبل، لصعوبة التعرف عليه.

ويقال أيضاً إن بين المعدان ـ وهم أناس بدائيون يعيشون في المناطق المرزغية العراقية، كما ذكرنا في مكان آخر من هذا الكتاب. وعندهم عادة لطيفة، يحكى عنها بين القبائل ـ عندما يتم دفع الفدية أو الدية. . . إلخ يقدم القاتل أخته أو

زوجته كزوجة إلى أقرب المقربين من أهل القتيل، فيتزوجها هذا الأخير، ويدخل عليها، والطفل الذي ينتج من هذا الزواج، يقولون إنه يزيل وإلى الأبد كل أنواع الأحقاد بين أفراد تلك العائلتين المتخاصمتين، إلا أنني لم أسمع بهذه العادة بين القبائل العربية الأصيلة مطلقاً.

وهناك أيضاً القبائل المنحدرة من أصول ذات حسب ونسب، فإنها ترفض عادة الدية بأي شكل من الأشكال، ولن تعفي القاتل مهما طال الزمن أو كلف ذلك، لا بد من قتل القاتل لو بعد حين، وهذه القبائل هي مثل السعوديين، آل الصباح، آل الخليفة.

وحالة مشابهة لذلك فإن قاتل الشيخ علي السالم الصباح، من شيوخ الكويت، في رقعي ١٩٢٧ من قبل رجل من بطن البرية، من قبيلة المطير، وقد عرف فيما بعد، ولا تزال ملاحقته مستمرة للآن ١٩٣٦.

هذا وإن رفض الشيوخ وأمثالهم للدية من أصحاب المقامات، هو نوع من الوجاهة إلى هؤلاء الناس، ومحاولة المحافظة على أنفسهم من احتمالات أي اعتداء قد يتعرضون له.

ونشير هنا أن من سرق أحد عبيد أحد الأمراء أو الوجهاء وما إلى ذلك من الناس، يعتبر عملاً مشيناً جداً لا يغتفر، وفي هذه الحالة يهدر دم السارق من قبل سيد ذلك العبد، ويطالب بقتله مهما كلف الأمر.

السرقة

تعتبر السرقة بشكل عام عند البدو من الأمور المعيبة، سواء أكانت السرقة من عند الأصدقاء أو من عند الأعداء بين البدو الحقيقيين، وبشكل عام يمكن القول إنها نادرة الحدوث.

ولا تدخل في عداد السرقة، كل حادثة سلب للخيول أو الجمال من أحد البدو، ممن تكون بينهم وبين الطرف الآخر عداوة قديمة، أو أي نوع من الخصومة والعداء. بل تعتبر أعمالاً من أعمال الغزو، أو الإغارات. ولا يجري عادة أن يقوم أحدهم ينتمي إلى قبيلة تقيم علاقات صداقة مع قبيلة أخرى بأعمال السرقة أو النهب أو السلب.

هذا وقد أدى الحكم الصارم في مناطق شبه الجزيرة العربية تحت الحكم السعودي إلى انعدام السرقة بالكامل تقريباً، ويعامل السارق حسب الشريعة الإسلامية بقطع يده اليمنى.

هذا ويستخدم بدو شمال شبه الجزيرة العربية طريقة طريفة لكشف السارق، فإذا ما اتهم أحدهم بالسرقة، ولم تتوافر أي طريقة لإثبات التهمة أو نفيها، يقوم الشيخ عندئذٍ باستدعاء المتهم، لإثبات براءته، أو إدانته باستخدام طريقة (البشعة) وعلى المتهم أن يثبت براءته بالنار، إذ يُسْتَخْدَم رأس أحد السيوف، أو قضيب تنظيف البندقية بحميه على النار حتى درجة الاحمرار، ثم يقوم الشيخ بوضع تلك الآلة المحمية على لسان المتهم لمدة ثانيتين، فإذا كان ذلك المتهم بريئاً، فإنه لن يشعر بتلك النار، وستكون على لسانه برداً وسلاماً. وسينهض مرفوع الرأس، إذ تعلن براءته، أما إذا كان مذنباً، فسيحترق لسانه بنار محرقة، ويجبر على أداء ما سرقه.

وقد شاهدت مرة تلك العملية تجرى أمامي فعلاً، عندما تمت سرقة سيف الشيخ محروث بن فهد بك الهذال، شيخ العمارات (قبيلة عنزة) عندما كان يخيم بالقرب من كربلاء في عام ١٩٢٢، وقد كنت في ذلك الوقت أقوم بوظيفة الضابط السياسي في منطقة وسط الفرات، وكان أحد رجالي من المسيب قد أوقف بتهمة سرقة ذلك السيف. وأحضر المتهم أمام الشيخ نفسه، ولم يعترف المتهم بما وجه إليه من تهمة، مما اضطر الشيخ أن يجري عليه الكشف (بالبشعة)، وقد قبلت بإجرائها على أحد رجالي على أساس مشاهدة جدوى تلك العملية وأهميتها. ولكن لم أقبل أخيراً أن يخضع إنسان لمثل هذه التجربة أمامي، وحررته من آلام قد لا يطيقها.

القتل بدس السم

مما لا شك فيه أنه ليس من السهل التوصل إلى براهين بشكل واضح عن مدى استخدام السم كحالة للتخلص من الخصوم. إلا أنه يبدو لي مؤكداً أن استخدام السم في مثل هذه الأحوال يستخدم بشكل بارع، وعلى نطاق واسع في بعض أطراف شبه الجزيرة العربية ـ لا سيما في المدن ـ من أجل إزاحة شخص لم يعد يحتمل وجوده، لا سيما في حالات الخصومات الشخصية، كما هو الأمر مثلاً مع زوج لم يعد احتمال تصرفاته ممكناً، أو إمكان محبته... إلخ.

ومما لا شك فيه أن بعض الحكام مثل آل الرشيد، وآل السعدون، قد استخدموا السم في كثير من الحالات للتخلص من بعض خصومهم ومناوئيهم.

ويقال إن سبب استخدام السم في عمليات القتل، يعود لسهولة استخدامه من جهة، وبسبب آثاره الشبيهة بحالات مرض الكوليرا، وإن أكثر أنواع السم المستخدمة هي من نوع الزرنيخ أو بعض مركباته. كما يضاف إلى ذلك سهولة

الحصول على الزرنيخ، إذ ينتشر كثيراً عند هؤلاء الناس نظراً لاستخدامه في عمليات تنظيف الجمال من الجرب وبعض الأمراض الأخرى، كما أن الزرنيخ الممزوج مع الكلس هو المفضل عند السيدات من الطبقات الغنية. ويطلق على السم بين البدو اسم (السقوة).

وقد علمت من بعض أصدقائي البدو، أنه في عهد آل الرشيد كان السم يستخدم في أغلب الأحيان مع القهوة وقد يكون ذلك السبب الذي سمي (بالسقوة). إذ كان عمال القهوة يحتفظون في ذلك العهد بنوع من الخواتم الكبيرة يمكن لصاحبها أن يخفي فيها كمية السم اللازمة، أو من الممكن إخفاؤها حتى بين الأظافر، وعندما يتقدم نحو الشخص المقصود، وأثناء صب القهوة يدس له السم بطريقة بارعة ولا شك. وتظهر على شارب هذا النوع من السم حالات القيء والخروج، كما هو الحال عند الإصابة بمرض الكوليرا تماماً. وغالباً ما تنتهي حالات التسمم بالزرنيخ بالموت. وقد أعلمني أحد شيوخ عجمان بتاريخ ١٠/نيسان/١٩٣٥ أن ابن الرشيد عندما حاول قتل الشيخ عبد الرحمن السعود ـ والد الملك الحالي ـ وأخيه، عندما كانا رهينتيه في حائل، استخدم نفس الطريقة المذكورة، وقد شرب الثاني القهوة ومات على الفور، أما الأول فقد أحس بالعملية وقام بحيلة، ولم يذق تلك القهوة، وبدلاً من الانحناء إلى الأمام، وتحت غطاء كمه الطويل كما هي الحال في الثياب القديمة فإنه مرر القهوة إلى (زبونه) وإلى صدره. وقد احرقت القهوة صدره فعلاً، وقد بقيت على صدره تلك الندبة حتى مات.

إنني أعتقد بصحة تلك الرواية، كما أن هناك العديد من هذه القصص المماثلة التي جرت بنفس الطريقة.

الفصل الثالث والأربعون

السحر، أو ما فوق الطبيعة

يعتقد كثير من البدو أن لبعض النساء تأثيراً كبيراً على الرجال (وليس المقصود هنا النساء الصلبيات فقط) عن طريق السيطرة عليهم بالسحر، وتستطيع أمثال أولئك النسوة أن يوجهن الرجال طبقاً لرغباتهن وهن كثيرات عُرفن في الصحاري. منهن (دحيلة) التي عرفت في أحد الأيام بأنها كانت ذات سحر وقوة تأثير على الرجال. وكانت دحيلة هذه تنتمي إلى قبيلة عتيبة، وكانت مشهورة بين قبائل نجد وشمال ـ شرق شبه الجزيرة العربية؛ وحتى الكويت. وقد قتلت فيما بعد على يد شيخ عتيبة سلطان بن حميد في غطط، عندما كان الإخوان في عز أيامهم وأمجادهم، ومن المحتمل أن يكون هذا في عام ١٩٢٩.

وقد أعلمني أحد شيوخ عجمان من المسنين بتاريخ ٢٦ آذار ١٩٣٥ أثناء حوار جرى بيني وبينه حول هذه المواضيع إذ قال: (إن زوجة الأمير عجلان، وكان هذا حاكماً للرياض في عهد آل الرشيد، قد انتقمت من عبدالعزيز السعود «الملك الحالي» بالطريقة التالية: فقد سبق أن قتل عبدالعزيز زوجها أثناء استيلائه على مدينة الرياض. وبعد ذلك رجت ابن سعود أن يقبل منها هدية مؤلفة من (الدوشق) و (الوسائد) وقالت إنها صنعتها بيدها خصيصاً للملك السعودي وتقدمها هدية). وكانت قد احتاطت للأمر من قبل، فقد وضعت داخل تلك الوسائد بعض الوريقات التي كتب فيها السحر بطريقة سرية كما وضعت بعض الإبر، والخيوط الملونة. . . . الخ. وهذه من الأمور اللازمة للتأثير بسحرها على عبدالعزيز، وبالتالي لتؤدي إلى الانتقام منه، وقد هيأت لها كل ذلك إحدى النساء الساحرات المشهورات والحاذقات في شؤون السحر، وقد حضرت تلك العملية لقتل كل من عبدالعزيز السعود وشيخ عجمان الذي ساعده في

احتلال الرياض، وبالتالي تعاونا على قتل زوجها، وكانا يجلسان معاً في مجلس ابن سعود كل مساء تقريباً، إذ كان شيخ عجمان ـ الشيخ مناحي بن مجلاد ـ يجلس إلى جانب ابن السعود ويتكئان معاً. وكان تأثير السحر عاجلاً وسريعاً على الشيخ مناحي وسبب له الموت العاجل بعد مرض عضال عجز عن شفائه النطاسون. أما ابن سعود فقد كان تأثير السحر عليه أيضاً عظيماً، إلا أنه قد عالجه قبل أن يستفحل به بسحر مناقض، وكان السحر قد سبب له آلاماً لا تطاق، ولا تبرحه أبداً، وكانت تلك الآلام تتركز بالدرجة الأولى في رأسه وعيونه، وقد شعر على الفور فاستعجل الأمر، (بفك السحر) وقد أنقذه من هذه الورطة الساحر المعروف حثلان الدوسري، إذ كان هذا يمتاز بمعرفة جيدة بالسحر المعاكس، واستطاع أن يقضي على سحر تلك المرأة وخلص ابن سعود من موت كان محققاً، وكان ذلك بظهور بقعة سوداء في حنجرته تشبه اليرقانة، وقد تم إخراجها بعملية السحر. وقد شاع بين الناس ما قامت به تلك الزوجة إلا أن ابن سعود لم يعاقبها على فعلتها تلك، وعقوبة أمثال تلك القتل، وكل ما قام به أن أرسلها إلى حائل فقط. وجدير بالملاحظة أن هذه القصة يرويها معظم البدو، ويعتقدون بصحتها، لا سيما أفراد قبيلة عجمان.

وقد وصف لي شيخ الكويت اعتماد الناس على السحر في حل العديد من المشاكل، لا سيما بين النسوة ممن تزوج أزواجهن بأكثر من امرأة واحدة، بهدف السيطرة على ذلك الزوج، أو بهدف أن يقوم ذلك الزوج بمحبتهن، وكره الزوجة الأخرى. وكثيراً ما يتسبب ذلك في كثير من المشاكل. وقد دار هذا الحديث في أحد الأيام وبالتحديد بتاريخ ٢٨ آذار ١٩٣٥. ويقال أيضاً إنه لنجاح السحر وتأثيره على الزوج أو الشخص المراد التأثير عليه، لا بد من الحصول على كمية من شعر الرأس أو شعر الذقن، وتؤخذ عادة أثناء نومه ودون معرفة منه، ومن ثم تعطى إلى الساحرة التي تقوم عادة بتحضيرات معينة، كحرق تلك الشعرات ومزجها بمواد أخرى تضاف تلك المواد إلى طعام أو شراب المراد التأثير عليه بالسحر.

هذا وتدور بين البدو القصة التالية حول السحر والسحرة: (يقال إن علي الشويربات شيخ مشهور لفخذ البرزان أحد فروع البريه، من قبيلة مطير (واصلي) وقد سحر من قبل زوجته، بتاريخ شباط ١٩٣٥ فأثر السحر فيه كثيراً فهام بتلك الزوجة حباً وغراماً في البداية، إلا أن تأثير السحر أخذ يشتد عليه وكاد أن يقتله من شدة تأثيره، وبتاريخ ٢١ آذار ١٩٣٥ جاؤوا به إلى مدينة الكويت، وكان في وضع سيىء للغاية)، وقام ابن عمه الشيخ جعلان ورجل آخر من قبيلة كان يرافقهم، جاؤوا جميعاً لعندي،

وأخبراني بالقصة وتفاصيلها. وقد مات أخيراً علي الشويربات بتاريخ ١٤ نيسان ١٩٣٥. على الرغم من المحاولات التي قيل عنها لكسر تأثير السحر عليه، إلا أنه لم يزده الأمر إلا سوءاً، ولم يجده ذلك نفعاً، وكنت قد نصحته أن يزور الدكتور (ميلريا) أحد أفراد البعثة الطبية الأمريكية في الكويت، إلا أن الشيخ علي رفض نصيحتي، وكنت أعتقد أنه كان يعاني من مرض السل، هذا ولما ساءت حاله كثيراً أخذوه لزيارة الدكتور (ميلريا) الذي أكد على إصابته بالسل، إلا أن المرض كان قد اشتد عليه، ولم تجد تلك الزيارة نفعاً، وقضى نحبه. وقال الدكتور (ميلريا) إن المريض رفض مبدأ المعالجة لاعتقاده أن لا جدوى منها إلا بفك السحر. وقد قتلت الزوجة بعد موت زوجها على أيدي أخيها لأنها تسببت في موت زوجها بسحره، على الرغم من علمها بنية أخيها وفرارها إلى قائد القوة السعودية التي كانت تتمركز في حفر الباطن، والسبب في مقتلها اتهامها بموت زوجها باستخدام السحر ضده.

هذا وقد حدثت عدة حوادث أدت إلى نتائج مؤسفة ذهب نتيجتها عدة ضحايا بسبب تلك العادات. وهنالك أمثلة عديدة نسوق منها المثل التالي الذي حدث فعلاً، ونحاول استخدام الرموز خشية من فضح الأسماء نظراً لوجود معظمهم على قيد الحياة.

في إحدى المرات كان السيد ـ ب ـ يخيم خلال فصل الربيع على بعد عدة أميال من مدينة الكويت، والسيد ـ ب ـ هو عم السيد ـ أ ـ، في نفس الوقت صادف أن كانت تخيم بنفس المنطقة السيدة ـ س ـ وهي أخت ـ ب ـ كانت تقيم كما هي العادة في خيمة ـ أ ـ وكانت السيدة ـ س ـ (زعلانة) كما هي حالتها على الدوام تقريباً منذ مدة طويلة مع أخيها، بسبب اهتمامه الزائد بإحدى الفتيات من عبيده، وكانت تلك الفتاة تمتاز بشيء من الجمال فهي فتاة حبشية. وكانت تهتم به، فتطبخ له، وتعتني بثيابه، وتشرف على كل شؤونه، وكان هذا الأمر غير مقبول إطلاقاً من السيدة ـ س ـ وشكل هاجساً مزعجاً بالنسبة لها، لم تعد تتحمله، فقررت عمل كل شيء لكي تنهي تلك العلاقة بأي ثمن. وكانت السيدة ـ س ـ تقوم بدور الشيخة على الدوام، وخشيت السيدة ـ س ـ أن تحل الفتاة الحبشية محلها في كثير من الأمور مما زاد في حقدها عليها، ولهذا السبب ابتعدت أيضاً وأخذت تقيم في خيمة ـ أ ـ.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد. فقد كان معروفاً أيضاً أن السيدة ـ س ـ كانت في وضع صحي سيىء بسبب معاناتها من التهاب اللثة المزمن. وأخذت حالتها تزداد سوءاً بسبب غيرتها وحقدها على تلك الفتاة. وأخذت تفقد شهيتها للأكل، وزاد ذلك في

انفعالها وسوء تصرفها وفقدت كل لطف في معاملتها لكل الناس. وقد أدى هذا المزيج من الغيرة واعتلال الصحة إلى نوع يشبه الجنون في تصرفها وسلوكها، وأخذت تتخيل أن تلك الفتاة الحبشية قد سحرت أخاها ولذلك تسيطر عليه في حبها ويهيم بها غراماً. وقام السيد ـ ب ـ أيضاً بمحاولات ليبطل سحر تلك الفتاة وأخذ ـ أ ـ يعتقد بصحة أقوال السيدة ـ س ـ وكان ـ أ ـ مغرماً جداً بعمته الشابة ـ التي لم تتزوج ويصدق كل ما تقوله، وكان على استعداد أن ينفذ لها أي أمر تصدره، كما كان تواقاً لأن تكلفه بأي عمل ليبرهن لها على الدوام عن إخلاصه لها وصدقه في محبتها. وبأمر من تلك العمة دبرا معاً خطة للخلاص من تلك الفتاة الحبشية، فطلب من عمته ـ س ـ أن تقوم بإرسال سيارة إلى مخيم ـ ب ـ لجلب تلك الفتاة لمقابلة ـ ب ـ. وما إن علمت تلك الفتاة بذلك حتى أسرعت بالمجيء، وكانت تجهل ما كانوا يخبئون لها. وما إن وصلت حتى دخلت خيمة سيدتها وسألتها إذا كانت تريد منها شيئاً ما لتؤديه. فأعلمتها السيدة ـ س ـ أن السيد ـ أ ـ هو في الخيمة المجاورة، وأنه يريد التحدث إليها، وما تبع ذلك يمكن أن يفسر سبب دعوتها وذهابها لتلك الخيمة، وما إن وصلت تلك الخيمة حتى وجهت لها تهمة السحر للتأثير على ـ ب ـ ليهيم بها غراماً. ولهذا لا بد من الخلاص منها، ولم تمنع توسلاتها تنفيذ ما قرروه، وقامت الفتاة من جديد بنفي ما وجه إليها من تهم وأنها على استعداد لأن تقوم بكل ما يريدونه إنقاذاً لحياتها، وتوسلت إليهم كثيراً. وضربت بلا رحمة أو شفقة، وفي كل مكان من جسمها، لاسيما على رأسها، وكان الضاربون عبيداً مثلها بأمر من السيدة ـ س ـ وماتت تلك البائسة نتيجة الضرب، ولفت في كفن وأرسلت بسيارة إلى والدها ووالدتها، للقيام بواجب دفنها فقط لا أكثر. وما إن سمع ـ ب ـ بالقصة وما جرى لتلك الفتاة حتى جن جنونه، ودارت مناقشة حادة حول الموضوع، وقيل إن عمل ـ أ ـ قد أنقذ شرف العائلة كما حاول إنقاذ حياة عمته. وهكذا بررت العملية تلك، وقيل لولا أنها لم تسحره لما عشقها، وبهذا استحقت الموت، إذ لم تفلح الطرق الأخرى للخلاص من شر سحرها وتأثيرها على ـ ب ـ.

وما إن سمع شيخ الكويت بتلك القصة حتى غضب غضباً شديداً، وقام بما يجب ضد المعتدين الآثمين.

الجن، الأشباح والأرواح الشريرة

أسرَّ ضويحي بن خرميط من عوازم لي مرة بتاريخ ٢١ نيسان ١٩٣٥ أنه كان يحاول على الدوام تجنب المرور بالأماكن التي يتم فيها دفن الموتى، لا سيما أثناء الليل، وكان يبرر اعتقاده هذا ويقول: (إنه خلال الظلام وبخاصة حوالي منتصف

الصيف تخرج الأرواح غالباً من القبور وتجلس عليها، وتتحادث الأرواح المجاورة مع بعضها البعض، وقد يصادف أن يمر أثناء هذه المحادثة فيتسبب في إزعاج تلك الأرواح وقد يتسبب في أن تقطع حديثها، وستناديه تلك الأرواح عندئذ للمجيء إليها، وإلا فإنها ستسيء إليه إن لم يستمع لما تطلبه، وقد تلقي عليه بعض الحجارة وتسبب له الأذى، وقد تعيقه عن متابعة سيره، وقد يفقد عقله).

شجرة العوسج:

تعتبر شجيرة العوسج، عند بدو الحسا والكويت محروسة من الجن، ولذا فإن من يقترب منها أو يتسبب في أذاها، فإن الجن سيردون بالدفاع عنها. ولهذا لا يستطيع أحد من هؤلاء الاقتراب منها، أو لمسها حتى لو كانت أغصانها مرمية على الأرض. كما يعتقدون أن من يحاول إلحاق الضرر بتلك الشجيرة سيتلقى عقاباً صارماً من الجن. وسيلاحق على الدوام كما سيعذب عذاباً شديداً، لا سيما إذا اقترب أحدهم من تلك الشجرة ليلاً، ولهذا إذا شوهد أحد البدو يقترب من شجيرة العوسج تراه يستعين بأسماء الله الحسنى. ويدعو الله أن يحميه من شرور الجن، ويقرأ الأدعيات. ولا غرابة أن ترى الحجار مكومة حول تلك الشجيرة بسبب رميهم لها بتلك الحجارة ليتجنبوا أذاها من جهة وليدافعوا عن أنفسهم ضد هؤلاء الجن.

ملازمة الجن:

يقال عند بدو شمال ـ شرق شبه الجزيرة العربية أن هنالك موضعين يسكنهما الجن في العالم وهما:

١ ـ **أبراج الخليقة**: وهم لا يحددون هذا المكان بالضبط بل يقولون إنه المكان الذي سقطت فيه النيازك ويعنون بالنيازك التي شاهدوها هم ويقال إنها وقعت منذ حوالي سبعين عاماً، ويقال إنها موجودة في شبه الجزيرة العربية ولم أتمكن من مشاهدتها، في الطرف الأخير من الشق، وقريباً من الزاوية الجنوبية الغربية للمنطقة الكويتية المحايدة، ومن المعروف أن كل بدو الكويت يعرفون ذلك المكان، ولكن الجميع يحاولون تجنب المرور من هناك، فهم يقولون إن ذلك المكان هو مكان سكن الجن، حتى وصل الأمر ببعض الذين يهتمون بمثل هذه الأمور أن قاموا بجولة جوية فوق تلك المنطقة.

وطبقاً لما قالوه، إن هنالك ثقباً يبلغ حوالي ٤ أكر (الأكر يساوي حوالي ٤٠٠٠م^{٢}) كما ويقال إنَّ عوازم وعجمان يفزعان من الاقتراب من ذلك المكان.

٢ ـ عين العبد: تقع إلى الشرق بحوالي ٣٠ ميلاً من أبراج الخليقة إلى الطرف الجنوبي من المنطقة الكويتية المحايدة، وهذه المنطقة مغطاة بالعوسج تماماً، ويقال إن من يمس تلك الشجيرات تصيبه الأرواح الشريرة لأنها محمية من الجن. وتشكل المنطقة في الحقيقة بركة من المياه الكبريتية إذ تخرج منها روائح البيض العفن، كما أن تلك البركة تطفح أحياناً بالمياه، وتسيل باتجاه البحر الذي يبعد ١٠ أميال فقط. ويقول البدو إنه تشاهد بين الفينة والأخرى أجسام سوداء تخرج من البركة السوداء لأنها تعيش فيها، ويضيفون أن رؤوس تلك الأجسام الغريبة تشبه رؤوس العبيد. ولهذا فتلك البركة مسكونة بالجن. ويظهر هؤلاء الجن على السطح من وقت لآخر. لا بل يضيف من يؤكد على أنه شاهدها أن سكان تلك البركة يشبهون الناس الذين يسكنون في عفارة، ومياه تلك البركة آسنة لا تصلح للشرب. وعموماً فإن معظم البدو يتجنبون الاقتراب من ذلك المكان.

الفصل الرابع والأربعون

عادات غريبة وحكايات

عضة الكلْب الكلِب

إذا عض كلب أحدهم، يعتقد أنه مصاب بداء الكلب، يبحث فوراً عن رجل من فخذ البرزان من قبيلة المطير، ويؤخذ منه على الفور مقدار فنجان قهوة من دمه (ويدفع ثمن ذلك آنفاً) ويعطى إلى المعضوض الذي يقوم بشربه على الفور، ومن المشهور بين جميع قبائل شمال شبه الجزيرة العربية أن دم هؤلاء يعتبر دواءً ناجعاً.

- يرجع هذا الحديث ويسند إلى شيخ الكويت الذي رواه لي بتاريخ ١١ آب ١٩٣٢. كما أكده لي شيخ البرزان الشيخ علي الشويربات، عام ١٩٣٥).

اقتسام الأشياء المسلوبة، والهدايا... الخ

إن الطريقة التي تتبع لتقسيم ما سلبه البدو هي أن يقوم أحد منهم بالابتعاد قليلاً، ويدير ظهره لكي لا يرى زملاءه، ويشار بعد ذلك إلى إحدى الحاجات، وينادى على ذلك الشخص البعيد بالقول لمن تكون هذه، فيقول إلى فلان، وهكذا حتى تنتهي المقسومات.

- يسند هذا الحديث إلى شيخ الكويت، بتاريخ ١١ آب ١٩٣٢.

اتخاذ القرارات

عندما يريد أحدهم اتخاذ قرار ما كقيامه بالسفر، يقوم بعد حبات سبحته أو شيء آخر مشابه (فرداً أو زوجاً) ويجري العملية ثلاث مرات. وهي عادة دارجة بين الشيعة.

أما بين البدو فيتبعون الطريقة التالية: (يغلق الرجل عينيه، ويرفع يديه إلى

الأعلى في مواجهة عينيه، وراحة الكفين في مقابلة بعضها، وتكون أصابع الأيدي مفتوحة وفي مواجهة بعضها البعض، ثم يبدأ بالمحاولة ببطء وعيونه لا تزال مغلقة إلى أن ينتهي، فإذا استطاع من وصل الأصابع مع بعضها البعض، وبشكل تكون رؤوس الأصابع لكل يد في مقابلة ما يماثلها في اليد الأخرى. فهذا يعني التوفيق في المهمة التي سيتخذ قرار بشأنها. أما في الحالة التي لا تتم فيها العملية بالشكل الموصوف، عندها تؤجل العملية إلى موعد آخر. وتتم تلك العملية أيضاً ثلاث مرات).

ـ تسند هذه الرواية إلى شيخ الكويت بتاريخ ١١ آب ١٩٣٢.

ـ ملاحظة يمكن السفر بعد الظهر، ولكن بشرط أن يتم بعد صلاة الظهر، وليس قبل الصلاة.

جلب الحظ

عندما يأكل البدوي حبات التمر، يلقي بالنوى من فوق كتفه، ويعتقد أن كل حبة يلقيها تعني بالنسبة له الحصول على جمل في إغارة ينوي القيام بها.

ـ تسند إلى شيخ الكويت في ٢٨ أيار ١٩٣٥.

كيف تصبح رامياً ماهراً

إذا رغب البدوي أن يصبح رامياً ماهراً، فالطريقة العامة المتبعة لذلك، أن يشعل البدوي قطعة قماش من القطن أو الصوف ويجعلها بشكل كرة لتدخن ببطء، ويثبتها بين إصبعيه على بعد حوالي أربعة إنشات من عظم السلامي اليمنى. ومن المفروض أن لا تشتعل قطعة القماش تلك ويصدر عنها اللهب، بل تترك النار تأكلها شيئاً فشيئاً، دون أن يكون لها لهيب. ويجب على هذا الرامي أن يتحمل تلك النار دُون أن يظهر ألمه، فإذا استطاع تحمل تلك النار حتى تنتهي فهذا يعني أنه سيصبح رامياً ماهراً، وستترك تلك النار وراءها ندبة تصل إلى حجم علبة الكبريت الصغيرة في المكان الموصوف سابقاً. وتبقى تلك الندبة مع ذلك الرامي الماهر مدى الحياة إن تحمل عذاب تلك النار، وآلامها ـ حسبما يعتقده البدو ـ والصبر على تحمل جميع ذلك سيجعل منه رامياً ماهراً. هذا وقد شاهدت نفس الندبة الموصوفة في يد شيخ الكويت، وذكر لي أنه خضع لتلك التجربة عندما كان صغيراً، ومن الجدير بالذكر أنه بحق رام ماهر.

كيف تكتسب الشجاعة

أخبرني الشيخ علي الخليفة بتاريخ ١٢ تشرين الثاني ١٩٣٨ أن بعض البدو يأكل كبد الذئب، وهذا ما يجعل منهم رجالاً شجعان.

كلب الحراسة الجيد

يقال عند البدو، إنه من أجل تربية الكلاب على الشراسة، ومهاجمة الغرباء، يجري عادة قطع آذانها عندما تكون جراءً صغيرة وتشوى على النار وتقدم لها لتأكلها، ومن هنا فكلب الحراسة الجيد، هو الكلب المقطوعة أذنيه.

الرقم أحد عشر

من العادات الغريبة لدى قبيلة العوازم، أنهم لا يستخدمون إطلاقاً الرقم أحد عشر، وبدلاً من احد عشر يقولون عشرة وواحد، أما الأعداد الأخرى، فلا تختلف عن بقية البدو الآخرين. ولم يعط أحد جواباً صحيحاً مقنعاً عن السبب الحقيقي لذلك.

كيف تنقذ المرأة العجمانية أطفالها

هناك عادة لدى قبيلة عجمان تستخدم في حال تكرار وفاة أطفال أم ما دون سبب ظاهر، عندها تقطع من أذن الوليد الأخير قطعة صغيرة من فوق شحمة الأذن وتوضع تلك القطعة داخل تمرة تعطى لتلك الأم لتأكلها، ويعرف الولد بعد ذلك ـ أي من قطعت أذنه ـ باسم (الجدع) ذكراً أكان أم أنثى. وإنني أعرف منيرة بنت عبده العفران الحثلان زوجة حمود المشوط وقد أكلت أمها أذن منيرة، وقد أرتني أذنها لأتحقق من ذلك بنفسي، وكان ذلك بتاريخ ١٦ آب ١٩٣٥.

مصدر تسمية الضفير، القبيلة الصحراوية الكبرى جنوب الفرات

يقولون إن كلمة ضفير، تعني تجمع عدة بقايا، وهي محرفة من ذلك المصدر، مثل:

ـ تضفروا، اجعلوا من أنفسكم مضفورين، كالجديلة، «الضفيرة».
ـ وإن كلمة ضفر، تعني جدل.
ـ الضفاير «الضفائر»، الجدائل لدى المرأة.

وبالمقابل، يقال عن المنتفك: إنها تعني اتفاق وموافقة. أي أنها تعني عدة قبائل تعود في أصولها إلى قبيلة واحدة.

أما عوازم فيقال: لأن لها علاقة ببني عطية، من شمال الحجاز، وهم منحدرون من عطا. كما يقولون عن أنفسهم أنهم أولاد عطا.

أما عوازم الحسا فيقولون إنهم منحدرون من شمالي الحجاز، وأن أصولهم تعود إلى هتيم، ولهذا فهم يستخدمون في صرخات الحرب عند العوازم يا أولاد عطا[1].

---

(١) الضفير: أصلهم من بني لام من طيء من كهلان من قحطان بن يعرب كما ذكر القلقشندي في كتابه المسمى نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب عام ٨٠٠ للهجرة وليس صحيحاً أنهم تضافروا أو تجمعوا بل هم من صلب واحد كما أكد النسابة القلقشندي وأقوال العامة لا يعتد بها.
أما قبيلة المنتفق فهي أيضاً أصل واحد وهم أبناء المنتفق بن عامر بن صعصعة من مضر من العدنانية كما ذكر الإمام ابن حزم في جمهرة أنساب العرب وكما ذكر أستاذ علم الأنساب ابن الكلبي في كتابه المشهور جمهرة النسب الكبير وكما أجمع على ذلك جميع كتب الأنساب. أما قبيلة العوازم فقد ذكر السلطان الخطابي الهمداني في ديوان شعره أنهم من همدان بن زيد من كهلان من قحطان بن يعرب والخطابي عاش في القرن الخامس الهجري. وفي القرون المتأخرة ادعى العوازم انتسابهم إلى قبيلة حرب ويجوز أن سبب حدوث هذا الاضطراب عندهم انتقالهم من اليمن إلى الحجاز في عهود سحيقة وانقطاع صلتهم بقبيلتهم الأم همدان وتوطنهم مدة طويلة من الزمن بجوار حرب في الحجاز أو لأسباب أخرى غير معروفة أما انتسابهم إلى هتيم فلم يذكره من المؤرخين إلا العصامي المكي في كتابه سمط النجوم العوالي في مطلع القرن الحادي عشر الهجري ومن ثم تردد هذا الادعاء إلا إذا كانت العوازم التي ذكر السلطان الخطابي تعني قبيلة أخرى تحمل نفس الاسم؟ والله أعلم، أما بنو عطية فذكرهم الجزيري في كتابه الدرر المنظمة بأنهم فرع من الحويطات من جذام من كهلان القحطانية والجزيري عاش في القرن العاشر الهجري وهو مصدر هام.

الفصل الخامس والأربعون

قبائل المنتفك، رعاة الغنم

لن يكون هذا الكتاب تاماً دون الحديث عن الرحلات السنوية التي يقوم بها عادة اتحاد قبائل رعاة الغنم من المنتفك من المقيمين ما بين السماوة وبحيرة الحَمَـر.

إن هذه القبائل الرعوية، معروفـة بالاسم العام المشترك الذي يطلق عليها في العراق باسم (الشوايا). أما في الكويت فإن الصيغة العامة لهذه التسمية هي (المكْرة) . وهم ينقسمون إلى عدة بطون، وكلهم من رعاة الغنم، لهذا يطلق عليهم أيضاً المنتفك رعاة الأغنام، ويمكن تقسيمهم إلى ثلاث مجموعات رئيسة هي:

- الْبو صالح
- والأجواد
- وبنو مالك
- وقبيلة بني هاشم ممن يقطنون عادة جنوب ـ شرق السماوة، من المجاورين للمنتفك.

وفيما يلي نقدم أسماء هذه القبائل الرعوية كما أن لكل قبيلة منها شيخ أو زعيم، كما هي الحال بين قبائل البدو، ومع ذلك فهناك فروع منها تعيش بعضها تحت حماية قبائل أخرى أكثر أهمية وقوة ولا سيما في مناطق الفرات الأدنى.

١ ـ مجموعة بني مالك، وفروعها هي:

- الودعي، المجيد، التوجيه، الديوان، المنفذة (وكلهم يعرفون باسم الجميعان).

٢ ـ مجموعة البو صالح. وبطونها هي:

الشملة، السفافع، العريثيب، العبادة.

٣ ـ مجموعة الأجواد، أما بطونها فهي:

ـ الجوارين، البدور، الشريفات، الغزي.

٤ ـ مجموعة بني هاشم، وبطونها هي:

ـ شمر «وهم متحدرون من أفخاذ شمر نجد»، الهوثان، الرفيعات، الزوبع.

يضاف إلى ما سبق ذكره، الزبيرية، (وهم من قبائل رعاة الغنم)، والزبير، والزوبة، والرفعات، وجميعهم يعودون في أصولهم إلى شمر، وهم جميعاً يلتحقون مع بعضهم البعض خلال السنوات الخيرة مع رعاة المنتفك، ويتوجهون جميعاً باتجاه الجنوب، وهناك قائمة كبيرة تحت اسم الشاوية ممن ينتشرون إلى الشرق من السماوة.

ومع ذلك فإن هذه القبائل، تتجول على ظهور الحمير عادة عند تنقلاتها عوضاً عن استخدام الإبل في نقل أمتعتها، والتي هي أكثر ملاءمة من الحيوانات الأخرى بالنسبة لحياة مثل هذه الجماعات. وكثيراً ما نشاهد مجموعاتهم وهي تنتقل من الشمال إلى الجنوب وبالعكس، وهي تحمل أمتعتها على ظهور الحمير، لكن بهذه المناسبة يجب أن لا نخلط بين هذه المجموعات وبين النور، أو ممن ينتمي إلى القبيلة (الوضيعة) من الصلبة. فمن المعروف أن مجموعات المنتفك، تنتمي في غالبيتها إلى أصول عربية عريقة، كما أن الكثير من نساء تلك المجموعات يتزوجن من رجال ينتمون إلى قبائل عربية عريقة الأصول.

هذا ومن المعروف أن هذه المجموعات القبلية الرعوية تنتمي إلى المذهب الشيعي في عقيدتها الدينية. ولهذا تجد كثيراً من عاداتهم مختلفة عن عادات بعض القبائل البدوية الأخرى، ومع ذلك فهم غير مكروهين من القبائل الأخرى، بل على العكس تُكِنُّ لهم القبائل الأخرى بعض المحبة والاحترام، ويرحب بهم عموماً.

وتتحرك مجموعات رعاة الأغنام هذه كل عام مع بداية تهطال المطر مع قطعانهم، ويتوجهون إلى الجنوب، بحثاً عن المراعي لقطعانهم، ويجتازون حوالي ٢٠٠ ميل أو أكثر. وينقسمون بعد ذلك إلى مجموعتين أو موجتين رئيستين عند بلوغهم وادي الباطن، فتتحرك موجة إلى المنطقة الكويتية المحايدة بعد اجتيازها دولة الكويت، وقد تبتعد أحياناً أكثر من المنطقة المحايدة باتجاه الجنوب. أما المجموعة

الأخرى، فتتوغل إلى الجنوب باتجاه منطقةطوال المطير وطوال الضفير. أو ينتشرون على جانبي الحدود الكويتية السعودية.

هذا ويمكن القول إن البطون مثل. الزباني، والسلامة، والغزي، والبدور، والغزالات، وقبائل الزياد، يقون جميعاً إلى الغرب من الباطن، بينما يقوم، الشريفات، والجوارين، وبنو مالك، والبو صالح، والعوثان بالكويت وإلى الجنوب، امتداداً على طول شاطىء الخليج العربي. ويقال إن أفضل هذه المجموعات بالقتال هم البدور بالدرجة الأولى، ثم الجوارين فالغزي، أما شيوخ هذه البطون فهم على التوالي، شرشاب الصحن، وناصر القبيح، وهو ابن حسين القبيح، المشهور أيام الحرب العظمى، ومنشد الحبيب ومن بين هؤلاء أصدقاء حميمون لي، إذ كان لي معهم العديد من الذكريات والحوارات، وحتى المشادات السياسية خلال الحرب العالمية الكبرى، عندما كنت مسؤولاً عن مناطق سوق الشيوخ، والناصرية، وكانوا بالفعل من المقاتلين الأشداء.

ويمتاز أفراد هذه المجموعات البدوية من الرعاة بالتوالد الكثير، ويحمل الرجال منهم عادة البنادق من أنواع مختلفة، كما يحملون معهم كمية كبيرة من الذخيرة لأسلحتهم.

أما مواعيد انطلاق هذه المجموعات الرعوية باتجاه الجنوب كل عام، فتبدأ عـادة حوالي ١٥ تشرين الأول، ويتابعون المسير على مهل لرعي مواشيهم ويبدأون بالوصول مع بدايات هطول المطر في المواسم الجيدة، إلى مناطق جنوب الصحراء ثم يتوجهون من هناك باتجاه الجنوب، وهم ليسوا على عجلة من أمرهم، ويسقون أغنامهم أثناء تنقلهم من الغدران التي تشكلها الأمطار حسب طبيعة المنطقة، ويطلقون على تلك الغدران اسم (خَبَرَة) وتتشكل بسبب طبيعة تلك الأراضي، إذ أن وجود طبقة صخرية تحت التربة مباشرة تمنع تسرب المياه إلى الأسفل، وتنتشر في كل مكان تقريباً، لاسيما في مناطق شمال ـ شرق شبه الجزيرة العربية، وبعض الأحيان تستمر تلك الغدران من مياه الأمطار عدة أسابيع دون أن تجف.

وتنتشر بعد ذلك تلك المجموعات الرعوية مع طروشها، خصوصاً خلال شهري شباط وآذار فيغطون المنطقة الممتدة إلى الجنوب والغرب من الكويت، وتعتبر تلك المدة من أمتع الأوقات لدى سكان مدينة الكويت، إذ تزداد في تلك الفترة الخيرات من اللبن والحليب ولحوم الخراف وتهبط أسعارها إلى حد بعيد، كما تنتشر الفتيات من تلك المجموعات وبأعداد كبيرة جيئة وذهاباً إلى مدينة الكويت ليحملن على ظهور

حميرهن الكثير من إنتاجهن للبيع في مدينة الكويت، وهنَّ دوماً ضاحكات وينطلقن مسرعات في ذهابهن وإيابهن. ويحملن بضائعهن على ظهور الحمير، وتحمل تلك الحمير الأوعية الجلدية المملوءة بالحليب لبيعها في مدينة الكويت، أو تحمل عليها الصوف من أغنامهن، . . . الخ، ويعدن مساء بعد أن يبعن بضائعهن ويشترين مما يحتجنه لهن ولجميع أفراد العائلة من الثياب أو بعض المؤونة.

وعموماً فإن تلك الفتيات يفضلن العمل وحيدات دون مساعدة أحد من الرجال، وتظهر السعادة على وجوههن، ولا تحتجب (الهكرات) كما يطلق عليهن في الكويت، بل يسرن كاشفات وجوههن تماماً بعكس ما تقوم به البدويات في الكويت، وتمتاز (الهكريات) بجمالٍ جيدٍ بشكل عام، ولهن مظهر جميل، ومن المناظر الدارجة أن تراهن يتجولن وهن يحملن أطفالهن على ظهورهن، أو يعلقن أطفالهن بكيس جلدي على جوانبهن، أو يركبن هؤلاء الأطفال على ظهور الحمير.

وتشبه تلك الفتيات الرجال بالقوة والحيوية والنشاط، ونادراً ما ترى إحداهن تركب حماراً في ذهابها إلى الكويت، ويقطعن مسافة تتراوح بين «١٢ ـ ١٥» ميلاً كل يوم تقريباً للقيام بزيارة الكويت. ويعدن في المساء إلى مضاربهن، ولكن بعضهن لا يستطعن العودة في نفس المساء إلى مضاربهن، فتضطر أكثرهن إلى الانتحاء جانباً من الطريق لقضاء ساعات الليل الأولى في النوم على قارعة الطريق عند حلول الظلام، وعند الفجر يتابعن المسير باتجاه العودة، دون أن يزعجهن أحد.

ومن المعروف أيضاً أن (الهكرة) لا ينصبون خيامهم متقاربة من بعضها البعض كما يفعل بقية البدو، بل تنصب على شكل مجموعات صغيرة من خيمتين أو ثلاث وتتباعد كل مجموعة عن الأخرى بشكل كاف، ولهذا تجد الخيام كأنها بقع سوداء على مدى البصر، منتشرة في تلك الصحراء الواسعة، وهذه الطريقة هي المفضلة لعدة أسباب. لا سيما إذا كان الأمن مستتباً، ولا خوف عليهم من النهب أو السلب. وهي أحسن من الناحية الصحية سواء للغنم أم لرعاة الغنم، كما أن ذلك لا يجعل قطعان الأغنام تزدحم على المراعي أو سوى ذلك.

أما في الحالات التي لا يكون فيها الأمن مستتباً ـ كحالات الحرب ـ أو عند احساسهم بإمكانية حدوث الحرب، فإنك تجدهم وقد تجمعوا كغيرهم في مناطق التخييم ليلاً ونهاراً، وأحياناً يعودون إلى مناطقهم الأصلية باكراً.

وفي الحالات العادية تعود تلك المجموعات إلى العراق عادة في نهاية شهر

نيسان أو مطلع شهر أيار، عندما تقل كميات المياه اللازمة لسقي مواشيهم، وقبل أن تجف المراعي وتيبس.

وبمقدار ما يبيعون من الزبدة واللبن والحليب، وبعض الحملان، فإنهم يعودون أيضاً محملين بالعديد من المواد الغذائية كالرز والسكر والقهوة والثياب، لجميع أفراد عائلاتهم وغير ذلك من حاجاتهم. كما قد يحملون معهم بعض الهدايا لعائلاتهم ممن لم تسمح لهم ظروفهم بمرافقتهم في تلك الرحلة الرعوية. ويقال إن عودتهم المبكرة تعود على مدينة الكويت بالسوء، وأن بقاءهم مدة أطول ينعش أسواق الكويت.

هذا ولضمان معاملتهم بطريقة حسنة في المناطق الرعوية ـ سواء في الكويت أو في العربية السعودية ـ فإنهم يقدمون الهدايا باسم (الذبيحة والمنيحة). وكما قلنا في مكان آخر فإنها تتألف تلك الهدايا عموماً من «الحملان حديثة الولادة، ومن السمن وغيره»، وتقدم عادة إلى حكام المناطق التي سيقيمون فيها. أي إلى حكام المناطق المحليين خاصة. كما عليهم أن يدفعوا الزكاة طوعاً واختياراً إذا شعروا باحتمال حدوث الاضطرابات، وأنهم يحتاجون إلى حماية جدية من قيام بعض الإغارات عليهم، لكي يطمئنوا إلى الحصول على تلك الحماية. ومن المعروف أن المملكة العربية السعودية تتشدد كثيراً في تحصيل الزكاة، أما شيخ الكويت فإنه يعطي تعليماته للتساهل مع هؤلاء الذين لهم فائدة كبرى على جميع أفراد شعب الكويت، إذ يستفيد الناس من خيرات هذه المجموعات الرعوية العراقية، فإنه على الدوام يتجاهل حق دولته في الزكاة، ويتخلى عنه.

إذن يمكن القول إن الكويت تتأثر كثيراً بقدومهم، ومغادرتهم. وهكذا فعند قدوم (الهكرة) يشعر الناس بوجودهم في كل مكان، فترى الفتيات (الهكريات) وهن يتجولن على طريق «الجهراء ـ الكويت» وهن يوزعن بسماتهن للجميع، والكل يحييهن ويرد عليهن التحية بأجمل منها، وتمر تلك الوجوه الضاحكة التي تملأ كل مكان في الكويت، يصبحون أكثرية في الكويت. وتمتاز الفتيات المنتفكيات بجمال جذاب، ووجوه حلوة وقدود رشيقة، وأجسام قوية، كما يمتزن بالوشم على ذقونهن وعلى رقابهن. ويظهرن بمعنويات عالية على الدوام، ويختلفن كثيراً عن بنات شعبهن من العراق هؤلاء اللواتي يعشن في المناطق المرزغية في جنوب العراق من قبائل المعدان، وأخيراً يغادر هؤلاء الرعاة الكويت وقد عمَّ خيرهم الجميع، وينتظرهم الناس حتى الموسم القادم كل عام بفارغ الصبر، فبقدومهم يحل الخير العميم من جديد.

قصة المنتفك

إذا قبلنا بالقياس القبلي، عندها يمكن القول، إن جميع من يقطن المناطق الممتدة من الشيش إلى الدراجي، وشط الغراف، وبعيداً إلى الشمال، وكوت الحي هم من المنتفك. ويمتازون عموماً بميزات عامة مشتركة، تحت زعامة آل السعدون الذين يدعون أنهم ينحدرون من الرسول العربي، ومن هنا فهم ينتسبون إلى شريف مكـة الذي هاجر من الحجاز إلى مناطق ما بين النهرين في البدايات الأولى من القرن السادس عشر، وطبقاً للاعتقاد المحـلي يقال إن مناطق الحدود العراقية الجنوبية الحالية، كانت تقطنها في العصر العباسي مجموعتان كبيرتان من القبـائل، وهاتان المجموعتان كانتا تأتيان تحت اسم قبيلة بني مالك التي كانت تقطن مناطق الشامية الحالية، تحت زعامة ابن عُصَيْبَة. أما القبيلة أو المجموعة الثانية، فهي الأجواد، إلى الشمال من غرفْ، بقيادة الوثل. أما الجد الأول للسعدون الذي دنا من مناطق تلك المجموعات القبلية فيقال إنه شبيب، ويقال إن ابنه مانع تزوج من إحدى فتيات بني مالك، وكان بنو مالك حكام تلك المجموعات في ذلك الوقت، ولهذا ارتبطت تلك القبيلة بالدم مع الأجواد، وأخذت الأيام تميل لصـالحهم بعد ذلك بفترة وجيزة. فقد انهزم بنو مالك، بعد أن تعرضوا إلى خسائر كبيرة في الأرواح، واضطر من بقي منهم حياً للهرب إلى نجد بعد معركة فاشلة خاضوها وقد قتل فيها مانع نفسه، وكان لمانع هذا ولد سماه شبيب، كان طفلاً في ذلك الوقت، رحل مع الراحلين، وكان شبيب هذا أكبر أولاد شيخهم. ولم يهدأ لهم بال في منفاهم الاختياري هذا، بل أخذوا يستعدون لأخذ الثأر، فعززوا أنفسهم بكل ما أمكن كما أقاموا بعض التحالفات مع بعض أفخاذ قبيلة العتيبة، التي كانت تتصف في ذلك الوقت بأنها أقوى القبائل التي كانت تقطن وسط شبه الجزيرة العربية، وشعروا بعد ذلك بقوتهم، وأنهم أصبحوا قادرين على الأخذ بثأرهم.

وهناك خرافة تروي أن شبيب بن مانع أتى إلى مناطق تخييم الأجواد، وجال بين مضاربهم وتجسس عليهم عندما كانوا يخيمون بالقرب من آبار مياه الصفوان، وهو مكان كان معروفاً جداً في ذلك الزمان لسقاية المواشي، وهو الكويت الحالية، وأثنا عودته إلى نجد كان يقوم بدراسة أماكن تجمع وحشد القوات، كما دون جميع المعلومات التي ستحتاجها قواته في مهمتها، وقد حددت في ورد، عزيب، فلاحة، قرب الماء، . . . وهكذا حتى كامل الطريق. وبسبب ذلك التسلح بالمعلومات الدقيقة هذه تم ربح المعركة. فقد قاد بني مالك حتى صفوان، حيث قاموا بهجوم ساحق على الأجواد حتى الإبادة وفر منهم من فرّ، ولم يوفروا أحداً، سوى حفنة قليلة

من الرجال، وأربعين امرأة. وهناك رواية أخرى تقول: أربعين امرأة مع طفل، والبقية على أي حال نتج عنه الأجواد الآن، ولقد لجأوا إلى المناطق المستنقعية في الحويزة، لكنهم عادوا بعد مدة قصيرة إلى العراق، إذ انضم إليهم البدور فيما بعد ممن يدعون أنهم يعودون في أصولهم إلى الرولة (عنزة) وإلى الشريفات، وإلى القبائل العربية العريقة الأصول والقديمة، مثل قحطان والجوارين، ممن أقاموا مدة في بلاد ما بين النهرين.

وهكذا فإن شبيب قد بدأ يعزز نفسه، فأقام صداقة حميمة مع الخصوبة، ثم قوى نفسه عسكرياً، وأصبح قوة يحسب لها ألف حساب، أخذ بعد ذلك على عاتقه قيادة بني مالك، فدانت له بالكامل، ولما أحس الأجواد بقوته عرضوا عليه المصالحة وإقامة السلام معه، إلا أنه اشترط لقبول ذلك شرطين أساسيين:

أولهما، أن لا يقبل الدية بسبب مقتل والده، بل طالب عوضاً عن ذلك أن يمنحوه شرف زعامتهم على أن يكون السيد المطلق، وهذا يعني لهم أن يقبِّلوا يديه عند مقابلته في أي ظرف كان.

أما المطلب الثاني، فهو أن لا ينهض عند مجيئهم إليه وعند السلام عليه بل يبقى جالساً.

فوافقوا على هذه الشروط طائعين مختارين، لا بل اعتبروها كرماً ومنة. وهكذا توحدت قبيلتا بني مالك مع الأجواد، وانضم إليهم فيما بعد، حليف ثالث، وهو البنو سعيد، والجميع أصبحوا تحت زعامته،وقد تشكل عن ذلك اتحاد قوي، جذب إليه أيضاً قبيلة الجازية، وتشكل عن هؤلاء في الماضي، ولا يزال تجمع المنتفك.

هذا ونشير هنا إلى أن هذه التجمعات ليست بالقبائل كما هو مفهوم من القبائل، بل تجمعات قبلية، فبنو سعيد مثلاً الذين هم أصغر تشكيل في هذا التجمع إلا أنهم أكثر تلاحماً، كما أنهم معروفون بأماكن تجمعهم المحدودة في الصحراء بين دجلة والفرات، ويقومون ببعض أعمال الفلاحة على امتداد الأقنية الكبرى، إلا أنهم مع ذلك أقرب إلى البدو من تجمعات المنتفك الأخرى، سواء في أساليب حياتهم ولباسهم وطرق معيشتهم، كما أن تقسيماتهم لها طابع التجانس القبلي أكثر من غيرها، ويشبهون إلى حد بعيد القبيلة الواحدة أكثر من كونهم تجمع عدة قبائل كما هي الحال أيضاً في تجمعات اتحاد المنتفك.

أما الأجواد، فهم الأقل التزاماً وتماسكاً وتجانساً من الآخرين، وهم يعيشون في مناطق الغراف، وفي مناطق الفرات في أعلى وأسفل الناصرية، ولهذا يسهل الوصول

إليهم بسرعة، وهم يمثلون الشوايا الحقيقيين، فهم نصف بدو ونصف حضر إذ يرعون الأغنام ويملكون قطعاناً كبيرة منها، ولكنهم في نفس الوقت يقومون بفلاحة الأرض، وهم في كل عام يقضون أيام فصل الشتاء الأخيرة، وكل أيام فصل الربيع، والأيام الأولى من فصل الصيف، في الصحراء مع قطعانهم من الأغنام، أما باقي الأيام من العام، فيقضونها في قراهم، ويقومون بفلاحة حقولهم، ومزروعاتهم، وعموماً لا يملكون الجمال، بل يستخدمون الحمير في تنقلاتهم، وفي نقل عُدَدِهم وتجهيزاتهم أثناء تنقلاتهم .هذا وإن وجود أعداد كبيرة من الحمير تدل على أماكن تخييم الشوايا، وإن ذلك من أهم العلامات المميزة لوجودهم، أما الجمال فهي من أهم مميزات البدو، والبدو الأصليين منهم. وينظر البدو إلى الشوايا عموماً نظرة احتقار، لكن هناك بعض الشوايا ممن اشتهروا بالرجولة والفروسية وكمقاتلين أشداء لكن مع ذلك فلن تجد بدوياً يرغب بالتزاوج من هؤلاء (حمير البدو) كما يلقبونهم.

هذا ويظهر الأجواد أنهم فقدوا جميع مقومات تحالفهم مع الآخرين، فإذا سئل أحدهم مثلاً، عن تشكيل ذلك التجمع القبلي، فإنه غالباً ما يتجنب الخوض كثيراً في التفاصيل، وقد لا يتجاوز حديثه عن قبيلته هو، كونها مشكلة من الأجواد، وقد يتكلم عن متناقضات ذلك التجمع أكثر مما يتكلم عن أسباب تجمعها، وقد يحدثك أيضاً عن تعارض الأجواد مع بني سعيد، أو بني مالك، وقد يقول إن السعدون قد عينوا بعضاً من عائلة مناع لزعامتهم، وهم من المذهب السني من الحجاز، لكن يشبهونهم، كما يعودون إلى طبقة أدنى من الأجواد، ولهذا السبب يعرف ذلك التجمع باسم تجمع «مناع الأجواد» ويقول المناع عن أنفسهم على أنهم عرب أصيلون، من حيث المحتد، وهم لا يزالون يحتلون مراكز الزعامة للآن، وإذا ما تزعم أحدهم بعض فروع القبائل أثناء السلم، يصبح ذلك قائداً لهم أثناء الحرب. ومثل ذلك الآن الشيخ زامل المناع، وهو شيخ المشايخ مجتمعين، ويحتل المقام الأول بين شيوخ العشائر. لكن على العموم للشيوخ سلطة تنفيذية. وهناك الوثل، ممن كانوا في الماضي، شيوخ الشيوخ، إلا أنهم الآن في المراتب الأدنى، على الرغم من بقائهم على رؤوس فروعهم في ذلك التجمع.

أما بنو مالك فيمتازون بكونهم أقل تجانساً من بني سعيد، إلا أنهم أيضاً أقل تلاحماً من الأجواد، وغالباً ما يعملون في الفلاحة، ومنهم من يشبه أهل المعدان ممن يعيشون في المناطق المرزغية ويعيشون من صيد السمك ومن حياكة الحصير من القصب، أو من رعي قطعان الجاموس الذي يعيش في المناطق المرزغية. وباعتبار أن زامل المناع شيخ الأجواد، فهناك أيضاً بدر الرُمَيِّض فهو زعيم بني مالك. ولكن عندما

تكون قبائل المناع، من غير القبائل العراقية، ففي هذه الحال يعتبر الرميض، شيخ مشايخ جميع قبائل البني مالك، والبني صالح، إذ أن سلطتهم الحقيقية محصورة فيهم. كما أن هنالك الكثير من فروع بني مالك ممن لا ينتسبون إلى المنتفك، وهؤلاء عموماً ينتشرون حول دجلة الأسفل، وفي الحويزة، حيث يعود بنو مالك في أصولهم إلى تلك المنطقة الأخيرة ومنهم يسمون بنو مالك الفراتية. ومن المحتمل أن يكون الجميع يعودون إلى أصول واحدة. ومن المعروف أنه حدثت عدة انشقاقات قبلية أدت إلى تقسيم جديد للقبائل نتيجة للتطور القبلي منذ قديم الزمان. وانطلاقاً من هذا المبدأ، فإن بني مالك أيضاً كان لهم قديماً في تاريخهم الطويل اتحادان قديمان قويّان، وهما ممعنان في القدم منذ عهد بعيد، نتيجة النزاعات القديمة، وهذان الاتحادان هما بنو خيقان والمجرة، وهناك بعض الشكوك إلى من ينتسب بنو مالك من هذين الاتحادين، وهذا ما يفسر بعض الأحيان الأهمية في انتقال العداوات بين تلك التجمعات القبلية من جيل إلى جيل. فبنو خيقان يتجمعون الآن تحت زعامة المغشغش، وهم الفخذ الأكبر في هذا التجمع. إلا أن المجرة بنفس الوقت هم الأكثر انقساماً وتشعباً إلى مجموعات صغيرة، كما أنه ليس لهم زعامة واحدة مشتركة.

إن تاريخ تجمع المنتفك لا ينفصل عن تاريخ السعدون. وفي الواقع فإن اسم المنتفك في العراق لا يشمل عموماً سوى العائلات الحاكمة وعبيدهم، إلا أنه في نفس الوقت ليس هنالك من رجل قبيلة في العراق يرغب أن يطلق عليه أنه ينتمي للمنتفك وعلى الأغلب قد يستخدم انتماءه عندما يكون مثلاً في مكة أو في دمشق، وعندما تكون القبيلة التي ينتمي إليها الشخص صغيرة وغير معروفة بين الناس، بينما اسم المنتفك هو اسم شائع بين العرب جميعاً، وإن مركز السعدون يكتسب أهمية خاصة، لسببين رئيسـين، لا سيما في مناطق جنوب بلاد ما بين النهرين، وتعود تلك الأهمية إلى جذورهم القبلية من جهة وبسبب تجاهلهم من قبل السلطات الرسمية التركية على أنهم زعماء تجمع قبائل المنتفك، وإن سوء الفهم المتعمد هذا، قد تولد لدى الأتراك نتيجة فهمهم الخاطىء أن السعدون ليس لهم تأثير على غيرهم من قبائل العراق، لكن العكس هو الصحيح، فقد احتفظ السعدون بعاداتهم القبلية العربية الأصيلة من جهة، وهم من أهل السنة، كما أنهم في نفس الوقت من «أهل البعير»، وإن مناطق تمركزهم تقع في مناطق الحماد إلى الغرب من «الهيه» وإلى الجنوب من الفرات. أما القبائل التـي تعترف بزعامة السعدون عليهم فتختلف عنهم كثيراً، فهم عموماً من الشيعة، ومنهم المستقرون ومنهم الرحل، سواء يعملون بالزراعة أو بالرعي، أو من جماعات المستنقعات.

ومن المعروف أن مجموعة قبائل المنتفك بقيت تحت زعامة السعدون حتى عهد مدحت باشا، عام ١٨٧١ إذ حافظوا على نوع من الاستقلال عن السلطة التركية. ومن منتصف القرن السادس عشر بدأوا بدفع الجزية للسلطات التركية، لكن أول إشارة عن دفعهم هذه الجزية ترجع إلى عام ١٧٤٧، عندما أعلن الحاكم التركي الذي كان يقيم في البصرة، أن المنتفك يرفضون دفع الجزية، وأنهم ثاروا ضد سلطة الحكم التركي، بسبب تلك الجزية. وفي عام ١٧٦٩ ثاروا مرة أخرى ورفضوا دفع تلك الجزية، وكانوا هذه المرة بزعامة الشيخ عبد الله، إلا أنه في عام ١٧٧٦، ساعد المنتفك الأتراك ضد الفرس عند هجومهم على البصرة تحت قيادة كريم خان، إلا أنهم استسلموا للفرس، وبقوا تحت حكمهم لمدة ثلاث سنوات، وانتهى ذلك الاحتلال عام ١٧٧٩. وفي شهر أيار من عام ١٧٨٧ دخل شيخ السعدون، ثويني البصرة مع قوات كبيرة، واحتل بعض المواقع في أنحاء المدينة، وقد فرت القوات التركية، واستسلم المُسَلَّمْ، لكن طردوا من جديد من البصرة من قبل باشا بغداد بتاريخ تشرين الأول عام ١٧٨٧.

وفي المدة الواقعة ما بين عامي ١٧٩٧ ـ ١٨٠٢ قام المنتفك فحصنوا البصرة ضد هجمات الوهابيين، وفي عام ١٨٠١ قام الشيخ ثويني بقيادة مجموعة مسلحة وهاجم عاصمة الوهابيين. إلا أن تلك الحملة قد فشلت، ومات قتلاً بالقرب من مدينة الكويت.

وفي المدة الواقعة ما بين ١٨١٠ ـ ١٨١٧ قام المنتفك بثورة مكشوفة ضد باشا بغداد التركي، وفي عام ١٨١٣ جرد عبد الله باشا حاكم بغداد حملة لمهاجمة المنتفك بقيادة الشيخ حمود الثامر، إلا أن الحملة التركية فشلت في الاستيلاء على البصرة، وقتل الباشا بعد أن تم أسره. وبعد ذلك امتد سلطان السعدون وتوسع نفوذهم حتى السماوة، ولجأت السلطات التركية إلى أسلوب فرق تسد، فقام الباشا التركي الجديد، داوود باشا حاكم بغداد، حوالي عام ١٨١٧ فسمَّى شيخاً آخر عوضاً عن حمود، إلا أن تلك الخديعة لم تجد، وبعد عزل داوود باشا عام ١٨٣١ قام ابن حمود ماجد السعدون الذي حل مكان والده، فحقق من جديد استقلال وهيمنة السعدون. وفي عام ١٨٥٠، قسمت المقاطعات التي كانت تحت حكم السعدون، عن طريق خلق الحزازات. وقام فارس بن عجيل واعترف به كزعيم لتلك المناطق.

ومنذ ذلك الوقت أخذ الأتراك بإطباق قبضتهم على المناطق بتبديل المشايخ وإثارة بعضهم ضد بعض. وقد فرضوا الجزية من جديد، وهكذا، ولإعطاء مثل على

السيطرة التركية، فقد ازدادت الجزية في المدة الواقعة ما بين ١٨٥١ وحتى ١٨٥٣، من ٢٠٠٠٠٠ إلى ٣١٠٠٠٠ شمس. وفي عام ١٨٦٣، حاول الوالي التركي في بغداد نامق باشا أن يحطم تلك القوة القبلية، بنزع ملكية المنتفك عن أراضي جنوب القرنة وأراضي الهيه، وأعاد السعدون إلى مرتبة القائم مقام. وبهذا انخفضت سلطة السعدون إلى أدنى حد، ولم يعد لهم على أحد من سلطان سوى في سوق الشيوخ، إلا أن الشيخ منصور ثار ضد هذه التحديات، وحاول إثارة جميع العرب للقيام بثورة ضد تركيا في كل مكان، وبهذا اضطر الوالي التركي أن يقلل من تشدده ومن سلطانه على القبائل. هذا وقد عانى المنتفك عموماً الكثير من اضطهاد الأتراك لهم.

وفي عامي ١٨٦٤ ـ ١٨٦٥ استمر الزعيمان الرئيسان، وهما الشيخ فهد والشيخ منصور بثورة مكشوفة ضد الأتراك إلا أنهما فشلا أخيراً، فهرب الشيخ منصور ولجأ إلى الضفير، بينما قام أخوه ناصر فقدم تعهداً أن لا يعود للمشيخة أبداً. وقد أعطى الأتراك للشيخ ناصر بعض الصلاحيات والمكاسب، ووقع تحت تأثيرهم، ولا سيما تحت تأثير الوالي التركي في بغداد مدحت باشا، الذي أقنعهم في عام ١٨٧١ بالتخلي عن مناصبهم ومراكزهم، ومن التخلي عن الشيخ فهد والشيخ منصور، وأن يرحبوا بالنفوذ التركي بين جميع المنتفك. وكان القبول بهذه الشروط الخطوة الأولى لتنازلات أخرى كان يطالب بها الأتراك. إلا أن ناصر باشا العظيم، «مؤسس الناصرية» كان يشعر أن المنتفك قد خدعوا من قبل الأتراك، وهكذا أخذ سلطان السعدون يختفي شيئاً فشيئاً، كما أن تلك القبائل قد فقدت مواقعها أيضاً وخسرت الكثير من أهميتها بين القبائل، ومن ثم تم الاستيلاء على الأراضي التي كانوا يملكونها في مناطق الناصرية وسوق الشيوخ، وأعيد تسجيلها من جديد في سجلات الطابو، وبهذا خضع السعدون للسلطة التركية.

وفي عام ١٨٧٢ استغل الأتراك الشيخ ناصر واستخدموه من أجل توطيد سيطرة الأتراك المباشرة على منطقتي الحسا والقطيف، ومقابل هذه الخدمات كافؤوه بتعيينه والياً على البصرة، وقد أنشئت تلك الولاية خصيصاً ليكون والياً عليها، وكان ذلك في عام ١٨٧٥ وقد استطاع على أي حال القيام بدور الوالي ودور شيخ قبائل المنتفك في آن واحد، وبعدها، عزل عن تلك الولاية وتم نفيه إلى القسطنطينية في عام ١٨٧٧.

وفي عام ١٨٨١ وبينما كان ناصر مسجوناً في القسطنطينية، قامت مجموعات المنتفك في كل مكان بثورة بدأت أولاً في الناصرية، ثم امتدت إلى المناطق الأخرى.

وفي نفس الوقت انقسم السعدون في ولائهم بين سعدون باشا، ابن الشيخ منصور (وهذا الأخير هو ابن أخ ناصر وابن عم فالح) وبين فالح نفسه، وكان واضحاً أن فالحاً كان من المؤيدين للسلطة التركية، وقَبِلَ الخضوع لهم بينما كان سعدون يدعو إلى تدعيم سلطة المنتفك وإلى معاداة النفوذ التركي. وكان بنفس الوقت الصديق الحميم لشيخ الكويت، وهكذا وقف في وجه الأتراك وفي وجه قريبه صنيعة الأتراك الشيخ فالح، وبسبب عداوته الشديدة لتركيا ولتأثيرها في المنطقة، فقد كان صديقاً لشيخ الكويت. وقد اعتمد أيضاً على أعمال الإغارات والسرقة، وبدأت شهرته تنتشر حوالي عام ١٩٠٠ عندما شن غارات على ابن رشيد من أجل أن يتحبب إلى شيخ الكويت ويتقرب منه، إلا أن ابن الرشيد هدد وتوعد أن سيقوم بعمليات انتقام ضد الكويت، وقد سار فعلاً بقواته لمهاجمة الأراضي الكويتية، وتصادم ابن رشيد مع قوات الشيخ مبارك شيخ الكويت، ومعه قوات سعدون باشا، ومعهم أيضاً بعض القوات التركية، وأخيراً اقتنع ابن الرشيد بالانسحاب دون الدخول بمعركة لأنها ستكون خاسرة. لكن اشترط بنفس الوقت على طرد سعدون باشا من الكويت.

واضطر شيخ الكويت هذه المرة أن يتخلى عن سعدون باشا في محاولة لحقن الدماء، وتجنب الدماء التي يمكن أن تنزف بالكويت. وفي عام ١٩٠٣ سبب سعدون باشا قلاقل كبيرة بين جماعات المنتفك عن طريق ممارسة الابتزاز والتهديد مع قبائل الجازية، لأنه كان يفترض أن هؤلاء يقدمون الولاء والطاعة إلى شيخ فالح، وأرسلت قوة صغيرة تركية لمقاتلته وقد تم قتلهم، وكانوا بقيادة العقيد شطرة الذي أعيد لتركيا عام ١٩٠٤.

وفي المدة الواقعة ما بين ١٩٠٤ ـ ١٩٠٨ استمرت جماعات المنتفك بالانقسام في ولائها ما بين أبناء العم سعدون باشا وفالح، وفي ربيع عام ١٩٠٨ توفي فالح، ولم يخلف من ورائه وريثاً صبياً في سن تناسب وراثته، وبهذا أصبح سعدون باشا زعيم جميع المنتفك بلا منازع. وفي عام ١٩٠٨ استغل السعدون مناسبة قيام ثورة في العراق، فقام ودعم بقوة لجنة الاتحاد والترقي، ولهذا أصبح مقرباً من السلطة، بينما كانت عائلة فالح تعاني الصعوبات. وهكذا أصبح سعدون أحد أبطال لجنة الاتحاد والترقي، وهذا ما سبب له الخصومة مع سيد طالب، زعيم البصرة. هذا وقام الاتحاد والترقي بدعمه، وأخذ السعدون يمارس بعد ذلك الارهاب ضد قبائل المنتفك،فقد قتل العديد من شيوخهم الشباب، خوفاً منهم في المستقبل كما قام بأعمال مشينة، وازداد في حقده على المنتفك وغيرهم، كما زاد في نهبه وسلبه. وأخيراً في عام ١٩١٠ قام

ناظم باشا والي بغداد في ذلك الوقت، واتبع طريقة حكم المناطق التي يسيطر عليها المنتفك من خلال سعدون باشا، فعينه متصرفاً على الناصرية. كما قام الوالي التركي بتقديم الدعم له على الرغم من كل سيئاته. هذا ولم يقبل الوالي أي شكوى كانت ضده، وانتشر خبر الأخطاء التي كان يرتكبها سعدون في كل مكان، وقد تأثرت القبائل بسوء تصرفاته، فقام بتاريخ آذار ١٩١١ جماعات ممن يؤيدون أولاد فالح باشا، وقد استغلوا الفشل الذي تعرض له سعدون باشا في حملته ضد الضفير فقاموا بثورة ضده، وبهذا أخذ نجمه يأفل بسرعة.

ولما كان يمثل السياسة التركية، فقد كان يحاول تطبيق تلك السياسة التي كانت تقضي بنزع السلاح من بين أيدي مجموعات قبائل المنتفك، التي ينتمي هو إليها، وهذا ما زاد في كراهيتهم له، وفقدانه شعبيته بينهم. ومما زاد في نقمتهم وكراهيتهم سيطرة بعض الشيوخ منهم على أراضيهم، وكانت تعود ملكيتها لهم منذ وقت طويل؛ ولم يكتفوا بذلك فقط، بل مارسوا الاضطهاد ضد أبناء قبائلهم. وأصبحت أعمالهم لا تطاق، وعلمت السلطات التركية بذلك، ولم تستطع السكوت على تلك المظالم، على الرغم من مساعدتها لهؤلاء الفاسدين فأرسلت لجنة تركية للتحقيق في تلك المظالم، وقد حاولت تلك اللجنة، أن لا تهتم بالأمر كثيراً، نظراً لانتشار الفساد في كل أطراف الامبراطورية التركية في ذلك العهد. وبالطبع كانت أهم المشاكل التي تعاني منها جماعات المنتفك هو طردهم من أراضيهم، واغتصابها منهم. وقد أخذ سعدون باشا يعزز مواقعه في كل مكان، وكان يساعده في ذلك ابنه عجيمي، الذي كلفه بالعمل في المناطق المحيطة بالناصرية، وأطلق يده بالانتقام ممن كان يقف ضد والده، ولاسيا من أفراد قبيلته، وأخيراً فقد تبين للّجنة التركية أنه لا يمكن السكوت عن جرائمه، وتبين لهم عدم جدوى الاستمرار في دعمه، وبالتالي أوقفوا كل مساعدة تعطى له من السلطات الرسمية، وبدأوا بإقامة علاقات مباشرة مع أفراد القبائل، ولاتمام عزله عن بقية أفراد رجال قبيلته، قام الأتراك في عهد جمعية الاتحاد والترقي فأخذوا بدعم سيد طالب في البداية عوضاً عن سعدون باشا، وكان سيد طالب هذا يشغل منصب (نقيب زاده) في البصرة، كما أنه لم يظهر معارضة واضحة في البداية ضد جمعية الاتحاد والترقي التركية. بالإضافة إلى أنه لم يكن يناصر عائلة فالح ضد سعدون باشا صراحة. وقد دعمه الأتراك في محاولة منهم في البداية عدم إعطاء أي دور لسعدون من جهة، وللتخلص من هيمنة ذلك الأخير وتأثيره على أفراد قبائل المنتفك من جهة أخرى. وأخيراً كلفه الأتراك في محاولة لإبعاد سعدون باشا والقضاء عليه إن أمكن، على أن يقوم بذلك سراً قدر

الإمكان. فدبر له مكيدة بأن قاده على ظهر قارب يسمى (مار ماريس) بالقرب من سوق الشيوخ، ومن ثم أخذه مقيداً إلى البصرة، وسلمه هناك للوالي التركي. وهكذا انتهت قصة سعدون باشا. إلا أن تلك العملية وتلك الخديعة لم يقبل بها ابنه العجيمي، وحاول الانتقام لوالده عدة مرات. ثم أرسل سعدون باشا مقيداً إلى بغداد بتاريخ ١١/تموز/١٩١١، ومن هناك أرسل إلى حلب، بتاريخ آب/١٩١١ حيث مات هناك، وقيل إنه مات فجأة بتاريخ ٢٥/تشرين الثاني/١٩١١ بسبب جلطة في دماغه، لكن الاعتقاد السائد بين الجميع أنه مات مسموماً، ولجأ ابنه إلى المناطق المجاورة للناصرية حيث كان يعيش خارجاً عن القانون وفاراً من وجه العدالة. وقد لاحقته السلطات التركية، لكن دون جدوى.

هذا وقد جرى حكم المناطق التي كان سعدون يسيطر عليها والتي كانت تسكنها جماعات المنتفك في الفترة الواقعة ما بين شهر تموز وحتى تشرين الثاني من نفس العام من قبل حاكم عسكري، وطبقت فيها الأحكام العرفية. وكان ذلك الحاكم هو فريد بك، وكان يطلق عليه اسم «المتصرف» وكان هذا من المؤيدين لجماعة الاتحاد والترقي كما كان على علاقة حسنة بالعجيمي، وقام هذا الأخير، الذي كان يحقد على سيد طالب بسبب غدره بوالده، وخيانته له بحيلة، وقد بدأ يظهر على سيد طالب أنه كان يقف ضد جماعات الاتحاد والترقي، كما تبين لعجيمي أنه كان يتآمر عليه مع أولاد عمه الآخرين من أولاد فالح أمثال مزيد بك، وعبد الله بك، وآخرين غيرهم. وبتاريخ تشرين الأول عام ١٩١٢، وعندما نجحت الحركة الرجعية بالإطاحة بجماعة الاتحاد والترقي، وقد كانت الأمور غير واضحة تماماً في القسطنطينية ـ أرسلت برقية من قبل أحد أقارب عجيمي من المعادين له ـ وغالباً بتأثير من سيد طالب، أن العجيمي يستعد لتجريد حملة والسير إلى القسطنطينية لمساعدة جماعة جمعية الاتحاد والترقي ضد أية حركة رجعية. وفي نفس الوقت كان عجيمي يهاجم ابن عمه مزيد بك وقام بسلبه جميع أملاكه تقريباً. وقيل إن عمل عجيمي لم يكن بعيداً عن توجيه ودعم من المتصرف فريد باشا. وتسبب ذلك في خصومة أخيه عبد الله بك شقيق مزيد بك.

وما إن انهزمت حركة جمعية الاتحاد والترقي بتاريخ تشرين الثاني عام ١٩١٢ حتى أصبح سيد طالب الزعيم المطلق في تلك المنطقة، «البصرة وأطرافها» وعين والياً جديداً على البصرة، وأعلن من جديد على أن عجيمي خارج على القانون، ومطلوب للعدالة. وتسبب ذلك في انقسامات جديدة في عائلة الفالح، وأصبح لهم مكاناً لائقاً. وأبعد بنفس الوقت فريد باشا الذي كان موالياً لجمعية الاتحاد والترقي من

منصبه في الناصرية، وقد أحس عجيمي بالحرج الشديد، فأراد أن يستغل الفرصة بسبب فوضى الحاكم التركي، ونزاعاته الداخلية، وقرر مهاجمة البصرة، وجرى ذلك بتاريخ تشرين الثاني عام ١٩١٢ وقد عمت الفوضى أرجاء المدينة، وسيطر الذعر والهلع على سكانها، وقد اضطر سيد طالب للدفاع عن المدينة، مما اضطر عجيمي أخيراً أن ينسحب منها.

وبتاريخ كانون الثاني عام ١٩١٣ استردت جمعية الاتحاد والترقي السلطة في القسطنطينية ـ وجرى ذلك بانقلاب عسكري ـ وعينوا من جديد والياً جديداً للبصرة من الموالين لهم، ووجد عجيمي نفسه من جديد مدعوماً من السلطة، وأنها تقف إلى جانبه بكل ثقلها، بينما وقف سيد طالب في المعارضة للسلطة التركية الجديدة، وهكذا كانت السلطة التركية تجد في كل مرة من يواليها، من هؤلاء أو من أولئك. فقام الآن سيد طالب بثورة ضد الأتراك في البصرة عام١٩١٣وقامت السلطة التركية الجديدة وقررت تعيين فريد باشا ـ متصرف البصرة سابقاً وصديق عجيمي ـ ليكون هذه المرة قائداً عسكرياً للبصرة، وأعطته تعليمات ليحاول قتل سيد طالب هذه المرة بأي ثمن، والتخلص منه إلى الأبد، بينما يقوم بنفس الوقت عجيمي بالاستعداد لتقديم الدعم اللازم من الصحراء إذا تطلب الأمر ذلك مع أفراد قبيلته، وهكذا جاء الآن دور عجيمي ليتصرف على هواه ضد قاتل أبيه، وعدوه اللدود، وتقدم نحو البصرة، مع مجموعة مقاتلة من قبيلته، ولما كان سيد طالب يتوقع ذلك، فقد استعد لذلك فوجه ضربة لفريد باشا ولقواته، أدت تلك الضربة إلى مقتل فريد باشا في منطقة العشار، مما اضطر عجيمي إلى الانسحاب دون تحقيق ما كان يحلم به.

وبقيت جميع مناطق المنتفك خلال عام ١٩١٣ كلها تعمها الفوضى، وأصبح الناس لا يأمنون على أرواحهم وممتلكاتهم، فتم تعيين عجيمي شيخاً عاماً على جميع المنتفك في محاولة لتهدئة الخواطر، ولإعادة الأمن والنظام لمنطقة قبائل المنتفك. إلا أن ذلك الأمر قد جاء متأخراً جداً، وقامت بين عجيمي هذا والضفير عداوات جديدة بالتعاون مع ابن الرشيد. وفي شهر نيسان عام ١٩١٤ قام الوالي التركي بزيارة سوق الشيوخ، حيث قيل إنه التقى سراً بعجيمي كما قيل إنهما تآمرا من جديد على سيد طالب الذي كان سيد البصرة بلا منازع، ولكنه كان يعرف جيداً أنه أمام مؤامرة تستهدف حياته تدبر له على الدوام من عجيمي ومن معه. وهكذا استمرت الأمور بين أخذ ورد، حتى اندلعت الحرب العظمى بتاريخ تشرين الثاني عام ١٩١٤.

وفي خلال ثورة العراق على البريطانيين في عامي ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ وقف

المنتفك موقف الحياد من تلك الأحداث. وعند قدوم الملك فيصل لحكم العراق تعاونوا معه في بداية الأمر، لكن على أمل منهم أن تكون السلطة الجديدة إلى جانبهم، ولكن تبين لهم أن خابت آمالهم.

والآن فالمنتفك، يحاولون التكيف مع الأوضاع الجديدة.



الملاحق

١ ـ تقسيمات قبائل المطير، عجمان، العوازم، الرشايدة، شمر، عنزة.
٢ ـ شيوخ البدو ممن تعرفت عليهم.
٣ ـ لائحة بأسماء السيدات البدويات ممن لهن علاقة حميمة مع زوجتي
٤ ـ ملاحظات حول الصيام في شهر رمضان.
٥ ـ عادات العرب في الحفاظ على ممتلكاتهم.
٦ ـ الطرق في شبه الجزيرة العربية.
٧ ـ الشُّرُفْ «الجمال السوداء عند المطير».
٨ ـ الحشرات في الكويت.
٩ ـ الجرابيع.
١٠ ـ أنواع الأسماك في الكويت.
١١ ـ نقوش حميرية.
١٢ ـ بعض الحملات في شبه الجزيرة العربية، منذ قديم الزمان.
١٣ ـ الزواج ما بين شريف وغير شريف.
١٤ ـ موقف النقيب شكسبير.
١٥ ـ صرخات القبائل عند الحرب «النخوة».
١٦ ـ دم بطون البرزان.
١٧ ـ قبيلة هتيم.
١٨ ـ قصة المنتفك.
١٩ ـ ملخص عن المجموعة المسماة «عقيل».

٢٠ - ملاحظة حول كلمة (دية)
٢١ - حول الصلبة.
٢٢ - بعض الأسماك في الكويت.
٢٣ - بعض الملاحظات حول مرض السفلس.
٢٤ - حول طعام الجمال.
٢٥ - إضافة على مفهوم المنيحة.
٢٦ - إضافة على إبحار المراكب الشراعية.
٢٧ - العلاقات مع السعوديين.
٢٨ - إضافة على وسم الجمال.
٢٩ - كتاب سليمان بن داوود.
٣٠ - الزكاة.
٣١ - بعض المعلومات حول الوشم عند النساء.

الملحق رقم (١)

تقسيمات قبائل المطير، عجمان، عوازم، الرشايدة، شمر، عنزة مع ذكر لأسماء الشيوخ، وعدد الخيام، وقواتهم ومميزاتهم... إلخ.

المطير

- المطير، وتقسم إلى ثلاث مجموعات رئيسة:

أ ـ الدوشان، ومنهم شيخ القبيلة وحكامها.
ب ـ العِلْوَة.
جـ ـ البُرْيهْ.

- الشيخ الأعظم. «الدويش» وهو من عشيرة الشيوخ، الدوشان.
- الشيخ الحالي «١٩٣٧» بندر بن فيصل بن سلطان الدويش.
- القوات المحاربة، «٦٠٠٠» مقاتل ـ رقم فيه بعض الشك ـ في نجد.

- موطن إقامتهم: في الشتاء، فإن الدوشان المطيرية، «علوة، وأولاد واصل» من افخاذ البريه، وفي المقابل، أولاد علي، وبني عبد الله، «وهؤلاء من الأفخاذ التي تعيش في نجد» وهم عموماً يتنقلون بين رمال الدهناء، ويتوجهون إلى الشمال، حتى الكويت، ثم إلى الجنوب. ويبقون إلى حد بعيد إلى الشرق من الباطن، ليتجنبوا الاقتراب من مناطق عجمان وعوازم في المناطق الواقعة على شواطىء البحر، في مناطق الحسا، ويدعون أن مناطق الآبار الكبرى في الصبيحية، والطويل، وتلك حول الكويت، تقع جميعها في مناطق رعيهم وإن ذلك يعود إلى زمن سحيق. وفي الصيف، فبالإضافة إلى مناطق التخييم المذكورة أعلاه، هناك أيضاً الآبار المعروفة في الأرطاوية، وفي قَيَّةْ، وفي حفر البطين، والصفا، وقَرِّعْ، وبرة، وقرية العليا، وقـرية السفلى.

- المذهب: جميعهم من السنة المالكية.

أ ـ الدوشان أو عشيرة الشيوخ، ليس بينهم أفخاذ أصغر في العشيرة، بل هناك عائلات من شيوخهم.

ب ـ مجموعة علوة المطير، وهي مقسمة إلى:
١ ـ الموهه، وأقسامها الأصغر.
٢ ـ الثويان، وأقسامها.
٣ ـ الجيلان، وأقسامها.

جـ ـ مجموعة بريه المطير، مقسومة بطريقة مماثلة إلى:
٤ ـ أولاد واصل وأقسامها.
٥ ـ أولاد علي وأقسامها.
٦ ـ بني عبد الله وأقسامها.

فإذا أخذنا المجموعات أ و ب و جـ المذكورة سابقاً، فسيصبح لدينا، الأقسام أو الفروع التالية مجتمعة مع أسماء شيوخهم. وعدد الخيام لديهم في كل مثال.

أ ـ الدوشان. الشيخ بندر بن فيصل الدويش.

ليس لها فروع، بل لها رؤساء «حمولة» أو عائلات، وهم:

ـ السلطان: بندر الفيصل.
ـ الشقير: تريحيب الشقير.
ـ الجبعة: مطلق الجبعة.
ـ العماش: محمد العماش.
ـ الوطبان: محمد الوطبان.
ـ الماجد: عبد العزيز.
ـ المحمد: محمد البدر.
ـ الفهد: ماجد الأصقه.

مجموع الخيام في الحدود القصوى «٢٠٠» خيمة.

ب ـ ١ ـ الموهه (مجموعة علوة) شيخ المشايخ بندر الدويش من الدوشان.

أما الفروع، أو البطون فهي:

ـ البراعصه: الشيخ الصور «نايف» (١٠٠) خيمة.
ـ الجبرة: شيخ أبو راس (٦٠) خيمة.

ـ الجهطان: الشيخ الواصلي (٤٠) خيمة.
ـ الجديان: الشيخ الجدي (١٠٠) خيمة.
ـ الخواطرة: الشيخ الباير.
ـ الرخمان : الشيخ ابن زريبان.

ـ الجربيات
ـ أبو سفرة } (١٨٠) خيمة.
ـ المحمد).

ـ الصعانين: شيخ ابن متعب (٨٠) خيمة.

٢ ـ ذوي عون: (مجموعة علوة) الشيخ العظيم الفقم.

أما الفروع فهي:

ـ الملاعبة: الشيخ ابن غنيمان (٣٠٠) خيمة. ولها سبعة بطون أو عائلات.
ـ الصهبة: الشيخ الفقم. «هايف، وجفران» ولها سبعة فروع عائلية (٣٠٠) خيمة.

ملاحظة: الملاعبة لهم الفروع العائلية التالية:

الغنيمان ـ السعدون ـ الفتى ـ المثيجب ـ الأمرة ـ القذيلات ـ الرواشدة.

أما الصهبة فلهم الفروع العائلية التالية:

عرفان ـ ضمنان ـ الفقوة ـ الحجي ـ الجميعان ـ جريد ـ جوافية ـ حضيرات.

٣ ـ الجبلان: «مجموعة علوة» شيخها العظيم ابن لامي، أما فروعها فهي التالية:

ـ العراقبة: الشيخ المعرقب، (٥٠) خيمة.
ـ البرزان: الشيخ ابن رشيدان (٢٠٠) خيمة. لها ثلاثة فروع عائلية.
ـ العنة: الشيخ ابن جغيثيم (١٥٠). خيمة لها فرعان عائليان.
ـ اليحيى: الشيخ ابن شبلان «فيصل» (٢٠٠) خيمة. لها فرعان عائليان.
ـ القيمات: الشيخ ابن لامي (١٠٠) خيمة لعائلة الشيخ؛ (٧٠٠) خيمة للفروع.

ملاحظة: تتضمن البرزان، الفروع العائلية الرئيسة التالية:

المجالدة ـ المريسة ـ القشعان.

أما العنة فتتضمن الفروع العائلية الرئيسة التالية:

الخريبيات ـ أبو شعيبان.

أما اليحيى ففروعهم العائلية هي التالية:

الشويرة ـ الشيابين.

جـ ـ ٤ ـ أولاد واصل «مجموعة البريه» الشيخ العظيم المريخي، أما الفروع فهي كالتالي:

- العفصة: الشيخ الفاضي، (٢٠) خيمة.
- البرزان: الشيخ ابن شويربات، ابن خنية (٢٠٠) خيمة.
- الدياهين: الشيخ المطرقة، «عبيد» ابن جربوع «الكويت» (٢٠٠) خيمة.
- الهوامل: الشيخ ابن دَمَخْ (٥٠) خيمة.
- المريخات: الشيخ المريخي (٦٠) خيمة.
- العوارات: الشيخ ابن زُوَيِّدْ «مزيد» (٣٠) خيمة.
- العبيات: الشيخ ابن عشوان، «دَزَّهْ» (٧٠) خيمة.
- المحارزة: الشيخ الحفطة (٥٠) خيمة.
- الوسامة: الشيخ ابن مهيلب (٥٠) خيمة.

ملاحظة: هناك أيضاً فروع أخرى لا سيما داخل نجد، وهي غير معروفة تماماً.

٥ ـ أولاد علي «مجموعة البريه» الشيخ العظيم، ابن بصيص «مشاري» يدعون أنهم من أصول عنزة!؟

أما فروع تلك المجموعة فهي:

- الصعران: الشيخ ابن بصيص (٣٠٠) خيمة.
- العبيدان : الشيخ ابن جهرمان (٦٠) خيمة.
- الحمادين: الشيخ الحميداني (١٥٠) خيمة.
- السعدون، الشيخ الأمجهوي (١٠٠) خيمة.
- الشيالين: الشيخ الموت، (٢٥) خيمة.
- الشذيلات: الشيخ الديرة، «فلاح» (٩٩٠) خيمة.
- الدويغاني: الشيخ المكنيساني «ناصر» (٤٠) خيمة.
- الحثلان: الشيخ ابن تيران، «عطا الله» (٣٠) خيمة.

٦ ـ بنو عبد الله، «مجموعة البريه» وتقسم إلى الفروع التالية:

- الميمون: الشيخ ابن جرناس، ابن شرار، ابن فدغان (٨٠٠) خيمة.

- الصعابة: الشيخ ابن شمانة (٦٠٠) خيمة.
- الثيون: الشيخ ابن اسقيان، ابن جبرين (٩٠٠) خيمة.

ملاحظات عامة

- إن أعداد الخيام لهذه القبائل، والقوة المقـاتلة وعدد الجمال... إلخ. أعطيت عملياً في حدودها القصوى. ولا سيما في الفروع، مثل البريه، أولاد علي، وبني عبد الله، ممن يتنقلون بين القصيم والحجاز.
- تعتبر الدويش وينظر إليها على أنها رأس الدوشان، أي العلوة، ومجموعة البريه. كما أن إشراف بني عبد الله داخل نجد هو إشراف بسيط على الفروع الأخرى نظراً لبعد المسافات بين هذه الفروع.
- وقف قرابة نصف المطير إلى جانب الثورة ضد السعوديين بزعامة فيصل الدويش، أما النصف الآخر، فبقي مخلصاً لابن بصيص، وابن الشقير، وآخرين.
- من المعروف أن المطير مسلحون ببنادق من النوع الحديث. عموماً من نوع «الموزر» التركي والألماني.
- خلال ثورة الإخوان، وجد بين المطير، مقاتلون أشداء. وما إن انتهت ثورتهم حتى عادوا إلى العيش في الأماكن المفضلة في الكويت مثل عجمان والعوازم.
- من المميزات العامة للقتال لدى المطير، هو قدرتها على القيام بالهجمات من أماكن بعيدة، وهذا ما يؤمن المفاجأة بشكل عام، نظراً لبعد مناطق التحشد عن أماكن المعارك. ويمتاز الأفراد المطيريون عموماً بشجاعة جيدة، لا سيما في الهجوم. إلا أن المطيري سيىء جداً في الدفاع. يهتمون عموماً بتربية الخيول فالإبل، وبعد ذلك الأغنام وبشكل أقل، فهم يملكون أحسن قطعان من الخيول المسماة«الكروش». وتلبس النساء المطيريات عموماً البرقع الأسود. أما الأعداء الرئيسون للمطير فهم شمر والضفير، وكانت أيضاً في الماضي قبيلة عجمان.

عجمان

- شيخهم العظيم: ابن حثلان، ينتسب إلى فرع الشيوخ «الميض» فرع نجلة.
- شيخهم الحالي (١٩٣٧) خالد الحثلان.
- قواتهم المقاتلة في حدودها القصوى: (٥٨٠٠) مقاتل.

- موطنهم: في فصل الشتاء تتجول القبيلة في جميع منطقة الحسا، من حدود الكويت، إلى الجنوب حتى الهفوف .

وفي فصل الصيف يخيمون على طول وادي المياه في الحسا، حيث توجد المياه، أما مكان تخييم رئاستهم، «أو رئاسة أركانهم» في الأماكن نطاع، غنوان، مليجة، صرار، وعوينة في وسط الحسا. أما عجمان الجنوب فيخيمون عموماً في الصيف، في الهفوف، وما حولها، أما بطن الهجرف، وبعض الهادي، الذين كانوا قبل سنوات خلت من أتباع شيخ الكويت، فهم عموماً يتجولون في جميع مناطق الكويت، ويخيمون بالجهراء في الصيف.

تعتبر قوة القبيلة معادلة لقوة المرة في الجنوب، وهي متحالفة معها. كما يتزاوجون مع بني يام من نجران، ويدعون أنهم يعودون إلى نفس الأصول، وهم من المذهب السني - حنابلة - .

أما فروعهم المختلفة، وأسماء الشيوخ، وعدد خيامهم فهي كما يلي:

- العرجة: تحت زعامة الشيخ ابن رُمَحْ (٢١٠) خيمة.
  - الفروع: العرجة - المرجة - الرزق.
- الضاعن: الشيخ ابن جمعة، مانع، الدامر، «عبد الله» (١٥٠) خيمة.
  - الفروع: أمير - ضاعن - حردان.
- الهادي: الشيخ المتلقم، «عبيد» (١٣٠) خيمة.
  - الفروع: الهادي - الويل.
- الحيان: الشيخ محمد الصباح (٥٠) خيمة.
- الهتلان: الشيخ ابن سعدا، وابن زمانان، (١٦٠) خيمة.
  - الفروع: ضميشة - جاهل - مطق - رسان - شريث.
- الشابيش: الشيخ ابن الواف (١٠٠) خيمة.
- الخويطير: الشيخ الضمام بن ضان (٥٠) خيمة.
- المحفوض: الشيخ ابن مكراد، «مبخوت» (٢٠٠) خيمة.
  - الفروع: دبسا - محفوض - شافع.
- الحويلة: (الشيخ زنيفر، والد سارة زوجة (فهاد بن فوران).
- المفلح: الشيخ ابن دبلان، «محمد» (٦٠) خيمة.

- المعدة: الشيخ ابن حثلان (٣٠٠) خيمة.
البطون: حبيش - خرة - مغطي - مويق - ناجية - سلبة - زيز.

- المصرة: الشيخ ابن أذين «سالم» (٩٠) خيمة.
- الريمة: الشين ابن عكشان (٩٠) خيمة.
- الشامر: الشيخ ابن زنيفر. ابن خرصان (٢٠٠) خيمة.
 - الفروع: حسين - خضير.
- الشواولة: الشيخ ابن مفلح (١٠٠) خيمة.
- السفران: الشيخ ابن منيخير (١٠٠) خيمة.
- آل سليمان: الشيخ هيف بن حجرف «في الكويت».
- ابن حشه: «في العربية السعودية»
- ابن مسامح: «في العربية السعودية» ← (٢٣٠) خيمة.
 - الفروع: البغور - ضروان - حمره - الوثة - جابر - سليمان - هجرف.

ملاحظات: إن عدد خيم القبيلة، وعدد المقاتلين وعدد الجمال . . . إلخ مختلفة لكن الأعداد المعطاة تتعلق بالقسم الأعظم. وتتبع القبيلة عائلة الشيوخ وهم من الحثلان، وشيخهم العظيم، من الحثلان.

تسليح القبيلة: تسليح القبيلة بشكل عام جيد، وببنادق حديثة، فمعظمهم مسلح بالبواريد من الطراز التركي، من نوع «موزر» وهناك الموزر الألمانية. والموزر التركية الخاصة بالخيالة. وكذلك البندقية البريطانية القصيرة فهي غير شعبية كثيراً. ولا تعد متقنة الصنع تماماً، ولذلك لا يرغبها الخيالة كثيراً.

الذخائر: يظهر أن القبيلة تملك كميات كبيرة جداً من الذخائر، ومما لا شك فيه أن السعودية هي التي تقدم لها تلك الذخائر. وينظر العجمان إلى العوازم على أنها القبيلة القوية الأخرى في منطقة الحسا. هذا وقد منح ابن سعود تلك القبيلة نوعاً من الاستقلال. ويوجد بين القبيلتين المذكورتين عداوة كبيرة.

أهم المميزات التي تميز عجمان هي:

أ - يمتازون بالاندفاع بحماس للهجوم مما يجعلهم عرضة لصعوبات لم يحسبوا حسابها.

ب - إخلاصهم لبعضهم بعضاً. «من يعتدي على واحد منهم كأنه اعتدى على جميع أفراد القبيلة» وهذا من أهم مميزاتهم.

جـ ـ نزوعهم البارز جداً إلى الحـديث والمزاح، فهم يعشقون النكات ويجيدونها.

القطعان الرئيسة، هي الجمال، وعدد قليل من الخيول، وعموماً لا يربون الأغنام بتاتاً.

لون خيامهم عموماً سوداء أو رمادية. أما الأجزاء المقسمة من الداخل، فهي عموماً مخططة بشكل أفقي بلون أبيض وأسود. تغطي النساء العجمانيات وجوههن بنوع من الأقمشة اللماعة.

يمتاز أفراد عجمان بوفادة الضيف وإكرامه. وهم يكرهون كثيراً أن تذهب نساؤهم لزيارة المدينة.

ينظر العجمانيون إلى الضفير على أنهم الأعداء الرئيسون. وهم على عداوة تقليدية مع المطير وشمر وسبيع، ومع قبائل سهول.

في عامي ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ أثناء ثورة الإخوان ضد ابن سعود، تحالف حوالي نصف عجمان مع المطير، وفي نفس الثورة أو العصيان، خيم العجمانيون بالقرب من الحدود الكويتية، وقد قاموا بعدة إغارات ناجحة حول ضواحي الرياض والهفوف والمسافة تزيد عن (٣٥٠) ميلاً من مناطق تجمعهم حتى تلك الأهداف.

العوازم

- شيخهم الأعظم، الشيخ «أمير» ابن جامع، من القوعة كامل، «سيد القبيلة» بطن المدلان ، وهي فخذ الشيوخ.

- الشيخ الحالي: الأمير، عيد بن جامع.
- قواتهم المسلحة: الحد الأعظم (٤٠٠٠) مقاتل.

- موطنهم. تتجول القبيلة عادة في الزاوية الشمالية ـ الشرقية، لشبه الجزيرة العربية، «كويت والحسا» من الكويت إلى رأس البدية. وفي فصل الشتاء، يتجولون في الغرب والشمال الغربي من الجهراء، حتى الباطن. وفي فصل الصيف، تخيم معظم بطون القبيلة حول المياه المتوافرة في المنطقة الكـويتية المحايدة وفي منطقة السودة، وإلى الجنوب منها.

المذهب: سنة مالكية ـ.

وفيما يلي بطون هذه القبيلة القوية، مع أسماء شيوخهم، وعدد خيامها.

- البريكات: الشيخ ساعي الفحما (٦٠) خيمة.
- الهدلان: الشيخ ابن جامع (٩٠) خيمة.
- الشقفة: الشيخ السفر (٧٠) خيمة.
- العبابيات: الشيخ ابن مليحية (٦٠) خيمة.
- العليثات: الشيخ ابن أهكيلان (٥٠) خيمة.
- الثرمة: الشيخ ابن امتريم (٤٠) خيمة.
- الفقو: الشيخ ابن غياثي (٤٠) خيمة.
- الجواسيرة: الشيخ ابن خفرة (٩٠) خييمة.
- المطيية: الشيخ ابن مـانة (١٥٠) خيمة.
- المهيلبة: الشيخ الشيتلي (٩٠) خيمة.
- المساهمة: الشيخ ابن هبينة (١٢٠) خيمة.
- المواجهة: الشيخ ابن ضـب، (٧٠) خيمة.
- القراشة، الشيخ ابن جندل، (١٠٠) خيمة.
- الصويبير، الشيخ ابن دري (١٦٠) خيمة.
- السواويخ، الشيخ السواخ (٤٠) خيمة.
- التومة: الشيخ ابن الرميح (١٤٠) خيمة.

أيضاً: الدويبات ـ الغربة ـ حسنية ـ الجعويرة ـ وهؤلاء جميعاً لا شيخ لهم، وهم يعملون في الكويت في صيد السمك.

ملاحظات عامة

يشتهر العوازم بتربية الإبل من الأنواع الممتازة، وكذلك قطعان الأغنام، وتقول بعض الإحصـاءات إنهم يملكـون حـوالي (١٠٠٠٠٠ رأس من الإبـل، و ٢٥٠٠٠٠ رأس من الغنم).

كما يشتهر العوازم في القتال الدفاعي، إلا أنهم لا يشتهرون في الأعمال الهجومية. وقد يرجع السبب إلى عدم تربيتهم للخيول، أما مناطق إقامتهم فهي محدودة جداً على الشاطىء. وقد أظهروا بسالة نادرة، في الدفاع عن مناطق إقامتهم، ضد الهجمات التي قام بها تحالف عجمان والمطير، في النقير عام ١٩٢٩، عندما كانوا إخواناً ثائرين.

ولا تعتبر قبيلة العوازم من القبائل ذات المحتد «نبلاء» إلا أنهم لا يتزاوجون إلا

مع بعض أفراد الهتيم من سكان غرب شبه الجزيرة العربية، ومع بعض الرشايدة أيضاً.

ويقيم منهم في مدينة الكويت وما حولها، حوالي (٢٠٠٠) وأصبحوا الآن من الحضر، إذ اكتسبوا جميع عاداتهم، على الرغم من ذلك فلا يزال التزاوج محصوراً بين أفراد تلك القبيلة الآن، ويعتبرون حاكم الكويت سيدهم الأكبر، ومع ذلك فإنهم يخافون من ابن سعود، ولهذا فهم يحاولون إظهار ولائهم للعربية السعودية، ولهذا السبب اضطروا أن ينقطعوا عن مبارك وعن ورثته بعد وفاته، وهم بذلك يريدون الاعتماد على ولائهم لابن سعود. ويمتاز العوازم بروح مرحة، ومن صفاتهم أنهم لا يشتهرون بإكرام الضيف.

وينظر إليهم ابن سعود على أنهم قادرون على التكيف، ولهذا فهم يؤيدون القوة من أين أتت، ويمكن القول أيضاً إن ابن سعود قد شرف العوازم بمنحهم الاستقلال في مناطقهم. كما سلحهم، بأسلحة حديثة، فوزع عليهم الأسلحة بكميات كبيرة مع الذخائراللازمة. فقد أعطاهم أكثر من (١٥٠٠) بندقية، من تلك التي اشتراها من بريطانيا من طراز (٣٠٣) في عام ١٩٢٩. في الوقت الذي زادت فيه قوة الإخوان وسطوتهم، وبدأت حركتهم بالانتشار بين الناس بسرعة، بقي العوازم من الموالين للملك السعودي، وقيل أيضاً إنهم في مرحلة ما أيدوا الإخوان تجنباً من الاعتداء عليهم، لكنهم قلبياً لم يكونوا يحبونهم أبداً.

لهذه القبيلة شهرة خاصة في رعي الغنم، ولهذا يطلق عليهم اسم «أهل الغنم» وكان شيخهم ابن مانع من المعارضين في كثير من الأحيان لحياة أهل البعير.

يعتبر العدو الرئيس للعوازم، أهل عجمان والمطير «فخذ البريه»، لكن العوازم من المسلحين تسليحاً جيداً، فهم يملكون كمية وافرة من البنادق التركية من النوع «موزر».

الرشايدة

- شيخهم الأعظم: ابن مسيلم.
- شيخهم الحالي: عاصي بن مسيلم، ومطلق بن مسيلم.
- قوتهم المقاتلة، حوالي (١٢٠٠) مقاتل.
- مناطق إقامتهم: في فصل الشتاء تنتقل القبيلة من صفوان، شمال دولة الكويت،

وإلى الجنوب حتى طوال المطير أو الجناب فالصفا، ووبرة، وقرية العليا، وقرية السفلى، في أراضي العربية السعودية.
أما في فصل الصيف فيتجمعون حول آبار الجهراء، وأم نقا، وصبيحية، والطويل، وفي بعض الأحيان في وفرة وعرك. ويستخدم شيخ الكويت بعضاً منهم كفداويه.
ومن المعروف أن الرشايدة هم أغلب من يهتم بتربية الصقور وأهم من يتصيد بها، ويحسن استخدامها.

- مذهبهم السنة، ومن المالكية.

فيما يلي أسماء بطونهم، وأسماء شيوخهم. وعدد خيامهم:

- العجارمة: الشيخ عبد الله بن رمثان (٣٠) خيمة.
- العوينة: الشيخ سعد بن دغيم، وعبد الله بن عويد (٨٠) خيمة.
- الدلول: الشيخ فهد بن حجيلان (٣٠) خيمة.
- الفزران: الشيخ فلاح بن هدبة، (٣٠) خيمة.
- الغربيات: الشيخ سعد بن مزيد الوشيمان (٦٠) خيمة.
- الهرشان: الشيخ مشعان بن صلال (٩٠) خيمة.
- الكعمية: الشيخ سعود بن قرينس (١٥) خيمة.
- المطاولة: الشيخ حمدان بن حُمَيِّره (٣٠) خيمة.
- المحيزمات: الشيخ صالح بن نمران (٨٠) خيمة.
- الموازرة: الشيخ سعود الموازري (٣٠) خيمة.
- الرمثيين: الشيخ كمن بن شهيد (١٥) خيمة.
- الشْهَرَةْ: الشيخ ناصر بن حجرة (٢٠) خيمة.

هناك أيضاً بعض بطون القبيلة الهامة مثل العليات والعتيبات.

ملاحظات عامة

تتبع هذه القبيلة من الناحية الرسمية الكويت، أي عليها أن تكون خاضعة لابن الصباح، أما من الناحية القبلية فهذه القبيلة من أقنان قبيلة المطير، كما هو الأمر في حالة العوازم بالنسبة لعجمان في سالف الأيام. ومع التحول النهائي لولاء المطير، من الكويت إلى نجد بعد موت الشيخ مبارك، فإن الرشايدة أيضاً قد تحولوا عمن ساعدهم في يوم ما وحماهم، وقد حاولوا في البداية توزيع ولائهم، إلا أن ذلك الأمر لم يدم طويلاً.

ويفتخر الرشايدة بعلاقتهم بالمطير، وهم من المقاتلين الأشداء، لكن على الرغم من ذلك يعتمدون كثيراً على حماية المطير، لا سيما وأن تنقلهم في نجد لأغراض الرعي يحتاج إلى أصدقاء أشداء. ويعتبرون من الفقراء نسبياً إذا قورنوا بالقبائل الأخرى، ويهتمون بتربية الجمال، والأغنام فهم يملكون حوالي ٩٠٠٠ رأس من الإبل، وحوالي ١٠٠٠٠ رأس من الغنم، وحسب القاعدة عند البدو، فمن ينتسب إلى قبيلة من الشرفاء، يستطيع التزوج من فتاة لا تنتسب إلى قبيلة من الشرفاء، لكن الفتاة المنتسبة لقبيلة الشرفاء لا تستطيع التزوج من رجل من غير قبيلة الشرفاء. هذا وتمتاز الفتاة الرشيدية بالحسن والجمال، أما ميزات الرجال هم أدلاء ممتازون في الصحراء، كما يشتهرون بقدرتهم على تتبع الأثر، وبالصيد. وعندما قام الإخوان بثورتهم، انخرط أكثر من نصف الرشايدة ممن كانوا يعيشون في الكويت معهم، وما إن فشلت تلك الثورة حتى عادوا للعيش من جديد في الكويت. كما عادوا إلى حلفائهم القدماء، وتعتبر القبيلة مسلحة بشكل جيد، ببنادق بريطانية وتركية.

شمر

ـ التقسيمات	الشيوخ
١ ـ مجموعة عبده	ـ ابن علي.
	ـ ابن شريم.
	ـ ابن جبرين.
	ـ ابن عجل.
٢ ـ مجموعة أسلم	ـ مشيل بن الطوالة.
«الصايح»	ـ محمد الوجعان.
٣ ـ مجموعة سنجاره	ـ ابن رمال
«تومان»	ـ ابن ثنيان.
«طميات»	ـ مشل التمياط.
	ـ ابن عايش.
	ـ ـ متعب الربع.

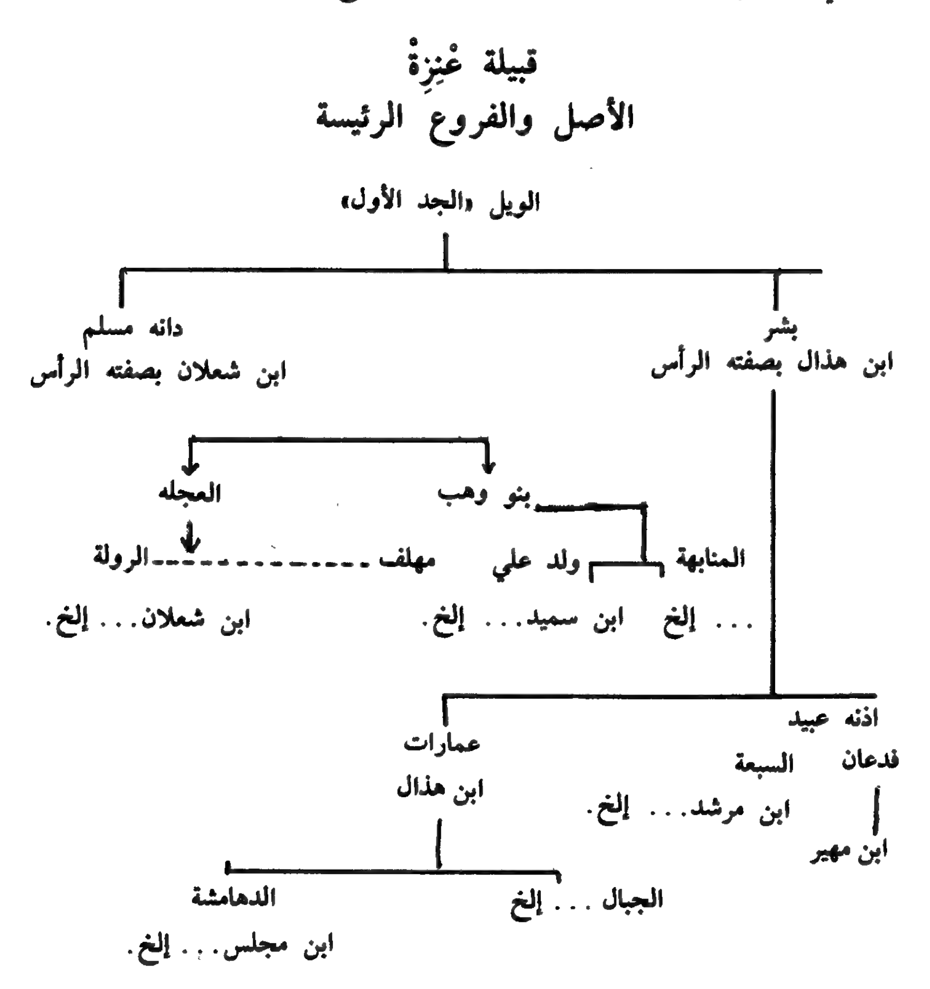
ملاحظات:

أ ـ يعود ولاء هؤلاء جميعاً إلى ابن سعود، ملك العربية السعودية، وتعتبر مجموعة

الجربة أهم وأكبر فروع شمر وهم يقطنون في المنطقة الواقعة بين بغداد والموصل وعلى الجانب الأيسر من الفرات.

ب ـ ومن المعروف أن شمر جربه يقيمون علاقات وطيدة مع مجموعة نجد المذكورة في الأعلى، لا سيما ما يتعلق بعلاقات الزواج.

قبيلة عْنِزةْ
الأصل والفروع الرئيسة



ملاحظات حول قبيلة عنزة:

١ ـ يقال إن جد القبيلة كلها هو الفقير والأيدا.

وكان ذلك الجد يتجول في المنطقة ما بين تيماء وخيبر في شمال ـ غرب شبه

الجزيرة العربية، أما الأيدا فقد انتشروا ما بين مداين صالح، ودار الحمراء، والعلى.

٢ ـ من المعروف أن جميع بطون العنزة يعيشون في سوريا، في المكان الذي اختارته الموجة الأولى وكان ذلك حوالي (١٦٠٠ م). أما الموجات التالية فقد استمرت على مدى ١٨٠ عاماً.

أما فروع العنزة المختلفة التي قيل إنها نفذت الارتحال فقد جاءت حسب الترتيب التالي:

الفدعان ـ الحسنة ـ العمارات ـ السبعة ـ الرولة... إلخ.

وكانت قبيلة شمر الشمالية قد سيطرت تقريباً على الصحراء السورية، إلا أنها طردت من قبل عنزة فور قدوم هؤلاء إلى الصحراء السورية، ولهذا اضطر الشمريون إلى اجتياز الفرات باتجاه الموصل، حيث يقيمون اليوم تحت اسم شمر الجربة، «الشيخ عجيل اليرور».

٣ ـ اعتبرت مدينة خيبر المركز الرئيس الأول، ولا تزال، حتى اليوم، مع حيين رئيسين من أحيائها المسميان حي البشر، وحي الأجلاس.

٤ ـ تعتبر قبيلة عنزة من أكبر القبائل العربية وأقواها، وعدد رؤوس الإبل التي تملكها، وتدور قصة طريفة عن جدهم الويل، أنه صادف أن دعا ربه في ليلة القدر التي تصادف في ٢٧/رمضان أن يرزقه ذرية صالحة، ومن المعلوم أن ليلة القدر يستجيب فيها الله تعالى لمن يدعوه.

٥ ـ العنزة هم في حالة حرب دائمة بعضهم بعضاً، إلا أنهم سريعاً ما يتحدون ضد أي خطر خارجي. مثلاً صادف في إحدى المرات أن كان كل من العمارات والسبعة والفدعان على عداوة شديدة مع الرولة. لكنهم سريعاً ما اتحدوا ضد الدهامشة في إحدى المرات... إلخ.

٦ ـ تعتبر قبيلة شمر العدو الـرئيس للعنزة، وهذا العداء مستحكم منذ قديم الزمان.

٧ ـ إن قبيلة الحويطات تنتشر في الجنوب ـ الغربي من مناطق إقامة العنزة، ما بين الوجه وعمّان وهم على عداوة منذ قديم الزمان.

الملحق رقم (٢)

بعض شيوخ البدو ممن عرفناهم

- عنزة
  - فهد بك الهذال
  - محروث الهذال
  - نوري الشعلان

  من مجموعة العمارات

- عنزة
  - فرحان بن مشهور «متوفى»
  - فواز بن نواف الشعلان
  - حمود السويط «متوفى»

  من مجموعة الرولة

- الضفير
  - حنتوش السويط
  - جدعان السويط
  - جالي بن جريد

- المطير
  - فيصل الدويش «الدوشان» «متوفى»
  - بندر الدويش «دوشان»
  - حميدي الدويش «دوشان»
  - هزاع بن بدر «دوشان»
  - محمد البدر «دوشان»
  - ردان الصور «دوشان»
  - مطلق الصور «دوشان».
  - شقير بن شقير «دوشان»
  - ماجد الأصقة «دوشان»
  - تركي الأصقة «دوشان»
  - فيصل بن شبلان «جبلان»
  - هايف الفقم - «صهبة»
  - علي الشويربات «برزان» «متوفي»
  - عُوَيِّدْ المطرقة «الدياحين»
  - ابن جربوع «برزان»
  - لافي المعلث «برزان»

- عوازم - الأمير ابن جامع، «هدلان»
- ابن دري (سعيير)
- الملعبي.
- حيف الحثلان «أبو الكلاب» حثلان «متوفى»

- عجمان - الدمير «عبدالله الدامر» ضاعن.
- خالد الحثلان «زب سحمان»
- حزام الحثلان «متوفى» الحثلان.
- سالم الأذين «المسره» ومحمد ابنه.
- ابن مكراد «خالد» المحفوض.
- هيف بن حجرف «السليمان»
- نهار المتلقم «المتلقم» (متوفى)
- عبيد المتلقم «المتلقم».
- عنيزان بن منيخير «السفران» (متوفى).
- فهيد بن فهد الحثلان «بطن السليم».

- عجمان - شيخ مانع بن جمعة شيخ مشايخ الضاعن «متوفى»
- الشيخ منصور الناصر
- شُخَيِّر بن طواله، «متوفى» (أسلم).

- شمر - مشيل بن طوالة «أسلم»
- محمد الوجعان «أسلم»
- مرشد بن طواله «أسلم».

- عتيبة - نايف بن حميد «الحميد»

ملحق رقم (٣)

لائحة بأسماء السيدات البدويات صديقات زوجتي

عنزة: - نورة بنت فهد بك الهذال، أخت الشيخ محروث، زعيم قبيلة عنزة، مجموعة العمارات.

المطير: - عمشة بنت محمد الدويش، زوجة فيصل الدويش.
- غالية - مزيونة - وضحة: أخوات فيصل الدويش.

ـ عمشة بنت فيصل بن شبلان «زوجة هزاع البدر الدويش».

ـ ....

ملحق رقم (٤)

ملاحظات حول الصوم

يعتبر شهر رمضان من الأشهر المقدسة لدى المسلمين، وترتيبه التاسع في ترتيب الأشهر القمرية، ويتغير سنوياً بالنسبة لأشهر السنة الشمسية، نظراً لخلاف التوقيت القمري عن الشمسي.

ومن المعروف أنه خلال الصيام يمنع شرب الماء أو تناول الطعام. ووقت الصيام يمتد من قبل ساعتين من شروق الشمس حتى غروبها، وهذه القاعدة ثابتة أينما كان، وليس فقط الأكل والشرب من الممنوعات فهناك التدخين أيضاً، وحتى الحمام ويحق للمرأة الحامل، والمرأة المرضعة الإفطار إذا كانت تقتضي حالتها الصحية، بشرط إعادة الصيام في أيام أخر. كذلك إذا كان أحدهم على سفرٍ أو في مرضٍ فله حق الإفطار أيضاً مع عدة من أيام أخر.

ملحق رقم (٥)

العادات العربية في قسمة الأملاك

ليس من السهل الحديث عن هذا الموضوع الشاق أبداً، ولكن سنحاول إعطاء صورة موجزة بقدر الإمكان فيقال إن الأراضي في شبه الجزيرة العربية تعود الملكية فيها حسب الطريقتين التاليتين:

أ ـ أملاك خاصة شخصية.

ب ـ أملاك تابعة للقبيلة.

أ ـ **الطريقة الأولى**، تخص عموماً سكان المدن، وتتعلق في أغلب الأحيان بالعقارات السكنية والبساتين، في شبه الجزيرة العربية، وتكون ملكيتها قد آلت إلى هؤلاء، إما عن طريق الشراء أو عن طريق الوراثة، وهي الحالة الغالبة، وتقسم تلك بين الورثة حسب أصول الشريعة الإسلامية، لكن بعد وفاة المورث، وطبقاً للقاعدة

التي تقول للذكر مثل حظ الأنثيين، بين الذكور والإناث ممن يحق لهم الحصص من تلك التركة. لكن القاعدة العامة والأكثر شيوعاً أن تبقى تلك التركة بيد الأخ الأكبر الذي يديرها ويشرف عليها، ويوزع إنتاجها بين الورثة، لكن المشكلة، أنه في أغلب الأحيان، تبقى تلك التركة بين أيدي الورثة دون توزيع إلى مدى عدة أجيال فيتعدد الوارثون وقد يطالب أحدهم بتوزيعها، أو أن يطالب بحقه ممن يشرف عليها، وكثيراً ما تكون سبباً في نزاعات تمتد طويلاً، وتؤدي إلى نتائج وعواقب وخيمة.

ويسعى العرب أمثال هؤلاء إلى حماية ملكيتهم بأن لا تخرج إلى أيدي الغرباء، وهذا هو أحد أسباب التزاوج بين أبناء العمومة والأقارب.

وهناك أمثلة عديدة في الكويت شاهدة على مثل ذلك، فهناك مثلاً بساتين التمور التابعة لعائلة الشيوخ في الكويت، أي عائلة الصباح، وتقع هذه الأملاك في شط العرب، وتدار منذ سنين عديدة من قبل حاكم الكويت نفسه، ويقوم بكل ما يلزم بتوزيع ما تدر به على المستحقين.

كما تجري نفس الطريقة في الرياض. حيث يشرف ابن سعود شخصياً على أملاك عائلته، من البساتين والأطيان، هذا كما كانت تطبق نفس الطريقة من قبل عائلة السعدون في الماضي، والنقيب في البصرة.

ب ـ **أما في الحالة الثانية**: فمن المعروف في شبه الجزيرة العربية، أن كل قبيلة تملك عادة بعض الأراضي المخصصة لرعي قطعان ماشيتها، بما في ذلك آبار المياه التي توجد عادة فيها، ففي هذه الحالة، تعتبر تلك الأملاك أملاكاً عامة لجميع أفراد القبيلة، ولكل فرد في القبيلة حق التمتع بها، برعي ماشيته في هذه الأراضي، وتحدد عادة هذه المناطق بدقة ويعرف كل فرد في القبيلة عادة هذه المناطق وحدودها بدقة.

وقد يقوم شيخ القبيلة بتوزيع مناطق الرعي بين بطون قبيلته عند اللزوم، كما قد يقوم بتوزيع الآبار أيضاً.

ملحق رقم (٦)

الطرق

١ - طريق السيارات من الكويت حتى الزبير والبصرة.

أ - ان هذا هو الطريق الوحيد في الكويت الذي يستحق أن يسمى طريقاً، وقد افتتح عام ١٩٢٨ وهو صالح للمرور لمختلف أنواع السيارات، وعلى مدار السنة، باستثناء أيام المطر الشديدة، ولمسافة ثلاثة أميال، بين الكويت والجهراء، وهناك مقطع آخر مماثل بين صفوان والزبير.

ب - من مدينة الكويت، حتى مكتب القنصلية البريطانية في البصرة.

جـ - الطريق المارة بالقرب من الجهراء، مروراً بصفوان ثم الحدود العراقية، حيث مركز شرطة الحدود والجمارك، وتبلغ المسافة حوالي ٦٠ ميلاً.

د - إن خطوط الهاتف التي كانت في يوم ما تسير بجانب الشاطىء عن طريق أم القصر وصبيح، غيرت وأصبحت تمر بالقرب من طريق السيارات، في عام ١٩٣١.

٢ - طريق السيارات من الكويت إلى الرياض.

أ - تم إنشاء هذا الطريق بعد الزيارة التي قام بها شيخ الكويت إلى السعودية بزيارة رسمية عام ١٩٣٢، ولم يكن هناك طريق يلائم مرور السيارات.

ب - وهناك طرق ترابية تصلح لمرور السيارات في فصل الصيف.

جـ - الطرق التالية ترابية صالحة لمرور السيارات من الكويت إلى الشدادية، ثم المناقيش، خبرات، وضحة، قرية العليا، فرماح فالرياض.

وهناك طرق أخرى مختلفة تصلح لسير السيارات.

ملحق رقم (٧)

الشُّرُف - الإبل السوداء المشهورة التي تربى في قبيلة المطير

تعتبر الشُّرُف (نوع من الإبل) مكان فخر واعتزاز قبيلة المطير منذ زمن بعيد، ممن يقيم في وسط وشمال - شرق شبه الجزيرة العربية، وهي بلون أسود غامق.

وينظر إليها في قبيلة المطير وكأنها شيء مقدس، ويهتم أفراد القبيلة كثيراً في

هذا النوع من الإبل، ويستخدمونها في الحرب والسلم. كما أن لهذا النوع من الإبل رعاته الخاصون.

هذا ويقال أيضاً إنها تفوق الأنواع الأخرى مثل تلك التي يطلقون عليها اسم «المركب» وهذا النوع الأخير من الإبل يربيه بدو الرولة.

وتستخدم الشُّرُف في الحرب بين القبائل كثيراً، ونادراً ما تجد مطيرياً لا يملك ذلولاً من نوع الشرف.

ملحق رقم (٨)

الحشرات في الكويت

تعتبر مناطق الكويت ـ لا سيما المناطق الواقعة على الشاطىء، ـوهذا ينطبق على جميع مناطق شاطىء الخليج العربي ـ غير مدروسة بشكل جيد من ناحية أنواع الحشرات التي تعيش في تلك المنطقة. وقد قمت بمحاولات ـ أنا وأفراد عائلتي ـ لدراسة أنواع الحشرات، وكل ما يخص هذا الأمر، وقد شاركنا في هذا المجال بعض المختصين، أمثال السيد «ج. ي بريات» وهو من المعهد الملكي الخاص بعلم الحشرات. ويقال إن جميع أنواع الحشرات التي تعيش في المنطقة قد تم نقلها إلى متحف التاريخ الطبيعي البريطاني. هذا وقد تزود ذلك المعهد بأنواع لم تكن معروفة من قبل. ويمكن الاستنتاج أن الحشرات في الكويت هي أقرب للحشرات الموجودة في إيران من تلك الحشرات الافريقية.

ملحق رقم (٩)

الجرابيع

الجربوع: تسمية عربية لنوع من الحيوانات التي تشبه الفئران. ويميز منها نوعان:

أ ـ **القورطي:** وله آذان قصيرة مدورة.
ب ـ **الشرثي:** وله آذان طوال.

ينتشر النوع الأول كثيراً في المناطق القريبة من مدينة الكويت، كما يشاهد كثيراً منها في المساء عندما تحاول بعضها الركض على الجدران أو عند محاولة البعض منها الدنو من الأطعمة التي يمكن أن توجد على الأسطحة أحياناً. وتختار جحورها في المناطق الحجرية، أو الكثيرة الحصى.

هذا ويصعب العثور على هذه الثقوب أو الجحور نهاراً، نظراً لاغلاقها من الداخل من قبل الجرابيع. أما في الليل فتظهر عندما تخرج للبحث عن الطعام وتتركها مفتوحة.

أما النوع الثاني، من الجرابيع من ذوات الآذان الطويلة فتوجد غالباً في مناطق الدهناء في صحراء الصمان، على ٢٠٠ ميل إلى الجنوب ـ الغربي من الكويت. وهي من النوع الأصغر من النوع السابق، كما أن شعر شوارب تلك الجرابيع ليست طويلة، أما الأذناب فلها شعر أسود عموماً.

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى أن البدو يصطادون الجرابيع ويأكلونها.

ملحق رقم (١٠)

أنواع الأسماك في الكويت

اسم السمك	أوقات وجودها	أماكن وجودها	ملاحظات
بطان	في فصل الربيع وفصل الخريف	فشت الهديبة	بيضاء اللون مع زعانف صفراء، لهذا النوع صفات مثل الشعم، والشعري يبلغ طوله حوالي ١٢ إنشاً.
بنت النخودة	فصل الشتاء	مزاوة، شمال العكز وفي الغضي	لونه أبيض، يصل طوله إلى حوالي ١٢ إنشاً. زرقاء وسوداء.
البيةْ	فصل الشتاء	مزاوه	من النوع المسطح الأبيض، مع زعانف مائلة للصفرة ولها ذنب طويل.
الضلة	فصل الصيف	مزاوة	من النوع الأبيض مع زعانف صفراء وذنب طويل.
الدق			الرفيل، أو خنزير البحر، لا يصاد للأكل وإنما لاستخراج زيته.
الدويلمي	فصل الصيف	مزاوة	سمك طويل حوالي ٣٦ إنشاً.
الفترة			سمك كهربائي، لا يؤكل، ويستخدم لمداواة الحمى.
الفرش	فصل الخريف	البخش، رأس العشيرج	سمك بلون أبيض مع بقع سوداء ٢٤ إنشاً.

اسم السمك	أوقات وجودها	أماكن وجودها	ملاحظات
الحلوة	فصل الربيع	مقابل مدينة الكويت	يشبه الزبيدي غير أن هذا بلون رمادي
الحمام	فصل الربيع	على طول الخليج	يسمى أيضاًالقرفة سمك بلون أبيض، مع زعانف صفراء بطول ٨ إنش.
الحميسة			السلاحف، لا تؤكل، تستخدم لمعالجة داء المفاصل.
الحمراء	الربيع والخريف	رأس الأرض	سمك من النوع المسطح تشبه نوع الشعم إلا أن اللون أحمر.
الحمور	الصيف والخريف	ركسات الجزيرة في القنال بين جزيرة القرين وأم النمل	حوالي ٣٦ إنشاً طول، بلون رمادي مسمر مع نقاط سود.
العاقول	الصيف	على طول الخليج	حوالي ١٢ إنشاً حيات بلون أبيض.
الهف	الربيع	على طول الخليج	من النوع الرفيع والطويل، وبلون أبيض غالباً، وأكثر من ٤٠ إنشاً.
الجرجور	كل الفصول	على طول الخليج	سمك القرش ومنه عدة أنواع، ويؤكل فقط المسمى الوالد، إلا أن اتباع المذهب الشيعي لا يأكلونه.
الكنعد	الربيع	رأس الأرض والبدع	وهو من نوع السلمون الهندي، بلون أبيض، طوله حوالي ٢٤ إنشاً. نادر الوجود.
الخبط	الشتاء	رأس الأرض	رفيع بلون أبيض، بطول حوالي ٢٠ إنشاً.
الكمه	الربيع	على طول الخليج	سمك بلون أبيض، بطول يصل إلى ١٢ إنشاً.
اللخمة	كل الفصول	على طول الخليج	سمك من النوع العريض، خشن، رمادي اللون، يصل طوله إلى ٦٠ إنشاً، لا يأكله أتباع المذهب الشيعي.
الميد	الخريف	بنيد القار والحسرة	سمك بلون أبيض بطول ٦ إنش.
المزلقان	الخريف	عكاظ والغضي	مسطح، بلون رمادي، بطول ٩ إنش.
الناقور	الربيع والخريف	مقابل مدينة الكويت	سمك بلون أبيض بطول يتراوح بين ١٢ - ١٨ إنشاً.

اسم السمك	أوقات وجودها	أماكن وجودها	ملاحظات
النوبي	الشتاء والربيع	مقابل مدينة الكويت	بلون أبيض مسطح، يشبه الناقور إلى حد بعيد.
القرفة	الربيع	على طول الخليج	يسمى أيضاً بالحمام بلون أبيض، بطول ٨ إنش.
الربيان	الربيع ومطلع الصيف	المزاوه	القريدس.
الصبور	الربيع والخريف	المزاوة	سمك بلون أبيض بطول ٢٠ إنشاً.
الساف	الصيف	رأس الأرض وبدعة	لونه أبيض وبطول ٢٤ إنش.
الشعم	الصيف والخريف	شمال ـ غرب الخليج	أبيض مع نقط سوداء بطول ١٢ إنشاً.
الشاري	الربيع والخريف	رأس الأرض	بطول حوالي ١٢ إنشاً بلون أسمر فاتح.
الطلة	الربيع	مزاوة	سمك مسطح بلون أصفر.

ملحق رقم (١١)

كتابات حميرية

إدارة متحف الأشياء من العصور القديمة المصرية والآشورية في لندن ٣٠/حزيران/١٩٣٦ مع رسم لحجر رسمت عليه الحروف الحميرية القديمة، تعود إلى الأحرف العربية القديمة ورسائل متبادلة بين كاتب الكتاب، وبعض المتاحف... إلخ. الشكل (٦٨).

ملحق رقم (١٢)

الحملات الأجنبية والغزوات على شبه الجزيرة في القديم

١ ـ اليمن والحجاز — في غالوس ٣٥ قبل الميلاد.

٢ ـ نجران «اليمن» — امبراطور الحبشة، في عهد الامبراطور جستنيان ٥٢٥ بعد الميلاد.

٣ ـ الحجاز — أبرهة، امبراطور الحبشة، ٥٧٧ بعد المسيح.

٤ ـ الحجاز — رونالد دو شاتيون ١١٨٣ بعد المسيح.

٥ ـ الحجاز — السلطان ناصر بن قلاوون، من المماليك، حاكم

الشكل (٦٨) تمثيل الكتابة الحميرية

	مصر ١٣٢٥ ميلادية.	
٦ - الحجاز	طوسون باشا ١٨١١ ميلادية	
٧ - الحجاز	محمد علي باشا ١٨١٥	
٨ - قصيم ونجد	إبراهيم باشا ١٨١٧	حاكم مصر
٩ - عسير	أحمد باشا التركي ١٨٣٥.	
١٠ - الحسا	حملة تركية بقيادة مزيد باشا السعدون من العراق ١٨٧١ - ١٨٧٢.	
١١ - قصيم	حملة تركية من العراق ١٩٠٣ - ١٩٠٥.	
١٢ - مداين صالح ووادي السرحان	عمليات قام بها لورنس خلال الحرب العظمى ١٩١٦ - ١٩١٨.	

ملحق رقم (١٣)

الزواج بين أحد الشرفاء وغير الشرفاء

كان لي بتاريخ ١٧/كانون الثاني/١٩٣٨ حديث مع الشيخ مرشد بن طوالة، أحد مشايخ شمر، حول موضوع الزواج ما بين القبائل العربية. فقال مثلاً إن عربياً من حسب ونسب مثله (أي الشيخ مرشد)، لا يمكن له أن يتزوج من فتاة من الصلبة، أو عازمية أو من الرشايدة، أو من هتيم، لأن أفراد قبيلته من شمر سيقتلوه إذا قام بذلك.

وأضاف أيضاً: حقاً إن الأمير عبد العزيز الرشيد، حاكم حائل قد خسر رأسه بسبب مغامرته واستمتاعه بضع ساعات مع فتاة صلبية جميلة، رغم أنه لم يتزوجها، وقد انتشر الخبر، فتخلى عنه ابن شريم وغيره، وجميع المشايخ في شمر، وقد توجه في البدء إلى العراق، وكذلك قام بمثل ذلك عقاب بن عجل، وكانت نتيجته القتل. على أي حال، فإن الزواج من أخرى أقل مرتبة بنسبها من الأمور المستهجنة جداً، والنتيجة هي الموت لمن يتجاوز ذلك.

ملحق رقم (١٤)

موت الكابتن شكسبير في الكويت

ذكرت في أحد الفصول السابقة، معركة الجراب التي قتل فيها الضابط المذكور بتاريخ ١٩١٥. وقد تباحثت مع الملا صالح حول الموضوع في الكويت، وقال إنه بتاريخ ١٩/تشرين الثاني/١٩١٤ وبينما كانت قواتنا لا تزال في سيحان مقابل

الحمرة، زار شكسبير السير ب. كوكس، والسيرآرثر باريت، وكانا في قيادة القوات البريطانية، ومن هناك تلقى أمراً بالتوجه إلى نجد، لزيارة ابن سعود.

انطلق شكسبير من الكويت في الوقت الذي وصل فيه اللورد هاردينغ إلى العراق، «كانون الثاني وشباط ١٩١٥» وكان على اللورد هاردينغ زيارة الكويت، بعد زيارة ومشاهدة معالم البصرة، وزيارة القطعات العسكرية المتمركزة هناك، وقد نصح الشيخ مبارك شكسبير أن يؤجل سفره حتى بعد زيارة اللورد الكويت، إلا أنه لم يستطع إقناعه، وأصر على السفر، وعندما كان اللورد هاردينغ في الكويت «شباط ١٩١٥» وصلت أنباء إلى الكـويت أن شكسبير قد وقع في جراب عندما حاول مساعدة أحد رجال ابن سعود.

ملحق رقم (١٥)
صرخات الحرب عند القبائل «النخوة»

نعطي بعض الأمثلة عن بعض صرخات الحرب «النخوة» لدى بعض القبائل الهامة في شبه الجزيرة العربية:

أ ـ بطـن السعود «العوجة» «أنا أخو نورة» «أنا ابن مجرن».

ب ـ بيت الصباح «أنا ابن سالم»، «أنا أخو مريم».

جـ ـ قبيلة شمر «سنيس» وهي صرخة مشتركة لجميع شمر.

د ـ قبيلة عجمان، «موسعة الحدان، وأنا ابن العجم»، «مفراص الحديد، وأنا ابن العجم»، «سفر سيفي الموت» «وأنا سيفي الموت، وأنا لها».

هـ ـ المطير «علوة علوة هل الردات».
«جبلان» «خيال الصبحة» «الجبلي».
«الموهه» أولاد المويهي «البذا» أنا ابن مدوش.
«واصل» «أولاد واصل» «الرحمن وأنا ابن واصل».
«بنو عبد الله» «أولاد عباد».
«السعران» «العشو» «أنا ابن علي».
«الصهبة» «خيال الصبحة» «مشى بي».

و ـ العوازم «عطوى» «أولاد عطا».

ز ـ الرشايدة «الدعيجي» «مر الدلال دعيجي» «خيال الصبحة» «الدعيجي».

حـ ـ حرب «أنا ابن علي».
ط ـ عتيبة «أهل العطية» «أنا ابن روق».
ي ـ الضفير «الغروة، سويتي» «صبحة طمه».

ملحق رقم (١٦)

دم أحد بطون قبيلة المطير «البرزان»

أعلمني الشيخ صباح الناصر بتاريخ ١١/أيار/١٩٥٠ ما يلي:

١ ـ كان داء الكلب من الأمراض غير المعروفة في الماضي، في الحسا والرياض، والربع الخالي ـ جزء من شبه الجزيرة العربية ـ ومن الظاهر أن وجوده كان يقتصر على الحدود الشمالية للعربية السعودية، وعلى جنوب صحراء العراق وعلى الكويت.

٢ ـ قبل ثلاث سنوات (١٩٤٧) عادت الذئاب بأعداد كبيرة، وبلغ عددها حوالي ٤٧ ذئباً، وقد تسببت في انتشار داء الكلب، وقد هاجمت تلك الذئاب السكان في مضارب حرب، في منطقة عجيبة إلى الجنوب ـ الغربي من حفر الباطن. وتسببت هجمات الذئاب هذه في عض حوالي ٩٢ شخصاً، فأرسل الملك بعض القوات المسلحة للقضاء على تلك الذئاب. وقد تم إعطاء ٨٧ شخصاً دماً من دماء البرزان، ممن تعرضوا إلى عضات الذئاب، وخمسة أشخاص فقط لم يشربوا من دم البرزان، كدواء لداء الكلب. وكانت النتيجة أن ٨٧ قد شفوا من المرض ولا يزالون أحياء حتى اليوم. أما الخمسة الآخرون فقد أثر فيهم المرض، وكانت نتيجتهم جميعاً الموت. وقد ذكر لي الشيخ صباح أمثلة أخرى حول الموضوع، تبين جميعها تأثير دم البرزان كدواء شاف لداء الكلب.

٣ ـ أحد الأشخاص البرزانيين ممن استدعاهم الشيخ صباح أعطى المعلومات التالية:

أ ـ يقول إنه عريق المحتد كبرزاني «مطيري» منذ أكثر من ١٥٠٠ عام، وكثيراً ما طلب منه تقديم كمية من دمه لأشخاص أصيبوا بداء الكلب.

ب ـ وعند استدعائي لإعطاء الدم، أقطع وريداً صغيراً في رسغ يدي، وأطلب مقابل ذلك ريالاً واحداً فقط، ويشرب المصاب من دمي، وينتظر ٤٠ يوماً، فإذا سارت الأمور على ما يرام فيدفع لي أيضاً ٣٠٠ ريال أخرى أو ناقة يبلغ ثمنها ٣٠٠ ريال.

جـ - من الضروري أن يشرب المصاب بداء الكلب دم البرزاني قبل فوات ٢١ يوماً من بدء حادثة العض - وإلا فالوقت سيكون متأخراً جداً، واحتمال الشفاء يصبح أمراً صعباً.

د - لمعرفة إذا كان الذئب، أو الكلب، أو الثعلب، مصاباً بداء الكلب، يجب قتل الحيوان، وفتح قلبه، فإذا عثر فيه على يرقة سوداء فالحيوان مصاب ولا شك ، وإلا فلا.

هـ - لقد أعطيت أكثر من ٣٠٠ مصاب حتى الآن ممن تعرضوا لعضات الذئاب أو الكلاب المصابة بداء الكلب.

و - إذا انتشر داء الكلب في جسم الانسان، يكره ذلك المصاب رؤية المياه، كما يكره النباح والعواء ويصبح ذهنه صافياً متوقداً، وهناك بعض من يصاب يبدأ بالصراخ قائلاً: إنه يريد أن يعوي..

ملحق رقم (١٧)
قبيلة هتيم
موطنها بين حائل وتيماء

- الشيخ ابن براك.	
- شيخها العظيم	ناصر بن صموث بن براك
- ابن عم ومساعد	ناهي بن فديغان
- ابن عم ومساعد	عواد بن براك
اسم الشيخ	**اسم البطن**
- ابن هادي	- الهادي
- ابن شميلان	- غليدان
- ابن قعبوب	- القعبيب.
- ابن سمرة	- الذيبة
- ابن نومس	- النومس
- ابن شويلة	- الشوالة
- ابن مريف	- الخيرات
- ابن زبنة	- الزبون
- ابن عدلة	- العوامرة

- هديبان بن عواد
- ابن فريدة
- ابن الرفدان
- ابن دموك
- ابن عُزَيِّز
- ابن هون
- ابن بويدي
- ابن حمود
- ابن سمير
- ابن جولان
- ابن عربيجة
- ابن عجوان
- ابن مشعل

- المهيمزات
- الفردسة
- نيمان
- الدموك
- العراره
- الهوينة
- البويدي
- الحمود
- الرافيه
- المثبيره
- الرويثات
- العجيوان
- المشاعلة

يقال إن الشيخ ناصر من الشرارات، لكنه من نفس الأصول: هتيم.

- وإلى الشمال من مناطق إقامة هتيم. هناك ولد سليمان.
- وإلى الجنوب منهم، بنو عبد الله، والقحطان، وعتيبة... إلخ.
- إلى الشرق، شمر.
- إلى الغرب، هناك قبيلة حرب.

ملحق رقم (١٨)

قصة المنتفك

إضافة ما جاء في الفصل (٤٥) حول المنتفك هذه بعض المعلومات.

يقول السيد (ج. ج. كامبل). وهو خبير في شؤون قبائل المنتفك التي تقطن مناطق الفرات، إنه اكتشف بعض المعلومات القيمة الدقيقة: تبين تلك المعلومات أن المنتفك كانوا متحالفين مع الأتراك لم ينهزموا ولم يستسلموا أو يخضعوا إلى الفرس خلال الفترة التي احتل فيها الفرس البصرة لمدة ثلاث سنوات من قبل الشاه كريم خان، (١٧٧٦ ـ ١٧٧٩) بل على العكس، لقد سببت هجماتهم فشلاً ذريعاً للفرس بالقرب من البصرة بشهر تشرين الأول عام ١٧٧٨ في المكان الذي يطلق عليه اسم

«عرجة». وتشير تلك المعلومات التي قدمها كامبل، بتاريخ ٢٢/ نيسان/ ١٩٥٠ إلى ما يلي:

إن انتصار المنتفك على الفرس في عرجة، وراجيه، (بالقرب من البصرة) معروفة بالنسبة لي وهي:

أ ـ إن المصادر العربية أكدت جميعها انتصار المنتفك.

ب ـ التاريخ الفارسي، الذي يذكر بحياة محمد خان أشار إلى فشل الشاه أمام المنتفك وأنه قتل على أيدي العرب في تلك المعركة. كما أن علي محمد خان، كان الضابط الذي كُلّف بقيادة البصرة من قبل صادق خان وهو القائد العام الذي استولى على البصرة. ويقول النص الفارسي إنه بعد هزيمة محمد ومقتل صادق خان، عاد إلى البصرة وأدار المعركة في محاولة للاحتفاظ بالمدينة، إلا أنه لم يصمد طويلاً، وهرب من المدينة بعد مقتل الشاه كريم خان زند، في ١٧٧٩ م، في ١٣ صفر/ ١١٩٣ هجرية.

جـ ـ هناك أيضاً (ايفرسفيلد) رحالة إنجليزي، وضابط سابق، زار ميدان المعركة في «عرجة» بعد خمسة أشهر من نهاية المعركة، عندما كان في طريق عودته إلى إنجلترا عن طريق البصرة ـ بغداد ـ حلب، المباشر، وقد كتب حسبما نقله «كامبل» عنه، ما يلي:

١٦/آذار/١٧٧٩ .... في شهر تشرين الأول عام ١٧٧٨ حدثت معارك في مكان يطلق عليه اسم (العرجة)، وقد مررت بهذا المكان بغرض الدراسة، وأمضيت فيه ثلاث ساعات. وقد حاولت أن أفهم سبب المذبحة هنا التي ارتكبت بسبب تهور وطيش علي محمد خان، القائد الفارسي... فقد وصلنا الساعة ٢ بعد الظهر إلى سهل العريجة أو العرجة، الممتد من البصرة، ويصنع نهر الفرات في هذا المكان ما يشبه الذراع ويمتد إلى مسافة ثلاثة أميال بشكل دائرة، وفوق شاطىء النهر الذي تم القتال عليه بين العرب والفرس وكان العرب من قبائل المنتفك، يتألفون من حوالي ٨٠٠٠ خيال، أما الفرس فكان عددهم حوالي ٦٠٠٠ خيال يضاف إليهم ما يماثلهم من المشاة، وقد بدأت المعركة بهجوم عنيف من الجانب الفارسي، إذ اندفعت خيالتهم بسرعة في البداية. وكان العرب قد حضروا أنفسهم بشكل جيد للمعركة، وهم مشهورون باستخدام الخيول في الحرب، وكانوا يستخدمون الرماح القصيرة وقد قذفوها بدقة في وجه

الهجوم الفارسي، وسرعان ما تحول ذلك الهجوم إلى هزيمة إذ حول من نجا منهم رأس حصانه إلى الوراء، دون أن ينظر ولو نظرة إلى الخلف، وتابعهم العرب إلى أن وصلوا إلى مناطق مستنقعية حيث واجهتهم قوة معدة سلفاً، بينما كانوا في نفس الوقت مطاردين من الخلف، وهكذا وجد الفرس أنفسهم في وضع سيىء للغاية، وحاولوا التملص من المعركة، لكن دون جدوى لاسيما في أراضي مرزغية مستنقعية. ولم ينج منهم سوى ثلاثة خيالة وعدد من الجرحى فروا هاربين إلى البصرة، أما الباقون فقد قطعتهم سيوف العرب ورماحهم، وامتلأت الحقول بجثثهم. هذا وقد مشينا في حقل المعركة، فشاهدناه مكسواً بعظام المقاتلين الفرس، وقيل لنا من عدة مصادر إن العرب لم يخسروا في تلك المعركة سوى ٢١ قتيلاً فقط، وقد غادرنا ذلك المكان الموحي بالوحشة والرهبة.

ملحق رقم (١٩)

نضيف إلى الفصل السادس، (حول ما جاء عن مجموعة العقيل) ما يلي:

ليس صحيحاً أن نعد (العقيل) أو (العقيلات) من بين القبائل غير ذات الحسب والنسب، أو اعتبارهم من القبائل الدنيا، أو من القبائل غير «الشريفة». وعلى كل حال لا ينطبق عليهم ما ينطبق على القبائل من صفات، فهم تجار جمال، ويقيمون في بغداد، وفي دمشق، وفي القصيم، هذا وإن أي بدوي يمكن أن يصبح عقيلياً، سواء أكان من قبيلة ذات حسب ونسب أم لا، وليس للموضوع من صلة أبداً. ولهذا نجد الكثيرين من العقيل كان ينتسب إلى أصول عريقة، وهناك بعض آخر من الجماعات الوضيعة. فمثلاً بيت البسام العظيم فهم ليسوا عقيلية فقط، بل يعتبرون أيضاً عقيلية من ذوي الحسب والنسب العريق جداً.

ملحق رقم (٢٠)

ملاحظة حول كلمة (الدية)

١ ـ يقال دية القتيل في الحال التي تتم فيها تسوية القتل بدفع مبلغ من المال.

٢ ـ قد يعود أصل الكلمة إلى مفهوم الرجل القاتل.

٣ ـ يقول القرآن الكريم في هذا ﴿وإن كان بينكم وبينهم عداوة فدية مسلمة إلى أهلها﴾.

ملحق رقم (٢١)

بعض الأسماك في الكويت

هناك أنواع أخرى عديدة يمكن أن تضاف إلى أنواع الأسماك التي ذكرت في الملحق رقم (١٠) منها:

- شيم، لها زعنفتان تحت الشفة السفلى.
- نقرور، لها ألوان قزحية خضراء وراء الرأس، ولها زعانف خشنة، كما لها ذنب مربع.
- بياه، لها زعانف حمراء في أحد جوانبها.

ملحق رقم (٢٢)

إضافة إلى ما جاء حول مرض السفلس

بتاريخ ٢٦/أيار/١٩٤٦ أعلمني الشيخ نجير بن سلطان المهيلب من قبيلة المطير، «بطن البريه» أن أوراق شجيرات الصحراء المعروفة الثلاث التالية:

أ - القيصوم «الجيسوم».
ب - العشية - الشيح.
جـ - الحرمل.

على أن تكون جافة تستخدم ولها تأثير فعال عند البدو لمداواة مرض السفلس. عندما تدخن في غليون.

ملحق رقم (٢٣)

طعام الإبل

في المناطق المحيطة بمنطقة آبار حفر الباطن وفي منطقة الوديان «الحدود بين العراق - والعربية السعودية» هناك تتوافر كميات كبيرة من شجيرات «القيصوم» لكن لا تأكله سوى الإبل، ولا سيما في فصل الخريف، ولكن لا تقترب منها في وقت مبكر من فصل الربيع.

أما قطعان الغنم، فتأكل القيصوم فقط في فصل الصيف.

ملحق رقم (٢٤)

إضافة إلى مفهوم المنيحة

إن مفهوم كلمة المنيحة وحدها، وليس مع « الذبيحة » فإنها تعني إعارة أو تأجير أو منح شاة أو نعجة لاستخدام حليبها من قبل أحدهم خلال مدة معينة. وعندما تنتهي مدة الحليب تعاد إلى صاحبها.

ملحق رقم (٢٥)

إضافة على مراكب السفر

أ – إن طلب النجدة في حال الضرورة من قبل المراكب الكويتية هي « الكويتي » وترفع عادة أيضاً راية سوداء أو « بشت » على السارية.

ب – في أعالي البحار، وإذا احتاج البحارة الكويتيون ماء أو طعاماً من بواخر عابرة بالقرب منهم فيرفعون علم بلادهم وسيعرف ربابنة البواخر الأخرى معنى ذلك.

ملحق رقم (٢٦)

إضافة إلى ما ذكرناه حول القبائل، نشير هنا إلى أن الصلات بين آل السعود، وآل الصباح، وآل خليفة هي:

إن هؤلاء جميعاً يعودون إلى « عنزة ».

أ – فآل السعود، متحدرون من المصاليخ، أحد بطون الرولة.

ب – آل الصباح، متحدرون من فخذ البجايدة من الجبل، « هناك من يقول إنهم من أصل الدهامشة ».

جـ – آل الخليفة، متحدرون من الرباع، أحد بطون الجبل، « ابن هذال ».

عندما يكون الحديث عن مجموعة العمارات فالمعني عندها، بطون الجبل والدهامشة، بطون من عنزة.

كان الشيخ مِجْوَلْ المصرب، أقوى شيوخ السبعة قبل ستين عاماً.

يقال إن بني العطية من الحجاز هم متحدرون من عنزة، من الويل.

يقال إن الشيخ مشاري بن مسيس، شيخ مشايخ الواصل، أحد بطون المطير، هو أيضاً من الدهامشة.

ملحق رقم (٢٧)

تضاف إلى وسم الإبل

١ - تضاف تحت قبيلة المطير، العماش، «الرويكيب» على الخد الأيسر.

٢ - تضاف تحت بني خالد «ابن منديل» على الفخذ اليمنى.

٣ - تضاف إلى قبيلة المرة.

أ - نغادان « المقص » أسفل الفخذ اليمنى.

ب - محمد بن سالم، على الجانب الأيسر من الرقبة.

ملحق رقم (٢٨)

تضاف إلى نهاية كتاب سليمان

لقد أضاف لي عما ذكرته عن النمل الشيخ سالم المري بتاريخ ١٥/ نيسان/ ١٩٤٨ وأكد لي ذلك فيما بعد صالح الأحيمر، وكلاهما ممن اشتهر في تتبع الأثر من قبيلة مرة.

وأكد لي كلاهما أن الدائرة يجب أن تصنع بعكس عقارب الساعة، كما كرروا القول إن الدائرة تصنع إذا لم تلاحظ النمل عند التخييم.

ملحق رقم (٢٩)

الزكاة

- لا زكاة على رؤوس الإبل الخمس الأولى.
- وإذا زاد العدد عن الخمسة، تدفع خمسة ريالات عن كل الرؤوس، حتى الرقم ٩.
- وإذا كان العدد عشرة أو أكثر، عندها تدفع عشرة ريالات.
- أما إذا وصل العدد إلى الخمسين عندها يدفع ١٥ ريالاً.
- في حال الأغنام. تعفى حتى الأربعين من الزكاة.
- أما ما فوق الأربعين، حتى لو رأساً واحداً من الغنم، يدفع عندها ٨ ريالات.

الفهارس



الأعلام

أ

خ

د

ر

ز

ن

الشعوب والأقوام والقبائل وفروعها

أ

ب

ت

ث

ج

ح

ن

الأماكن

أ

خ

د

ل

م

ن

هـ

و

ي

الأدوات

أ

ب

ث

ج

ن

هـ

و

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة